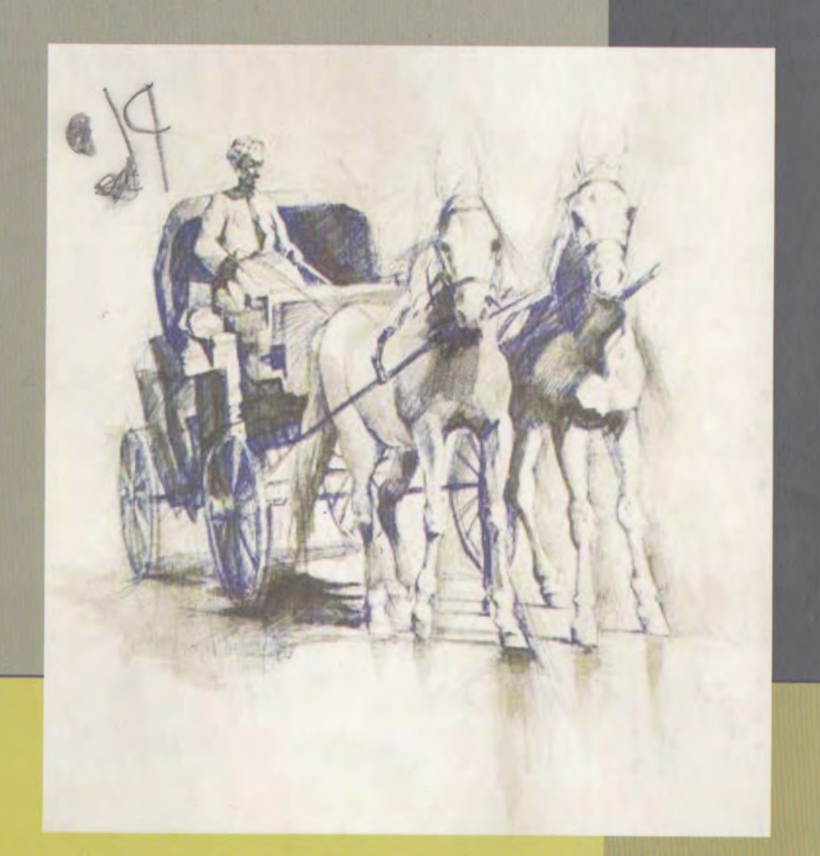
ثلاثية بعقوبة ..
بَعقوبيّون



رواية

أحمد خالص الشعلان

ثلاثية بعقوبة ..
بَعقوبيِّون

أحمد خالص الشعلان

رواية



عراق - بغداد -شارع المتنبي
٠٧٧٠٢٩١٠٠٩٠
email-daraljwahere@yahoo.com

الجزء الأول من
ثلاثية بعقوبة .. بعقوبيّون
رواية أحمد خالص الشعلان

Outlook
Part 1 of
The Ba'qubah Trilogy .. Ba'qubians
A novel by : Ahmed Khalis Al-Sha'lan
....

ISBN : 97899339240033

الطبعة الأولى ٢٠١٧
إصدار دار الجواهري للنشر و التوزيع - بغداد - العراق .

[illegible] (١٠٠٠) [illegible]

First Published by Dar Al Jawahiri for Publishing and [illegible]
Baghdad - Iraq

Cover Design & Lay out Kefah Abduljabbar
Painting of the first cover to Artist Alaa Miry

أصدقائي المَغدورين . .

. . بودي لو أعلم آخر ما تفوهت به شفاهكم بوجه الجلاد !

الحــــــادث ... نيســــــان 1977

أطراف بلدة المقدادية . . في معسكر منصورية الجبل دخل الجندي المكلف مرهون غايب مرهون غرفة آمر الوحدة العسكرية. يؤدى التحية العسكرية للضابط الآمر الجالس وراء مكتبه. و بنظرة من طارف عينه اليمنى، يتفاجأ بوجود حسين الجيراوي عند الضابط . . جالساً و جسمه الضخم الغلبظ يفترش الكنبة المقابلة لمكتب الضابط، لدرجة أن بدانة الرجل المفرطة كادت أن تغطي المقعد كاملاً. و تكون المفاجأ أكبر حين يبتدر هذا الكيان الضخم الجندي الشاب بالسلام، فهو يعلم أن الجيراوي ذا المصالح الواسعة و المتشعبة في بلدة بعقوبة و خارجها كان قد إعتاد من الناس أن يبادرُوه همُ بالسلام و ليس العكس . . و يرى الجيراوي يهم بإنتزاع جسمه الضخم من الكنبة، فيزداد عجبا و هو يسمع الرجل يخاطبه بنبرةٍ فيها مسحةٌ تأثرٍ:

- يَلله وليدي . . يلله نروح! . . إنّا لله و إنّا إليه راجعون!

ينهض الضابط مودعاً الجيراوي . . و الحيرة تكبر في ذهن الجندي المكلف بعد سماعه من فمِ الجيراوي عبارة . . إنّا لله و إنّا إليه راجعون . . ما وراء هذا الرجل البدين؟ . . آيات قرآنية! . . يلله وليدي! . . أراد أن يسأله . . يَلله الى أين؟ . . لكنه حبس الكلمات. حبسها ربما لأنه ما يزال في حضرة الضابط، أو ربما لأنه يعرف بأن الجيراوي نادراً ما

يسمح لأحدٍ بمثل عمره الفتي أن يسأله عن نياته، فأضطر للطاعة بالسير وراء الجسم الضخم المترهل بملبسه الفضفاض . . و ما أن أصبحا خارج الغرفة لمح سيارة الجيراوي المرسيدس الصفراء. و لأنه لا يجرؤ على سؤال الجيراوي . . و لم يكن قد مضى على إلتحاقه بالخدمة الإلزامية في الجيش سوى أسبوعين . . إلهذا علاقة بتسريحه من الجيش . . تسريح؟ . . ما هذا الهراء؟ . . أسبوعين في الجيش و تفكر في تسريح! . . و تذكر فجأة خطته هو و صديقيه بالهروب و الإفلات من قرارات الإعدام التي تنتظرهم إذا إلتحقوا بالجيش بتهمة تأسيس خلايا شيوعية في الجيش . . واحد منهم هرب و لم يتبق غيره هو و زوج أخته أحمد! . . أهذا الرجل الضخم له علاقة بالأمر؟ . . مستحيل! . . أيكون الجيراوي قد توسط بنفوذه لكي ينقلونه الى معسكر سعد في ضواحي بعقوبة؟ . . أممكن هذا؟ . . و لِمَ يفعل؟ . . هراء! . . حتى لو إفترضنا وساطة نقل . . و مع ذلك لِمَ يجيئُ الجيراوي بنفسه ليأخذه من المعسكر؟ . . ما الذي حصل؟ . . و يُعَيَّلُ صبراً فيمسك بأنفاسه، و يحاول أن يستفسر من الرجل الضخم، لكنه خُيِّلَ إليه وجود أثرٍ لدمعتين . . لِمَ الدمع؟ . . ربما توهم أثَرَ دمعتين في عيني الجيراوي، بضغط من الوضع كله و من التأثر الذي نضحتْ من نبرة الجيراوي، بدى له ما توهمه من دمعتين أثراً تافهاً مقارنة ببدانة الرجل المفرطة. و مع ذلك، يخطر ببال مرهون أن ما تخيله في عيني الرجل دمعاً قد لا يكون سوى سوائل زائدة لم تحتمل البقاء في جسمه الضخم، فنفرت و إنسابت هاربة! . . ما هذا؟ . . ما لي و دمعه؟ . . ما لي و دانته؟ . . إنا لله و أنا اليه راجعون! . . لِمَ نرجع الى الله؟ . . و شنو شغلنا هناك! . . و أين هو الله؟

صعد الأثنان الى المقعد الخلفي للسيارة، و يسلم مرهون على السائق. و يرد السائق السلام بعبارات بدت لمرهون أشبه بالنشيج. عندئذٍ وَجِفَ قلبُهُ خشيةَ حصول خطب ما . . آه! . . حادثٌ جللٌ لا بد أن يكون قد حصل! . . و يزداد إنحباس الكلمات في حلقه. و مع ذلك، فان وَجيفَ قلبِهِ مَنَعَهُ من أية إستزادة بالسؤال.

إنطلقت السيارة في الممر الرئيس للمعسكر، تظلله على الجانبين أشجار ليوكالبتوس و كازورينا سامقة مغبَّرةً، و تتجاوز المرسيدس الباب الرئيس، حيث تُلقي الشمس بنورها الساطع الباهر على الطريق و الأشياء المحيطة به على الجانبين، فَيُخيَّلُ لمرهون النهار الربيعي من نهارات نيسان، و كأنه يومُ قيضٍ لاهبٍ.

إلتفت مرهون الى الجيراوي، فواجهه هذا الأخير بوجهه المكتنز، الأقنف و بلغدين منهدلين على صدره، يكادان يسقطان أرضاً. و في أعلى وجهه بانت عين الجيراوي اليسرى لمرهون، كأنها في قلق مستديم، تطلب عوناً من المدى البعيد الذي تنهبه السيارة نهباً . . و من الخشية التي لازمته، يظلَّ مرهون مفضّلا إنتظار مبادرة من الجيراوي بعرض فيها تفسيرا لمجيئه الدراماتيكي المفاجئ، غيرَ أن الرجل المتين البنيان بشحمه ظل عازفاً عن الحديث، أو لعله تهرَّب من الحديث لسبب ما، أو لعله لم يجد حاجة للتفسير، و تجرَّأ مرهون أخيراً على السؤال:

- زين . . عم حسين! . . آني ما إگدر أتصور أنت بالذات تجي لهنا حتى تاخذني بنزهة!

حسين الجيراوي يجاهد . . بسبب ثقل رقبته، أن يلتفت الى مرهون، لينظر إليه نظرة عطف حزينة لا تخلو من تأنيب لمرهون على وقاحته بالمبادرة بالسؤال. و حين نجح أخيراً بالإلتفات الى درجة باتت فيها عيناه كلاهما بمواجهة مرهون تماما، فيدرك هذا الأخير بأن عيني الجيراوي لم تكونا أسيانتين فحسب، بل و غائمتين، فتوجس قلبه شراً، و هو يرى الرجل يخرج منديله لمسحهما. . و عندها فقط خمّن مرهون تقريبا ما حصل . . ها هو موت قد أتى! . . فإجتاحته قشعريرة مفاجئة. و إذ لم يخطر بباله بأن الجيراوي لم يأت الى هنا لأن مكروها حدث لوالدته أو لأخته الصغيرة . . لا بالتأكيد! . . لا فما شأنه بهما! . . و بالتالي لم يكن الجيراوي ليبدو على هذا النحو من الحزن الظاهري أو ليأتي على هذا النحو الدراماتيكي إلا إذا كان أبوه غايب مرهون هو من مات!

و يلقي له الجيراوي بخبر مقتل أبيه في حادث سيارة.

السيارة تندفع بسرعة و نعومة . . و يخيم الصمت فجأة على الموجودين في السيارة، أوجبته طريقة إلقاء الخبر، و بخاصة على مرهون . . ها هو موتٌ قد أتى! . . صحيحٌ أن جدته صافية أمَّ أمِّهِ ماتت و هو ما يزال صبياً، لم يكن آنذاك ليدرك في حينها نوع الفراق الذي يسبّبُه الموت . . ها هو الموت قد أتى! . . و عليه إذن أن يواجه أول موقف له مع الموت . . الأسبوعان الماضيان اللذان قضاهما في الجيش دارت أثناءهما في داخله وساوس الموت المحتمل الآتي إليه لا لوالده بسبب إلتحاقه بالجيش و هو المعروف بإرتباط سياسي ليس هو حزب السلطة . . و تدور الأحاديث عن الموت بطريقة أو أخرى حين يعبِّرُ زملاؤه في التدريب عن خشيتهم من تسويقهم بعد التدريب الى جبال الشمال حيث يموتون فوق الروابيا على الرغم مما تزعمه الحكومة من قضاء على الحركة الكوردية قبل سنتين بإتفاق عقدته مع إيران! . . و لكن ها هو . . و قبل أن يُساق الى رابية من روابي الموت أو غرفة من غرف العذاب ها هو الموت يأتي من باب لا يتوقعه، فيستولى عليه الحدث، و ظل صامتاً لا يريمْ، و كأنه مسمّر في مقعد السيارة، بل و أنه حتى ما عاد يحسّ بالرجل البدين الجالس الى جانبه. . صحيح أن والده قد عوَّدَ أفراد أسرته على فراق طويل و دائم تقريباً من البيت، و لكنه لَم يكن قد جرّب فراقاً أبدياً من هذا النوع لواحد من أهله أو أصدقائه . . قد يكون حسين الجيراوي و سائقه مستمران بتمتمة عبارات المواساة، لكن أذنا مرهون لم تكونا لتسمعا سوى أزيز الريح الخافت جداً، المندفع من الفتحة الضيقة المتروكة من زجاج نافذة السيارة . . آنئذ رسخت لأول مرة عنده فكرة الإيمان بإنعدام حيلة البشر أمام الموت، و كأنه زائر يشبه هذه الريح . . يدخل من طرف و يخرج من طرف، فيأخذ معه شيئا من الحياة، و يشيع مرارة فراق شخص ما، و خسارة شئ ما، حتى لو كان ذاك الشئ تافها . . و تذكر قول صديقه و صهره أحمد عباس شحاذة الناوي على الفرار من الموت . . أني رايح للغربة أبحث عن أجوبة لأسئلة الحياة و الموت!

الوقت يمر . . و لم يدرِ مرهون بالسيارة تتوقف، إلا حين سكنت نهائيا أمام ساحة كبيرة تكتظ بالسيارات مقابل بناية بلدية مدينة بعقوبة . . **معرض الجيراوي لتجارة السيارات** . . و لطالما سأل نفسه . . أين إسم أبيه على هذه القطعة إذا كان أبوه مثلما يُشاع شريكاً في المكان! . . أحس بيد صاحب المعرض على كتفه يقول له:

- ما أحد في بيتكم يعرف بالحادث لحد هسه . . أعتمد عليك!

ترجل الجيراوي من السيارة، و تبعه مرهون شارداً، لا يحس بما يدور حوله. سار الرجل بإتجاه مكتب إدارة المعرض و مرهون وراءه. في باب المكتب إستقبل أحد عمال المعرض مرهون بكلمات مواساة . . و هناك إنفجر مرهون بنشيج متشنج، و كأنه الآن فقط وعى وعيا كاملا ما حدث . . فيتركه الجيراوي وقتا ليفرغ شحنة العاطفة المكبوتة.

و بعد أن يهدأ قليلا، يسأل مرهون:

- الحادث شلون صار و وين؟

- بطريق روحتهم لأيچ ثري . . بمكان قريب من الفلوجة صار الحادث!

- منو چان وياه؟

- عامر كبسوني چان السايق و و ياهم عامل مصري.

- وين هو هسه؟

- بثلاجة المشرحة بمستشفى الفلوجة . . الحادث صار أول البارحة العصر . . صدمتهم شاحنة چبيرة . . و إنت تعرف الإجراءات الرسمية . . و البارحة چان جمعة . . عطلة.

فيستغرب مرهون من إنقضاء كل هذه المدة و لم يخبروهم، فيبرر الجيراوي:

- وليدي . . إحنه ما ردنه إنحملكم شي فوگ طاقتكم . . و خصوصا أمك و أختك . . أعمامك الإثنين عندهم خبر، و اليوم راحو للفلوجة من الغبشة حتى يجيبون الجثة . . و أظنهم يوصلون بعد ساعة أو أكثر.

و يستفسر مرهون:

- يصير عمامي يعرفون و آني ما أعرف؟ . . و أنتو شلون عرفتو؟

- مو گلتلك ما چان داعي نخبصكم و الجثة بالثلاجة! . . عرفنا من الاثنين اللي وياه . . طلعوا سلامات . . عامر كبسوني خابرني بالتلفون، و رحت آني شخصيا للفلوجة بنفس اليوم و رجعت البارحة الجمعة.

- هذوله عامر و العامل وينهم هسه؟

- كبسوني بالتوقيف بالفلوجة على ذمة التحقيق بالحادث، و العامل المصري بالمستشفى للعلاج.

و ينشج مرهون مرة أخرى لدقيقة، و ينهض لتأخذه سيارة الجيراوي الى البيت.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

محمر العينين، و قد كلحت بشرته السمراء كسمرة بشرة أبيه، دخل مرهون البيت مجاهدا ألا يقع عليه، حال دخوله، نظر أي من الموجودين في البيت. يدخل غرفته و ينضى عنه ملابسه العسكرية، و يحاول أن يستقر في مكان أو زاوية من الغرفة، فلم يقدر. و سرعان ما غطى وجهه بيديه و طفق ينتحب بصمت، و هو عارٍ تقريباً إلا من ملابسه الداخلية. ثم تهاوى على طرف سريره. و ما أن سقط نظره على ركبتيه [illegible]، خفَّ توتره لحظة. و عاد فنهض ليضع ملابساً مدنية، عاقداً [illegible] إتمام ما لا بد من إتمامه . . كان يخشى أن تنفجر عواطفه مرة

أخرى قبل أن يتم مهمته، فنادى على أمه مرة أخرى . . على أثر صياحه جاءته أمه من المطبخ، مستغربة متسائلة:

- هاي شكو إبني؟ . . شبيك؟ . .

- أبويه! . .حادث سيارة!

و تدرك الأم بغريزتها الأنثوية ما حصل مرة واحدة . . تذكرت صرختها حين ماتت أمها قبل أعوام و تذكرت صرختها يوم مات أبوها نزهان الأحمدي قبل عام، فصرخت:

- ويلي! . . يبو . . يبو . . يبوووووووووووووو!

صراخٌ أشبه بإستغاثة . . و من العلو بحيث وصل الى أغلب بيوت الشارع الصغير. و بغضون دقائق إزدحمت نسوة الجيرة عند الباب مندفعات و متدافعات الى باحة المنزل، في الوقت الذي إزدحم أمام الشارع جمهرة من رجال الجيرة و صبيتها و من المارة القريبين.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

وصل جثمان غايب مرهون الى بعقوبة محمولا على سيارة ميني باص من سيارات حسين الجيراوي، فيها إبراهيم و عصمان أخوا غايب . . يُنزَلُ الجثمان ويُدخَلُ الى المنزل، و في فضاء البيت عدد كبير من النسوة يستقبلن الجنازة، بعضهن نفشن الشعور و لطمن الخدود، و سيظل فضاءُ البيت صاخباً بالعياط العالي.

و مثلما تجري العادة، ينسحب الرجال بعد وضع الجثة في باحة المنزل، و يخرجوا، مجتمعين مقابل المنزل في الجانب الآخر من الشارع . . الجيراوي و أخوا المغدور بالحادثة، و ولده مرهون، و بعض الأقارب، ثم أغلب رجال الجيرة. كان الجيراوي ينتظر أن تهفت فورة الحركة التي أحدثها وصول الجثمان الى البيت، ليناقش مع أخوي الميت

و ولده طريقة الدفن و مكانه و المراسيم التي تتبعها الأسرة في مثل هذه الحالات. و على الرغم من إنشغال أغلب الحضور من الرجال بما أستدعاه الموقف من إطلاق حسرات أو كفكفة قطرات دمع إنسابت على بشرات خشنة، لفت إنتباه الجميع وصول شابة، يعرفها الجميع بائعة في أوروز دي باك . . إقتربت الشابة، و وقفت غير بعيد عن المنزل منتظرة على الرصيف، ترنو الى باب المنزل، و هي تتطلع للداخل و الخارج، ثم إلتفتت الى حشد الرجال المزدحمين، و كأنها تبحث عن أحد معين. و قبل أن يعيِّها الموقف و تقفل راجعة لحظها مرهون مستغربا . . أجاءت لتواسيني بمصابي! فتقدم إليها و دون حتى أن تسأله عما يجري، همست له:

- مرهون بعد لا تجي عليَ لأن آني راح أتزوج!

ألقت الشابة بكتابها الذي ظنته أبيضا . . و لم يكن بوسع مرهون و هو في هذه المحنة أن يهضم فحوى ما قالته . . و رآها تغادره غير عابئة بالوضع الذي هو فيه، تشيّعها نظرات جمع الرجال الواقفين يختلسونها من جو الحزن الذي يلف المكان.

و يتهيأ للجيراوي أن فورة العاطفة التي سببها وصول الجنازة الى البيت قد إنحسرت نسبياً، فينوي مناقشة مكان دفن الجثة مع أخوي الفقيد . . و حين يسمع إبراهيم مرهون إستفسار الجيراوي، تزوغ عيناه المحمرتان من البكاء . . الرجل معروفٌ في بعقوبة ببخله الشديد و تشكّيه المستمر من شحة النقود و من تَطيُّرِه من الحاجات الطارئة . . و نازلة من نوع التي حلت ببيت أخيه لن تثنيه عما إعتاد عليه، و لكي يخلي مسؤوليته بطريقة عائمة، سيحاول التملص:

ابو علي . . اني باي حال و إنت تجي تسألني وين راح تدفنون!

[illegible] ابراهيم مرهون يفهم بعضهما البعض جيدا لأنهما سوية [illegible] من البشر الذين يتوسلون بأي شئ كي يصلوا الى

مرادهم بما فيها إسقاط ذمم إتباعهم، و لكن مع فارق، هو أن الجيراوي معروف بسخانه الواسع في شراء الذمم، يشتري الناس ببسطة يده، و الآخر كان مثلما يقال عنه . .جلدة يابسة . . يسقط الذمم بالإجبار و العناد، ما جعل الجيراوي يعلق:

- هذا اللي مات أخوك! . . زين يابه! . . خلي نسمع أخوك عصمان شيگول!

فيبادره هذا معلقاً:

- آني! . . أگول؟ . . شاگول أبو علي؟ . . آني ما لي حچايه بهالموضوع!

عصمان مرهون معروف أنه من جماعة . . لا رأي لمن لا يطاع و لا طاعة لمن لا رأي له، و أضاف . و يقترح إبراهيم مرهون فجأة:

- أبو علي . . ليش ما تسال مرهون إبن المرحوم؟

و كأنه أدرك لعبة إبراهيم مرهون في التملص من أية مسؤلية، رد الجيراوي معلقا:

- هذا الطفل! . . إسمع إبراهيم . . آني مقرر راح آني أتحمل كل مصاريف الفاتحة و الدفن . . و إنت تعرف زين معزة المرحوم غايب عندي.

و لأن إبراهيم لم يرغب أيضا أن يذهب الصيت كله الى الجيراوي في موضوع دفن أخيه، فيعلق فوراً:

- استغفر الله أبو علي! . . و الله مو هذا قصدي!

و يرد الجيراوي لا شعورياً:

- لا! . . صحيح ما تهمك فلوس! . . و إنت الصادگ و الله يضرّط

الـچـــاذب!

و يتحـرك كيـان الجيـراوي الضخـم خطوتيـن نحـو المـكان الـذي تركـت بائعـة أوروز دي بـاك فيـه مرهـون و إلتحـق بـه هنـاك صـهـره و صـديقـه الحميـم و جـاره أحمـد عبـاس شـحـاذة، ليسـألـه عـن رأيـه بمـكان دفـن أبيـه . . لـم يكـن مرهـون يصـغـي لشـئ سـوى لصـوت صرخـات أمـه العاليـة آتيـة مـن المنـزل بحشـرجة مليئـة بالأسـى مختلطـة بالكتـاب الأسـود الـذي أعلنتـه بائعـة أوروز دي بـاك . . لـم يتنبـه مرهـون فـوراً لمـا يستفسـر عنـه الجيـراوي، فيضطـر هـذا لإعـادة السـؤال. و يتأخـر مرهـون بالإجابـة لأنـه فـي محنتـه هـذه بالـذات مشـغول ايضـا بإفتقـاده بقـوة وجـود معلمـه و صديقـه و خالـه شـمران الأحمدي الـذي كان فـاراً فـي بغـداد، مـا جعلـه يـرد علـى سـؤال الجيـراوي بتلقائيـة:

- عمي حسين . . كلها أرض الله!

بهـذا الإعـلان وضـع مرهـون الحـل . . و مـا أن يبتعـد الجيـراوي، يتمتـم مرهـون لصـهـره أحمـد شـحـاذة:

- تدري أحمد؟ . . آني أفتقد خالي شمران الى حد الأعياء و البكاء!

و يرد صديقه عليه:

- آنـي ويـاك . . آنـي أيضـا أفتقـده الـى حـد العجـز! . . و جـوده فـي هـذا الظـرف ضـروري . . ضـروري جـدا!

و علق مرهون:

لعنـة تنـزل علـى نهلـة العبيـدي! . . علـى زوجهـا عبيـد المنيـري! . و [illegible] سـهيلة السـودة . . و علـى محافـظ ديالـى عـوّاد بـرزان . . و إلا [illegible] هسـه و بايـه بالمحنـة!

[illegible] مدفـن غايـب مرهـون و أنـه سيكون فـي بعقوبـة الجديـدة

في مقبرة. و بعد نصف ساعة، و وسط صراخ النسوة، غادرت الجنازة، مرفوعة على هامات رجال، يشقون طريقهم مشياً عبر الشارع الضيق بإتجاه شارع الأطباء، ثم لتنعطف شرقاً مرورا بساحة المكتبة المركزية، لتوضع هناك على متن سيارة پيكاپ و صعد مع الجنازة مرهون و صهره أحمد و إبراهيم مرهون و عصمان مرهون . . و ينطلق موكب الجنازة تتبعها سيارات عديدة، و تنحرف فيما بعد يسارا نحو شارع حسينية بعقوبة . . و يسير موكب الجنازة ببطئ منعطفا نحو الغرب ليشق طريقه في شارع الحسينية في صوب التكية، و تنعطف فيما بعد شمالاً و تسير بمحاذاة الشاخة، و تعبر قنطرة خليل باشا في منطقة السوامرة، متقدمة نحو صوب السراي، مارة بمدرسة الوثبة، لتشق طريقها في درب بين البساتين، بإتجاه الجسر الحديدي الواطي الذي يربط بعقوبة القديمة ببعقوبة الجديدة عند جهة شمال البلدة.

و ما أن إجتاز موكب الجنازة الجسر الحديدي الواطي، إنعطف نحو اليسار، في منطقة خان اللوالوة، مواصلاً السير مسافة قصيرة على سدة ترابية ضيقة عالية محاذية لنهر ديالى، قبل أن ينحدر يمينا من السدة، ليدخل ساحة مقبرة السيد الشريف.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

بتزايد الأموات . . لن تكف القبور في مقبرة السيد الشريف يوما عن التكاثر، و ظلت المسافات بين قبورها تُضَيِّقُ بمرور الزمن. و من شدة إكتظاظ المكان بجثث الموتى، إنتشرت القبور و الرموس بخاصة نحو جرف النهر العالي لتحاذي الجرف في بعض البقع كي تذكر الناس بحقيقة الموت، في حين ظلت بساتين النخيل و الفاكهة تطل على المقبرة من الصوب الآخر من النهر لتذكر بسرمدية الحياة . . تمتد القبور و الرموس الى الغرب في أرض جرداء ما كفت يوماً، من إحدى جهاتها، عن الإنحسار أمام زحف البيوت المبنية حديثاً من جهة، و تغزوها من جهة أخرى قبور من كل نوع، عالية و مندثرة و رموس، و أقفاص فيها

قبور ببذخها أظهرت معزة الراقدين تحت التراب عند أهاليهم.

أودع تابوت غايب مرهون في غرفة . . المغيسل . . لغرض غسل الجثة و تكفينها و الصلاة عليها، و دخل معها إبراهيم أخو غايب الأكبر . . في حين إنشغل إثنان من حفاري القبور غارقين في دكنة حفرة ستكون الموئل الأخير لجثة غايب مرهون بكر . . راح المشيعون ينتشرون بين القبور يتلهون بقراءة شواهد القبور المجاورة و البعض منهم يجدها فرصة لقراءة سورة الفاتحة على أرواح أقربائهم المدفونين في المكان، عدا مجموعة قليلة بقيت قرب غرفة المغيسل بإنتظار أن يتم غسل و تكفين الجثمان و الصلاة عليه . . و سرعان ما سمع صوت الملّا مناديا لصلاة الميت . . أخرج التابوت من غرفة . . المغيسل . . و صُلّيَ على الجنازة، و نقلت الى قرب الحفرة، و قد تخلف متجمعا حولها بعض المشيعين يتفرجون على عمل الحفارين، و قلة أخرى إنهمكت بأحاديث لها علاقة بالموت، في حين التأم إبن المتوفى و أخواه و الجيراوي ليس بعيداً عن مكان الحفرة.

و بإنتظار تهيئة حفرة الدفن و اللحد، والريح في الأرض المكشوفة تلتقط صوت الملّا الواهن، الذي راح يرتل آيات من سورة ياسين، لتبدده بعيدا، و يلتقطه السامع أكثر وهنا . . و تسرح رجلا مرهون لا شعورياً سائرتين بحَذاء إنحناءة الجرف العالي للنهر . . و يقوده سرحانه ليخطو ما بين القبور المحاذية للجرف، تاركاً خطاه تقوده بإتجاه النهر، لينحدر فيما بعد من الجرف نحو الضفة . . و قبل إنحداره فوجئ بأحد المشيعين، يظهر من وراء قبر عال . . رجلٌ في حوالي عقده الرابع من العمر بخصلة شعر شقراء تتدلى فوق جبهته الناعمة البشرة. عرفه مرهون . . هاني ميرخان داداش، معلم في قرية بعيدة عن بعقوبة، ظل أعزبا لأسباب ظلت مصدراً لإشاعات كثيرة . . و يبادر هاني ميرخان ليقول لمرهون بنبرة لينة لا تليق إلا بأنثى:

- ما أدري شراح أگول! . . و ما أدري شلون أخاطبك . . إبني! . . أخويه

الزغير!

- ما يهم أستاذ هاني . . ماكو فرق!

- الوالد چان عزيزي على گلبي . . الحي أبقى من الميت و أحق بالرحمة . . أنت و أمك و أختك.

- بعد هذا الخراب أستاذ هاني! . . ما أگدر!

- هون عليك! . . أريد أگولك . . ترآني أكو بذمتي شي للمرحوم.

- شنو؟

- فلوس . . چان بيني و بين الوالد حساب . . أكو بذمتي مبلغ للوالد!

هاني ميرخان داداش . . فيعلق مرهون بنبرة عتاب:

- أستاذ هاني . . هذا وقت الحچي بالفلوس!

و يصلهما فجأة صوت الملّا الواهن يقرأ الفاتحة، ليعلن بأن حفرة القبر باتت جاهزة لمواراة جسد المتوفى، فيكتفي مرهون بما سمع من هاني ميرخان، و حتى دون إستئذان تركه وراءه و إندفع مسرعا نحو موضع التابوت. تنوقلت جثة غايب مرهون بين الأيدي لتنزل الى الحفرة و توضع في اللحد، لـُيغلق عليها بطبقة من الآجر و الطين. و ها هو الملّا يقوم بتلقين الميت ما يقوله . . كيت و كيت . . عند مروره بالبرزخ . . وتنتاب مرهون فجأة نوبة قرف و رغبة بالتقيوء، سرعان ما تغلب عليها، حين سمع الملّا يدعو لقراءة الفاتحة من جديد قبل أن يُهالَ التراب في فتحة الحفرة التي وُريَ الجسد في لحدها. و أثناء ما راح رفشا الحفارين يهيلان التراب و يعيدانه الى الحفرة، حرص كل من المشيعين الواقفين على حافة الحفرة أن يرمي ملء كفه ترابا، طمعاً في أجر مُؤجَّلٍ.

بمرور دقائق . . إرتفعت في المقبرة ربوة واطئة لرمس جديد طري

التراب، واضح المعالم يرقد فيه آخر زائر مقيم دائم برعاية ضريح السيد الشريف. وبين نشيج و نحيب و نوح و صمت، قُرِئَتْ سورة الفاتحة للمرة الأخيرة. و توجه الجميع نحو السيارات عائدين الى بعقوبة القديمة . . و هكذا دُفن غايب مرهون، دون أن يدري، بقبرٍ بعيدٍ جداً عن قبري أمه نرجس و أبيه مرهون العربنچي، المدفونين في مقبرة أبو دريس، و كأن فراقه عن أمه محتوم له حتى في القبر!

في طريق العودة . . حرص الجيراوي على أن يكون مرهون معه في سيارته المرسيدس و الى جانبه . . السيارة تتلوى بين ممرات المقبرة سالكة طريقاً غير الذي سلكته في طريق المجئ الى المقبرة، مخترقة الشارع الرئيس لمنطقة بعقوبة الجديدة، بإتجاه الجسر القديم الرابط بين بعقوبة الجديدة و بعقوبة القديمة جنوبي المدينة، قال الجيراوي لمرهون:

- إبني . . شوف ترى الله فوگنه . . والله مه يحير عبده لأن هو مدبّر الأمور!

- صحيح! . . الله هو مُدَّبر الأمور! . . التدبير!

و قد لا يكون الجيراوي فطن للمَّزْة التي أطلقها مرهون، و علق:

- الله يعينك . . الله يعينك . . بس أريد أعرف هذا المعلم اللي لحگك لجرف النهر . . شراد منك؟

- تقصد أستاذ هاني؟

- أي!

و يفطِنَ مرهون لوجود غرض من وراء السؤال الذي طرحه الجيراوي له علاقة بأبيه، و أضطر بادئ الأمر الى القول:

- ماكو شي عمي حسين . . شي شخصي!

- شي يخص المرحوم؟

يتـردد مرهـون بالإجابـة أول الأمـر . . و الجيـراوي ينتظـر جوابـاً، لكنـه حيـن إلتفـت الـى الجيـراوي و رآه يبـذل جهـداً فـي الإسـتدارة فـي مقعـده نحـوه، و كأنــه يلـح عليـه بالإجابــة، بـل ربمـا يأمـره بالبـوح، و بدافـع مـن جهـلٍ بالأمـور، قـرر أخيـراً أن يتراجـع و يجيـب:

- إي . . تقريبا شي يخص المرحوم!

فيعقب الجيراوي:

- مو غريب . . لأن همَّ ندمان بالبستان!

ندمـان بالبسـتان! . . و حـزن مرهـون علـى أبيـه غايـب مرهـون لوحـده هـو الـذي صـرف ذهنـه عـن ملاحظـة التبـدل الـذي طـرأ علـى وجـه الجيـراوي الغليـظ، بملامحـه الفظـة القاسـية، التـي بالـكاد يُـرى عليهـا أي تبـدل، حيـن ألقــى بعبارتـه الأخيـرة.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

عصـر اليـوم نفسـه إنعقد مجلـس الفاتحـة علـى روح غايـب مرهون لمـدة ثلاثـة أيـام . . أخليـت غرفتـا الإسـتقبال و المعيشـة مـن النسـاء، و رُتِبَـت فيهـا كنبـات جُلِبـت مـن الجيـران و كنبـات إضافيـة وضِعـت علـى الرصيـف أمـام البيـت، ليجلـس علـى إحدهـا المـلا عبـد السـتار المـلا حسـين ليقـرأ بيـات الذكـر الحكيـم تنبـث مـن مكبـر صـوت موضـوع علـى سـطح الـدار . . و طيلـة المـدة إفتقـد مرهـون فـي جميـع لحظاتهـا خالـه شـمران الأحمـدي، و لكـن مـا خفـف عنـه الـى حـد مـا وجـود صـهره أحمـد عبـاس شـحاذة الـى جانبـه لـم يفارقـه لحظـة واحـدة، و وجـود حسـين گــطمة خــال صـهـره أحمـد و عبـد كولونيـا سـائق التاكســي اللذيـن قامـا بخدمـة واجبـات الضيافـة طيلـة المـدة. و مـن أقربائـه داوم عمّـاه علـى حضـور مجلـس الفاتحـة لمـدة ثلاثـة أيـام . . و حضـر هانــي ميرخـان داداش طيلـة أيـام الفاتحـة بأوقـات متفرقـة، و فـي أحـدى جيئاتـه، و

مثلما هو جار في عادات التعزية الشعبية، دسَّ ميرخان في يد مرهون، و هو يواسيه، نصف دينار، يسمونه الناس عذر المجئ، و دسّ في اليد الأخرى لغايب ورقة نقدية من فئة عشرة دنانير، هامسا لمرهون:

- هذي الأمانة و الدين اللي بذمتي للمرحوم . . اللي گِلتلك عنها بالمگبرة . . أخاف تحتاجونه للمصاريف!

و بمغادرة ميرخان . . يظل مرهون واقفا لثوانٍ إضافية يتطلع الى ورقة العشرة دنانير في يده، صَعُب عليه هضم ما فعله ميرخان في هذا الظرف، و يسأله صهره أحمد الجالس معه على الكنبة نفسها هامسا:

- مرهون . . شنو القصة؟

- ما أدري . . هذيچ نعمة تجيني و إحنه بعدنا ما دافنين أبويه حتى تگوللي راح تتزوج! . . مث ما گلتلي إنت . . صدگ آني قشمر! . . و هذا يجي يحط بإيدي عشر دنانير يگوللي هذا دين بذمته للوالد! . . و ينك خالي شمران حتى تفسرلي!

و ممن داوموا على حضور الفاتحة بأوقات متقطعة . . كان الجيراوي الذي برَّ بوعده متبرعاً بكل نفقات مجلس الفاتحة . . و يطير الخبر الى الناس جميعا، أبعدين و أقربين. و يثنى الكثيرون على الجيراوي، و يجدونها مناسبة للحديث عن وفائه لذكرى صاحبه بالعمل غايب مرهون، لامزين و غامزين في الوقت نفسه أخوي الفقيد، إبراهيم و عصمان، اللذين لم ينسيا التعبير عن إمتنانهما للجيراوي على كرمه. و يندهش قلة القلة فقط من خبر كرم الجيراوي، متسائلين، على عادة الناس،عن سر طير الكرم الذي أطلقه الجيراوي في فضاء مجلس فاتحة غايب مرهون . . هذا إن لم يكن ضمن خطة تعوَّد الجيراوي حياكة أمثاله لتأتيه بفوائد تفوق الذي حملها طير كرم الجيراوي . . رواد مقاهي مطيرچية بعقوبة كانوا ممن سمع بخبر طير الكرم ذاك، فلخصوا خبر سخاء الجيراوي معلقين:

- . . الجيراوي ما يطيِّر طير بضباب! . .

و بعيدا عن كل التعليقات التي طارت في سماء مقاهي بعقوبة عن سخاء الجيراوي، إستقبل أهل الفقيد الفضل الذي غمرهم به الجيراوي بالعرفان و الشكر.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

أسبوع يمضي على إنفضاض مجلس الفاتحة على روح غايب مرهون . . بعيد شروق الشمس بقليل، و بترتيب مسبق مرت سيارة المرسيدس الصفراء ببيت غايب مرهون لإصطحاب مرهون في رحلة الى الفلوجة لتصفية بعض ما نتج عن الحادث الذي مات به غايب مرهون. و ما أن بدد صوت منبه السيارة صمت الصبح في الشارع الصغير، أطل مرهون من داخل البيت، و صعد السيارة ملقيا السلام على من فيها. فسأله الجيراوي:

- خبّرت واحد من أعمامك يجي ويانه؟

- لا! . . طول عمري ما شفت واحد منهم يدخل بيتنه! . . شنو حاجتنه لواحد من أعمامي؟ . .

- ضروري.

تساءل مرهون في داخله عن السلطة التي يمتلكها الجيراوي لفرض حضور أحد أعمامه ليرافقهم . . و لجهله بحقيقة إصرار الجيراوي على حضور واحد من أعمامه، إستسلم لمطلب هذا الأخير سائلا:

- عمي إبراهيم؟

- لا! . . أفضل عصمان!

الجيراوي يعلم جيداً بأن إبراهيم مرهون، و طالما كان الأمر لا يكلفه

قرشاً، لا يكبح جماح نفسه حين تستولي عليه نخوة مجانية في رعاية مصالح أسرة أخيه المتوفى . . و يعلم أيضا أن عصمان أخاه الآخر من نوع لا يفرق مطلقا بين النخوة و الطاعة. و هو بالقدر الذي تستنهضه النخوة لفعل الخير، يشده ذله بقدر أكبر لطاعة من هم أكبر منه مقاماً ليفعل الشرَّ صاغراً و دون أن يدري، لدرجة أنه قال مرة . . طيع الأكبر منك تعيش مرتاح . . و لهذا عرفه الناس بتعابير من قبيل . . حاضر! . . تؤمر! . . نعم! . . إي عمي! . . صار عمي الحجي! . .

إنطلقت السيارة من بيت عصمان مرهون، و بمرور ساعتين توقفت السيارة أمام بناية المحكمة في الفلوجة، حيث كان ينتظر عند بابها رجل في حوالي الثلاثين. يترجل ركاب السيارة و يرحب الرجل بهم بطريقة تشي بلياقة و كياسة، و توحي في الوقت نفسه بأنه كان بإنتظارهم. و بدى كل ذلك طبيعياً و إعتيادياً لمرهون، حين قدم الجيراوي الرجل لمرهون، قائلاً:

- المحامي عبد الصمد الجوراني.

رد مرهون:

- أهلا أستاذ . .

المحامي سبقهم بيوم الى الفلوجة بطلب من الجيراوي. و لأن الجميع لم يكونوا قد تناولوا فطورهم بعد، دعاهم الجيراوي الى مطعم وحيد بائس قريب من المحكمة يقدم مشاوي. بتناولهم الفطور، و هم يرتشفون الشاي، يستفسر المحامي عن نيتهم، فيرد الجيراوي:

- اللي نريده اليوم هو . . أولا إطلاق سراح عامر بكفالة . . ثانيا مرهون ينطيك توكيل رسمي للمطالبة بالتأمين اللي يستحقه المرحوم غايب من حادث السيارة . . و ثالثا نروح نشوف شلون صار العامل المصري اللي بالمستشفى.

و تساءل المحامي بنبرة بدت لمرهون لا تخلو من بطانة:

- و هذا كل شئ؟

و ينتبه مرهون للألغاز التي تحملها إيحاءات الكلمات بين الجيراوي و المحامي، ما جعله يعلق فوراً:

- لا! . . هذا مو كل شئ!

فيسأل الجيراوي مستغرباً:

- شكو بعد؟

يرد مرهون:

- التوكيل ما التأمين نگدر نسويه بعگوبة! . . و تبقى شغلة الموجودات اللي چانت بحوزة الوالد أثناء الحادث!

و كانه أُخِذ على حين غرة، يعلق الجيراوي:

- أوووووووووه! . . شلون راح هذا من بالنا؟ . . يجوز لأن آني بداخلي ما أريد أشوف شي چان ويه غايب و هو يواجه عزرائيل . . العفو إبني أقصد و هو يواجه الموت!

السبب الذي ساقه الجيراوي كان سافراً في مجانيته و كذبه، فيعلق عصمان مرهون:

- الله يشهد . . على گلبك الچبير الطيب خويه أبو علي!

تجاهله الجيراوي. و يكاد مرهون يتقيئ من تعليقات عمه!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

توجهوا الى مركز الشرطة لترتيب الكفالة التي سيطلق بموجبها سراح عامر كبسوني، السائق الذي كان طرفا في الصدام المروع الذي ذهب ضحيته غايب مرهون، و كان عامر الجيراوي قد أوقف بظن مسببٍ للحادث. . و يُطلق سراح عامر الجيراوي المشهور بعامر كبسوني، و بمجرد رؤيته لمرهون، يخرَّ على الأرض باكياً، أو متباكياً، و هو يصرخ:

- عيني مرهون . . و الله مو ذنبي! . . و الله مو ذنبي! . . ذنب هذا سايق الشاحنة السوري، الكلب إبن الكلب أخ الـگحبه . . هو اللي كسر الستيرن علينا!

و راح ينتحب . . و ينتبه الجيراوي لمبالغة كبسوني، فخاطبه بلهجة، و إن بدت متعاطفة لكنها آمرة:

- يلله گوم! . . گوم من الـگاع! . . الله ينطي و الله ياخذ . . إنا لله و انا اليه راجعون!

و يجاهد مرهون محاولا التحرر من شعور بالمرارة يلازمه منذ أن رأى كبسوني . . ها هي أمور الدنيا! . . أرعن و تافه مثل هذا يخرج من الحادث مثل شعرة من عجين . . يخرج هكذا سالماً! . . و يود لو أنه كان قادراً على تصديق كل كلمات المواساة التي تتدفق من فم كبسوني، الذي إعتاد الناس، و معهم كل من سمى نفسه جيراوي، جميعاً على تسميته أحيانا . . عامر واوي . . بعد أن كف عامر عن النحيب، على نحو سمج، لكي يظهر صدق مشاعره، نهض واقفاً يكفكف دمعات هزيلة.

خارج مركز الشرطة، و على عادة أولئك الذين لا يدرون أنهم في الواقع يؤكدون حصول شئ، حين يبالغون في نفيه، ظل كبسوني يلاصق مرهون و يلاحقه بالتعليقات:

- لك عيني مرهون! . . حتما الناس هسه على بالهم الصوچ مني!

و يعلق مرهون:

- و إنت شدعوه هلگد هالمَلحـَّة منك! . . هو التحقيق مو أثبت مو إنت سبب الحادث؟

و يعود الجيراوي للتعليق، لكي يغلق الموضوع، مخاطبا صبيه:

- لك كبسوني . . بس! . . هم الناس مو حقهم من يسموك عامر واوي . . لأن دومك توَيوي! . . مو گلنه الله ينطي و الله ياخذ!

و يعقب عصمان:

- حچيك ذهب أبو علي!

و مرة أخرى يكاد مرهون يقئ من سماجة التي لم يفهما مطلقاً، فيعقب:

- يا جماعة! . . بس آني من حقي أعرف شلون مات أبويه!

قال كبسوني:

- . . و الله صحيح!

و يلتفت نحو الجيراوي، و كأنه يطلب الإذن بشرح تفصيلات الحادث، و يواصل:

- بعد ما غادرنه الفلوجة بنص ساعة رايحين الى أيچ- ثري . . أذكر چان المرحوم گاعد يمي بالصدر و شحاتة نايم وراه بالمقعد الخلفي . . وچان أكو أمامنه شاحنة سورية . . و لما جيت أريد أتجاوزها . . بالتجاوزهه لاف علينا فجأة سايق الشاحنة لوفة قوية . . على الأغلب چان نايم! . . و شگد حاولت أخلّص منه ما گدرت، و صارت الضربة من جهة المرحوم . . و شگد حاولت أستدير لليسره بقوة حتى أخلص منه لكن السيارة إتچقلبت بينا تلث مرات و بالرابعة إستقرت على ويلاتهه الأربعة . . و من شفت نفسي ما بيَّ شي إنداريت على المرحوم و لگيته غرگان بالدم، و صحت على شحاتة رد عليّ و رجع

فقد وعيه . . و إلتمت بعدها علينه الدنيا و السيارات . . و نِزلَت الناس و سيارة شرطة النجدة . . طلعوني آني بالأول . . و بعدين شحاتة . . و من طلعوا الوالد چان مسلم الأمانة لربه . . و بعدين نقلوا المرحوم بسيارة إسعاف هو و شحاتة للمستشفى و آني ذبوني بالتوقيف!

فإستفسر مرهون:

- و هذا كل شي!

- هذا كل شي . . الله وكيلك!

يقتربون من المارسيدس الصفراء . . مرهون يحتفظ بهدوئه، يبذل جهداً فائقاً لتقبل رواية عامر الجيراوي. فألا يكون الإنسان على موعد مع الموت، و تأتي المنية و تخطفه . . هكذا! . . دون سابق إنذار، كان يبدو له شيئاً خالياً من أي معنى و عبثياً، لأنها طريقة للموت تحرم الإنسان من فرصة ثمينة قد تنتاح له ليفسر ما فعله وما لم يفعله طوال حياته، حتى و لو ببضع كلمات. و لأنه تذكَّر أنه سمع مرة من خاله شمران الأحمدي بأن على الإنسان، مهما حصل، أن يعطي تفسيراً معقولا لكل ما فعل، و لكل ما لم يفعله، و لأن حيرة و بلبلة طاغيتين إستولتا عليه تجاه الطريقة التي مات بها أبوه، جعلت هدوئه يتحول الى قنوط تعمقه أشعة شمس نيسان الساطعة، و هي تصلي باحة مركز الشرطة حيث المارسيدس الصفراء . . و يحس مرهون بسبب الأعياء النفسي أنه بحاجة للجلوس، فيجلس و جاوره في الجلسة عمه و حسين الجيراوي على مصطبة قرب السيارة. و يعود المحامي من داخل المركز، مخاطبا مرهون:

- بذلت جهد حتى يكون بإمكانك الإطلاع على ما كان بحوزة المرحوم لأنهم يعتبرون ما كان معه دليل ظرفي لغاية الإنتهاء من القضية . . يتركان الباقين في الخارج و يدخل المحامي و معه مرهون بناية المركز . . في غرفة الضابط المسؤول فُتح كيسٌ، أخرجت منه أشياء غايب مرهون لتعرض أمام مرهون، و يروح الضابط ليعطي وصفا

لمـا موجـود:

- اللـي لـگـيناه بحـوزة غايـب مرهـون عنـد تقريـر وفاتـه هـذا هـو أمامـك . . سـاعة يدويـة . . دفتـر الخدمـة العسـكرية . . بطاقـة غرفـة التجـارة . . بطاقـة شـخصية . . قلـم حبـر جـاف . . منديـل . . سلسـلة مفاتيـح . . بطاقـة يانصيـب . . خاتـم ذهبـي . . سـبعة دنانيـر و مائتـان و خمسـون فلسـا . . هـذا كل مـا كان فـي حـوزة المتوفـى!

و كأنه غير مصدق يستاءل مرهون مستغرباً:

- هذا كل اللي لـگيتوه؟

يرد الضابط:

- كله . . بالمناسبة . . هو أبوك؟

- بلي والدي . . و لكن . .اللي أشوفه هنا ناقص!

يتعجل المحامي الإجابة بسؤال:

- ناقص؟ . . شنو اللي ناقص؟

- إي ناقص . . آني أعرف والدي . . حتما أكو أشياء أخرى!

- أشياء؟ . . مثليش؟

- أوراق تشـير الـى معاملاتـه الماليـة مثـلاً! . . و كلكـم إنتـو تعرفـون الوالـد إعتـاد علـى حمـل مبالـغ چـبيرة بجيـب دشداشـته، لأن مثـل مـا تعرفـون هـو مـا يتعامـل ويـا المصـارف!

و يلتفت مرهون الى المحامي، مضيفاً:

- أنـت محامـي . . و لا بـد أن تكـون أدرى منـي! . . رجـل يبيـع و يشـتري

مئات كيلوات الأطعمة يومياً و يسلمها الى وحدات عسكرية . . مو من المفترض أن يكون وياه مستندات بيع و شراء من نوع ما؟ . . الوالد ما چان يعترف بالمصارف و چانت جيوبه هي المصارف مالته! . . فلوسه على طول لو بجيبه لو بمكان آخر لكن مو بالمصرف!

و يلتفت مرهون نحو الضابط متسائلاً:

- . . شتتصور سيدي الضابط . . معقول إنتو ما لگيتو عنده و هو يموت غير هالشوية الدنانير هذي!

يعلق الضابط:

- ما أدري! . . و هذا مو شغلي . . و هذا التقرير المكتوب به كل شي بإمكانك تقرأه! . . و ببساطة لأن مو آني اللي كشف على الحادث و كتب تقرير الوفاة . . اللي سواه ضابط غيري!

قال مرهون متنرفزاً:

- هذا صحيح . . أطلب عفوك! . . آني أدري هذا مو شغلك . . بس آني أدري . . و الضابط اللي كتب التقرير دوَّن اللي لگيتو فعلاً لما چان الوالد مسجي على قارعة الطريق!

- بالضبط! . . و هذا هو اللي صار!

يتدخل المحامي:

- ليش ما تعوف هذا الموضوع نناقشه بعدين؟

- طيب! . . نعوفه و نشوف!

يخرج مرهون و المحامي ذاهبين الى حيث ينتظر الجيراوي و الآخران . . و هناك كان الجيراوي مصغياً بصمت لكلمات عصمان و كأنها ذباب

يحاول هشه بين حين و حين، فساء مرهون أن يسمع عمه يبذل الكثير من عبارات التذلل و المسكنة، و الجيراوي مشخص ببصره بصمت و بعينين عكرتين، و كأنه يتأمل شمس ما قبل الظهيرة تسفع إسفلت الباحة .. و يمر بخاطره أن العينين العكرتين قد تضللان الناظر إليهما لأنهما لا توحيان أبداً بما يدور في خلد صاحبهما، فينتابه إحساس تجاه الجيراوي من نوع .. لاحب و لا ضغينة .. أو من نوع .. لا ينطوي على الإثنين .. فما هو إذن؟ .. أحساس بالفراغ .. ما طبيعة علاقة هذا الرجل بأبيه .. البلدة كلها تتحدث عن شراكة مصلحة بينه و أبيه، و لكنه لم يسمع من أبيه قط أنهما هو و الجيراوي شريكين. و لم يحصل أن سأل أباه عن هذا الأمر، و لكنه كان يعلم أن لأبيه مصالح مع الجيراوي ليست بالهينة .. و مرة أخرى شعر بحاجة قوية لوجود خاله شمران الأحمدي ليفسر له ما يجري .. أين أنت يا خالي! ..

و روى للجيراوي ما دار في غرفة الضابط، فطلب الجيراوي من المحامي أن يدنو منه، و وشوش في أذن المحامي بكلمات لم يسمعها مرهون .. و يرجع المحامي الى غرفة الضابط، و يعود بعد دقائق و بيده سلسلة مفاتيح غايب مرهون كي يضعها بيد مرهون، فيعلق الجيراوي:

- إبني مرهون .. هذي مفاتيح الوالد .. آني طلبت من أستاذ عبد الصمد يروح يرتب ويا الضابط و يجيبهه .. بس الترتيب مو ببلاش .. هذي المفاتيح أخذهه و شوف فلوس أبوك وين .. بغرفة الخان بالمعرض؟ .. بالبيت؟ .. بمكان غير هذني الإثنين؟

و الجيراوي يتحدث .. تراءى لمرهون لغة نظرات خاطفة مريبة تمر بين المحامي و عامر كبسوني و يتلقفها بإرتباك ليس واضحاً تماماً.

و المحامي يعلن:

- هسه .. نروح للمستشفى!

إنتزع الجيراوي جسده من المقعد بعسرٍ بالغ، و قد بدت قطرات العرق تنساب في ثناياه على شكل سواق رفيعةٍ، و إبتل به حتى قميصه الملاصق لكرشه، و راح يمشي الهوينا متمايلاً، و كأنه شاحنة كبيرة تجرها ماكنة سيارة صغيرة جداً . . و يتبعه الآخرون.

فضّل مرهون أن يسير خلفهم جميعاً . . و هي عادةٌ إكتسبها من خاله شمران عندما فسرها له قائلاً . . تمشي في الخلف أو تگعد بالخلف معناه . . المنظر كله يكون أمامك . . الأشخاص و الموجودات . . و هكذا تتوفر للعين فجوات الخلل في الموقف . . و غير هذا الناس مو عندهم إنطباع عام أن سيماء الوجه تكشف عن الشخص في أغلب الأحيان . . بس هذا برأيي إنطباع صحيح الى حد ما بس ناقص . . أنظر للناس من الخلف و شوفوهم شلون يگعدون و يمشون و سترى العجب! . . متذكرا كلمات خاله لم يكن قد بقي أمامه إلا القليل من الخطوات المتبقية للوصول الى المارسيدس الصفراء، شاخصاً ببصره نحو الأرض . . في السيارة جلس الجيراوي في المقعد الأمامي الى جانب السائق، و جلس مرهون و عمه في المقعد الخلفي، في حين ذهب عامر كبسوني مع المحامي في سيارته. لم يجرِ قط أي حديث أثناء المسافة التي قطعتها المرسيدس الى مستشفى الفلوجة الجمهوري.

منذ مجئهم الى الفلوجة . . كان هم مرهون الأول هو رؤية الشخصين اللذين كان بمعية أبيه أثناء الحادث. . و ها هو أحدهما جالس معافى في السيارة التي تسير أمام المارسيدس مع المحامي عراب الموقف بأكمله . . و ها هو بإنتظار رؤية الآخر! . . و مرهون على معرفة بشحاتة مندور الجنايني المصري الذي يعمل مع أبيه، و قد رآه في بيتهم أكثر من مرة وقت غداء أو عشاء.

يدخل ركاب السيارتين الى المستشفى تباعاً، يتقدمهم المحامي و الجيراوي و الآخرون وراءهما. سلم المحامي على موظف الإستعلامات، ليستأذنه بزيارة شحاتة، فقال الرجل:

- تقصد المصري اللي بالطوارئ . . اللي جيت عليه البارحة؟

أزاء هاجس الغموض الذي يلف الموقف، صار مرهون كأن حواسه تضاعف عددها و نشاطها. إنتبه مرهون لحركة من المحامي تنم على إمتعاض من الموظف الذي قد يكون أفضى بمعلومات لا يريد المحامي إفشاءها، و في محاولة منه لإخفاء إمتعاضه من ذرابة لسان الرجل لكشفه زيارته للمصري في يوم سابق، فيرد على الموظف بإمتعاض واضح قائلاً:

- إي البارحة . . و البارحة راح ويا البارحة . . إحنه شعلينه بالبارحة!

و يعلق رجل الإستعلامات بنبرة بدت لمرهون مغيضة للمحامي:

- و أنت الصادگ! . . البارحة راح ويا البارحة . . و البارحة طلع شحاتة مندور المصري المستشفى . . مشى البارحة بعد ما مشيت أنت!

- طلع من المستشفى!

- نعم . . غادر بعد الظهر على مسؤوليته الشخصية . . و بالجبيرة اللي بيده . . حتى قبل أن يسوي فحوصات إضافية . . و قَّع على إقرار يغادر على مسؤوليته و طلع!

و يتدخل الجيراوي:

- وين راح؟

يرد الموظف:

- ما أدري! . . روح دَوِّر عليه و إسأله هو وين راح! . . هذا مو شغلنا أخي!

و يعلق كبسوني:

- غريب!

و يعقب حسين الجيراوي:

- غريب! . . لأن هو ما رجع لبعگوبة . . و أغراضه بعدهه بغرفته بالمعرض . . و هوه ما مسويهه سابقاً! . . ما بات أبداً و لا مرة خارج غرفة المعرض!

ينسحبون خارجين من المستشفى . . و لم يكن إحساس مرهون بالخيبة حتى أقل من الخيبة التي أحسها و هو في غرفة ضابط الأمانات في مركز الشرطة . . ما الذي جعل شحاتة يغادر المستشفى هكذا، حتى قبل أن يكمل فحوصاته؟ . . أو ربما ما الذي جعله يَفِرّ؟ . . فوقع بصره على عجيزة الجيراوي الذي كان يسير أمامه، و هم يغادرون المستشفى، فإشمئز منه و من مشيته، و تملكه إحساس جديد تجاه الكائن المتماشي أمامه. إحساس لم يكن من نوع . . لا ضغينة و لا حب . . بل إحساسٌ ينضح ريبةً و شكاً و توجساً و مرارةً.

و كأنه أراد أن يصرف الحديث عن الأمر برمته و يسدل الستار على مسرحية تلمس مرهون بعض خيوط فصولها، أعلن الجيراوي:

- يلله! . . أفضِّل يصير غدانه في بغداد، و إحنه مارين بيهه رايحين لبعگوبة.

لم يعقب أحد.

يلتأم الجمع مرة أخرى في السيارة عدا كبسوني الذي ركب بسيارة المحامي . . و يطلب الجيراوي من مرهون الجلوس في المقعد الأمامي، متذرعا بأنه لا يرتاح في جلسته في ذاك المقعد . . و خايلت مرهون حالاً صورة والده و هو في المقعد الأمامي . . والده الذي إنغدر وحيدا في ذاك الحادث . . و يركن الجميع الى الصمت . . و يظل مرهون، بمحاولاته المتكررة إصطياد إغفاءة، يتحدى فيها العشو الذي تتعرض

له عيناه من جلوسه في المقعد الأمامي للسيارة، بسبب إنعكاس أشعة الشمس القوية على غطاء ماكنة السيارة الصقيل اللماع المشع . . مرهون يتحدى ذلك العشو و أشعة الشمس بالتحديق المستمر في الطريق الذي ظلت المارسيدس تنهبه نهباً، و كأنها تبتلعه في جوفها، فأحس و كأنه هو الذي يبتلع في جوفه إسفلت الطريق و المقتربات و الأشياء الأخرى المتطايرة في الطريق . . في وصلة من الطريق ينكشف الأفق أمامه مترامياً، بعد أن تراءى له الجو غائماً. و لذهوله الفائق، لم يكن ليدري بم كان الأفق غائماً! . . أبسحبٍ أم بدخان؟

* * * * *   * * * * *   * * * * *

المارسيدس الصفراء تدخل بعقوبة عند آخر شفق للشمس، فيسمع مرهون صوت سائق المارسيدس، و كأنه لم يسمعه يتحدث قط أثناء النهار، يسأله:

- عيني مرهون . . تروح للبيت؟

- للبيت؟ . . لا! . . أريد أنزل وياكم بالمعرض.

في المعرض يطلب مرهون من الجيراوي رؤية دولاب أبيه، فيأخذ الجيراوي الى غرفة موجودة في باحة وراء المعرض يسمونها الخان، و يشير الى أحد دولابين قائلاً:

- هذا هو!

هذه هي المرة الثالثة التي يدخل فيها مرهون هذه الغرفة . . حيث كان أبوه يسكن عندما يغيب عن البيت . . و إنه في الواقع كان يعرف بوجود الدولاب لأنه الدولاب نفسه الذي كان في . . كازينو أم كلثوم . . و نقله أبوه الى هنا حين غادر السجن قبل أكثر من عامين، و لكنه أراد أن يتأكد من وجود الدولاب . . و لم يسأل قط عن عائدية الدولاب الثاني . . نظر الى الدولاب الحديدي، بقفله المتوسط الحجم، و همَّ على التقدم

لفتح الدولاب، و لكنه أحجم لدواع كثيرة إنتابت عقله الغض، فإستفسر من الجيراوي:

- عم حسين . . و مفتاح الدولاب! . . وين المفتاح؟

- المفتاح حتماً چان بجيب المرحوم ويا المفاتيح اللي إستلمتهه إنت بالفلوجة و هي هسه بجيبك!

يشكر مرهون الجيراوي مرة أخرى و يغادر المكان.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

مات غايب مرهون بكر و هو في أواسط عقده الخامس . . رجلا ربعة، أسمرَ البشرة، عريضَ المنكبين، عاليَ الصدر، لا تكف عينُهُ اليمنى عن الرفيف، بخاصة حين تنكشف ضحكته عن كاملِ صفِ أسنانِ فكِهِ الأسفلِ التي غلفها بالذهب جميعا عند أول فرصة لتوفير المال . . و ظل حتى مماته يقارب بين حاجبيه حين ينظر الى شئ متمعنا. و من وراء ظهره، كان بعض معارفه يعلقون بطريقة لا تخلو من لمزٍ على ملازمة لتلك العادة:

- ها ها ها ها! . . ليش ما تعرفون منين إجَتْ هالعادة! . . ها ها ها ها! . . هذي العادة صارت عنده من چان يروح ويه أبوه المرحوم الى محطة القطار! . . ها ها ها ها! . .

و قد يُشجِع هذ اللمز أحد المعارف، فيزعم أن حدة مزاج غايب أتته أيضا من تلك الحقبة ذاتها من صباه، حين كان يطول إنتظارهما . . و يطول . . و يطول بإنتظار القطارات الصاعدة الى كركوك و النازلة الى بغداد عبر محطة بعقوبة. و باتت عينه ترف من كثرة التطلع الى الجهة التي يظهر منها القطار شرقاً أو غرباً . . و قد يعلق آخر:

- إي . . تمام! . . هو بذاك الوَكِت حتى صار مثل الواوي لمّا يتأخر

القطـار و ينحصـر يدير طيـزه . . و يـرش شـريط زربتـه علـى النـاس . . هـا هـا هـا هـا هـا! . .

و لربمـا يسـمع المـرء مـن يحتـج علـى هـذا الوصـف الأخيـر لإنطوائـه علـى ظلـم كبيـر لغايـب، فصحيـح أنـه لـم يكـن يتمتـع قـط بكامـل صفـات، مـن بينهـا ألمعيـة و مكـر و دهـاء و نعومـة و حـذر و حيطـة و جشـع، عـادة مـا يتمتـع بهـا المرابـون فـي سـوق بعقوبـة علـى قلتهـم مـن أمثـال عبـد الأميـر حميـدة و حميـد البهائـي الهويـدراوي، مثاليـن علـى جشـع المرابيـن فـي بعقوبـة، قبـل أن يلتحـق بهـم عبـد الصمـد الجورانـي المحامـي مديـرا لمصلحـة الربـا العائـدة للطبيـب المصـري إسـكندر رومـان المقيـم فـي بيـت فـي قلـب سـوق بعقوبـة منـذ الثلاثينيـات، إلا أنـه و مثلمـا يتحـدث بسـطاء النـاس عنـه فـي بعقوبـة بخاصـة مـن قـدَّم لهـم غايـب مرهـون قروضـاً ميسـرة بفوائـد قليلـة جـداً لا تـكاد تذكـر يـروح أحدهـم ليسـمعه النـاس مثـلاً يقـول كلمـة بحـق غايـب:

- . . الله يخلِـف عليـه بالخيـر . . يفـك ضيـگـة النـاس و مـا ياخـذ هوايـه و يصبـر بالتسـديد!

و راحـوا بعـد موتـه يستشـهدون حتـى بطريقـة موتـه التـي لـم تكـن توحـي بمـوت مـراب . . و ببسـاطة لأن غايـب ظـل تفكيـره و سـلوكه طيلـة حياتـه هـو هـو، منـذ أن رأت عينـاه النـور لأول مـرة . . سـلوك قـد لا يشـي ببـلادة، و إن كان يخفـق دائمـاً فـي خلـقِ إنطبـاعٍ لـدى مـن حولـه، بأنـه إرتقـى فـوق حقبـة إنتظـار القطـارات مـن أجـل الكديـة، لكـن قوتـه الروحيـة كانـت تنمـو الـى جانـب قوتـه البدنيـة التـي ظلـت تنمـو بإسـتمرار حتـى يـوم مماتـه، و قـد يعـود الفضـل فيهـا ربمـا الـى كونـه الولـد الثانـي لأسـرة، تدخّـل القـدر بفظاظـة و قسـوة متناهيـة فـي مصيرهـا و قدرهـا . . و لكـن القـدر أخفـق فـي جعـل غايـب يرسـف فـي مخلفـات معانـاة الشـحة الماديـة، التـي عانـى منهـا و هـو صبـي . . و مـا أن بـدأت سـيولة المـال تجـري بيـن يديـه يسـيرة، راح يغـدق منـه علـى مـن هـم بحاجـة للمـال مـن النـاس الذيـن مـن حولـه، غربـاء و معـارف . . أمـا كيـف تحـول غايـب مرهـون الـى مـراب فهـذا سـر سـيفصح عنـه فيمـا

بعد صديقاه، حسين گطمة صديقه المقرب و نديمه في جلسات السكر، و صُبَيِّح علو الدنداوي جاره الكبابچي، بخاصة حين كان يقول له:

- . . أشوفك إتطشر فلوسك على اللي رايح و على اللي جاي! . .

فيرد عليه غايب:

- . . لا أبو سعد! . . الله لا يرجِّعهن عليّ ذيچ الأيام السود . . آني أنطي للناس قروض بفوائد كلش قليلة أولا حتى لا ينأكل عليَّ مالي . . و ثانيا أساعدهم و أفك ضيگتهم! . .

فمن أين، يا ترى، للناس بمرابٍ من هذا الطراز!

فانتازيا ... مرهون بكر العربنچي

مهما سألوه . . مرهون بكر والد غايب لم يصرح يوما قط عن الجهة التي أتى منها الى بعقوبة في أعقاب دخول الإنكليز إليها أبان الحرب العالمية الأولى. عرفته المدينة عربنچياً أعوراً في باصرته اليمنى، إشتهر بنقل المسافرين بالقطارات . . قادمين الى مدينة بعقوبة، فيأخذهم الى البيوت التي يقصدونها. و مغادرين منها ليلاً و نهاراً بإتجاه محطة القطار، فيأخذهم الى الريل الذي ينقلهم حيث يشاؤون. و لأنه وحيد و كأنه، مثلما يقال في الأمثال . . مقطوع من شجرة ماتت و ليس لها صنوٌ . . إشتهر أيضا بكونه الوحيد، من بين العربنچية، الذي يخفر كل ليلة بإنتظار قطار ما بعد منتصف الليل، ليأخذ إليه و يجلب منه المسافرين. و هو شاب في عقده الثالث، مقطوع من شجرة، لا يشغله شاغل سوى عربانته الربل[1] و حصانين يسوسهما بنفسه، ما دام هو نفسه يسكن خان الشاهبندر، خان الخيل المشهور المجاور لمقهى عباس تيتي، المعروفة بمقهى المطيرچية . . و من كثرة تعلقه بحصانيه و تعلقهما به، ما كان شاغله بهما يسمح لنفس مرهون أن تراودها بعض الأماني، أو أن تشطح بنوع من الأحلام . . أحلام من نوع التعليقات التي قد يحاول البعض بها دغدغة مشاعر مرهون، أثناء إرتياده لمقهى عباس تيتي بعد الغروب و تناول العشاء . . و كان غالباً ما يرد على مثل تلك الدغدغات التي يطلقها رواد المقهى من المطيرچية و العربنچية قائلاً:

[1] عربانة الربل: هي التسمية العراقية للحنطور. و العربنچي هو الحوذي

- لغوة! . . هذي كلها لغوة! . . آني عندي حصانين و عربانة . . بعد شسوي بالنسوان!

و ينكب على ناركيلته، لِتَنمجَّ من فمه ريح محروقة و فائخة، بعد كل شفطة دخان منها، و هو يستمع لتعليقات من نوع:

- إي هسه لو واحد من الحصانين مالته نثية چان إفتهمنه! . . بس اللي عنده هنَّ حصانين كل واحد منهم زبه عبالك حبل!

و تروح القهقهات لتمتزج بدخان النارگيلات و السگائر و رائحة الروث العالقة بملابس ساسة الخيل من الرواد.

و تمضي السنون . . و مع نسيج زمنها يصير مرهون العربنچي علامة فارقة في طريق السفر لدى أغلب أهالي بعقوبة، بخاصة أولئك الذين تضطرهم أعمالهم، أو نزواتهم، أو طقوسهم المذهبية، الى السفر بالقطار . . جنود . . تجار . . عطارون . . بقالون . . زوار عتبات مقدسة . . طالبو شفاء من مرض عند حكيم أو طبيب أو شفيع أو إمام أو قديس مدفون في بريّة من البراري . . لدرجة باتت فيها عيون أهل بعقوبة جميعاً تعرف مرهون و هو يعرف وجوهها، يميزها بعينه الواحدة، و يميزونه بتلك العين من بين جمع العربنچية، بل و صار يعرف حتى زوار بيوت بعقوبة الآتين من بلدات و مدن أخرى أيام الأعياد و العطل و المناسبات الأسرية في زواج أو وفاة أو طهور صبيان . . و هكذا أضحى يعرف الكثير عن آمال المسافرين و خيباتهم . . عن أفراحهم و أتراحهم . . عن أسرارهم و خباياهم . . يستمع إلى أسرار حكاياتهم، فتغور تلك الأسرار في بئر عميق و لا يتحدث بها الى أحد، لدرجة أنه أَلِفَ هو سفرَ الناس معه، و ألفوا هُم بدورِهم سفرَهُم معه و تعودوا على وضعه، بخاصة أولئك الذين تضطرهم ظروفهم الى تحمل وعثاء رحلات ذهاب و إياب كثيرة، بخاصة أثناء الليل الذي تطوى فيه أسرار و تنكشف أسرار!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

إبتـدأت مقاهــي بعقوبــة منــذ أواخــر عشــرينيات القــرن العشــرين تتقاسـم روادهـا تلقائيـاً . تتقاسـمهم دون قصـدٍ مسـبقٍ. و تلعـبُ الصِـدَف و الأمزجـة و الميول جميعهـا دوراً في تقاسمِ تلـك المقاهـي لروادها و تقاسِمُهم هـم لهـا بحسـب الطبقـة و المراكـز الإجتماعيـة . . وظائفهـم . . مهنهـم . . حرفهـم . . لربمـا يبـدو هـذا الأمـر و كأنـه حـدث صدفـة و بالتدريـج، لربمـا بسـبب ميلِ الرجـالِ للقـاءِ أقرانِهـم، أو زملائِهـم فـي العمـل، أو جيرانِهـم، أو مصالِحِهـم، أو وظائِفِهـم . . أو أن تكـون الوجاهـة قـد تدخلـت هـي أيضـاً فـي صياغـة هـذا الإصطفـاف فـي إرتيـاد المقاهـي . . الوجيـه يجالـس وجيهـاً مثلـه فـي مقهـى واحـد . . و صاحـبُ دكان يجالـس صاحـبَ دكان مثلـه . . و موظـفٌ يلتـم علـى زميـل لـه فـي المقهـى نفسـه . . و لا أحـد يـدري كيـف و متـى ظهـر هـذا الفـرز الإجتماعـي الـذي يبـدو تلقائيـاً فـي المقاهـي بوصفهـا أماكنـاً للّـقاءِ و التسـريةِ و سـماعِ الحكايـاتِ و القصـصِ و تناقـلِ الأخبـارِ! . . أبسـعي مـن أحـد مـا؟ . . أصحـاب المقاهـي مثـلاً؟ . . أَم بميـلٍ مـن الزبائـن أنفسـهم، علـى طريقـة الطيـور التـي تريـد أن تقـع علـى أشـكالها؟ . . أو حصـل تلقائيـاً بمحـض الصدفـة؟ . . و هكـذا أصطفيـت لعُلّيّـة القـوم فـي بعقوبـه المقاهـي فـي . . صـوب السـراي . . و هـو الصـوب الغربـي لنهيـر خراسـان المشـهور بيـن أهـل بلـدة بعقوبـة بتسـمية الشـاخة . . و تمتـد تلـك المقاهـي مـن مطلـعِ سـوقِ البلـدةِ الغربـي، مصطفـةً الـى جانـب جامـع بعقوبـة[2] نحـو الجنـوب، و منتهيـةً . . بمعمـل هـادي السـعيد . . للمشـروبات الغازيـة المعبـأة فـي قنانـي زجاجيـة . . مقهـى لفتـة و مقهـى عبـود صفـاوي و مقهـى البغـدادي فـي ركـن الشـارع المـؤدي الـى بنايـة السـراي مقـر المتصرفيـة، و يرتادهـا عُليّـة طبقـة الموظفيـن فـي المدينـة و مـدراء المـدارس و ضبـاط الشـرطة و الجيـش . . و مـن جامـع بعقوبـة ينحـدر نحـو الغـرب سـوق ضيـق إجتمـع فيـه ملاصقـاً لبـاب الجامـع دكانـي عبـاس القندرچـي و أبـو باسـم القندرچـي، أشـهر بائعـيِّ أحذيـة فـي بعقوبـة قبـل أن تفتـح شـركة باتـا فرعـاً لهـا فـي البلـدة . . و فـي الجهـة المقابلـة يقابلهمـا فـي محـل كبيـر بائـع الأسـلحة المرخصـة الوحيـد فـي بعقوبـة

[٢] هذا الجامع هدم في مطلع سبعينيات القرن العشرين و اقيمت في مكانه بناية «العيادة الشعبية» الحالية.

الوجيه المعروف عبود أسطة عباس، و في عمق السوق تنتثر الدكاكين الصغيرة للصاغة و جُلّهُم من الصابئة المندائيين و بعض الحرفيين الآخرين يتوسطهم محل كبير لمجيد الكرادي، أحد أشهر تتنچيَّين[3] إثنين في بعقوبة، لينتهي السوق في ركنه الأيسر بدائرة بريد و تلفونات بعقوبة التي يقابلها مقهى شكر التي يرتادها الحرفيون و بجانبها محل صالح الزهيري صاحب . . فرع شركة سنجر المشهورة عالمياً . . في الجهة الأخرى من الشارع المار . . بمحلة راس العگد . . و بناية بلدية بعقوبة . . و يؤدي شمالا الى قرية الهويدر و خرنابات و منطقة الوقف . . و جنوباً بإتجاه محلة المنجرة و بناية سراي بعقوبة التي تضم مركز ادارة اللواء[4] و الدوائر الملحقة بها.

و في صوب الشاخة الشرقي المسمى . . صوب التكية . . ثمة مقهى حسين صفاوي، الذي يرتاده عُليَّة القوم من الملاكين الكبار و التجار الكبار و شيوخ العشائر، و بمسافة عنه، من ناحية الجنوب . . مقابل مقهى البغدادي الموجودة في صوب السراي . . ثمة مقهى السفينة المشهور بشكله الذي يشبه السفينة فعلا، يرتاده المعلمون و الموظفون من الطبقة الدنيا . . و إذا أتى المرء من المدخل الرئيس لسوق المدينة الملاصق لمقهى حسين صفاوي من جهة الشمال، لو سار صوب الشرق بإتجاه محلة أم النوة . . ثمة في نهاية السوق تقريبا مقهى محمود جوير، التي يلتقي فيها أصحاب الدكاكين الصغيرة و الحرفيون البسطاء، تقابلها قهوة طالب الهويدراوي، التي لا تفصلها عن مقهى عباس تيتي سوى باب خان العرباين في قعر السوق. و مقهى عباس تيتي التي بسبب تطرفها في المكان من السوق، و بسبب جيرتها لخانات الخيل، صار لا يرتادها سوى العربنچية و المطيرچية و الكسبة و الحمّالين و العتالين و الفرخچية[٥].

٣ من «تتنچي» و هو بائع «التتن» و المقصود به «التبغ»

٤ «اللواء» كانت التسمية القديمة للوحدة الادارية التي تسمى الآن «محافظة»

٥ الفرخچية: هي تسمية العراقيين للواطيين من صيادي الصبية الصغار للتغرير بهم.

في مقهى عباس تيتي، كان مرهون، في كل ليلة، هدفا لأنواع التعليقات:

- تاليهه وياك مرهون!

- شوكت راح تصير آدمي و تتزوج؟

- شوكت راح يصيرلك نصيب تلزم الحمامة بيدك و تضوگ ماي التنگة[6]!

و مرهون بكر لا ير سوى بكلمة واحدة:

- لغوة!

يتبعها عادة بعفطة طويلة إشتهر بها في المقهى هو مرهون لا غيره . . عفطة تهتز لها رؤوس رواد المكان الملئ بدخان السجائر، و تضطرب لها الطيور الموضوعة في أقفاصٍ في عقب المقهى، و تتوقف لها لثوان ضوضاء قطع دومينة تصم الآذان إعتاد لاعبوها على لطشها بقوة على سطح الطاولة . . و يروح الجميع يتلفتون بإنتظارِ تعليق ماهي العربنچي، و سرعان ما يُسمع صوت ماهي العربنچي معلقاً:

- ولكم . . هذا مرهون أخاف ما عنده زب!

و تضج المقهى بقهقهات تطغى على صوت أي شئ آخر في المقهى المختنق هواؤه - ها ها ها ها ها! . .

- ها ها ها ها ها! . .

و يصبر مرهون بعد الرد على تلك القهقهات سوى بكلمة واحدة:

---

٦ «التنگة» وعاء فخاري برقبة، و يشبه الى حد ما القلة المصرية و كان العراقيون يستعملونه صيفا لتبريد مياه الشرب، و منه ما يشبه الابريق فيه بلبل لسكب الماء و يرمز به في الشعائر الشعبية الى الذكور، و منها بدون بلبل و يرمز فيه للاناث و هو «التنگة»

- لغوة!

و يطلق عفطة ثانية أطول و أشد ليفحم المعلقين و الساخرين . . و لم ترَ مقهى عباس تيتي من يجاري، أو يبز مرهون بعفطاته سوى زميله و صديقه ماهي العربنچي!

و يحصل ذات فجر . . مرهون في عربانته الربل ينقل عمران الچيال، أكثر الناس ألفةً مع مرهون. و عمران تاجرً يضطرُه عملهُ الذهاب الى بغداد و العودة منها مرتين في الأسبوع على الأقل. ألفةُ عمران مع مرهون تبيح له حتى أن يمزح مع مرهون مزاحاً ثقيلاً، فقال له مرة:

- مرهون . .آني ما عليّ بحچي الناس بگهوة عباس تيتي . . شوكت راح تعوف الخان؟ . . مو كافي عد!

- أعوف الخان! . . آني إذا أعوف الخان معناه أعوف روحي! . . وين أروح أبو مطشر؟

فيقترح عمران:

- تتزوج و تسكن في بيت مثل باقي الأوادم! . . و يصير وياك بالبيت نفس . . نفس حُرمة . . تحبك و تحبهه . . و تجيب منها خلفة!

و ترد الى ذهن مرهون فوراً مفردة . . لغوة . . التي إعتاد أن يعلق بها على ما يقولونه في مقهى عباس تيتي، و لكنه حبسها في الوقت المناسب، حين تذكر بأن عمران هو من رواد مقهى حسين صفاوي و له مقامه، و ليس من نوع الخلق الذين يتردد على مقهى عباس تيتي، فوجد الإحترام هنا واجباً . . و تكون المفاجأة له كبيرة بتخاطر ما في بال عمران مع ما دار في خاطره فوراً، حين قال عمران:

- ها مرهون؟ . . هم راح تگوللي چلمة . . لغوة . . اللي تگولهه بگهوة عباس تيتي للعربنچية؟

ها هو تعليق عمران ينزل عليه نزول الصاعقة . . و حدَّثَتْهُ نفسه . شوفو شلون الحچي يوصل من گهوة لگهوة! . . عفيه ولايه ما تضم حچاية؟ . . و يسمع عمران يواصل قائلاً:

- مرهون . . إنتَ لازم تبطّلْ هذي اللغوة مالتك اللي ترد بيهه على الناس!

لكن مرهون يتشجع و يرد على عمران:

- أبو مطشر ليش أبطِّل؟ . . عيني أبو مطشر . . واحد شايل لحيته و آخر يگول دا تنغزني! . . ها ها ها ها ها! . . و لك ديخ!

و يضرب حصانيه سوطاً . . و يستمر عمران معلقاً:

- لك إنت لو مرة وحده بس . . مرة وحدة بس . . تجرب ليلة زواج و تلزم العصفور بيدك . . چان بدلت چلمة . . لغوة . . هذي مالتك بچلمة . . نعمة!

فيتعجب مرهون و يرد معلقاً:

- لعد هاي إنتو هناك . . . هذا الشي اللي يسموه بگهوة عباس تيتي حمامة . . إنتو بگهوة حسين صفاوي . . تسمونه عصفور لذاك الشي اللي بين زرور النسوان! . . عجيب! . . حمامة! . . عصفور! . . ها ها ها ها! . . و لك ديخ!

و ما سيورط مرهون هنا هو شعوره بالضعة و بقناعته بأن عمران ليس عنده من النساء ما يظنه هو مرهون العربچي يصلح لهنّ زوجاً. و حلاً للموقف، و لإعتقاده بأن ما من إمرأة ستقبل الزواج من عربنچي أعور، و بما ظنه قد يضع حدا لإلحاح عمران، و ربما بغير وعي بما يقول غامر و تجرأ قائلاً:

- أبو مطشر . . اذا چان الزواج نعيم مثل مَتگول . . الله و إيدك! . . أكو بين النسوان وحدة ترضى تتزوج واحد أعور مثلي؟

و بتسليمه على هذا النحو، ها هو مرهون يقع في الفخ دون أن يدري و يُغلَبَ على أمرِه. و ها هو يقع أخيرا في مصيدة عمران الچيال!

و لم يمض على الفجر الذي دار به ذاك الحديث بين عمران و مرهون سوى بضعة أسابيع . . و سيجد مرهون نفسه غير مصدقٍ أمام حجرة عروسه ليبيت ليلته الأولى، منذ مجيئه الى بعقوبة، خارج الخان، و مع إمرأة . . و رافضاً أن يصدّق ما جرى، حيث كانت عروسه تنتظره في الدار المتكون من غرفتين مبنيتين من الطين، إستأجره في محلة أم النوة.

مثُل مرهون في تلك الليلة أمامَ نرجس عروسِه . . و ها هو مرهون يطير صوابه من رأسه . . يقف أمام عروسه، و قد إعتاد أن يشتري جبن غنم من دكانة كاظم جبر المقابلة لمقهى عباس تيتي، و أول ما تبادر الى ذهنه عبارة . . تشبه جبن الغنم! . . لدرجة أنه خاف تلك الليلة أن يقترب من جبنة الغنم، كيلا يلوثها بيديه التي إعتادت على ملمس روث الخيل، على الرغم من أنه ظل أياماً قبل ليلة دُخلَتِهِ عليها يغسلهما و يغرقها بالشحم، بنصيحة من رواد مقهى عباس تيتي، لكي تَنعمَ يداه قليلاً، و يعلقون:

- مرهون دير بالك! . . تره الحمامة تفز من إيدين الخشنة!

- و لك مرهون . . من تنام ويا مرتك لا تخلي إيدك جو اللحاف و هي خشنه !

لاحظ كثيرون عليه، خلال الأسبوعين اللذين سبقا ليلةَ دخلتِه، هوسه المفاجئ بتنعيم يديه، و زاد عليها نصيحة القريبين منه في المقهى بتنعيم إضافي ظل فيه يوميا يهذّب يديه، و يدور في ذهنه . . أسيحتاج الأمر فعلاً الى كل هذا التنعيم ليديه؟ . . و بِمَ سيستعملهما و لأي غرض . .

بهاجسه هذا صار هدفاً لتعليقات جديدة ظلت تربكه في المقهى . . و لكنه و هو واقف بحضور نرجس يتطلعُ إليها، رافعاً كفيه أمام عينه الوحيدة، ينظرُ إليهما من خلال نظرته للرهبة التي أشاعتها في كيانه هالة نرجس عروسه، فإحتقرَ في داخله يديه هاتين اللتين ستلمسان هالة النور التي أمامه و لكنه لم يستطع أن يشبهها بشئ يفوق جمال . . جبنة الغنم!

و إذ إنغمرت ليلته تلك بما لا تتحمله شخصيته البسيطة، فما كان بنتظره فيها شئ ما فوق ما تتحمله طاقته، و روحه تتجاوز رغبته في لمسها، فقال في سره . . حرام! . . و اللـــــــــــــــه حرام! . . حرام أيديناتي الإثنين هذني اللي تعودّن على روث الحصان يكسرن هالجبنة البيضة . . و الله حرام!

و صحيح أن نرجس كانت، هي الأخرى، إمرأة وحيدة، جاوزت للتو عقدها الرابع، و لربما كانت تكبره بأعوام . . مقطوعة الجذور . . هذا كله لم يكن ليهمه، بل لم يسأل عنه أصلاً . . إلا أنه حين رآها تنتظره هناك في الغرفة الطينية، و بعينه الوحيدة يتطلع إليها على ضوء الفانوس الباهت، كأنها جنية آتية من بلاد حكايات السحر التي سمع عن بعضها ليلاً في مقهى عباس تيتي . . و لأن عقله البسيط الذي تعزّ عليه المقارنات النبيهة . . شبهها بجبنة الغنم!

يظل مرهون أسبوعاً كاملاً يحجم عن الدخول في نرجس، بسبب خوفه. و مثلما هي العادة دائما في مثل هذه المواقف، ها هي أخبار إخفاقه خرج الى الملأ من طريق النساء، و على ذمة نرجس. و بسبب إنتظار الناس الطويل لظهور للدليل مثلما هو معتاد و دارج على عذرية و عفة نرجس، سرعان ما راحت الإشاعات بعد أسبوع تنتشر مثل النار في الهشيم، بربط عمران الچيال بنرجس، بخاصة عند أولئك الذين يعرفون عمران و نزواته التي يروّح عنها في محلة الصابونچية في بغداد، فبدأوا يشككون بنوايا عمران و مخططاته لتزويج مرهون من

نرجس، و فسروا عدم خروجِ دليل العذرية بورطةٍ قد يكون عمران أوقع نفسه فيها دون أن يدري، و إن فكرة تزويجه مرهون من نرجس قد لا تكون جاءت منه بسلامة نية صافية! . . و على عادة الناس في إفساد ذممهم في مثل هذه الأحوال بإطلاق الأقاويل، ستسري الهمسات في مقهى عباس تيتي:

- الواحد من عندنا شلون يعرف! . . بس لا كون عمران كاسره للتنگة و يريد يغطي عليه!

كل هذا . . و مرهون كان آخر من يعلم، في الوقت الذي راح فيه عمران يوظف إمكانيات النساء الخرافية، من تعازيم و تمائم و أدوية و أدعية سحرية، مستعملة في مجال ما يسمونه . . فك العُگدة[7] . . عدا ما قام به عمران من جهود لتشجيع مرهون على تجاوز محنته. و آنذاك فقط إستوعبَ عقلَ مرهون البسيط فكرة أن الأمر قد يكون فيه إهانة لرجولته إن لم يقم بمهمته كاملة، و يكسر قرص جبنة الغنم! . . و خشية مرهون الأكبر كانت من أقاويل العربنچية عن علاقة شاذة بينه و الحصانين!

و لربما توفر مبرر كاف عند أولئك الذين ظنوا الظنون بعلاقة عمران بنرجس . . و في الواقع . . ألا تكون فرصة من نوع ما قد واتت عمران ليتورط مع نرجس مثلما تخيل الناس . . فرصة من تلك الفرص الذهبية التي تراود أغلب الرجال حين تتواجد حولهم إمرأة بوضعية نرجس، فلأن عمل عمران ما كان ليقيّض له أن يتواجد في أوقات تتيح له مهرباً إليها، فهو لا يعود من عمله إلا مساءً، و تكون آنذاك بإنتظاره زوجة تعرف واجباتها أتم العرفان! . . لذا ظلت نرجس بتولاً على الرغم من أنها تعيش وحيدة في بيت لصق بيت عمران، و بنخوة من مالك

٧ «فك العگدة» هي التسمية المستعملة في مثل هذه الحالات عن رجال يصعب عليهم الدخول في زوجاتهم ليلة الدخلة . . كان الاعتقاد الشعبي، و ما يزال، يظن أن شخصا ما قد فعل سحرا من نوع ما للعريس لمنعه من أداء مهمته في ليلة الدخلة، لذا يجب صنع سحر يبطل ذاك السحر.

الـدار، والـد عمـران، و بحمايـة مـن أهـل المحلـة.

و هـا هـي الليلـة الثامنـة تأتـي . . و سـيخيب فيهـا فـأل المتقولين الذيـن راجـت ظنونهـم حـول عمـران، بخاصـة أولئـك الـذي فَسُدَت ذممهـم و قالـوا مـا قالـوا . . و خـاب أيضـاً فـأل أولئـك الذيـن راجـت فكاهاتهـم و نكاتهـم عـن رخـاوة رجولـة مرهـون و علاقتـه بحصانيـه . . و أخيـراً فطـر مرهـون بُـعيد منتصـف الليلـة الثامنـة بجبنـة الغنـم!

و هـا هـو يظهـر للعلـن أخيـرا الأمـر الـذي سـهى عنـه المتقولـون عـن عمـران جميعـا . . فبـزواج مرهـون و إنتقـال نرجـس معـه للعيـش فـي بيـت فـي محلـة أم النـوة تحقـق لعمـران مـا أراده مـن وراء تزويجـه نرجـس لمرهـون، إسـترداده لـدار ورثهـا عـن أبيـه و أضحـى يؤجرهـا و تـدر عليـه دخـلاً، و كان أبـوه قـد تبـرع بهـا فضـلاً لسـكن نرجـس و أمهـا!

*****　　　　*****　　　　*****

نرجـس، فـي الواقـع، مثـل مرهـون مقطوعـة مـن شـجرة، لدرجـة أن سـماع مرهـون لتعليقـات النـاس حـول إنقطاعهمـا عـن أهلهمـا بقولهـم . . إثنيناتهـم مـگطوعيـن مـن شـجرة! . . مـا جعـل مرهـون يعلـق بعـد أشـهر مـن زواجهمـا:

- إي والله تمـام! . . و الله تمـام . . و النبـي تمـام . . و علـي بـن أبـي طالـب تمـام! . . بـس الفـرق بينـي و بينهـه واضـح و مبيّـن . . . هـي مـگطوعـة مـن شـجرة رمـان و آنـي مكطـوع مـن شـجرة علّيـگ! . . هـا هـا هـا هـا هـا!

*****　　　　*****　　　　*****

كانـت الرمانـة مثلمـا وصفهـا مرهـون بكـر العربنچـي، أثـراً مـن آثـار العثمانييـن . . إبنـة الجندرمـة توركـت طـاووغ، واحـد مـن قلـة مـن أفـراد الجندرمـة أتـوا بأسـرِهم معهـم مـن بـلاد الأناضـول الـى بعقوبـة. قُـتل علـى يـد الإنـگليـز فـي الحـرب العالميـة الأولـى، و تـرك نرجـس و أمهـا وراءه. فإحتـارت الأم الأرملـة حينـذاك فيمـا تفعلـه بعـد رحيـل رب الأسـرة، الـذي مـا

كفت زوجته لحظة عن الإعتقاد بأن زوجها مات مجاهدا شهيداً في سبيل الله و هو يقاتل الإنـگليز الكفار. و بسبب ورع الأرملة الشديد و تعلقها بزوجها الذي وُرِيَ الثرى في . . مقبرة أبي إدريس . . على الطريق بين بعقوبة و ناحية بهرز، ما أرادت تلك المرأة العصملية أن تفارق الأرض التي دُفِن فيها زوجها. و حرَّك هذا شيمة و نخوة أهل المحلة، الذين شاركوها مصابها في زوجها و أعتبروه تعاطفاً مع زوجة مسلمٍ شهيدٍ قتله الكفار الإنـگليز . . و هكذا أعفى والد عمران الچيال، مالك الدار الذي كانت تسكن فيه أسرة طاووغ، من دفع الإيجار، و شمل ذاك التكريم أهل المحلة الآخرين، فأمدوها بما تحتاجه من أسباب العيش، لغاية أن إتخذت من صناعة الخبز ما يمكنها من العيش، بأقل قدر من الحاجة للناس، تساعدها إبنتها التي كانت شابة في عشرينياتها حين قُتِلَ أبوها. و ساعدها رجال . . محلة الـگِنِـثْ . . حيث يسكن عمران جاراً لها، على شراء الحنطة و طحنها في . . مطحنة محمد الديري . . القريبة مقابل خان ميرة و تموين للجيش العثماني، و إحتله الانـگليز فيما بعد، و درج الناس على تسميته . . خان الشاهبندر . . و شمل الديري صاحب المطحنة هو الآخر الأرملة بعناية خاصة حين سمع بمحنتها. و هكذا تعلم الناس شراء الخبز منها، نخوة منهم، لكي يجنبونها ذل السؤال . . يشترون منها الخبز غالباً حتى لو لم تكن لهم فيه حاجة.

هذا كله لم يُنسِ الأرملة، و لا حتى لحظة واحدة، زوجها الذي كانت تسميه . . توركت الشهيد . . و ظلت مواظبة على زيارة قبره أيام الجمع بمعية إبنتها. تذهب الى هناك مشيا من . . محلة الـگنث . . و حتى مقبرة أبي دريس، هي و إبنتها نرجس، و تظل تنتحب لساعات بعد قراءة سورة الفاتحة على قبره. و من شدة حزنها على زوجها فارقت الحياة بعد ثلاث سنوات من رحيل زوجها، كمداً و حسرة على ما آلت إليه أمورها و إبنتها . . و دفنها أهل النخوة من ناس المحلة الى جانب زوجها في . . مقبرة أبي أدريس.

متروكة هكذا للوحدة . . حازت البنت نرجس على عطف

..ضاعف من أهل المحلة. و مع ذلك، لم يخطرُ ببالِ أحد أن يتزوجها، ..ظلت البنت الوحيدة هي الأخرى تكدح في سبيل لقمتها، و تبات ليلها , حيدة لمدة سبعة عشر عاماً، محافظة على عفتها و محتفظة بجمالها، الذي أضفى عليه الزمن إكتمالاً و نضجاً يتناسب و مراحل العمر، و ..أنها ظلت تتفجر فتوة بتقادم العمر.

و كأن الناس لم يكن لهم ليتذكروا نرجس إلا عند زواج مرهون منها . و ليلة دخلة مرهون عليها أثارت تساؤلات الناس عن سر عزوفها عن الزواج و إحتمال بقاءها عرضة للمصطادين من الرجال، متناسين ..أن الزوجات في المنطقة مع أنهن كن يعتبرن جمالها مصدر خطر عليهن، و لكنهن و بسبب غبائهن لم تـُفكر أية واحدة منهن بتحرير نساء المنطقة من خطر فتنة نرجس بتزويجها من أحد حتى لو كان من خارج المنطقة، إلا حين برقت في رأس عمران الچيال فكرة تحرير البيت الذي كانت تسكنه نرجس للإستفادة من إيجاره . . و ظلت نرجس هكذا تعاني سنين طويلة من نصيب الوحدة، لدرجة آمنت بأنها قد تموت و هي في ذروة حرماناتها المتعددة . . و لم تكن قد صدقت أول الأمر حين أتتها زوجة عمران خاطبةً لمرهون خانات عرباين الربل . . لم تصدق أبداً في البداية، أن الحظ أخيراً جاء ليدق على بابها، لكي يعوض عليها ما فاتها، حتى و إن كان الحظ سيعوض عليها برجل مثل مرهون . . رجل بعين واحدة . . لا أصل له و لا فصل . . لدرجة أنها إنكمشت حياء، حين علقت زوجة عمران عند خطبتها لمرهون قائلة لها:

- صحيح هو عنده عين وحدة . . بس عيني الزواج ما يحتاج عيون، عين وحدة زايدة عليه . . ها ها ها ها ها! . . و لا! . . مو بس هاي . . منو يگول الزواج يحتاج عيون! . . ها ها ها ها ها!

بطول إنتظار مغلف باليأس . . ها هو مرهون يدخل عليها، بعين ملصوقة الجفن و أخرى مفتوحة تلك الليلة و كأنها تريد أن ترى ما تراه عشرة عيون! . . حين دخل عليها ظلت، في الواقع، تسرق

النظر إليه بضوء الفانوس الكابي، لتتأكد . . أهو حقا بعين واحدة، مثلما قيل لها؟ . . و ظلت تحاول أن تتصوره، و تحضر في مخيلتها صورة أبيها، و ظل، هو الآخر، يرمقها بعينه الواحدة التي أرادت أن تعوض أيضاً حق عينه الملصوقة بالرؤية، بنظرات ممزوجة بأحلامه التي ظل يشارك بها حصانيه طيلة أسابيع مرّت كأنها أعوام . . حتى دخل على نرجس، منبهراً بالحضور الحقيقي لكل الجمال الذي أمامه، فنقم على عينه الأخرى و لامها، لأنها عاجزة عن إستزادته برؤية دفقات الفتنة المنبعثة من الكيان الأنثوي الذي أمامه . . إحتاج أسبوعا كاملاً، لكي يستوعب و يصدق أن كل ما هو فيه هو حقيقة! . . لا خيال! . . و لا حلم سيصحو منه! . . و لا وهم سيتبدد! . . و هذا كله ممزوج بخشية منه من أن يؤذي هذا الحضور، تائهاً في نوع النعيم الذي سيغرق به، و من أين يبتدأ شرب كأس النشوة . . و ما أن تغلَّب في الليلة الثامنة على خشيته و رهبته، مضطرباً كامل الإضطراب إرتشف أول رشفة من كأس اللذة، حتى وقف أمامها، مستلقية على الفراش فوق سرير الجريد، و نصف جسدها البض مكشوفاً له، فصاح:

- أموت على العصملي!

و تسول له نفسه شرب رشفة ثانية تلك الليلة من ذات الكأس، حتى صرخ بأعلى صوته مكرراً ما قاله، و ربما بإضافة بسيطة:

- أموت على ربّ ربّ العصملي!

وسط النعيم . . يكاد مرهون أن يتخلى عن عادته في الخروج بمسافري الليل بعربانته غبشاً، و لكنه أدرك بفطرته السليمة بأن الرزق مصدرُ فرح له و لنرجس، فلماذا ينكره، و ظل مداوماً على عادته بالخروج قبل الفجر لتلبية طلبات زبائنه. يترك الرمانة غافية، و يظل النهار كله غارقاً في حلمِ يقظةٍ مادتُهُ أن يجد الرمانة مساءً و قد إنفرط حبها بين يديه و ذراعيه و فخذيه . . يلتهم الحب القاني . . و تعود في الليلة التالية و هي

رمانـة مثلمـا يقـول لنفسـه . . صـاغ سـليم! . . بإنتظـار أن تنفـرط فـي ليلـة تاليـة فـي كأس رجولتـه بمـاء زلال . . و يناجـي نفسـه . . و تاليهـه ويـاك مرهـون! . . و خيلُ العربانـة مـن يسوسـها؟ . . آه الخيـل؟ . . و يتلفـت فـي البيـت، فيـرى فيـه تلـك الفسـحة الكبيـرة تصلـح مربطـا للحصانيـن . . زيـن مرهـون! . . و العربانـة؟ . . هـا؟ . . العربانـة؟ . . ليـش هذولـه مـو هـم العربنـچيـة كلهـم يخلـون عربانيهم كل واحـد منهـم يـم بيتـه بالدربونـة! . . و هكـذا ظـل مرهـون أسـير رمانتـه . . و سـرعان مـا تتكلـل جهـوده الليليـة بالنجـاح، بإرتفـاع تدريجـي فـي بطـن الرمانـة، ليكـون لهـم بعـد شـهور أول وليـد، و يسـألها:

- هذا الولد شراح نسمّيه؟

- على إسم أبو الأنبياء!

و يعلّق:

- صـار عينـي . . العصملـي يؤمـر . . نسـميه إبراهيـم! . . هـا هـا هـا هـا هـا!

و تقهقه هي معه معلقة:

- عصملي خاتون! . . ها ها ها ها ها!

و هـا هـو مرهـون ينغمـس أكثـر و يغـرق فـي التقـاط، بـل إلتهـام، حـب الرمـان . . و هـا هـي بطـن الرمانـة ترتفـع مـن جديـد . . و بعـد أشـهر، و ذات مسـاء يشـق صمـت فضـاء الغرفـة الطينيـة ولـد ثـان، و يستفسـر مرهـون مـن رمانتـه:

- عيني نرجس . . و هذا شراح نسمّيه؟

- غايب . . نسميه غايب!

- هـاي هـيّ . . غايـب غايـب! . . مثـل مـا يريـد العصملـي خاتـون! . . هـا

ها ها ها ها ها!

و لا يدرك مرهون سرَّ تسميتها لإبنهما غائباً، إلا حين طلبت إليه نرجس يوماً، و الولد ما يزال عمره شهرين، أن يذهب بها يوم جمعة الى مدفن والديها، و هناك خاطبت والدها في قبره:

- يا غايب . . هذا غايب إبني يشبهك . . بس مو أشگر مثلك أفندم . . طالع أسمر مثل أبوه أفندم!

و لأن مرهون بات مشغوفاً، لا يريم، و متيماً بطعم الرمانة، تطلُّ عليه في أول الليل بعينيها الزرقاوين فوق فرشة سرير جريد النخل، يندلق ثدييها اللدنين، بحلمتين يراهما تتمطيان بفم الوليد، و ما أن يهجع الطفلان يتلقفهما مرهون يتشممهما، و يبقي لولده ما فيهما من خير وفير . . و تمر أشهر أخرى، و ترتفع بطن نرجس ثالثةً، و تمر أشهر أخرى غيرها . . و يشق صوت الوليد هذه المرة صمت الفجر ليؤذن لولادة في عملية وضع معسرة، إنطلقت طلقاتها الأولى منذ مساء اليوم الذي سبق، يرافقها صراخ من نرجس . . و يصاب مرهون بالرعب . . إستغرق الصراخ الليل كله، صراخ لم يعتد عليه مرهون . . لكنه حين سيسمع أخيراً صرخات الوليد . . سيصيح من عنده و كأنها صيحة شؤم . . سلامات! . . و تخترق صرخته صمت بساتين النخل المحيطة بالدار . . و يكاد يبكي . . و حين دخل عليها سيقول لها:

- الحمد لله على السلامة . . شراح نسميه للوليد؟

و من بين نفثات أنينها . . ترد عليه بصوت واهن، لا يشبه صوتها عقب الولادتين السابقتين:

- أريد أسميه عصمان!

منهوبا بالقلق، و لأن وضعها لم يطمئنه علَّق بلامبالاة:

و شكو بيهه! . . نسمّيه عصمان!

و بدافع من سذاجة و جهل يخطر في باله . . هالمرة بالها كلش يم
ـصملي! . . و يطلق قهقهة وجلة . . ها ها ها ها ها! . . لم تشاركه
ـا هذه المرة الجدة التي ظلت نظرتها الحائرة تتنقل متصفحةً وجهه و
جه نرجس و وجه الوليد . . و ها هو قلبه يرتعد . . وأخيراً قالت الجدة:

مرهون . . الحمد لله على سلامتها . . ترى جيبوبتهه هالمرة چانت
صعبة كلش و تأذت هوايه!

يرد مرهون قلقاً:

خليهه يم الله!

يحصل، مثلما هو شائع عند الناس، أن يرهن مرهون أموره عند الله!
نزف متواصل و حاد، و سيشتد الألم في النهار التالي على نرجس،
لن تحتمل ما هي فيه أكثر من يوم واحد، و خاب ظن مرهون بربِّه
و فارقت الروح نرجس!

دع جسد الرمانة في . . مقبرة أبي أدريس . . محمولة على عربانة
هون، و يُورى جثمانها الثرى في رمس بين رمسي والديها. و ستتعهد
أة محسنة تربية الوليد المنحوس عصمان، و رعاية إبراهيم و غايب
اء غياب مرهون طلباً للرزق. و لولا أولاده الثلاثة الذين تركتهم له
جس، و ما جرى من حديث دار بينه و عمران الچيال عن الزواج
غبشة سعد، و ما حصد من نعيم أغرقه به زواجه من نرجس و
ثم فراقها المفاجئ الصاعق، ما كان مرهون ليصدق قط بأن ذاك كله
يكن حلماً قصيراً جداً لم تمهله الأقدار كي يستغرق فيه . . ظل بعدها
ة طويلة، حين يكون وراء حصانيه أثناء النهار، يرخي العنان لحصانيه
يران على هديهما، و يستعيد حلم الرمانة لحظة فلحظة . . ربي! . . آني
گد محتصر و گلبي مقبوض! . . ليش ربي ليش؟ . . ليش ربي شفتهه

زايدة عليّ!

بعودته في المساء، تاركا الوليد المنحوس عند المحسنة إليه، و مستعيداً ولديه إبراهيم و غايب من الجيران، يقضي الليل معهما، يضمهما و يشمهما، فيستثار برائحة نرجس فيهما. و بعد أن يهجعا، يخرج ملابس نرجس من الصندوق الصغير، و يغرق وجهه فيها، و يظل يبكي لساعات طويلة، لغاية أن يجُفَ جسمه و تهده الدموع، فتنشف عينه الوحيدة من الدمع، و يهجعُ لساعة أو أقل . . و في كل جمعة، ظل مرهون يذهب الى قبر نرجس، في طقس مقدس، ليبكيها هناك.

و تمضي سنتان، و مرهون على هذه الحال . . و تكون النتيجة أن كَبتْ عينه السليمة بالتدريج، و فقد على إثرها باصرته الوحيدة . . أصابه العمى، و يأخذه ماهي العربنچي صديقه و زميله بعد فوات الأوان الى بيت مسعودة زوجة شلومو المعروفة بطبِ العيون في . . دربونة أم الدجاج . . و تفحصه المرأة و تخبره أن ماءً أسوداً يحجب باصرته، و أن لا فائدة ترجى منه إلا بعملية جراحية في بغداد . . و من ذا يا ترى سيأخذه الى بغداد! . . و إذ لم يجد أحداً يشتغل بعربانته ليأتي له بمردود مهما كان بسيطاً، بدأ يقرض تدريجياً ما أفلحت نرجس في توفيره . . و إذ نفذ هذا، أو كاد ينفذ، همَّ على بيع عربانته و حصانيه اللذين بكاهما بكاءً أقلَ مرارة بقليلٍ من بكائه على الرمانة، حتى قبل أن يبيعهما. و لكنه و بلفتة فطنة، نادراً ما إعتاد عليها من قبل، باع الحصانين اللذين تحتاج رعايتهما و غذائهما مصروفاً، و أبقى على العربانة، علّ إبنه إبراهيم يشبَّ و يشتغل فيها . . و سرعان ما نضب ما عنده، فكان بين خيارين . . أما أن يموت جوعاً هو و ذريته أو أن يجوب الطرقات ماداً يده لإستجداءِ أيادي المحسنين!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

و من هناك، سيبدأ تاريخ مهنة مرهون التالية في ذرع الطرقات. تلك

المهنة التي إعتاد عليها الشحاذون في كل الأزمان، تاركاً عصمان أصغر أبنائه ذا الثلاث سنوات يركب كتفيه . . يده اليمنى ترتخي، و تشدُّ أحياناً حين يتذكر نرجس، على الكتف الأيسر لأكبر أبنائه الذي إسمه على اسم أبي الأنبياء، ليقوده عبر الطرقات المليئة بالأتربة و الوحول و المياه الآسنة . . يجري خلفهم إبنه الأوسط غايب الأسمر الذي يشبه العصملي الأشقر المدفون في . . مقبرة أبي دريس . . و هو يجوب الطرقات صارت لازمته . . يا ويلي يا نرجس! . . آه يا نرجس! . . يا ويلي يا نرجس! . . يتوقفون جميعا أحياناً أمام باب أي بيت، يتفضل أهله عليهم بطعام بائت أو مُعاف . . وبعد أن يأكل هو و أولاده . . يا ويلي نرجس! . . يا ويلي! . . و يحمل معه ما تجود به البيوت عليه مما يحمل في صرة!

بمرور عام . . نزل عصمان الولد الراكب على كتفِ أبيه أخيراً من عليائه . . و بذا أصبح الذين يجرون وراء مرهون في الدروب إثنين لا واحداً من الأبناء . . و ما أن تحرر كتف مرهون من هذا العبء، صارت خطواته أسلس و أسرع، ما مكّنه من توسيع خارطة مهنته، لتشمل قرى قريبة، و أحياء متطرفة، تستقبلهم كلابها النابحة، و سرعان ما تهدأ تلك الكلاب، بعد ان تتأكد بغريزتها ألا شأن يذكر للمارين بها! . . و لكن نزول عصمان عن كتفي مرهون مكّنه، من ناحية أخرى، من الضغط بيده اليمنى، بقوة أشدّ، على كتف إبنه البكر، و هو يقوده في خارطة الحارات، ما جعل كتف الولد يعتاد على إنحدار قليل دائم نحو الأسفل، بتأثير من ثقل يد الأب عليها، لتصير عادة تلازم إبراهيم، و يتقولب عليها كتفه نازلا الى الأبد، حتى حين يكون حراً من قبضة أبيه!

و ذات يوم، ها هو عقل مرهون يطير فجأة حين يتذكر محطة القطار و أيام محطة القطار، فإستغربَ من نفسه، و لامها كثيراً، لأن محطة القطار لم تخطر بباله من قبل قط، ساحة لطلب الرزق! . . و يرى صاحب البيت إنتعاش مهنة ذرع الطرقات و توسع مصالح مرهون في الشحاذة، بخاصة حين إمتدت الى محطة القطار، فيروح الرجل يساوم مرهون على إيجار للبيت:

- مرهون آني تحملت كل هذي السنين بعد أن ماتت مرتك . . من ذاك الوكت لحد هسه ما تدفعلي إيجار و آني راضي! . . لكن آني شنو ذنبي أتحمل أكثر و إنت أمورك ماشية زين هسه!

و يعزّ على مرهون أن يدفع أيجاراً للبيت، و قد إعتاد لبضعة سنين على ألا يدفع إيجاراً، فرد على المالك:

- و الله وياك حق! . . لكن آني شباقيلي بهذا البيت إذا آني النهار كله بره و ما أرجعله غير بالليل؟

- يعني؟

- من الخان جَيت و للخان أرجع!

و لم يجد مرهون متسعاً له في مكانه السابق، خان ميرة الجندرمة العثمانية، حيث كان هناك قبل أن يتزوج من نرجس، فذهب الى . . خان الگرطاني[8] . . مقابل حسينية بعقوبة و وجد هناك غرفة تصلح منزلاً له و لأولاده و مكاناً للعربانة . . و وجد في ماهي العربنچي زميلاً مخلصاً أحسن إليه و سحب له العربانة الى الخان بحصاني عربانته . . و سرعان ما عاد مرهون، ليندس أنفه و أذناه في مرابط الخيل تستمع لصهيلها في مرابطها و تتنشق رئتاه روائح روثها، و يتناهى إليه صياح السواس، و يحن الى حصانيه اللذين باعهما . . وينك مني يا خان! . . و ينك مني! . . هاذا آني مرهون! . . جيتك و رجعتلك إيد من ورا و أيد من جدّام! . . . طلعت منك غلبان و رجعتلك خسران! . . أويلي نرجس!

و في الخان . . يمر عليهم وقت يكمل فيه إبنه الأكبر المسمى على إسم أبي الأنبياء عامه الثامن. و يقول له ماهي العربنچي مرة:

---

٨ «خان الگرطاني» بني في مكانه أواسط خمسينيات القرن العشرين سوق كبير يتوسط سوق بعقوبة بمدخلين أحدهما مقابل حسينية بعقوبة و الآخر مقابل دربونة «أم الدجاج»

- مرهـون إنـت مـن تطلـع لشـغلة الـگـدية ليـش مـا تخلـي إبراهيـم ويانـه نعلمـه الشـغل؟ نعلمـه علـى الأقـل سياسـة الخيـل! . . و يـرد مرهـون:

- إي و الله صحيـح . . رحمـة لوالديك خويـه ماهـي . . بـس هـذا مـو بعـده زغيـر علـى الشـغل؟

يرد ماهي معلقاً:

- لا مرهـون . . مـو زغيّـر . . لعـد شـوكت تريـده يتعـود علـى شـغل العربايـن و الحصونـة؟ . . . أخويـه هـادي بشـهربان هميـن مثلـك ماتـت عيونـه و شـغّل أولاده و هـم زغـار! . . إنـت مـا مخلـي ببالـك يجـي يـوم تريـد منـه يريّحـك مـن هـذي المصلحـة الجايفـة اللـي إنـتَ هسـه بيهـه؟ . . أقصـد الـگـدية!

يقول مرهون:

- الله يوفقـك خويـة ماهـي! . . أي أريـد . . و الله أريـد . . . لعـد ليـش مـا أريـد أخلـص مـن هالشـغلة الجايفة!

و يبتـدئ إبراهيـم شـغل سياسـة الخيـل، و يبـرع بـه. و مـا هـي إلا أشـهر تمـر و سـيبتدأ إبراهيـم العنايـة بخيـل ماهـي و خيـل عربنـچيـة آخريـن! . . و يحـلُّ غايـب محـلَّ أخيـهِ . . ربـانٌ يقـود سـفينة الشـحاذة عبـر دروب البلـدة، و يجـري خلفهمـا أحيانـاً عصمـان، و أحيانـاً يتركانـه فـي الخـان برعايـة أخيـه الأكبـر . . و أكثـر تلـك الأماكـن حبـاً لمرهـون فـي طلـب الـرزق صـارت محطـة القطـار . . لا يتـرك موعـداً لقطـار . . نـازلٍ أو صـاعدٍ . . ليـلاً أو نهـاراً . . مسـتقبلاً أو مودعـاً . . إلا و يسـبق مرهـون ذاك القطـار بوجـوده فـي المحطـة قبـل موعـد وصولـه علـى الأقـل بسـاعة، سـوى ذاك الـذي يمـر فـي منتصـف الليـل . . و ظـل غايـب يقـود والـده الـى محطـة القطـار لمـدة سـنتين، و يجـدُ فـي ذلـك متعـة لا تضاهيهـا متعـة.

و أثنـاء مـا كان مرهـون يجـوب طرقـات بلـدة بعقوبـة يسـتجدي رزقـه بعـد

بيعـه حصانيـه، كان الإنـگـيز قـد بـدأوا بنـاء تسـهيلات البنيـة التحتيـة لمحطـة القطـار، بنايـة سـامقة، أشـادها عمالهـم الهنـود بآجـر و سـيراميك و مـواد بنـاء أخـرى جلبوهـا مـن خـارج العـراق . . و إنتصبـت البنايـة فـي تلـك الآونـة صرحـاً لا مثيـل لـه علـى الاطـلاق فـي بلـدة بعقوبـة. و ظلـت مثـار خيـالات جامحـة فـي عقـل غايـب الطفـل، بخاصـة حين يدخـل ليتبـول، فينبهـر بـالجدران مغلفـة مـن أعلاهـا الـى أدناهـا بالسيراميك الأبيـض المربـع الأشـكال . . و يمتد خيالـه بإمتـداد رؤيتـه للقطـار العجيـب بطولـه، و صفيـره، و دخانـه المتصـاعـد المسـحوب بفعـل الريـح فـوق الماكنـة البخاريـة ليتبـدد فوقهـا مختلطـا بـه بخـار صفـارة القطـار حيـن تصفـر طويـلاً . . تـو تـوووووووووووت . . و عربـات المسـافرين الخضـراء ذات البهـاء، متبوعـة بعربـات الشـحن الزرقـاء، تندفـع مسـرعة، و تأخـذ معهـا عقلـه الصغيـر، و أشـد مـا كان يأخـذ عقلـه هـو منحـدرات بنايـة المحطـة المخصصـة لصعـود عربـات الحمـل و نزولهـا، فيركـض فوقهـا، نـزولاً مثـل فهـد صغيـر، و صعـوداً مثـل قطـة أعياهـا العدو . . كانـت درجـات سـلم مدخـل البنايـة العريضـة جـداً و الممتـدة علـى طـول مدخـل واجهـة البنايـة . . ينـزل عليهـا غايـب ركضـاً و يصعدهـا ركضـاً، و أحيانـاً يجلسـان عليهـا فـي الشـتاء يتشمسـان، هـو والـده مرهـون بإنتظـار القطـار . . و مـا أن يسـمعان الصافـرة الأولـى يطلقهـا القطـار مـن بعيـد . . تـو تـوووووووووووت . . معلنـةً عـن قدومـه، يسـرعان ليتسـلقا السـلم الإسـمنتي العريـض صعـوداً الـى فضـاء المحطـة بإنتظـار نـزول الـركاب و إسـتجدائهم:

- المـال مـال الله! . . السـخي حبيـب الله! . . الله يسـتر عليكـم إنتـو و عيالكـم! . . إرحمـوا الفقيـر الضريـر!

و لـن ينسـى غايـب قـط، و ربمـا حتـى مماتـه، ذاك الصبـاح الـذي توقـف فيـه أمامهمـا رجـل نـازل مـن القطـار . . رآه غايـب رجـلا مهيوبـا فـي قامتـه الطويلـة التـي بـدت لعقـل مرهـون الطفـل عالقـة بالسـماء، و قـد رسـم قـرص الشـمس مـن وراء رأسـه هالـة، فبانـت لـه ملامـح الرجـل كأنهـا رسـم فـي حلـم . . و لـن ينسَ أيضـا كيـف ظـل الرجـل يتفـرَّس فـي ملامـح والـده مرهـون مـدة بـدت لـه ليسـت قصيـرة قبـل أن ينتقـل ليتفـرس فيـه . . و الرجـل يتأمـل هيئـة

والده، الذي لم يدرِ ما كان يدور، و ظل مادا يده و سارحاً يردد لازمته، و كأنه بحاسته السادسة كان يعلم أن ثمة من وقف أمامه يردد:

- المال مال الله! . . السخي حبيب الله! . . إرحمو الفقير الضرير! . . إرحمو الضرير صاحب العيال! . . المال مال الله! . . السخي حبيب الله!

ثم سمع غايب الرجل الشاهق يقول لوالده مرهون بصوت جهور عال و بلهجة فيها سلطة آمرة:

- ولك مرهون! . . ولك أعور العين! . . هذا اللي وياك إبنك؟ . . لا لا لا لا لا! . . بس مثل ما دا أشوف . . إنت هسه مو بس أعور لأن دا أشوف عينك الأخرى همين مفگوسة! . . و لك مرهون أعمى العينين!

و سيبقى غايب يتذكر فيما تلى من حياته من أعوام أنه ظل يتطلع الى أبيه الذي تفاجأ بكلمات الرجل و أهاناته و عينيه تتحركان في محجريهما دون هوادة بإنتظار ما سيرد به على الرجل، و لكنه لم يرد، و كفَّ عن ترديد لازمته و ظل قانطاً، و حتى أن غايب أحس آنذاك أن يدَ أبيه مرهون وهنت فجأة و أرخت العنان عن كتفه، بل و سرعان ما أنزل يده . . بعد أن بقي الرجل ينظر الى والده مدة، حرمتهما من قدر كبير من رزقهما، و قبل أن يتركهما الرجل و يسير بإتجاه مخرج المحطة، قال جملته الأخيرة:

- ولك مرهون . . بعد شاريد أگول! . . و آني دا أشوف بعيني شلون الله عاقبك و فگسلك عينك الأخرى!

و يمضى الرجل العملاق في طريقه، و ما أن يتركهما الرجل، سيسأل غايب والده مرهون:

- يابه هذا منو؟ . . هذا الرجّال منو و منين؟

لكن أباه لم يجبه عن سؤاله قط.

أكان أبوه قد تعرّف على الرجل من صوته؟ . . و من يكون؟ . . لـَمْ و لـَنْ ينبس أبوه يوما ببنت شفة عن الرجل، و كل ما سيتذكره عن ذاك اللقاء في قادم الأيام أن أباه قال له بنبرة فيها الشئ الكثير من الخذلان:

- غايب . . يلله وليدي . . نرجع للخان!

رجوعاً الى الخان، كان ذاك اليوم، من بين طيلة أيام عمله مگديا، هو اليوم الوحيد الذي تعكر فيه مزاج مرهون بكر، و تبدد جذله و هو يردد لازمة الگدية . . و عاد ذاك اليوم حتى دون أن يأخذ له، مثلما إعتاد، دورة إستجداء في البلدة . . و عند عودتهما للخان رآهما إبراهيم مستغرباً، و سأل أخاه عن سبب عودتهما مبكرين، حكى غايب لأخيه إبراهيم ما جرى، و حاول أن يصف لأخيه بكلماته البسيطة كيف كان الرجل طويلاً و شاهقاً و مهيباً و مبهراً و آمراً و مخيفاً بصوته و بملامح موهتها أشعة الشمس التي بان قرصها وراءَ رأسِ الرجلِ، فضيعت على غايب فرصة التعرف على وجهه تعرفاً كاملاً، و لكنه إلتقط لمعان صف أسنان الرجل السفلية تلمع صفراء بصفرة الذهب. . حاول غايب أن يصور لأخيه كم كان ذاك الرجل ذا سلطة و مَخْشِيّاً، و لكنه أخفق حتى حين أراد أن يختصر الأمر لأخيه بوصف رجل المحطة قائلاً:

- چان هيچي . . فد شي كشخة . . هيچي فد شي عالي كلش . . راسه واصل للشمس!

منذ اللقاء برجل المحطة، سيحصل تغيير دراماتيكي في مهنة ذرع الطرقات التي كان مرهون يمارسها هو أن مرهون المغرم بمحطة القطار عربنچياً و مُگدياً، كفَّ مذ ذاك اليوم عن التردد على محطة القطار مستجدياً . . و في كل مرة يعود بها غايب لسؤال والده عمن يكون الرجل و لِمَ عزف بعد لقائهما لذاك الرجل عن الذهاب الى محطة القطار، يظل مرهون ساكتا لا يريم!

* * * * *　　* * * * *　　* * * * *

بمرور سنتين أخريين، ها هي قامة إبراهيم ترتفع لتغدو فارعة و حقبة بسرٍ يظهر فيها على الشفة العليا للصبيان زغبٌ و يغير خارطة الوجه و كلما يتطلع غايب الى أخيه إبراهيم يكبر ليغدو طوله مفرطاً و ملامحه أوضح، يذكّره أخوه بذاك الرجل الشاهق الذي رآه في المحطة ات يوم على الرغم من هدول كتف أخيه الأيمن الذي إعتاد عليه بسبب ثقل يد أبيه يوم كان يقوده في جولات إستجدائه . . و مع أن الشمس موشت لغايب رؤية وجه ذاك الرجل الشاهق، سيظل يقول لأخيه:

إنت تشبه ذاك الرجّال اللي شفناه آني و أبويه بالمحطة . . و ما قبل أبويه يگوللي هو چان منو و منين و شيصير منه!

و تستولي على إبراهيم أيضاً لوهلة ضرورة معرفة من يكون ذاك الرجل، فقال لأخيه:

إذا آني أشبه ذاك الرجّال إلى هالحد . . يعني يصير هذا الرجال هو جدنا لو عمنه لو إبن عم أبونه . . و أبونه ما يريد يگوللنه؟

اكان الرجل جدهم فعلا؟ . . أو أخا أكبر لأبيهم؟ . . أو إبن عم أو خال؟ . . او شيخ عشيرتهم التي لم يحدثهم أبوهم يوماً عن أصلها و فصلها، لأنه لا يريد أن يتحدث عن سره؟ . . فهو لم يقل لهم يوماً قط من أين جاء، و ما هو أصله و فرعه، بل و حتى لم يتحدث لهم أيضاً عن أعمام و أخوال، و حتى لم يقل لهم من أية عشيرة هو! . . و ظلت هذه الأسئلة تدور في رأس واحد منهم هو غايب و لا تدور في رأس أخويه.

بنشوء طرق جديدة في بلدة بعقوبة . . يزداد المسافرون الجدد عدداً و عديداً . . تظل أبانها قامة إبراهيم تنهض فارعة لتدشن أولى مراحل النضج . . و يسأل أباه و يطلب إليه تدبُّرِ ثمن حصانين، و يتفاجأ مرهون مستفسرا:

- ليش إبني؟

يرد:

- أربطهن على العربانة حتى نجلي زنجارهه و أشتغل عليها!

توسطات و ترجيات كثيرة، و سيكون ماهي العربنچي مرة أخرى لولبها، و يحصل إبراهيم على حصانين، يدفع ثمنهما بتقسيط، رأفة به و بأبيه، و إن يكن تقسيطا غير مريح!

و ذات فجر يشد إبراهيم الحصانين الى عربانة أبيه و يخرج بها بوصية من أبيه الى محطة القطار التي يحن إليها مرهون . . و مع إزدياد عدد المسافرين بحكم السنين، سيجد العربنچي الفتى من سبقه الى المحطة . . ماهي العربنچي صديق أبيه و إبراهيم عيادة العربنچي . . و يعود إبراهيم ذاك المساء الى الخان، و عند إجتماعهم على العشاء، سيطلب إبراهيم من والده ترك مهنة ذرع الطرقات، لكن مرهون يسأل إبنه:

- إبني . . و أخوتك هذوله بعدهم زغار منو يعيشهم؟

- يبقون بالخان و يتعلمون سياسة الحصونة! . . و الرزق اللي يقسمه الله إلـيّ يكفينا للعيشة!

و ها هو مرهونٌ يذعن لإقتراح إبنه البكر. لكن كرم الإبن الأكبر بإقتراحه التكفل بعيش الأسرة للتخلص من عارٍ گدية أبيه في الطرقات لن يستمر طويلاً، و ستنمو موازيةً له خلة بخلٍ و شحة في نفس إبراهيم ستشتد بمرور الأيام . . و سيعبر عن خلته هذه يوما . . بخيل و يابس مثل جلدة مال قندرة عتيگة! . . و سيعرف بها في سوق بعقوبة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بمضي بضعة شهور، و على الرغم من صفة بخله، ستعود بفضل الولد اليافع الأكبر بعض النعم التي حُرِمَ منها مرهون برحيل نرجس زوجته

عـادت النعـم ليسـتمتع بهـا مـن جديـد . . فأحيـا مـن جديـد عـادة الذهـاب الـى الحمـام العـام علـى الأقـل مـرة فـي الشـهر، مصطحبـاً أولاده جميعـاً عنـد الفجـر، مثلمـا كان يفعـل فـي السـابق . . يتحممـون و يدلّـك بعضهـم جسـم بعض. و أثنـاء خروجهـم مـن الحمـام، سـيحصل مـرةً و يعـرض صاحـب الحمـام، إبراهيـم جويـر، علـى مرهـون أن يتـرك لـه غايـب ليعمـل عنـده فـي الحمـام، يـُدخل للزبائـن المتحممـين مناشـفهم و يقـدم لهـم شـراب الدارسـين السـاخن عنـد خروجهـم، و ينشـر المناشـف المستعملة فـي الشـمس و الهـواء الطلـق . . كان مرهـون يعلـم مثـل غيـره بـأن عمـل الصبيـان فـي الحمـام لـه مخاطـر محتملـةٍ علـى عفتهـم مـا يسـبب إنحطاطـاً فـي السـمعة. و كـاد أن يرفـض، لـولا أن إبراهيـم جويـر طمأنـه قائـلاً:

مرهـون آنـي أحافـظ علـى الولـد و أديـر بالـي عليـه . . شـتـگـول؟ . . هـذا الولـد راح يصيـر بذمتـي . . شتـگـول؟ . . إي؟

و مرهـون سـيتردد عـن الموافقـة مـرة . . و عنـد مجيئـه الـى الحمـام فـي مـرة قادمـة سـيوافق.

ظلال الفانتازيا . . غايب مرهون العربنچي

في يومٍ تالٍ، سيبدأ غايب عمله في حمام إبراهيم جوير و لم يكن قد أكمل الحادية عشر بعد . . في حقبة حياته و شغله في الحمام ستتقرر مسيرة حياته تقريباً لعقد كامل قادم من الزمن . . و في الوقت الذي داوم فيه على نقل المناشف، داخلاً مغسل الحمام، الى الذين أكملوا إستحمامهم، و خارجاً منه بالوزرات المبلولة يغسلها و ينشرها في الخارج لتجف، كثيرا ما تعتمل في داخله تساؤلات عن ذكرى من نوع ما، على الأقل مرة واحدة، حممته فيها أمه نرجس و هو صغير، و لكن . . هيهات! . . كانت قد توفيت و هو بعد لم يكمل سنتين من العمر! . . و تشغله أحياناً ما يعتمل في داخله من تغييرات سريعة، جسمه الذي لا يكف عن الإستطالة و التغيير الذي بات يحسه في داخله، و تفضيله الهدوء على الصخب الذي إعتاد عليه سابقاً، على الرغم من حدة طبع خفيفة ستلازمه طيلة حياته . . و الشعيرات التي يراها في مرآة الحمام تنمو فوق شفته العليا، و بحكم عمله لاحظ الشعيرات الخجلة التي تنمو في عانته! . . و سرعان ما راح يتعلم مهنة التحميم و التدليك لزبائن معينين، فصار له زبائن يطلبونه شخصيا لتحميمهم.

تمضي سنتان تقريبا و سيكلفه إبراهيم جوير بوظيفة جديدة . . واجب أيقاد مرجل الحمام، و تجيؤه وظيفة الوقّاد بعائد إضافي في الأجر. وظيفة تلزمه أن يكون دائما أول الداخلين الى الحمام و آخر الخارجين منه، و يظل طيلة سنة يراكم هذا العائد الإضافي سرا دون أن يعلم أبوه و أخواه ليستغله في شئ يذكّرَه بصف الأسنان الصفراء التي رآها في فك رجل المحطة العملاق و ظنها ذهبية . . و يسأل عن كلف تغليف الأسنان بالذهب . . و ما يكتمل عنده المبلغ المطلوب، سيذهب الى مركب الأسنان سلمان الجنابي كي يغلف له كامل صف أسنانه السفلى بالذهب، سيعمد منذاك عند الضحك حريصا على أن يُبان صف أسنان فكه الأسفل.

سينتهي غايب آخر الأمر الى قرار هو أن يكون الحمام بيته الذي يبات

ـبـه. و هكـذا سـيمضـي العقـد الثانــي مـن عمـره بأكملـه تقريبـا، و لا يجـد فرصة
ـرى فيهـا مـا يجـري خـارج الحمـام سـوى فـي أشـهر الصـيف اللاهبـة التــي
ـخـف فيهـا كثيـرا حاجـة النــاس لإرتيـاد حمـام سـاخن، فيجـد غـايـب فسـحة
ـزور بهــا بيــت أخيــه إبراهيـم الــذي تـزوج مبكـرا و أخــرج أبــاه و أخــاه
الأصغـر عصمــان مـن الخـان، ليزورهـم و يجـد أبـاه مرهـون لا يكـف عـن
الحديــث لكنتَّــته زوجــة إبراهيـم عــن زوجتــه نرجـس العصمليــة، و كيــف
انتزعهـا المـوت منـه بسـبب نـزف لازمهـا فـي ولادة متعسـرة لإبنهمـا عصمان
. و غايـب يسـمع تلـك الحكايـة تتكـرر كلمـا زار بيـت أخيـه . . هـوس مرهون
تكـرار الحكايــة بألـوان العاطفــة، فتـروح مخيلـة غايـب البسـيطة تتصـور
مـوت أمـه نرجس مقرونـا بـولادة أخيـه عصمـان، فيتولـد فـي داخلـه تدريجيا
احسـاس بالنفـور مـن أخيـه عصمــان سـيظل يتفاقـم فـي داخلــه كلمـا سـمع
روايـات أبيـه عـن نرجـس و عصمـان. و مـا فتـئ هذا النفـور يتزايـد بكرِّ أيـام
زياراتـه لبيـت أخيـه. و غالبـا مـا كان إذا مـا ذهـب لزيـارة بيـت أخيـه نهـارا،
لا يجـد فــي البيــت أيـا مــن أخويـه . . الأكبـر مشـغولا بعربانتــه و الأصـغـر
مشـغولا بسياسـة الخيـل فــي الخــان، و إذا زارهـم مسـاء، و الوقـت صيـف،
أخـذ إبراهيـم زوجتـه مبكـرا و يصعـد بهـا الـى سـطح المنـزل لينـام هروبـا
من القيـض، و يتركـه مـع أبيـه و عصمـان، اللذيـن سـرعان مـا يملُّ جلسـتهما.
و مــا زاد مــن جفائــه لبيـت أخيــه هــو أن نفـوره مــن أخيــه عصمــان كان
يصحبـه نفـور مـن شـحة أخيـه إبراهيـم و بخلـه. . و يـكاد الفـارق بيـن بسـطة
يد غايـب و غلّـة يـد أخيـه أبراهيـم أن يكـون هـو الفاصـل بيـن شـخصيتيهما،
لغايــة أن يمـوت غايـب فـي حـادث سـيارة علــى طريـق الفلوجـة.

تدريجيـا، ستتعدد الأسـباب فـي داخـل غيـاب للشـعور بأنـه بـات زائـرا طارئـا
علـى منزل أخيـه، و بـأن وشـائجه مـع هـذا البيـت صـارت أوهـن حتـى مـن
حقيبـة كسله فـي الصيـف، و أمسـى لا يـرى أبـاه و أخـاه عصمـان، بل و حتـى
اخـاه إبراهيـم، إلا حيـن يأتـون الـى الحمـام أحيانـا، و يقـوم بتحميمهـم علـى
حسـابه. و يـزداد نفـوره مـن أخيـه إبراهيـم فـي هـذه الآونـه، و يظـل يتزايـد و
يتعقـد مـا أن يـروح إبراهيـم يكثـر مـن مجيئـه الـى الحمـام دون أبيـه و أخيـه،

بقصد واضح للإستحمام مجاناعلى حساب غايب، طالما كان غايب هو الذي يدلكه و يدفع أجور إستحمامه.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأربعينيات توشك على الإنتهاء، فيُستدعي غايب الى الخدمة العسكرية الإجبارية. كان نظام البدل النقدي للخدمة الإجبارية في الجيش سارياً، يدفع المكلف مائة دينار، فتتقلص خدمته الإجبارية الى أربعة أشهر فقط، تقتصر على تدريب لإستعمال السلاح و حمله. لم يكن مبلغ المائة دينار ثمناً هيناً على أناس من نوع غايب للخلاص من مشاق الخدمة العسكرية . . و ستبتدأ مرحلة جديدة في حياة غايب مرهون . . ثمانية عشرَ شهراً خدمةً كان عليه أن يقضيها في معسكر المنصورية شمال شرق بلدة المقدادية . . و تلك الحقبة لم تكن سوى تمهيد تدريجي لإنتقالة نوعية في حياته . . هناك تعرّف على زميلي الجندية، حميد علو الدنداوي، المعروف بكنية . . أبي دعوچة . . و زميل آخر . . حسين گطمة . . من قرية الهويدر. و ستتأسس بينه و حسين گطمة صداقة لا ينفرط عقدها حتى بعد رحيل غايب، صداقة تستمد قوتها من تلبية ما تريده إهتمامتهما الدنيوية المتنامية المشتركة.

أول ما ستعمله شلة المجندين الثلاثة هو الترتيبات الملتوية التي يضعونها مع رئيس عرفاء الوحدة، فيما يخص أمور عودتهم بإجازات متزامنة الى بعقوبة. و سيتعذَّرَ عليهم الأمر إلا بإتفاقٍ خلاصته أن يتنازل كلّ منهم لرئيس العرفاء عن نصف المرتب الذي يستلمونه شهرياً. و يوافقون. و عند إنقضاء المدة المقررة للتدريب، كان من المفروض توزيعهم على وحدات أخرى للجيش، و سيتوسط لهم المحامي هادي السعداوي قريب حسين گطمة لدى صديقٍ ضابطٍ مسؤولٍ في اللواء، لقاء ثمن دفعه حسين، لإبقائهم هم الثلاثة في معسكر المنصورية ذاته، و لكن موزعين على سرايا مختلفة في المعسكر، على أن يتدبر كلّ منهم في سريته موضوع نزولهم في الغالب سوية في إجازات متزامنة، و لكن هذه المرة

مقابلَ تنازلٍ عن راتبه كاملاً للضابط المسؤول، الذي يعطي نتفةً منه لرئيس عرفاء الوحدة الذي غالباً ما يكون هو لولب الفساد!

ببعض من فطنةٍ . . سيتعود غايب حين يعود في أجازته الدورية الى بعقوبة على قضاء أغلب نهارات مدة إجازته يعمل في حمام إبراهيم جوير، كي لا يفقد وشائجه بالمكان، و كأن حاسته السادسة و فطرته الطبيعية ستشتغل لا شعورياً بأفضل ما تستطيعه! . . يسرق خلالها من وقته في إحدى نهارات إجازته ساعةً يزورُ فيها بيت أخيه إبراهيم ليرى اباه، و يقضي ليالي الإجازة مع أبي دعوچة و حسين گطمة في غرفة لأبي دعوچة مجاورة لمقهى مناتي التي أفتتحت حديثاً في منطقة المحطة مقابل محطة البانزينخانة المجاورة لمحطة القطار . . و يحصل مرة أن يحاول حسين گطمة نقل سهراتهم الى بستان أبيه المطلة على ديالى على يسار الطريق الى قريتي الهويدر و خرنابات مقابل منطقة چبينات . . نجح مرة . . و لكنه في مرة تالية، سيفاجؤهم أبوه في البستان بعد صلاة الفجر، ربما بسبب وشاية، فيطردهم من البستان. لكن هذا لم يمنع من أن يتحول البستان الى مسرح دائم لسهراتهم، عند وفاة والد حسين گطمة بعد بضعة سنين، و إستيلاء حسين على البستان، لأن الورثة الباقين كلهن نساء . . و ما أسهل الإستيلاء على حقوق النساء! . . و هكذا سيكون بمكنة حسين دعوة أصدقائه المقربين جداً لتلك السهرات، و منهم راغب السامرلي الذي سيسمّي تلك السهرات . . ليالي اللهيب!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

أكان على صواب من قال بأن الخدمة في الجيش تهذب صاحبها؟ . . أكان على صواب في أمر واحد على الأقل . . من لم يكن قد إعتاد على الإنصياع لإمرة غيره سيدخل الجيش و ينصاع و أنفه في الرغام؟ . . بنصياع قد يكون صحيحاً، و لكن عدا الإنصياع للأوامر فكل شئ مباح! . . دخول المرء في الخدمة الإجبارية للجيش يشبه الى حد بعيد دخول اليافع الى سجن الإصلاحية بسبب جنحة تافهة، فيتخرج منها مشروعَ

مجرمٍ من نوع ما! . . في الخدمة الإجبارية في الجيش، يلتحق الشاب ليؤدي ما يسمى بواجبه تجاه الوطن، و يتخرج مؤديَ الواجبِ مشروعاً لجانح من نوع ما . . كانت الحصيلة عند إنتهاء مدة الخدمة الإجبارية للأصدقاء الثلاثة أنهم . . دخلوا الخدمة لا يعرفون الدخان و السجائر، و تخرجوا منها و علب السجائر لا تفارق جيوبهم . . حسين گطمة في جيبه علبة دخان ماركتها على إسم ملك العراق . . غازي . . التي كان أبو صاحبه حسين يحب تدخينها تعلقاً بالمكلك المناوئ للإنگليز، يحبها ليس فحسب لأن تبغها ثقيل النكهة، و إنما أيضا لظنه مثل كثيرين غيره بأن الملك الشهيد مات غيلة، و هو يغازل النازي الألماني جراء مقارعته للمستعمر الإنگليزي! . . و غايب خرج من الجيش و بجيبه دائما علبة من ماركة . . تركي . . و كانت نكهة تبغها أخف قليلا، يحرق منها يومياً ثلاث علب أو أربع، أحبها لأنه عرف بان أسمها . . تركي . . بها إشارة الى العصملية أجداده لأمه نرجس، لدرجة أن البعض زعموا أن السيجارة باتت رفيقته التي لا تفارق فمه إطلاقا حتى مماته، لأنه صار يوقد سيجارة من سيجارة! . . و أبو دعوچة صارت لازمته كيس خامي فيه تبغ يشتريه من مجيد كرادي التنتچي في سوق الصاغة و دفتر ورق لف سجائر صغير الحجم في الكيس في جيبه، يخرجه و يلف سيجارة يضعها بين شفتيه و يشعلها و تحترق بأقلِ من دقيقة، و يعود بعد ربع ساعة ليلف غيرها!

دخل الثلاثة الجيش . . سور الوطن . . لا يعرفون لإحتساء الخمرة درباً، و تخرجوا منه يهرقون عَرَقاً من الأنواع الرخيصة غير المرخصة و المعروف بـ . . العَرَگ القَچَغ . . يصنعونه في بساتين قرية هبهب و مشهور بإسمها . . عرگ هبهب . . و في بعقوبة ذاع صيت من يبيعونه . . الدرويش عبد الله السامرلي . . قُربَ محطة الكهرباء في محلة البكرة، منطقة سكن السامرلية الى الشمال من قنطرة خليل باشا . . و إبراهيم مساوي في محلة الگنث . . و إبراهيم مغامس في أطراف محلة أم النوة . . و سيحاول أبو دعوچة مرة أخذَ قنينة من العرق القَچَغ معه الى وحدته

العسكرية أثناء الخدمة الإجبارية، فيوشى به أحدهم ممن معه في الثكنة عند رئيس عرفاء الوحدة، و تكون عقوبته أسبوعا في سجن إنفرادي زائداً غرامة عشرة قناني من هذا العرق . . يا للغرامة! . . و حين يجلبها ستكون ثمانية منها لضابط السرية و إثنتان لرئيس عرفاء الوحدة . . و سيدفع ثمنها في حينها حرّاس سور الوطن الثلاثة . . أبو دعوچة و حسين گطمة و غايب مرهون . . و سيظل الثلاثة مداومين، إلا ما ندر، على شرب هذا العرق القَچغ. و عند ممات الدرويش عبد الله، سيكون تاريخ موته إحدى نقاط التحول الدراماتيكي في حياة غايب مرهون بالذات.

دخل الثلاثة الجيش و لا يعرفون عن اللف و الدوران إلا القليل، و تخرجوا منه أكثر فطنة بمراحل في مواقف اللف و الدوران!

دخل الثلاثة الجيش لا يفقهون عن معاشرة العاهرات و الإغتصاب و اللواط إلا سمعاً، و تخرجوا منه بمعرفة واسعة بالطريقة التي يجري بها استدراج الصبيان الأغرار من المجندين حديثاً من لدن بضعة ضباط بيدهم سلطة في الجيش لا تقهر. و لن ينسَ الثلاثة قط حكاية ذاك الجندي المكلف الغرّ الأشقر اللدن الوسيم الذي أغوي ليس من لدن الضباط فحسب، و إنما صار أيضا فريسة للجنود شركائه في الثكنة. و لم ينجهم هم الثلاثة من تلك الفخاخ سوى سلطة الوساطة التي كان يتمتع بها بعض أقارب حسين گطمة لدى عدد من الضباط في المكان، و لم يتطلب الأمر من الثلاثة جهداً كبيراً لكي يتخرجوا من الجيش و في انفسهم شيئ من ذاك الوله الذي لن يطالوا منه شيئا ماً عاشوا . . و لكنهم بالتأكيد سيحملون معهم ما يجعلهم يعتقدون أن الجيش سور للوطن . . يحميه أيام المحن . . و بأنهم في خدمتهم الإجبارية في الجيش أدوا واجبهم حراساً لسور الوطن!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بتسُريحه من الجيش، أفطن ما سيفعله غايب آنذاك هو العودة الى الحمام،

و الأفطن من ذلك هو إيداعه مدخراته القليلة التي وفرها من سني العمل الطويلة في الحمام قبل إلتحاقه بالعسكرية عند إبراهيم جوير. و حين عاد الى الحمام إكتفى هذه المرة بشغل المدلكچي، و لأنه و بفطرته السليمة قد يكون أدرك بأن عمله في الحمام لن يفضي به الى شئ أفضل مما هو عليه. و قد فتحت خدمته في الجيش عينيه على أمور كثيرة، رأى ألا ينغمس إنغماساً كلياً في شغل الحمام، كي لا يضيع عمره في عمل يكاد الطائل من ورائه أن يظل لا يساوي شيئاً، فصار و كأنه يتحين الفرص تأتي كي يمسك بواحدة! . . و سيقطع أول أواصره بالحمام بألا يبيت ليله هناك مثلما إعتاد في السابق، و راح يداوم على المبيت في غرفة أبي دعوچة، لكي يسهل عليه فيما بعد فض إشتباكه بالحمام بأقل الأثمان . . بُعْد نَظَـر! . . كانا يسكران، هو و أبو دعوچة، و يسهران في تلك الغرفة، و يشاركهم حسين گطمة مرة في الأسبوع على الأقل، و يبيت ليلته عندهم، و يغادر صباحا.

و تمضي سنتان . .

و تمضي ثلاث . .

و بمضيِّ النصفِ من الرابعة، يجيئ الصيف و يبور شغل الحمام . . ما أجمل الفرص حين تأتي في أوقات مواتية! . . و تجيئ الفرصة التي كانت هاجسا عند غايب، حين سيعرض حسين الجيراوي أحد معارف إبراهيم جوير و زبائن حمامه على غايب فرصة للعمل معه . . متعهد بتزويد مستشفى بعقوبة بالأرزاق . . و يروح غايب يعمل مع الرجل أيام كساد شغل الحمام، و يتحمس للعمل طالما كان العمل الجديد يوفر له عائداً مادياً إضافياً، و سيتمسك به حين يكتشف أن العمل الجديد يوفر له فرصا للإحتكاك بعوالم لم يعتد عليها من قبل . . عالم مطبخ المستشفى مثلا . . مكانٌ يعجُّ بالجنس الآخر . . طباخات . . خادمات . . و أحيانا ممرضات جميلات، أغلبهن سريانيات و آشوريات من خارج بعقوبة. و سرعان ما سيعجب من نفسه التي أبقته غبياً و جاهلاً طيلةَ المدةِ الفائتةِ حبيساً

بالحمام حيث لا ترد النساء على باله قط! . . عجبا! . . و حين أمسى قريباً على هذا النحو من جنس الإناث، بخاصة حين يأتي الى المكان و ثمة ممرضة تتغنج، و هي تخطر من جنبه بلباسها الأبيض و قوامها المعتدل الرشيق الجميل . . يبحر في تقاسيم وجهها . . و قد تكون مكافأته أحياناً ابتسامة باردة، تجعلها مخيلته الوثّابةُ ساخنةً، مما يزيد تعلقه بالمكان، و يحاول أن يطيل من بقائه بمعاذير شتى . . و لكي يجد سبباً يزيد به من عدد مرات تردده على المستشفى في اليوم الواحد، سيقترح على صاحب العمل أن يشتري له دراجة مزودة بسلة نقل كبيرة أمامية . . بايسكل أبو السلة . . يقوم بها هو بنفسه بنقل الأرزاق، و ليس في عربانة ربل مثلما كان جارياً، و يوافق المتعهد طالما كان الإقتراح سيوفر له أجور العربانة. و لم يعدم غايب وسائل أخرى لتردده على المستشفى، منها مثلاً تعمّده، أحياناً، جلب مادة مخالفة للشروط لكي يرفضونها، فيجدُ بذلك ذريعة لإرجاعها و تبديلها بغيرها كي يعود بها مرة إضافية الى المستشفى! . . و مع أن الضرورة إقتضت منه تدريجياً إظهار قدرة على تعلم القراءة، سيتعلم قراءة فقرات الأرزاق لكن صورياً، صورة الكلمات دون معرفة بالحروف . . لحم غنم . . دجاج . . لحم بقر . . طماطة . . صمون . . تفاح . . برتقال . . حليب . . و غيرها، و تعلم قراءة الأرقام و الأعداد بشطارة، إلا أنه بالمعنى المتعارف عليه بين الأمي و القارئ، سيظل أمياً!

في تلك السنين . . ثمة دارين للعرض السينمائي في بعقوبة . . دار عرض سينما ديالى و دار عرض سينما الزيدي . . تعلنان عن أفلامهما بلوحتي عرض خشبيتين تعلقان على عمودين تلفون موجودين على ركني رأسي القنطرة الموصلة بين صوبي سوق بعقوبة، سوق صوب التكية و سوق صوب السراي. و من شدة إنشدادهِ لعالم الممرضات، حصل لغايب يوماً، و هو مار بالسوق، أن جلب إنتباهه إعلان لسينما ديالى عن فيلم إحتلت فيه الإعلان صورة كبيرة لممرضة يشرق وجهها بإبتسامة . . و وقف غاليب يتأمل ملامح الممرضة في الصورة و راح في البداية يطابق بين هيأتها و سمات وجهها و هيئات و سمات وجوه الممرضات اللاتي يلاقيهن

في المستشفى . . و يظل يتذكر أمه نرجس محاولا تخيل ملامحها.

بحلول الشتاء التالي . . و قد ذاع صيته مدلكچياً بارعاً في حمام إبراهيم جوير، مهنة تدرُّ عليه دخلاً مريحا، و لكنه و لإكتشافه عالما آخر، سيجد غايب صعوبة كبيرة في الإستمرار في عمله بالحمام . . ثمة في داخله ما يشدُّهُ دائماً إلى خارج العالم الذي فيه. كاد يسأم من الحمام العاج بالذكور المزدحم بأصواتهم و برنين مغارف الماء النحاسية و هي ترتطم بأحواض الماء السمنتية الصلبة، و بالوزرات و المناشف وشراب الدارسين الساخن. و ها هو ينبو بشدة عن كثير من وظائف الحمام على نحو لم يكن ليخفى على صاحب الحمام، الذي سيلعنَ بسرّه الساعة التي وافق بها على إلتحاق غايب بشغلة نقلِ الأرزاق . . و سيضحى الرجل تقريباً على يقين بأنه خاسرٌ غايب لا محالة و الى الأبد. و بيقينه هذا لم يتفاجأ صاحب الحمام، حين خلا الحمام من الزبائن ذات ليلة، فوقع غايب على يده يقبلّها، متوسلاً:

- عمي أبو خليل . . إنت مثل أبويه و صاحب فضل عليّ . . بس و الله ما أگدر أتحمل شغل الحمام بعد . . فك ياختي . . الله يوفقك و يعوضك بواحد أحسن مني . . و آني ما أعوف الحمام إذا إنت ما توافق!

توسلاته و تضرعات، و كأن غايب سيمسّ إبراهيم جوير في أفضل خصاله . . مروءته . . و سيُسقَط بيد صاحب الحمام! . . فما بيده ليفعل إذا ترك عامله العمل دون إستئذان! . . و سرعان ما سيقدِّرَ لغايب ما طلب، و يخسر عاملاً لا يضاهيه أحد في شغله، و يستسلم لقدره بترك غايب يذهب لحاله الجديد.

و ها هو غايب، دخل الحمام صبياً يافعاً، و سيخرج منه شاباً قويَ البنية مملوءً أمانيا!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

و ها هو غايب سيُتاحُ له التردد على المستشفى وقتما يحلو له . . صباح مساء . .عند الضحى و الظهر . . و أحيانا في المساء . و تروح مخيلته ساعتئذٍ تهوُّل له العلاقات و الأحاديث . . ها هو يمسي أكثر مرحاً و إنبساطاً، و تروح لتنمو عنده روح الدعابة التي إنزرعت في داخله نسبياً أيام خدمته الإجبارية في الجيش، و إن كانت دعاباته سمجة في أغلب الأحيان . . كثرت و إتسعت إبتساماته حين يدخل مطبخ المستشفى لتكشف عن مفخرة صف أسنان فكه الأسفل الذهبية . . و سيظل غامضاً عند الناس ذاك السر ما زيَّن له ظنه بأنه أحسن بتغليف أسنانه بالذهب، لأنه عدا كونه أثراً جاءه من رجل محطة القطار العملاق المهيوب الذي ربما توهم رؤية أسنانه السفلى صفراءً تشبه الذهب بسبب الغشاوة التي ألقتها الشمس على عينيه، فإنه ظن أن الذهب يجعل إبتسامته أكثر جاذبية عند النساء اللاتي يقابلهن في المستشفى، فصار يذهب بين آونة و أخرى الى سلمان الجنابي مركّب الأسنان في سوق الصاغة، لكي يجلي له صف أسنانه الذهبية كي يزداد بريقها . . و يضحي دخوله الى مطبخ المستشفى كل صباح علامة على بدء نوبات مزاح برئ، و إن كان لا يخلو أحيانا من غمز و لمز، بريئا أحياناً و بذيئا بأخرى.

الطباخة الرئيسة في المكان . . أم عليّة . . هي صاحبة أكبر نصيب في المزاح الصباحي. و تفاجؤه ذات يوم سائلةً:

- تدري غايب! . . إنت كل هالمدة الطويلة ويانه بس آني البارحة يله عرفت إنت إبن مرهون العربنچي؟

- أي خالة أم عليّة . . تمتم آني إبن مرهون العربچي!

- الله يرحمها أمك نرجس!

و سرعان ما سيتضرّج وجه غايب الأسمر بالدم فجأة . . ها هو أخيرا قد حظي بمن يذكر سيرة عن أمه نرجس! . . بدى وجهه محيرا و مذهولا ا حين حضر أمامه أسم أمه نرجس، و راح ينظر في وجه أم عليّة ثوان

قبل أن يسألها:

- خالة أم عليّة . . أنت تعرفيهه؟

- شلون ما أعرفهه . . چنا جيران . . بمنطقة أم النوة!

ما تلقاه غايب من أبيه عن نرجس أمه لم يكن سوى كلمات شحيحة لا تشبع حاجته، بخاصة حين علم أن والدته ماتت بسبب ولادتها لأخيه الأصغر عُصمان، سألها بعفوية و براءة:

- خالة أم عليّة . . شوفيني زين . .إذا تذكرين وجه أمي شتشوفيني . آني أشبهها؟.

و تفاجؤه المرأة بما لم يكن يتوقعه:

- لا! . . لا! . . ما تشبهك! . . بس و إنت عمرك چم شهر چنت أسمعه تگول إنت تشبه أبو هه الأشگر بس على أزرگ!

- على أزرگ؟

- أي . . يعني أسمر . . نرجس چانت شي آخر . . فلعة گمر . . الله يرحمها! . . صحيح إنت حلو بسمارك الحنطاوي . . لكن هي چانت شگرة فلعة گمر!

التوصيف الحميمي لأمه نرجس . . فلعة گمر . . سيصير مادة حديثه اليومي مع أم عليّة و أخريات . . و مع تكرار الأحاديث، ستظل أمه نرجس في خياله شيئاً مبهماً، لأنه لم يستطع أن يتصور كيف تكون . . فلعة الگمر . . و ما هي بالتحديد . . بعد الإعياء الذي أصابه في محاولة تصور . . فلعة الگمر . . ظلت أمه عنده كتلة لا معالم لها، و سيبقى كلما تقدمت به السن يحاول أن يكوّن لها في ذهنه هيئة محددة، و حين يخفق في ذلك، يروح يلعن أخاه عصمان الذي بات مقتنعا أن ولادتها له هي

التـي كانـت سبب موتهـا و رحيلهـا. و سـتظل هـذه اللعنــة فـي داخلـه تدفعـه الــى ممارسـة إسـقاط مـن نـوع مـا، حيـن يلـوذ بمحـاولات لتشـبيهها ببعـض نسـاء يراهـن كل يـوم . . مـا أن ينظـر الـى إحداهـن و يعجبـه جمالهـا، يـروح يتخيـل فيهـا مـا يطابـق تصوراتـه عـن أمـه ممزوجـة بفكـرة . . فلعـة الـگـمر . . المبهمـة التـي سـمعها مـن أم عليـة، و هـي تنحَـتُ فـي ذاكرتـه صـورة لجمـال مثالـي يحـاول أن يتصـوره فيعجـز، لدرجـة أنـه صـار مـا أن يـرى إمـرأة شـابة جميلـة و ودودة، حتـى يتبـادر الـى ذهنـه مـا قد يتطابـق مـن ذلـك مـع تصوراتـه المشوشـة عـن أمـه . . سيظل خيالـه يتنقـل بهـوس بيـن نسـاء عديـدات يسـقط عليهـن شـبها لأمـه. و مـا أن يبلـغ عنـده هـذا الهـوس حـدّا يشـبه البحـث عـن مثـال لا تصـور لـه عنـه، سيروح ليقلِـب موازيـن القيـاس . . بعـد أن كان حيـن يـرى أمـرأة تعجبـه يقـول فـي نفسـه . . أتشـبه هـذي أمـي نرجـس؟ . . صـار مـا أن يـرى أمـرأة حتـى لـو كانـت تعجبـه يقلـب المعادلـة و يقـول فـي نفسـه . . أتشـبه أمـي هـذي المـرأة؟ . . لا! . . لا! . . هـذي مـا أعتقـد تشـبهها لأن هـذي مـا تشـبه فلعـة الـگـمر! . . و علـى الرغـم مـن أنـه لغايـة تلـك اللحظـة لـم يكـن يعـرف فـي الواقـع مـا هـي . . فلعـة الـگـمر . . سيظل يترنـح دائمـاً بسـلبية تحـت تنـوع الجمـال الأنثـوي الـذي يـراه، فيبـرم بالوضـع كلـه أحيانـا فيقـول . . تاليهـه ويـاچ! . . تاليهـه ويـاچ نرجـس! . . يـا أمـي إنـت ويـن! . . و سـيجن جنونـه يومـاً حيـن تبغـي إحـدى تلـك الممرضـات السـريانيات الماكـرات اللاتـي كـن يسـتمعن عَرَضَـاً لحديثـه مـع أم عليـة عـن نرجـس أن تعـرف إذا كان غايـب يعـرف دلالـة أسـم أمـه، فسـألته إحداهـن:

- بالمناسبة غايب . . إنت تعرف شنو معنى إسم نرجس؟

و يظـل صامتـاً يفـرُّ الـى معنـى النرجـس فـراراً . . لأنـه لـم يكـن حتـى ذاك الحيـن يعلـم فعـلا مـا معنـى النرجـس! . . مـا هـو النرجـس؟ . . و مـا معنـاه؟ . . و تـدرك الممرضـة أنـه لا يهتـدي الـى حـل، فتضيـف:

- . . .النرجس هو أجمل زهور الشتاء و أحلاها عطراً!

و ها هو إضطرابه يكاد يبلغ مدى لا يُتصورُ و هو يسمع كلمات لها علاقة بالزهر و الجمال و الحلى، لأنها مفردات لم يعهد التعامل بها و لا يعرف كنهها . . و كلها لها شأن بإسم أمه نرجس . . يا نرجس تاليه وياچ!

هوس غايب سيستغرق سنيناً للتعرف على شخص أمه، لم يَدُر في باله قط، و هو رجلٌ بالغٌ حتى أن يسأل أباه من أين أتى و ما أصله، و ما قصة ذاك الرجل العملاق الذي تحدث إليه بتلك الجفوة ذات صباح في محطة القطار! . . و لكن لهفته لمعرفة قسمات أمه جعلته يحسب ذات يوم أنه لعله يستل من أبيه ما يفيده بالسؤال عن نرجس، فذهب الى أبيه في بيت أخيه إبراهيم. و بسؤاله أبيه بحضور زوجة أخيه عمن قد يفيده بمعلومات عن أمه نرجس، سيخبره مرهون إن أقربائها بالتأكيد كُثُرُ و لكنهم جميعاً في بلاد العصملي، فيسأم غايب من تكرار أبيه لكلمة . . عصملي . . دون جدوى . . و لكن أباه آخر الأمر ذكر له إسم . . أم رحمن . . إمرأة من جيران أهل نرجس تسكن دربونة عمران الچيال، فيهمّ غايب بالذهاب الى بيت أم رحمن. و ها هي مفارقة كبيرة تحصل . . فما أن غادر بيت أخيه، و نصف ساعة تمضي ليأتيه من يخبره أن أباه مرهون توفي بعد ربع ساعة من مغادرته لبيت أخيه. . و ها هي الفرصة أتت لزوجة أخيه إبراهيم تغتنمها لتشيع بين الجيران إن حماها مات كمدا بسبب إلحاح إبنه غايب بالسؤال عن أمه نرجس! . . و حين سيصله خبر ما تفوهت به كنَّة أبيه سيكون في ذلك قطيعة نهائية له مع زوجة أخيه.

توفي مرهون و شيِّع جثمانه الى جامع الشاهبندر للصلاة عليه من لدن عدد قليل من الناس، أغلبهم من رفاقه العربنچية، في يوم خريفي أواخر تشرين الأول عام 1956، اليوم الذي إنطلقت فيه، تضامنا مع شعب مصر، مظاهرة من مقهى مجيد محسن المطل على شارع الشاخة في ركن الشارع المؤدي الى سينما حسن الزيدي سائرة بإتجاه السوق، و عند مقهى البغدادي إلتحقت بها عابرة القنطرة مظاهرة صغيرة منطلقة من مقهى

عبود صفاوي. و سارت المظاهرة بإتجاه السوق حيث إلتأم بها تجمُّع صغير من مقهى حسين صفاوي، لتكون مظاهرة كبيرة راحت تجتاح شارع بلدة بعقوبة الرئيس سائرة بمجاذاة الشاخة في صوب التكية، لتبلغ قنطرة خليل باشا. و من هناك تستدير التظاهرة لتسير بمحاذاة الشاخة في صوب السراي، و يردد المتظاهرون شعارات إحتجاج ضد العدوان على مصر بسبب تأميمها لقناة السويس. و تجمعت الجماهير أخيراً قرب السوق أمام مقاهي بعقوبة بصوبيها التكية و السراي . . و تصير القنطرة الموصلة بين سوقي التكية و السراي منصة للخطابات الحماسية.

إضطراب يعمُّ البلدة . . الطرق جميعها مغلقة . . و كأن بعقوبة عن بكرة أبيها خرجت لتحتج. وسيضطر الموكب الصغير الراجل لتشييع جنازة مرهون بكر العربنچي أن يمر من دربونة أم الدجاج للوصول الى جامع الشاهبندر من بابه الخلفي للصلاة على الجنازة. و سيعود موكب الجنازة مرفوعة على الرؤوس مشياً على الأقدام الى حيث تنتظر جميع عرباين الربل في بعقوبة أمام مقهى عباس تيتي، لتوضع الجنازة على عربانة صديقه ماهي العربنچي، و يسوق العربنچية الآخرون عرباناتهم، أغلبها فارغة في موكب مهيب فريد من نوعه لتسلك درابين ضيقة . . موكب لَمْ و لنْ يتكرر له مثيل في بعقوبة . . و سيفلّتَ موكب عرباين الربل المشيِّعة لجنازة مرهون من طريق شارع العنافصة الترابي، بإتجاه شارع الشاخة المبلط، و يسير شمالاً مارً من أمام مقهى مجيد محسن الخالية تماماً، ليعبر قنطرة بالقرب من مدرسة بعقوبة الابتدائية الأولى و يستدير يساراً في صوب السراي و يسلك الطريق المبلط المحاذي للشاخة جنوباً بإتجاه محطة القطار، و يجتازها بإتجاه قرية بهرز، ليتوقف في منتصف المسافة بين بعقوبة و بهرز تقريبا عند . . مقبرة أبي دريس . . ليدفن مرهون في رمس قرب رمس زوجته نرجس، التي كاد رمسها، و معه رمسي والديها، أن تندرس جميعا لولا معرفة ولده إبراهيم بأماكنها بسبب مداومته على أخذ أبيه الى قبر نرجس كل بضعة شهور.

عرباين الربل في ذاك الحين ما زالت تقريبا هي واسطة التنقل الوحية

داخل بلدة بعقوبة، و لأن عربايـن ربـل بعقوبـة كانـت جميعـاً ظهـر يـوم العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر منشغلة لمدة ساعات بمهمة دفن مرهون العربنچي، حصلت أزمة نقل في البلدة طيلة غياب العربايـن عن سوق البلـدة . . و هـا هـي حادثـة تشييع جنـازة مرهـون بكر العربنچي تصير لربما السابقة الأولى و الفريدة من نوعها في تاريخ المدينة بإنشغال عربايـن البلـدة جميعهـا و حوذييهـا فـي تشييع و دفن فقير من فقراء البلدة . . الفقراء لهم أيضا ما يميزهم! . . و بإنفضاض التظاهرات التي إنطلقت ضد الهجوم الثلاثي الانكلو- فرنسي الإسرائيلي على مصر، و أعقبه إحتياج الناس للعربايـن، و العربايـن مـا تـزال مشـغولة بتشييع مرهون بكر العربنچي و دفنه، و لم يجدوها . . سيظن البعض إن إختفاء عرباين البلدة لربما ناجم من خوف العربنچية من الوضع فتواروا عن الأنظار . . و لربما سيظن آخرون بأن العربچية حالهم حال الاخرين لا بد أن يكون لهم رأي ضد العدوان الثلاثي فأضربوا عن العمل أثناء ساعات التظاهرة . . و لم يفطن أحد قط لسبب غياب العرباين من شوارع البلدة، و قد فاتهم مشهد العرباين جميعاً في طابور طويل فريد من نوعه في تاريخ البلدة لتشييع جنازة مرهون العربنچي، في موكب لن يتكرر في بعقوبة حتى في مواسم أفراحها . . للفقراء أيضا هيبة حتى لو جاءت في تشييع جنازة!

بموت أبيه، سينشغل مع أخويه بإستقبال قلة من المعزين الرجال بوجود كنبتين وضعتا في الدربونة أمام بيت أخيه إبراهيم في محلة أم النوة، لمدة ثلاثة أيام كما هي العادة، و لم يكن لينشغل بال غايب أثناءها سوى أمر واحد هو رغبته العارمة بالتعرف على أم رحمن، المرأة التي أخبره أبوه عنها، و إحتمال معرفتها بأمه نرجس . . لكن غايب، و قد رأى رموس أهله تكاد تندرس في . . مقبرة أبي دريس . . و إكراما لأمه نرجس، بنى تلك الرموس لتبرز قبوراً بشواهد عالية فوق الأرض مكتوب عليها ما يعرفه و أخوه إبراهيم من معلومات شخصية شحيحة عن الراقدين في التراب. و من ثم تفرغ لأمر أم رحمن!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعقوبة هي البلدة مركز اللواء . . إلا أنها ما تزال بلدة صغيرة نسبياً، بالإمكان التعرف بسهولة على بيوت أهلها بإسمائهم في محلات صغيرة قليلة العدد . . و قبل يوم، ذهب غايب يسأل عن أم رحمن في دربونة عمران الچيال مثلما أخبره أبوه، فقيل له أنها إنتقلت الى دربونة أم الدجاج خلف جامع الشاهبندر، في دار وصفوا موقعها له في صف بيوت بين دار جاسم الطرشچي و دار مصطفي خمّاس عيدة.

اليوم التالي، و قد فَرِغَ للتو من تسليم أرزاق المستشفى . . ماشياً في شارع سينما الزيدي، لم يَدْرِ غايب كيف دارَت في باله فكرة أن يذهب الى خان مهدي الگرطاني لا شعورياً، ليرى أخاه عصمان، الذي يحسبه سبباً في موت أمه، ليأخذه معه لأم رحمن تتحدث لهما عن أمهما التي قتلها مجيؤه الى هذه الدنيا! . . و منعطفاً من شارع السينما الى الدرابين المؤدية الى السوق، و مخترقاً دربونة السويدية، مجتازاً حسينية بعقوبة، تفرعت أمامه الطرق . . يميناً يذهب الشارع بإتجاه الشرق الى منطقة أم النوة، ويساراً يذهب الشارع نفسه غرباً الى شارع الشاخة . . و إمتد أمامه الشارع القصير المؤدي الى دربونة أم الدجاج . . دخل الشارع و كانت على يمينه، بمواجهة الغرب، تمتد أواوين خارجة من خان رشيد العاني، شُغِلتْ دكاكيناً صغيرة لبائعي الخضر، و على يساره بابٌ لخان الگرطاني مقابل باب الحسينية بمواجهة الشرق، تليها أواوين إستُئْجِرتْ دكانينٌ للسراجين و الإسكافيين و بائعي الحبال و العدد، و تنتهي بباب آخر للخان مقابل مقهى محمود جوير . . أيدخل الخان من هنا أم من هناك من الباب المقابل لمقهى محمود جوير؟

و تقوده قدماه الى الخان ليدخله من بوابته الجنوبية مقابل حسينية بعقوبة . . تراءى له من بعيد أخوه عصمان منكباً على سندان يطرق أنعلة الخيل، و كان نادراً ما يغادر الخان منذ أن إحترف حرفة النعالبندي[٩] بعد موت الأسطة إبراهيم النعالبند الذي علّمه الحرفة بسبب تفرُّق أبناء

٩ «النعالبندي» هي حرفة إسكافي الخيول الذي يدق للخيل أنعلة حديدية تقي حوافرها من التلف.

الأسطة الى حرفٍ حسبَها الأبناء أحفظ لمقامهم من حرفة إسكافي خيل . . و ها هو عصمان يتخذ الخان مسكنا بعد مضايقات كثيرة تلقاها من زوجة أخيه إبراهيم ، و مرهون كان ما يزال على قيد الحياة . . حين دنى غايب من أخيه عصمان رفع هذا الأخير رأسه عن السندان، لينظر من القادم . . و مثل الأبله تطلع الى أخيه، دون أن ينبس بكلمة . . و دون حتى أن يسلّم غايب عليه، إستفسر منه:

- تجي ويايه؟

- وين؟

- إنروح نسأل عن أم رحمن حتى تحچيلنا عن نرجس!

- يا نرجس؟

لربما كان عصمانُ قد غيّب فعلا إسم أمه نرجس من ذاكرته لكثرة ما يلومونه سبباً بموت من وهبته الحياة. و بسماع غايب لرد أخيه تضاعف نفوره منه. ترك أخاه دون أي تعليق إضافي، و سار مغادراً الخان بإتجاه بوابة الخان الأخرى الشمالية المقابلة لمقهى محمود جوير. و عند إنعطافة البوابة الكبيرة للخان إلتفت الى الخلف، ليرى ردة فعل أخيه على تركه إياه دون تعليق أو سلام، فرآه منكباً على السندان، و سيتضاعف نفوره من أخيه عصمان، فيثنوني صدرُه على بغضٍ لأخيه و سيبصق عليه من بعيد . . تفو! . . و كانت تلك التفلة التي طارت في الهواء آخر رابطة لغايب بأخيه و هو على قيد الحياة.

بمغادرة الخان، عزم على أن يمضي في طريقه مستديراً يساراً بإتجاه سوق علاوي الحبوب، و لكن إضطرابه بسبب سؤال أخيه الصاعق . . يا نرجس؟ . . من جانب، و الشدّ الذي تلبّسه من فكرة أنه سيقابل أخيراً من يتحدث له عن أمه نرجس من جانب آخر، جعلاه يحس لاشعورياً بحاجة للتخفيف عن نفسه بشرب إستكان من حامض النومي بصرة

الساخن . . خطى عابراً الشارع، ليدخل مقهى محمود جوير.

مقهى محمود جوير يحتل موقعا ركنا يطل على شارعين . . شارع بين خاني الگرطاني و العاني، و شارع آخر يمتد شرقا بإتجاه . . محلة أم النوة . . و تطل عليه مقاهي العربنچية و المطيرچية المقابلة لمقهى محمود جوير . . كان هذا الشارع في الواقع سوقاً ينتشر فيه الحدادون و بعض بائعي الخضر، و يضيق ممتداً غرباً ليكون سوقاً لعلاوي الحبوب و البزّازين، و قبيل إتصاله بشارع الشاخة يتحول الى سوق للعطارين.

بموقعه الركني، ثمة بابان لمقهى محمود جوير. أحداهما مقابل باب خان الگرطاني، و باب آخر مقابل أواوين الحدادين . . و ها هو يدخل المقهى من هذا الباب، و الوقت ما قبل العصر تقريباً فيجده خالياً عدا قلة من الرواد. و ما أن يجلس سيجلب إنتباهه رجل أشقر بشعر طويل على سلم بيده فرشاة يخربش بها على الجدار، و في أسفل السلم صبي أشقر ناهز العاشرة يواظب على مناولة الرجل على السلم ما يحتاجه من لون و فرشاة. جاءه الچايچي بكاسة ماء، و قال مرحباً بغايب:

- الله بالخير.

- الله بالخير!

- چاي لو حامض؟

- حامض.

منتظراً مشروبه، راح غايب يتطلع الى جدران المقهى، التي كادت تتغطى بالكامل برسوم مختلفة المواضيع . . ما هذا؟ . . عربنچي فوق منصة صدر عربانته رافعاً صوته و هو يصرخ على حصانيه! . . فخُيّل لغايب أنه قد يكون ماهي العربنچي . . و ما تلك؟ . . صورة المعيدية الشهيرة التي يضعها النجارون المحليون عادة على دواليب العرس بكامل بهائها و فتنتها . . و ذاك؟ . . سرّاج يخصف سرجاً . . طرشچي . . حلّاق يحلق

رأس زبون جالس على تنَكة . . مقدمة باص خشبي يتكئ عليه سائقه . . سيُخيَّل إليه أنه قد يكون حمد علو المشهور في بعقوبة بتحشيشه و حكاياته التحشيشية. . و صورة لحيدر الفيلي بائع الملابس المستعملة المشهور في بعقوبه و تحتها لازمته الشهيرة . . مزبوووووووووت! . . و هناك قريباً من الأوجاغ[10] . . آه! . . ها هي عينا غايب تتسمَّران على الصورة قرب الأوجاغ . . رجلٌ بهيئة لافتة يمصّ من مبسم نارجيلة موضوعة أمامه، و تأخذ ملامح الرجل في الصورة خيلاء غايب، بل و سرعان ما يُخَيِّل إليه تطابق شبه تام في ذاكرته مستحضرا الى ذهنه فوراً ملامح الرجل الشاهق . . رجل محطة القطار! . . الذي جعل قرص الشمس و أشعتها من وراء رأسه آنذاك في مخيلة غايب شيئاً غامراً و آسراً ضائعاً . . الرجل الذي لم يخبره أبوه مرهون قط عمن يكون!

يأتي الچايچي و يضع مشروب غايب أمامه على طبلة حديدية ضيقة، فيسأله غايب:

- هذا منو اللي على الدرج؟

- هذا أمير القيرواني . . أوتچي و رسّام جاء هو و أهله من شهربان گبل سنتين . . و هذا الولد المساعد اللي ده يناوشه الفِرچات و الصبغ هو أخوه الزغيِّر شمران . . أولاد نزهان الأحمدي البگال اللي بالسوگ!

- تقصد هذا اللي دكانه على الشاخة يم الستمومنية[11]؟

- إي تمام . . هو!

إهتمام غايب بالرسّام لم يكن قدر إهتمامه بالصورة . . صورة جلبت

١٠ «الأوجاغ» هي تسمية العراقيين للركن الذي يعد فيه الشاي لرواد المقهى.

١١ «الستمومنية» هي تسمية أهل بعقوبة و ما جاورها لمرقد «السيدة المؤمنة» الكائن في مدخل دربونة أم الدجاج المطل على خريسان من جهة السوق.

الـى ذاكرتـه فـوراً رجـل المحطـة الشـاهق الطويـل، فـراح علـى مهـل يرتشـف مشـروبه الحامـض، و يتمعَّـنُ فـي تفسـير ملامـح الرجـل و يتفـرج عليـه يمـصّ مـن مبسـم نارجيلتـه، ليحقـق فـي مخيالـه أكبـر تطابـق ممكـن بيـن ملامحـه و هيئـة لباسـه و ملامـح رجـل المحطـة و هيئـة لباسـه . . و لا شـعورياً مـدّ غايـب يـده لفمـه ليتحسـس صـف أسـنان فكـه الأسـفل المغلفـة بالذهـب فقـال لنفسـه . . يعنـي هـذا القيروانـي ليـش مـا رسـم الرجَّـال ضاحـك حتـى تبيـن سـنونه الذهـب الصفـرة!

منتهيـا مـن إرتشـاف مشـروبه، و قبـل أن يغـادر المقهـى، توجـه غايـب نحـو الرسـام و سلـَّم عليـه. و ينحـدر هـذا الرسـام ببصـره مـن أعلـى السـلم نحـو غايـب مشـدود الوجـه، رد:

- هله عينـي!
- عيني أمير . . خو مو زحمة عليك؟ . . أريد أسألك سؤال!
- تفضل!
- هذا اللي بالصورة يم الأوجاغ يشرب نرگيلة . . منو هو؟ . . تعرفه؟
- لا ما أعرفه! . . واحد شفته هنا بالـگهوة!
- صحيح ما تعرفه؟
- لا!
- يجي هنا على طول؟
- مـا أدري! . . شـفته مـرة واحـدة و رسـمته . . و بعدهـا أبـد مـا شـفته هنـا . . يجـوز يجـي بوقـت اللـي آنـي مـو هنـا . . يجـي هنـا علـى طـول لـو مـا يجـي همـين مـا أدري! . . هـو منيـن؟ . . مـا أدري! . . شـسـمه؟ . . همـين مـا أدري!

- ممنون عيني أمير!

- هله بك.

لا فقدانَ للأمل، فيخطر في باله فجأة فكرة أن يكون صاحب المقهى أو الچايچي أدرى بالناس هنا، فيذهب الى صاحب المقهى الجالس عند الباب الآخر، و ليسأله عن الرجل في الصورة. و كعادته و هو يمجُّ من نارگيلته، يجيبه محمود جوير:

- آني ما أعرف عن هذا الرجّال شي . . يمر هنا كل چم أسبوع . . يجي بالضحويات و يبقى لحد گبل الظهر و يروح و ما يرجع إلا بعد أسابيع . . يمكن ما شفته بالگهوة أكثر من ثلاث مرات أو أربعة . . هو منين؟ . . ما أدري! . . شسمه؟ . . ما أدري! . . و لا حصل و سألته عن إسمه أبداً . . يجي وحده و ما يگعد وياه أحد . . و ليش أمير القيرواني إختاره . . و ما إختار غيره . . حتى يرسمه هنا؟ . . همين ما أدري! . . بس هو مبين من شكله هيبة و من أصل و فصل!

يضع غايب قطعة نقد بأربعة فلوس، ثمن مشروبه، في صينية محمود جوير، و يغادر المقهى. مستديراً نحو اليسار، سار بإتجاه سوق علاوي الحبوب. و دخل دربونة أم الدجاج من مدخلها مقابل خان الگرطاني من جهة الشمال. و لكي يصل الى بيت أم رحمن مثلما وصفوه له، سار في تعرجات الدربونة، يساراً، ثم يميناً، ثم يساراً، ثم يميناً. و بموجب الوصف الذي أعطوه له، صار بيت عبد الكريم البزاز على يمينه، يليه بيت هادي الوسخ البقال، ثم بيت جاسم الطرشچي . . و ها هو أمامه ما ظنه، بحسب الوصف، أنه بيت أم رحمن. ينظر الى الباب الواطئ، و أسفله غائر في الأرض، لدرجة أن المرء لا يستطيع عبوره دون إضطرار لإنحناءة قوية. . دَقَّ على الباب . . و دَقَّ ثانية و إنتظر . . و دَقَّ ثالثة و إنتظر . . و بإصرارٍ دَقَّ للمرة الرابعة و إنتظر . . و لم ينفتح الباب! . . لكنه سمع صوت إمراة على يساره من بيت مصطفى خماس عيدة،

لربما كانت قد سمعت طرقاته المتكررة على الباب، فخرجت لتقول له:

- إنتَ منو . . و شتريد . . و إلمن رايد؟

إلتفت و أجاب:

- أختي . . اذا مو زحمة عليچ . . أريد أم رحمن . . هذا مو بيت أم رحمن؟

- أم رحمن هسه نايمة . . ترجع قريب المغرب و تلگاهه گاعده هنا بالباب!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

لم تكن أم رحمن الصبية قد تجاوزت الثانية عشرة من العمر، حين زُوجَت لرجل من بدرة على الحدود الإيرانية . . أتى بها الى بعقوبة أواخر حقبة الحرب العالمية الأولى، ليشتغل حمالاً في سوق البلدة. أجّر بيتاً صغيراً جداً، مُلكَ رجلٍ من خرنابات، مقابلَ بيتِ أهلِ نرجس التي كانت أكبر من أم رحمن بعشر سنين. و بعد إجهاضات لا تحصى بسبب صغر سنها و عدم إستواء أحشائها للحمل بعد، لم تخلف سوى رحمن إبنها الوحيد، الذي ما أن صار صبياً إمتهن شغل أبيه حمالاً. و ببلوغه الثامنة عشرة، و بضغط من أبيه لكي يخلصه من شغل الحمالة و الكراء، ذهب للتطوع في الجيش، لما يقدمه التطوع من ضمانات عيش و دخل ثابت . . بعد أشهرٍ معدودات سيشاء حظ أم رحمن العاثر أن تفقد إبنها في معركة الحبانية بين الجيش العراقي و الجيش البريطاني. و لم يكد يمضِ على فقدانها لإبنها سوى أقل من سنة، حتى مات زوجها كمداً على إبنه الوحيد، لشعوره بذنبٍ أنه هو من أرسل الولد الى حتفه، بإغرائه إياه و توريطه على التطوع في الجيش . . و تظل أم رحمن وحيدة، تعتاش على ما يتكرم به الجيش عليها من فتات النقود لقاء حياة إبنها الوحيد. أما لِمَ لَمْ تفكر أم رحمن بالعودة من حيث جلبها أبو رحمن بعد موت أبنها و

زوجها، الى بدرة، فهذا لم يعرفه أحد قط . . و ظلت هكذا وحيدة!

وقت الشفق يعود غايب الى بيت أم رحمن، و سيجدها فعلاً مثلما قالت له المرأة، جالسة حيث أخبرته الجارة، عند بابها ممدة رجليها في حيزِ بابِ بيتٍ من أقدم بيوت . . دربونة أم الدجاج . . بيت غائرٌ نسبيا في الأرض، و أوطأ من ممر الدربونة بحوالي درجتي سلم . . سلّم غايب عليها، فرفعت إليه بصرها لتتبين القادم . . إمراة في مستهل عقدها الخامس و لكنها تبدو للناظر أكبر بكثير مما هي عليه. حين عرّفها بنفسه، نهضت و شهِقَت شهقةً هائلةً و هي تقول:

- نرجس! . . . تگول نرجس! . . يا عيني على نرجس! . . الله يرحمها . . تعال أگعد يمه هنا . . تعال يمي حتى أشوفك زين! . . ما شاء الله! . . ما شاء الله! . . إنت أي واحد من وليدات نرجس؟

متلقيا سيلا لم يعتد عليه من العاطفة، تجالسَ متكئاً على حرف الباب المقابل لها، راداً عليها:

- آني غايب!

و ها هي أم رحمن تتحدث إليه عن أمه أيام كانت نرجس جارتهم و هو مصغٍ غير مصدِّقٍ . . نرجس و أمها يعلّمانها أشياء لا تعرفها أم رحمن، لأنها مقطوعة من الأقارب. و إعتذرت أم رحمن له، لأن رؤيتها لنرجس كانت نادرة جداً بعد زواجها و إبتعادها الى . . محلة أم النوة . . و يظل غايب فاغراً فاه و هو يستمع الى أم رحمن تروي له بعض ذكرياتها عن أمه نرجس و جدته، و كأنه يستمع الى قصة عجيبة . . جمال أمه! . . و هيبة جدته! . . و هو مصغ، إستغرب من نفسه أنه لم يسأل أباه يوماً عن إسم جدته أم نرجس، و لا حتى هو أباه أخبره عن إسمها، فقاطعها و سألها:

- خالة أم رحمن . . جديتي أم أمي . . شچان إسمهه؟

- خاتون . . چان إسمهه خاتون.

- خاتون!

- إي . . و هي صدگ چانت خاتون!

- و شنو يعني خاتون؟

- يعني فد شي چبير و هيبة . . يعني فد شي من نسوان الناس الكبار!

معاودا الإصغاء لأم رحمن، إستغرب مرة أخرى من أن أباه مرهون لم يخبره حتى بإسم جدته أم إبيه . . و ظل مصغياً يردد في داخله . . نرجس و خاتون! . . نرجس و خاتون! . . فلعة گمر . . و شي چبير و هيبة!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

صوت أم كلثوم تغني سهران لوحدي يملأ الماكن، حين دخل غايب ذاك المساء الى مقهى مناتي سيجد حسين گطمة جالساً على كنبة قريبة من أبي دعوچة، و قد إبتدأ هذا الأخير مؤخراً عمله كبابچي منقلة على الرصيف أمام مقهى مناتي . . يجلس غايب بجانب حسين گطمة و يسرح فكره مع كلمات أغنية أم كلثوم، فيختلط عنده ما يسمعه من أم كلثوم بما جرى له ذاك النهار و برائحة شواء الكباب و التكة و المعلاگ، تحملها إليه ريح الشمال مع دخان المنقلة . . تشوشت عنده صورة ذاك الرجل الشاهق رجل محطة القطار التي رآها في مقهى محمود جوير، و ما حدثته به أم رحمن عن نرجس و عن خاتون جدته. . بعد نفاذ ما لدى أبي دعوچة من لحوم للشواء، ذهب الثلاثة سوية إلى صومعتهم، و كان أخو أبي دعوچة، الصبي برهوم علو الدنداوي قد أتى لهم قبيل الغروب بزجاجة عرق قچغ من درويش عبد الله. و حسين الذي لم يكن حضوره متوقعاً جلب معه نصف قنينة عرق ليتنادموا حولها تلك الليلة.

غايب سارحٌ أثناء سفرِهِم. و لأنهم إعتادوا ما أن يصلوا الى نهاية سفرِهم

ينامون على الأرض على على أفرشة خَلِقة ممدودة حول بساط خَلِقٍ إعتادوا على مّدِّ سفرة الندمان عليه . . أفرشة إستحال لونها الى السمرة من كثرة الوسخ الذي علق بها. قام أبو دعوچة لوحده هذه المرة بتهيئة المائدة . . زجاجتي العرق و ثلاثة أقداح و الشواء الذي جلبه معه و كاسة لبلبي و كاسة لبن روبة إشتراها منذ الصباح من . . أم زيارة . . المعيدية التي تبيع قيمرها أمام قهوة مناتي، و تنگة الماء التي يخففون بمائها خمرتهم.

معتادين على إعداد هذا الطقس سوية. و سينتبه أبو دعوچة الى أن نديمه غايب سارح في شئ ما، و نديمه الآخر حسين بدى منزعجاً من لا شئ! . . قام هو بواجب الإعداد. و ما أن أكمل إعداد المائدة و مزج العرق بالماء، و راحت الأقداح تعلن عما فيها من حليب السباع[12]، توجه أبو دعوچة الى غايب بسؤال:

- أشوفك سارح! . . شكو وراك اليوم؟ . . بيش سارح؟ . . و شبيك؟

و كأنه لم يصدق أن أحداً إنتبه لسرحانه، أجاب بعفوية:

- ما تدرون؟ . . مو اليوم لـﮕيتهه لأم رحمن!

فيعلـّقَ أبو دعوچة:

- الحمد لله! . . هسه غايب؟ . . خلصنه من سالفة أم رحمن اللي دوختنه بيهه؟ . . أي! . . زين يلله . . أحچيلنا شحچتلك عن أمك نرجس؟

و يرد غايب:

- أي تمام . . أبو دعوچة . . تمام خلصنه من سالفة أم رحمن! . . لكن همين ما خلصنه بالتمام!

١٢ «حليب السباع» هي تسمية العراقيين للعرق بعد مزجه بالماء و تحول لونه الى بياض يشبه لون الحليب.

- ليش؟

- لأن بقت شغلتين أريد أعرفهن!

- لخاطر الله! . . شنو؟ . . و شمخلي ببالك هالمرة؟

- أريد أشوف ورد النرجس شلون لونه و شكله . . و أشوف هذا الرجّال الطويل المهيوب اللي شفت صورته بـگهوة محمود جوير!

و كأن نديميه تناسيا موضوع زهر النرجس، و لكنهما إستغربا من ذكره لرجل مهيوب، و سأله حسين، معلقا:

- رجّال طويل مهيوب! . . و هذا يابه منو هالمرة!

غايب لا يرغب بالحديث عن ماضيه مع أبيه مرهون و عن أيام الگدية في محطة القطار، فيدرك أنه إرتكب زلة لسان ما كان يجب أن تحصل . . و نادماً على سهوة لسانه، راحت عينه اليمنى، دون شعور منه، ترف رفيفا متواصلاً، و كي يتلافى ما قال سهواً، رد على نديمه مبرراً:

- فد واحد شفت صورته، راسمها هذا الرسام . . أمير القيرواني على الحايط بـگهوة محمود جوير يم الأوجاغ . . شفتهه صورة حلوة و أريد أعرف صاحبها!

- و ليش تريد تعرف صاحبها و تشوفه؟

لم يجد ردا مناسبا غير قوله:

- هيچ . . عجبني شكله!

و يعلق حسين ساخراً:

- و يعني شنو؟ . . لأن الصورة حلوة و صاحبها حلو تريد من القيرواني يرسمك مثل ما رسمه و يطلعك حلو فلعة گُمر مثلاً؟ . . و إنت مو

فلعة گـُمَر!

هـا هـو غايـب مـرة أخـرى يشـاء حظـه أن يسـمع تعبيـر فلعـة گـُمر وسـط القهقهـات، فـأراد أن يسـأل عـن معنـاه الـذي مـا يـزال غائمـا فـي رأسـه، و أثنـاء مـا كان حسـين و أبـو دعوچـة يقهقهـان، طـرح سؤاله:

- ما تـگولولي شنو يعني . . فلعة گـُمر؟

فيرد أبو دعوچـة:

- يعني مثل الـگـُمر!

- و يعني شنو؟

و يضيف حسين موضحاً:

- يعنـي تضـوي مثـل الـگـُمر علـى الأشـياء اللـي دايـر مدايرهـه! . . ولـك غشـيم! . . ليـش إنـت متعـرف الـگـُمر يضـوي!

نديما غايب يقهقهان مرة أخرى، و يمعن أبو دعوچـة في لمزه لنديمه:

- بس إنت ما گِلْتلنه! . . تريد من القيرواني يرسمك؟

فيعـزم غايـب علـى تغييـر الموضـوع بأكملـه، بتعليـق علـى سـؤال أبـي دعوچـة:

- لا! . . شيرسـم؟ . . يرسـمني آني؟ . . وين يرسـمني على سياج المستشفى! . . عـوف هالسـالفة . . بـس ردت أسـالك عـن هـذي المصريـة اللـي چـانت تغنـي بالراديو بـگـهوة مناتي؟

و يعلق حسين:

- غايـب . . شـنو سـالفتك؟ . . اليـوم أسـئلتك عجيبـة و غريبـة . . مـرة

تحچـي عن رجّـال طويـل عريـض مهيـوب! . . و مـرة تسـأل عـن هـذي اللـي چـانت تغنـي! . . غايـب . . هـذي أم كلثـوم! . . إنـت مـا سـامع بـأم كلثـوم؟ . . و چـانت تغنـي مـن إذاعـة صـوت العـرب أغنيـة جديـدة . . سـهران لوحـدي!

- أي . . و الله و هـي الصادگـة! . . سـهران لوحـدي . . آنـي همـين سـهران لوحـدي!

و لجهلهمـا بإنشـغالات غايـب الدفينـة، هـا همـا يضحـكان سـخرية، و يعلـق حسـين محتجـا:

- لـك غايـب! . . لعـد إحنـه هنـا شـنو إذا إنـت سـهران لوحـدك؟ . . ولـك بَـلّاع اللبلبـي لعـد إحنـه شـنو هنـا ويـاك!

مـذاك الوقـت سـيعتمل فـي داخـل غايـب شـعور قـوي و طـاغ، لـه علاقـة بـأم كلثـوم، و هـو لا يـدري بـأن هـذا الإنشـغال سيتجسـد علـى نحـو تلقائـي فـي تفصيـلات أحـداث أيامـه، و تنشـغل بـه أيضـا شـريحة مـن نخـب بعقوبـة مـن التجـار و الموظفين و تستمتع و تنسرّ بـه لعـدد مـن السـنين هربـاً مـن مظاهـر انقسـام إجتماعـي قـادم سيمزق البلـدة!

بسـورة النشـوة تغـدو السـخرية رفيقـة الـكأس . . يرفـع أبـو دعوچــة كأسـه محيِّيـاً بـه غايـب و حسـين:

- بصحتكـم! . . و بصحــة أم رحمــن . . و فلعــة الـگـمر . . و بصحــة أم كلثـوم!

يَعبّ أبـو دعوچــة مـن كأسـه نصفـه مـرة واحـدة، و يشـاركه حسـين النخـب، و يرفـع غايـب كأسـه، و علـى غيـر عادتـه، عـبّ مـا فـي الـكأس كلـه مـرة واحـدة علـى طريقـة . . چـعب أبيـض[13] . . و هـو يعـبّ مـا فـي كأسـه سـمع

١٣ «چـعب أبيض» تعبير يستعمله الخمّارة العراقيون عندما يعبّ أحدهم كل ما في كأسه من خمرة و لا يبق منها شيئا فيبان قعر القدح أبيضا.

غايب أبا دعوچـة يقول لـه:

- آنـي هم عندي خبر أگـولـه!

يعلق حسين:

- يا ساتر! . . شنو هالليلة! . . ليلة أخبار؟

- اليـوم الظهـر أمــي و أبويــه إسـتلموني . . و تعــال إسـمع الحــچـــي! . . رزالـــة مــن هــذي الناشــفة تمـــام!

- على أيش؟

- يريدون يزوجـوني!

فيصرخ نديماه مستنكرين:

- يزوجوك؟ . . خلي يزوجوك . . بس ليش الرزاله!

- أي . . چــانت رزالــه . . و تعالـوا إسـمعوا الحــچـــي الخريـط اللــي سـامعينه أمــي و أبويــه مـن النــاس عنــي و عنكـم!

- يا ساتر! . . شسامعين؟

- تـدرون؟ . . صـحيح إحنــه مــا عدنــه طيـور بالسـطح . . و مـع ذلـك النــاس مطلعيــن علينــه دعايــه علــى أســاس إحنـــه لمّتنـــة مــن جماعــة . . تجــي أشـوفك الطيـور بالسـطح[14]!

يضحك حسين ضحكة عالية ملءَ شدقيه الى حد جعلته يعبّ ما بقي في كأسه كاملاً و يشهق به، و يعلق:

- عبنـي . . أبويـه . . خـو آنــي بالعكـس! . . البسـتان مليـان طيـور . . أشـكال

«تجي اشوفك الطيور بالسطح» تعبير شائع بين اللواطيين يستدرجون به [illegible] من الصبية.

و ألوان . . تجي و تروح بالمواسم . . لعد آني شراح يگولون عليّ! . . ولكم بلاعين اللبلبي ما تجون ويايه فد يوم أشوفكم طيور اللي بالبستان!

يوجِّهَ له كلا نديميه لكماً خفيفاً! . . و يمضي الثلاثة للغياب في سورة الخمرة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعد شهر و بعد موعد صلاة العشاء، سيحضر غايب زفةَّ أبو دعوچة. أخذوه مشيا على الأقدام، تحف به زمرة أخوته و ندمانه و بعض رواد مقهى مناتي و بضعة من شباب المحلة، من مقهى مناتي الى بيت صغير من غرفتين، قريب من بيت أبيه علو الدنداوي، في دربونة ضيقة خلف مقهى مناتي.

بزواج أبي دعوچة، بقي غايب لوحده في الغرفة و كاد أن يتيه، لولا مرور أم رحمن في حياته، على الرغم من إستمرار سهرات السكر التي إعتاد عليها مع نديميه. نزلت زياراته لأم رحمن نعمة عليه و على المرأة الأربعينية . . و سيصير ذهابه إليها منتظما تقريبا . . مرتين أو ثلاث أسبوعياً . . يذهب إليها أما بغداء معه من كبة جميل حجل الشهيرة، أو بعشاء من فاضل الكبابچي . . يجلسان في باب بيتها، يستمتعان بتناول الوجبة، على مرأى من جيرانها و المارين في دربونة أم الدجاج، و يستمع إليها تعيد سرد ذكرياتها عن نرجس أمه و تعيدها و تكررها . . و لا يَمَلّ من التكرار لأنه دون وعي منه أراد أن يتشبع بشئ يعود لأمه نرجس . . و من يدري؟ . . لربما كانت أم رحمن تخترع حكايات عن نرجس لكي تديم قافلة الكباب و الكبة التي تستمتع بنعمتها مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع . . يا للوهم من مصدر لسعادة الإنسان و رخائه! . . لكن غايب و لبساطة عقليته، لم يكن يأبه أو يتحقق مما ترويه أم رحمن، سواء أكان حقيقياً أم خيالياً و لم يكن يملَّ تكراراً أو ليميِّز بين الإضافة

و الأصـل فـي سـردها للوقائـع نفسـها لمـرات عديـدة، و لربمـا لعشـرات المـرات. كانـت أم رحمـن بالنسـبة لـه القصخـون المقيـم فـي دربونـة أم الدجـاج و المختـص بنرجـس العصمليـة . . و إن كان جلوسـه معهـا، يتنـاولان وجبتهمـا بـادئ الأمـر مصـدراً ليـس لإستنكار مـن نسـاء الجيـرة فحسـب، بـل و نسـاء محلـة أم الدجـاج عمومـاً . . و الظنـون غالبـا مـا تذهـب مذهبـاً ليـس خاليـا مـن سـوء النيـة! . . لربمـا يحصـل هـذا حسـداً بخاصـة مـن النسـاء اللاتـي نـادراً مـا يحظيـن، و لـو مـرة بالسـنة، بوجبـة مـن كبـة جميـل حجـل أو مـن كبـاب فاضـل الكبابـچـي، و بالـذات المـرأة السـوداء الطويلـة العريضـة فـي البيـت المقابـل و التـي لا يبـدو حجـم زوجهـا عبـاس يكـّة بائـع الـگـرگـري المشـهور فـي بعقوبـة بجانبهـا سـوى صفـرا علـى اليسـار . . بعـد تحـول مجـئ غايـب و جلوسـه مـع أم رحمـن مقابـل بيتهـا الـى عـادة، وضعـت زوجـة عبـاس يكّـة وراء بـاب بيتهـا مـن الداخـل سـتارة خَلِقـة فيهـا ثقـوب، تمكّـنها مـن إسـترقاق النظر الـى جارتهـا تـأكل الكبـة و الكبـاب بنهـم، فتحسـدها علـى النعمـة التـي نزلـت عليهـا، و لسـوء حظهـا كان قدماهـا الضخمـان المشـققان يظاهـران مـن تحـت السـتارة و يكشـفان تلصصهـا . . و سـرعان مـا إعتـادت نسـاء المحلـة، بعـد لأي، علـى مشـهد غايـب و أم رحمـن يتسـامران و يـأكلان . . و تحـس أم رحمـن يومـا أن عليهـا أن تقـوم بشـئ لغايـب تـرد بـه جميـل جلبـه الطعـام لهـا، تسـأله:

- غايب عيني . . إبن العزيزة نرجس . . إنتَ منو يغسلك هدومك؟

- آني أغسلهن بالحمام مال إبراهيم جوير . . ليش؟

و لأنها كانت تريد أن ترد له جميل ما يفعله معها، علقت:

- إبني . . ليش بالحمام! . .ليش ما تجيب هدومك آني أغسلها؟

عرفاناً منها بجميله، مذ ذاك اليوم ستشرع أم رحمن بغسيلها لملابسه.

الأيـام تمـر، و حيـاة غايـب تنمـو فـي الخفـاء بإتجـاه لا يشـير إليـه ظاهرهـا

سوى بالقليل . . و نتيجة الألفة التي راحت تنمو بينه و أم رحمن صار إحساسه بالجنس الآخر ينمو و يتفاقم . . نساء أغلبهن قبيحات الهيئة يراهن في أزقة بعقوبة و درابينها، و نساء جميلات الطلة و أنيقات كأنهن ملائكة يراهن كل يوم في المستشفى، كنّ على السواء يثرن فضوله . . بل و غدت صورة المرأة تثير فضوله حتى في الصور.

و يصادف يوماً أن يغادر غايب سوق بعقوبة ساحبا دراجته المليئة سلتها بالفواكه أو الخضر أو اللحوم متوجها بها الى المستشفى . . قبل أن يعتلي الدراجة جلبت إنتباهه من بعيد صورة إمرأة عارية الصدر تقريباً في لوحة إعلانات أفلام سينما ديالى، يعلقها برهوم الدنداوي على عامود التلفون في الزاوية الأقرب لقنطرة الشاخة . . و يسحب غايب دراجته الى هناك، لكنه لم يلحق برهوم الذي غادر على دراجته قبل ان يصل إليه، فراح يتطلع الى الصورة الكبيرة في إعلان الفيلم . . رجل ترك لحيته تنمو قصيرة و بجانبه إمرأة ناهدة الصدر المكشوف في قارب يصارع الموج. يحاول أن يقرأ عنوان الفلم المكتوب بالعربية، و لم تسعفه معرفته بالأشكال القرائية لفقرات أرزاق المستشفى بشئ، فإلتفت فجأة الى يساره حيث كان يقف صبيّ لم ينتبه لمجيئه، كان الصبي هو الآخر رافعاً بصره عالياً يتطلع الى إعلان الفيلم، فسأله غايب:

- شسمه هذا الفلم؟

- موگامبو!

- و هذي شنو معناها؟

- و آني شمدريني! . . بس من الصورة واضح . . يمكن فد شي بأفريقيا لأن أكو واحد أسود بالصورة!

- و هذي أفريقيا شنو؟

- بلد بعيد . . أهلها كلهم سود.

- بس هاذي الحُرمة اللي بالصورة مبينة بيضة!

- و شِمدَرِّيني ليش بيضة! . . يجوز رايحة خطَّار يم ذوله السود!

- و حتى الرجّال اللي حاضنها من ورا مو أسود!

- ما أدري! . . شِمْدَرِّيني! . . يجوز هم ثنيناتهم رايحين خطار لأفريقيا!

- زين و هذي أفريقيا . . كل نسواهه متعلمات يطلعن هيـچ صدورهن؟

- قصدك؟

- كلهن هيـچ مسلخات من ثيابهن؟

- مـا أدري! . . و آنـي شـمدريني! . . آنـي مـا رايح لأفريقيـا! . . و أنـت إذا تريـد تشـوف نسـوان مسلـّخات . . روح يـم دكان أخويـه أميـر . . روح و تفـرج! . . أخويـه يرسـم صـور نسـوان مسلّخات!

- أخوك منو؟

و هـا هـي خاطـرة مـا تجعـل غايـب يتفحـص وجـه الصبـي جيـداً، فيلطـمُ غايـب جبهتـه براحـة يـده معلقـاً:

- و الله نسيت! . .شلون راح من بالي! . .إنت مو أخو أمير القيروانـي؟

يضحك الصبي سخرية، معلقاً:

- أي! . . تمام!

و سيسـتمر الصبـي يعطـي ردوداً مقتضبـة تشـف عـن نفـور مـن محدثـه، لكـن غايـب يفضّـلَ المواصلة سـائلاً:

- و شسمك؟

- شمران نزهان الأحمدي.

- الأحمدي؟ . . و ليش مو القيرواني مثل أخوك!

ردَّ الصبي بنفاذ صبر:

- لأن هذا لقب القيرواني . . أخويه هو اللي إخترعه لنفسه! . . ليش؟ . . ما ندري!

و كأن الصبي أراد بطريقة ما أن يسخر و يشوش غايب، أضاف ساخراً:

- . . تدري؟

- شنو؟

- هذا الرجّال اللي بصورة الفيلم يشبهك!

- يشبهني!

- إي! . . شعرك . . لحيتك!

و يحاول غايب أن يفهم حقيقة ما يعتمل بداخله و هو يسمع تشبيه شمران الأحمدي له ببطل الفيلم، و لا يفلح! . . فجأة تناهى الى سمع غايب صوت ناجي النركوزة، دلال بعقوبة الشهير[15] يعلن عن مزايدة تأجير كازينو سينما ديالى، و إلتفت غايب الى يمينه يستمع الى الدلال يعيد تلاوة الإعلان مرتين أخريين. و حين إنتهى الدلال إستدار غايب يساراً، و لم يجد الصبي . . في ضحى اليوم التالي حرّكه دافعان لتغيير مسار خروجه من السوق، فجعله من الجانب الشمالي من السوق، مروراً

١٥ بسبب غياب وسائل الاعلام، أو لندرتها، و بسبب عدم اعتياد الناس على قراءتها في الصحف أو سماعها في الراديو، كان في الغالب في كل بلدة و مدينة دلال يقرأ الاعلانات التي ترغب الحكومة، أو اية جهة معلنة، بتمريرها الى الناس. و يكون الدلال عادة ذا صوت جهوري و قوي و عال بحيث يصل الى أبعد مدى ممكن حين يقرأ الاعلانات شفاها في أماكن عدة من البلدة. و«ناجي النركوزة» إستمر وجوده و دوره دلالاً في بعقوبة لغاية أوائل الستينيات من القرن العشرين.

بطـرف الستمومنية، لكـي يكـون فـي مقـدوره المـرور مـن أمـام دكان أميـر القيروانـي . . الأول رغبتـه بالتأكـد من أن الرسـام كان فعـلاً لا يعـرف الرجـل المهيـوب الـذي رسـمه فـي مقهـى محمـود جويـر، و الثانـي هـو رؤيـة تلـك الأجسـاد العاريـة التـي ذكرهـا لـه شـمران الأحمـدي إنهـا معروضـة علـى بـاب الـدكان.

عنـد وصولـه الـى دكان أميـر القيروانـي، لـم يكـن القيروانـي هنـاك، و لكنـه وجـد أخـاه الصغيـر شـمران متكئـا فـوق الرصيـف علـى ظهـر قنفـة مـن قنفات المقهـى المجـاور و رجلـه علـى دكـة الـدكان العاليـة عـن الرصيـف . . ظـل غايـب يجيـل نظـره كأنـه يبحـث فـوق جـدران الـدكان العاليـة عـن شـئ مفقـود. و بقـي واقفـاً يتطلـع و لـم يجـد ذاك الشـئ المفقـود. و قبـل أن يجـد غايـب عـذراً لمجيئـه و وقوفـه أمـام الـدكان، تذكّـر شـمران مـا قالـه لغايـب بالأمـس، فعلـق سـاخراً:

- هـا؟ . . جيت تتفرج على لوحات النسوان المسلخات!

و يضطـرب غايـب لوقاحـة الصبـي، لكنـه يجـد فـي الدافـع الآخـر لمجيئـه آليـة دفـاع مناسـبة، و قـال فـوراً:

- لا! . . جيت لأن أريـد أسـال أميـر القيروانـي عـن الصـورة اللـي رسـمهه بـگـهوة محمـود جويـر . . أقصـد صـورة الرجّـال اللـي يشـرب نرگـيلة!

يضحك الصبي، و يعلق:

- مـع ذلـك . . حظـك مـو حلـو! . . البارحـة العصـر جـاء رجـل أخـرس و شـگـگْ كل لوحـات أميـر القيروانـي المعلـگـة هنـا و شمرهن بالشـاخة!

و قبـل أن يكمـل شـمران باقـي الحكايـة، سـمع مـن ورائـه غنيـم السـامرلي، صاحـب المقهـى المجـاور، يكمـل الحكايـة لغايـب قائـلاً:

- . . و انبسط أمير القيرواني بسطة[16] من هذي التمام و ترضرضْ و تفشَّخْ . . . و يا ما حذرناه و حچينا وياه على صور النسوان المسلّخات اللي يعلگهن بواجهة الدكان! . . لكن حچينا ما فاد . . إلى أن وگع الفاس بالراس!

و أضاف شمران:

- . . و هيچي قرر القيرواني إغلاق المحل . . و سمعت منه بالبيت يريد يروح يشتغل ببغداد . . يگول بغداد أحسنله من هاي البلدة الجايفة اللي ما بيهه أحد يقدر الفن!

- و الدكان يظل فارغ؟

- لا . . أبويه راح يتحول هنا!

- يبيع خيار وطماطة؟

- أي!

ما الذي سيجعل غايب يتعلق بالمكان فيما بعد، فيتحول، في شراء الفواكه و الخضر التي إعتاد شراءها من داوود شناوة السامرلي، الى شرائها من نزهان الأحمدي؟ . . بسماعه كل ذلك من شمران الأحمدي رفع غايب رأسه متلفتا، و من بعيد لفتت إنتباهه لوحة إعلان سينما ديالى، فسار مستديراً يساراً نحو الجنوب ماراً من أمام مقهى غنيم، و متوقفاً أمام دكان فاضل الكبابچي، ليصيح من الشارع على فاضل:

- عمي أبو جبار . . أريد نفرين كباب للعشا . . رحمة لوالديك، كثّر من البصل و الطماطة المشوية . . أم رحمن تحبهن!

يومِئ له فاضل الكبابچي موافقاً و واعداً، و يسير غايب ساحباً دراجته بإتجاه قنطرة الشاخة، متوجها نحو إعلان سينما ديالى . . حيث مانشيت

١٦ «بسطة» بالعراقية العامية تعني «علقة»

فلم موگـامبو . . و هو يتطلع الى صدر المرأة التي في الإعلان، سمع مؤذن جامع بعقوبة القريب يصيح . . الله أكبر . . فصرخ شئ في نفس غايب . . الله أكبر الله أكبر!

عند المساء . . بعد أن تناوله لعشائه مع أم رحمن، ذهب غايب ليرتاد داراً للسينما لأول مرة في حياته، لكي يرى تلك المرأة الناهدة الصدر في إعلان السينما! . . دفع أربعين فلساً ثمن تذكرة في الموقع الثاني الأرضي الرخيص و توجه الى الصالة . . تفرَّج على الفلم، و لم يفهم من الفلم شيئاً سوى مشاهد رجال يصطادون أسوداً و نموراً و معهم إمرأة ناهدة الصدر . . و ألهبت خياله مشاهدة الممثلة في الفلم . . بإنتهاء العرض و الخروج من الصالة، ستلهب خياله أكثر مشاهد بعض نساء بعقوبة بملابسهن العصرية، ينزلن من موقع الدرجة الأولى في الطابق العلوي من دار السينما، و إنْ لَسْنَ بصدور عارية تقريباً مثل بطلة الفلم، و لكن بتنوراتهن القصيرة التي تنكشف عن ربلات سيقان جميلة متنوعة الأشكال!

يخرج من صالة العرض مع جمهور الموقع الثاني المكتظ و المسرع خروجاً، كي لا يفوته التفرج على نساء نازلات مع أقربائهن من الموقع الأول. كان ما يزال في صالة السينما حين تناهى الى سمعه صوت بدى له مألوفاً، يعلن عن مزايدة تأجير كازينو سينما ديالى . . و بخروجه من دار العرض الى الفضاء و الوقت ربيعاً، إختلط عنده صوت ناجي النرگوزة بالنسمة الهابة من الشمال، ما جعل غايب يتلفت يميناً ليرى أين يقف ناجي، فوجده واقفاً على علوة وضعوها له وسط ساحة ترابية أمام دار العرض الصيفية للسينما، تُغطي الرصيف و ما وراءه من أرض مسورة بسور من الطابوق يكاد ألا يرتفع الى أكثر قليلاً من نصف متر . . و راح ناجي يعيد تلاوة الإعلان:

- . . ستجري المزايدة العلنية لتأجير كازينو سينما ديالى . .

ناجـي يلـّـوِحُ بيـده للجمهـور المُـصغي لـه، ليدلهـم علـى موقـع الكازينـو و المـكان الـذي سـتجري فيـه المزايـدة مضيفـاً بأعلـى صوتـه:

- .. هنـا! .. هـذا هـو مـكان الكازينـو .. هـذا اللـي واگـف آنـي بـه هسـه .. و هنـا راح تجـري المزايـدة .. و المزايـدة راح تصيـر يـوم الإثنيـن القـادم فـي تمـام السـاعة العاشـرة صباحـاً .. و الحاضـر يبلـغ الغايـب!

بدافـع الفضـول، دخـل غايـب قطعـة الأرض المظنونـة كازينـو، و وقـف فـي زاويتهـا القريبـة مـن الشـارع يتفـرج و يسـتمع لناجـي يكـرر الإعـلان، لغايـة أن فـرغ الشـارع مـن رواد السـينما، و لـم يبـق فيـه سـوى عربانـة ربـل واقفـة فـي الشـارع مـن جهـة الجنـوب فـي رأس الفـرع الثانـي الـذي يلـي الفـرع المجـاور للسـينما. و علـى الرغـم مـن كبـوة نـور الشـارع، ميـز غايـب مـن بعيـد و بصعوبـة ماهـي العربانـچـي ينتظـر بعربانتـه .. و بمـرور لحظـات لمـح رجـلاً يخـرج مـن الفـرع و يصعـد الـى العربانـة .. و بمـرور العربانـة خـايل غايـب وجـه الراكـب فـي العربانـة و كأنـه وجـه الرجـل الشـاهق المهيـوب .. أعانتـه فطنتـه علـى مغـادرة موقعـه الـى الشـارع، قافـزاً مـن فـوق السـياج الواطـئ، و راح يصـرخ وراء العربانـة:

- عمي ماهي! .. عمي ماهي! .. عمي ماهي!

و لكـن هيهـات أن يسـمع ماهـي نـداءه، و هـو يسـوط حصانيـه، و يصيـح عليهمـا دييييييييييييييـخ! .. و هـا همـا الحصانـان يـزدادان سـرعةً مـع صرخـة ماهـي و يرتفـع صـوت حوافرهمـا المرتطمـة بإسـفلت الشـارع .. لام غايـب نفسـه لأنـه لـم يـأت بدراجتـه معـه. و إذ كان برهـوم الدنـداوي قريبـا، طلـب غايـب منـه دراجتـه الهوائيـة فوافـق .. سـحب غايـب الدراجـة مـن صالـة الإسـتقبال فـي السـينما راكضـاً و إنطلـق بهـا. و مـا أن أمسـى فـي الشـارع، ركبهـا و إنطلـق بأقصـى سـرعة يسـتطيعها .. لاح لـه فـي البعيـد خيـال عربانـة ماهـي تنعطـف نحـو شـارع العنافصـة. و مزيـدا مـن سـرعة دراجتـه، أدرك غايـب العربانـة، و هـي تجتـاز سـاحة العنافصـة، و تنعطـف

في شارع فرعي نحو الخانات، صرخ وراءها:

- عمي ماهي! . . عمي ماهي!

توقفت عربانة ماهي، و توقف غايب مقطوع النفس الى جانبها، واضعاً قدمه اليمنى على دواسة العربانة اليسرى، ألقى نظرة في داخل العربة . . و ها هي المفاجأة، سينصدِمُ غايب . . العربانة خالية من الركّاب. و نزل من الدراجة صارخاً:

- هاي شنو عمي ماهي! . . وين الرجّال اللي صعد وياك من يم السينما؟

- نزل يم الگنطرة اللي تعبر لمركز الشرطة، گال يريد يتمشى و نزل!

- و ين راح؟

- . . وين راح؟ . . شمدَرِّيني!

و تصعَقُ خيبة الأمل غايب، فها هي فرصة أفلتت من يديه، لكانت ربما حققت له ما يريد، فيسأل خائبا:

- و البيت اللي طلع منه لما صعد وياك من يم السينما؟

- هذا همين ما عرفته، لأن هو صعد وياي من السوگ . . و من وصلنا السينما طلب أنتظره براس الشارع . . و لا عرفت منين طلع . . و لا وين راح! . . گوللي غايب! . . إنت ليش تسأل عنه؟ . . شتريد منه؟

- لا! . .هيچ . . عمي ماهي هيچ! . . ماكو شي!

- هيچ! . . ماكو شي! . . لعد كل هاي الطربگة و الركض و نفسك المگطوع چان عليش؟

- مو گلتلك عمي ماهي . . ماكو شي!

و ها هو الرجل المهيوب يتيه مرة أخرى عن عين غايب!

ركوباً على الدراجة و سوقها شطر سوق صوب السراي، مخترقاً سوق الصاغة الذي كان معتماً . . النور الوحيد الذي كان يبصٌ في في المكان هو النور المتلألئ من محل أبو شخان الأرمني، بائع الخمور المرخّصة الغالية الثمن، و بالقرب منه وقف چرخچي ينفخ بصفارته و يجيبه چرخچي آخر في مكان ما بالسوق بصفارته . . ظل الچرخچي يراقب غايب لغاية أن دخل محل أبو شخان، و خارجاً منه و بيده زجاجة عرق عصرية مستكي، وضعها في عب دشداشته حين خرج، و إستدار يسوق دراجته رجوعاً الى دار السينما.

عَوداً بالدراجة الى برهوم الدنداوي، سيجد غايب دار السينما مقفلاً، فأخذ الدراجة الى أبي دعوچة أخيه ليعيدها إليه باكراً . . كان أبو دعوچة ما يزال يقف وراء منقلته يشوي آخر ما تبقى عنده. سأله أبو دعوچة عن موضوع الدراجة، فكذب، و قال أنه طلبها من أخيه ليجلب عرقاً، و طلب من أبي دعوچة أن يبقي له ما يصلح مزة من بقايا الطماطا و البصل و الكرفس.

يلتقيان في صومعة السكر، و يقوم غايب بواجب الضيافة و تهيئة المائدة. وما أن رأى أبو دعوچة زجاجة العرق المستكي، علق قائلاً:

- صايرة أحوالك أحوال غايب بن مرهون!

- إشلون؟

- صاير تشرب عرگ مال حكومة! . . عرگ عصرية مستكي صرمهر![17] . . هذا منين؟ . . من أبو شخان؟

[17] «صرمهر» هو التعبير الذي كان العراقيون يستعملونه للتعبير عن الشئ الجديد المغلف و غير المستعمل.

- إي من أبو شخان . . تدري ليش؟ . . لأن السالفة اللي في بالي تستحق الواحد علمودهه يشرب عرگ صرمهر. . أگعد!

كان فِراش عزوبة أبي دعوچة ما يزال في مكانه وسخاً، لم يأخذه صاحبه الى بيت الزوجية، فجلس صاحبه عليه. و بعد أن دارت الرشفة الأولى الخمر، سأل أبو دعوچة:

- غايب . . شنو هالسالفة اللي تستحق الواحد يشرب علمودهه عرگ صرمهر ؟. . شكو؟ . . خير!

- بالتأكيد خير! . . إنت سمعت بسالفة الإعلان مال تأجير كازينو سينما ديالى؟

- أي سمعت . . يهودا و أخو ناجي يريدون يسوون مزايدة على تأجيرها . . و يعني شنو؟

- دا أفكر آني أستأجرها . . و إحتمال أروح للمزايدة!

و يصرخ أبو دعوچة متفاجئاً و ربما مستنكراً:

- تستأجرها؟ . . إنتَ!

- أي! . . ليش لا؟. . و شنو المانع؟

لم يعلق أبو دعوچة، لكن غايب ظل ينتظر من نديمه و صديقه رأياً. و ظلا صامتين لغاية أن أكمل أبو دعوچة كأسه الأولى و عمّر الثانية، فقال:

- إسمع غايب؟

- بلي!

- إنت لازم تعرف . . الناس مقامات!

- أيّ؟ . . و شنو يعني؟ . . ما إفتهمت!

كأن أبا دعوچة على قناعة تامة بأن مقام غايب لن ينافس مقام أي من أصحاب مقاهي بعقوبة الذين سيأتون للمزايدة، فحاول أن يداري ظنه بالمقام الإجتماعي لنديمه، موحياً له بأنه قد لا يظفر بإستئجار تلك الكازينو، قال معلقاً:

- شوف غايب؟ . . إذا تريد تستأجر هذي الكازينو . . شوفلك فد راس چبير يساعدك على إستئجار الكازينو!

- راس چبير! . . شتقصد؟ . . و ليش راس چبير؟

- إي . . أحسن لك! . . ليش ما تفاتح صاحبك متعهد الأرزاق؟ . . أقصد حسين الجيراوي . . و تدخل إنتَ وياه.

في داخله، إستنكر غايب ما يقوله نديمه و لم يكن يتوقع إستصغاراً سافراً على النحو الذي لمسه من نديمه، فرد قائلاً:

- . . بس أبو دعوچة! . . . آني أريده إلي وحدي . . ما يشاركني بها أحد!

- شنو! . . إلك وحدك؟

- شنو المانع؟

- . . غايب إسمعني زين! . . مثل ما أگولك . . الناس مقامات!

شعور غايب بالضعة تضخمه كلمات أبو دعوچة، فتجعله يسكت و لا يعلق سوى بكلمة:

- أشوف!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

يوم المزايدة كان دار السينما مقفلاً. و بإنتظار ساعة المزايدة منذ الساعة التاسعة صباحاً، جلس غايب على سور الكازينو في الزاوية القريبة من باب السينما، تاركاً مخيلته تسرح بالمكان، و كيف سيزدحم بالقنفات و الكراسي و الطبليات، و صوته يدوي كا هو حاصل في المقاهي عادةً . . جيب چاي لعمك! . . وذّي بيبسي لعمك هناك! . . . جيب هنا ماي! . . . وذّي بارد! . . و أجفله صوت سحب الباب السلايد لدار العرض السينمائي و صحّاه من سرحانه. إلتفت و رأى برهوم الدنداوي يخرج دراجته الهوائية و معها لوح إعلان الفلم المعروض ليذهب به الى السوق. لم يقل غايب شيئا، لكن برهوم سأله:

- غايب! . . شعندك هنا؟

لم يكن في باله شئ يقوله سوى:

- جيت للمزايدة.

- للمزايدة؟ . . إنت!

كان واضحاً لغايب أنه سمع برهوم يقولها بمنتهى السخرية، و كان رد غايب متحدياً:

- أي آني! . . ليش لا؟

و يبتسم برهوم إبتسامة تنضح خبثاً، لم يحتج غايب الى الكثير من الفطنة لتفسيرها، و لكنها إختصرت لغايب منزلته حتى عند الناس الذين يظنهم أصحابه. و يزداد شعور غايب بالضعة حين يردد برهوم بطريقة إستفزازية ساخرة:

- لا هيچ ماكو شي! . . إي مثل ما تفضلت . .ليش لا! . . . إبن مرهون العربنچي!

برهوم لا يختلف عن والده علو الدنداوي .. ضئيل البنية و قصيرها، و لكن بفارق هو أن قامة الوالد أكثر إنتصابا من قامة الولد، و لعابه أكثر تناثراً من فمه حين يتحدث بسرعة .. و مغتاضاً بصمت من تعليق برهوم، يراقبه غايب يصعد على دراجته واضعاً لوح الاعلان على كتفه و يروح يسوق دراجته نحو السوق .. و منذ تلك اللحظة فهم غايب تقريباً لم كانوا يسمونه .. برهوم عريضي! .. و لم يحبه، و لن يحبه، و ذاك هو الآخر لم يحب غايب و لن يحبه!

كان يهودا و أخوه ناجي قد أفلتا من فرهود بغداد عام 1941 الذي جيشته جهات عديدة قومية و دينية و قوى أجنبية عديدة، تظافرت جهودها ضد يهود العراق عموماً، و بخاصة يهود بغداد .. جاءا من بغداد بما إستطاعا أن يخلّصاه من حشد الغوغاء الذين كانوا يفخرون لأنهم يسرقون و يعتدون، فأسسا سوية بانزينخانة بعقوبة، بجوار محطة القطار، مشروعاً أهلياً صغيراً، يشتغل به عدد صغير من العمال، كان بينهم صُبيِّح الإبن البكر لعلو الدنداوي .. و بمرور شهرين تقريباً على إفتتاح البانزينخانة، و بتأثير المخاوف التي نشأت جراء ما حصل أثناء فرهود بغداد ضد اليهود في الأعوام السابقة، و بفطنة عُرِفَ بها اليهود بسبب النكبات التي حلت بهم، إختار اليهوديان حسان عليّان، من أعيان بعقوبة، شريكاً لهما في البانزينخانة كي يكون لهما ظهيراً ضد محاولات إبتزازهما و فرهدتهما .. ثم بادرا بعد ذلك عام 1949 لتأسيس دار عرض سينما ديالى، فأحرز إستثمارهما نجاحا باهرا.

الحضور الى موقع المزايدة يكاد يكون صفرا لولا حضور غايب الى المكان بوقت طويل .. يحضر الدلال ناجي النرگوزة، و دون سلام، يجلس الى جانب غايب الجالس على السياج الواطي لبقعة أرض الكازينو المفترضة .. و قبيل العاشرة بدقائق، وصل ناجي و يهودا مالكا دار العرض، يهرول وراءهما علو الدنداوي، قصير القامة مثل كائن يسيل رياله. ألقى ناجي و أخوه التحية، فنهض ناجي نارگوزة محيياً و نهض معه غايب مجيباً على سلامهما. و تلفت ناجي صاحب دار العرض علّه

يجد أحداً غير الرجال الموجودين بإنتظار المزايدة، و لم يرَ غيرهم. كان صاحبا السينما كلاهما رجلين أربعينيين طويلي القامة نسبياً، يمشيان منتصبي القامة و مرفوعي الرأس. و أحدهما كان قد إعتاد على ألا يظهر الى الناس إلا ببدلة عصرية أنيقة و ربطة عنق، يتماهى لونها مع لون البدلة، في حين كان الآخر بسيط الأناقة بقميص منشّى و بنطلون مكوي بعناية . . و على الرغم من إعتزالهما الناس، أو ربما عزل الناس لهما بسبب يهوديتهما، إلا أنهما كانا إذا حضرا يثبتان حضوراً لافتاً من نواحي عديدة . . و قد تكون أسرتهما هي أحد آخر الأسَر اليهودية التي فضلت البقاء في العراق على الذهاب لدولة إسرائيل عند تأسيسها عام ١٩٤٨ . . كان يهودا أكبر من أخيه سناً بقليل، و أقصر قامة بحبة، و مثل أخيه كان رَجُلَ هندام و أناقة، مع فارق عن أخيه هو أنه لم يعتد على وضع ربطة عنق مثلما يفعل أخوه ناجي. و كان الأخوان معروفين أيضا بحبهما للثقافة الواسعة و بمنظومة أخلاقية يعزُّ نظيرها سوى عند قلة من ناس بعقوبة.

إستفسر يهودا من نرگوزة:

- سيد نرگوزة . . ما جا أحد لحد هسه؟

فيرد ناجي نرگوزة:

- لا!

و ها هو غايب يتلعثم بالكلمات و هو يقول:

- . . عمي ناجي . . عمي يهودا . . آني هنا . . آني أريد أستأجر الكازينو!

فيقاطعه ناجي نرگوزة مستنكراً و مستصغراً:

- إنتَ!

و يرد غايب:

- إي آني! . . و ليش مو آني عمي نرگـوزة؟ . . شنو المانع؟

- و لـك إنـت مـو إبـن مرهـون العربنـچـي اللـي چـنت مدلكـچـي بحمـام إبراهيـم جويـر؟

- أي إبـن مرهـون العربنـچـي و چـنت مدلكـچـي! . . و شـنو يعنـي؟ . . يعنـي إذا آنـي إبـن مرهـون العربانـچـي چـنت مدلكـچـي مـا يصيـر أسـتأجر الكازينـو!

و يمسك غايب بعبِّه مضيفا:

- . . .هذي فلوسي بعبّي . . و آني جاي أستاجر الكازينو!

الإسـتصغار فـي سـؤال الـدلّال واضـحٌ و مهيـنٌ . . فيفطـن الأخـوان ناجـي و يهـودا لمرمـى الـدلال . . ألقيـا نظـرةً هادئـة و متفحصـة علـى غايـب، بدشداشـته و عبّـه منهدلاً يغطـى حزامـه عنـد كرشـه الصغيـر، متأملَيـن وجـه غايـب المبتسـم، ربمـا ببلاهـة، يوحـي بهـا صـف الإسـنان المغلفـة بالذهـب فـي فكـه الأسـفل . . بعـد تفرُّسِـهما الطويـل نسـبياً بمظهـر غايـب الخارجـي و الداخلـي . . عصفـور موجـود عنـد سـاحة المزايـدة خيـرٌ مـن مائـة عصفـور موجـود فـي سـوق بعقوبـة البعيـد عـن دار السـينما! . . فيسـأله يهـودا:

- شسمك؟

- غايب . . عمي ناجي . . آني إسمي غايب مرهون بكر!

- أهلا و سهلا!

و يضيف يهودا بلباقة مخاطباً نرگـوزة:

- إذا كان أكـو أحـد حاضـر للمزايـدة . . مـو مـن حقنـا نلغـي المزايـدة! .

. الواجـب الأخلاقـي هـو اللـي يفـرض علينـا المزايـدة و أن لا نتأخـر عـن الموعـد حتـى لـو چـان الحاضـر واحـد بـس! . . بسيطة! . . . و هـذا الواحـد هـو اللـي يفتـح بـاب المزايـدة و هـو اللـي يزيـد وبالأخيـر توگـع المزايـدة عليـه . . و إذا إقتنعنـا بالسـعر المعـروض نوافـق عـل التأجيـر!

إثنـان لـم يعجبهمـا الموقـف و لا مـا صـرح بـه أحـد مالكـي المـكان . . ناجـي نرگـوزة و علـو الدنـداوي . . أمـا هـذا الأخيـر، فقـد يكون مـن الحماقـةِ الإعتقادَ بـأن إبنـه أبـا دعوچــة لـم يكـن قـد حدثـه بنيِّـة غايـب تأجيـر الكازينـو، لأن إبنه كان بالتأكيـد قـد أخبـره بهـذه النيـة، و قـد يكـون، مثلمـا فعـل إبنـه، سـخر ممـا قالـه لـه إبنـه عـن نيـة غايـب، مقتنعـاً بمـا قالـه إبنـه لغايـب عـن المقامـات التـي ستأتي للمزايـدة علـى إستئجار الكازينـو، فضـلاً عـن أن نفسـية التابـع التـي فـي أعمـاق الدنـداوي جعلتـه يُخطـئ فـي قـراءة نفسـية ربـيّ عملـه ناجـي و يهـودا . . لـذا، فهـو لـمْ يُـعِرْ إهتمامـاً لمـا سـمعه مـن إبنـه، بـل و ربمـا سـخرَ مـن كلام إبنـه أبـي دعوچــة، لقناعتـه الراسـخة بـأن حضـورَ مزايديـن من ذوي الجـاه، لـن يتيـح لغايـب فرصـة إستئجار الكازينـو.

لـم يكـن أمـام النرگـوزة سـوى أن ينصـاع لرغبـة أصحـاب المـكان، فيخاطـب غايـب بعصبيـة ظاهـرة و بنبـرة واصـل فيهـا بوقاحـة إسـتصغار شـأن غايـب و أصلـه:

- يلله! . . فُضـُّنا مدلكـچـي إبن عربنـچـي!

و كأن النرگـوزة أراد بذلـك و بإصـرار أن يوجـه رسـالة الـى الأخويـن ناجـي و يهـودا محـاولا إقناعهمـا فيهـا الـى أن رجـلاً نكـرة مـن نـوع غايـب لا يسـتأهل أن يسـتأجر منهمـا الكازينـو، و مواصـلاً إسـتهانته لشـخص غايـب سـأل بنبـرة عالية:

- ولك إبن مرهون المـگدي . . فُضنا! . . بيش تفتح باب أول المزايدة؟

مثـل أطـرشٍ فـي زفـة، تتملكـت الحيـرة غايـب بمـا سـيقوله، لأنــه لـم يكـن

يعـرف أصـول المزايدات، و لـم يسـأل عنهـا حتـى قبـل أن يجيـئ . . ثمـة بـابٌ للمزايـدة يبتـدأ بسـعر أولـي يطرحـه أول المزايديـن . . و إذ لـم يتلـقَ جوابـاً، أضـاف النرگـوزة بعصبيـة أوضـح و بصرخـة:

- . . يلله! . . گـول شـگد؟

و يتجاهـل غايـبُ النرگـوزة، و يخاطـب الأخويـن ناجـي و يهـودا مباشـرة و ببسـاطته:

- عمـي ناجـي . . الله يخليك إنـت و عمـي يهـودا . . آنـي أصـلاً مـا أعـرف شـنو مزايـدة! . . و لا أعـرف عقـود! . . و لا قرايـة و لا كتابـة! . . و لا أعـرف أوقـع علـى ورق! . . گـولولي . . شـگـد تريـدون منـي إيجـار بالشـهر لهـذي الكازينـو؟ . . و آنـي أدفـع.

و يضـع غايـب يـده فـي عبّـه ليخـرج حزمـة نقـود ورقيـة مـن فئـة خمسـة دنانيـر و يريهـا لصاحبـي الملـك، و كـرر قولـه:

- . . و آني أدفع!

و ينشـدّ الأخـوان ناجـي و يهـودا الـى صراحـة غايـب و بسـاطته المتناهيـة و مباشـرته، فيعلـق يهـودا قائـلاً:

- إطمئـن غايـب . . طالمـا أنـت المُسـتأجر الوحيـد الحاضـر هسـه و هنـا . . الكازينـو مـا راح تـروح لواحـد غيـرك . . و طالمـا جـرت الأمـور علـى هالمنـوال . . إحتفـظ بفلوسـك هـذه اللـي ويـاك لتجهيـز الكازينـو[18] . . و مـا راح نريـد منـك غيـر إيجـار شـهري . . راح تدفـع عشـرة دنانيـر بالشـهر إيجـار! . . إذا عنـدك إسـتعداد إدفـع كل شـهر عشـرة دنانيـر لعمـك علـو أبـو صـُبيـِّح . . و هيـچـي تنفضّ المسـالة!

١٨ إعتاد العراقيون على إستعمال مفردة «كازينو» ليشيروا بها الى المقهى المفتوح على فضاء خارج البناء الملحق بالمقهى، و ليس بالمعنى المعروفة به مفردة casino في الغرب.

و يضيف أخوه ناجي قائلا:

- . . . و إكراما لكونك إنت الوحيد اللي جاء يستأجر الكازينو راح يكون ضمن الإتفاق مسموح لك أيضاً تبيع المشروبات داخل دار السينما بصالة الأستقبال . . و إتفاقنا راح يمشي من اليوم . . و إحنا من عادتنا نأخذ الإيجار مقدما . . فإذا ما عندك مانع . . سلِّمْ إيجار الشهر الأول لعمك علو . . و أجور الدلالية لعمك النرگوزة أيضا إنت راح تدفعها!

فيرد غايب فوراً:

- حاضر . . حاضر عمي ناجي . . آني كلش ممنون!

متفحصا هيئة غايب من فوق الى تحت، سيميل مالك المكان الى المزاح معلقا :

-. . إبني غايب . . أولاً أتمنالك التوفيق و النجاح بشغلك . . و ثانياً أريد أعرف . . . إنتَ راح تظل لابس هالدشداشة مثل عمك علو الدنداوي؟ . . مو إنت راح تصير صاحب كازينو يم السينما؟

- عمي ناجي . . يعني شنو؟

- يعني . . ما راح تبدل ملبسك؟ . . ما راح تلبس قميص و بنطلون لما تفتح الكازينو!

و بإرتباك واضح و صف أسنانه الذهبية تلمع، يرد غايب:

- حاضر عمي ناجي . . حاضر!

ها هي خبرة و فطنة المالكين تحقق إيجار العشرة دنانير المقترح و كأنها ضربة معلم، لأن العشرة دنانير لم تكن بمبلغ زهيد يُدفع إيجاراً لمقهى بعيدة عن السوق! . . فضلاً عن أن ما حصل كان فوق طاقة غايب ليتحمله، و بيد مرتجفة من الإنفعال، سحب من ربطة النقد التي في يده

ورقتـي نقد حمراويـن فئـة خمسـة دنانيـر و سـلمها لـعلـو الدنـــداوي، الـذي مـا أن إسـتلم الورقتيـن النقديتيـن وضــع يـده خلـف عجيزتـه الضـامـرة، و أفـرغ غيضـه بدعس ورقتـي النقـد فـي راحتـه دعسـاً كاد أن يمزّقهمـــا، لا تعبيـراً عـن غيـض فحسـب، بـل و عـن خسـارة كبيـرة غيـر متو قعـة، إذ لـم تكـن تبعيتـه، الغارقـة بهـا نفسـه، لربـيِّ عملـه يهـودا و أخـوه ناجـي، تتيـح لـه حتـى التفكيـر بـأن أمـور تأجيـر الكازينـو ستسـير علـى المنـوال الـذي ســارت عليـه . . و بمرارة راح يراقـب غايـب يسـحب ورقـة نقد حمـر اء ثالثـة يسـلمهما لناجـي نركـوزة، الـذي أخـرج كيسـاً خاميّـاً مـن عبّـه شـبيهـاً بالكيـس الـذي فـي عبِّ غايـب، و وضـع فيـه الورقـة النقديـة فـي الكيـس، بعصـبيـة هـو الآخـر، و أعـاد شـدِّ عقـدة الكيـس و أعـاده الـى عبّـه.

فـَرَحاً، سيصل إنفعـال غايـب ذروتـه، و ربمـا يزيـد حيـن يطلـب يهـودا مـن الدنـداوي:

- أبو صـُبَيـِّح . . سلّم مفاتيح غرفة الكازينو لغايـب!

يـُخرج الدنـداوي مـن جيبـه طائعـا مفتاحـان ليدسـهما فـي يـد غايـب علـى نحـو لا يخلـو مـن غلّ. و أقتـاد غايـب سـحباً مـن يـده الـى الغرفـة و طلـب إليـه أن يفتحهـا . . و يفتـح غايـب البـاب، و يطـل برأسـه مـن فتحـة البـــاب الصغيـر علـى داخلهـا . . ظهـرت الغرفـة لعينيـه طويلـة و فارهـة تحتـل تقريبـاً كامـل الضلـع الأمامـي لـدار العـرض الصيفيـة لسينما ديالـى المطلـة علـى شـارع الشـاخة. . و سـمِعَهُ الدنـداوي يعلـق مأخـوذاً:

- . . حيل! . . هذي بـگـد قاووش المستشفى!

و يكاد الدنداوي أن يموت كمداً!

و أثنـاء مـا كـان غايـب يغلـق بـاب الغرفـة، نـزل برهـوم عريضـي مـن دراجتـه عائـداً مـن السـوق. و مـا أن رأى غايـب يغلـق الغرفـة، و يضـع مفاتيحهـا فـي جيـب دشداشـته الأيمـن، و يذهـب الـى حيـث يقـف الأخـوان ، ناجـي و يهـودا و

يشكرهما، أدرك عريضي ما جرى، فأسقِط في يده هو الآخر و غطى على إستصغاره لشأن غايب قبل ساعة بإطلاقه زفرة كأنها صفير قطار.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

و منذ ذاك الضحى سيمر الكثير من مياه شاخة بعگوبة قرب المكان الذي سيشهد فصول الحكاية الدراماتيكية لطلوع نجم غايب مرهون بكر العربنچي و أفوله.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

ردود الأفعال على ما أنجزه غايب تنوعت و إختلفت . . في محيط دار العرض السينمائي و في حلقة الإقربين لغايب و في خارج محيط سينما ديالى.

أبو دعوچة نديم غايب تلقى الخبر بفتور ظاهر لا يخلو من حسد ينضح بخسارة جرّاءَ سوء التقدير، و سيضمر في داخله شيئاً يظل يعتمل و إن بطيئاً. الشعور بالحسد سيظل ينمو مع نمو عمل الكازينو، و سيُعَبَّر عنه بفلتات لسان تتيه في سهرات الندمان لغاية أن تحصل بينه و غايب قطيعة شبه نهائية.

علو الدنداوي سيظل يتميز غيضاً منذ لحظة تسليم غايب مفاتيح غرفة الكازينو، لأنه و على الرغم من مرافقته الطويلة للأخوين ناجي و يهودا، منذ مجيئهما الى بعقوبة و تأسيسهما لبانزينخانة بعقوبة الأهلية و تشغيل إبنه الكبير صُبيِّح فيها، و بعدها تأسيس سينما ديالى، و خدمته الطويلة لهما في دار العرض . . ينظف السينما، هو و ولده برهوم، و يغسلان مرافقها الصحية كل يوم، و يحرسانها، عدا ما يؤديانه من خدمات أخرى لأسرة الأخوين يهودا و ناجي، لم يُهيئ له عقله الصغير قط يوماً تصور إحتمال إتخاذ ناجي و يهودا، سيديه، لقرار من النوع الذي كان إبن لحظته . . من نوع ذاك الذي إتخذاه، حين وافقا على تأجير الكازينو

لغايب مرهون، و إلا، ففي داخله كان ثمة وازع يقول . . لكان واحداً من أولاده أحق من غايب بالكازينو لو كان يعلم أن الأمور ستسير بما لم تشتهيه سفنه . . و ردة فعل الدنداوي و غيضه من غايب، على الرغم مما تعلمه هذا في الجيش و من حياته الماضية ظلّت قدراته العقلية بسيطة و تتكشف أحياناً عن سذاجة، سيظل غايب بنظره هو الجسور الذي فائز باللذات، و سيشاركه في غيضه إبنه برهوم عريضي، و سيعبّران عن هذا الغيض، عند تنظيفهم لصالة السينما بعد إنهاء العرض، بتكسير أكبر قدر ممكن من القناني الفارغة للمشروبات الغازية التي سيبيعها عامل غايب داخل الصالة، و سيدفع غايب ثمنها غرامةً لشركات التجهيز، و سيحرصان على محاولة إصابة غايب بأقصى ضرر ممكن، حسبما سينقل لغايب فيما بعد إبراهيم أبو العنبة مستأجِر حانوت السينما أخبار غيض الدنداوي و ولده.

حسين الجيراوي جاءت ردة فعله أول الأمر مثل ردة فعل إبراهيم جوير صاحب الحمام حين إلتحق غايب بالجيراوي في العمل، و آمن بأن غايب مفارقه غداً أو بعد غدٍ، لأن الجيراوي، و على الرغم من طمأنة غايب له بأنه سيستمر معه، لأن شغل الكازينو سيكون مساء . . لكن هيهات! . . فقد آمن متعهد الأرزاق بأنه خاسرٌ لعامله الكُفؤ قريباً . . و لكن إستفراد غايب بقرار إستئجار الكازينو لنفسه و لوحده و بالكتمان عنه و دون أن يكون له فيه نصيب كان فيه جحود من غايب، و ما سيؤلب الجيراوي على مرهون أكثر هو سماعه بالدعاية في المدينة لكازينو أم كلثوم و هو في غفلة لا يدري أنه لعامله غايب. و سيظهر الجيراوي إنه ليس صاحب قلب رحيم من نوع قلب إبراهيم جوير حين فارقه غايب، و على الرغم من الأمنيات التي أغدقها على غايب بالتوفيق ظاهرا، غير أنه في داخله سيعمل على إسترجاع غايب غداً أو بعد غدٍ، و سيضمر شيئا ينطوي على غاية إنتقامية، و يظل يتحين الفرص بصبر و أناة.

أم رحمن سيذهب غايب إليها بوجبة كبيرة من كبة جميل حجل، و يحدث لها و هي تأكل عن الأمر كأنها والدة، و ستنهض و فمها يقطر سمناً من

كبة حِجل و تفعلها و تقبلـّهُ علـى رأسـه لأول مـرة منذ لقائهمـا الأول و تقـول لـه :

- هذي من بركات نرجس عليك . . الله يرحمها!

و يرد عليها:

- ومن بركاتـچ همين! . . رحمة على عمي أبو رحمن و على رحمن!

غايـب لـم يكـن قـط قـد رأى أبـو رحمـن و لا رحمـن! . . و لكنـه سـيبكي لأول مـرة علـى مـرأى مـن نسـاء دربونـة أم الدجـاج، اللاتـي، عرفانـاً منـه بجميل ترحمهّـن علـى روح نرجـس، سـيتركُ لهـن متعـة مشـاركة أم رحمـن وجبتهـا مـن كبـة جميـل حجـل . . و سـيضـع أم رحمـن فـي جمعـة تاليـة، بعـد تـردد منهـا، فـي الشـوفرليه تاكسـي عبـد كولونيـا، الـذي طلـع صيتـه منافسـا لعربانـات الربـل، و يأخذهـا الـى مقبـرة أبـي دريـس لزيـارة قبـر أمـه نرجـس و والـده مرهـون و جديـه العصمليـين!

أخـوا غايـب إبراهيـم و عصمـان سيتلقيان الخبـر و يأتيـان ليباركا لـه بفتـور بدايـة عملـه الجديـد. و أخـوه إبراهيـم، الـذي تـرك شـغل العربايـن الربـل و فتح لـه چـايخانة صغيـرة مقابـل حسـينية بعقوبـة، سـيعلق حسـداً:

- صحيـح إنـت چـنت تِسـگـي النـاس اللـي يجـون للحمـام إسـتكانات دارسـين . . بـس هـاي و يـن و شـغل الچـايخانات و الـگـهاوي بالسـماور و طـگطـگـة الإسـتكانات ويـن! . .

شـخص وحيـد سـيطير فرحـا لغايـب و يغبطـه مـن أعمـاق قلبـه و يحتضنـه تبـرّكا. حسـين گـطمة الـذي سـيأتي ليسـهر معـه فـي غرفـة مقهـى مناتـي، و يخبـره غايـب بـأن مبيتـه سـينتقل بعـد أيـام إلـى غرفـة الكازينـو، و يأخـذه لهنـاك و يريـه إياهـا . . و سـيقترح عليـه حسـين أن يـودِّع أيضـاً منامـه علـى الأرض، و سـيتفاجئ غايـب فـي اليـوم التالـي بحسـين جالبـاً سـريرين مـن جريـد النخـل، هديـة للمـكان الجديـد، و معهمـا الأفرشـة المطلوبـة، و تتحـول

الغرفـة الـى مسـكن لغايـب و مـكان لسـهرات سـكره مـع حسـين، و يلتحـق بهمـا أبـو دعوچـة أحيانـا.

* * * *   * * * * *   * * * * *

و هـا هـو غايـب بعقلـه الـذي يبـدو بسـيطاً سيثبت لنفسـه قـدرة علـى الشـروع بمـا هـو جديـد . . فـي اليـوم التالـي، و بعـد شـرائه الخضـر و الفواكـه مـن نزهـان الأحمـدي، و اللحـوم مـن محمـد عيشـة القصـاب، جعـل طريقـه بلفـة مـن أمـام دكان أميـر القيروانـي، لعلـه يجـد جديـدا. كان الـدكان مفتوحـاً، و مـا مـن أحـد فيـه. و لكنـه و علـى الرغـم ممـا سمعه عـن العلقـة التـي تلقاهـا أميـر القيروانـي بسـبب رسـومات النسـاء العاريـات، فهـذا الأخيـر لـم يَتُـبْ عـن عـرض الصـور . . وجـد غايـب هنـاك صـورة كبيـرة نصفيـة لسـيدة، و لكـن بملابـس محتشـمة، مرفوعـة الأنـف كأنهـا تغنـي، أو تصيـح، أو تصعـّرُ خدهـا و تتعالـى . . أو أي شـئ آخـر خطـر ببـال غايـب . . و بشـعر ملفـوف خلـف رأسـها، و مـن أذنيهـا يتدلـى قرطـان طويـلان يكادان أن يلامسـا كتفيهـا، فجذبـه وجههـا . . ظـل ينظـر للحظـات لمَطْلَـعِ المـرأة التـي فـي اللوحـة، ثـم مضـى فـي طريقـه. ومـا أن مـر بلوحـة إعلانـات سينما ديالـى المعلقـة علـى عامـود قنطـرة جامـع بعقوبـة، إبتسـم فـي سـره، لأنـه شـعر بإنتفـاء حاجتـه بعـد لرؤيـة إعلانـات السـينما فـي السـوق، لأنهـا سـتكون قريبـة منـه، و بأحجـام أكبـر تغطـي واجهـة دار العـرض.

بفراغـه مـن تسـليم أرزاق المستشـفى، ركـب دراجتـه و ذهـب ظهـراً الـى الكازينـو. أسـند دراجتـه علـى حائـط الغرفـة و فتـح بابهـا سـاحبا الدراجـة الـى الداخـل. و علـى الرغـم مـن خـلاء أرض الكازينـو المفتـرض، وقـف سـاكناً فـي فتحـة البـاب، مبهـوراً مـن المنظـر الـذي أمامـه ، تُغشـي عينيـه أشـعة شـمس آواخـر آذار، و تُلطـّفـها النسـمات الشـمالية الغربيـة.

و يروح عقله البسيط يتأمل المكان.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الشاخة يطرّ بعقوبة بأجمعها طراً و يقسمها الى صوبين، من شمالها في منطقة السوامرة التي يسمي البعض طرفها المجاور لقنطرة خليل باشا بالبكرة بسبب إنتشار بكرات أسلاك الكهرباء العملاقة أمام مصنع كهرباء بعقوبة المطل على الشاخة في ظهر بساتين تلك المنطقة . . و يستمر الشاخة طارّا البلدة حتى جنوبها في منطقة محطة قطار بعقوبة التي بناها الإنكليز . . صوب التكية في شرق الشاخة و صوب السراي في غربه . . و يمتد بمحاذاة الشاخة على الصوبين شارعين على إمتداد إختراق الشاخة للبلدة . . شارع صوب السراي غرباً تقع عليه من الشمال و حتى الجنوب عند قنطرة خليل باشا محلة البكرة و تليها محلات الفايزية و القيصيرية التي تربطها بصوب التكية قنطرة ضيقة، و تليها محلة رأس العگد التي تربطها قنطرة ضيقة بدربونة أم الدجاج في صوب التكية، و يأتي السوق الغربي الذي تربطه قنطرة عريضة بالسوق الشرقي في صوب التكية، ثم محلة المَنْجَرة التي تربطها قنطرة عريضة بشارع الحسينية في صوب التكية، و تليها بيوت لبعض أعيان بعقوبة تنتهي بقنطرة عريضة تربطها بشارع حمام إبراهيم جوير، و بدءً من هذه القنطرة تكون البيوت على جانبي الشارع، من جهة الشرق مبانٍ تركت أظهرها للشاخة بضمنها بناية مديرية التربية و مدرسة بعقوبة الإبتدائية الأولى للبنات تقابلها على الجانب الآخر بيوت لبعض التجار و بجانبها مدرسة بعقوبة الإبتدائية الأولى للبنين مقابل مديرية التربية و تليها بيوت لبعض أعيان بعقوبة تنكشف الشاخة أمامها من جديد لغاية قنطرة ضيقة تربط المنطقة بصوب التكية، و تليها بساتين تمتد لغاية محطة القطار . . و كان الشارع الذي تقع عليه دار عرض سينما ديالى في صوب التكية، محاذياً للشاخة شرقاً، و يأتي هذا الطريق من منطقة چبينات شمالاً ماراً بقنطرة خليل باشا و تقع عليه محلات الگنث، و أم الدجاج، و السوق الشرقي، و محلة السويدية، و محلة العنافصة، و من رأس شارع العنافصة تبتدئ الأبنية لتظهر على جانبي الشارع، أبنية متناثرة لدوائر حكومية صغيرة و بيوت لبعض أعيان بعقوبة حاذت ظهورها الشاخة . . بيت العلمدار، و بيت البندر، بيت محمد علي الفدعم، و بيت الكواز،

و غيرها، و تليها حديقة كبيرة تليها بناية لمصرف الرافدين في بعقوبة مقابل دار سينما ديالى، ثم حديقة كبيرة للبلدية تنتهي بقنطرة محطة القطار. و على الجانب الاخر من الشارع بيوت و محلات تركت أظهرها إمتدادا لمنطقة العنافصة، تليها بعض البساتين الصغيرة التي تتصل جنوبا بالبناية الفارهة لدار عرض سينما ديالى، ثم يمتد الشارع ببيوت تنتهي بقنطرة محطة القطار.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

وقف غايب يتأمل واجهة بناية المصرف أمامه على الجانب الآخر من الشارع، بباب حديقتها الصغير المقابل لباب الكازينو . . ظهر البناية يلاصق الشاخة. و لم يكن غايب قد دخل أي مصرف في حياته قط، و لن يدخله ما عاش أبداً لأسباب تتعلق بدفع أو سحب الأموال، و سيظل متمسكا بأميته المالية، لكنه سيدخل هذا المصرف المقابل للكازينو مراتٍ لأسباب عاطفية و عملية لا علاقة لها بالنقود.

عينا غايب تستمران تائهتين عالياً نحو قمم أشجار ليوكالبتوس عملاقة و أشجار سرو هيفاء عالية و أشجار كازورينا و أكاسيا تمتد على طول الشاخة في داخل حديقة المصرف الخلفية، و تُبان له قممها السامقة من فوق بناية المصرف و هو في مكانه عند باب غرفة الكازينو. و تمتد أشجار نارنج و زيتون خلف السياج الأمامي لحديقة المصرف الأمامية، تتخللها شجيرات زهر جهنمي بلون أحمر تتدلى من السياج، و تظلل الرصيف الذي أمام بناية المصرف . . و فجاة ذكّرتهُ خصلتان من الزهر الجهنمي الأبيض الملتز ببعضه تتدليان بإستقامة بقرطين أبيضين طويلين متدليين بإستقامة من أذني المرأة في اللوحة التي رآها ضحىً معلقة في دكان أمير القيرواني . . شعر بالجوع. و أقرب مطعم إليه كان مطعم حسين الآشچي في الركن القريب من رأس شارع العنافصة. أقفل باب الغرفة، و راح يمشي لكي يعطي نفسه وقتاً للتفكير من أين يبدأ بتجهيز الكازينو بالتسهيلات المطلوبة، فأعياه التفكير.

يدخل غايب مطعم الآشچي و يجده مزدحما، فيخرج و يجلس على كنبة موضوعة على الرصيف أمام المطعم، و سيطلب أرزا و مرق بطاطا . . و هو يتناول وجبته سارحا ببصره في الشارع الذي أمامه، إنحصر بصره في الركن المقابل للمطعم، من جهة الشاخة، حيث . . مقهى الأحرار. و ما أن إنتهى من تناول وجبته، عبر الشارع نحو المقهى، فوجده خاليا سوى من بضعة أنفار و الچايچي. جلس و أتى له الچايچي بإستكان شاي خاطه و شربه تائها و بنفسية قلقة، ثم راح يتفحص الطريقة التي صفت بها كنبات المقهى، لتكون مجموعات أشبه بالمقصورات المتجاورة، مثلما هي العادة تقريبا في المقاهي جميعا. ثم نهض ليقيس بخطواته مساحة الأرض التي تحتاجها كل مقصورة من كنبتين، و بينهما طاولة كبيرة. لم يلاحظه أحد سوى الچايچي، الذي ما أن ذهب إليه غايب ليدفع ثمن الشاي و فمه منفرج عن صف أسنانه السفيلة الذهبية، علق قائلا صاحب المقهى:

- مخبل!

و ينفرج فم غايب الى آخره، فيظهر من فكه الأسفل حتى آخر سن مغلف بالذهب، و يغادر المقهى.

بعودته الى الكازينو يفتح باب الغرفة، و يمضي متأملا من جديد إمتداد المكان أمامه و على يمينه و على يساره، و يراجع إحتياجاته . . قنفات و مقاعد و كراسي و طاولات، و عدة لإعداد الشاي كاملة، و أقداح، و صناديق مغلفة بالصفيح من الداخل لتبريد المشروبات، و غيرها . . كان أخوه إبراهيم قد ترك مهنة العربنچي منذ سنين، لإرتباطها نفسيا عنده بمرحلة حياة مليئة بالذل و الضعة، و أستأجر مقهى صغيرا في السوق، فخطر في باله أن يذهب إليه ليستشيره، و لكنه أحجم، بسبب نفوره من أخيه صارفا عن ذهنه فكرة إستشارته. و أخيرا، قرر أن يطلب الأستشارة من محمود جوير.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

محمود جوير جالس في مدخل المقهى كعادته ينفث من فمه ما يستنشقه من نارگيلته . . سلّم غايب عليه و شاركه كنبته جالساً . . محمود جوير رجلٌ في أواخر عقده الرابع، ثرثار، مربوع القامة، أبيض البشرة و قد ترك البهاق بقعاً صغيرة متناثرة على وجهه و رقبته، و لباسه الدائم هو الدشداشة، يتحزم عليها، و يضع على رأسه يشماغا بلونين أسودٍ و أبيض، و فوقه عقال متوسط الثخانة . . حين يتحدث محمود جوير تخرج كلماته من فمه كأنها إطلاقات رشاش. و قيل أن طريقته في الحديث هذه كان قد إكتسبها منذ أن تعلم تدخين النارگيلة . . يطلق الكلمات على هذا النحو لكي يلحق، بأسرع ما يمكن، سحب ما في النارگيلة من دخان. و كان لهذا تأثيره أيضاً على إدارته لأي محادثة تدور بينه و الآخرين. فقد إعتاد، و هو يتفث من نارگيلته، ألا يجيب و يتفاعل فوراً مع محدثه، إلا بعد إنتظار، لدرجة أن البعض ممن لا يجدون إستجابة فورية عنده، كانوا يحسبونها إهانة أو عدم إعتبار و قلة قيمة، فيتركونه و يمضون. أما هو من جانبه لم يكن ليهتم حين يتركه محدثه و يمضي، و هو لا يعتذر. أما من يعرفونه و يعرفون عاداته جيداً، فينظرون الى بعض خصاله الحميدة، فيصبرون و ينتظرون لغاية أن يحصلوا على غايتهم منه.

يخاطبه غايب محيياً:

- شلونك عمي محمود؟

لم يستلم غايب رداً فورياً على تحيته، فإنصرفت عيناه تتأملان الرجل الموجود في اللوحة الجدارية قريباً من الأوجاغ. أراد أن يسأل أول الأمر عن الرجل الموجود هناك كأنه إله، بخاصة في عينيه الآمرتين، و بإنتظارِ ردِ محمود، إستحضر وجه الرجل من ذاكرته حين رآه أول مرة في محطة القطار . . وجه يتوِّجُ قامة تراءت لغايب وقتذاك مديدة جداً، تصل الى قرص الشمس و تشع من وراء رأسه، فتنشر نوراً حول

وجهه، ما أغشى على عيني غايب أن ترى صورة الرجل بوضوح. و لم يعلق بذهنه من ملامح الرجل سوى صف أسنانه السفلى التي بانت له بلون الذهب. و تذكر كلمات التعنيف التي قالها الرجل لمرهون أبيه . . ولك مرهون أعور العين! . . و لازم غايب مذاك اليوم هاجس . . يا ربي هذا منو و شنو علاقته بأبويه؟ . . فجاءه الرد من محمود، و هو ينفث من فمه دخان النارگيلة، فينمج من حواليه:

- الحمد لله إبني . . و إنت شلونك؟

- الحمد لله عمي محمود . . رحمة لوالديك ردت أسألك گبل كل شي . . منو هذا الرجّال اللي بالصورة اللي فوگ الأوجاغ؟

منتظراً الجواب . . أتاه الچايجي بالشاي و وضعه على طاولة مربعة صغيرة أمامه. و فيما هو يقلب السكر الذي في إستكان الشاي، راحت عيناه هذه المرة تتفحص ترتيب المقاعد في المقهى، و كاد يجفل حين فاجأه محمود جوير بالرد:

- شوف . . هاي صار ثاني مرة تسألني عن هذا الرجّال اللي بالصورة . . سألتني طبعاً بعد ما سمعتك تسأل أمير القيرواني! . . و گلتلك بوكتهه آني ما أعرفه . . بس هسه آني أريد أعرف إنت شتريد منه؟ . . و ليش تريد تعرفه؟

- هيچي . . و الله ماكو شي! . . عاجبني شكله و يجوز يطلع گرايبي!

- گرايبك!

و نبرة الإستنكار واضحة في كلمة محمود جوير، فأضاف:

- تريد الصدگ؟ . . إبني . . آني ما أعرفه! . . هو يمكن جا هنا مرتين لو تلاث مرات مو أكثر . . مرة المغربية و مرتين الضحى . . و بوحدة من هذي المرات لگفه أمير القيرواني و رسمه . . بس

شـوف إبنــي!

- بلي عمي محمود!

- . . صحيـح آنــي جبـت القيروانــي حتــى يرسـملي كل هـذي الرسـوم علــى الحيطــان . . بـس شـنو يعنــي! . . . و شـنو الفايـدة؟

- عمـي محمـود . . ليش شـنو الفايـدة؟ . . گــهوتك هسـه مـو صــارت أحلــى مـن گــهوة عبـاس تيتـي اللي گــبالك؟ . . لا! . . شـنو گــهوة عبـاس تيتي! . . خلينـا نـگـول حتـى أحلـى مـن گــهوة حسين صفـاوي اللـي على الشـاخة!

قد لا يكون محمود جوير إلتفت الى تعليق غايب، فقال:

- بـس شـوف إبنـي . . إنـت لازم تعـرف . . آنـي جبـت أميـر القيروانـي . . يرسـم كل هـذي الرسـومات . . گـلت بلكـي چــم آدمـي براسـه خيـر مـن اللـي يـگـعدون بـگــهاوي حسين صفـاوي و عبـود صفـاوي و گــهوة البلم و گــهوة البغـدادي يوصلهـم خبـر هـذي الصـور و يجـوون! . . يعجبهـم يشـوفون هالصـور و يتحولـون يـگــعدون عنـدي! . . لكـن شـوف كل هذي اللوحـات اللـي رسـمها أميـر القيروانـي و مـا كلفتنـي غيـر فلـوس الصبـغ لأن أميـر مــا أخـذ أجـور . . أميـر چــان بـس يريـد يرسـم . . كل هـذي الصـور مـا جابـت نتيجـة . . شغلة فاشـوش! . . مـا جانـي أي واحـد مـن الأفنديـة و البيـگــات اللـي يـگــعدون هنـاك بـگــهاوي الشـاخة . . و الحـال ظلـت هـي هـي! . . النـاس اللـي هنـا كلهـم مثـل مـا دا تشـوفهم . . و النـاس اللـي هنـاك ظلـت هنـاك! . . . و اللـي هنـا ظـل هنـا!

مجبـراً علـى سـماع كل ذلـك بأقسـاط مـن خـلال نفثـات الدخـان التـي ينفثهـا صـاحـب المقهـى مـن فمـه، فيخـرج صـوت كلماتـه مـن فمـه مضمخـاً بالـرذاذ المتطايـر و الدخـان القصيـر النفـس، و الكلمـات تنضـح، دون ريـب، بنفـس حاسـدة لأصـحـاب المقاهـي الكائنـة علـى الشـاخة، فجـاءت الكلمـات الـى غايـب كأنهـا تـُنْفَثُ مـن عـادم ماكنـة، و لأنـه لا يكـف عـن الـكلام حيـن يحدثـه أحـد،

واصل محمود كلامه سائلاً:

- و مع ذلك . . إبني إنت لهسه ما گلتلي ليش تريد تعرفه! . . ثم معقولة إنت جاي بس حتى تسأل عن هذا الرجّال!

- عمي محمود . . مو گلتلك بس إنتَ نسيت!

و لأن غايب لم يُرِد أن يخبر محمود جوير، ندم على أنه وشي ببعضٍ مما في نفسه لمحمود، أو لأي أحد آخر ربما، عند سؤاله عن الرجل المرسومة صورته على جدار مقهى محمود جوير . . و إرتاح لفكرة أن محمود جوير لا يستسلم للسكوت و إعطاء محدثه فرصة التواصل معه، و لكنه قاطع محمود جوير و أخبره بأنه أستأجر الكازينو، و بالغاية الأساسية من مجيئه هي طلب إستشارات عن نقطة الإنطلاق.

يتفاجأ محمود بالخبر، و يفاجئ هو الآخر غايب سائلاً:

- أگولك إبني . . إنت مو إبن مرهون العربنچي؟

سؤال محمود جوير لم يكن بريئاً لما به من إستصغار لشخصه و أصله، و كأن الإساءة صارت تخرج من بعض الأفواه بالسليقة . . و غايب يعلم جيدا أن محمود جوير يعرف عز المعرفة إبن من هو! . . يمتعض من السؤال الذي ينطرح عليه كلما أراد أن يرتقي درجة في سلم الحياة، هو يعلم أن محمود على دراية بأصله، و إذ كانت أذُنُه قد إعتادت على ما سمعه من صاحب المقهى، و لأنه مصمم على المضي قدماً، أجاب بثقة:

- بلي عمي محمود . . آني . . إبن مرهون العربنچي!

- يعني إنت هسه تريد تگولي . . إنت إستأجرت هذي الكازينو اللي بتلفات الله . . هناك يم سينما اليهودي؟[19]

[19] «سينما اليهودي» هي التسمية الشائعة آنذاك بين أهل بعقوبة لـ«سينما ديالى» التي نادرا ما كانوا يستعملونها

- أي عمي محمود!

- هذي اللي ظل ناجي نرگوزة يدلل عليها چم يوم بالسوگ؟

- أي عمي محمود!

و يـروح محمـود جويـر ينفـث دخانـاً، و تتخلـل حلقـات الدخـان المنفـوث إرشـادات و إقتراحـات لغايـب عـن كيفيـة إدارتـه لعملـه، و تعريـف غايـب بالأماكـن التـي تلبـي حاجتـه مـن أشـياء يحتاجهـا. و فـي هـذه الأثنـاء يدخـل المقهـى صبـي فـي حوالـي الرابعـة عشـر، و يسـلم عليهمـا، و يقـول محمـود للصبـي:

- حسن . . روح إبني . . جيب لأخوك غايب طاسة ماي!

لـم يكـن غايـب قـد رأى هـذا الصبـي فـي المـرات السـابقة التـي أتـى بهـا الـى المقهـى . . إعتـاد أصحـاب المقاهـي الآخريـن علـى توظيـف ثلاثـة عمـال لإدارة المقهـى، چايـچـياً مسؤولاً عـن الأوجـاغ، و صبيـاً يسـقي الزبائـن مـاءً و يجمـع الإسـتكانات الفارغـة، و عامـلاً ثالثـاً لإعـداد النارگـيلة للزبائـن . . أمـا محمـود جويـر، فكـان مختلفـاً، يكتفـي بعامـل واحـد يكـون هـو نفسـه چايـچـياً أسـطة و يشـترط عليـه القيـام بالواجبـات الأخـرى لقـاء إضافـة بسـيطة بالأجـر، و غالبـاً مـا كـان يجـد مـن يقـوم بالوظائـف الثـلاث.

الصبـي الداخـل هـو مـن أقربـاء محمـود . . تلميـذ فـي المرحلـة المتوسـطة ماتـت أمـه و هـو صغيـر، و لـم يتـزوج أبـوه لفقـره المدقـع، و توفـي الأب مؤخـراً. و راح الولـد يسـكن عنـد قريبـة لـه، و لأن أقربـاءه مـا أرادوا لـه أن يتـرك المدرسـة، فحصـل و أن سُئِل محمـود جويـر مـن بعـض أهـل المعـروف مـن الأقربـاء أن يُشَغِّـلَ الولـد عنـده ظهـراً بعـد عودتـه مـن المدرسـة و أيـام العطـل، لقـاء أجـرٍ بسـيط . . و قبـل محمـود مكرهـا لا بَطَـل!

يجيـئ الصبـي بكاسـة المـاء لغايـب، و غايـب يشـرب يسـمع محمـود جويـر يخاطبـه:

- غايب إبني . .

يكف غايب عن الشرب، و يجيب:

- بلي عمي محمود!

و يشير محمود الى الصبي، قائلاً:

- هذا حسن الدماري!

و يروح غايب يتأمل الصبي الذي أمامه حائراً بسبب تعريف محمود جوير له بالصبي. و ظل ممسكا بالكاسة الصفرية قرب فمه لا يشرب منتظراً ليسمع مع نفثة دخان من فم محمود ما حكاية حسن الدماري هذا، و محاولا بثوان أن يربط لقب الدماري[20] بشكل الصبي الذي إرتد أعلى رأسه الى الوراء في زاوية حادة ما بين اليمين و الخلف، و برز فكه الى الأمام بزاوية حادة ما بين الأمام و اليسار، في وضع ثابت مزمن لا يتغير و كأنه صُبَّ على هذا النحو و ظلَّ مسمّر على هذه الوضعية منذ مجيئه الى هذه الدنيا من بطن أمه، و سمع غايب محمود يضيف قائلاً:

- حسن هذا اللي تشوفه . . چايچي مستجد . . ينفعك . . من تحضّرْ الكازينو بالتمام للشغل . . أخُذْ حسن الدماري وياك . . شغّلَه عندك . . يفيدك!

فيوافق غايب، و مقتنعاً بكلام محمود يرد تلقائياً:

- صار عمي محمود!

ضربات الحظ غير متوقعة! . . ها هو محمود جوير يتخلص من حسن الدماري بضربة حظ . . يا للشطارة! . . و سيكون لحسن الدماري، بضربة

٢٠ مفردة «دمار» العامية يستعملها العراقيون مرادفا لمفردة «عصب»، و حين يقولون عن أحد «لازمه دمار» يقولونها بمعنى أن «لديه تشنج عضلي و عصبي».

حظ أيضاً، دورٌ صغيرٌ في حياة غايب مرهون.

ينهض غايب ليغادر، و محمود جوير ما يزال ينفث دخاناً كأنه قاطرة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

دخل غايب سوق بعقوبة من شرقه، و سار بين علاوي الحبوب وصولاً الى سوق آل بندر، المبني حديثاً، بممرين يطلان على الشاخة غرباً، و ينفذان الى السوق الشرقي شرقاً . . دخل أحد ممري سوق البندر الأقرب إليه بحثاً عن حسن وهابي النجار. و الدكاكين التي مرّ بها أغلبها لخياطين و باعة أقمشة و باعة حبال. و أمامه في نهاية الممر الى اليمين لاحظ نفرا من قرويـيِّ المظهر يحتشدون أمام شركة باتا للأحذية، فلم يحفل بجمعهم، و شدت نظره صورة معلقة على الركن الأيسر لواجهة الدكان المقابل. . الصورة على غلاف مجلة بين مجلات مصريه أخرى إعتاد جاسم بُدّي صاحب الدكان على تعليقها على ركني الدكان. و تكاد الصورة أن تكون نفسها التي رآها قبل أيام مرسومة بلوحة كبيرة معلقة على واجهة دكان أمير القيرواني . . رأس مرفوع الأنف . . وجه صبوح . . قرطان طويلان متدليان ذكَّراه بغصني الزهر الجهنمي الأبيض على سياج المصرف . . فيقترب لينظر، و مشيراً بيده نحو الصورة سأل صاحب الدكان:

- عمي جاسم . . هذي منو؟

- هذي أم كلثوم!

- أم كلثوم . . المغنية المصرية؟

- إي!

- عمي جاسم . . هذي مو هي اللي تغني سهران لوحدي؟

يرد جاسم بُدّي ضاحكاً:

- أي! . . نعم! . . هي بعينها . . و تغني . . يللي كان يشجيك أنيني . . تريدهه؟ . . أقصد المجلة؟

غايب لا يعرف القراءة، فيستحي و يرد معتذراً عن الشراء. ثم يستدير الى المحل الذي وراءه، حيث فرع شركة باتا للأحذية. و حينئذ فقط علم أن الجمع المحتشد، بمظهرهم الريفي، لم يكونوا واقفين من أجل شراء الأحذية، و إنما للتفرج على جهاز التلفزيون الموضوع في الجانب البعيد من المحل و صار حكاية فانتازية أطاحت بعقل الريفيين الذين يأتون الى سوق بعقوبة للتبضع.

يتفرج واقفاً وراء الريفيين المحتشدين أمام معرض شركة باتا، فتلمع في رأسه فكرة، و يدخل المحل. مقصود عبد الجبار المقصود، مسؤول الفرع، رجلٌ طَلقُ المحيّا، لا بسبب تربيته الأسرية فحسب، و إنما بسبب فهمه السليم لأخلاق تاجر المفرد، فبشّ فوراً في وجه غايب مرحباً حين دخل. و سأله غايب:

- هذا التلزيون . .

بروحيته المرحة، يقاطع الرجل غايب مصححاً:

- . . مو تلزيون . . گول تلفزيون!

و يساير غايب روحية الرجل المرحة، معلقاً:

- يابه يلله تفلزيون . . تلفزيون . . شيسموه خلي يسموه! . .أريد أعرف منين جبتو؟

- في الواقع . . إحنه جبناه من بغداد . . لكن يگولون هاشم الياسين الهويدراوي جايب تلفزيونات و يبيعها بالأقساط!

- و هذا هاشم الياسين وين دكانه؟
- مقابل الستمومنية، بعمارة أم حلمي أخت علي الحسون.
- زين . . لعد حسن وهابي وين؟
- هنا بالسوگ . . بالممر الثاني يم دكان حسين حقة الحلاق.
- شكرا.

يغادر غايب بشعور إرتياح كامل تجاه مقصود عبد الجبار، لأنه لم يتفرس في هيئته ولم يلمزه بأبيه مرهون. دارَ مرهون حول الركن الذي يربط ممري السوق من جهة الشاخة، و دخل الممر الثاني للسوق. بعد ثلاث محلات على اليمين وجد محل حسين حُقْة الحلاق، و بجانبه محل إمتد في الفسحة التي أمامه تابوتان؛ و ها هو محل النجار. . ظل غايب يتفرس في التابوتين، فيسمع صوت من داخل المحل يقول:

- لا تخاف عيني! . . إحنا هنا شغلتنه بالأساس ننجر توابيت ماركة شوفروليه للجماعة اللي گاصين تكت للگبور . . و مع ذلك، و لا ميت منهم دز لنا برقية شكر بعد الوصول الى أرض الخراب! . . تعرف ليش؟ . . لأن التكتات اللي تنگص لهذي التوابيت . . ما بيهن مُرجَّع!

و يستدير غايب ليرى الرجل، فيطلق هذا الأخير ضحكة عالية مجلجلة.

حسن وهابي النجار رجلٌ قصيرَ القامة نسبيا، في أواسط عقده الثالث، و شواربه الطويلة جداً هي أكثر ما يشدّ إنتباه الناظر إليه في هيئته عموما . . وجه ذو بشرة ميّالة الى الشقرة . . شوارب تكاد تغطي ربع وجهه إصفرَّت حوافها السفلى بتأثير الدخان، و تتدلى نحو الأسفل بحيث تغطي فمه كاملا سوى فرجة صغيرة تركتها السيجارة التي لا تفارق فمه إلا نادراً، فتضفي على وجهه تعبيراً ساخراً، بخاصة حين يتحدث. و ما أن يطالع المرء وجه حسن، نادراً ما يستطيع كتم إبتسامة إرتياح بمرآه . .

يبتسم غايب لـه، و يخبـره بإحتياجاتـه، فيعلـق حسـن و هابـي:

- حيل! . . أربعين قنفة و ثلاثين طبلية زغيرة و عشرين ميزچبير! . . شتسوي بيهن؟
- مو آني إستأجرت الكازينو مال سينما اليهودي!
- على الخير و البركة و موفقين! . . لكن ليش سميتهه سينما اليهودي، هيه مو إسمهه سينما ديالى؟ . . زين! . . لعد هاي السينما الأخرى صاحبها مسلم . . ليش ما تسموها سينما المسلم؟ . . و تسموها سينما الزيدي!

المفارقة أكبر كثيراً مما يحتمله عقل غايب لتحليلها، فيبتسم و يرد:

- يابه يلله! . . راح نسميهه سينما ديالى من هسه و رايح!

بمناقشة الأسعار، سيتفقان على إستلام غايب لطلباته بعد شهر. لكن بعد مراجعة غايب لإحتياجاته الأخرى، وجد غايب إن ما معه من مال لا يكفي للتغطية. فيوافق حسن و هابي على أن يؤجل نصف المبلغ يسدد أقساطاً أسبوعية بعد التسليم.

مغادرا محل حسن و هابي، و ها هي نوبة إرتياح أخرى تجتاح روح غايب، شعور مماثلٌ لذاك الذي حمله تجاه وكيل شركة باتا، ما جعل هاجس التلفزيون يدور في رأسه . . و يرجع مقصود عبد الجبار، و يحكى له حكاية إستئجاره الكازينو، و بأنه يريد أن تكون الكازينو أول مقهى يدخل إليها التلفزيون في بعقوبة، و بأنه لا يعرف هاشم الياسين الهويدراوي لكي يطلب إليه بيعه تلفزيون بالآقساط، فيوعده مقصود بتكفله عند هاشم الياسين عندما يريد الشراء . . تجار السوق يعرفون بعضهم بعضاً!

الفطرة السليمة و العفوية ستقودان غايب الى تخيل إفتتاح إحتفالي

للكازينو، على الرغم من إحتفاظه بمظهره، الرأس الحاسر و الدشداشة و عبّه الهادل على حزامه و زوج النعال الجلدي في قدمين، لا يذكر أنه البسهُما زوج أحذية من أي نوع لا صيفاً و لا شتاءً منذ أن ترك وراءه انتعال بسطال الجندية . . و لن يلبسهما حذاء إلا حين سيسافر الى مصر لحضور حفلة من حفلات أم كلثوم.

ذاك المساء . . جالباً نصف زجاجة عرق عصرية من محل أبي شخان، و ذاهباً الى مقهى مناتي، جلس كالعادة على كنبة قريبة من أبي دعوچة، لم يحدثه هذا إلا قليلاً. و يجيئ حسين گطمة، و يتهيآن للإنسحاب الى الغرفة الصومعة، و لا يأتي أبو دعوچة. يسكبان خمرتهما في الكأس، و يعلق حسين:

- هذا شنو غايب! . . إنت صدگ صاير ما تشرب الا عرگ مستكي صرمهر!

- عيني حسين . . أبو شخان أقرب لي من درويش عبد الله!

- بس يگولون أكو واحد إسمه متي سليمان يصيحوله أبو ناظم . . فاتح يبيع عرگ هنا بالمحطة . . بدكان طالع من خان الخيالة مال طالب علي . . يم ثانوية بعقوبة گبال محطة القطار!

- إي . . زين! . . معناه أبو ناظم راح يصير أقربلنه من درويش عبد الله و من أبو شخان!

أثناء إحتسائهما لكأسهما الأول، سيسرَّبَ غايب لنديمه حسين خبر الكازينو . . لم يستوعب النديم أول الأمر ما أفضى به نديمه إليه إستيعاباً تاماً، بل، و لم يستوعبه جيداً إلا بعد أن جرع كأسه كله مرة واحدة، و قفز من مكانه مستثاراً. و يطلب من غايب الذهاب لرؤية المكان. و يفرح غايب لأن مشروعه لقي تعاطفاً قوياً و مخلصاً من قبل نديمه، إذ وجد أول من يعاضده.

الجمهور يغادر صالة العرض، و ينفتح باب غرفة الكازينو المنتظر، فيغبط حسين صديقه على شروعه بهذا العمل متمنياً له التوفيق. و عند خلو الشارع من نظارة دار العرض، بقي عند باب السينما علو الدنداوي و ولده برهوم عريضي، يتطلعان بإتجاه غايب و حسين. و حسين ربيب مجتمع مزارعين معتادين على الشك بجيرانهم، و على العكس من بساطة رؤية غايب للناس، ما أن رآهم حسين و تطلع إليهم، سيحاول إستجلاء ما ينضح من نظراتهم، فيدرك بغريزته أن شيئا غير مريح تنفثه نظراتهما البعيدة، بخاصة حين لمح حسين گطمة علو الدنداوي يشير لأبنه برهوم، فيدخل هذا الدار، و سرعان ما إنطفأت كل الأنوار التي تضوي واجهة الدار، و لم يبق سوى نور مصباح عامود الشارع الخافت أمام بناية المصرف و معه النور الكليل المنبعث من فتحة باب غرفة الكازينو.

إقفال آل الدنداوي دار العرض السينمائي ماضين بإتجاه المحطة، راح حسين يتفحص المكان، معلقاً:

- بالمناسبة غايب . . إنت خو مو راح تظل تنام و تسهر هناك بغرفة گهوة مناتي الجايفة بعد أن صار عندك مكان هنا!

- قصدك؟

- قصدي . . إنت ما عندك بيت . . و هذا المكان هو اللي راح يصير بيتك . . ترتب هذا المكان و تعيُش هنا . . و ما تحتاج تروح تنام بغرفة مناتي!

- و الله صحيح! . . گلبك على گلبي . . و هذا هو اللي چان ببالي!

- بس . . آني أشوف أيضا إنت إذا جيت هنا ما يصير تظل تنام على الگاع؟

- وين أنام لعد؟

- آنـي راح أجيـب سـريرين جريـد مـال نخـل و فـراش هديـة منـي . . واحـد إلـك و واحـد إلـي آنـي أنـام عليـه مـن أجـي أسـهر و أبـات عنـدك.

- دايم . . حسين!

بحكـم الوسـط الـذي يعيـش فيـه، كان حسـين قـد تشـرب فراسـة معرفـة الجيـران و نواياهـم . فيحكـي لـه غايـب بالتفصيـل مـا جـرى يـوم المـزاد العلنـي لإستئجار الكازينـو، لـم يتطلـب الأمـر كثيـرَ عنـاءٍ مـن حسـين، لكـي يسـتنتج إحتمـال أن يكـون علـو الدنـداوي و أولاده قـد أسـقط بيدهـم، بإفـلات فرصـة إسـتئجار الكازينـو مـن أيديهـم . . لكـي يكمـل حسـين تصـوره عـن المـكان، علـق قائـلاً:

- غايـب . . و إنـت لازم تعـرف زيـن إذا راح هـذا المـكان يصيـر بيتـك . . بهالحالـة لازم تبنـي هنـا بالزاويـة حمـام و مراحيض، لأن علـو الدنـداوي و أولاده راح يصيـرون لـك خصـوم و إعـداء . . و مـا راح يفتحـون بـاب السـينما علمـودك إذا إحتاجيـت حمـام!

- و الله تمـام حسـين . . مثـل مـا گـلت! . . لكـن مـال يصيـرون أعـداء كلهـم . . ليـش يصيـرون أعـداء؟ . . يعنـي إنـت تقصـد حتـى أبو دعـوچـة!

و يردّ حسين:

- خصوصـا أبـو دعوچـة! . . شـوف غايـب . . إنـت لا يغـرّك بالنـاس الطريقـة اللـي يشـربون بيهـه ويـاك عـرگ! . . هـذا اللـي سـويته إنـت . . أقصـد إسـتئجار الكازينـو شـغلة مصالـح و فلـوس مـا لهـا علاقـة بطگـة گـلاصات العـرگ واحـد بالآخـر . . و النفـس أمـارة بالسـوء . . هـا! . . إسـمع تذكـرت! . . أكـو شـي آخـر . . إنـت لازم تشـتري دولاب حديـدي للغرفـة حتـى تأمّـن بيـه موجوداتـك و فلوسـك و تقفلـه . . و الأحسـن لوجـودك هنـا تحـط بـاب حديـد علـى بـاب الغرفـة مـن بـرّه!

و يظل بال غايب مشغولا بما إقترحه حسين، فيردد:

- مثل ما تـگول حسين . . سالفة الباب الحديد تمام . . بس مال كلهم يصيرون أعداء هذي هي اللي مدوختني! . . حتى أبو دعوچة؟

- آني أتمنى لو مو كلهم! . . أتمنى! . . لأن إنت ما عايش في بستان حتى تعرف شنو جار السوء! . . أتمنى لو مو كلهم! . .لأن علو هو و أولاده تربية عربان!

و بمرور الأيام سيتثبت غايب أكثر من مرة من صحة رأي حسين، إلا أن واحداً من بين أولاد الدنداوي سيكون صديقاً مخلصاً لغايب، و لكنه لن يكون أبو دعوچة و لا برهوم عريضي . . و بطلوع صباح اليوم التالي سيبرّ حسين بوعده . . و يجلب من الهويدر هديته لغايب، سريرين مصنوعين من جريد النخل، و معهما مرتبتين من القطن و مخدتين و بطانيتين، و إحتسيا تلك الليلة في غرفة الكازينو خمرتهما التي جلباها من أبي ناظم.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

غايب بحاجة لوقت قد يستغرق شهراً كي ينجز ما يحتاجه الكازينو للشروع بالعمل . . و ستظل أم رحمن خلال هذه الحقبة ملاذه الأمين . . يذهب إليها يوميا تقريبا وقت الظهر، يتناول معها وجبة الغداء . . و كل يوم يتقدم خطوة . . بناء الأوجاغ . . الحمام . . جلب بعض الإحتياجات . . دولاب حديدي بقفل سيضع فيه ملابسه و مقتنياته و صندوق حديدي صغير بمزلاج و قفل صغير يضع فيه نقوده و أشياء أخرى مثلما إقترح عليه حسين گطمة صديقه و نديمه . . و لن ينسى جلب الصندوق الخشبي الصغير الداكن المزخرف بألوان الذهب الذي ورثه أبوه من زوجته العصملية نرجس و فيه فوطتها و قد تركه في بيت أخيه إبراهيم بعد وفاة مرهون أبيه، جلبه ليحتفظ به في الدولاب الحديدي . . البريمزات . . الإستكانات . . المواعين . . الخواشيگ . . السكر . . الشاي . . صناديق تبريد قناني الكولا و السينالكو . . صندوق التبريد و خزن الثلج . . براميل

الوقود . . و أخيراً آخذا بنصيحة نديمه صديقه حسين گطمة الذي سيكون صديقا أمينا حتى النهاية نصب بابا حديديا متينا على فتحة باب الغرفة يُقفَلُ بقُفل كبير. . و تزجيةً لوقت فائض حينما يتوفر له بإقتراب المساء، و لكي يشغل نفسه، يخرج خرطوم المياه، و يظل يرش الشارع أمام الكازينو . . و تقوده فكرة رش الشارع تدريجياً الى توسيع الرش ليشمل الرصيف المقابل الممتد أمام بناية المصرف، و يسرح خياله متأملا موضع صفَ القنفات الطويل الذي سيضعه على الرصيف أمام سياج المصرف ليجلس عليها الرواد في مواسم الربيع و الصيف و الخريف . . لكن قِصَرَ خرطوم المياه لم يُمَكِنَهُ من الوصول بماء الرش الى أبعد نقطة تخيل أن قنفات الكازينو ستصلها من جهة المحطة. و سيجيئه العون من حارس بناية المصرف الجالس على كرسي أمام الباب يتفرج على الشارع و على غايب و هو يرش . . عرض الرجل على غايب أن يربط له خرطوم المياه من الحنفية الموجودة في داخل حديقة المصرف، قريبة من الباب. و هكذا إستطاع غايب أن يتغلب على مشكلة الخرطوم القصير بعقد ألفةٍ مع الحارس.

حسين گطمة الملاذ الثاني. يأتي ليسهرا سوية و ينام عنده مرتين في الأسبوع على الأقل . . المكان هنا أبدع مما كان عليه في مقهى مناتي بمنظر الشجر يظلل الشارع و بالفرجة على الناس يدخلون دار السينما و يخرجون منها مع أنغام ألحان فريد الأطرش و عبد الوهاب و ناظم الغزالي و أسمهان و صباح و زكية جورج و سليمة مراد باشا تنبث من مايكروفون دار السينما . . يسهران سوية، و يكون أبو دعوچة ثالثهما في مرات نادرة جداً . . و إذ نصحه حسين ألا يتحدث كثيراً بأمور عمله أمام أبي دعوچة، يروحان في غياب أبي دعوچة بمراجعة أمور الكازينو سوية.

و منذ بداية مبيته لياليه في الكازينو، صار حضور صورة أمه الغائم في ذهنه هو الذي يغذي مخيلته بتصورات غريبة و متناقضة عن الجنس الآخر. يرى ممرضات المستشفى المتبخترات القويات فيتصور المرأة

كائناً لا يقهر، و لكنه ما أن يتذكر كيف إنهارت أمه نرجس و ماتت عند ولادتها لأخيه المُنْفِرِ عصمان، يضطرب عقله لهوان أمه، فيزداد نفوره من عصمان كونه سببا لموتها . . و غالبا ما يميل عقله البسيط لتصور ولادة أخيه و كأنها هي ما ذهبت بنرجس أمه غيلة و صارت ضحيتها! . . و يروح ليخرج من الصندوق الصغير المذهب فوطة أمه و يظل يشمها علّ حاسة الشم تعينه على تصور ملامح أمه. و حين لا تسعفه مدركاته الشمية ينشر الفوطة على ركبتيه و يروح يتصور كيف كانت أمه تلف الفوطة على رأسها و حول وجهها!

و يحصل مرة، و هو يأكل وجبته بعد الظهر مع أم رحمن، أن تفاجئه المرأة معلقة:

- غايب إبني . . لأي وقت راح تبقى إنت هيچي؟

- هيچي! . . هيچي يعني شنو خالة أم رحمن؟ . . شنو قصدچ؟

- أقصد وحيد!

- و شتريدين أم رحمن؟

- أقصد ليش ما تتزوج إبني؟

هاجسه بالجنس الآخر بات منذ زمن فكرة إستحواذية، فأحس غايب و كأنه بوغت بواحدة من أسرار نفسه. فهو، مع إضطرام داخله بمشاعر مختلطة و متناقضة عن الجنس الآخر، إلا أن فكرة الزواج لم تخطر بباله يوما قط . . لم؟ . . لا يدري! . . لَمْ يُجب على سؤال أم رحمن، و لكنه تلك الليلة إختلطت عنده في مناماتِه العديدةِ صورٌ شتى لنساء مختلفات . . طباخات . . خادمات . . شحاذات . . ربات بيوت . . نساء يلتقيهن عادة في السوق أو في المستشفى . . أم رحمن . . أم عليّة طباخة المستشفى . . زوجة أخيه إبراهيم . . جارات أم رحمن . . حين كررت عليه أم رحمن السؤال في ظهيرة اليوم التالي، و كأن التاريخ يعيد نفسه . . و كأن ما دار

في بال أبيه مرهون في رده على عمران الچيال ذات ليلة قبل حوالي خمسة و عشرين عاماً قد حضر في باله أيضاً، علق قائلاً:

- خالة أم رحمن . . و آني وين راح ألگه اللي ترضى بيّ؟

- بَيمه! . . ما يرْضَنْ بك! . . ليش إبني؟ . . شبيك؟ . . رجّال و چادود و چتافاتك هاعرضاتهه!

- وين هذي اللي ترضه بيه؟

- موجودة و گريبة . . هنا بالمحلة!

- وين؟

- إنت منين تجي لدربونة أم الدجاج؟ . . من أي جهة؟

- من جهة الشاخة!

- و هذي البنيّة بيتهم هو أول بيت . . براس الدربونة من صفحة اليسرة . . گبال بيت حميد حسن المهدي مدير المدرسة.

- منو أهلها؟

- بنت نزهان الأحمدي.

و ها هو يتفاجأ، فيصرخ غايب دون وعي:

- هاي شنو خالة أم رحمن! . . يعني آني موعود بنزهان الأحمدي و أولاد نزهان الأحمدي!

- إنت شايف أبوهه؟ . . تعرفه؟

- شنو هالچي خالة! . . شلون ما شايف أبوها! . آني كل يوم أشوفه .

. يصادف مرات أشتري منه مسواگي للمستشفى!

- و لعلمك . . بنت الأحمدي تشبه نرجس!

و ها هو صواب غايب يطير للمفاجأة المزلزلة، و يجن جنونه، فيطلق صرخة أقوى، متسائلاً:

- تشبه نرجس! . . شلون؟

- شايف عيون أبوها شلون زرگة؟

- أي!

- هي عيونها مثل عيون أبوها . . و شگرة مثله . . بس گصيرة گامة مو مثل أبوها طويلة گامة . . و نرجس همين چانن عيونهه زرگ و شگرة و مربربة مثلها . . و هي يمكن بعدها بالمدرسة . . بس ما أدري بأي صف!

- شسمهه؟

- أميرة.

- أميرة و أخوها أمير!

مردداً في داخله . . تشبه نرجس و چمالة إسمهه أميرة! . . شنو هالوعد! . . ويتيه خيال غايب فوراً في كلام أم رحمن، و في الإسم الذي سمعه. و يتيه أكثر في أن يجد أخيراً إمرأة تجسد له على الأرض بعضاً من شكل أمه نرجس، فقد كان ما سمعه يفوق خياله بمراحل، لدرجة أنه إخرّس عن الكلام.

بمجيئ اليوم التالي . . سأل أم رحمن إن كان بإمكانها السعي في هذا الزواج، فردت:

- إنشاء الله!

- خالـة أم رحمـن . . بـس أريـد منــچ شـوية تأجليـن هالموضـوع . . چــم شــهر بــس!

- ليش إبنـي؟

- الى أن أفتح الكازينو و أداور أموري.

- خلّيهه يم الله إبني! . . الله يوفقك وليدي!

و يتفرَّغُ غايب بعدها في الإعداد لحدثه السعيد . . إفتتاح الكازينو.

كلُ شئ تقريباً حضر عدا ما تبقى من حاجات الكازينو التي عند حسن وهابي، الذي سلَّم غايب الطاولات و الطبليات الصغيرة بعد أسبوعين، و ظل غايب بإنتظار القنفات . . و داوم غايب يمضي وقته صباحاً بتزويد المستشفى بأرزاقها و ظهراً بتناول غدائه مع أم رحمن و عصراً برش الشارع.

و يحصل يوماً أن يبغي غايب رَبْطَ خرطوم الماء بحنفية حديقة المصرف. كرسي الحارس موجود في الباب كالعادة و الحارس غائب. و إذ كان البابُ مفتوحاً، سيغامر غايب و يدخل حديقة المصرف، ليربط خرطوم الماء بنفسه. ربط الخرطوم الى الحنفية التي كانت على بعد أمتار الى يسار المدخل خلف مسكبة زهر وراء السياج، و سحب الخرطوم وراءه، و خرج ليكمل رش الشارع. و بدقائق سمع الحارس يصرخ من ورائه:

- غايـــــــــب! . . هاي شسويـــــــــــت؟

يرتعب غايب لصرخة الحارس . . ما الذي جرى؟ . . يلتفت مضطرباً ليرى الحارس في باب الحديقة تتنقل عيناه مرة عليه، يتطلع إليه بانزعاج و عتاب واضح، و عيناه مرة على داخل حديقة المصرف الى يمينه، يتطلع

بأسف و إنزعاج الى شئ ما داخل الحديقة . . يرمى غايب الخرطوم على الأرض، و مستديرا تخفُّ رجلاه نحو الحارس بقلب واجف، ليسأل:

- خير! . . شنو القصة أبو عباس؟

- يا غايب! . . چان لازم تدير بالك! . . چان لازم من تركُبْ الصوندة ما تتركهه هيچي سايبة بين الزهور . . چان لازم تنتبه و تمشّيهه بچعب السياج و توصلتهه للباب . . تعال شوف شسويت من سحبت الصوندة على لاينات الزهر!

- أبو عباس على بختك! . . هاي شسويت آني؟ . . و الله مو ببالي!

- چان لازم تدير بالك . . هذي شتلات النرجس كُلهن تكسّرن!

ها هو يسمع مفردة . . نرجس . . فيفزع و يبهت و يخرَّ قلبه الى الأرض، و هو ينظر الى شتلات الزهر المنكسرة مسجية على الأرض و مدقات و سداة البعض منها ممرغة بالطين! . . ما شعر به كان شيئاً أقوى من الندم، و لطبعه البسيط أخفق في التعبير عما إجتاح كيانه حين سمع أبا عباس يلفظ مفردة . . نرجس . . تذكّرَ أمه . . و عاتب نفسه . . آني كَسَّرتهن! . . و چماله إسمهن نرجس! . . و سأل الحارس بلهجة تفيض ندماً و أسى و فضولا و لوعة، و حبا بالزهر المنكسر الممرغ بتراب الحديقة و طينها:

- أبو عباس . . إنكسرت إيدي و إيد أبو اللي خلّفني! . . عيني أبو عباس . . هذي هي ورود النرجس؟

و يخرّ غايب نحو الأرض على ركبتيه يتمعن بهيئة الزهور البيض بكؤوسها الخضراء التي أصابها الخراب بفعل يديه. و الحارس بالأصل فلاح للحديقة، والحراسة شغل إضافي، لم ينتبه لحال الأسى الذي إجتاح غايب و هو خارٌّ على ركبتيه، فراح يصحح لغايب:

- يا غايب! . . النرجس جنس زهور مو جنس ورود . . ذاك اللي ويه السياج هو الورد!

سينذهل أبو عباس، و الدمع يترقرق أمامه في عيني غايب. لم يتسنَ لأبي عباس في حياته قط رؤية شخصٍ يبكي زهراً إنكسرت سوقه! . . و لا غايب هو نفسه رُؤِيَ يوما يبكي علىً شئ إنكسر، فراح الفلاح ينظر و بحيرة مصغياً للكلمات ترشح من فم غايب ندما:

- عيني أبو عباس . . شنو ورد؟ . . شنو زهور؟ . . شوف الجريمة اللي سوتهه إيديه بنرجس!

دمع غايب يسيل على خديه أمام الحارس، فينذهل الرجل و ينسى موضوع التأنيب الذي أبداه . . و إحتار في أمر غايب، إذ يرى بأم عينه لأول مرة في حياته إنسانا يبكي بالدمع مرتاعاً من أذى سببه أهماله لزهر في الحديقة. ما يزال جاثيا على ركبتيه، قال غايب للحارس متضرعا:

- أبو عباس عيني . . گوللي شسوي حتى أصلح الوضع؟

- ما ينصلح الوضع هسه . . لأن هنَّ أصلاً راح يذبلن و باقيلهن چم يوم و يموتن لأن وقتهن راح ويه الشتا! . . النرجس زهر ما يحتمل الحَرّ!

وتندَّسُ يد غايب في عبّه لتُخرِج كيسه الخامي، يفتحه ليخطف منه ورقة نقد حمراء، و هو ينهض مدّ يدا راجفة نحو الحارس قائلاً:

- هاك! . . عيني أبو عباس رحمة لوالديك . . هذي ورقة أم الخمسة . . إشتريلنه و أزرعلنه نرجس . . الله يخليك!

- غايب . . خلي فلوسك بجيبك! . . مو گلتلك النرجس هسه راح وقته . . لأن هو زرع مال خريف و ينعنش و يعيش طول الشتا و بأول الربيع من يجي مايس و تصير الدنيا حارة يذوي و يموت . . هذي

الزهـرات اللـي إنكسـرن مـا چان باقيلهـن شـي بعمرهـن . . أسـبوع أو أسـبوعين و يموتـن . لا تخليهـن ببالـك . . بـس المـرة اللـي جايـه ديـر بالـك بحطـة الصونـدة!

و لكـي يُسكن مـن روع غايـب، يـروح الرجـل يغنـي لـه أغنيـة حضيـري أبـو عزيـز مشـوبة بلكنـة كورديـة خفيفـة:

- عمـي يـا بيّـاعْ الـورد گـوللي الـورد بيـش . . گـوللي . . بالـك تـدوس إنْلـه الـورد و تسـوي خلـه . . خلـه . . باچـر يسـير حسـاب بيـه . . و الله شتوگـلـه . . گـوله!

أبـو عبـاس مشـغول بالغنـاء، و لكـي يبـرئ ذمتـه مـن شـعوره بالذنـب تجـاه النرجسـات اللاتـي رآهـن تجسـيدا لأمـه، أقبـل غايـب علـى أبـو عبـاس يمطـره قبـلاً، ليسـأله:

- عيني أبو عباس . . أگدر آخذهن . . أقصد النرجس اللي إنكسر!

- روح غايب . . آني أگطعهن و أغسلهن و أرتبهن شدّة و أجيبهن إلك!

شـعور خليـط يغمـر غايـب و هـو يغـادر. أسـى ممـا إقترفتـه يـداه تجـاه الزهـر و فـرح و إندهـاش لمعرفـة أتتـه مـن حيـث لا يـدري عـن زهـر النرجـس.

و سـيأتيه أبـو عبـاس بشـدة زهـر النرجـس، كبيـرة و مغسـولة و نظيفـة، و يوصيـه بوضعهـا فـي وعـاء فيـه مـاء و ذرات سـكر. و يسـأل غايـب أبـا عبـاس إن كان سـيتذكر فـي الموسـم القـادم و يأتـي ليـزرع لـه صفـاً مـن زهـور النرجس علـى طـول السـياج الواطـي للكازينـو، فيوعـده أبـو عبـاس أن يتذكـر و يفعـل.

تلـك الليلـة، و شـدة الزهـر موضوعـة قريبـاً مـن سـريره علـى طبليـة خشـبية جديـدة مطليـة بدهـان أخضـر، حـاول أن يربـط بيـن شـكل الزهـر و وجـه أمـه نرجـس و بمـا سـمعه مـن أم رحمـن عـن وجـه أميـرة، صبيـة نزهـان الأحمـدي

التي سمع إسمها من أم رحمن . . بقي حتى الفجر يحاول أن يتصور وجه أمه و وجه أميرة من خلال بتلات النرجس البيضاء و مدقاتها و سداتها البرتقالية اللون، فأعياه البحث، و نام لساعة قبل أن يستفيق ناهضا لعمله.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

منتهياً من عمله في المستشفى قبيل الظهر، قصد غايب دكان أمير القيرواني و توقف هناك على الرصيف. ينزل من دراجته و يركنها على الرصيف، و بيده شدّة زهر النرجس التي أخذها من سلة دراجته و صعد الرصيف. راح يتفرج على الصور المعلقة، فوجد ثمة، عدا صورة أم كلثوم، صورتين جديدتين لإمرأتين أخريين، فتاهت عيناه في البداية في الصور الثلاث، لكن عينه تسمَّرَت أخيراً على صورة أم كلثوم التي ما يزال القيرواني يعلقها على واجهة الدكان، و في باله أمه نرجس و أميرة أخت القيرواني التي لم يكن قد رآها بعد و لكنه منذ اللحظة التي وصفته له أم رحمن راح يتماهى مع خلط الصورتين في ذهنه، و هو لم يرَ أية منهما قط . . و القيرواني يدوس بقوة بمكواته الحديدية الثقيلة على سروال منشور على طاولة الكي مراقبا غايب، و متنقلاً ببصره بين مظهر غايب بدشداشته و عبّه الهادل و شدة زهر النرجس التي بيده . . و نظرات غايب ما تزال منصبة على صورة أم كلثوم. و لا بد أن يكون القيرواني قد حاول بحس الرسام إيجاد إنسجامٍ بين الزهر و حامل باقة الزهر و الصورة التي يتفرج عليها، فأعياه البحث . . لكن غايب قطع عليه نظرة الفنان المتفحصة لأي رابط بين مفردات المشهد الذي أمامه، بخاصة للمشاهد الذي يتفحص لوحاته منتظراً ردة فعل من نوع ما، و أخيراً قال غايب:

- شلونك عيني قيرواني؟

- زين!

- آني أعرف هذي صورة أم كلثوم لأن شِفِتْهه نفسهه يم جاسم بدّي

بالمجلـة . . لعـد هذنـي اللـي بالصورتيـن اللـي يمهـه منـو هـنَّ؟

- هـذي زكيـة جـورج مغنيـة عراقيـة . . و ذيـچ الأخـرى صـورة مغنيـة همين عراقيـة إسـمها عفيفـة إسـكندر.

و يشير غايب إلى صورة أم كلثوم، سائلاً:

- زيـن! . . أريـد أسـألك قيروانـي . . هـذي الصـورة . . صـورة أم كلثـوم للبيـع؟

هـا هـو سـؤال غايـب يزيـد مـن تعقيـد المشـهد أمـام القيروانـي! . . و هـو يتأمـل غايـب مـن وراء طاولـة المكـوى، سـاعياً لإيجـاد إنسـجام بيـن مفـردات المشـهد التـي إنضافـت إليهـا مفـردة شـراء صـورة، فهـو لـم يتوقـع مطلقـاً أن يأتـي شـخص لـه هيئـة غايـب الـذي أمامـه، ليسـأل إن كانـت صـورة أم كلثـوم للبيـع أم للفرجـة فقـط، فيـرد مندهشـاً:

- أي للبيع! . . ليش؟

- أشـگد سعرها؟

اللوحـات الزيتيـة معروضـة داخـل محلـه لمدة ثلاثة أسـابيع. و ظلـت معروضـة لأيـام علـى واجهـة الـدكان بـدل صـور الأشـكال العاريـة التـي نقلها مـن لوحـات لرسـامين عالميـن مشـهورين و كانـت سـببا لإعتـداء سـافر عليـه، و لـم يكـن أحـد مـن أهالـي بعقوبـة قـد إهتـم قـط و لـو لغـرض سـؤال القيروانـي فقـط إن كانـت صـوره للبيـع أو لا! . . و هـا هـو ذا بعـد قـراره هجـران المدينـة يأتـي أحدٌ مـا ليسـأل و يشـتري! . . مـا الـذي يجـري فـي هـذه البلـدة؟ . . و حتـى لـو كان دار بخلـده حُلـمُ أن يجيـئ أحـدٌ مـا لشـراء لوحـة مـن لوحاتـه، إلا أنـه لـم يدُرْ بخلـده مطلقـاً أن مـن سـيأتي لسـؤاله آخـر الأمـر إنسـان مـن نـوع غايـب إبـن مرهـون العربنچـي، بهيئتـه التـي أمامـه . . دشداشـة . . عـبٌّ هـادل و فوقـه زيـق مفتـوح . . بايسـكل أبـو السـلة . . باقـة زهـر نرجـس يراهـا نافـرة فـي المشـهد . . هـذه المفـردات المتنافـرة مجتمعـةً جـاء صاحبهـا ليسـأله عـن

سعر لوحة لأم كلثوم! . . و عيناه لا تغيبان عن غايب فاغرا فاه كاشفا عن صف أسنانه المذهبة و محاولا أن يتأنى بالإجابة كان على القيرواني في غضون ثوان قبل أن يجيب على غايب أن يفكر بمدى إمكانية أن يدفع شخص من نوع غايب نقوداً في لوحة لأم كلثوم! . . لوحة لم يتوقف عندها من قبل و لا أيّاً من عشاق أم كلثوم في بلدة بعقوبة من الإفندية لابسي البدلات و الكرفتات . . يأتون و يتفرجون على اللوحة، و أحيانا يمرقون ملتفتين تجاه اللوحة، و لا يسمع منهم سوى . . الله . . هذي أم كلثوم! . . عاشت أيديك قيرواني! . . و ها هو القيرواني يجد نفسه في قلب إمتحان يضعه على المحك هو و زبونه . . تأنى بالإجابة و غايب ما يزال متطلعا إليه فاغراً فاه منتظراً و صف أسنانه الذهبية تزيد من المنظر تعقيداً . . وضع القيرواني المكواة التي يصطلي حديدها بالجمر الظاهر في داخلها، متطلعاً الى غايب . . و ها هو ينخدع بالمنظر الذي أمامه و و يقرأه قراءة خاطئة، و يبخس حق غايب في الفن بمظهره الذي أمامه . . تساءل القيرواني في داخله محيّراً في نفسه بسؤال من نوع . . كم سيكون المبلغ الذي يكون مشترٍ من نوع غايب و هيأة غايب على إستعداد لدفعه في لوحة زيتية؟ . . قرر أخيرا أن يطلق بالونَ إختبار . . حسب مع نفسه الكلفة التقديرية للزيت الموضوع على خامة اللوحة و القماش و الإطار و غيرها، فدار في خلد القيرواني أن يطلب أدنى سعر ممكن يكون مشترٍ من نوع غايب على إستعداد ليدفعه، فرد على غايب رداً ليس بريئاً من إستصغارٍ من نوع ما، ردّا مبطنا بالسخرية:

- ربع دينار!

و يرد غايب بما يشبه الصرخة مندهشا و بسذاجة:

- ربع دينار! . .هاي شنو قيرواني؟

لأول وهلة ظن القيرواني بغايب يسخر منه لأنه لربما وجد ربع الدينار مبلغا باهضاً يدفعه في شخابيط رسم، و لكنه سمع غايب يضيف:

- ربع دينار! . . بس! . . إنت متأكد؟ . . بس ربع دينار!

بلغة السوق، الربع دينار هو ما يعادل أجراً يومياً لكثير من أصناف العمال، و لأنه كان ما يزال محتاراً في التفسير، علق القيرواني غير مصدقٍ:

- لعد؟

- أصلا آني چنت متوقع تگول دينار . . نص دينار . . بس مو ربع دينار! . . لا! . . مو بس هاي! . . و لعلمك آني حتى چنت متوقع يجوز تگول دينارين!

و هكذا . . أسقِط في يد أمير القيرواني الفنان الذي بخس ثمن الزبون الوحيد في بعقوبة الذي أتاه مرة واحدة و إلى الأبد، إذ أساء تقدير الزبون . . أول خاطر مر برأس القيرواني هو معاقبة نفسه برفع المكواة الحديدة التي تصطلي نارا و ضرب نافوخه بها! . . السيف كان قد سبق العذل! . . بخاصة و ما تزال طرية في ذهنه الإهانة التي تلقاها في واقعة تمزيق اللوحات التي قلدها لرسامين مثل غوغان و غيره، و مرقت في ذاكرته هيئة سعد المعروف في بعقوبة بـ . . سعد الأخرس . . بملبسه الأنيق، حين جاء و إعتدى عليه ضرباً و على فنه تمزيقاً للوحات، فإنعقدت عنده في بحر لحظة المقارنة بين سعد الأنيق الأجلف إبن الأعيان و غايب المُخربَط المَظهرِ ذي الذائقة التي تقدر الفن . . و منذ تلك اللحظة سيظل القيرواني يشعر بالذنب و الضعف تجاه غايب، و لكنه سيظل عاجزاً طيلة عمره عن تفسير مشهد غايب أمام دكانه تفسيرا مقنعاً يسأله عن سعر لوحة لأم كلثوم، و مخذولاً بالتفسير، فسأل القيرواني غايب بفتور:

- و إنت تريد تشتريهه؟

في الواقع، لم يكن التقدير الذي عرضه غايب للوحة له علاقة بفهم من نوع معين أو تقدير يصدر من ذائقة للرسم و الفن. و مع ذلك، فقد وجد

للوحة عنده قيمة تمس حاجة نفسية موجودة في داخله لا يمكن لأمير القيرواني أن يراها، و هي حاجة ناجمة من شعور متداخل و معقد، و لكنه طفح على السطح بالطريقة التي عرضها غايب أمام القيرواني و حيَّرت هذا الأخير. و مع ذلك، سيكون لهذا الأمر وقعاً نفسياً إيجابياً عند أمير القيرواني تجاه غايب، حين قال له غايب:

- إي . . آني أريدها . . أشتريها منك . . لكن أول شي گوللي . . إنت مو بس رسام إنت خطاط همين؟ . . أقصد تخط قطع مال محلات . . مو تمام؟

- تمام!

- تگدر تخط لي فوگها؟

- شأخط؟

- إسم الكازينو . . كازينو أم كلثوم؟

- تقصد أسم الكازينو راح يصير . . كازينو أم كلثوم؟

- إي!

طلبات متواصلة من غايب تصدر من فطرته تحيِّر القيرواني و يظل منذهلا، فيرد فوراً:

- إي أگدر . . طبعا أگدر! . . لكن هذي الكازينو وين؟ . . هنا بولايتنة؟

- إي . . يم سينما اليهودي . . العفو أقصد يم سينما ديالى . . مو آني إستأجرت الكازينو اللي يم السينما.

و ها هي الأمور تزداد تعقيدا عند القيرواني و تتحدى شطحات الراسم الذي في داخله، فيزداد إنذهاله بغايب الى حد يتجاوز طاقته . . و ها هو

غايب يفاجئ أمير بكشف آخر، و هو يضيف:

- و أريد ترسم لي داير مدايرها ورود . . العفو أقصد زهور نرجس . . مثل هذي اللي بيدي!

و يقدم لأمير باقة الزهر، فيرد أمير مندهشاً:

- إي . . أگدر!

- زين و هسه قيرواني؟ . . وره الخط و الرسم كله شگد راح يصير الحساب . . اقصد شگد راح تاخذ مني؟

ها هي الفرصة تأتي للقيرواني كي يفهم زبونه جيداً و يحسب الصفقة على مهله و يعوض الخسارة التي فاتت . . راجع الحسبة بسرعة، و مع ذلك، خشي من نفسه أن يقوم هذه المرة بقفزة قوية من اليمين الى اليسار، بسبب الخاطر الذي رسب في عقله عن مدى إستعداد غايب على الدفع، فقال:

- دينار و نص.

- زين . . ما عندي مانع! . . من عيني هذي أنطيك دينار و نص.

و تماهيا مع إنذهاله بذائقة غايب، خطر ببال القيرواني أن يقول:

- بس آني أريد أعرف! . . إنت ليش سميت الكازينو على إسم أم كلثوم المصرية مو على إسم مطربة عراقية؟ . . مثلا زكية جورج . . إنت سامعهه لزكية تغني؟ . . هاذي اللي تغني . . أنا من أگولن آه و أتذكر أيامي روحي ترف و تغيب . . أو زهور حسين هذي اللي تغني . . . غريبة من بعد عينج يا يمه . . محتارة بزماني؟ . . أو عفيفة إسكندر؟

لم يكن غايب قد سمع أصلا بإسم زكية جورج و لا بإسم زهور حسين و لا بإسم عفيفة إسكندر إلا في هذه اللحظة، و حتى لو كان سمع بهن دون

أن يعرفهن، رد على القيرواني معلقاً:

- لا أمير! . . آني أريد صورة هذي اللي تغني سهران لوحدي . . أقصد أم كلثوم!

و قد لا يكون غايب حتى قد فهم من أغنية أم كلثوم نفسها سوى تعلقه بعبارة . . سهران لوحدي . . التي تبعث في نفسه شعوراً مبهماً و تعبث بوجوده، و يسمع القيرواني يعلق:

- زين . . صار يابه! . . زين . . تگول أم كلثوم؟ . . خليهه أم كلثوم! . . بس مو إذا سميت الكازينو بإسم أم كلثوم معناه لازم تخلي جهاز مسجّل بالكازينو و تشغّل أغاني أم كلثوم . . حتى يصير الكازينو إسم على مسمى . . مو هيچ؟

لم يكن ليخطر في بال غايب أمر من هذا القبيل، و لم يتوقع ما سمعه، لأنه فعلا هو نفسه لم يكن واضحاً عنده تماماً لِمَ أراد أن يسمي الكازينو على إسم أم كلثوم[21] سوى تعلقه بعبارة . . سهران لوحدي . . التي تطيلها أم كلثوم على نحو يريح السكارى و الندامى . . أهو بسبب سماعه لأم كلثوم مرة في مقهى مناتي تغني . . سهران لوحدي؟ . . أم بسبب القرطين الطويلين الأبيضين المتدليين اللذين صارا الآن يبدوان له، و صورة أم كلثوم معلقة أمامه، كأنهما ملضومان من زهر النرجس؟ . . و ها هو القيرواني يزيده من الكمال حبة! . . ما قاله القيرواني للتو عن مسجل يشغّل به أغاني أم كلثوم يجده غايب إضافة تستحق النظر، و سيكون المسجل إضافة نوعية جديدة يسعى الى تحقيقها مع وجود التلفزيون . . و ها هو غايب يفغر فاه من جديد للفكرة الجديدة و يبان صف أسنانه الذهبية كرد فعل على ما قاله القيرواني . . و ها هو سيجد ما يعتمل في داخله عاطفيا إزاء أمير القيرواني فيزيده حماساً لتحقيق فكرة أم رحمن بتزويجه من أميرة أخت هذا الرسام، و رد مستدركاً:

---

٢١ في الواقع كان أسم الكازينو الملحقة بسينما ديالى هو «كازينو القاهرة»

- هـا؟ . . إي! . . بلـي! . . تمـام! . . مثـل مـا تـگـول قيروانـي . . راح لازم أجيـب مسجـِّل! . . مثـل مـا تـگـول أميـر . . لازم أجيب مسـجل!

- بـس خلـي فـي بالـك . . جهـاز المسـجل إحتمـال موجـود هنـا عنـد هاشـم الياسـين . . آنـي شـفته عنـده . . لكـن أشـرطة المسـجل الفارغـة و اللـي عليهـا تسـجيلات أم كلثـوم مـا راح تلـگـاهن هنـا بسـوگ بعقوبـة . . و إحتمـال مـا تلـگـاهن إلا ببغـداد بشـارع الرشـيد!

و هـل رأى غايـب فـي حياتـه بغـداد قـط! . . فمـن الـذي سـيأتيه باشـرطة المُسـجِّل مـن بغـداد و هـو لَـم يـرَ بغـداد؟ . . سـرى الإتفـاق بينهمـا علـى قطعـة الكازينـو، و دفـع للقيروانـي الثمـن مقدمـاً. و هـو يهـمُّ علـى العـودة الـى موضـوع أشـرطة التسـجيل، سـمع غايـب مـن ورائـه صوتـاً يصيـح:

- يابه هازا خوش سترة و مزرطون!

و هـا هـو يسـمع كلمتـي . . سـترة و مزرتـون . . فيذكـّرانه بإقتـراح ناجـي و أخـوه يهـودا لبـس بنطلـون و قميـص يـوم إفتتـاح الكازينـو. إلتفـت غايـب ليجـد حيـدر، بائـع الملابـس المسـتعملة، المنـدلاوي الشـهير فـي بعقوبـة بــ . . حيـدر مزبـوت . . واقفـاً وراءه أمـام الرصيـف ينظـر إليـه، و كأن جنيـة أخبرتـه بحاجـة غايـب الـى ملابـس أفنديـة، فيسـأله غايـب:

- حيدر . . هذي بيش السترة و المضرطون؟

حيـدر كـوردي فيللـي مـن مندلـي، و مـا تـزال لهجتـه و نبرتـه الكورديـة طاغيـة علـى لفظـه العربـي، فرفـع البدلـة المسـتعملة بيديـه . . السـترة بيـد و البنطلـون الـذي يسـميه مزرطونـاً باليـد الأخـرى، و قـال:

- بابـا هـازا السـترة و المزرطـون . . شـوفه بابـا . . بعـده جديـد مـا ملبـوس! . . شـوفه بعينـك!

- أي . . دا أشوف . . أدري مبين جديد! . . بس گـوللي شـگـد تريد بيهن؟

- دينار و نُص.

- شنو! . . شنو يابه! . . دينار و نص! . . مشتري منك بايسكل!

و يكتسى وجه حيدر بذاك التعبير الساخر المشهور به في سوق بعقوبة بشاربه و وجهه المدور، الذي بسببه يشبهونه في بعقوبة بجوزيف ستالين. و بسيماء قد لا يكون من ورائها شيء سوى السخرية، يرد حيدر على غايب بما كان يعرف عنه في بعقوبة على أنه صيغة مخففة لما يسمونه عفطةً أو زيگاً:

- . . . مزبوووووووووووووووت!

- إسمع . . بلا مضبوط و لا عفاط و لا ضراط! . . راح أنطيك تلات أرباع دينار . . شتگول؟

- بس بابا . . ما يسير! . . شنو تلات أرباع دينار! . . بس و الله سحيح راح نخسر . . شوفه؟. . هزا كله جديد! . . ما ملبوس!

- أدري جديد! . . يلله تبيعهن بتلات أرباع؟ . . شگلت؟

يتفحص حيدر بنظراته غايب من أعلاه الى أسفله . . و إذ خشي ألا يكون غايب بمظهره من النوع الذي يتحمس كثيراً للبس الأفندية، فضَّل حيدر ألا يطيل المساومة و العناد على السعر، كي لا يخسر زبونه و الصفقة، فقال:

- يلله يابه! . . إحنه راح نسويك من الأفندية . . و نقبل نبيعلك بتلات أرباع . . شايف خير و مستاهله!

و يعلق غايب حائرا:

- بس وين راح أگدرهن؟ . . من يگول يصيرَنْ عليّ!

الباعـة الأذكيـاء دائمـا يجـدون الحلـول . . و دون حتـى أن يأخـذ إذنـا مـن القيروانـي، يقتـرح حيـدر قائـلاً:

- خش هنا يم قيرواني!

و دون أن يطلـب هـو الآخـر إذن صاحـب المحـل، يدخـل غايـب الـى محـل القيروانـي. و يتـوارى وراء طاولـة المكـوى، لابسـا البنطلـون ليجربـه، داحسـا بـه دشداشـته كلهـا، و يلبـس فوقـه السـترة.

القيروانـي يضحـك حتـى ينفطـر قلبـه، و غايـب أمامـه بهيئتـه الجديـدة، بسـبب حجـم البدلـة الكبيـر نسـبياً و دشداشـة غايـب المعبعبـة فـي البنطلـون و طـرف الدشداشـة قـد نتـأ مـن فتحـة أزرار البنطلـون، فقـال لغايـب:

- غايب . . بس لا تنسى تدَكُمْ الـپنطرون!

ضحكـة القيروانـي تصيـرت قهقهاتهـا أعلـى و أعلـى، حيـن سـمع حيـدر يعلـق مروجـا لبضاعتـه:

- كاري كوبـر! . . و الله تِلَـعِتْ مسـل كاري كوبـر . . عبالـك هـازا السـترة و هـازا المزرطـون مفسـلات عليـك تفسـيل!

و يتوجه حيدر الى القيرواني طالباً دعمه:

- قيروانـي الله عليـك! . . إنـت بعينـك شـوف! . . هـازا مزبـوت لـو مـو مزبـوت؟ . . مـو تلـع مسـل كاري كوپـر؟

القيروانـي مـا يـزال غارقـا فـي ضحكـه، و مفضـلا ألا يتدخـل بيـن البائـع و الشـاري، يـرد:

- مضبوط ميه بالميه! . . و هو غايب خو ده يشوفهن زين بعينه!

و يتذكـر غايـب مـا غـاب عنـه . . فمـن غيـر المعقـول ان يلبـس دشداشـة مـع

البدلة، و يستفسر:

- زين و القميص؟

يرد حيدر:

- قميس! . . تريد قميس؟ . . آني أجيبلك عشر قمسان . . الواحد بمية فلس . . و ين تريد أجيبلك القمسان؟ . . و ين تريدهن؟ . . هنا يم القيرواني؟

- أي زين . . يم القيرواني . . و هاك نص دينار . . جيبلي بس خمس قمصان . . صار؟

فيرد حيدر:

- مزبووووووووووووت!

- ***** ***** *****

منذهلا بمشاريع غايب، سيترك القيرواني لوحة أم كلثوم المعلقة في دكانه، و سيعمل لغايب لوحة جديدة مستطيلة، تصلح للتعليق أفقياً. وضع إسم الكازينو في جانبها الأيمن، و في الأيسر صورة أم كلثوم محاطة بباقات صغيرة من زهر النرجس . . و لأنه إنجذب الى شخص غايب، سيذهب القيرواني متطوعاً مع غايب الى بغداد، ليساعده في شراء أشرطة التسجيل. و وفّى مقصود عبد الجبار المقصود صاحب شركة باتا بوعده، و كفل غايب عند هاشم الياسين، بشرائه تلفزيون ماركة إمبريال الماني بالإقساط، و معه جهاز تسجيل گروندك ألماني.

***** ***** *****

الإعلان عن إفتتاح مكان عام في بعقوبة لم يكن شائعا . . مطعم . . مقهى . . محل يؤدي خدمة معينه . . لم يكن الإعلان شائعا و لا حتى

علـى الأقل بتعليق لافتـات إعـلان فـي أماكـن بـارزة . . كانـت لفتـة مـن بنـات أفكـار غايـب أن يـدس فـي يـد ناجـي النرگـوزة ديناريـن كـي يقـوم لمـدة يومين صباحـا و مسـاءً معلنـا عـن إفتتـاح . . كازينـو أم كلثـوم . . فـي مختلـف مناطـق سـوق بعقوبـة لنشـر الخبـر لأهـل البلـدة . . و منـذ الدقيقـة التـي دس فيهـا غايـب ديناريـن فـي يـد النرگـوزة، سيكف هـذا عـن نعـت غايـب بإبـن مرهـون العربنـچـي و يستبدله بنعـت صاحـب . . غايـب مرهـون صاحـب كازينـو أم كلثـوم. و خبـر إفتتـاح . . كازينـو أم كلثـوم . . قـد يكـون ذاع فـي بعقوبـة و سـرى فـي مقاهيهـا و أسـواقها بوسـائل شـتى. الإسـتعدادات لإفتتاحهـا ينقلهـا رواد دار عـرض الأفـلام يوميـاً، و يجـري تداولهـا بيـن رواد مقاهـي بعقوبـة جميعـاً. و مـا سـيزيد مـن إنتشـار خبـر الكازينـو هـو مداومـة أميـر القيروانـي علـى تعليـق قطعـة الكازينـو، و فيهـا صـورة أم كلثـوم، علـى الجـدار المجـاور لدكانـه لمـدة يوميـن قبـل أن يسـلمها الـى غايـب، فأمسـت قطعـة الكازينـو فرجـة للماريـن، يسـألون القيروانـي عـن مـكان الكازينـو، و يخبرهـم بـه. و رعايـة تعاطفـا منـه مـع زبونـه الوحيـد و الأول و الأخيـر فـي بعقوبـة، تطـوع القيروانـي بعدئـذٍ أيضـا بتثبيـت لافتـة إسـم الكازينـو علـى واجهـة الكازينـو، قبـل أسبوع مـن موعـد الإفتتـاح. و غايـب و معـه حسين گـطمـة، حيـن يكـون حاضـراً، يـردان علـى تسـاؤلات الماريـن عـن يـوم الإفتتـاح، و معهـم حسـن الدمـاري الـذي إلتحـق بالعمـل قبـل الإفتتـاح بيوميـن.

و يحصـل أن يتـوَقّـَت يـوم إفتتـاح الكازينـو، بنصيحـة مـن حسـين گـطمـة، بتزامـن مـع بدايـة عـرض فيلـم جديـد فـي دار العـرض السـينمائي، و يكـون الإقبـال علـى الفلـم فـي أشـدّه . . و هـا هـي الصُـدف تقـوم بدورهـا و يكـون يومهـا عـرض الفلـم العراقـي . . مـن المسـؤول . . بطولـة الفنـان خليـل شـوقي و الفنانـة ناهـدة الرمـاح.

الأسـبوع الثالـث مـن نيسـان 1958. . يجيـئ حسـين گـطمة يومـا و يجـد غايـب بهيئتـه الجديـدة، بدلـة كحليـة بـدت كبيـرة نسـبياً و تحتهـا قميـص أخضـر بتقفيلـة زرقـاء كبيـرة . . القميـص معبعـب فـوق بطنـه بسـبب تعلـق غايـب بعادتـه وضـعَ كيـسِ نقـوده الخامـي فـي عبّـه. و يضحـك حسـين مـن كل قلبـه،

و يقسم على أن يشتري هو الآخر بنطلوناً و قميصاً و يترك الدشداشة . . و لكنه ينصح غايب بنزع السترة كي يبدو أكشخ!

أمسية ذاك اليوم . . و المشهد أمام سينما ديالى إحتفاليّ بكل ما في الكلمة من معنى . . أنيرت نشرات المصابيح الملونة المنتشرة حول سياج الكازينو على أعمدة ترتفع لأكثر من مترين قليلا . . من مختلف الألوان . . أحمر . . أصفر . . أخضر . . أزرق . . حليبي . . وردي . . و النيونات الثلجية البيض تغطي بخط مستقيم واجهة غرفة الكازينو من ركن دار العرض الشتوي و لغاية الركن الأبعد من الضلع الأمامي لدار العرض الصيفية. و القنفات تشكلت فيما يشبه المقصورات . . لكل مقصورة قنفتين بينهما طاولة كبيرة، و الى جانبها طبلية صغيرة وضعت عليها أدوات لعبتي الطاولي و الدومينو. و إنتظمت المقصورات صف من ست منها في الأمام موازية لسياج الكازينو الواطئ، ثلاث على يمين مدخل الكازينو و ثلاث على يساره. و صفٌ من ست مقصورات أخرى في الخلفية، تُرِكَ بينهما بعرض متر تقريبا. و في الركن البعيد الأيسر وضعت طاولة عالية بطابقين، على الأعلى منهما إنتصب جهاز تلفزيون الماني ماركة إمپريال، و على شاشته الصغيرة تظهر مشاهد من فيلم عن زيارة الملك فيصل الثاني الى منطقة جلولاء و السعدية أيام الفيضان في نيسان قبل سنتين، و في طابقه الأسفل وضع جهاز تسجيل ألماني ماركة گرونديك، يبث في الهواء و بأعلى صوته أغنية أم كلثوم التي عرَّفَتْ غايب بأم كلثوم . . سهران لوحدي.

الأمسيةُ نيسانيةٌ و ربيعيةٌ . . و يقف غايب و معه حسين گطمة في باب غرفة الكازينو مبهورَين، يراقبان رواد العرض السينمائي يتوافدون، من كل شرائح المجتمع البعقوبي. غير بعيد منهما علو الدنداوي و برهوم عريضي واقفان أمام دار العرض متكئين على الباب السلايد الحديدي، يتناوبان نظرات الحسرة و الحسد، مرة نحو الكازينو و صاحبها و صديقه، و مرة نحو حسن الدماري منشغلاً ذاك اليوم ببيع المشروبات الغازية في صالة إستقبال دار العرض، و مرة على جمهور السينما الذي

يجدونــه يتلفـت، أو يتوقـف هنيهــة، أمــام الكازينــو، ليتفرجـوا علــى واجهــة الكازينـو المفتـوح فـي الهـواء الطلـق، و يتطلعـون بخاصــة الــى يافطــة الكازينـو المحاطـة بأنـوار النيـون، تحتـل أكثـر مـن نصـف مسـاحتها صـورة أم كلثـوم محاطـة بهالـة مـن زهـر النرجـس . . و هـا هـم رواد السينما يتركـون عيونهـم تتشبع بهـذه الإضافـة الجذابـة لواجهـة دار العـرض، قبـل أن ينعطفـوا الـى مدخـل دار العـرض يسـتقبلهم صـوت المطربــة العراقيـة سـليمة مـراد باشـا مـن مكبـر صـوت دار العـرض تغنـي . . يـا نبعـة الريحـان حنـي علـى الولهـان! . . و هـا هنـا يجلـب إنتباه جمهـور الـرواد شـخص برهـوم عريضـي الــذي تـرك أبـاه عنـد بـاب السـينما و جـاء زاعقـاً ليؤنـب حسـن الدمــاري بصـوت يشـبه الصـراخ علـى تناثـر أغطيـة قنانـي المشـروبات الغازيـة مـن يديـه علـى أرضيـة الصالـة، لكـن جمهـور الـرواد يفضلـون بعـد هنيهـة قطـع تذاكـر الدخـول، تاركيـن برهـوم عريضـي يزعـق، و يتسـلق بعضهـم السـلالم علـى جانبـي الصالـة الـى الموقـع الأول الممتـاز فـي الطابـق فـوق الأرضـي، و بعضهـم يمضـي الـى آخـر صالـة الإسـتقبال حيـث بـاب موقـع الدرجـة الثانيـة . . و لـم يحتمـل علـو الدنـداوي و لا إبنـه برهـوم عريضـي أكثـر ممـا تحمـلا، إذ كان فـي تناثـر أغطيـة قنانـي البيبسـي و الكـولا و السـينالكو مـن يـدي حسـن الدمـاري، فـي أمسـية الإفتتـاح، عندهمـا مبـرراً كافيـاً يؤشـر الذريعـة و نقطـة البدايـة فـي إعـلان آل الدنـداوي الحـرب علـى غايـب مرهـون.

الخبـرة القليلـة مـع إسـتكانات الدارسـين فـي حمامـات السـوق لروادهـا بعـد إسـتحمامهم آتـت أكلَـها، و سـتنمو و تصيـر كبيـرة لتعيـن غايـب فـي أمسـية إفتتـاح الكازينـو، فيجـد فيهـا متعـة الوقـوف عنـد الأوجـاغ يصـب الشـاي لـرواد الكازينـو القلائـل، أو يسـقيهم مـاءً أو مشـروباً غازيـاً. و كان حسـن الدمـاري قـد أعدّ لـه سـماور المـاء المغلـي و قـواري[22] الشـاي ، و تـدرب غايـب أيضـا لمـدة يوميـن علـى طـرق حمـل عـدد مـن إسـتكانات الشـاي سـوية، و صـب الشـاي أو مشـروب الليمـون السـاخن فـي الإسـتكانات.

٢٢ مفردها «قوري» و هي التسمية التي يطلقها العراقيون على مغلاة إعداد الشاي

غايب مشغول عند الأوجاغ، و يجيئه صُبيح أكبر أبناء الدنداوي مباركا الإفتتاح، و يسأل غايب أن كان سيسمح له بوضع منقلة على الرصيف أمام ركن الكازينو الأقرب لواجهة دار السينما، ليبيع كباباً و تكة . . و يحتار غايب و يتأخر بالإجابة، و يلتفت لا شعورياً نحو حسين گطمة و كأنه يطلب العون بإتخاذ قرار، و يسمع صُبيح يضيف:

- غايب خويه . . آني بالحقيقة . . طلبت من يهودا و ناجي يسمحون لي أخلي منقلة كباب گِدّام واجهة السينما و رفضو . . گالو هذا إحتمال يخربط الوضع گدّام السينما . . و عمي يهودا بنفسه هو اللي إقترح عليّ آجيلك . . و أسألك توافق لو ما توافق أفتح گدّام الكازينو على الرصيف بالركن القريب من باب السينما . . شتگول؟

و يومئ حسين گطمة لغايب بالموافقة، و يرد غايب:

- و آني موافق.

يحتضنان بعضهما. و الحضنة ستكون عربون صداقة بينهما لن تنفرط عراها. و لم يكن غايب قد إلتقى بصبيح سوى مرات قليلةٍ جداً في مقهى مناتي حين ينتهي الأخير من عمله في بانزينخانة بعقوبة مقابل المقهى . . و بمغادرة صُبيح، يهمس حسين بأذن غايب:

- زين سويت! . . آني أبد ما أستبعد أن تكون هذي الحركة مصدرها علو أبو صُبيح . . أولاً إحتمال يريد يدگ بسمار هنا . . و ثانياً يعتبرها تعويض عن الفرصة الضايعة! . . بس عفيه عليك غايب! . زين سويت من وافقت . . لأن على الأقل حتى لا يتحول صُبيح الى عدو!

قبيل إفتتاح الكازينو، لم يكن غريبا قط في الشارع مرأى التبختر اليومي لرئيس عرفاء إنضباط الشرطة، تركي الفتلاوي، أمام دار السينما عند المساء، و وراءه شرطيان. و لكن دخول ثلة إنضباط الشرطة الى الكازينو

هو الذي كان جديداً . . يرحب غايب بهم، لكنهم يتجاهلوه و يدخلون الغرفة، يتقدمهم رئيسهم الفتلاوي، المعروف بصيته الشهير بالصلافة و الوقاحة و التعدي و الإستفزاز و قبول الرشوة . . يتبعهم غايب و حسين، يتفرجان على تركي الفتلاوي يتفحص أشياء الغرفة، و يسأل:

- بويه . . إنتو هنا عندكم كازينو تبيعون بيه حار و بارد . . تمام؟

فيرد غايب:

- تمام!

- چا و هذني القريولتين مال السعف . . منهو اللي ينام عليهن؟

حسين أعرف من غايب بنفسية الشرطة عموماً، و إحتياطاً للمستقبل، يستبق غايب بالإجابة:

- إحنه ننام عليهه . . آني و غايب . . إحنه أصحاب الكازينو . . آني بيتنه بالهويدر و هو غايب ما عنده بيت ببعگوبة . . هذا المكان هو بيته!

- بس إحنه معلوماتنا تگول هو غايب اللي مستأجر الكازينو مو غيره!

يعلق حسين مؤيداً:

- إي تمام رئيس عرفاء تركي . . و آني شريكه بالباطن! . . عريف تركي شتشربون . . بارد لو چاي؟

و يخاطب حسين غايب مضيفاً:

- أبو مرهون . . جيب للجماعة ببسي كولا!

و يهرع غايب الى صندوق المشروبات الغازية القريب لجلب ثلاث قناني ببسي كولا . . فتحها و ناولها لثلة إنضباط الشرطة، و يأخذوها ليشربوا في باحة الكازينو . . يتجشأون بصوت عال منفر و يغادرون، في حين

ظل غايب مسحورا بكنية . . أبي مرهون . . التي أطلقها حسين عليه، و تخطر في خياله فوراً أميرة الأحمدي، و يقرر أنه حين سيتزوج سيسمي أول إبن له . . مرهون!

* * * * * * * * * * * * * * *

شغل الكازينو ينمو يوما فيوما و صيته يحمل معه صوت أم كلثوم ليسري في طرقات بعقوبة . . و تمضي حياة غايب قدما. كل يوم يوم في حياة الكازينو جديد يزداد فيضفي على جوها أبهة من نوع ما . . حدث في كل الأزمان أن يكون في إرتياد مقهى أو كازينو أو چايخانة شيئا من عدوى، يرتاد أحد ما مكانا فينعدي به آخر، جارٌ أو صديق . . يأتي الرواد الى كازينو أم كلثوم . . لسماع أغاني أم كلثوم . . أناس من مشارب مختلفة . . أناس ميالون للترفيه . . و إنفضاض رواد دار السينما عائدين الى بيوتهم غالباً ما يكون جرساً ضمنياً لرواد الكازينو، فيبدأ إنفضاضهم تدريجياً عائدين الى بيوتهم . . و لا تُطفئ الكازينو أنوارها إلا و قد إنتصف الليل أو زاد!

* * * * * * * * * * * * * * *

البشر ميالون الى إرساء طقوس و عادات. و ها هي زيارة غايب لأم رحمن تتحول الى ما يشبه الطقس يؤديه في الظهائر . . يذهب إليها بوجبة من كباب فاضل كبابچي أو كبة جميل حجل، و ما يزيده تعلقا بأم رحمن هو حاجته لإرضاء غاية داخلية . . و الفطرة السليمة هي التي ستدل غايب في تلك الآونة على مداومة عمله في أرزاق المستشفى، بما يأتيه من عوائد تتنامى أسبوعاً فأسبوع، فتعينه على تسديد ما عليه من ديون . . يخرج فجرا ليذهب الى السوق ثم الى المستشفى حاملاً متطلبات الفطور للراقدين في المستشفى و العاملين فيها، و يعود الى السوق ليتناول فطوره . . هريسة عند شاكر المعظماوي . . معلاگ عند غلوبي . . كبة تمن مقلية عند حسين كبة . . كبابا عند فاضل كبابچي

. . أي منها و يشرب بعد فطوره شايا من يد حميد سعيِّد السامرلي في چايخانته المجاورة لخان علي الحسون البدري . . ثم يستغل بعدها وقت ما قبل الظهيرة بتسويق أرزاق المستشفى و إحتياجات غذائها لما تبقى من اليوم . . و في طريق عودته الى الكازينو، إذا لم يكن ذاهبا الى أم رحمن، يتناول غداءه في مطعم حسين آشچي، الذي يسأله كل يوم بصوته الخشن الأجش:

- شلون شغل الكازينو؟

يرد غائبا محبوراً:

- نعمة!

صيت الكازينو ينذاع يوما فيوما في بلدة بعقوبة . . و ها هو الصيت يفتح عيون الحساد . . بالذات عيون أصحاب مقاهي بعقوبة المعروفين، بخاصة أولئك المطلة مقاهيهم على الشاخة من صوبيه المعروفين . . حسين الصفاوي و عبود الصفاوي و لفتة و صاحب مقهى البلم و غنيم السامرلي . . و هم يرون تحول بعض روادهم الدائميين الى إرتياد . . كازينو أم كلثوم . . و يروحون يتقولون بدافع النكاية و جرح السمعة . . يتندرون من نجاح غايب إستصغاراً منهم لإنجاز حققه إبن مرهون العربنچي الذي كان مگديا بعد موت زوجته . . و ما يزيد من سورة الحسد سَبقُ فطرة غايب السليمة لهم . . تزويده مقهاه الجديد بجهاز تلفزيون و جهاز مسجِّل، و تراهم سارعوا الى التقليد بتجهيز مقاهيهم بأجهزة مماثلة، علّهم يحافظون على زبائنهم. و مع ذلك . . لم يفدهم هذا بشئ في إسترداد ما خسروه من زبائن لصالح . . كازينو أم كلثوم . . أصحاب مقاهي داخل سوق بعقوبة المجاورة للخانات . . عباس تيتي و محمود جوير و أصحاب الچايخانات، كلهم و معهم أغلب روادهم من العربَنچية و المطيرچية راحوا يتقولون حسداً لإبن مرهون العربنچي الأعور الذي خرج من بين بوخ روث الخانات و دروب الگدية، ليصير

صاحب أشهر مقهى و كازينو في بعقوبة . . و يروحون يلمزون رفيف عين غايب الدائم بربطه تعسفاً بأيام الگدية في محطة القطار مع والده، غامزين صف أسنانه الذهبية السفلى كلما رأوه مكشرين عن صفوف أسنانهم السفلية سخرية . . عدا قلة قليلة منهم من بينهم ماهي العربنچي الوحيد الذي كان يرد على تقولات العربنچية ساخراً بعفطاته و زياگته الشهيرة التي لم يكن ينازعه فيها أحد من بين رواد تلك المقاهي في قوة العفاط و علوه و أحيانا تلحينه سوى مرهون الغائب والد غايب . . و أمير القيرواني الذي راح ينافح عن غايب و مشروع الكازينو، بما تبقى له من مدة قبل مغادرته الى بغداد، و طالما ظل غايب في باله بوصفه المحب الحقيقي الوحيد للفن بشرائه لوحة أم كلثوم منه . . يسمع القيرواني التعليقات في مقهى غنيم السامرلي المجاورة لدكانه، فيصرخ بهم:

- الله أكبر يا ناس! . . و الله . . صِدَگْ اللي گال . . الحلقوماية بيد اليتيم عجبة!

من بين رواد مقاهي بعقوبة، يكاد رواد مقهى جبارة المعيدي في العنافصة و مقهى مجيد محسن هما الوحيدتان اللتان لم يكن لهما، أو لروادهما، موقف من . . كازينو أم كلثوم . . أو من صاحبها!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

متحرراً من الدين الذي ترتب على تشغيل الكازينو بغضون شهرين و نيف . . يروح غايب ليخلو بنفسه ليلاً، حتى في جلسات السكر مع نديمه حسين گطمة، لا ينفك تفكيره يضغط عليه بإبنة نزهان الأحمدي، بخاصة بعد أن توصل ذات ظهيرة متأخرة من شهر مايس، بمساعدة أم رحمن، الى رؤية أميرة . . صبية الخامسة عشر عاماً عائدة من مدرستها، يراها فينهزّ كيانه بكيانها و قامتها القصيرة المكتنزة، و بشرتها الوردية و شعرها الأشقر القصير المفلفل و عينيها الزرقاوين . . و ها هو غايب يجد بها فعلاً، و مثلما أخبرته أم رحمن، شبها بأخيها أمير

القيرواني، و لكن إسقاطات وعيه المشوش خلطت فوراً بين ملامحها و ما يتخيله من ملامح أمه نرجس المضطربة في ذهنه . . أضطرب حين رآها لأول مرة و كاد يتعثر و يقع على الأرض . . و سيحاول ساعة يرها خطفاً للمرة الثانية، أن يكتشف في ذهنه أي ترابط بين زهرة النرجس و إبنة نزهان الأحمدي و أمه نرجس التي لا فكرة لديه أصلاً عن سماتها. و ما أن عاد الى الكازينو، بعد تناوله الغداء مع أم رحمن، عرَّج على حديقة مصرف الرافدين، مقابل الكازينو، علّه يجد بقية من زهور النرجس التي إجترحت يداه بحقها ما إجترحت، كي يتأملها و عسى رؤيتها أن تحل له بعضا من لغزٍ عصي على ذهنه . . لم يجد للنرجس أثراً، فيجدد له أبو عباس وعده بزراعة قدر ما يبتغيه من زهور النرجس في الموسم القادم.

ليلة صيف في أواخر حزيران . . بعد أن دارت الخمرة في رأسه دورة خفيفة، قال لنديمه حسين گطمة:

- حسين . . قررت أتزوج!

يتفاجأ نديمه، الذي يفضل العزوبية على الزواج، و يصرخ معلقاً:

- شنو ولك غايب! . . تتزوج؟
- إي أتزوج! . . ليش ما أتزوج و شنو المانع؟
- لا ماكو مانع! . . و منو هذي اللي راح تتزوجها؟
- بنت نزهان الأحمدي . . أخت أمير القيرواني!
- أخت هذا الرسام اللي يم الستمومنية؟
- إي!

- * * * * * * * * * * * * * * *

تجري الأمور أحيانا بطريقة سحرية، و كأن يداً خفيا تديرها!

ظهيرة اليوم التالي، يتناول غايب غداءه مع أم رحمن، و باتت بمنزلة الأم، فيخبرها بقراره. و تروح المرأة و باتت هي بدورها تتصرف كأنها أم، و من طريق بعض نسوة الجيرة المعروفات، لتمهد الطريق عند زوجة نزهان الأحمدي لخطبة إبنتها أميرة . . يوم واحد سيكون كافيا للرد على طلب غايب الزواج من إبنته، حي سيعقد الأحمدي مجلساً للمشاورة مع زوجته وإبنه أمير القيرواني، ويكون ولده اليافع شمران حاضراً . . لم يكن الأحمدي بحاجة للسؤال عن غايب الذي كان يتعامل معه منذ شهور، يشتري منه تجهيزات مستشفى بعقوبة، و كان قد سمع ما يكفيه عن ماضي غايب و أبيه مرهون العربنچي، و لأنه رجل عملي يرى الحاضر و البائن، لا الماضي و المستور و المشكوك بأمره، و لكي يوافق على زواج غايب من إبنته، كان لا يحتاج لأكثر من سماع رأي إبنه الكبير أمير . . و أمير القيرواني ما يزال مذهولا بشخصية غايب البسيطة التي يتصورها القيرواني محبة للفن و تحت تأثير مأثرة غايب بشرائه صورة من الصور التي يرسمها و هي الصفقة التي جرت بعد أيام قليلة من حادثة الإعتداء عليه من لدن شخص أخرسٍ بليدٍ لتعليقه رسوماته على واجهة دكانه . . و بالنتيجة لم يُظهر أمير لوالده إمتناعاً في تزويج أخته أميرة، و قد كبرت كثيراً على صفها في المدرسة بسبب توانيها في الدراسة، من صاحب . . كازينو أم كلثوم . . أشهر مقهى في بعقوبة، و الرجل الوحيد في بعقوبة الذي قدَّر الفن و إشترى منه لوحة فنية. . أما شمران الأحمدي و بسبب يفاعته، لم يسأله أبوه رأيه، و لكنه بعد حوالي عشرين عاماً من زواج أخته من غايب سيقول لمرهون إبن غايب عن زواج أبيه من أمه أميرة، و بمنتهى الصراحة:

- . . . لو چان والدي و أخويه أمير سائليني ذاك اليوم عن رأيي بزواج غايب من أميرة أختي الوحيدة ما چان وافقت على هذا الزواج . . لأن آني مع صغر سني چنت أشوف بغايب فد شي زائف و غلط . . شي ما گدرت أميّزه أو أشخصه، و أخويه أمير وافق على زواج غايب

من أميرة، لأن هو الآخر أيضا چان أكو بداخله شي زائف و غلط و ما چنت أگدر أميزه! . . أمير وافق على الزواج لأن غايب إشترى منه لوحة من لوحاته و هو چان ما يزال تحت تأثير الإعتداء اللي تعرَّضّله من سعد الأخرس؟ . . و هل چان هذا سبب كافي و مسوغ حتى يوافق على زواج أختي أميرة من غايب؟ . . شوف يا مرهون يا إبن غايب مرهون . . شلون يضيعن النسوان لأن مالهن رأي!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعد يومين . . إبراهيم أخو غايب و ماهي العربنچي و معهما مجهزو أرزاق المستشفى لغايب في سوق بعقوبة . . محمد عيشة القصاب و داوود شناوة و حسن علو الگفچي يرافقهم حسين گطمة يزورون بيت الأحمدي لطلب يد إبنته أميرة لغايب مرهون.

في يوم تالٍ، ستُلبَسُ الصبية أميرة الأحمدي خاتم من ذهب معه سوار معصم ذهبي رفيع نيشاناً لخطبتها . . و لأن أميرة كانت قاصراً لا يعقد لها زواج في محكمة حكومية . . سيدخل السيد عبد الكريم المدني إمام حسينية بعقوبة بيت الأحمدي عصراً، ليعقد قران إبنته أميرة على غايب مرهون . . و قبل مغادرة السيد المدني الدار، ستدور أقداح العصير . . و أثناء ذلك تنطلق الزغاريد من فم أم رحمن . . و معها هلاهل أم وحيد القصيرة الشقراء زوجة ماهي العربنچي، و هلاهل أم الصبيّة أميرة الأحمدي المفلفلة الشعر لتهزّ بيت نزهان الأحمدي و تخرج الى دربونة أم الدجاج.

تمضي أيام معدودة . . و يستأجر غايب بمساعدة أم رحمن بيتاً بغرفتين في قعر دربونة أم الدجاج، ظل خالياً، لأن مالكه شلومو اليهودي، حين رُحِّل قسراً من العراق مع يهود آخرين، فضَّل أن يتنازل عنه لصديق مسلم عرفاناً منه بالوفاء للصداقة بينهما بدل أن تستولي عليه الحكومة. و عرفاناً من المسلم بجميل صداقة اليهودي ترك المنزل خالياً، و لكن

بعد مماتـه فضَّـل أولاده تأجيـر البيـت، و و هـا هـي الـدار الصغيـرة تصيـر نصيـب غايـب مرهـون و أميـرة الأحمـدي . . ستُجَهـَّزُ إحـدى غرفتـي المنـزل بسـرير حديـدي ذي أعمـدة صفـر، و دولاب ملابـس بدرفتيـن، و كومدينـو بمـرآة للزينـة، و أفرشـة، و يـزود مطبـخ البيـت الصغيـر جداً بـدولاب خشـبي من نـوع . . أبـو السيم . . و چـولة أم عينيـن و پـريمز[23] كلايهمـا سيوضعان علـى الأرض، و إحتياجـات مطبخيـة أخـرى مـن قـدور و أوانـي، و ستَشغـَلُ أم رحمـن الغرفـة الثانيـة فـي المنـزل . . و حسـبما هـو شـائعٌ بيـن العراقييـن فـي تحديـد يـوم دخلـة العريـس علـى عروسـه أن يكـون أمـا يـومَ خميـس أو يـومَ إثنيـن . . . سيُختار يـوم إثنيـن تـال ليكـون يـوم دخلـة غايـب علـى أميـرة!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الإثنيـن الموعـود لزفـة غايـب مرهـون للدخـول فـي أميـرة الأحمـدي . . سـيصحو غايـب غبشـة مـن نومـه المضطـرب المتقطـع . . بـات لوحـده. و صديقـه الـودود حسـين گـطمة وعـده قبـل يوميـن بالمجيـئ إليـه صباحـاً . . ينهـض مـن علـى قنفـة مـن قنفـات الكازينـو قضـى عليهـا ليلتـه فـي العـراء حيـث إعتـاد علـى النـوم صيفـاً، بقـرب بـاب الغرفـة . . يدخـل المراحيـض و يغسـل وجهـه. يُخـرج دراجتـه أم السـلة، و قبـل أن يركبهـا يضـع فـي بالـه ألا ينسـى الذهـاب قبـل عودتـه ظهـراً لقـص شـعره . . و أزمـع ذاك اليـوم أن يبـدل حلاَّقـَه الـذي يتـرك زبونـه فـي الصيـف يتصبـب عرقـا، و يذهـب الـى ناجـي داوود الحـلاق الـذي نصـب مروحـة سقفية تـدار باليـد . . يركـب دراجتـه و يغـادر . . مشـاوراً حسـين گـطـمة، كان قبـل أسـبوع قد أخبر حسـين الجيـراوي رب عملـه فـي الأرزاق بأنـه سيتزوج و سـيكون آخـر يـوم لـه فـي العزوبيـة هـو آخـر يـوم لـه فـي شـغل أرزاق المستشـفى، و تقبـَّلَ الجيـراوي علـى مضـضٍ خبـر عـزم غايـب علـى تركـه.

وصـولاً الـى السـوق قبيـل الشـروق، إعتـاد غايـب علـى تنـاول فطـوره فـي السـوق، و سيقرر هـذا اليـوم الجلـوس علـى صفيحـة سـمن فارغـة عنـد غلوبـي

[23] موقد نفطي بعين واحدة يشتغل على ضغط الهواء في ضخ الوقود ما يزال ستعمل عند بعض الناس

ليتنـاول فطـوره مـن معـلاگـ الغنـم. و هـا هـو يتفاجـأ غبشـةً ذاك الإثنيـن بوجود كل النـاس الذيـن كانـوا عونـاً لـه فـي تجهيـز الكازينـو جالسـين عنـد غلوبـي . . مـا هذه الصدفـة! . . مـا الـذي جمعهـم؟ . . عبـد الجبـار المقصـود صاحـب شـركة باتـاو حسـن وهابـي و إبراهيـم مهدونـي الكهربائـي و خليـل برهومـي البنـاء و صـُبيح الدنـداوي الـذي سـيدفع عنـه ثمـن فطـوره . . مـا جـاء بـكل هـؤلاء ليجتمعـوا علـى نحـو لـم يـره مـن قبـل عنـد غلوبـي؟ . . بـل مـا الـذي أتـى بصـُبيح الدنـداوي بالـذات، لـم يـرهُ يومـا يجيـئ ليفطـر هنـا و أخـوه أبـو دعوچـة أقـرب إليـه يشـوي كبابـاً و معلاگـا أمـام مقهـى مناتـي قريبـا مـن عملـه هنـاك؟ . . إنهـا المـرة الأولـى فـي حيـاة غايـب تنثـار فيهـا داخـل نفسـه تسـاؤلات مـن هـذا القبيـل . . تنـاول فطـوره ثـم ذهـب ليشـرب شـاياً مـن يـد كاظـم الـچايـچـي فـي الـچـايخانة القريبـة. و سينشـغل بعدهـا بالحصـول علـى مـواد فطـور المرضـى و العامليـن فـي المستشـفى، يجمعهـا مـن السـوق و مـن فـرن الصمـون.

ذاهبـا بمـادة الفطـور الـى المستشـفى، سـيجتاز غايـب حديقـة المستشـفى إلـى داخلهـا، لـم تكـن الشـمس قـد أشـرقت بعـد مـن وراء هيـكل بنايـة سـجن بعقوبـة، المقابـل لمستشـفى بعقوبـة إلـى الشـرق، و قـد إعتـاد، منـذ أن بـدأ عملـه فـي أرزاق المستشـفى، علـى صـوت السـجناء ينبعـث هـادراً يوميـاً يهـز سـكون الصبـح، و كأنـه يريـد أن يمهّـد للشـمس إنبعـاث أشـعاعاتها النوريـة الأولـى مـن وراء بنايـة السـجن الضخمـة . . سـنمضـي سـنمضي الـى مـا نريـد وطـن حـر و شـعب سـعيدا! . . و لـم يكـن غايـب ليفقـه أو حتـى ليسـأل قـط عـن معنـى كل هـذا و مـن هـم هـؤلاء السـجناء و لـم يغنـون صباحـا! . . و لكـن مـا أن إسـتيقضت ذائقتـه علـى صـوت أم كلثـوم مـرة لسـبب لا يعرفـه لا يتعـدى معنـى . . سـهران لوحـدي . . إستفسـر مـرة عمـا يغنيـه أولـئـك السـجناء، كان ثمـة مـن ينـوره و يعطيـه فكـرة عـن أولـئـك السـجناء و مـن يكونـون!

مشـاعر متناقضـة تبديهـا العامـلات فـي المستشـفى . . ممرضـات . . فرّاشـات . . طباخـات . . غسّـالات ملابـس و غسّـالات صحـون . . إزاء نبـأ تخلـي غايـب منـذ اليـوم التالـي عـن عملـه فـي تزويـد المستشـفى بأرزاقهـا، لأنـه سـيتزوج

في مساء اليوم ذاته . . صحيح أنهن إستقبلن خبر زواجه مستبشرات و مهنئات على زواجه، لكنهن عبّرن عن ذلك بلهجة لا تخلو من إنزعاج من تركه عمله، فهن إعتدن عليه و على طيبته و بساطته و سذاجته، بخاصة و هن لا يدرين من سيخلفه و كيف سيكون!

عودةٌ الى السوق للمجيئ يما تبقى من أرزاق ذاك اليوم. الشمس ترتفع من وراء مقهى حسين صفاوي و سوق آل البندر في صوب التكية من الشرق، لتنشر إشعاعاتها في صوب السراي غرباً على جامع بعقوبة و المقاهي المصطفة الى جانبه نحو الجنوب. عند دخوله سوق الستمومنية، كان صوت مقرئ القرآن الحافظ مهدي ينبعث من راديو صغير في دكانة فالح مطر في رأس السوق مقابل دكانة داوود شناوة، يجوّد قراءة سورة يوسف . . و قَدّت قميصه من قُبُلٍ و قالت هيت لك قال معاذ الله! . . . فيعلق فالح مطر:

- ديلله! . . إسمعوا! . . هو شنو الفرق إذا من قُبُلٍ و إذا من دُبُرٍ!

و يُسمع صوت ستار شناوة يعلق:

- ها يابه! . . هم گالت له هيت لك!. . لا . . فالح . . لا . . ترى هو ما سواها لأن هو خوش ولد!

و سرعان ما تخترق السوق قهقهات ستار شناوة و فالح مطر و هادي الوسخ و قدوري الكبابچي المشهور بقهقهته المجلجلة التي إذا إنطلقت يتردد صداها على طول المسافة بين السوق و قنطرة خليل پاشا. و هو يقهقه غصّ قدوري بشيف رقي كان يلتهمه . . تردد غايب أول الأمر، إستحياءً، في الذهاب الى حماه نزهان الأحمدي يوم دخلته على إبنته الرجل لشراء إحتياجات المستشفى ليوم الإثنين ذاك، كونه سيدخل على أبنته ذاك المساء، فعرّج على دكان حسن علو الگفچي ليأخذ منه حاجته. . حسن علو مشهور بإتاهة مستمعه في التشبيهات التي يستعملها، فيعلق:

- ها! . . هاي شنو يابه! . . أشو ما رايح اليوم يم هذا حتى تشتري ذاك! . . اليوم تستحي؟ . . لأن اليوم راح تحط هذا على ذاك! . . و لهذا ما راح تروح تاخذ هذا اللي شسمه حتى تودي لهناك؟

و يلمح الأحمدي غايب من بعيد، و كأن قلبه أعلمه بمشاعر غايب ونيته، فيناديه . . و يذهب لحماه مستحياً، يلحقه داود شناوة بقامته القصير متبوعا بحسن علو لعند الأحمدي . . و يعلق الأحمدي مازحا:

- يابه هاي شنو؟ . . اليوم صرت تستحي مني! . . إنت تجي تتسوگ مني أو ما تجي هذا ما يغيّر شي . . و الموضوع يطلع يك حساب . . أنت أول و تالي راح تسوي اللي تريده . . . بس تركب بنتي و تروح تشتري من غيري هاذي هي اللي مو معقولة! . . شلون يصير؟ . . تركب بنتي و تروح تنفّع لو داوود شناوة لو حسن علو . . إذا راح تسويهه هيچي تصير السالفة مو يك حساب! . . تمام؟

يغرق السامعون القريبون بالضحك، و يعلق داود شناوة:

- الله أكبر! . . إنت ما صدَّگِت! . . إنطي غايب مفكة . . خلي يشتم هوا . . بِنتَك راح تتولاه بالليل و إنت هسه گبل بنتك تريد تتولاه بالنهار!

و تروح قهقهات جمع السوق القريب لتجتاح السوق.

لم يكن غايب يتوقع من حميه هذا القدر من الشفافية في الكلام . . و تجاوباً مع قهقهات الأحمدي و شناوة و حسن علو، راح المحيطون القريبون منهم في السوق . . منصور الچايچي و ناجي الحلاق و سيد جاسم الجبنچي و جميّل الحلاق، هادي أبو الفحم . . يضحكون و يضحك معهم متبضعون قريبون، حتى دون أن يعرفوا الموضوع! . . و تظل أسارير غايب منفرجةً بإستحياء يلمع من ورائها صف أسنانه الذهبية جميعاً، و يظل ساكتا و حائرا!

صوت الحافظ مهدي ما يزال ينبعث من راديو صغير آخر في دكانة

جميِّل الحلاق المجاور لدكانة الأحمدي . . . قالت أدخل اليهن، فقطَّعن أيديهن و قلن حاشى لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . . و تروح أصوات بعض من في السوق يرددون . . الله! . .الله! . . اللـــــــــه! . . و فجأة ينقطع صوت الحافظ مهدي، و كأنه قطع في شريط التسجيل، ليهدر فورا من الراديو في السوق مباشرة صوتٌ غير صوت مقرئ القرآن يقول:

- صدق الله العظيم . . هنا إذاعة الجمهورية العراقية من بغداد . . أيها الشعب العراقي العظيم . .

ذهول مفاجئ ينتاب الناس . . الجمهورية العراقية! . . . من بغداد! . . ظن الناس أنهم يحلمون أو بصدد سماع نكتة! . . و يسود السوق صمتٌ و لا كصمت الليل، الذي لا تبدده سوى صفارات الچرخچية و نباح الكلاب . . صمت يكاد يكون تاماً . . تسمَّر خلاله الناس في أماكنهم مثل شريط سينمائي توقف فجأة و سكنت على الشاشة آخر صورة منه . . الممسك بخيارة يتخيرها للشراء ظل ممسكاً بها لا يدري أين يذهب بها . . الممسك بحبة طماطة هصرها بيده دون أن يدري و سال منها سائل أحمر على ملابسه القريبة . . و سمعت صرخة القصاب خماس يجرح نفسه بسبب إنذهاله بالخبر . . و سرعان ما إنفض السكون بحركة . . و يروح المتبضعون ليتجمعوا لا شعوريا عند أقرب دكان فيه راديو! . . الصوت الهادر ما يزال يصرخ . . هنا إذاعة الجمهورية العراقية من بغداد . . هو الذي سحبهم للتجمع قرب أجهزة الراديو القليلة في السوق . . يا أبناء شعبنا . .

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

ذاك الإثنين هو الرابع عشر من تموز 1958 . . العسكر يستولون على السلطة، و سيحدث تماهٍ مع الحدث من الشعب عن بكرة أبيه هيئات و أفراد . . المزاج يتغير! . . و ستشهد دنيا العراقيين تقلبات دراماتيكية،

تنفتح فيها حياتهم على جديد مجهول فيه أكثر من باب على النعيم و الجحيم!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

جميّل الحلاق يصغي لما يصدر من راديو محله الصغير . . و يعلق مصدوما:

- هاي شنو يابه؟ . . إحنه مو ملكية! . . هاي شصار؟ . . شنو اللي صار؟ . . شوكت صرنا جمهورية؟ . . بالليل سووه؟ . . شنو هيَّ ولاية بطيخ! . . لعد الملك وين راح يروح إذا صرنا جمهورية! . . الملك يطلع تقاعد؟

و يعلق نزهان الأحمدي:

- و لك جميِّل . . هذا إنقلاب!

الصمت المفاجئ يعمُّ السوق من أقصاه الى أقصاه و كأن الذهول شمل حتى كلاب السوق التي إعتادت إن تتلقف أية عظمة يرميها قصاب في السوق حتى قبل أن تتطأ الأرض صارت تلوك العظام بصمت عجيب . . صوت واحد باتت له الكلمة العليا في جو السوق هو صوت رجل الإذاعة يهدر بإنفعال واضح، الذي ستنكشف هويته بعد ساعات كونه الرجل الثاني في حركة الجيش صباح الرابع عشر من تموز . . يخرج صوته من ثلاث أجهزة راديو في السوق خفّ أصحابها الى رفع أصواتها الى منتهى أعلاه . . في دكان فالح مطر الذي إجتمع عليه الناس الذين في مدخل السوق من جهة الشاخة . . و دكان كريم علو الگفچي في وسط السوق تقريباً حيث يتقاطع سوق الستمومنية مع سوق آل بندر . . و دكانة جميّل الحلاق في حلق السوق المؤدي الى دربونة أم الدجاج!

الناس على رؤسهم الطير . . يستمعون الى الرجل يكمل بيانه معلنا فيه قيام الجمهورية العراقية . . و عند إنتهائه راح الراديو يهدر بنشيد . . الله

أكبر . . الله أكبر فوق كيد المعتدي . . يهدر في السوق . . و سط السكون، و سرعان ما سُمعت صرخة أطلقها أحد ما:

- ثورة! . . و لكم هذي ثورة! . . ثورة! . . عاش الشعب! . .عاش الجيش!

مسمّراً في مكانه، غايب محتارٌ لا يدري ما يفعل. ذهوله لا يشبه ذهول الآخرين في السوق، و لا يدور في باله سوى خاطر واحد فقط هو زفافه على أميرة الأحمدي المقرر مساءً، و خشيته من أن يتعطل بسبب الحدث الذي إستعصى عليه تفسيره . . شنو إنقلاب! . . شنو ثورة! . . شنو جمهورية! . . و إذا جمهورية ليش ده يروح الملك؟ . . و يسمع حماه نزهان الأحمدي يشجعه على الذهاب بأول وجبة من طلبات المستشفى، كي يعود ليذهب بالثانية!

ساحباً دراجته الممتلئة بالأرزاق خارج السوق، همَّ غائب بالذهاب، و سرعان ما إنفتح أمامه الشارع المحاذي للشاخة. الشارع يكاد أن يكون خاليا من الناس الذين تجمع أغلبهم عند المقاهي لسماع أخبار الساعة . . هذا شنو لخاطر الله! . . لم يكن غايب يدري ما يجري!

في المستشفى الجو ضبابيٌّ. الوجوم يخيم هنا و لا يخيم هناك، وجوه حائرة و بعضها مستبشرة و بعضها مستنكرة. و عصي عليه الفهم مرة أخرى . . بيش فرحانه بعض الناس و ليش؟ . . و ليش بعض الناس زعلانة و علموديش!

في مطبخ المستشفى كان الجميع مشغولين بتجهيز الفطور الصباحي لغرف و ردهات المستشفى. هنا أيضاً كانت الوجوه مكتسية بالذهول. و سيسمع الفراشات و الطباخات يعلقن:

- الله يستر! . . ما أدري الله شراح يشوِّفنه بعد!

- . . عيني لعد و الملك؟

- خطيَّه! . . وين يروح؟
- هذا حرام!
- و الله حرام! . . عيني مَتــگولولي شنو يعني جمهورية؟
- من وديت الـگهوة لمدير المستشفى سمعته يـگول . . هذا إنقلاب!
- خيِّه . . و شنو يعني إنقلاب؟
- يعني يـگلبون الحكومة!
- ولــچ . . شنو إنقـلاب! . . آنـي سمعت أبـو طـارق المضمـد يـگـول هـذي ثـورة مـو إنقـلاب! . . و يـگـول أبـو طـارق . . هسـه فـد شـوية و يجـوون يطلعـون هذولـه اللـي نسـمعهم يغنـون كل يـوم الصبـح بالسـجن!
- ولــچ شــمدرينه . . يجــوز هُمَّــه جماعــة هذولــه الســجناء مســويِّهه! . . ثــورة! . . إنقــلاب! . . و إحنــه شــئِلنه بيهــه؟ . . إحنــه بالعيــر بالنفيــر!

مُصغيــاً لــكل مــا يــدور و يُــقال، كلمــة نفيــر هــي التــي لفتــت إنتبــاه غايــب، مخافــة أن يصمــت نفيــر عرســه عنــد المســاء! . . و مــا أن ينتهــي غايــب مــن تسليم الأرزاق، سيغادر المستشـفى مـن بابهـا الخلفـي القريـب مـن المطبـخ، سـالكاً الشـارع الـذي يؤدي مباشـرة الـى شـارع الشـاخة، مـاراً بسـينما الزيـدي التــي ســيكون لهــا بعــد أســبوع أســم آخــر هــو . . ســينما النصــر . . و هــو يجتـاز بنايـة السـينما بـاذلاً جهـداً فـي الضغـط بقدمـه علـى دواسـة دراجتـه، لاحـت لـه مـن بعيـد تجمعـات النـاس أمـام مقهـى مجيد محسـن. و مقتربـا مـن المقهـى ترجـَّل مـن علـى دراجتـه . . أول مـا سيجلب إنتباهـه رئيـس عرفـاء إنضبـاط شـرطة بعقوبـة، تركـي الفتـلاوي و علـى جانبيـه شـرطيان . . كان الثلاثـة يقفـون علـى علـوٍ فـوق قنفـات المقهـى المرصوفـة فـي الجهـة المقابلـة للمقهـى عنـد مسنّاية الشـاخة، كـي تتحقـق لهـم رؤيـة أفضـل لمشـهد الشـارع . . و يـروح غايـب يتفـرجُ علـى حشـد النـاس المجتمعيـن. أنـاس يعرفهـم و

آخرين لا يعرفهم، و وجوه بعضها غريب على مدينة بعقوبة. و تفاجأ مرة أخرى كما تفاجأ من قبل صباحا بوجود الناس الذين تناول فطوره معهم عند غلوبي أبو المعلاگ . . عبد الجبار المقصود و صُبيح الدنداوي و إبراهيم شناوة البناء . . يقفون أمام المقهى معتلين بعض تخوتها التي على الرصيف، مطلقين هتافات يرددها وراءهم حشد متجمع أمام المقهى بينهم . . غلوبي أبو المعلاگ و خليل برهومي البناء و مجيد محسن صاحب المقهى و علاوي الخشالي الخياط و المصور علي مطر . . و آخرين بالعشرات ما فتئوا يتكاثرون . . و سرعان ما سكت الجميع، حين أشار لهم أحد ما طالباً إليهم الإصغاء الى الراديو يذيع بياناً مهماً جديداً. و لا يميل غايب الى الإستماع، فلا حاجة له لسماع خبر أي نفير آخر، فما كان يشغل باله هو شئ واحد فقط، نفير عرسه المعرّض للضياع ذاك اليوم! . . و لمجرد تبديد الوقت، سحب دراجته ماشياً لا راكباً، سالكاً طريقه في الشارع المحاذي للشاخة، ماراً بفندق راسم آغا المطل على الشاخة بإتجاه مقهى البلم. وقف عند رأس القنطرة الواصلة بين ركني المقهيين على جانبي الشاخة، مقهى البلم في صوب التكية شرقاً و مقهى البغدادي في صوب السراي غرباً . . إنكشف له المقهيان خاليين من الرواد تماماً، لدرجة أنه لم يرَ فيهما أثراً لبشر. و تطلع بإتجاه الشمال على مرمى البصر، فلاح له حشد آخر من البشر، مثل الحشد الذي رآه أمام مقهى مجيد محسن، يتجمع أمام مقهى حسين الصفاوي في صوب التكية . . سار ساحباً دراجته بإتجاه المقهى بمحاذاة مسنّاة الشاخة. و ما أن صار قرب عامود الكهرباء الذي تعلق عليه عارضة إعلانات سينما ديالى عند رأس القنطرة المؤدية الى سوق السراي في الجانب الآخر . . ثمة تحت العارضة رئيس عرفاء إنضباط شرطة بعقوبة الآخر المناوب عثمان الكرخي و معه شرطيان يقفان على جانبيه. و يلتفت غايب نحو صوت يصيح:

- . . الله أكبر! . . الله أكبر! . . الله أكبر!

صوت الشيخ صفاء الدين واقفٌ في الجانب الآخر من القنطرة إمام

جامع بعقوبة بقامته القصيرة و لحيته الكثة البيضاء، يصيح في الناس التي تتوافد للإلتحاق بالحشد:

- الله أكبر! . . الله أكبر! . . يا ناس هذا جحود! . . الله أكبر . . يا ناس . . يا ناس إتقوا الله! . . هذا خروج عن طاعة أولي الأمر! . . يا ناس لقد أمر الله بطاعته و طاعة الرسول و أولي الأمر منكم! . . هذا خروج عن الطاعة و الله يحاسب عليه! . . الله أكبر! . . الله أكبر!

الحشد المجتمع أمام مقهى حسين صفاوي يرفع صوراً كثيرة و يهتف للثورة و للوحدة العربية. و يسأل غايب أحد الواقفين قريباً من الحشد:

- عيني . . رحمه لوالديك ما تگوللي هذا منو اللي بالصورة اللي شايليهه الجماعة؟ . . هذي صورة من؟

- ما تعرفه؟ . . واي واي . . هيه هيه . . لعد إنت شتعرف؟ . . هذي صورة جمال عبد الناصر رئيس مصر و الأمة العربية!

بسماعه إسم مصر، تمر في خاطر غايب صورة أم كلثوم . . بضعة أفراد من الحشد أمام مقهى حسين صفاوي، هنا أيضا، يعتلون بعض تخوت المقهى التي على الرصيف، و يصرخون بهتافات يرددها الجمهور . . و سرعان ما سيتعرَّف غايب على بعض الوجوه الواقفة على التخوت . . بعض الوجوه كان يرى أصحابها يجلسون عند دكان أمير القيرواني أحيانا حين يمر من هناك، و بعضها يعرفها من شغله في الحمام . . حلمي حلمي و عبد علي جميل الشيعي و أحمد خماس عيدة . . و من بين مرددي الهتافات الواقفين على الأرض تعرَّف على منعم العلوچي صاحب المكتبة و جاسم عبد الحسين الحبيب، و غيرهم.

يكاد الوقت أن يأخذه و هو يتفرج على الحشد لولا أنه رأى من بعيد قامة نزهان الأحمدي تقف في رأس السوق أمام دكان حسن غايب التتنچي . . فترك مكانه ساحباً دراجته. و يرفع رأسه ثانية، فتلوح له هذه المرة من

بعيد قامة أمير القيرواني يقف على الرصيف مشرأب العنق، يتفرج من أمام دكانه على ما يجري. و يمشي سالكاً الطريق نفسه بمحاذاة مسنّاة الشاخة، ماراً بمقهى غنيم السامرلي التي كانت خالية تماماً سوى من الچايچي الوحيد. و هو يمرّ من أمام دكان القيرواني حيّاه و سأله مشيراً بأتجاه مقهى الصفاوي:

- هذي شنو قيرواني؟ . . شبيهه بعگوبة اليوم! . . شبيهه الناس؟

- مثل ما تشوف! . . الدنيا مگلوبة! . . يگولون ثورة!

و كأن القيرواني يتذكر شيئا فجأة، فيضيف:

- ها! . . و الله نسيت! . . غايب إنت اليوم راح تتزوج . . تمام؟ . . لو راح تأجّل لأن إنت دايخ بهذا اللي ديصير!

لا يدري غايب بما يجيب، فعلق:

- إي عيوني أمير . . هذي هي المشكلة اللي شاغلتني . . آني اليوم راح أتزوج لو ما راح أتزوج؟ . . آني نفسي ما أدري!

- زين . . لعد إسمع مني بشارة . . عندنا بالبيت الجماعة مستمرين يجهزون العروس من الصبح . . و إحتمال أصلا ما يدرون شكو ماكو برا البيت!

من فرط إنفعاله و حيرته بيومه هذا، لم يعلق غايب، و يضيف القيرواني:

- هاذي المدينة بعد ما ينعاش بها!

- ليش قيرواني؟

- في كل الأحوال . . آني ما باقي هنا و آني مغادر الى بغداد بس ما أدري شوكت . . أعيش هناك و أشتغل هناك . . فد حجيّة من أقرباء

أمـي بالكاظميـة زنـگـينة راح تفتـح لـي سـتوديو بشـارع الرشـيد!

- الله يوفقك . . و شايف ألف خير.

- و أوصيك غايب بأختي أميرة . . دير بالك عليها!

و تنحبس الكلمـات فـي فـم غايـب و أميـر يذكـر إسـم أختـه أميـرة، و تـدور فـي رأسـه ملامـح المـرأة الموعـودُ بهـا ليـلاً، بقامتهـا القصيـرة و العينيـن الزرقاويـن و الشـعر القصيـر المفلفـل و جسـدها الملتـز، فيتمتـم:

- بعينـي . . بعيونـي هَذَنـي الإثنيـن راح أحطهـه لأميـرة . . عينـي أميـر . . شـلون لعـد!

ينصـرف غايـب ذاهبـا الـى حمـاه ليأخـذ بعـض آخـر مـا يربطـه بمستشـفى بعقوبـة و يسلمه كـي يخلـي ذمتـه . . و سـالكا الطريـق ذاتـه الـذي أتـى بـه مـن المستشـفى، راح يتفـرج مـرة أخـرى علـى الحشـد الـذي أمـام مقهـى حسـين الصفـاوي. ثـم ركـب دراجتـه بعـد أن إجتـاز الحشـد، يقودهـا لغايـة أن إقتـرب مـن حشـد مقهـى مجيـد محسـن. ترجَّـلَ مـن الدراجـة، و راح يتفـرج لغايـة أن إجتـاز الحشـد.

و هـا هـو يركـب دراجتـه ثانيـة، ليقودهـا فـي آخـر رحلـة لـه الـى مستشـفى بعقوبـة . . و لـم يـدُر بخلـده قـط بـأن مقهـى مجيـد محسـن و مقهـى حسـين الصفـاوي سـتكونان القطبيـن لحـرب بـاردة فـي بعقوبـة بمـوازاة حـرب سـاخنة خفيـة تـدور بيـن الإنقلابييـن العسـكر أنفسـهم لتسـتمر سـنوات . . فـي تلـك الحـرب، و بإنقسـام حـاد و واضـح، ستصطف أغلـب المقاهـي الموجـودة فـي سـوق بعقوبـة المطلـة علـى الشـاخة و روادهـا وراء مقهـى حسـين صفـاوي و معهـا مقهـى مناتـي و مقهـى شـكر فـي رأس العـگـد مقابـل دائـرة البريـد و مقهـى عصفـور فـي أم النـوة. أمـا مقهـى مجيـد محسـن، التـي ستسـمى منـذ ذاك اليـوم . . مقهـى الشـبيبة . . فلـن تصطـف وراءهـا سـوى مقهـى جبـارة المعيـدي و روادهـا فـي العنافصـة، و معهمـا مقهـى غنيـم السـامرلي. أمـا

مقاهـي الخانـات فـي سـوق بعقوبـة الداخلـي فلـن تصطـف وراء أحـد لأن روادهـا مـن نـوع لا طاعـة لهـم لأنهـم لا رأي لهـم . . و لا رأي لهـم لأنهـم لا يطاعـون.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

لـم يكـن غايـب ليـدري فـي حينهـا، و هـو فـي طريقـه يسوق دراجتـه فـي آخـر رحلـة لـه الـى المستشـفى، و ربمـا لـن يـدرك ذلـك حتـى آخـر يـوم فـي حياتـه، بـأن الإنقسـام الـذي سيمر بـه رواد مقاهـي بعقوبـة هـو الـذي سيكون قاعـدة إزدهـار . . كازينـو أم كلثـوم . . لسنوات قليلـة قادمـة . . و سيأتيه ذاك الإنقسـام بنجـاح غامـر و كاسـحٍ.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

السـاعات تمـر سـريعة ذاك اليوم و الوقـت يمضـي مثـل منشـار حـاد و مسـنن . . النـاس لا يـدرون إن منشـار الوقـت كانـت مسـنناته تعمـل بإتجاهيـن . . مسـننات ينقـطِعُ بهـا الماضـي . . و سـينقطع بهـا المسـتقبل حتـى قبـل أن يجـئ . . حيـن إنتهـى غايـب مـن شـغل المستشـفى، تذكـر فجـأة أنـه نسـي أمـر الحـلاق، فذهـب الـى دكـان ناجـي الحـلاق. كان للـدكان بابـان مكشـوفان، و لـم تكـن قـد شـاعت بعـد عـادة وضـع واجهـات زجاجيـة للمحـلات إلا عنـد قلـة من أهـل المحـلات. و قبـل أن يصعـد علـى دكـة الـدكان، تطلّـع الـى الداخـل، فـرأى فـي الزجاجـة وجـه شـمران الأحمـدي نسيبه، يجلـس تحـت يـد ناجـي الحـلاق الـذي أدارَ ظهـره مشـغولاً بترتيـب شـعر الصبـي بمقـص و مشـط بيديـه، و ثمـة صبـي صغيـر جـداً بيـده حبـلٌ مربـوط بالسـقف راح يتلـتُّـهُ صعـوداً و نـزولاً، فتتحـرك علـى إثـره مروحـة[24] متدليـة مـن السـقف جيئـة و ذهابـا. صعد

[٢٤] مـع أن إسـتعمال المـراوح الكهربائيـة كان قـد إبتـدأ للتـو بالإنتشـار، إلا أن أغلـب أهـل المهـن، و منهـا مهنـة الحلاقـة، ظلـوا حتـى نهايـة خمسـينيات القـرن العشـرين يسـتعملون مـراوح يدويـة، منهـا المروحـة الخوصيـة التـي سـمى «مهفـة»، و منهـا الـذي يعلـق بالسـقف و هـو عبـارة عـن قطعـة قمـاش سـميكة فـي أسـفلها تثقالـة و تعلـق فـي السـقف، و يتدلـى منهـا حبـل عنـد سـحبه الـى الأسـفل تتحـرك المروحـة جيئـة و ذهابـا. و منهـا مـا

غايب دكة الدكان و ألقى التحية، فيلتفت ناجي الحلاق مرحباً. جلس غايب، و راح يستمع لحديث يدور بين الحلاق و نسيبه الصبي شمران، عن الملك و الإنقلاب و الثورة، و لم يفهم غايب أغلب حديثهم . . و ينتهي الحلاق من قص شعر الصبي و يقول له:

- نعيماً شمران . . تدري؟

- نعم عمي أبو عدنان!

- أريدك تعرف تره آني ما يعجبني أسولف ويه ياهو اللي يجي! . . إنت . . ما شاء الله! . . راسك كلش أكبر من عمرك . . و يعجبني أسولف وياك!

يشكر شمران الحلاق و يغادر حتى دون أن يسلم على غايب . . و سيعزي غايب سلوك نسيبه هذا للعرف الشائع و هو أن يتوارى كل الرجال من أهل العروس عن رؤية الرجل الذي سينكح إبنتهم تلك الليلة و لا يتحدثون معه . . و لِمَ لَمْ يفعل أخوه القيرواني ذلك؟ . . و جالساً تحت يد الحلاق، إشتغل موسى و مقص ناجي، دون أن يتبادل مع غايب و لا حتى كلمة واحدة . . و بإنتهاء الحلاقة، ينهض غايب من كرسي الحلاق، و يسمع من ناجي:

- نعيماً عرّيس! . . وين چنت تحلق راسك گبل ما تجي هنا عندي؟

- يم عباس أسد داداش المزيّن . . گبال گهوة عباس تيتي!

يُخرج غايب كيس نقوده من عبّه، و ينقد الحلاق قطعتي نقد معدنية من فئة درهم[25] . . فيعلق ناجي:

- يا عرِّيس . . هذا هوايه! . . كلش هواية! . . شدعوه هلگد؟

يشبه المروحة المنضدية المعروفة التي تدار يدويا بمقبض في الخلف.

٢٥ إسم «درهم» كان يطلق على قطعة النقد المعدنية من فئة «٥٠ خمسين فلسا»

و يرد غايب:

- لا مو هواية عمي أبو عدنان . . اليوم يوم عرسي . . و مو بس هذا!

- لعد؟

- لأن آني راح أجي يمك على طول!

و ينقد غايب صبي المروحة قطعة نقد من فئة . .قران[26] . . و يغادر.

قبيل الظهر يعود غايب الى الكازينو، فيجد حسن الدماري واقفاً في باحة الكازينو مصعوقا من الأحداث، و حسين گطمة بإنتظاره في داخل الغرفة. عددٌ من موظفي المصرف يقفون على الرصيف أمام باب المصرف يستمعون مبهورين لهتافات الحشود تصل أصواتهم من بعيد، تحمله إليهم الريح الشمالية الغربية، يسمعونها كأنها همهمات بعيدة . . و مرور المركبات و عربايـن الربل ذاك اليوم بدى نادراً . . الكل مصابٌ بصعقة و ذهول لا سبيل لهم بتفسيرها . . من بين موظفي المصرف سينسلخ برهان الريس الموظف الشاب و يعبر الشارع ليسأل غايب:

- غايب رحمة لوالديك . . التلفونات مگطوعة . . نريد نفتهم شصاير بالولاية! . . هذا الصياح اللي دا نسمعه يشبه صوت المظاهرات مال الستة و خمسين . . و يشبه صياح السجناء مال سجن بعقوبة لما يقرون الصبح نشيد . . سنمضي . . سنمضي . . و يوصل للبيوت القريبة من السجن! . . شنو القصة طلعوهم من السجن؟ . . و شكو شصار بالسوگ؟

فيرد غايب:

- إستاد برهان . . الدنيا مگلوبة گدام گهوة حسين صفاوي و گهوة مجيد محسن . . هناك جماعة واگفة تصيّح . . و هنا أكو جماعة واگفة

٢٦ «قران» هي التسمية الشعبية الشائعة في تلك الآونة لقطعة النقد المعدنية من فئة « ٢ فلسين»

تصيّح . . و يگولون ما بقت لا سيارة و لا عربانة بسوگ بعگوبة . . كلها راحت للهويدر و خرنابات و بهرز و للعبّارة و لأبو صيدة حتى تجيب ناس للمظاهرات . . يگولون صارت جمهورية . . و الملك طردوه!

يضحك برهان الريس ضحكة لم يكن مجملها قلق كبير تبدّى على وجهه فحسب لسماعه الخبر، بل و عبّرت أيضا عن إرتجاف يجتاح كيان موظف المصرف من قمة رأسه الى أسفل قدميه . . و يهمّ برهان الريس مستديراً للعودة الى المصرف، و بإستدارته مواجهاً الشارع، يتوقف فجأة ليتفرج في هذه الأثناء على عربات عسكرية تمر متوجهة الى داخل مدينة بعقوبة . . هذه هي المرة الأولى التي يُرى فيها إنتشارٌ للجيش في المدينة. و بعد أن يمرّ طابور طويل غير معتاد من العربات العسكرية مشيعاً بنظر الواقفين أمام الكازينو، سيعبر برهان الريس الشارع عائداً إلى المصرف.

قلق غايب يتزايد حول مصير زفافه الذي هدده مجئُ حدثٍ قلب المدينة رأساً على عقب . . كان حسين گطمة قد جلب معه من الهويدر قدراً كبيراً فيه رز و فوقه دجاجتين مقليتين، طلب من أمه إعداده إكراماً لزواج صديقه غايب، ليكون وجبة الغداء في الكازينو . . و سيتبرّع صُبيح الدنداوي بفتح منقلته مساءً ليطعم على حسابه الخاص المشاركين في زفة العريس و يغلقها بعد عشاء جمهور الزفة ليكون بينهم للذهاب بالعريس الى عروسه في زفة راجلةٍ و على ضوء اللوكسات، حيث تنتظره عروسه في دربونة أم الدجاج.

فسحة الزمن بين تناوله الغداء بشهية عائمة مع حسين گطمة و حسن الدماري و حتى شفق الغروب، ستظل روح غايب تلوب. يرتفع بها من ناحية إستحضاره لوجود أميرة عروسه في مخيلته، و يطيح بها من ناحية أخرى ما يجري أمامه في الشارع من خواء و إمتلاء متناوبين عند أناس أغلبهم لا يعلمون ما يجري و كأنه طرقٌ على باب المجهول

. . لم يكن ليستقرَّ أبداً، فوجدت نفس غايب له العذر لعبور الشارع مرات عديدة الى حديقة المصرف ليربط خرطوم المياه و يفتح الصنبور و يرش الشارع، و المهمة صارت واجبا للدماري منذ إلتحاقه بالكازينو . . و ها يغرق الشارع بالمياه دون أن ينتبه، مع أن حرارة الجو اللاهب كانت لا تتيح للماء فرصة بقاء على الأرض لتنقع . . و تراه يذهب مرات عديدة بالتناوب مع مرات رش الشارع، الى داخل صالة العرض ليتأكد من إعداد قناني المشروبات الغازية لجولة بيع المساء داخل الصالة . . أي مساء و أي جمهور سيأتي ذاك المساء! . . و لتأخر مجئ صُبيح الدنداوي، الذي إعتاد كل يوم على المجئ وقت العصر لإعداد منقلته لجولة عمل المساء . . من يدري؟ . . قد لا يأتي! . . قد لا ياتي صبيح لأنه سبق و رآه مشغولا بحماس في جو المظاهرات! و ها هو يطلب من الدماري إخراج المنقلة و عدتها و تحضيرها. و الدماري منشغل بالأمر، جاء صُبيح الدنداوي من جهة السوق و ما يزال ببدلة العمل الزرقاء . و يشكر الدماري و يطلب إليه ترك الباقي له ليقوم به بنفسه . . و يدنو منه غايب، فيعلق صُبيح:

- شنو هاي غايب؟ . . الدنيا مگلوبة و إنتو هنا ده تسمعون أم كلثوم تصيّح . . دليلي إحتار . . أغلگوا المسجّل لخاطر الله!

يتوجَّه غايب بعجالة نحو المسجّل و يوقفه، ثم يعود الى صُبيح متسائلاً عما يحصل هناك في السوق، فيعلق صُبيح مجيباً و بعجب:

- . . غايب هذي ثورة! . . تعرف يعني شنو ثورة؟ . . الظلم راح الى غير رجعة . . و اللي راح يجي . .

و قبل أن يسترسل الدنداوي في تفسيره لغايب، يقاطع الموقف شابٌ مارٌ بسرعة خاطفة على دراجة هوائية، و هو يصرخ:

- مات الملك! . . شوفوه بالتلفزيون! . . مات الملك! . . سحلوا الوصي عبد الإله بشوارع بغداد . . شوفوه بالتلفزيون! . . يعيش جمال عبد

الناصر قائد الأمة العربية!

و يعلّق صُبيح قائلاً:

- هاك غايب! . . سمعت؟ . . هذي هي الأخبار!

أول ما يعنَّ لغايب في خاطره . . ليش مات الملك و منو موّته؟ . . و ليش سحلوا عبد الإله الوصي؟ . . طالما كان غايب قد إعتاد على تشغيل شريط لأم كلثوم على المسجل منذ أوقات العصر، لم يكن ليعتاد على فتح الراديو، و لا التلفزيون إلا في أوقات متفرقة . . ذاك المساء و بسبب إنشغاله بقلقه، صحيح أنه شغّل المسجل، و لكنه نسي أمر التلفزيون تماماً ناقلا للأخبار، إذ لم يكن ليتصور قط بأن أمراً جللاً من النوع الذي حصل قد يعرض في التلفزيون. راح ليوقف المسجل و يفتح التلفزيون . . ينتظر لثوان، فإنضاءت الشاشة الصغيرة، و ظهر مذيع بملابس عسكرية يقرأ بياناً لمجلس قيادة الثورة يُمنع بموجبه التجوال أثناء ساعات الليل في عموم العراق. لم ينتبه غايب لجمع الأشخاص الذين توافدوا و وقفوا حوله يتفرجون، لم ينتبه بخاصة لمجئ حسين گطمة و صُبيح الدنداوي و وقوفهما غير بعيد عنه. ثم راح المذيع بعدها يتحدث عن مقتل الملك فيصل الثاني و الوصي عبد الإله و بعض أعضاء الأسرة الملكية من النساء، ثم عُرض فيلم قصير عن سحل جثة الوصي في شوارع بغداد، و صفق بعض الواقفين لقتل الأسرة المالكة . . و ها هو غايب يرتاع و هو يسمع حسين يدمدم بصوت مسموع:

- هذا الملك المسكين! . . طلّعوه من الوظيفة فهمناها! . . بس ليش قتلوه؟

و يعلق غايب:

- إي صدگ ليش قتلوه؟ . . و منو قتله؟

يحس غايب بيد تمسك به من زنده، يلتفت فيجد صُبيح الدنداوي ممسكا

بـه بقـوة قائـلاً:

- صحيـح يـا جماعـة . . هـذي ثـورة! . . و فهمناهـا! . . أمـا ليـش إنقتـل الملـك و منـو قتلـه فهـذي ممكـن نفهمهـا بعديـن!

و يطلب صُبيح من غايب أن يغلق التلفزيون، مضيفاً:

- . . إحنـه اليـوم هنـا بكازينـو أم كلثـوم . . الليلـة ورانـه عشـاء و زفـة . . تعالـوا يـا جماعـة!

كلمـات الدنـداوي الأخيـرة ستُنعِشُ روح غايـب القلقة التـي تتناوبهـا الإنفعالات حـول مصيـر عرسـه . . جـاءت كلمـات الدنـداوي لتزيـح بعضـاً مـن قلقـه و تشيع فـي قلبـه راحـة كان بحاجـة إليهـا، لدرجـة أنـه أحس و كأنـه غـُمر فجـأة فـي سـطل مـاء بـارد. أغلـق التلفزيـون، و سـط إحتجـاج الواقفيـن. و لكنـه لـم يعبـأ بهـم، فإنفضـوا. و لحـق غايـب بالدنـداوي، الـذي سـأله:

- حضرتو اللوكسات؟

- إي . . حسين حضّرهن!

و إنتظـاراً لجمـرات منقلتـه تتقـد كفايـةً للشـيّ، بعـث صُـبيح بأخيـه برهـوم عريضـي لجلـب اللحـم و الخضـار مـن داره القريـب، فذهـب برهـوم برمـاً و رغمـاً لا بطـلاً.

جو الهيجـان فـي البلـد مستمرٌ الليلـة. و لـم يكـن مـن المعقـول توقـع مجـئ أحـد الـى المكان، سـواء أكان جمهـوراً للسـينما أو روادأ للكازينـو . . و كان ناجـي و يهـودا قـد حضـرا الـى دار العـرض السـينمائي ربمـا لإشـباع فضولهمـا حـول مـا يجـري فـي البلـد و البلـدة . . و شـوهدا يتمشـيان متكتّفيـن، جيئـة و ذهابـاً امـام واجهـة دار العـرض . . ناجـي بقامتـه المديـدة و هندامـه الأنيـق جـداً و كأنـه هـو العريـس الـذي سـيُزَّف . . و يهـودا بقامـة أقصـر بقليـل مـن قامـة اخيـه و هندامـه اللافـت . . و غيـر بعيـد عنهمـا علـو الدنـداوي يهـرول بمشـية

قلقة، و كأنه يقلد سيديه.

و ها هو العشاء يُجَّهز، موضوعا على أربع طاولات كبيرة من طاولات الكازينو مرصوفة جنب بعضها . . أسياخ كباب مشوية بالعشرات، و حولها توزعت صحون فيها سلطات من الخيار و الطماطة و البصل و الكرفس و الصمون على مائدة يتجاوز طولها الأربعة أمتار . . و أثناء هذا وقفت أمام الكازينو عربانة ربل نزل منها ماهي العربنچي. لاحظ صُبيح الدنداوي مجيئ العربانة، و توجه نحوها يلحق به غايب و حسين گطمة، ليتفرج على الزينة التي إنعقدت على رأسي حصاني ماهي، ببعض أشرطة القماش الملونة الطويلة، و يصح صُبيح:

- غايب . . تعال يابه! . . تعال شوف عمك ماهي شمسوي!

يدنو غايب من العربانة يتبعه حسين گطمة ليتفرجا على حصاني ماهي، فيعلق حسين:

- هاي شنو عمي ماهي؟ . . و الله عاشت إيديك . . بس ها الزينة اللي على راس الحصان للثورة للإنقلاب . . لو لعرس غايب؟

- عمي يا ثورة! . . يا إنقلاب! . . يا بطيخ! . . يا شجر حجي أحمد! . . يا شجر أسكله! . . يا شجر عراگي! . . هذني كلهن لعرس غايب . . عمتكم صديقة مرتي أم وحيد . . گولو عاشت أيديهه!

و يصيح الجمع:

- عاشت إيديهه لأم وحيد!

فيضيف ماهي:

- . . خرگتين عتيگات شگِگتهن و سوتهن شرايط . . . و گالتللي شدّهن على راس الحصونة للزفة.

غارقون في قهقهاتهم و دون أن يدرون، إصطف وراء عربانة ماهي عدد من العربانين، و نزل منها هوبي علج العربنچي و إبراهيم عيادة العربنچي و هادي العربنچي و أبو يحيى العربنچي و إسماعيل العربنچي و أحمد گلاز العربنچي و محمود گلاز العربنچي و أبو زكية العربنچي، و نزل من عربانة أبو زكية قدوري الطبلچي و معه علي الأعمى زمّار الفرقة الموسيقية!

يتفرجون على صف العربانين الذي تجاوز طوله واجهتي السينما و الكازينو، و يصيح صُبيح الدنداوي مخاطباً غايب:

- و لك غايب! . . هذي الزفة مالتك راح تصير بقطار مال عربانين! . . تحيا الثورة! . .عاش الشعب! . . عاش عرس غايب مرهون!

يضج الحاضرون بالتصفيق و الضحك، ليلتئم الجمع مرة أخرى عند حصاني ماهي المزوقين، و يعلق ماهي مخاطباً غايب:

- إسمع غايب! . . هذوله العربنچية السرسرية إذا راح يگولولك هُمَّ جايين يزفوك هيچي لوجه الله و لخاطر أبوك مرهون العربنچي الله يرحمه . . لا تصدگّهم! . . لأن هُمَّ أصلاً ما چان يجون لو مو يسمعون مني السالفة بيهه كباب دهين مال لحم غنم من إيد صُبيح الدنداوي!

و تُغرِقَ ضحكات الجمع و قهقهاته الشارع مرة أخرى.

بوصول أبو دعوچة . . نادى صُبيح الدنداوي الجميع لتناول العشاء. و تلفت الجميع من حولهم، و لم يروا ثمة في الكازينو سوى أنفسهم . . غايب . . حسين گطمة . . صُبيح الدنداوي . . حسن الدماري . . أبو دعوچة . . عامل صبي جديد إلتحق بالكازينو للبيع داخل صالة العرض . . إبراهيم أبو العنبة . . ماهي العربنچي و معه جميع عربنچية بعقوبة تقريبا . . الزمّار و الطبّال.

متوجهاً بنظره نحو باب دار العرض حيث كان ناجي و يهودا و علو الدنداوي و برهوم عريضي . . يقترح حسين گطمة على غايب أن يذهب لدعوة ناجي و يهودا لتناول عشاء العرس و يدعو معهما علو الدنداوي و ولده برهوم اللذين كانا مدعوين أصلاً، فيؤيد صُبيح الفكرة بحماس، معلقاً:

- و الله فكرة ممتازة! . . بيوم الثورة و العرس . . هذي راح تصير لمة ثورية بحق و حقيقي!

يتوجه غايب نحو باب السينما لتوجيه الدعوة، و يلبى الجميع الدعوة و يجيئون.

وقف ناجي و يهودا بهيبتهما البرجوازية، على رأس المائدة الطويلة نسبياً، كأنهما ملك و ولي عهده بين رعاياهما، في حين وقف على رأسها الآخر صُبيح الدنداوي ببدلة العمال الزرقاء، و إصطف الآخرين وقوفا على الجانبين.

صمت الليل يحيط بالكازينو و السينما، و ما تزال ريح الشمال تحمل إليهم هتافات الجمهور من بعيد و قد باتت أكثر وضوحاً . . تناول جميع الحاضرين عشاءهم، و كأن البلدة لا أحد فيها غيرهم، بل و كأن بعقوبة البلدة لا مكان فيها سوى سينما ديالى و كازينو أم كلثوم، و لا أحد فيها سوى الجمع الملتم على عشاء غايب مرهون. و سيشربون شاياً من يد الدماري.

و سيشكر غايب أمام الجميع صُبيح الدنداوي على دعوة العشاء التي أعدها ليوم زفته، فيعلق صُبيح:

- عيني هذا العشاء مو بس لعرسك!

يسأله و الده الدنداوي:

- لعد! . . و لمن بعد؟

فيرد الإبن بحماس:

- . . و لعرس الثورة!

يهزّ الدنداوي الأب رأسه أسفاً على ما يتفوه به إبنه البكر.

و يتلقى غايب تهنئة ناجي و يهودا و يشكراه على دعوته لهما، و يفعل مثلهما الدنداوي الأب و ولده برهوم، و يغادرون عائدين الى دار السينما، متوقفين على الرصيف، يشاهدون ما يجري من إعداد لزفة غايب . . إنشغل عامل الصالة بإزالة بقايا المائدة، في حين أخذ صُبيح و حسين گطمة غايب ليعدوه للزفة، و لحقهم الدماري، و بقي ماهي في باحة الكازينو الخالية و معه باقي العربنچية و الفرقة الموسيقية.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مهما حاولا، صُبيح و حسين گطمة عجزا قبل أيام بإقناع غايب التخلي عن الزي الذي إشتراه من حيدر مزبوت لأنه لا يليق بعريس، فأبى إباء تاماً أن يفعل و يلبس غيره. و أخيرا أقنعه حسين قبل يومين بشراء قميص و سروال و زوج حذاء من معرض شركة باتا لتكون هذه قيافته يوم عرسه. . يدخل غايب الحمام و يحلق ليغسل بدنه و يعود الى الغرفة، ليخرج ملبسه الجديد، و يتمنطق بحزامه المعتاد، و يتعطر بعطر زيتي رخيص. و مثلما كان يفعل سابقاً، يفتح زرار قميصه ليضع كيس نقوده الخامي في عبّه، و حين يراه حسين سيخمط الكيس من يده، معلقا:

- عيوني غايب مو اليوم! . . مو اليوم تحط چيس الفلوس بعبّك! . . أجِّلهه اليوم . . و خلي الچيس بالديلاب و أقفله!

و يمتثل غايب لإقتراح حسين . . و هكذا سيمسى غايب مستعدا لزفته.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مساء الرابع عشر من تموز 1958 . . كانت العادة ما تزال دارجة في بعقوبة، يُزَّفَّ العريس مأخوذاً بعد صلاة العشاء، من قبل أقاربه و أصدقائه و معارفه، على ضوء اللوكسات، مشياً من مقهى قريب الى بيت العرس على أنغامِ طبلٍ و مزمارٍ يصاحبهما غناء تؤديه شلة العريس، غناء ينضحُ في الغالب بإشارات إباحية و سوقية فاضحة. و ما أن يوصله الزفّافة الى البيت، و قبل أن يدخل العريس على العروس، يُباح عند باب بيت العرس لبعض الشلة المقربين، و كأنها لحظة توديع للعزوبية، أن يشبعونه على عَجِزهِ تصبيعاً، أو وخزاً بإبرة أو دبوس، أو لكزاً بجماع الكف على مؤخرة العريس، مع الحرص على وضع وسطى الأصابع في نقب العريس، أو يقرصونه قرصاً بليٍّ، و هو لا يستطيع الرد عليهم طبعاً، بسبب حراجة الموقف!. . و بعدها يدخل على العروس، ليرفع عن وجهها برقعها، و يقبّلها على جبينها. ثم يخرج ليشكر من سار معه الى بيت العرس.

كازينو أم كلثوم لم تكن بحساب العامة مكاناً قريباً من بيت العرس، و لطول المسافة بين البيت و الكازينو، وضعت قبل يومين خطة لزفة غايب مرهون على أميرة الأحمدي . . يجئ ماهي العربنچي و معه عربايِن ربل أخرى من بين زملائه مع عربانته الربل، لتحمل موكب العريس و المشاركين في الزفة من الأصدقاء و أخويّ العريس و بعض رواد الكازينو الذين صاروا من معارف غايب، تأخذهم من الكازينو الى بيت العرس . . و مع كل عربانة يرفع لوكس يضئُ الطريق، يجلس حامله مع العربنچي على دكة القيادة. تأخذ العربايِن الربل موكب العرس الى فتحة دربونة أم الدجاج المقابلة لمرقد الستمومنية، و من هناك تدخل الزفة مشياً الى بيت العرس . . بهذا الترتيب، أراد حسين گطمة و صبيح الدنداوي لزفة غايب مرهون في العربايِن الربل أن تكون سابقة لا مثيل لها في بعقوبة، مثلما كان تَشييّعُ جنازة مرهون العربنچي حدثاً فريداً لم تكن له سابقة في بعقوبة!

حساب بيدر يوم الإثنين الرابع عشر من تموز 1958 غير حساب الحقل

قبل يومين! . . لم يحضر أخوا غايب الى حفل الزفة، ربما لجبنهما و خشيتهما من عاقبة ما حصل في يوم حدث دراماتيكي تموزي من نوع قُتل فيه الملك فيصل الثاني و قُتل معه خاله الوصي عبد الإله و سُحِلَ في شوارع بغداد، و هو حدث قد يكون أصاب أخوي غايب بالرعب . . و من رواد الكازينو لم يأت أيضا أحد ليكون لموكب العرس جمهرة و جمع كثير!

الأمسية فريدة من نوعها و بموكب فريد من نوعه في حدث مواز لحدث فريد من نوعه . . و ها هو غايب قد يُجَهَّزُ للذهاب الى عروسه . . و شلة موكب عرسه تتكون من ماهي العربنچي ربان سفينة موكب العرس و حسين گطمة و صُبيح الدنداوي و الدماري، و إبراهيم أبو العنبة، و العربنچية الآخرين و الزمّار و الطبّال، تاركين الكازينو برعاية عامل الصالة لغاية عودة زفافة العريس.

ماهي المدير السائح لإعلان سينما ديالى في بلدة بعقوبة، و لأن عربانته هي كابينة الدعاية المتجولة لسينما ديالى، ستكون عربانته كابينة إعلان زواج غايب، و ها هو كما يفعل كل يوم يحمل الطبّال و الزمّار ليعلنا عن فلم الزفة بالطبل و المزمار و يكونا إشارة النور للعرس . . تليها عربانة محمود گلاز المعروفة في بعقوبة كابينة إعلان سينما الزيدي لتكون مقصورة العريس و بجانبه صُبيح الدنداوي إشبينا، و الدماري الى جانب محمود يجلس ليحمل لوكساً منيراً. و حسين گطمة في العربانة الثالثة الى جانب هوبي علچ و بيده لوكسٌ منيرٌ، و أبو دعوچة على دكة إسماعيل العربنچي و معه لوكسٌ منيرٌ. و في العربانة الخامسة إبراهيم أبو العنبة على دكة الحوذي أبو يحيى يحمل لوكساً منيرا. و تتبعها عربانات أبو زكيه و أحمد گلاز و إبراهيم عيادة مكتفية بأصحابها كومبارس الزفة!

ماهي قبل أن يهمَّ بالصعود الى مقعد صدر العربانة، يدنو من عربانة محمود گلاز، مخاطبا غايب:

- أگـولك عرِّيس؟

- بلي عمي ماهي!

- . . تتذكـر شـگِـلتلّكْ يـوم رحنــا ندفـن أبـوك مرهـون الله يرحمــه. . و إذا تتذكـر ذاك اليـوم همـين چانـت الدنيـا مـگـلوبة علـى هـذي الولايـة اللـي بمصـر و يسـموهه بـوري سـعيد . . مـو گـِلْتلّكْ إنشـاء الله آنــي أزفـك لعروسـك بهـذي العربانــة؟

- صحيح . . عيوني عمي ماهي . . عيوني! . . و آني أشكرك.

- و هسـه ده تشـوف بعينـك . . هـاي آنـي دا أوَفــّي بوعـدي حتـى لـو چــانت الدنيـا مـگـلوبة بهالبلـد مثـل مـا هـي مـگــلوبة اليـوم! . . لا مـن طيـزي ثـورة! . . الملـك ليـش قتلـوه! . . يللـه مـا علينــه! . . اليـوم راح أوديـك لدربونـة أم الدجـاج و أريـدك تصيـر عِرِّيـسْ أخـو أخيتـه و تطحنهـا طحنـة زينـة لهـذي بنـت نزهـان البگــال!

يبتسـم غايـب خجـلا و بحماسـة يطلـق صـُبيح قهقهـة ثوريـة . . و يشـكره كلاهمـا لوفائـه بعهـده. و يتوجـه ماهـي صاعـدا الـى عربانتـه . . يرفـع سـوطه ليمـس بـه ظهـر حصانيـه برفـق صائحـا عليهمـا:

- چـغ چـغ چـغ . . ديخ! . . چـغ چـغ چـغ . . و لك ديخ! . . و لك ديخ . . و لـك حصـان إبـن الحصـان! . . مـو دا أگـللك . . ديييييييـخ!

ولـك ديـخ . . و لـك حصـان إبـن الحصـان . . و تنطلـق الأحصنـة تعـدو هينـاً، و تنطلق معهـا ضربـات الطبـل و نفثـات المزمـار لتهـز صمـت الشـارع الكابـي الإضـاءة . . و مثلمـا ينطلـق كل يـوم فـي عربانتـه، ليعلـن عـن إسـم الفلـم المعـروض فـي دار سـينما ديالـى و أسـماء أبطالـه، إنطلـق ماهـي فـي أولِ ليـلٍ يلـي نهـار الرابـع عشـر مـن تمـوز 1958 الملتهـب بعربانتـه، ليعلـن طبلهـا و مزمارهـا عـن زواج غايـب مرهـون بكـر مـن الصبيـة أميـرة نزهـان الأحمـدي. و هـا هـي عربانـة محمـود گـلاز تنطلـق إثـره، و لـم ينـس محمـود

دوره إعلاميا بالهجة المصرية لسينما الزيدي، و يروح هو الآخر يرخي رسنَ الحصانين، ضارباً به فوق ظهريهما ضرباً رحيماً، مطلقاً نداؤه لحصانيه:

- چخ چخ چخ . . ديخ! . . چخ چخ چخ . . و لك ديخ! . . الليلة دي هتشوف دربونة أم الدگاگ أحلى فلم . . من بطولة الود الحليوة غايب مرهون العربگي و بنت نزهان الأحمدي!

لم يذكر محمود گلاز إسم العروس، أما لأنه لا يعرفه أصلاً، إو لربما تقيُّدا بالتقليد الشائع بعدم ذكر إسماء الإناث أمام الملأ لأنه تابو!

و ها هي باقي العربانات تنطلقُ و كأن أحصنتها ترقص على دق الطبل و المزمار . . سمفونية الخيل! . . موكبٌ مهيبٌ في زفات الأعراس لم تشهد له بعقوبة مثيلا من قبل، و لربما لن تشهد مثيلا له من بعد في تاريخها اللاحق . . و ها هو قطار العربانات يُشيِّعُ من بعيد بنظرات ناجي و يهودا، و كانا ما يزالان واقفين أمام دار العرض يتفرجان بوجهين منفرجين عن إبتسامة للمفارقة الحاصلة . . ملك قُتل و ولي عهد سُحل و رئيس وزراء ما يزال هارباً و مختفياً . . و يتزامن مع الحدث العام عرس لمنتسب من منتسبي مؤسستهما التجارية في زفة تحملها عربانات الربل لأول مرة في تاريخ بعقوبة . . الإثنان يتفرجان منذ البدء على ترتيبات زفة غايب مرهون، و معهما علو الدنداوي و ولده برهوم. واقفون جميعا يشيعون بنظراتهم الزفة العجيبة الغريبة الفريدة من نوعها في توقيت و زمن غريب، في حين كان مكبر الصوت في واجهة دار السينما الذي وضعه تلك الليلة ليون الأرمني مشغل ماكنة السينما على إذاعة بغداد ينقل مباشرة صوت محمد عبد الوهاب، يضج به الشارع الخالي تقريباً . . يا سماء الشرق طوفي بالضياء . . و أنشري شمسك في كل السماء . . أذكريه وأذكري أيامه بهدى الحق و نور الانبياء . . تا تا تا تا ر م . . كانت الدنيا ظلاماً حوله . . تا رم . . و هو يهدي بخطاه العابرينا . . تارارا رم . . أرضه لم تعرف القيد . . تا رم . . و لا خفضت إلا لباريها الجبينا . .

تـا تـا تـا تـا ر م . . كيف يمشـي فـي ثراهـا . . تـا رم . . غاصـب يمـلأ الأفـق جراحـاً و أنينـا و أنينـا . . كيـف مـن جناتهـا يجنـي المنـى . . تـا رم . . ونُـرى فـي ظلهـا كالغربـاء كالغربـاء . . تـا رم!

ماهـي يتـرك عربانتـه تتهـادى فـي سيرها كـي لا تقطـع خيلـه الشـارع نهبـاً مثلمـا تفعـل خيلـه فـي جـولات الإعـلان عـن أفـلام السـينما مخترقـة دروب بعـقوبة الطويلـة . . يتأنـى و كأنـه يريـد أن يُـتيح لقطـار زفـة غايـب أن يقتطـع مـن زمـان بعقـوبة مهلـة مـن الدهـر الضِبعـان أطـول مـا يسـتطيعه القطـار، و مـن ورائـه موكـب العـرس، و كأنـه فعـلاً يفعـل مـا يفعلـه كل يـوم بطوافـه البلـدة بمانشـيتٍ كبيـرٍ للفلـم المعـروض فـي سـينما ديالـى و معـه الطبـل الـذي يلفـت إنتبـاه النـاس للمانشـيت الـذي تحملـه العربانـة، و لكنـه اليـوم و الليلـة يفعلـه بـكل تـؤدةٍ . . ماهـي هـذه الليلـة ليـس مسـتعجلاً تـاركا حصـانيـه يخبـان علـى هديهمـا، كـي يعطـي للنـاس فرصـةً ألا يفوتهـم سـماع إسـم دار العـرض . . دربونـة أم الدجـاج . . و إسـم الفلـم الـذي يعلـن عنـه . . زواج غايـب مرهـون العربنـچـي مـن الصبيـة أميـرة نزهـان الأحمـدي . . لغايـة أن وصلـت العربانـة تقاطـع شـارع الشـاخة مـع شـارع العنافصـة. و كأنـه يظـن بـأن المزيقـة التـي تعـزف فـي عربانتـه غيـر كافيـةٍ للإعـلان عـن الـزواج، لـم يحتمـل ماهـي الصمـت الـذي كان عليـه و إنطلـق كعادتـه يوميـاً بصوتـه الـذي إعتـاد علـى إختـراق صـوت المزيقـة:

- يابـه . . اليـوم اليـوم . . اليـوم أحلـى فلـم! . . عـرس مـن بطولـة غايـب مرهـون صاحـب كازينـو أم كلثـوم و بنـت البـگال نزهـان الأحمـدي . . و لـك ديـخ! . . اللـي يريـد يخـش بالزفـة خلـي يلحـگـنا لدربونـة أم الدجـاج . . يابـه اليـوم أحلـى فلـم!

و حيثمـا تمـرّ عربانتـه، يسـمع النـاس المفارقـة الكبيـرة فـي إعـلان الفلـم الـذي يـروج لـه ماهـي ليـل الرابـع عشـر مـن تمـوز، فيـزدادون ذهـولا علـى الذهـول الـذي أصابهـم أثنـاء النهـار التمـوزي . . و هـا هـي تجمعـات النـاس الصغيـرة تغـرق فـي الضحـك . . أوليـس هـو المعـروف فـي البلـدة، لا غيـره، بمهـرج

البهجة السينمائية! . . و ها هو موكب العرس يدنو من مقهى مجيد محسن حيث صار حشد المرحبين بالحدث التموزي كبيراً جداً و ما يزال يهتف للحدث الذي شغل بال عالم الكرة الأرضية برمته ذاك اليوم . . سنمضي سنمضي الى ما نريد . . وطن حر و شعب سعيد! . . الحشد المتجمهر يردد هتافا يشق عنان السماء و يبدد ظلمة الليل . . إزاء هذا الحال في الشارع قد لا يغدو يسيرا إختراق حشد يغطي الشارع، و الطريق كله مأخوذا بالحماس الى حد الجنون و هو يهتف بحرية لشعار آمن به الجمهور، جمهورٌ يتماهى تمام التماهي مع ما ينشدونه . . سنمضي سنمضي الى ما نريد وطن حر و شعب سعيد! . . و حين يسكتون يُسمع صوت خافت ينبعث من الراديو داخل المقهى لمجموعة منشدين فيصل الى الشارع خافتا . . وهذه بغداد تبدو عن قريب فتانة عند الأفق . . و تتبعها أم كلثوم بصوتها الرخيم . . نَسيمُها ما أعطَرَهْ و زرعُها ما أخضَرَهْ . . سنمضي سنمضي الى ما نريد وطن حر و شعب سعيد! . . و يُسمع مرة أخرى من الراديو صوت أم كلثوم . . بغداد يا ذات القطوف الدانية يا جنة الدنيا و يا ظل الأمان . . دار السلام والنعيم ومنزل الروح الكريم . . هواؤها ما أطيبه! و هنا سيضطر ماهي الى أن يبطئ أكثر من سير حصانيه، و هو يسمع الحشد و يراه كأنه يصلي مستمعاً الى أم كلثوم تغني عن بغداد . . و ما أن إنتهت أم كلثوم من نشيدها صاح الحشد . . سنمضي سنمضي الى ما نريد و طن حر و شعب سعيد!

و ها هو صبر ماهي يكاد ينفذ، و لم يكن أمامه إلا أن يصرخ:

- بالك! . . و لك عمي بالك! . . بالك! . . بالك عمي! . . يا وطن! . . يا حر! . . يا شعب سعيد! . . عمي بالك!

ها هو الحشد يُهدّئُ نوعما من حماسه الإنشادي بتأثير صراخ شخصية ماهي الإعلانية البارعة، يرافقه تأثير المزيقة المنبعثة من داخل العربانة، و يستدير الجمهور أغلبه ليرى موكب العربانات كأنه قطار تجره الأحصنة

. . و لربما ظن بعض جمهور الحشد إن أحداً ما قد يكون أتى بالمزيقة و سيّرها إحتفاءً بالثورة القائمة، فسكن الحشد عن هتافه. عندها و بفطنة و دراية مدير إعلان، أستغل ماهي السكون النسبي و راح يطلق إعلانه:

- يابه . . اليوم اليوم! . .اليوم أحلى فلم! . . عرس من بطولة غايب مرهون صاحب كازينو أم كلثوم و بنت البگال نزهان الأحمدي . . و اللي يريد يشوف فلم الزفة خَلْ يلحگنا لدربونة أم الدجاج!

و يتخلخل طارف الحشد الكبير تخلخلا كافيا، متهيئً بعفوية لينشق الى صفين فاتحاً الطريق بحياء، و ستسير عربانة ماهي وسطه، و يغلب صوت ماهي صوت الحشد الصارخ لوطن حر و شعب سعيد:

- يابه . . اليوم أحلى فلم! . . عرس غايب مرهون صاحب كازينو أم كلثوم و بنت البگال نزهان الأحمدي . . ديخ! . . أحلى فلم! . . و لك ديخ! . . أحلى فلم لأحلى بطلين . . غايب بن مرهون العربنچي صاحب كازينو أم كلثوم و بنت البگال نزهان الأحمدي!

المحتشدون يتفرجون على موكب عربانات الربل تتبع عربانة ماهي . . حدثٌ فريدٌ بنوعه و غرابته. و جِدَّتُه تتماهى مع جِدَّةِ حدث اليوم المجلجل . . عربايـن بعقوبة جميعا مصطفة على هذا النحو كأنها قطار مسافرين للمستقبل تخترق مدينة بعقوبة من جنوبها الى شمالها على طول الشاخة و عكس مجرى مياه الشاخة . . و تمر عربانة ماهي و هو يعلن عن فلم الليلة يرافقه الطبل و المزمار . . و بمرأى الحشد الكبير لعربانة محمود گلاز تمر و فيها غايب و بجانبه رفيقهم صبيح الدنداوي الذي يعرفونه، و على الأرض بين الحشد حسن وهابي النجار و علي حسين مطر المصور . . و ها هو محمود گلاز يعلن بلهجة مصرية معروف بها بإعلانه لسينما الزيدي:

- الليلة دي . . أحلى فلم . . لأحلى عريس حليوة غايب مرهون العربگي بتاع كازينو أم كلثوم و بنت الخضري نزهان الأحمدي . . ديخ! . .

أحلـى فلـم!

و ما أسرع أن يطلق حسن وهابي بسيمائه الساخرة إعلانه صارخاً:

- أحلـى فلـم! . . يابـه اليـوم أحلـى فلـم لأحلـى عـرس! . . أحلـى عـرس بهـذا اليـوم ويـه الثـورة! . . أحلـى فلـم لأحلـى عـرس!

و يصغـي المحتشـدون لإعـلان حسـن وهابـي، و معـه غلوبـي أبـو المعـلاگ يطلقـان إهزوجـة:

- ها . . ها . . ها . . ها رفاقي ها!

فيردد الحشد كله:

- هـــــــــــاااااااا!

- عرسـك جـا ويـه الثـورة! . . عرسـك جـا ويـه الثـورة! . . شـايف خيـر و مسـتاهلهه! . . ويـه الثـورة و تسـتاهلهه! . . شـايف خيـر و مسـتاهلهه! . . عرسـك جـا ويـه الثـورة! . . شـايف خيـر و تسـتاهلها! . . و يـه الثـورة و تسـتاهلها!

و ينضم إليهما الحشد الواقف هاتفا:

- . . شايف خير و مستاهلهه! . . ويه الثورة و تستاهلهه!

هيجـان و هـرج و مـرج تشـيعه نشـوة الجماهيـر المنشـدة . . و هـا هـي سـفينة العـرس تختـرق مـوج الحشـد أمـام المقهـى . . و الحشـد يـودع عربانـات زفـة غايـب بالهوسـات مـن وسـط الحشـد، تشـق عنـان السـماء . . شـايف خيـر و مسـتاهلهه! . . و يـا الثـورة و تسـتاهلهه! . . سـنمضي سـنمضي الـى مـا نريـد

و هـا هـو ماهـي يسـوق خيلـه مودعـاً مـن الحشـد و عربانتـه قائـدا لعربانـات

تسير من خلفها بمحاذاة الشاخة و تصدح معها ضربات طبل قدوري و تزميرات على الزمّار الحادة . . موكب عرس غايب يمر وسط إنارة الشارع الكابية، بفعل أشجار الكالبتوس الضخمة التي توارت بين أغصانها أغلب مصابيح أعمدة إنارة الشارع حاجبة إنارتها بين أوراق الشجر . . و لم تنفتح إنارة الشارع قليلاً إلا عند وصول الموكب مقهى البلم و القنطرة الذاهبة الى سراي متصرفية اللواء. و من هناك لاحت لماهي مقهى حسين صفاوي و الحشد الذي أمامها.

ماهي يدنو بخيل عربانته من مقهى حسين صفاوي تجر وراءها قافلة العربانات . . الحشد المجتمع هناك منذ الضحى الذي رآه غايب ضحىً لم ينفضَّ بَعدُ محافظاً على عنفوانه، رافعين صور عبد الناصر و صور قادة آخرين لا يعرفهم الناس . . كان الصوت المنبعث من الراديو الموضوع على الرصيف أمام المقهى يردد نشيد . . الله أكبر الله أكبر . . الله أكبر فوق كيد المعتدي . . الله للمظلوم خير مؤيد . . أنا باليقين و بالسلاح سأفتدي . . و نور الحق يسطع في يدي . . قولوا معي قولوا معي . . الله الله الله أكبر . . الله فوق المعتدي!

أول ما تبادر الى ذهن ماهي . . يا معتدي هذا؟ . . هذوله منو معتدي عليهم حتى يصيّحون الله فوق المعتدي! . . كان لا بد هنا لصوت المزيقة المنبعث من الطبل و المزمار في عربانة ماهي أن يفعل ما فعل من قبل، بأن يخلخل الوضع و يطغى على صوت النشيد المنبعث من الراديو . . مزيقة الفرح أقوى من صيحة الله أكبر! . . و مع ذلك لم يكن عناد الحشد و قِحته على إستعداد ليتركا مجالاً كافياً للعربانة تمر، و لا بد أن بعض الحشد المتجمع هنا، أو كله، قد ظن لأول وهلة بأن الموكب قد يكون تشييعاً لجنازة أحد ما متوجهاً الى جامع بعقوبة في صوب الشاخة الآخر المقابل لمقهى صفاوي، أو لربما ظن بعضهم عند سماعهم الطبل و المزمار أن أحد ما تبرع بجلب فرقة مزيقة شعبية إحتفاء بالثورة، و لكن صراخ ماهي:

- بالك! . . عمي بالك! . . بالك! . . بالك عمي! . . دير بالك عمي! . .

شـويه طريـق عمـي!

و سـر عان مـا سيتبين للحشـد أن قطـار العربانـات التـي وراء عربانـة ماهـي هـو غيـر مـا ظنـوه، بعـد سـماعهم لماهـي يطلـق إعلانـه:

- يابـه . . اليـوم أحلـى فلـم! . . عـرس غايـب مرهـون . . صـاحـب كازينـو أم كلثـوم و بنـت البـگال نزهـان الأحمـدي . . ديـخ! . . أحلـى فلـم! . . أحلـى عِرِّيـس لأحلـى عـروس!

الحشـد بـدأ يتخلخـل . . و الخلخلـة الحاصلـة ليسـت كافيـة لمـرور عربانـة ساهـي و الموكـب بسـبب عِنـاد بعـضِ المجتمعيـن و قـد تحـول الـى قحةٍ تكشـفها بعـض الوجـوه المزمجـرة عنـد سـماعهم لإعـلان ماهـي عـن فلـم الليلـة، و تتوقـف الخيـل محمحمـة . . و أثنائهـا يخـرج مـن داخـل المقهـى مزهـر الكهيـة، نسـيب صفـاوي و الرجـل الثانـي فـي المقهـى، مسـتثاراً ربمـا بإعـلان ماهـي ذكـر إسـم كازينـو أم كلثـوم و إسـم صاحبهـا غايـب مرهـون . . هـذا وحـده كافٍ لإثـارة الضغينـة ضـد موكـب العـرس و عرقلـة مسـيره بتحريـض مـن مزهـر الكهيـة . . و لربمـا ينضـاف عنـد الكهيـة سـبب آخـر هـو فرحـة صاحـب كازينـو أم كلثـوم، و صيتهـا يطغـي علـى صيـت مقاهـي بعقوبـة جميعـاً، و سمـن يتـزوج؟ . . يتـزوج مـن أخـت أميـر القيروانـي الـذي شـاع خبـر لوحاتـه عـن النسـاء العاريـات و عرضهـا بواجهـة دكانـه فـي مقاهـي بعقوبـة و كانـت داعيـا لنـزوح بعـض مرتـادي مقهـاه الـى مقهـى غنيـم السـامرلي الملاصقـة لدكانـة القيروانـي و يكـون الـرواد النازحـون علـى مرمـى حجـر مـن فرجـة لوحـات النسـاء العاريـات . . و لربمـا ظـن العـض أن الكهيـة هـو مـن حـرّض سـعد الأخـرس ضـد القيروانـي، فمـزق لـه لوحاتـه و إعتـدى عليـه بالضـرب!

ساهي لا يكف عن المحاولة لشق طريق لعربانته من بين الحشد، فيصيح:

- سـوِّي طريـق عينـي! . . بالـك عينـي! . . بالـك أبويـة . . الله يخليك عينـي! . . فلـم الليلـة أحلـى فلـم عينـي! . . بالـك عينـي! . . سـوي طريـق عينـي!

و ها هو مزهر الكهية ينتصب واقفا أمام عربانة ماهي بقامته الضخمة، صارخاً:

- أوگفْ ولكْ! . . إنت! . . ولك ماهي! . . هو إنت خَلَـگْ عربنچي! . . و هذا اللي معرِّس صاحب الكازينو مال ناجي اليهودي مثلك إبن خَلَـگْ عربنچي و أبوه چان مگدي و هو مگدي إبن مگدي! . . و جاي هسه تتجاوز إنت و ياه على قدر الناس اللي مجتمعين هنا من أجل وحدة العرب!. . ولك يا عرس! . . يا فلم! . . إنت ما دا تشوف الناس بيش مخبوصة هنا! . . إرجع! . . إرجع لو هسه أتلِـَّكْ من عربانتك و أكسرلك رجليك إنت و العرّيس!

نبرة ماهي المشهور بها إعلانيا في بعقوبة تعلق مستنكراً:

- يواش يابه! . . يواش! . . لا تاكلنا حاصل فاصل! . . و شنو يعني؟ . . يعني إذا الناس مخبوصة بوحدة العرب ما يصير الواحد يتزوج! . . لو ما يصير يفوت من الشارع . . هذا الطريق مال الله! . . ثم موعيب هالحچي الناگص! . . لكن هاي هيّ . . هذا هو حال الدنيا! . . الچركاية بيد الفقير عجبة! . . و الفقير على ظهر البعير و يعضه الچلب!

على صوت ماهي الجهور . . تاركاً العريس لوحد في العربانة ينزل صبيح الدنداوي، و يسير مقترباً من الحشد، و ينزل وراءه حسين گطمة من العربانة التالية، في وقت زاد به رد ماهي من إستفزاز و وقاحة مزهر الكهية و آخرين، فعلق الكهية:

- و لك ماهي أثول إبن الأثول! . . وين البعير؟ . . و وين الچلب؟ . . يعني تقصد هذا إبن مرهون العربَنچي و اللي وياه همَّ على ظهر البعير عربانتك . . و إحنه الچلاب اللي تعض؟

فيعقب ماهي صارخاً:

- يعنـي إذا چـان أبـوه مرهـون عربنـچـي مـو مـن حقـه يتـزوج و يفـوت مـن يـم گـهوة حسـين صفـاوي؟ . . يـا نـاس شـوفوا القهـر و الظلـم! . . هسـه هـو مـو صـار مثلـك و مـن صنفـك؟ . . هـو مـو صاحـب گـهوة مـن گـهاوي بعـگوبة!

كلمـات ماهـي تصيب الصميم . . هـو مـو صـار مثلـك صاحـب گـهوة مـن گـهاوي بعـگـوبة! . . و كأنهـا قرصـت مزهـر الكهيـة مـن خاصرتـه، فحسـب المسـاواة التـي أجراهـا ماهـي بينـه و غايـب إنتقاصـاً مـن شـخصه، فيـرد صارخـاً:

- لا! . . لا يـا عربنـچـي يـا إبـن العربنـچـي! . . و لـك ماهـي إنـت ليش مـا تستحي !

الموقـف علـى وشـك أن يحتـدم و تفلـت الأمـور مـن نصابهـا، مـا قـد يدفـع ماهـي للقيـام بحركـة لا تحمـد عقباهـا. و جـل مـا يخشـاه صـبيح الدنـداوي بالـذات هـو أن يوصـل ماهـي الأمـر الـى العفـاط و الزياگـة . . و إذا مـا حصـل و عفـط ماهـي بوجـه مزهـر الكهيـة و آخريـن مشـبَّعين قحـةً و هياجـا و قـد قطعـت عليهـم زفـة غايـب هتافاتهـم العروبيـة الهيجانيـة، فيتحـول الأمـر الـى تحـدٍ لمشـاعر الجمهـور المحتشـد الهائـج، فيتطـور الأمـر كلـه الـى إنقـلابٍ غيـر محمـود علـى يـد أشـخاص تشـي وجوههـم بميـلٍ للإسـتثارة . . و قبـل أن تصـل المشـكلة الـى العفـاط هـا هـو صـُبيح الدنـداوي يحـاول تهدئـة الموقـف مخاطبـاً ماهـي أولاً:

- عمـي ماهـي كافـي يرحـم والديـك! . . الجماعـة هنـا بـگـهوة صفـاوي خـوش نـاس . . هسـه يسـوون لنـا طريـق و نمشـي! . . عمـي ماهـي كافـي رحمـة لوالديـك!

و ماهـي علـى وشـك أن يـُصعِّدَ فـي الموقـف، فيشـير صـبيح لـه بلهجـة آمـرة مضيفـا:

- كافي عمي ماهي!

و يلتحق بـه حسين گـطمة محـاولا تهدئـة الموقـف، فيعقـب مخاطبـاً الحشـد القريبيـن منـه:

- يـا الله! . . يـا جماعـة طولـوا بالكـم، سـوونه طريـق . . إنتـو فرحانيـن و إحنـه فرحانيـن . . سـوونه طريـق و إحنـه رايحيـن . . و ظلـو إهتفـو . . و إحنـه نعتـذر إذا قاطعناكـم!

هـا النبـرة المهذَّبَـة التصالحيـة لصُـبيح و حسـين تتيـح زعزعـة الحشـد بتهدئتهمـا للوضـع و تسكِّينهما قليـلاً مـن غيـض الجمهـور المحتشـد و معـه مزهـر الكهيـة، و مـا أفـرَخ فـي الوقـت نفسـه مـن روعَ ماهـي أيضـا هـي صيحـة محمـود گـلاز فـي عربانـة العريـس باللهجـة المصريـة فتجيـئُ كأنهـا قـارب نجـاة للأمـر برمتـه:

- يعيـش الرئيـس گـمال عبـد الناصـر! . . تعيـش الأمـة العربيـة المـگـيدة! . . يـاه يـا أخوانـا . . المسـامح كريـم . . يعيـش الرئيـس گـمال عبـد الناصـر!

و بسـماعهم الهتـاف بحيـاة عبـد الناصـر هـا هـو الحشـد يأخذهـا جـواز و يهتـف . . يعيـش يعيـش يعيـش! . . و يفتـح الطريـق لقافلـة العـرس. و مـا حصـل لـم يمنـع ماهـي بإختراقـه للحشـد مـن إطـلاق إعلانـه عـن فلمـه بـزواج غايـب مـن إبنـة الأحمـدي و قلـده محمـود گـلّاز بالهجـة المصريـة! . . و مـن ورائهمـا ضاعـت مـع صخـب المزيقـة الشـتيمة التـي أطلقـه مزهـر الكهيـة:

- . . لا يا چلاب وِلدِ الـچلاب!

عربانـة ماهـي مـا تـزال تشـق طريقهـا بصعوبـة مـن آخـر طـرف الحشـد المعانـد تجـاه فتـح الطريـق، و تمـر وراءهـا عربانـة العريـس و العربانـات الأخـرى . . وسيُسـمع صـوت أحـد الهاتفيـن أمـام المقهـى يصـرخ تعليقـا علـى مقتـل الملـك:

- . . اليوم تبلغ جماهير العروبة إقتصاصها من الملك و خاله . . و قد بلغنا ثأرنا من العائلة المالكة الهاشمية غير الشريفة . . و تلقى عبد الإله اليوم القصاص العادل و بلغنا ثأرنا لدماء ضباط المربع الذهبي يونس سبعاوي و فهمي سعيد و محمود سليمان و كامل شبيب . . و بلغنا ثأرنا لدماء شهداء العروبة جميعا . . يسقط الإستعمار! . . تعيش الأمة العربية! . . يعيش الرئيس جمال عبد الناصر.

الهتافات تدوي . . يعيش الرئيس جمال عبد الناصر بطل الوحدة العربية . . يعيش الرفيق ميشيل عفلق قائد البعث!

و يسأل غايب صُبيح:

- أبو سعد أريد اسألك . . هذا شنو المربع الذهبي؟ . . و يا ضباط هذوله اللي إنتقمولهم؟ . . و شنو ثار؟ . . هيه هاي الثورة بيهه سالفة عشاير و ثار عشاير؟ . . و منو هذا ميشيل عفلق؟

- عيوني غايب . . شوف . . جمال عبد الناصر رئيس مصر . . و هذا ميشيل عفلق آني ما أعرفه! . . إنت هسه خليك بزواجك! . . بنت نزهان الأحمدي بإنتظارك!

الظلام يعمُّ عتبة دربونة أم الدجاج لولا تسرب النور إليها من دكان أمير القيرواني . . لوكس محل أمير القيرواني معلقٌ على مسمار في ركن باب المحل، يضيئ الرصيف و الشارع الذي أمامه . . القيرواني واقف هناك فوق الرصيف يتفرج من بعيد على الشارع و الحشد المتجمع الهاتف أمام مقهى الصفاوي . . متخوصراً و مباعداً ما بين ساقيه، و ضوء اللوكس يعكس له ظلاً عملاقاً على الأرض، و لربما كان صوت المزيقة الشعبية المنبعثة من عربانة قادمة هو الذي جلب إنتباهه لقطار العربانات الذي ترك مقهى الصفاوي وراءه . . و حين توقفت عربانة ماهي قريباً من محله و نزلت منه جوقة الموسيقى الشعبية، و بنزول غايب من عربانة محمود گلاز، آنذاك فقط أدرك القيرواني بأن موكب العربانات الواصل

يحمل عريس أخته أميرة، و تأكد من ذلك برؤية الدماري ينزل من العربانة و اللوكس في يده يبدد شيئاً من عتمة عتبة الدربونة. خطر بباله أن يدخل محله و يدير ظهره لما يرى، تماشياً مع التقاليد التي تحرِّم على أخوة العروس التواجد في محيط إحتفال عرس الأخت كي لا يرون ناكح أختهم تلك الليلة . . ثقافة شرف الرجل في فروج إناث بيته! . . و لكنه غيّر رأيه و ظل واقفا، ربما تحدّياً للعرف لا فضولاً، لكي يتفرج على موكب زفة عريس أخته الوحيدة.

نزلت جوقة الموسيقى الشعبية من عربانة ماهي، و ينزل المرافقون وراءها جميعاً. و أخيراً ها هو غايب ينزل . . ضحك القيرواني لمرأى صهره في القميص و البنطلون . . و يدخل الموكب دربونة الدجاج مشياً تتقدمه فرقة الطبل و المزمار، ماراً ببيت نزهان الأحمدي. و ما أن تجاوز الموكب البيتين التاليين أمسى صدى المزيقة و هوسة المرافقين ترج الدربونة و تهتز لها جدران البيوت، و تحدث في المكان صخباً من القوة و العلو و كأنها ستسقط جدران بيوت الدربونة العتيقة الضيقة.

- شايف خير و مستاهله! . . شايف خير و مستاهلهه!

و على صوت المزيقة . . تخرج بعض نسوة دربونة أم الدجاج، غير مصدقات أن عرساً قد يجري في يوم تمرّ فيه البلاد بحدث جلل يهزّها هزا . . يوم قُتل فيه الملك و قُتل الوصي خال الملك و سُحل! . . و إنبرى ماهي أمام جمع الزفّافة الصغير، و صاح فجأة:

- ها ها ها أخوتي ها!

و يصرخ حشد أنفار الزفّافة الصغير وراءه:

-هاااااااااااااااا!

و يسكت الطبل و المزمار لحظة، ليستمع الجميع الى ماهي:

برنو ما ملعوب بسرگيهه! . . جبنالك برنو ما ملعوب بسرگيهه! . . ما ملعوب بسرگيهه! . . ما ملعوب بسرگيهه!

• يروح الحشد الصغير وراءه، مرددا:

شايف خير و مستاهلهه! . . ما ملعوب بسرگيهه!. . ما ملعوب بسرگيهه! . . شايف خير و مستاهلهه . . ما ملعوب بسرگيهه . . شايف خير و مستاهلهه! . . ما ملعوب بسرگيهه!

• حينئذ فقط إستحقت مفارقة الزفة في مساء ذاك اليوم الدراماتيكي إطلاق زغاريد هلاهل حييَّة من نسوة دربونة أم الدجاج، لغاية أن وصل العريس بيت العرس، و دخل البيت دون مراسيم توديع العزوبية المعتادة بزفات العرسان الشعبية، حين يودع العريس بقرص أو تبعيص في مؤخرته . . و عند دخول غايب الى البيت كانت أم رحمن بإنتظاره و معها أم العروس . أشارت المرأتان له نحو طريق السلم الذي يقوده الى سطح البيت حيث تنتظر أميرة الأحمدي . . صعد مضطرباً و مهزوزاً ليرفع برقع العروس عن وجه أميرة و يقبّلها على جبهتها مثلما أوصيَ و ينزل السلم ثم يخرج ليشكر و يودع جمهور الزفة!

اليوم التموزي ليس نهاره لوحده لاهبٌ، بل و ليلَهُ أيضاً . . أرضه لاهبة و سماؤه لاهبة . . سريرٌ من جريد النخل مودَعٌ على سطح البيت الصغير، تغطيه كُلَّةٌ بيضاءٌ، و لا تحجبه عن أسطح الجيرة الملاصقة إلا ستارة طينية واطئة. و تحت الكُلَّة كانت أميرة الصبية الدحدوحة تنتظر، و جهدُ فوزية الحفّافة طيلة ما بعد ظهر ذاك اليوم شاخصٌ على وجه العروس الشقراء العكشة الشعر متلبدته . . بشرة وردية غُسِلت من السيبداج قلاي، محمرت من كثرة الحفِّ . . شفتان مكتنزتان مديرمتان، و عينان صغيرتان مكحلتان . . جسم قصير ديبوب نسبياً ببدلة عرس مخرمةٌ عند الكتفين و الصدر . . و عاد غايب ليرتقي السلم الطيني ليكون مع عروسه أميرة نزهان الأحمدي.

* * * * *   * * * * * *   * * * * *

جماعة زفة العريس تستدير لتعود عبر دربونة أم الدجاج الى العربانات التي تُرِكَت عند رأس الدربونة . . أو يُطفئُ الدماري اللوكس، فينهره صُبيح الدنداوي على ما فعل . . ساروا في الدربونة المعتمة، يتقدمهم حسين و صُبيح نحو عربانة ماهي الذي سبقهم الى عربانته. و تناهى الى صُبيح صوت الدماري من ورائهم يقول بصوت خافت لأبي دعوچة:

- هذي بنت الأحمدي ما تستاهل تتزوج!

يسأله أبو دعوچة بفضول:

- ليش؟

- لأن هي مو خوش بنية!

مو خوش بنية . . تعبير له دلالاته المُوهِمة الكثيرة . . يسمعها صُبيح في ليلة شديدة البأس على الناس . . قطعان مشغولة بهيجاناتها . . وتحققت في عتمة الليل سابقة لا مثيل لها في بعقوبة تحدث في ليلة شديدة البأس بعنوان . . الحياة و البقاء . . كان غايب أول عريس في بعقوبة يُزَفُّ في موكب عربانات ربل . . مثلما كانت جنازة أبيه مرهون سابقة في بعقوبة بعنوان . . الموت و الفراق . . يوم ذاك الفراق كانت القطعان الهائجة في المدينة مشغولة أيضا بهيجانات مشابهة، إجتمعت في وضح النهار عربانات الربل في بعقوبة جميعاً، تسير خالية من الركّاب في جنازة مرهون والد غايب في يوم كان هو الآخر شديداً على المدينة.

يوصلهم ماهي الى الكازينو . . و يذهب حسين الى أبي ناظم على دراجة غايب ليجلب ربعية عرق يبيت معها ليلته في الكازينو . . و سينفرد صُبيح بالدماري يسأله:

- ولك حسن!

- بلي عمي صُبيح!

- تعال يمي! . . هذا شنو اللي سمعتك تگوله لأبو دعوچة عن بنت الأحمدي؟ . . شنو هذا اللي گِلته عن البنية؟

- . . . .

- ما تستحي؟ . . مو هذي صارت زوجة إستادك غايب!

الإضطراب بادٍ على الدماري، و يتمتم خائفاً:

- هيچ عيوني عمي أبو سعد! . .و الله ماكو شي!

- لا . . أكو! . . و لازم تگول لي ليش حچيت هالحچي.

إصرار و حزم من الدنداوي، فيضطر الدماري الى الإعتراف:

- و الله ماكو شي . . بس لأن آني أحبهه . . و فَدْ مرة تحرشت بيهه و تفلت عليّ تفلة چبيرة غرگت وجهي . . و من ذاك اليوم صرت أكرهها!

- تفلَتْ عليك؟ . . زين سوَّتْ لأن إنت تستاهل يتفلون عليك! . . دنغوز! . . يعني إنت برُگُبتَك هذي اللي لازمه الدمار ليل نهار . . منو هذي المخبلة الجايفة اللي ما راح تتفل عليك إذا تحرَّشِت بيهه؟

-

- و هذا هو الموضوع؟

- . . .

- بس؟

- بس . . بس و راس علي بن أبي طـالب داحي باب خيبر!

- بس دير بالك زين! . . إنت هسه رزقك و عيشتك مربوط بغايب زوج أميرة . . غايب إستادك! . . . تمام؟

- تمام.

- أحفظ لسانك . . و صير خوش آدمي . . و إمشي روح لملم أغراض الكازينو . . و لما يرجع حسين روح لبيتكم.

- أمرك عمي صُبيح!

إطلاق الوعود و العهود هينٌ و لكن الحفاظ عليها ليس ليناً! . . و الدماري لن ينسى مطلقاً أن أميرة الأحمدي تَفلَتتْ عليه يوماً و أغرقت وجهه بتفالها و رضابها سيكون من نصيب رب عمله، و لن يفوِّت الدماري أية فرصة تسنح لأذى غايب الذي صارت أميرة من نصيبه، و سيُسقط متى إستطاع إنتقامه من أميرة على غايب زوج أميرة.

صُبيح على وشك أن يغادر الى بيته فتجلب إنتباهه سيارة أجرة تتوقف أمام الكازينو . . و ينزل منها شاب ليسأل عن حسين گطمة، و يخبره الدنداوي أن حسين عائد بعد دقائق. عند عودته يتفاجأ حسين بوجود الشاب، فيخبره هذا الأخير بأن أباه فارق الحياة، و يستغرب حسين من المفاجأة، معلق:

- يا معود! . . گول غيرهه . . تركته گبل الظهر بالبيت صاغ سليم!

فيرد الشاب:

- توفى گبل صلاة العشا . . سمع بالراديو قاتلين الملك ببغداد و ساحلين عبد الإله خال الملك . . و گال شلون يصير يقتلوه . . هذا الملك من آل البيت و جده رسول الله . . شلون يقتلوه! . . و ظل يصيح . . و لكم يا خلق

.. شراح يصير بينا! .. شراح يصير بينا! .. شراح يصير ينا!

- إي .. و بعدين؟

- .. و فجأة لزم أفاده و طگ و مات.

سامعاً هذا التقرير، يدخل حسين غرفة الكازينو ليترك زجاجة العرق هناك. و يخرج ليصعد التاكسي مع الشاب المرسال، و تغادر السيارة به بعد تلقيه مواساة الموجودين له مقدما بموت أبيه

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

ما أشبه اليوم بالبارحة!

في عرس الليلة الأولى لحدث الرابع عشر من تموز لم تحقق ثورة الطبيعة أهدافها على سطح البيت الصغير في دربونة أم الدجاج .. العريس لم يبلغ مناه من العروس! .. لم يتحقق تلك الليلة ما تشير إليه المُلحة الشهيرة .. إدخال الميل في المكحلة! .. و لم يلعب غايب بسُرگي البرنو التي هَوَّس بها ماهي .. ما ملعوب بسرگيهه! .. لِمَ؟ .. هو نفسه لا يدري سوى أنه كان نهباً لمشاعر متضاربة .. أهَلْ الولد على سرٍّ أبيه مرهون الذي خشي من تدنيس الجمال الذي أمامه فأستكثر على نفسه كسر قرصة جبنة الغنم؟ .. لا أحد يدري! .. أم هي خشيت غايب من أن يكون فضّاً في مهمة لا تخلو من فضاضة؟ .. لا أحد يدري! .. أم لأن الصبية التي أمامه ظل يعتقد أن حضورها أمامه لم يكن سوى حضورٍ لنرجس أمه، مقروناً بخوف من أن يدمر هذا الحضور، دون أن يعي، بحبلٍ قادم تعقبه ولادة مدمرة، مثلما حصل لأمه نرجس؟ .. لا أحد يدري!.. و لكنه كان يدري شيئاً واحد، و يقينه ثابت فيه، هو أن رجولته في داخلها مرجلٌ يغلي تحوّل ماؤه تلك الليلة بفعل حرارة الليلة التموزية الى بخار يتسرب من كل فتحة من فتحات جسمه على شكل أحاسيس مضطرمة و مضطربة و متضاربة .. و سيظل طوالَ ليلِ الصيف القصير

يتقلب، و تتقلب معه الصبية العروس في الطرف الآخر من السرير، و لم يتبادل معها سوى كلمات قلائل . . فأين ستذهب بالتوصيات و الإرشادات التي ظلت أمها و أم رحمن و صديقة زوجة ماهي يلقننها إياها في كيفية تصرف المرأة في ليلة عرسها!

عند الصباح . . أتوا بمائدة الإفطار . . صُبحية العروس . . يأتي بها أهل العروس عادة، مجرد ذريعة لتلقف أخبار ليلة الدخلة . . تناول غايب فطوره بمزاج فاتر لأول مرة مع إمرأة نام معها على سرير واحد طيلة الليل، دون أن يجرؤ على إدخال الميل في المكحلة. و ما أن إنتهى من فطوره، خرج الى الكازينو، و أُخبر هناك بوفاة والد حسين گطمة، فغادر الى قرية الهويدر، و لم يعد من هناك إلا بعد الظهر، ليبدأ بإعداد الكازينو لشغل المساء.

إنتظار الناس يطول أياماً، بالذات أهل العروس . . و سيظلون مثلما تنص التقاليد بإنتظار مَعْلَم عُذرية إبنتهم . . خرقة مخضلة بدم الدُخلة يُصان بها شرف القطيع! . . ليلة . . ثم ليلتين . . ثم ثلاث ليال . . تمر و يظل سرگي البرنو غير مدشنٍ . . فأسبوع . . ثم أسبوعين مرّا . . و غايب يهاب مقاربة العروس. أهلُ العروس يتآكلهم القلق، و أم رحمن تتلبسها حيرة و ذهول. الجميع بإنتظار ما ينفرج عنه الموقف. و من يدري فقد تكون دارت همسات. لكن غايب وجد آخر الأمر في الموقف إمتحاناً، بل تحديا لفحولته، تحديا لثورة الطبيعة التي يمور بها جسده . . و أخيراً ها هو يتغلب على الإرتباك الذي عانى منه ليالٍ، مستعيناً بفلتات لسان أبيه مرهون، بعد موت أمه نرجس. أثناء هذيانه لسنين بعد فراقها عن الرمانة التي كان حبها ينفرط في حضنه ليلا. و هذيانه عن الأشياء التي تشد الرجل إلى بيته، فتجعله يغدو أكثر ودا و حميمية . . و أخيراً قام غايب بما لا بد من القيام به! . . مغيباً هواجس مسيطرة عليه، ملامح نرجس التي ماتت بولادتها لأخيه عصمان، و أخيرا ها هو يوطد عزمه على اللعب بسرگي البرنو . . وآخر الأمر ها هو الميلَ يدخل المكحلة!

... بريح خبر الميل و المكحلة الجميع!

... يئ الخريف يحمل تحولاً في الطقس نحو لسعات البرد الأولى و ... ها أولى زخات المطر الخفيفة، فأستاذن غايب مالكيِّ دار العرض على ... ع شبكة حديدية حول باحة الكازينو و حولها، يغطيها بالچادر شتاء ... تقي رواد الكازينو من المطر و البرد، و يرفعها صيفاً عندما تنتفي ... اجة إليها، و أعاد توزيع الإنارة على الواجهة، و معها قطعة الكازينو ... ها صورة أم كلثوم.

... أشهر من الهنا، و أم رحمن تساعد على إدامة سورة النشوة و الهنا. ... سرعان ما سيتزعزع جو النعيم مرة واحدة، حين يلمس غايب إنتفاخاً ... بطا في بطن أميرة الأحمدي:

هذا شنو؟

... اها الطفولي .. حسبت أميرة أن ما سيسمعه غايب زوجها منها سيجعله ... فرحا، فردت حالمة:

اني حامل!

... ها هي تراود خياله من جديد، حادثة الأم نرجس المضطربة ليلة ... تها عصمان أخيه و رحيلها عن الدنيا .. نشوة مفاجئة إجتاحت ... لثوان مردها أنه سيكون أبا .. لكن الفزع من تكرار مأساة أمه ... س، أطار تلك النشوة، ما جعله يزداد رعباً في داخله، كلما لامست ... بطن أميرة عفواً .. و ها هو غايب يتسنى لغايب أن يحصل من ... ه غايب على نصيب .. راح يغيب عن البيت بعض ليالٍ يتجنب فيها ... ة الجنين يزداد حجمه كلما نظر الى بطن أميرة .. في بادئ الأمر ... ح ينام ليلة في البيت و أخرى خارج البيت .. يأتي الى البيت قبل ... هر بما يحتاجه البيت ثم يغيب ليلاً .. و بالتدريج ثم ليلة في البيت و ... ين خارجه .. ثم ليلة في البيت و ثلاث ليال .. و مرت ثماني شهور

و أميرة و هي تنوء بحملها الثقيل الإستثنائي، و بإقتراب أميرة من ظهور أمارات الوضع الأولى، سيدخل غايب ما يشبه الفرار الكامل من البيت . . أضحى يرسل إحتياجات البيت بيد حمّال من السوق و لا يذهب هناك متذرعا بأعذار شتى لها علاقة بالعمل . . تلك الحقبة راح ليبيت خلالها، بعض ليالٍ، عند حسين گطمة في البستان. و كان حسين، و مع إنشغال غايب بزواجه، و ندرة سهرهما في غرفة الكازينو، قد حوَّل البستان الى دار لهو ليلي بعد موت والده حزنا على الملك و خاله الوصي . . غير بعيد عن باب البستان بنى بالطابوق غرفتين واسعتين تطلان على الممر الرئيسي في البستان و لصقهما حمام، مُزوِداً المكان أيضاً بخزان ماء كبير يمونّــه بالماء الصافي بوسائل عديدة، و بما يلزم للعيش و المبيت، أسرَّةً و أفرشةً . . مقاعدَ و أرائكَ و طبلياتٍ . . كلها من جريد النخل وُزِّعت في الغرفتين و خارجهما . . و هكذا خلق حسين له الجنة التي حلم بها و حرمه منها أبوه حين كان حيَّاً.

في الخريف ذاته، سيكون أبو عباس فلاح المصرف صادق الوعد و يجيئ غايب بشتلات من زهور النرجس ينشرها على طول سياج الكازينو من الداخل، حاول غايب أثناءها الإنشغال بالتفرج على شتلات زهر النرجس تنمو . . لم يكفه ذلك . . و ما سيشغله أكثر هو ما جرّبَهُ في واحة حسين گطمة من أشياء جديدة تناسب هواه . . سهرات يلتئم معهما فيها راغب السامرلي، من چبينات السوامرة، معلم في خرنابات، و ينادمهم أحيانا هاني ميرخان الگصاب صديق راغب اللدود . . و سهراتهم في البستان هي التي ستقود بعد حين خطى الثلاثة غايب و حسين و راغب الى طريق الكاولية[27]، الذين يقيمون مضاربهم في منطقة بزايز بهرز، يأخذهم الى هناك عبد كولونيا بسيارته . . و بعد سهرتين هناك عند الكاولية، سرعان ما سيتعلق غايب هناك بگرجية الغجرية التي ترقص و تغني أغنية مسعودة العمارتلي . . بويه عينه شكبرهه . . بويه شگرة

٢٧ «الكاولية» هي التسمية التي يستعملها العراقيون للغجر الذين يجوبون الريف لإحياء ليالي سمر بالغناء و الرقص، و يجذبون إليها بعض سكان المدن القريبة و موسري القرى المحيطة بها.

الـگـصيبة . . مـن ذي يـا تـرى التـي راودت خيـال غايـب بعينهـا الكبيـرة و قـرْنِها الأشقر و جعلتـه يتعلـق بأغنيـة مسـعودة العمارتلـي؟ . . أهـي صـورة أمـه نرجس الهلاميـة فـي خيالـه التـي لاصقـت تخيلاتـه حيـن وصفوهـا لـه شقراء مثـل فلعـة قمـر أم أميـرة الأحمـدي الشـقراء الدحيدحـة التـي لـم تكـن عيناهـا كبيرتيـن؟ . . و فجـأة خطـر ببـال أحدهِم أن يكفيهُمُ شـر الذهـاب ليـلاً الـى بزايـز بهرز، و ذلـك بإقنـاع الكاوليـة المجـيء الـى البسـتان حيـن يسـمح الظـرف و تتـوزع تكاليـف السـهرة علـى الحاضريـن، فوافقـوا.

فـي غمـرة اللهـو، عائـداً ذات صبيحـة مـن البسـتان الـى الكازينـو، و اليـوم ربيعـي، سيسـتقبل غايـب هنـاك خبـر وضـع أميـرة لتـوأمٍ . . و لـد و بنـت . و تطيـر مـن رأسـه رأسـاً نشـوة السـكر و اللهـو . . و لشـدة إلتصـاق اليـوم الأول للـولادة بذكـرى مصيبـة أمـه نرجـس و هـي تلـد أخـاه عصمـان، سيترك غايـب أيامـا ثلاثـة تمـر، كـي يتأكـد تمامـاً مـن بقـاء أميـرة زوجتـه علـى قيـد الحيـاة بعـد الـولادة، قبـل أن يذهـب ليراهـا و وليديهـا حيـة و سـليمة و يـرى خلفتـه . . ولـدا و بنتـا.

نابـه واجـف . . و هـا هـو يدخـل علـى أميـرة و يقبّلهـا مـن عينيهـا اللتيـن لم تكونـا كبيرتيـن و لكـن گـصيبتها شـگـرةٌ دون ريـب . . و يقبّـل الوليـد و الوليـدة، و تسـأله أميـرة:

غايب . . شراح نسميهم؟

غايـب يتطلـع طويـلا الـى الوليديـن . . و ستكشـف الأيـام عـن الرضيعـة بنتـاً شقراء كأمهـا و عـن الرضيـع ولـدا أسـمرا كأبيـه. و دون تفكيـر، و جريـاً علـى العـادة المتبعـة بإطـلاق أسـم أب الوالـد علـى الوليـد، يـرد علـى أميـرة:

الولـد نسـميه مرهـون . . علـى إسـم أبويـه المرحـوم . . و البنـت نسـميهه نرجـس علـى إسـم أمـي!

فتعلق أميرة:

- و إن شاء الله . . يكون الولد مرهون للخير . . و البنيَّة . .

و لا يدعها مرهون تكمل مقاطعاً:

- إنشاء الله!

أيام النفاس تمر، و البهجة تطغي على حياة أميرة الأحمدي تساعده أمه و أم رحمن على العناية بالوليدين . . و لكن غايب كان قد إعتاد و سيعتاد الى الأبد على البعاد عن المبيت في بيته . . و سيظل يبيت مرة أو مرتين على الأقل في الأسبوع خارج البيت، يقضي ليله أما في الكازينو، أو في بستان حسين گطمة، يأخذه إليها تاكسي عبد كولونيا المرابطة بسيارته قريبا من دار السينما و الكازينو ليلا، و يوم لا يذهب غايب الى البستان تظل سيارة عبد تحوم في دائرة لا تتجاوز محطة القطار.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

مصالح غايب في الكازينو تنمو بمرور الأيام . . موقع الكازينو و أسمه و هالة الإنارة الموزعة على واجهته تجتذب المزيد من الرواد . . الأحداث عواقب يوم 14 تموز تمضي بتقلبات مفاجئة و سريعة . . زمرة العسكريين الذين أشعلوا فتيل الحدث تنقسم إلى فئتين، وينقسم أهل بعقوبة معهم الى إتجاهين، يتجمعون جمهورين بكتلين متباعدتين متناوِئتين، و ستتباغض الكتلتان . . كتلة حول شخص عبد الكريم قاسم و وراءه يساريون و ليبراليون متنورون غير متعجلين قيام وحدة بين البلدان العربية، و كتلة أخرى حول عبد السلام عارف و وراءه قوميون و بعثيون متعجلون قيام وحدة فورية بين مصر و العراق . . و سرعان ما سينضم الى الكتلة الثانية جميع المتضررين من التغيير الذي أطاح بالنظام الملكي . . الإقطاعيون و الرجعيونو الأثرياء الباذخون و أغلب جهاز الدولة و دوائر الأمن و الشرطة و الموتورون و أشباه الموتورين من القطيع . . و ما أسرع أن يتحول الإنقسام الى شرخ عميق كامن في أعماق الأصرة الإجتماعية لمجتمع مدينة بعقوبة، و هو ما كان كامنا

لأسباب لا علاقة لها بالسياسة و عجَّل بظهوره الى السطح حدث 14 تموز . . و تماهياً مع الجو السياسي المكهرب، ستنقسم مقاهي بعقوبة جميعاً هي بدورها و كأنها حاميات عسكرية تعود لمعسكرين متعاديين من الأشياع . . معسكر يتجمع فيه القوميون و البعثيون و الإقطاعيون و الأثرياء الرجعيون و رجال الدين المتطلعون الى إحياء مجد العرب باية وسيلة و معهم ضباط الشرطة و ضباط صفها و معهم أفراد قوى الأمن الوليدة التي كانت تنمو و يشتد عودها بإشتداد الصراع الإجتماعي . . هؤلاء جميعاً صاروا يترددون على . . مقهى حسين صفاوي . . و مقهى عبود صفاوي . . و مقهى لفتة . . و مقهى شكر في راس العگد مقابل دائرة بريد بعقوبة . . و مقهى عصفور في أم النوة . . و مقهى مناتي مقابل محطة القطار . . و مع ذلك، لم يكن رواد هذه المقاهي ليلتئموا في تلك المقاهي دون إعتبار للوجاهة أو للمنزلة، إذ إستمرت هذه المقاهي تستقبل روادها أيضا على أساس الفئة!

معسكرٌ آخرٌ من المقاهي يرتاده اليساريون و الليبراليون و القاسميون و الكسبة و الكادحون، تستقبلهم مقهى مجيد محسن . . و مقهى جبارة المعيدي في العنافصة . . و مقهى غنيم السامرلي . . و مقهى إسماعيل حمدية الناشئة المقتطعة من خان الشاهبندر على بعد خطوتين من مقهى عباس تيتي بإتجاه منطقة أم النوة . . و على خطوات أخرى منها مقهى صاحب الهويدراوي مقابل خان الشاهبندر . . و مقهى طالب الهويدراوي الناشئة مقابل مقهى محمود جوير.

صنفٌ ثالثٌ من الرواد ما أرادوا أن يكون لهم شأن بالسياسة، محاولين الإنسحاب الى برّ سليمٍ قريب وفرته لهم مقهى البلم و مقهى البغدادي.

و صنف رابع من ناس ملّوا السياسة بالكامل بما تعسببه من إنقسام مجتمعي فرّ أغلبهم الى برّ أبعد قليلاً، إلى برٍّ كازينو أم كلثوم، مبهورين بما توفره من أجواء، و موفرين لغايب مرهون صاحب الكازينو فرصة إزدهار نادرة، في شخصه و في موارده.

و المقاهـي التـي بيـن الخانـات . . مقهـى محمـود جويـر و مقهـى عبـاس تيتـي مـا تـزال يرتادهـا العربنـچيـة و العتّالـون و باعـة الحِبـال و الحمّالـون و الإسـكافيّون و المطيرچـية و الكسـبة مـن الفئـات الدنيـا، مـع أنهـم و علـى طريقـة . . حشـر مـع النـاس عيـد . . و بتقليـدٍ واضـحٍ غبـيٍ لـرواد مقاهـي المعسـكرين القومـي و اليسـاري، راح بعضهـم يرطـن بشـعارات مـن قبيـل . . ماكـو زعيـم إلا كريـم . . مُطلقيـن فـي الوقـت نفسـه علـى جمـال عبـد الناصـر لقـب . . أبـو خشـم الماصولـة . . و آخريـن يكايـدون هـؤلاء بخَبَـلِ مزعـوم للزعيم مردديـن . . عـاش الزعيـم اللـي زَيَّـدْ الآنـة[28] فلـس! . . شـوف القشـمرية ويـه كرَيِّـم بـن كيفيـة!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

غُدُوُهـا قِبلـةَ رواد المقاهـي لـم يـأت عبثـاً، فكازينـو أم كلثـوم كانـت أول مقهـى فـي بعقوبـة تُدشِّـنُ خدمـة مشـاهدة التلفزيـون و الإستماع بأشـرطة التسجيـل، و سـارت علـى خطاهـا منافسـة و حسـداً مقاهـي بعقوبـة جميعـا . . و هـا هـو غايـب مرهـون صاحـب كازينـو أم كلثـوم يقـوم بتسـجيل حفـلات أم كلثـوم الحيَّـة منقولـة مـن قاعـة الأوبـرا المصريـة فـي القاهـرة أو مـن قاعـةَ حدائـق الأزبـگـية علـى شـريط بكـرة مـن بكـرات المسـجل، لإعـادة بثـه فـي أجـواء الكازينـو فـي أيـام تاليـة، و عجـز عـن إتيانـه أصحـاب المقاهـي الآخريـن.

إزدهـار كازينـو أم كلثـوم و معـه مصالـح غايـب مرهـون يمضيـان بعلاقـة طرديـة مـع إشـتداد الصـراع السياسـي فـي البلـدة . . و سـيطيح عبـد الكريـم قاسـم، فـي أوائـل عـام 1959، بعبـد السـلام عـارف، الذي تهـور كثيـراً بإندفاع غيـر مسـبوق تجـاه إقامـة وحـدة فوريـة مـع مصـر و سـوريا، و سـينزح علـى إثـره عـدد إضافـيٌ مـن رواد مقاهـي الإضطـراب السياسـي ليكونـوا روادوا إضافيين دائميين لكازينـو أم كلثـوم . . و يخطـر فـي بـال غايـب ذات يـوم أن

٢٨ «الآنة» في الأصل تسمية هندية للعملة . . كان العراقيون يطلقونها على قطعة النقد الفضية بقيمة أربعة فلوس . . و في تعديلات العملة التي أجرتها حكومة عبد الكريم قاسم زيدت قيمة قطعة النقد هذي فلسا و صارت قيمته خمسة فلوس.

يسأل صُبيح الدنداوي عما يريده الرجل الذي أطاح به عبد الكريم قاسم، فيرد الدنداوي:

- هذا عبد السلام رجّال ملَهْوَگْ . . و هلگد ما ملَهْوَگْ ورَّط حتى جمال عبد الناصر و خلّاه يتلهوَگ مثله و يتسرع و يحچي حچي ما مسؤول عن سهولة تحقيق الوحدة بين مصر و العراق . . و نتيجة اللهوَگة گال حچايته المشهورة . . إزا كان الكلام كده هيصير البلح في گيب و البِترول في گيب! . . . و يقصد تَمْر العراق بجيب سترته و نَفْط العراق بجيب البنطرون!

فيعلق غايب:

- إي تمام آني أسمع الناس يگولون . . البلح بگيب و البِترول بگيب . . بس آني ما چنت أفتهمهه! . . يعني و هذا عبد الناصر ما يهمَّه أي شئ بالعراق غير النفط و التمر!

- طبعا! . . . شغلة مال و نفوذ و مصالح و فتوحات و سلب و نهب! . . يا وحدة عربية! . . يا بطيخ! . . و هذا هو الحال من گبل . . يحچون بالدين و بالقومية . . و هي بالواقع شغلة البلح و البِترول!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

سهرات البستان يلتئم فيها الندامى للسكر، فتتنوع أثنائها حياة غايب مرهون . . و تعقيدات الصراع السياسي تتفاقم، و يكبر معها الشرخ بين العراقيين . . و سيبلغ الصراع ذروته بتعرض عبد الكريم قاسم لمحاولة اغتيال فاشلة في تشرين الأول 1959 في شارع الرشيد في بغداد، و يرقد على إثرها في اليوم ذاته في المستشفى . . و ها هو البلد يدخل في حالة إنذار و معه مدينة بعقوبة . . تنزل فيه القوى المصطفة مع عبد الكريم قاسم الى الشارع بحجة ضبط الأمن في المدينة . . و يتوارى فيه عن الأنظار أناس قوى الطرف الآخر المنادي بالوحدة الفورية في بيوتهم . . مقاهي حسين صفاوي و عبود صفاوي و مقهى عصفور و مقهى شكر

و مقهى مناتي تكاد جميعا أن تخلو تلك الليلة من روادها! . . دوريات من المدنيين تنتشر في شوارع المدينة و تقاطعاتها، في وقت غابت فيه عن الشارع أجهزة الشرطة و الأمن التي أظهرت، قبيل محاولة إغتيال الزعيم، أولى أمارات إنحيازها الى القوى المعادية للزعيم، بإستهدافها، بحق أو دون حق، الأطراف الموالية للزعيم!

الليلةُ التي تلت نهار محاولة إغتيال عبد الكريم قاسم ليلةُ خريفٍ تحمل معها أولى النسمات الغربية الباردة، مؤذنةً بإقتراب الشتاء . . حوالي الساعة العاشرة ليلا يترك غايب الكازينو برعاية الدماري، و يصعد في سيارة عبد كولونيا، ذاهباً لأخذ حسين، من بيت خاله عباس شحاذة الذي قضّى به و قت العشاء. و كان عبد كولونيا في عصر ذاك النهار قد ذهب بسيارته الى بزايز بهرز لجلب گرجية الغجرية و معها عازف الكمان و ضارب الزنبور[29]. و قبلها كان هاني ميرخان، يحمله تاكسي كولونيا، قد ذهب الى مقهى في الصالحية مقابل مبنى إذاعة بغداد لجلب وسيم عودة، مطرب مبتدئ شاب تَعرَّفَ عليه ميرخان في أحد ملاهي بغداد، جلبه الى البستان، و تركه هناك ليأخذ قسطاً من الراحة.

يخرج تاكسي عبد كولونيا من الشارع الفرعي خلف مكتبة بعقوبة المركزية، و يستدير حول ساحة بناية المكتبة المركزية، متجها غربا في شارع سينما الزيدي و قد صار إسمها . . سينما النصر . . منذ إستلام الجيش للسلطة في 14 تموز . . مخترقاً التجمعات أمام مقهى مجيد محسن، حيث تنطلق منه تلك الليلة الدوريات الشعبية إلى مناطق بعقوبة المختلفة، و أغلبها مسلح بالعصي . . و يلازم التاكسي خط سيره بمحاذاة الشاخة في صوب التكية، في وقت كادت المقاهي الواقعة على جانبي الشاخة – أن تخلو تماماً من الرواد خلا بعض الأنفار. و عند قنطرة خليل باشا، إستدارت السيارة نحو الغرب، و عند التقاطع المؤدي الى قرية الهويدر، أمام مدرسة الوثبة، و قبل إنعطافها نحو طريق الهويدر،

---

٢٩ «الزنبور» آلة موسيقية من صنف الغشائيات تشبه الطبلة العادية و لكنها أرفع جوفا من الطبلة العادية و تتميز بحدة نغماتها

ستوقفها ثلة من خمسة صبيان مسلحين بالعصي. أطفئَ محرك السيارة . . و أضاء السائق الضوء الداخلي، فإنحنى إثنان من الصبية، لا يتجاوزان الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ليتفحصا الركاب داخل السيارة . . . تعرَّف غايب فوراً على شمران الأحمدي خال ولده مرهون، و لم يتعرف على الثاني، فقال شمران لزميله بما يشبه الهمس الذي سمعه الركاب:

- هذا زوج أختي غايب أبو مرهون!

و يعلق الصبي الثاني هامساً أيضاً:

- و آني أعرف الثاني . . هذا عمنا حسين گطمة! . . و السايق همين نعرفه هذا عمنا عبد كولونيا . . المهم مادا أشوف بيهم و لا واحد عفلقي لو واحد غريب!

معتذراً عن تأخيرهم أشار الصبي للسائق بالمضي في طريقهم . . و أثناء انشغال عبد بتشغيل محرك السيارة، سمع من في السيارة الصبي الثاني يقول بصوت مسموع لشمران ما أراده يكون همساً في أذنه:

- شمران . . الليلة لعلعة الزنبور و الدنابك مال الكاولية راح تشگ بساتين چبينات من أولهه لتاليهه!

- هاي شنو! . . شمدريك؟

- الجماعة رايحين يسهرون!

- . . و شلون عرفت؟

- . . أعرف لأن إستاذ راغب إبن عمي يسهر وياهم ببستان بيت گطمة على نهر ديالى!

تلك الليلة عرف غايب أن نسيبه الصغير شمران الأحمدي كان شيوعياً! . . و تلك الليلة عرف شمران لأول مرة من الصبي الذي معه عن ليالي

السهر التي يرتادها زوج أخته في بستان حسين گـطمة، و بسهرهم يتبدد سكون الليل بأصوات الآلات الموسيقية و غناء الغجريات . . و سرعان ما سيتسرب الخبر الى الأم الصبية أميرة الأحمدي أم مرهون و نرجس!

في البستان . . وجد غايب و حسين أن ما أعده راغب و هاني ميرخان للسهرة قد بلغ حقاً ما يحوِّلها فعلا الى ليلة من تلك التي سمّاها راغب لخلصائه في منطقة چبينات بليالي اللهيب! . . جلب راغب قناني العرق القچغ من درويش عبد الله القريب من بيته، و أهراقها في سطل من الفافون[30]، مُزيداً فوقها ماءً و ثلجاً، و أعد هاني فحم المنقلة، و وضعها في مكان قريب للشواء. و أعدت أطعمة المازات، سلطة، و جاجيك، و لبلبي و باقلاء مسلوقة، و مكسرات من جميع الأنواع، و ضعت جميعاً في أوانٍ، و بينها الأقداح الزجاجية.

تلك الليلة الخريفية، سيتنحنح وسيم عودة، و يصدح صوته المفعم طرباً، مفتتحاً السهرة بموال . . أحمَيِّد . . على أنغام الكمان، ثم يتلوه بعدد من المواويل، تدور خلالها كؤوس الطلا دورتها الأولى، قبل أن تلتحق آلة الزنبور بالكمان لتشق صمت الليل بلعلعتها التي تحملها الريح الغربية إلى أبعد ما يصله حفيف سعف النخل المحيط بالمكان، و يبدأ معه نسيم عودة بأغنية . . يا هلة بحلو المعاني . . و تتمايل الرؤوس مع جسد گرجية الكاولية، بفستان مطرز بالنمنم عند حواشيه، فتلصف حافاته المزركشه المكشكشة على أنوار اللوكسات الأربع المعلقة . . . و مع إنتقالة في الموسيقى، سيصدح صوت گرجية الكاولية ببحة طلية بأغنية مسعود العمارتلي . .بويه عينه شكبرهه . . بويه شگرة الگصيبة . . و يروح غايب يتمايل مع كلمات الأغنية، ثم تاركاً مكانه، ليخرج من عبّه كيس نقوده، ليبدأ طشَّ أوراق النقد من فئة ربع دينار و نصف دينار فوق رأس گرجية. و بإنتقال گرجية الى أغنية أخرى، ينهض هاني ميرخان و بيده الكأس، و يروح هو الآخر يطش أرباع الدنانير فوق رأسها. و بإنتهاء وصلة الطرب، سينضم نسيم عودة و گرجية الى الندمان. و إن كان نسيم

٣٠ «الفافون» هي التسمية العراقية للآنية المصنوعة من الألمنيوم

عودة ليبل ريقه برشفة خمر مجاملة للندمان، إلا أن گـرجية، كما يشاع عن الغجريات، تفضل ألا تمسس الخمر شفتيها، محتفظة بالتقليد الشائع بألا تشرب الراقصة الغجرية الخمر مع أحد، و لا يواطئها أحد في ليلة الندمان، و إن كانت تغري الزبائن بلفتات إغراء من نوع معين تستدرجه لفتح جيوبهم على مصاريعها . . و شلة البستان حافظت على هذا التقليد . . إتفاق جيتلمان . . بألا تُجبر گـرجية على مشاركتهم كأسهم و لا أحد تزين له نفسه مداعبة الغجرية.

ينهض هاني و راغب ذهبين الى المنقلة لإعداد الشواء. و منشغلين بالشواء، يقول هاني لراغب معلقاً:

- راغب . . شفت ذولة الشيوعيين المناويچ شمسوين بالشوارع اليوم!

فيرد راغب مستنكراً:

- و لك تهذَبْ! . . چم مرة گـلتلك تهذِّب الفاظك! . . مو إنت معلم تربي أجيال! . . هذوله العربان اللي تروحلهم لعد شداتعلم أولادهم! . . ليش تحچي حچي مال أدبسزيه و مال سكارى . . مو إحنه بعدنا بثاني بيك![31]

و يعقب هاني على زجر راغب له مكايداً بغمزة من طارف عينه السوداء الواسعة و حاجبه المقوس الرفيع، فيستثير راغب ليعلق:

- . . مو إذا تضطرني أحچي باللغة اللي تحچي بيهه إنت أستاذ هاني ميرخان . . تريد الصدگ؟ . . مو الشيوعيين همه المناويچ![32] . . آني شايف ذوله اللي ختلو الليلة ببيوتهم و ضمو رؤوسهم بعد ما سَوَوْ هالبلبلة الچبيرة بالبلد همه المناويچ مو غيرهم! . . ثم تعال فَهِّمْني! . . ما تگـوللي إنتَ شنو علاقتك بالقومية العربية و شنو هالحماس للوحدة

[31] لفظة «بيك» هي اللفظة التي يطلقها العراقيون على كأس سالخمرة
[32] مفردة «مناويچ» يستعملها العامة العراقيون بمعنى «فاقد الشرف» و ليس بالضرورة بمعنى»ممارس الجنس»

العربية و إنت عجمي إبن عجمي أباً عن جد . . خو جدّك ظل إيراني لآخر أيامه و لسانه ظل يرد على الفارسي . . و أبوك خو ما نعلق عليه! . . لحد هسه إسمه ميرخان! . . و ليش نروح بعيد! . . خو ميرخان همين لحد هسه لما يحچي لسانه يرد و يخبط فارسي بعربي! . . ثم لازم تعرف بالأخير ما راح يصح إلا الصحيح . . إذا أكو بالوحدة العربية فايدة إحنه مو ضدهه بس ضد سالفة الطريقة اللي يريدون يسووهه بيهه! . . و هذول القومچية شدعوه هلگد مستعجلين على الوحدة الفورية و يريدون يقتلون الزعيم لأن الزعيم گاللهم هسه مو وكت وحدة خلونه شويه نشتم نَفَسْنا و نرتب أمورنا گبل ما نسوي وحدة! . . هذا حچي من ذهب! . . لكن هو إذا أكو هيچي شكولات بيناتنه . .

و يشير راغب بيده نحو هاني مستهزئاً، و يضيف:

- شلون ما يتجرأ عبد الناصر و يگول . . البلح في گيب و البترول في گيب!

و يجيئهما صوت حسين من بعيد:

- ولكم ها! . . ها ولكم! . . همين بديتو تحچون بالسياسة؟ . . و الله هالبلد و هالشعب مصيبة . . المعلمين مالته يسوون مظاهرات . . و الضباط مال جيشه يسوون إنقلابات! . .و لكم وين التكة؟

و ها هما يستعجلان بإعداد الشواء . . و يلتحق بهما عبد كولونيا يقدم المشويات إلى مائدة الندامى، و حسين گطمة يتحدث لغايب بما يشبه الهمس:

- أبو مرهون . . آني ردت آخذ رأيك بموضوع يخص خالي عباس شحاذة.

- گول حسين . . خير!

- إنت تعرف زين . . لما مات جدي أبو أمي بستان جدي . .

و يقاطعه غايب:

- تقصد هاذي البستان اللي يم بستانك؟

- إي هـي هـاذي . . ورا مـا مـات صـارت حصـة أولاده . . خالـي عبـاس و أمـي و خالاتـي الثلاثـة . . و مثـل مـا تعـرف الجـاري بيـن النـاس بهيچـي حـالات يفضـل أن يبقـى الملـك بإسـم ذكـور العائلـة . . أقصـد تصيير تصفية و مراضـاة بين الورثـة . . أمـي تنازلـت لخالـي عبـاس مـو بـس لأن تحبـه لكـن لأن أبويـه ميت و لـو چـان أبويـه حـي چـان إحتمـال يسـوي مثـل مـا يسـوون أزواج خالاتـي!

- . . و شيريدون أزواج خالاتك من خالك؟

- خالاتـي و بتحريـض مـن أزواجهـن يريـدن يبيعـن حصصهـن . . يعنـي يريـدن فلـوس و خالـي مـا عنـده يسـددلهن بالوقـت الحاضـر! . . و آنـي مثـل مـا ده تشـوف كل اللـي ده يجـي مـن وارد البسـتان يـا دوب يكفـي مصـرف للبستان و شـويه منـه ده أتونـس بيـه! . . و ما راح أگـدر أسـاعده إلا بالقليـل . . أقصـد مـا عنـدي بـوار فلـوس كافيـة لمسـاعدة خالـي عبـاس!

- زين؟

- و المشـكلة هسـه . . خالاتـي يهـددن عبـاس خالـي بـكل سـاعة و دقيقـة بتحريـض مـن أزواجهـن . . و راحـن يهـددن أيضـا إذا خالـي مـا يسـددلهن مقابـل حصتهـن إحتمـال يروحـن و يحطـن البسـتان لإزالـة الشـيوع بالمحكمـة!

- آني لهسه ما عرفت المشكلة وين بالضبط؟

- المشـكلة هـي إذا إنحطـت البسـتان بإزالـة الشـيوع إحتمـال تضيـع البسـتان

و يضيع خالي وياهه!

- و المطلوب أبو علي؟

- أگول . . إذا عندك نقد زايد ليش ما تسلّف خالي عباس و تفك ضيگته . . و تاخذ منه على المبلغ ربح بسيط . . لأن هذا إذا راح يستلف من عبد الأمير حميدة لو من حميد الهويدراوي لو من دكتور إسكندر راح يگصون رگبته بالفائدة اللي راح ياخذونها منه!

- حاضر أبو علي . . شگد المبلغ؟ . . و لخاطرك أنطي المبلغ بدون ربح . . آني ما متعوِّد أداين فلوس بالفايز!

- لا لا لا! . . لا غايب! . . آني ما أقبل تنطي بدون ربح . . تاخذ منه مثلاً ربع الفائدة اللي ياخذها عبد الأمير حميدة أو حميد الهويدراوي . . شتگول؟

- صار أبو علي . . شگد المبلغ؟

- إحتمال يوصل المبلغ الى أربعمية و خمسين دينار . . لكل وحده من خالاتي يوگع ميِّه و خمسين دينار.

- من عيوني أبو علي . . صار . . أگدر أدبُّر هذا المبلغ . . باچر تعال أخذله لخالك فلوسه.

تلك الليلة، و بطلبه ذاك يكون حسين قد شرَّع لغايب خطَ عملٍ جديدٍ، و هو ما يسميه العامة التسليف بالفايز . . الربا! . . و كأن موافقة غايب تلك الليلة على تسليف خال حسين ستؤسِسَ أيضاً لآصرة مصيرية مستقبلية بين بني عباس شحاذة و بني غايب مرهون!

و يأتي راغب مسرعا ليخبر حسين بأن گرجية تلعب ببندقيته المعلقة في الغرفة و يستفسر منه إن كانت البندقية معبأة بالذخيرة أو لا، فينهض

حسين على عجل مستفسرا:

- معود! . . البندقية بيهه عتاد! . . منو وياهه بالغرفة؟

- هاني ميرخان!

و يعلق حسين مازحا:

- عساهه طاكَتــه لميرخان بطلقة و مخلصتنه منه! . . بس يا معوَّد . . خلي ألحــگ عليهه . . لا تروح تسوي مشكلة بهالليــة . . البندقية بيهه عتاد!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

عيون غالبية أهل بعقوبة ما تزال لا ترى غايب مرهون سوى إبنٍ لمرهون العربنچي الذي كان متسولا، فأتاه الحظ بضربة نصيبٍ وفيرٍ بكازينو صار صيتها يشبه صيت أم كلثوم، و معها مهنة ربا تدر عليه ربحاً، و إن بسيطاً، و لكنه وفير الى حد ما . . و ستتولد له مهنة جديدة إضافية بممات الدرويش عبد الله الشهير بائعاً للعرق القچغ في منطقة السوامرة . . و ذات ليلة من عام 1962 مات درويش عبد الله عن عمر يناهز السبعين في ليلة ستؤشر على أنها واحدة من محطات الصعودِ المتواصل لطالعِ نجمِ غايب مرهون . . صادف أن تكون سهرتهم تلك الليلة في البستان . . و تدور كؤوس الطلا، فيجد غايب مذاقا مختلفا في عرق الكأس التي في يده، و يستفسر:

- هذا مو عرگ الدرويش؟

فيرد راغب:

- لا! . . تعيش إنت . . الدرويش إنطاكم عمره اليوم المغرب . . و خلّه الخمارة المعتادين عليه دايحين و حايرين! . . منين راح يجيبون عرگ بالأربعين اليوم اللي جايه! . . يم الله! . . و لهذا السبب اليوم راح عبد

كولونيا و جاب لنا عرگ صرمهر من أبو ناظم!

يعلق حسين:

- معقولة! . . يعني تقصد هذوله أولاد الدرويش ما راح يبيعون عرگ إلا بعد الأربعين مال أبوهم! . . هذي شغلة تجارة و عيشة . . يعني ما يبيعون عرگ الى أن تنفضّ الفاتحة مال أبوهم؟ . . معقولة! . . بس ما يبيعون لمدة أربعين يوم هذي هي اللي ما معقولة!

فيعقب راغب:

- هاذي عادات أهل المنطقة! . . ناس تعرف قدر موتاهه . . ماكو فرق إذا چان واحدهم بيّاع عرگ أو حملدار بالحج . . إنفراج بالموقف ما يصير عندهم إلا بعد أن تمر أربعين يوم على الوفاة . . يا جماعة هذي عادات!

و يستفسر غايب:

- هو الدرويش منين چان يجيب العرگ؟

يجيب راغب متعجباً:

- هاي شنو غايب! . . يعني منين چان الدرويش يجيب العرگ؟ . . من إيران؟ . . لو من إسكتلندا؟ . . كله چان يجيبه من بساتين هبهب . . عرگ تمر زهدي!

فيقول غايب:

- أگولِلكم يا جماعة الـپـيَك . . و يصير لو ما يصير . . إذا إحنه نروح لبساتين هبهب و نجيب عرگ؟

يرد الجميع:

- يصير ليش ما يصير! . . و منو لازمك ما تروح تجيب؟

قبيل ظهيرة اليوم التالي، سيارة عبد كولونيا الشوفرليه تقل مرهون و راغب ميمِمَة شطرها بإتجاه هبهب . . و كيف يا ترى سيهتدون الى مُصنّعي و مُصدّري العرق القچغ في هبهب؟ . . فضّل راغب أن يتركا أمر الوصول الى مصدر العرق بيد عبد كولونيا، فيوافق غايب. في هبهب . . بعد سؤال و سؤال و سؤال و سؤال و سؤال و جهها عبد كولونيا لأناس عديدين سيهتدى عبد الى البستان مصدر العرق القچغ . . و يحتار و ينذهل غايب بالطريقة التي إتبعها عبد بالسؤال دون أن يدع أي مجال للشك عند من سألهم بأنهم في نية شراء خمرة قچغ، فيعلق راغب:

- لك غايب! . . إنتو ما تصدگوني من أگوللكم هذا عبد كولونيا واوي عتيگ!

السيارة تقطع دروبا ضيقة لا تحصى بين بساتين هبهب . . و عند باب حديدي صدئ لبناء نافر دون أية نوافذ مبني بالطابوق الأحمر في واجهة البستان محتلا فتحة في سياج البستان الطيني، توقف عبد كولونيا بسيارته، و نزل ليطرق الباب يتبعه غايب و راغب . . يطول إنتظارهم . . بعد دقيقتين تقريباً، ينفتح الباب الصدئ، ليبرز منه رجل ستيني ضخم الجثة بوجه عابس يتغطى ثلثه بشاربين كثين . . يسلم عليه الثلاثة، و يفاتحه عبد كولونيا بأمر العرق . . يظل الرجل أول الأمر صامتاً ينظر إليهم بارتياب، و سرعان ما يظهر من خلف الباب الصدئ شابان بضخامة الرجل الستيني، ليسأل أحدهما بلهجة متحدية مرتابة:

- خويه إحنه تَوْنه راجعين من صلاة الجمعة . . شنو عرگ! . . شنو منكر! . . شنو تمر زهدي! . . شنو شُلـُنـگ! . . شنو بطيخ! . . و هذا منو اللي ما يخاف من الله و گاللكم إحنه بياعين عرگ؟

في مواقف من هذا النوع إعتاد غايب أن يظهر فيه إنعدام حيلة . . ظل فاغراً فاه بشبه إبتسامة بلهاء تكشف عن صف أسنان فكه الأسفل الذهبية،

فوجد راغب أنه لا بد من أخذ المبادرة، بعد أن تأكد من طريقة تعليق الشاب و لهجة رده بأنهم لم يخطئوا الهدف بمجيئهم الى هذا المكان، و لكي يزداد تأكدا، رد هو على الشاب بسؤال مفاجئ:

- . . إبن عمي . . راح ألزمك من حَچيَك . . و الدليل . . هذني كلهن اللي ذكرتهن . . البطيخ و التمر الزهدي و الشلنگ كلهن يطلعون منهن عرگ! . . و إلا شجابهن على بالك و جنّي على لسانك؟

أصحاب البستان صامتين و كأنهم أُفحموا بتعليق راغب الذي يضيف:

- . . إنتو تدرون لو ما تدرون؟ . . درويش عبد الله مات!

يرد الرجل الستيني فورا و بجزع:

- إي ندري!

فيعلق عبد كولونيا ساخراً:

- هو البارحة المغرب مات! . . منو جابلكم الخبر؟ . . الفرارة لو الطيارة؟ . . لو تلفون لو برقية؟

يرد الشاب الثاني:

- اليوم الصبح جانه واحد من بعگوبة و جابلنا الخبر.

و يعقب عبد كولونيا:

- لعد شلون گلتو إنتو مو بياعين عرگ!

و يُسقط بيد مصنّعي العرق الثلاثة مرة أخرى، فيسأل راغب:

- منو هذا اللي جابلكم الخبر من بعقوبة؟

يرد أحد الشابين:

- إبراهيم مغامس . . تعرفه؟

و قبل أن يتلقى الشاب جواباً، يضيف الشاب:

- . . واحد آخر جانه من طرف إبراهيم مساوي . . تعرفوه؟

يتجاهل راغب الرد على السؤال، و يقول:

- . . عمي آني راغب السامرلي گرايب الدرويش . . و هذا غايب مرهون صاحب . . كازينو أم كلثوم . . سامه بيهه؟

- لا!

- و هذا اللي ويانا عبد كولونيا السايق مالنه . . إحنه من معاميل درويش عبد الله . . و إحنه ما نگدر ندبرهه بلا العرگ القچغ . . و الدرويش مات . . و بموتة الدرويش لو راح نروح نشتري عرگ صرمُهرْ ما له طعم لو راح نتيه أربعين يوم بعد موتة الدرويش!

يتنحنح الرجل الستيني معلقاً:

- بعگوبة بيهه إبراهيمين . . مغامس و مسّاوي! . . و عرگهم بيه بركة لأن إثنيهم إساميهم على إسم أبو الأنبياء . . ليش ما تشترون منهم أحسن ما عذبين نفسكم و جايين لهنا؟

ينط غايب معلقاً:

- إحنه متعلمين على طعم العرگ اللي ناخذه من إيدين الدرويش!

يضحك الجميع لقلة حيلة غايب في تعليقه، و يقول راغب:

- عمي . . إنتو تدرون عرگ صرمهر مال الحكومة ما له طعم .

. و مثل ما گال غايب إحنه متعلمين على طعم العرگ من إيدين الدرويش! . . و هسه راح تبيعولنه عرگ لو لا؟

يستفسر الرجل الستيني نافذ الصبر:

- إبن أخويْ . . شگد تريدون عرگ؟ . . الكمية شگد؟

يسارع غايب مجيبا:

- شگد ما يلزم صندوگ السيارة!

يبهت الجميع، شراةٌ و بائعون ملتفتين جميعا نحو غايب، فيعقب أحد الشابين:

- شگد ما يلزم صندوگ السيارة! . . شنو السالفة؟ . . يعني راح تتوارثون شغلة الدرويش! .

فيعقب غايب مفاجئاً راغب و عبد كولونيا:

- ليش لا!

و يقاطعه الرجل الستيني سائلاً، و ما يزال نافذ الصبر:

- تتوارثون الدرويش لو ما تتوارثونه . . ما علينا! . . هسه گوللنه إبني . . تريدونه بالقرابة لو بالبُطـُلْ؟ . . لأن السعر يفرق . . البُطـُلْ شويه أغلى من القرابة!

يرد غايب فورا:

- بالبُطـُلْ.

و ها هي أسارير مصنّعي العرق القچغ تنفرج، و يزول عن الرجل الستيني جزعه مبديا صبراً قليلاً، و يعلق مخاطباً ولديه:

- شفتو؟ . . حتى تصدگوني من أگوللكم . . الله ما يگطع بعبده! . . أخذ أمانة درويش عبد الله البارحة . . و ثاني يوم من الصبح و بيوم جمعة الله إستجاب دعاءنا . . و راح يبارك برزقنه . . و بَدَل الدرويش اللي مات دزلنه درويش!

فيعقب غايب عفواً:

- درويش غايب . . عمي!

يضحك الجميع مرة أخرى على تعليق غايب . . الجميع سعداء بإبرام الصفقة.

الرجل الستيني يخاطب راغب:

- إبن أخوي . . خو إنتَ سيد . . سامرلي . . و جدك رسول الله . . و تعرف الأصول . . يصير ترجعون بلا ما نعزبكم و الغدا جاهز؟

يفتح عبد كولونيا صندوق السيارة للشابين، و يدخل الثلاثة وراء الرجل الستيني ليقودهم عبر البيت الى باحة في داخل البستان مفروشة بمقاعد مصنوعة من جريد النخيل، ليتناولوا غداءهم مع الرجل الستيني. و أثناء تناولهم الطعام سيسدد غايب ثمن قناني العرق، في وقت مُلِئَ به صندوق تاكسي عبد كولونيا بمائة قنينة عرق قچغ ماركة . . هبهب . . لفها الشابان بليف النخل كي لا تتكسر عند المسير بإرتجاجات السيارة من مطبات الطريق.

طريق العودة . . يستدير راغب نحو غايب الجالس في المقعد الخلفي يسأله:

- أبو مرهون . . إنت تعنيهه؟

- ياهي منهن؟

- . . أقصد إنت راح تاخذهه جديات سالفة تشتغل وريث لدرويش عبد الله؟ . . أقصد تصير بياع عرگ قچغ!

- راغب . . شنو المانع؟ . . يجيبلنه عبد كولونيا وجبة بضاعة . . خلينه نگول . . فد مية بُطـُلْ . . نخليهه بالبستان عند حسين . . و يروح عبد كل يوم يجيبلي عشرين بُطـُلْ منها للكازينو للبيع . . و هيچي راح يصير حساب عرگ سهراتنه بالبستان على الأوجاغ!

فيعلق راغب:

- بس دير بالك درويش غايب! . . تره هذي الشغلة إذا أحد جلغ عليك واير . . نتيجتهه تصير سجن يطول سنين . . أولاً لأن إنت مسجَّل بالجنسية مسلم . . و المسلم بحكم القانون و الشرع ما يصير يبيع عرگ!

- شنو السالفة راغب؟ . . الدرويش اللي مات و إبلاهيم مساوي و مغامس مو كلهم مسلمين! . . أشو ما أحد متحارش بيهم!

- ما أحد يتحارش بيهم لأن يبيعون بختلة الدرابين و يدهنون السير . . للشرطة و لأهل الگمرگ! . . إنت راح تبيع بمكان عام كازينو! . . عيون حسادك مفتوحة عليك ليل نهار! . . آني قصدي تدير بالك . . و ثانياً لأن هذا عرگ ما مرخص من قبل الحكومة . . أقصد قچغ! . . يعني الصُوچ مو واحد راح يصير إثنين إذا مو أكثر! . .

و يعقب عبد كولونيا معلقا:

- تمام . . أبو مرهون . . هذا اللي يگوله أستاذ راغب صحيح . . لازم تدير بالك درويش غايب!

و يعلق غايب:

- معودين . . لا تسووهه هيچي ظلمة! . . هذوله مو همَّ إبراهيم مساوي

و إبراهيم مغامس يبيعون . . أشو ما أحد دا يجلغ عليهم واير؟ . . بس مع ذلك . . إذا هيچي خايفين . . شوف عبد؟

- بلي!. .

- لعد آني راح إعتمد عليك!

- شلون؟

- . . إنت اللي تختار المشترين . . أقصد اللي تأمن لهم . . و ماكو مانع تكون شريك بالتصريف . . تجيبلي چم بُطُل عرگ للكازينو . . و تخلي عندك بالصندوگ چم بُطُل . . و تاخذ نسبة من الربح.

و يسأل راغب:

- عبد . . أظن غايب يعرف إبراهيم مساوي . . بس هذا إبراهيم مغامس أكو إحتمال غايب ما يعرفه و لا سامع بيه . . گوللي . . هو مو هذا اللي چان طالع صيته يبيع سلاح قچغ . . لعد شجابه للعرگ؟

- أهوووووووو! . . إستاذ راغب . . هو بعينه . . هذا مغامس مثل المنشار! . . و ديته مرة لأبو صيدا . . مكينة مال لغوة أبد ما يسكت! . . وديته و رجّعته . . ما سكت و لا دقيقة بالطريق . . و آنِي ظليت بس أگوله . . إي حجي . . تمام حجي . . عاشت إيدك حجي! . . و الله إنت تفتهم حجي! . . الله لا يحرمنه منك حجي!

- بالمناسبة . . هو حجي من صدگ؟ . . . أقصد رايح للحج لو هيچي حجي طَگ عطيه . . على طريقة حشرٌ مع الناس عيد؟

- حجي من صدگ . . رايح للحج مرتين . . چان حجي يبيع سلاح قچغ . . لكن إنت تدري زين . . حجي يحيى رئيس عرفاء المركز لأن هو همين يشتغل بالسلاح القچغ . . جِلَغ على إبراهيم مغامس واير حتى لا ينافسه .

. و طلعت روحه لمغامس لما خلّص نفسه بطلعان الروح . . وراهه ترك تجارة السلاح و إتجه لتجارة العرگ القچغ! . . بس لعلمك أستاذ راغب . . مصدر العرگ مال مغامس مو بس من هبهب!

- لعد؟

- يجيب من أبو صيدا همين! . . حجي و مكينة مال لغوة . . و أبد ما يوگعن من حلگه هذني . . ما شاء الله! . . بعون علي داحي الباب! . . بالحسين الشهيد! . . إن شاء الله! . . بفاطمة الزهرة! . . إذا أراد الله! . . أحلف براس موسى بن جعفر گاضي الحوايج! . . بإذن الله! . . الله يلعن يزيد! . . إستغفر الله! . . يا جماعة صادف و گللي . . شوف عبد؟ . . يشهد الله عليَّ . . ترى آني واحد من خدام الحسين! . . أعوذ بالله! . . وفقنا الله لمحبة آل البيت و خدمتهم! . . و حق هذي النية اللي من وراهه ماكو غير خدمة آل الرسول!

غايب و راغب يستغرقان في ضحك متواصل على الطريقة التي يُنَغِّم بها عبد ما يرويه لهما بالطريقة التي يقولها بها مغامس، و يسترسل عبد:

- لا . . و گول هو شچان رايح يسوي؟

- شيسوي؟

- چان رايح يجيب عرگ قچغ!

يتواصل الضحك، و يستفسر غايب:

- وين بيته؟

- بأم النوة.

سهرتهم التالية في البستان . . و صار أهراق العرق في كؤوس الندمان على حساب أوجاغ تجارة العرق القچغ التي أضحى حسين گطمة بها

شـريكاً بالبيئـة الحاضنـة، و أمسـى غايـب شـريكاً بالتمويـل و عبـد كولونيـا بالنقل و الترويـج . . و علـى قدر العرق الـذي أهرِقَ تلـك الليلـة . . إنطلقت ضحكات السكر و الشلة تخاطب غايب درويشا! . . و منذ تلك الليلة باتت الشلة لا تخاطب غايب حين يكون في البستان بغير لقب . . درويش غايب!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

ذات ليلة، و غايب بائت في بيته سيتكرر ما حصل بالأمس . . يتلمس غايب بطن أميرة الأحمدي، و بتلمسه العلو في بطنها، يسألها:

- حامل؟

و تجيب خائفة:

- إي!

لا حاجة على الإطلاق لمزيد من الكلام . . و يجتاحه رعبٌ شبيه بالرعب الذي لازمه مع أول حمل لأميرة لأنه تذكر مرة أخرى أمه نرجس و موتها أثناء ولادتها لأخيه عصمان. لم ينم تلك الليلة . . و حين ينزاح عن الليلة آخر سدول الظلام، سينهض من فراشه و يغتسل و يغادر البيت سالكاً طريقه نحو مدخل دربونة أم الدجاج المقابل لسوق الگرطاني . . في نيته تناول فطوره هريسة عند شاكر المعظماوي الذي تحول من بناية خان علي الحسون الى دكان في صف دكاكين بناها حديثاً مصطفى محمود صهر علي الحسون في أقصى شارع الحسينية من جهة أم النوة . . مستديرا الى اليسار بإنحداره نحو شارع الحسينية، جلب إنتباهه خلو مقهى محمود جوير من رواده، بل خلوها من أي إنسان على الإطلاق . . لِمَ؟ . . أحصل شئ لمحمود جوير أم أصابه نازل؟ . . بل و لاحظ خلو حتى الدكاكين الإيوانية المجاورة للمقهى . . ما الذي حصل؟ . . إقترب من المقهى ليرى من وراء زجاج واجهتها ما في داخلها . . كان

المقهى خالياً تماماً من كل شئ تقريباً عدا الصور التي رسمها نسيبه أمير القيرواني و ما تزال تحتفظ ببريق ألوانها. متفرجا على جدران المقهى من وراء بابه، و مركزاً نظره نحو صورة الرجل المهيوب الذي طال عذابه بالبحث عنه. ثمة حركة ورائه، فيسمع من يخاطبه:

- تِسمحلنه أخي؟ . . إذا مو زحمة عليك . . وَخِّرْحتى نفتح الباب!

يتنحى غايب عن الباب جانبا و يستدير ليستطلع الأمر. أمامه ثلة من رجال بيدهم معاول تهديم و قزمات، فإستغرب سائلاً:

- شنو القصة يا جماعة؟ . . هاي شكو؟

سيرد أحدهم:

- تفليش.

- تفليش!

- بلي . . الخان كله راح يتفلش . . هو و الگهوة و الدكاكين . . راح يبنون بمكان الخان سوگ جديد.

فيتبادر الى ذهن غايب أن يسأل:

- و هنا بالگهوة . . منين راح تبلشون بالتفليش؟

- اليوم بالأبواب . . و إذا خلّصنه منها اليوم نتوجه للسگف و بعده الحيطان.

غايب لا يعلق بشئ، فقلبه يتوجس من وصولهم الى الجدار الذي يحمل صورة الرجل المهيوب . . و أول ما تبادر الى ذهنه جلب من يصور له اللوحة . . فمن ذا يا ترى سيصور له اللوحة بألوانها و وضوحها! . . ثم أشار بيده نحو الجدار الذي فيه الصورة الأثيرة لديه، و سأل:

- يعني ذاك الحايط القريب من الأوجاغ ما راح تفلشونه اليوم؟

- لا.

يتركهم وراءه، سالكا طريقه نحو حسينية بعقوبة و يستدير يسارا نحو مطعم شاكر المعظماوي. تناول على مهل صحن الهريسة بالدهن و الدارسين و معه صمونتين، و عاد قاطعاً شارع الحسينية بإتجاه الشاخة. و لأنه يعلم بأن المصورين قد لا يفتحون قبل الساعة التاسعة، و في شربه للشاي قد إعتاد و هو في السوق على تجنب إرتياد المقاهي الكبيرة المعروفة، فضلاً عن ذلك يعرف عزَّ المعرفة أنه زبون غير مرحب به في تلك المقاهي حسداً له و غيرة منه على ما أنجزه . . سيدخل چايخانة حميد سعيّد المطلة على الشاخة مجاورة لخان علي الحسون . . و قبل أن يأتيه حميد سْعَيِّد السامرلي بالشاي، راح يستمع الى رجلين كبيري السن يسعلان و يتجادلان . . الكلمات تخرج من فيهيهما مع دخان السگائر اللّف:

- أبو عمر . . آني بس أريد أعرف هذا الگوّاد جمال عبد الناصر شيريد من عندنا؟

- أبو علي . . عيب! . . شنو گواد؟ . . هذا رئيس دولة عربية! . . خلينه نحچي على گدنه . . لعد هذا الزعيم مالنا مو گواد؟

بتواصل الجدال بين الرجلين . . بالإستماع لحديثهما تعاف نفسه الشاي الذي ينتظره، فينهض ليغادر . . و تقوده قدماه لا شعورياً بإتجاه الشمال نحو مقهى حسين صفاوي.

بدخوله المقهى، غير مصدق ما إجترحته نفسه دون وعي . . حسين صفاوي لا يتواجد في مثل هذا الوقت، فيحل محله عادة مزهر الكهية خال أولاده . . الكهية رجلٌ موتورٌ بإمتياز و صلفٌ بوقاحة لا تضاهيها وقاحة و متكبرٌ بتفاهة لا تدانيها تفاهة . . عدائي بكل معنى الكلمة لكل

من لا يرتاد مقهاه، و وقح على نحو مقزز تجاه كل من لا يؤمن بالوحدة العربية . . و حين رأى الكهية غايب يدخل المقهى، و قف على قدميه من جلسته في مدخل المقهى، و كأنه يستعد لحرب . . يمر غايب من أمامه ملقياً التحية، لم يرد على تحية غايب، و ظل مُسمَّراً في مكانه من هول المفاجأة. و إذ لم يكن يتوقع و لا حتى في أسوأ كوابيسه أن غايب مرهون العربنچي سيدخل مقهاه يوماً، و من هول المفاجأة لربما حتى عجز عن تصور أي حركة يقوم بها تجاه غايب . . بقيت عيناه لا يرف لهما جفن معلقتان بغايب و ما فتئتا تلقيان شرراً لا ينقطع لغاية أن جلس على قنفة قريبة من أخرى يجلس عليها ضابطا شرطةٍ صغيرا السن، ليس في المقهى عداهما سوى ثلاثة أشخاص متفرقين على قنفات المقهى . .

ليس الكهية لوحده من لم يردَّ على تحية غايب، لأن غايب لم يسمع أحدٌ رد له التحية أصلا . . إقترب الكهية من غايب، و وقف قبالته سائلاً بعدائية و وقاحة و إستصغارٍ:

- شيشرب إبن مرهون العربنچي؟

لم يُعِرْ غايب بالاً لإهانة تعوَّد على سماعها من كثيرين من أشباه الكهية و إمتلأت أذناه بها . . عارفا بأن الكهية جاء في الأصل إليه ليهينه، لا ليسأله عما يشرب، لأن سؤال الزبون في المقهى عن طلبه و عما سيشرب هو من مسؤولية الچايچي، فرد غايب ببرود طاغ و إبتسامة تكشف عن كامل صف أسنانه الذهبية:

- چاي.

فينادى الكهية على الچايچي:

- أبو مبطوحة . . تعال جيب چاي لأبن مرهون العربنچي!

يرجع الكهية الى مكانه في مدخل المقهى . . بعد دقائق، يُجئ الچايچي لغايب بالشاي واضعا إياه على الطبلية، فيهمس الچايچي لغايب بعبارات

خاطفة:

- الله بالخير أبو مرهون . . خو ما زعلت من هذا الأرعن؟ . . تره الشغل هنا كله إهانات! . . لاتزعل! . . لأن هذا الكهية إنسان ناقص!

يذهب الچايچي . . و سيطيل غايب من تقليبه لسكر شايه ليقلِّب أثناءه ما تفوه به الچايچي، و يصله أذنيه ما يقوله أحد ضابطي الشرطة القريبين منه:

- يعني أكو أمل نخلص من هذا المخبَّل إبن كيفية؟

- أمل چبير . . و قريباً جداً إن شاء الله!

- قريب جدا! . . شتقصد؟ . . يعني شگد؟ . . أسبوع . . أسبوعين؟

- أسابيع أو أشهر! . . بالزايد شهرين لو ثلاثة!

واضحٌ أن المكان لا خشية فيه على أحد إذا ما أراد شتيمة أو إنتقاد حكومة يرأسها عبد الكريم قاسم . . و يعود الچايچي ليرفع الإستكان الفارغ من أمام غايب، و منحنيا يهمس مرة أخرى لغايب:

- أبو مرهون تشغِّلني عندك؟

يتفاجأ غايب بالطلب و لا يجيب . . و يمضي الچايچي الى الأوجاغ، كيلا يشك الكهية في تبادله حديثاً مع غايب. الفضول يدفع غايب للإستزادة من حديثه مع الچايچي . . فكيف سيفعل يا ترى؟ . . سيطلب شاياً ثانياً بالإشارة المعهودة في المقاهي . . جاءه الچايچي بطلبه ليضعه على الطبلية هامسا لغايب:

- . . مو إذا شَغَّلْتك عندي . . ما تخاف من هذا . . مزهر الكهية إحتمال ينتقم منك؟ . . فكِّر زين! . . آني ما يهمني! . . أگدر أشغلك عندي.

يمضي الچايچي و ينشغل غايب بتقليب سكر الشاي لمدة أطول من المرة الأولى و يشرع بإرتشاف الشاي على مهل بقطرات، و الچايچي يتطلع من بعيد منتظراً فراغ الإستكان كي يعود الى غايب . . و ها هو يعود ليرفع الإستكان الفارغ، فيهمس لغايب:

- أبو مرهون . . شنو ينتقم مني؟ . . يا معود شيگدر يسويلي!

يرفع الچايچي الإستكان، و يعود الى الأوجاغ. و من هناك يلتفت نحو غايب، فيستلم من غايب إشارة لشاي ثالث . . يأتى الچايچي بشاي ثالث. يضع الشاي على الطبلية، و الهمس يتواصل:

- زين و إذا إشتغلت عندي و بعد يومين تلاثة ما عجبك الشغل عندي . . شراح تسوي؟ . . وين تروح؟

عودة الى الأوجاغ . . و يروح غايب يقلِّبُ سكر شايه الثالث و يطيل و يطيل. ينهي غايب إرتشافه لما بقي في إستكان الشاي، و سرعان ما عاد الچايچي إليه ليرفع الفارغ و يهمس:

- أبو مرهون . . أرض الله واسعة . . إذا ما عجبني الشغل وياك أگدر أحط أوجاغ سفري على الشاخة و الله ما يگطع بعبده!

دون الحاجة لمسيار شاي رابع، يهمس غايب للچايچي فوراً:

- زين . . تعال باچر للكازينو! . . تعال الضحى.

غلطة الساخط . . قد لا يكون مزهر الكهية درى بما دار بين غايب و الچايچي الذي يشتغل عنده سوى ذهاب الچايچي الى غايب و عودته الى الأوجاغ مرات عديدة، ما زاد من حنقه الطاغي على غايب، و هو يرى عامله يزود غايب بطلبات شاي إضافية . و بسبب تصعيره لخده و هو يتابع رواح و مجيئ الچايچي، ظل يتلفت و يزداد حنقا و سخطا بسبب ما ظنه مكايدة من غايب بطلباته المتكررة للشاي غير

عابئ بصاحب المقهى. وبنهوض غايب، راحت عينا الكهية تبحلقان به لغاية أن دنا منه واضعاً يده في زيق دشداشته ليخرج كيس نقوده الخامي و يخرج منه قطعا نقدية معدنية و يضعها أمام الكهية على الطاولة . . تطلع الكهية إليه بسخرية ممزوجة بوقاحة مطبوعة على وجهه و كأنه خلق عليها منذ أن ولدته أمه، قال لغايب:

- تلاث چايات! . . شمتريگ اليوم إبن مرهون العربنچي؟ . . پاچة؟

غايب في داخله يعلم إي إنتصار سيحققه على مزهر الكهية بمطلع صبح الغد حين يأتيه چايچي الكهية ليشتغل عنده، و لم تسعفه مخيلته على تصور وضع الكهية حين يصله خبر إنتقال چايچي مقهاه الى كازينو أم كلثوم . . و مع ذلك ها هو غايب يرد بسخرية مقابلة، و صف أسنانه الذهبية تلمع تحت ناظري الكهية:

- لا مو پاچة! . . بس گول الچايچي اللي عندكم چايچي مضبوط . . و خوش چايچي . . و ما ينشبع من الچاي اللي يسويه . . هيچي تصير الحچاية عدله!

ردُ غايب جاء مفحما . . و لكن الكهية و على عادته، قرر أن يتمادى في وقاحته و عدوانيته، فعلق:

- و لك إنت شلون شايف نفسك؟ . . الناس مخبوصة بشغلة شلون تخلص من هذا الزعيم المخبَّل . . و إنت تاخذهم تلهيهم و تسمِّعهم أم كلثوم!

و بفهمه غير المعقد للأمور، من أين لغايب أن يدرك بأن عداوة الكهية ليست لأم كلثوم المطربة التي يأتي صوتها من مصر بلد الوحدة العربية، و إنما لشخص صاحب الكازينو التي سماها على إسم أم كلثوم. و كأن غايب منذ اللحظة التي إتفق بها مع الچايچي سرت في دمائه نشوة نصر يعزُّ تحقيقه على شخص من شاكلة الكهية، و غارقا منذ اللحظة بتأثير سحر النصر القادم غدا و بنشوته سيلقي ها هنا الكلام دون روية،

فيرد على الكهية منتشياً:

- و شكو بيهه! . . و لعلمك موبس هيچي . . مو بس آخذ الناس يمي يسمعون أم كلثوم . . آني راح أچايدكم و حتى أروح آني بنفسي لأم كلثوم بمصر!

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

الساعة تقارب التاسعة، و يمر غايب على جميل اللامي المصور الشمسي طالباً منه أخذ صور للوحة موجودة على جدار مقهى محمود جوير . . يرد عليه اللامي معتذراً لعدم توفر كاميرا فيها فلاش، و ينصحه الإستعانة بالمصور علي مطر في ستوديو الأمل . . و المصور علي مطرسيجد تجربة فريدة في تصوير لوحة من على جدار مقهى . . أخذ المصور أكثر من لقطة للصورة التي رسمها أمير القيرواني لرجلِ غايبٍ المجهول . . و سيسأل المصور غايب عن الرجل في الصورة و عن حاجته لتصويرها . . و يحتار غايب في تسويق السبب و علاقته برجل الصورة، و يحاول أن يتهرب من قول الحقيقة، فيخترع قصة لم يوفق بها:

- ها؟ . . مو هذي الصورة رسمها أمير القيرواني زين . . خوش رسم . . و أريدك تصورها حتى يشوفهه أمير و يرسمهه عندي على حايط الكازينو؟

- و هو وينه أمير القيرواني هسه؟ . . أشو ماكو بالولاية!

- ما أحد شايفه! . . أخباره مگطوعة! . . من راح لبغداد لحد هسه ما أحد شايفه! . . أخباره مگطوعة حتى عن أهله!

و يعده علي مطر بأن تكون الصورة جاهزة بعد يومين.

طيلة نهار ذاك اليوم و حتى مجئ مسائه . . سيظل غايب مبهوراً من

نفسه بما أنجزه في مقهى حسين صفاوي، مع أنه لا يدري كيف فلت منه عيار ما فلت من كلام يشي بشجاعة يفتقر إليها . . ظل دائخاً بتفسير ما فلت منه من عيار الكلام و التدبير . . ممالأة چايچي حسين صفاوي المتمرد و مسايرته و مساعدته في رغبته بالإفلات من قبضة و إهانات مزهر الكهية . . مكيدة لم تجترحها عقلية غايب من قبل و قد لا يكررها مستقبلاً . . و ستموت شلة ندمانه في البستان من الضحك و هو يسرد لهم ما جرى مع مزهر الكهية، إلا هاني ميرخان . . فهو وحده سيعزّ عليه الضحك!

و يعلق حسين:

- ولك غايب . . إنت صدگ صاير مصيبة . . أريد أعرف إنت حچيتهه هيجي تايهه لمزهر الكهية سالفة سفرك لمصر؟ . أقصد حجارة بالظلمة . . بس حتى تچايده! . . لو إنت صدگ ناوي تروح لحفلة أم كلثوم بمصر؟

فيرد غايب:

- و الله هي چانت حجارة بالظلمة . . بس هسه راح تصير حجارة بالنهار . . شكو بيهه! . . و ليش ما تصير صدگ؟ . . يعني ليش ما أروح!

يعلق هاني ساخرا:

- معود أبو مرهون على كيفك! . . تره هذي السالفة بيهه جواز سفر و فيزة . . و قلّبالـُغْ و حجز . . و تركب بطيارة و طربگة.

فيعقب راغب بموقف مفاجئ:

- فعلا يا جماعة . . مثل ما يگول غايب . . شكو بيهه! . . حتى لو بيهه قلبالـُغْ و طربگة . . آني أروح وياه لبغداد و نرتب أموره! . . و ليش لا؟ . . إحتمال حتى آني نفسي أروح وياه لمصر!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

ضحى اليوم التالي، سيلتحق چايچي حسين صفاوي بكازينو أم كلثوم ليتفاهم مع غايب على العمل. وملتحقا بالعمل من لحظة وصوله، يسأله غايب عن إسمه، فيجب الرجل بأدب جمٍ:

- خادمك . .

مرة أولى يُخاطب بها غايب بإعتبارٍ لمقامات معينة، فيحس بإنتعاش في روحه، و هو يسمع الرجل يضيف:

- خادمك . . أبراهيم . . أبو فردوس.

- و إنت منين؟

- من بهرز.

- إسم بنتك فردوس؟

- خادمتك الزغيرة.

- لعد هاي شنو سالفة . . أبو مبطوحة . .اللي يصيحلك بها مزهر الكهية؟

- إستصغار للناس و إهانة! . . إنت سامع بملا روزي؟

- إي.

- ملا روزي جيراني في بهرز هو اللي سمّاهه فردوس . . و مزهر الكهية چان شايف إسم فردوس زايد على بنت واحد يشتغل چايچي! . . أكو غيرهه؟ . . چان يگول على إسم فردوس . . هذا إسم مال ناس كبار!

- و إنت چبير . . يلله . . و لا يهمك أبو فردوس! . . و هو إسم فردوس شنو معناه؟

- معناها جنة!

- الله! . . يلله! . . و آني ما راح أصيحلك غير . . أبو فردوس . . يلله . . شوّقني همتك هنا!

و مذ ذاك اليوم سيتفانى أبو فردوس البهرزاوي في خدمة غايب في أحلك الظروف، بل و حتى بعد رحيل غايب . . و سيبيت في غرفة الكازينو عيناً تسهر على مصالحه.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بعد شهرين و نيف سيُجهضُ حملُ أميرة الأحمدي ذو الشهور الأربعة . . توأم آخر . . ما سيجعل غايب يموت من الرعب، مذعوراً و هو يتذكر موت والدته في ظروف مشابهة . . لكن أميرة ستظل معلعلة الصحة لشهور طويلة . . و حين تتعافى و تتحسن صحتها العامة، ستتعطل أحشاؤها نهائيا عن الحمل طيلة حياتها بسبب ذاك الإجهاض.

** * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بمجيئِ شتاء ١٩٦٣ . . غايب مرهون و راغب السامرلي في واد و مجتمع بعقوبة بكل شرائحه في واد آخر . . و طدَّدَ راغب عزمه على السفر مع غايب، و سيعيشان هو و غايب حمى الإعداد للسفر الى مصر. مجتمع بعقوبة ما يزال شرخ إنقسامه يتسع بطرفين مشغولين بموضوع . . أوحدة فورية إندماجية مع مصر يروج لها البعثيون و القوميون، أم التريث و التفكير و ترك الأمور تأخذ نصابها و مسارها الطبيعي و دون إستعجال بإقامة إتحاد من نوع ما و ليس وحدة إندماجية بعد فشل تجربة الوحدة الإندماجية بين سوريا و مصر؟

عقلية مزهر الكهية و نفسيته كانت أوصدَ من أن يصدق ما تفوه به غايب عن نيته لحضور حفلة لأم كلثوم . . و سرعان ما سيشيع الخبر . . تلقف الخبر أولاً رواد الكازينو. و من أفواههم سيطير الخبر الى جمهور

بعقوبة لينتشر في سوقها و دروبها و بيوتها و مقاهيها . . و من المسافر؟ . . غايب إبن مرهون العربنچي! . . الخبر يشيع في وقت يقارب إحتدام الصراع بين القوى السياسية ذروته. تتبادل القوى السياسية به الأدوار مع أوساط ضباط الجيش المشايعين للقوى المتصارعة من جهة، و المشايعين في الشارع لتلك القوى من جهة أخرى . . و ها هو خبر ذهاب غايب مرهون الى حفلة أم كلثوم تتنفسه الفضاءات الشتوية لمقاهي بعقوبه المكتظة بالرواد . . و فضاءاتها تتناقل الخبر عِبرَ الدخان و السعال و ضوضاء إلقاء نرد الطاولة و زرار لعبة الطاولي و قطع الدومينو، و يعلو على كل ذلك مجمتعاً بالصوت صراخ المتناقشين حول موضوع غايب مرهون و أم كلثوم . . إذا كان موضوع الوحدة العربية قد قسَّم الناس في مقاهي بعقوبة الى معسكرين واضحي المعالم و بحدود جغرافية و بلونين أبيض و أسود، مثلما يحصل في تلوين البلدان في خرائط الكتب المدرسية. و كلّ من المعسكرين يَعدّ نفسه هو الأبيض و الآخر الخصم المختلف عنه هو الأسود! . . أحدهما يشتم جمال عبد الناصر و رغبته بإلتهام بلح و بترول العراق، و المعسكر الثاني شاغله شتيمة الزعيم و معه اليساريين الحمر الكفرة لوقوفهم في طريق تحقيق قدر الأمة العربية الذي كتبه الله لها لإسترجاع مجدٍ غابرٍ ضائعٍ . . و سرعان ما سيختلط موضوع طيران غايب مرهون الى القاهرة لحضور حفلة أم كلثوم بموضوع الوحدة العربية بتماهي الموضوعين مع بعضهما في أحاديث الناس . . وُ ما سيزيد الأمور تشوشاً وتعقيداً في فضاءات مقاهي و بيوت بعقوبة و درابينها هو أنه إذا كانت بعقوبة في موضوع الوحدة العربية منقسمة الى معسكرين بائِني الملامح، فقد قَسَّمَ خبرُ غايب ذاهبا الى حفلة لأم كلثوم جمهور مقاهي بعقوبة و بيوتها الى العديد من المعسكرات . . تلتقي بصيغة بالغة التعقيد و تتفرق على دروب بالغة التنوع!

من أفواه جمهور مقاهي الرجال، ها هو خبر طيران غايب مرهون العربنچي الى القاهرة يطير فيصل آذان جمهور نساء البيوت . . و قد يحتار المرءُ محاولا إحصاء عدد المعسكرات التي برزت في تعليقاتها

. . مؤيدة . . رافضة . . مستصغرة . . مستنكرة . . مندهشة . . متعجبة . . حاسدة . . ساخرة . . مستهزئة . . مباركة . . ممالئة . . منافقة . . حاقدة . . متأسية . . موتورة . . متشائمة . . متفائلة . . خبيثة . . داعرة . . بذيئة . . متطاولة . . غبية . . ساذجة . . غامزة . . لامزة . . مناكدة . . مناكفة . . منقنقة . . و كان الله في عون أميرة الأحمدي أم مرهون و نرجس!

بوصول الخبر الى مقهى حسين صفاوي، لم يصدق مزهر الكهية ما سمعته أذناه و تذكر ما سمعه من غايب متحدياً عن إزماعه حضور حفلة لأم كلثوم، فظن ما قاله غايب مجرد تهريج و إستعراض من رجلٍ قميءٍ يطاول به الناس الطوال . . و ها هي الأشاعة تطير فتصل ربما من طريق أقرباء رواد لكازينو أم كلثوم يرتادون مقهى حسين الصفاوي . . أُسقِطَ في يد مزهر الكهية الرجل النافذ في المقهى، و راحت التعليقات تطير عنده من أفواه رواد المقهى و تتبارى في صراخها مع أزيز زرار الدومينو و نرد الطاوليات و تصطدم بسقف المقهى و تعود الى الأرض، و لأن مقهى الصفاوي كانت مشهورة بروادها من ضباط الشرطة، سيتفوه أحدهم:

- هو هذا منو العربنچي إبن العرنچي اللي يريد يروح لحفلة أم كلثوم . . و عزة الله و رسوله و كرامة شيخ عبد القادر . . لو بس ألگه أحد يجيبلي موعد سفرته . . أگدر أرندِجله مصيبة گبل ما يسافر بيومين و أحطه بالتوقيف الى يوم يبعثون! . . و عود ذاك الوكت خلِ يصير سبع و يروح لأم كلثوم!

في مقهى عبود صفاوي . . و الضوضاء هنا أقل نسبياً، و لأن جمهورها أغلبه من علية قوم الموظفين و المدرسين من لابسي البدلات و الكرفتات، كانت التعليقات لها طابع رسمي يتعلق بالبرستيج . . قال أحدهم لصاحبه:

- هو إنتَ شايفه لهذا غايب مرهون اللي طالع صيته؟ . . أقصد شايف شكله و هيئته؟

عقب صاحبه و جليسه:

- إي شايفة . . شلون ما شايفه! . . لأن مرة رحت سهرت عنده بالكازينو . . هناك و شفته . . هو و دشداشته و كرشه اللي مدندل . . لا! . . و شحلو لما يمد إيده و يطلّع كيس الخام مال فلوسه!

- عفيه عليك! . . خوش وصف . . هو و دشداشته و عبّه الهادل على كرشه . . هو هذا شكولات يروح لحفلة أم كلثوم . . هو شايف جمهور أم كلثوم شيلبسون!

و يقاطعه جليسه مناكفاً لأنه يعلم بأن محدثه لم ير في حياته جمهوراً لأم كلثوم:

- و لعد إنت! . . شايفهم؟

- إي طبعاً . . بالصور مال مجلة المصور و مجلة آخر ساعة و مجلة الكواكب المصرية!

مقهى مجيد محسن . . و جمهورها كله تقريباً من اليساريين، و بينهم من المثقفين أصحاب الذائقة الفنية، كانت التعليقات:

- شي حلو واحد يحضر حفلة لأم كلثوم . . لكن آني أستغرب . . هذا صاحب الكازينو شلون راح يروح للسفارة علمود الفيزا و إحنه بهالحال!

فيعقب صاحبه:

- ليش؟ . . يعني تخاف يروح يتورط لأن السفارة المصرية مراقبة . . يعني إحتمال الأمن يراقب الخاش و الطالع من السفارة؟

و يعلق ثالث:

- لا مو بس هاي! . . آني برأيي هسه بهالوقت . . أي واحد يسافر لمصر

المفروض نعتبره مؤيد لجمال عبد الناصر . . هذا الأغبر شلون يريد يروح لمصر!

في أم النوة . . مقهى عصفور بجمهورٍ أغلبه لا من عِلْيَة القوم، و لا من نخبة تجار بعقوبة، و لا من موظفي الحكومة، و إنما من الحرفيين و الكسبة و الفرّاشين و مزارعي تخوم شمال شرق بعقوبة، ممن يجدون في المقهى منصة يتبارون عليها في إعلان جهلهم بالأمور، كانت التعليقات أغلبها تنصب على من تكون أم كلثوم؟ . . و من هو غايب مرهون العربنچي؟ . . و ما معنى كازينو أم كلثوم؟ . . و بسبب وجودِ قلةٍ قلةٍ بينهم مشايعين لجمال عبد الناصر، على طريقة . . على حس الطبل خُفَنْ يا رِجليَّه! . . بخاصة العربنچي المشهور محمود گُلّاز بوصفه كابينة اعلانات سينما النصر، كان هو من يقود التعليقات في المقهى بسبب جهل الآخرين بأم كلثوم و بصاحب كازينو أم كلثوم لأن عربانته هي التي زفت غايب الى عروسه، و ها هو محمود گُلّاز سيرطن بلهجة مصريه و بنبرة كان يتحدث بها أحمد سعيد معلق إذاعة صوت العرب الشهير:

- الأخوة العرب في أم النوة . . و عزة رَبِنا . . . أي عرائي أو أي حد دي الوَقْتِ يسافر لمصر . .آنا هأعتبره نصر للأمة العربية المـگيدة و تأييد للوحدة العربية و لقائدهه الخالد الرئيس گمال عبد الناصر!

و بسماعهم لهذا البيان الخطبة، يخرَسّ الجميع و يؤيدونه، أما بهزٍّ رؤوسهم أو برفع مبسم نارگيلاتهم، حتى لو كانوا لا يعرفون أين هي مصر و من هو عبد الناصر!

نعيم السامرلي و مقهاه غير بعيد عن مقهى حسين صفاوي . . هنا إسم غايب كاد يُنسى، فروادها أغلبهم من السوامرة، و خبر مصاحبة عشيرهم راغب السامرلي لغايب مرهون في سفرته لمصر . . الجمهور في هذا المقهى أغلبه من القاسميين، و التعليقات لا تعادي الذاهِبَين الى مصر لأن اعجابهم بالسامرلي الذي سيذهب مع غايب مرهون لملاقات أم كلثوم هو

الغالب، و راحوا يتحدثون عن راغب كأنه السامري الصالح الذي تحدث عنه المسيح . . قال أحدهم:

- و الله عفيه على إستاد راغب! . . راح ياخذ بن مرهون العربنچي لمصر و يشوُّفه الدنيا . . و يشوُّفه أم كلثوم!

فيعقب آخر:

- شهايهاي! . . هو هذا إبن مرهون العربنچي . . يعرف يقرا . . يعرف يكتب! . . حتى يروح وحده لمصر! . . عفيه و ألف عفيه على أستاد راغب راح ياخذه حتى يشوفه دنيا! . . سامرلي من صدگ!

و يا لمقهى مناتي و هي قرب محطة القطار! . . التعليقات هنا لها رائحتها الخاصة، لأنها لم تكن تنبع من داخل المقهى، بل من خارجه، بل من أمامه، من على الرصيف الذي يضع عليه أبو دعوچة زميل غايب في الجيش الإجباري و نديمه و نزيله أيام زمان لمدة ليست قصيرة، يعلق أبو دعوچة:

- شلون منيوك هذا غايب! . . و لك غايب منيويچ! . . تريد تروح لمصر؟ . . لحفلة أم كلثوم؟ . . هيچي طفرة قوية؟ . . الله يرحم أيام القطار و محطة القطار . . أيام الگدية من الرايح و الجاي! . . أم كلثوم! . . مصر! . . شَحُطله دا يطيب جرح اللي بگلبي و جرح اللي بطيزي! . . گولة النسوان . . كُسّي إنگلب طير يا أهل التـُفـَگ صيدوه!

و تنطلق منه ضحكةٌ داعرةٌ . . الحسد ينفث أقذر ما في جوف المرء! . . و ينتقل التعليق و معه صدى الضحكة الداعرة الى داخلِ مقهىً أغلب جمهوره من البانزينخانة المقابلة و من خان الخيالة و عمال محطة القطار الذين يعرفون عن غايب و أبيه مرهون أيام زمان . . أيام كانا يقطعان الدروب گديةً . . و تنطلق القهقهات دون توقف، و تنبث معها تنويعات على التعليق الذي يطلقه أبو دعوچة، بخاصة و إن عدداً ليس قليلٍ من

جمهور المقهى يأتي الى المقهى و قد عبَّ في جوفه نصف قنينة عرق على من محل أبو ناظم القريب!

مقهى جبارة المعيدي في العنافصة . . هوى الناس هنا أغلبهم قاسميون و يساريون . . عمال بناء . . حرفيين . . كسبة . . من المعدان و الكورد الفيلية و الشروگية و غيرهم. التعليقات هنا تنطلق أيضا من أمام المقهى، على الرصيف، من وراء منقلة فرمان الكبابچي، بنكهة معروفٌ بها فرمان تشي حبا للفن و الغناء و العزف على آلة الكمان!

يعلق فرمان بما يشبه الإعلان:

- شنو يعني! . . و حتى لو أبوه چان مگدي و عربنچي . . يعني مو من حقه يروح لحفلة أم كلثوم؟ . . لو الكعكاية بيد الفقير عجبة! . . هنيالك ابن مرهون العربنچي! . . يعني لو آني بمكان أم كلثوم و أسمع بواحد بالعراق إبن عربنچي . . العفو أقصد عَربَگي . . مسمي الكازينو مالته على أسمي چان آني بنفسي دزيتله بطاقة دعوة لحفلاتي! . . هنيالك إبن مرهون العربانچي! . . يحيا الفن! . . تحيا أم كلثوم! . . يحيا إبن مرهون العربَگي!

و تمضي تعليقات فرمان و فكاهاته المنبسطة لتتدحرج الى داخل المقهى مثلما تتدحرج الكرة، و تنعاد و تتردد بنكهة إعتاد رواد المقهى أن يقالدونها و يتقلدونها من فم فرمان الكبابچي عازف الفايولين و العود!

مقهى عباس تيتي لها طرازها الخاص . . هي أقرب الأماكن لنشأة مرهون بكر والد غايب و نشأة غايب هو نفسه، بجمع العربنچية الذي فيها من زملاء مرهون العربنچي، و الفرخچية، و باعة الطيور . . كانت التعليقات تنصب على أسئلة من نوع:

رحم لوالديكم . . ما تگولولي هاذي هي منو أم كلثوم؟

و حدة مثل صديقة الملاية!

- و هي منين؟

- ولك من هاي الولاية اللي هجمو عليها الإنگليز و اليهود و فزعولهم أهل روسيا!

- و ليش إبن مرهون يريد يروح يشوفهه تغني؟ . . حتى يتزوجهه؟

ضحك عالٍ و قهقهات يبتلعها سعال التتن الثقيل! . . ضحك! . . قهقهات و ضحك! . . و تنتهي أغلب القهقهات بعفاط و زياگة!

- ليش تضحكون عليَّ و تزيگوني؟ . . شيصير يعني لو تگولولي! . . شنو هي دازه عليه؟ . . و ليش دازه عليه؟ . . المرة ليش تدز على واحد غير حتى تتزوجه! . . تدز عليه غير حتى يروح ينيچهه! . . النبي مو دزت عليه خديجة حتى تتزوجه!

و يضج الضاحكون مقهقهين و ما تزال القهقهات تنتهي بنحنحات و يبتلعها سعال شديد. و يَنعاد السؤال:

- أي گولولي! . . ليش دازه عليه؟ . . حتى تتزوجه؟

الأمور تختلف حين يصادف أن يكون ماهي العربنچي حاضراً في المقهى يجيبهم أولا بزيگ طويل . . ثم يرد عليهم بما يعرفه عن أم كلثوم من المعلومات التي يستقيها من عمله مديرَ إعلانٍ لدور السينما في عربانته و من مشاهدته للأفلام.

و يا للأخ المناكف الشحيح! . . ويصل خبر سفر غايب الى أخيه إبراهيم الذي إسمه على إسم أبي الأنبياء، و يعلق سميُّ أبي الأنبياء قائلاً:

- مخبل! . . يروح بطيارة و يرجع بطيارة! . . و هناك يبات بفندق لو راح يبات بخان؟ . . و يروح ياكل بالمطاعم! . . أكو واحد الله ينطيه فلوس مثل الزبيب و يطشرهه مثل ما ينطش العدس! . . إذا إنچَب چيس عدس

بالـگـاع شـراح يلمـه! . . يـروح من ولايـة لولايـة . . و يصـرف هلـگـد فلـوس حتـى يشـوف مريَّـة تغنـي؟ . . خـوب يُـگـعد و يسـمعهه بالراديـو و يفـض السـالفة! . . . خبـال و كفـر بالنعمـة!

و هـا هـي إشـاعة سفر غايـب و نديمـه راغـب الـى حفلـة أم كلثـوم تتقلـب فـي الزمـان و المـكان! . . إنتشـر الخبـر فـي سـوق بعقوبـة و كأنـه خبـر إنـدلاع حـرب عالميـة ثالثـة. و سـيصل الخبـر الـى نزهـان الأحمـدي حمـى غايـب مرهـون، فيعلـق الأحمـدي المعـروف بحرصـه فـي الـكلام و قلتـه:

- يـروح لمصـر؟ . . الله يوفقـه . . هـو رايـح يصـرف مـن جيـب أحـد! . . رحمـة لوالديـن اللـي گـال . . دينـي لنفسـي و ديـن النـاس للنـاس!

يـا لبعقوبـة بزوعانها لمـا فـي جوفهـا و جعبتهـا و فـي ثناياهـا مـن تعليقـات علـى سـفرة غايـب مرهـون العربنـچـي الموعـودة العتيـدة! . . و ذات مسـاء، و غايـب مشـغول بخدمـة رواد الكازينـو و بتعليقاتهـم عـن سـفرته الموعـودة، بجيـؤهُ برهـوم عريضـي ليخبـره بـأن يهـودا يريـده . . يمشـى غايـب نحـو يهـودا الـذي كان واقفـا بأناقـة بدلتـه و قامتـه المسـتقيمة المعروفـة . . و يسـلم علـى المالـك، فيـرد يهـودا السـلام سـائلاً:

- شنو هالأخبار الحلوة اللي توصلنه!

تـصَنَـتعُ الجهل بالأمور أفضل، فيسأل؟

- يا أخبار عمي يهودا؟

- حفلة أم كلثوم!

و ينبَـشّ وجـه غايـب بإبتسـامة رضـاً صافيـة تظهـر كامـل صـف أسـنانه الذهبيـة خجـلاً و حيـرة، و يـردف يهـودا:

صحيح لو إشاعة؟

- صحيح عمي يهودا!

- و راح تروح بطيارة طبعاً؟

- إي . . كُوون بالطيارة! . . بس عمي يهودا . . آني ما مصَدِگ راح أركب طيارة!

- شوف غايب . . بسبب ظروف المنطقة . . أنصحك لو تروح لبيروت مرحلة أولى . . و منّاك تروح لمصر!

- ليش عمي يهودا! . . و شلون؟

- بهذا الظرف تروح لبيروت و من هناك للقاهرة يكون أأمن . . و هذا معناه تاخذ فيزا لبيروت أول شي . . و تروح من بغداد لبيروت بالسيارة . . و من هناك تاخذ فيزا لمصر و تروح لمصر لو بطيارة لو بالباخرة! . . أحسن لك!

- مفهوم عمي يهودا . . مثل ما تگول!

- زين . . و إنت عندك فكرة عن حفلات أم كلثوم . . أقصد مواعيد حفلاتها؟

- لا!

- آني أجيبلك مواعيد الحفلات الجايَّة.

- أشكرك عمي يهودا.

- بس هذا يظل يبقى بيني و بينك!

- صار عمي يهودا . . آني أشكرك.

ساهرون في البستان في أمسية قريبة . . ينقل هاني ميرخان لغايب و

راغب، ربما إستهزاءً بهما، ما يتردد من أقاويل و إشاعات بين رواد مقهى عبود صفاوي عن شياكة ملبس سيحتاجانِها لحضور حفلة لأم كلثوم، و يزيد حسين معلقاً:

- تدرون إنتو خبر سفرتكم وصل حتى للهويدر؟

يؤيده راغب:

- . . و حتى الى خرنابات و چبينات!

فيعقب حسين:

- . . آني سمعت من واحد من خوالي بيت شحاذة . . يگول إنتو لو تتجنبون هوايه مشاكل بهالوقت و تروحون على طريق بيروت بالسيارة . . و ينرادلكم تجمعون معلومات عن حفلات أم كلثوم و مواعيدها!

و لا يُفضِ غايب إليهم بما دار بينه و يهودا، و يكتفي بتعليق موجز:

- أي . . هي راح تصير هيچي!

و يجيئ لغايب خبرٌ من يهودا . . حفلة في الكويت في شهر شباط ١٩٦٣ تغني فيها . . حيرت قلبي معاك . . و أخرى في القاهرة في شهر آذار ١٩٦٣ تغني فيها . . دليلي إحتار . . سيتضح لغايب و راغب أن ذهابهما الى الكويت قد يبدو مستحيلاً بسبب تبعات عزم العراق الفاشل على اجتياح الكويت. و سيركزان على حضور حفلة القاهرة عن طريق بيروت.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأيام تدور و الأحداث تمور، و نية التآمر المبيتة ضد عبد الكريم قاسم لم تعد خافيةً و باتت سافرةً. ليونة متناهية من رئيس الوزراء العراقي تجاه مخاصميه من العسكر و السياسيين. تذبذب في تحالفاته . . و لم تكن

قد مضت من عام ١٩٦٣ سوى خمسة أسابيع و نيف، و سيصحو الناس صبحاً ذات جمعة في أوائل شباط على إنقلاب يقوده البعثيون و القوميون ضد عبد الكريم قاسم . . مقاومة عبد الكريم قاسم للإنقلابيين لم تفد بشئ! . . و يُقتل إعداماً في وزارة الدفاع هو و رهط من ضباطه، بعد رفضه الإستجابة لمطلب اليساريين و مشايعيه بتزويدهم بالسلاح للدفاع عنه! . . و يُغدرُ به هو و ثلة أصحابه في وزراة الدفاع، بمعرفة عبد السلام عارف الذي عفى عنه عبد الكريم قاسم سابقاً من حكم بإعدامه بموجب مبدأ . . عفى الله عما سلف! . . و لكنه سيتبرأ فيما بعد و ينكر وجوده في المكان أثناء قتل عبد الكريم ملقيا بجريمة قتله على البعثيين! . . و لن يجد مُذيع الإنقلاب النقيب أحمد أبو الجبن في مكتب رئيس الوزراء يظهره على شاشة التلفزيون ليُعَيِّرَ به عبد الكريم قاسم سوى سيت ملاعق فضية و جهاز تلفزيون!

و يجيئُ عبد السلام . . ليصير رئيسا للجمهورية! . . و ها هو ما كان اليساريون يخشونه يحصل، حين طالبوا عبد الكريم قاسم بالسلاح للدفاع عنه، و كانوا يريدونه للدفاع عن أنفسهم . . السجون و المعتقلات تكتظ باليساريين و أشياعهم و بأناس لا علاقة لهم بالسياسة، فأخذوا بالشبهة. و سرعان ما ستبدأ حفلات القتل المنظمة بحق المعتقلين، بخاصة بعد إصدار سلطات الإنقلاب البيان رقم ١٣ السئ الصيت، الذي يبيحُ قتل اليساريين علناً و دون محاكمة أينما وجدوا! . . ها هي الصُورُ تُنفخُ بصيحة الموت من جديد . . الصيحةُ الشهيرة تُستَنهَضُ بِكَرِّ السنين و القرون . . أقتلوهم حيثما وجدتموهم! . . و خلال أسبوع سيصفّي الإنقلابيون من على وجه أرض العراق ما لا يقل عن أربعة آلاف عراقي من العلماء و المثقفين و المتنورين . . أبادة جماعية!

فوضى القتل العمد تعم البلد . . فوضى مجردة من العقلانية و الوازع الإنساني و العدالة في شتاء قارص البرودة. المئات الأولى، بل الآلاف الأولى من المعتقلين اليساريين من جميع مدن العراق أرسلوا الى بغداد بسيارات الجيش الكبيرة، ليتكدسوا في معتقل خلف السدة السئ الصيت،

و هو مجموعة من البنگلات بناها الإنكليز أبان الثلاثينيات لينام المعتقلون على أرضياته الإسمنتية العارية . . و يمر أسبوع و ها هو المعتقل الكبير يكتظ بالمعتقلين و لا يعود يتسع لزيادة، فيتوقف إنقلابيو مدينة بعقوبة عن إرسال المعتقلين الى بغداد، و راحو يستبقونهم في بعقوبة مثلما فعلت مدن أخرى.

موقف شرطة بعقوبة يكتظ بالمعتقلين اليساريين و المأخوذين شبهةً من مختلف الأعمار، و الفائض منهم ستكتظ بهم بناية مقر نقابة المعلمين. حزن و قلق و خوف من المصير المجهول يعمَّ أبناء المدينة و يهدد شوارعها و طرقاتها و درابينها و بيوتها و أسواقها . . و إمتد البلاء الى أقضية و نواحي لواء ديالى . . و قرى قصبة بعقوبة . . بهرز . . الهويدر . . خرنابات . . العبارة . . حد مگسر . . كنعان . . من كل بيت رابع أقتيد شخص ثالث من البيت . . صبيا أو شابا أو شيخا أو إمرأة!

الخراب القومي الخلاب تنبث سمومه في كل الإتجاهات . . أغلب مقاهي بعقوبة تقفل أبوابها بُعيد آذان المغرب لندرة مرتادين فضَّلوا الإنكفاء في بيوتهم . . مقاهي حسين صفاوي و مقهى عبود صفاوي و مقهى شكر في سوق بعقوبة العتيد و مقهى عصفور في أم النوة و مقهى مناتي في شارع محطة القطار هي الوحيدة التي تظل ساهرة في مدينة تحولت طرقاتها في ليالي شديدة الحلكة و قارسة البرودة الى فضاء أشباح . . و في محنة الإنقلاب الدموي سيصح المثل العراقي السائر القائل . . رزق البِزازين على المعثرات[٣٢]! . . في أتون إنقلاب العثرة القومية الكارثية، ظلت أضوية . . كازينو أم كلثوم . . تشع و تتلألأ ليلاً لجمهورٍ طالما نكفَ عن السياسة و أنِفَ عن السياسيين، و ظل صوت أم كلثوم يشق سماوات مدينة ران عليها الصمت مكروبة بِغَمٍ لا تداويه أغنيات أم كلثوم . . الغم أتى بإنقلاب دبَّره الأمريكان صبيحة الثامن من شباط كي يفقأوا به عين خصمهم الكوني السوفيتي في منطقة من العالم معروفة عبر تاريخها

---

٣٢ «بزازين» جمع «بزونة» و يستعملونها العراقيون مرادف لـ«قطة» . . و المثل هو رديف المثل السائر «مصائب قوم عند قوم فوائد»

الشعري المقدس الطويل بسهولة تجييش سوء النية و العداوة و الوقاحة . . يا للمفارقة!

أتون الرعب الذي يشيعه الإنقلاب في بلدة بعقوبة مستمرٌ . . و ثلاثة لهم علاقة بغايب كانو قد سِيقوا الى المعتقل. إثنان يهمه أمرهما . . راغب السامرلي نديمه و رفيقه المعوَّلِ عليه في سفرته القادمة الى القاهرة. لم يكن شيوعياً، إعتَقَلوه شبهةً و رَحَّلوه ساعة إعتقاله الى معتقل خلف السدة في بغداد! . . و الثاني صُبيح علو الدنداوي صديقه صاحب كبابخانة كازينو أم كلثوم، سيق الى معتقل موقف مركز شرطة بعقوبة . . و ثالث يكاد ألا يهمه أمره، نسيبَهُ الفتي شمران الأحمدي، الذي راح الحرس القومي منذ الساعة الأولى إعتقاله يسمونه . . شمران الأحمري . . و ستشيع عنه التسمية الجديدة بين حرس المعتقل من الشرطة!

مرحلة أولى . . سِيقَ شمران الأحمدي إلى معتقل نقابة المعلمين بغية نقله الى معتقل خلف السدة في بغداد. و بإيقاف ترحيل المعتقلين الى بغداد، نُقِل شمران و آخرين بعد أسبوعين الى معتقل موقف شرطة بعقوبة، فإكتظت حجراته الأربعة الكبيرة بمئات المعتقلين و إمتلأت معها ساحته المكشوفة أمام الحجرات و مساحتها تعادل مساحات الحجرات مجتمعة . . يستلقي فيه المعتقلون ليلاً مصطفين في نومهم على الأرض العارية متلاصقي الأجساد، مثل جثث متيبسة بسبب البرد القارس، بإنتظار عودة من يأخذه الحرس القومي لحفلة تعذيب في ليل السعال . . مفازاتُ قملٍ يعدون فيها النجوم في ليالي صفو السماء، و تتخضل حتى ألبستهم الداخلية بالرطوبة حِين تَشُخّ عليهم السماء دون رحمة شخيخاً إنتقامياً متواصلاً، فيلجأون الى حجرات المعتقل ليقعدوا القرفصاء جميعا يقظين، تاركين أفرشتهم و أغطيتهم يغسلها ماء السماء حتى طلوع النهار، فتلازمها رطوبة و عفن دائمين يدبّ في أجسادهم أثناء النوم . . و من يُؤخَذ الى حفلة تعذيب في الليالي الممطرة يعود ليجد في برودة مياه المطر سلوى و دواء يغسلُ به جروحه و تَنفَشُّ به بعض تورمات جسده المعذب، و يستلقي على أفرشة

توطنها العفن طيلة ليل السعال . . و إذ تتحول حفلات التعذيب الليلية أحيانا الى حفلات موت مجانية، يخسر من يأخذونه بها حياته، يظل المعتقلون جميعاً ساهرين جلوساً بإنتظار غودو الذي لا يأتي! . . الإله الأثول الذي يُساق الناسُ بإسمه الى الموت و العذاب في كل زمان و مكان!

و مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ! . . بإعتقال صبيح الدنداوي، ها هي الفرصة تتوفر لأخيه أبي دعوچة فرصة التقرب من موقع كازينو أم كلثوم و بذريعة خوفه على منقلة أخيه صُبيح كيلا ينطفئ جمرها، سيطلب من غايب أن يسمح له بالحلولِ محلَ أخيهِ على منقلة كبابخانة الكازينو، و في ذهنه . . ضَربُ عصفورين بحجر واحد! . . تحقيق ربح يفوق بكثير الربح الذي يحققه من منقلته على رصيف مقهى مناتي، و معه أيضا الإقتراب من بؤرة عمل غايب! . . و من المستبعد ألا يكون هذا جاء بترتيب من أبيه و أخيه برهوم عريضي ليكون بذا حصان طروادة علو الدنداوي في كازينو أم كلثوم، فيتسنى للدنداوي و ولديه أبي دعوچة و برهوم عريضي أن يعملا على تقويض غايب مرهون العربنچي من الداخل!

جوّ مكفهرّ بإحداث جسام . . و مع ذلك، لم تفتر همة غايب عن تنفيذ فكرة سفره لحضور حفلة أم كلثوم على الرغم من إعتقال نديمه و رفيق سفره المحتمل راغب السامرلي، ما أثار إستغراب حسين گطمة، و إن آثر عدم الإفصاح عن إستغرابه لإدراكه أن مصالحه مع غايب هي الدائمة.
و تمر الأيام الأولى من شباط بما شهدته من أحداث دراماتيكية و حتى نهايته، و ها هو يهودا يوضح لغايب إنتفاء حاجة المرور ببيروت طالما صارت السلطتين في العراق و مصر على وفاق، و سيصير بإمكانه سلوك الطريق المباشر بالطائرة الى مصر لحضور حفلة 7 آذار 1963 على مسرح حديقة قصر الأوزبكية في القاهرة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مساء السابع من آذار في القاهرة . . ما يزال ثمة فسحة ساعتين قبل بدء حفلة أم كلثوم. غايب مرهون واقف على باب قاعة مسرح حدائق

الأوزبگية غير مصدق نفسه، مرتدياً بدلة كحلية من الجوخ الإنكليزي خِيطت في بعقوبة، و دون ربطة عنق . . و حين ينفتح باب القاعة سيجلس في مقعد خلفي، و فرته له بطاقة دخول كلـَّفَت غايب ما يوازي تقريباً ثمن البيت البائس الذي يسكنه في دربونة أم الدجاج . . يا للگدعان! . . و يا للفهلوة!

بعد طول إنتظار، ستكتظت مقاعد المسرح بجمهور الحفلة، و تتعالى ضوضاء أحاديث الجالسين رجال و نساء. و غايب يتفرج عليهم مبهوراً، مذهولاً غير مصدق ما يرى بأم عينه . . رجالٌ ببدلات أنيقة فارهة . . نساءٌ ببدلات داكنة الألوان، أغلبها عارية الكتفين و الصدر . . جوُ فرجةٍ تجري أمامه فيتلفت من حوله خائفا و برهبة، فرجةٌ لم يرَ لها مثيلا من قبل قط. الوقت يمر عليه بلمح البصر . . و سرعان ما خفتت الضوضاء بإنسحاب ستارة المسرح فجأة لتظهر الفرقة الموسيقية . . و يتعالى تصفيق الجمهور للفرقة . . و تظهر أم كلثوم، و يقف الجمهور ضاجا بتصفيق أشد، و بإنتهائه تجلس أم كلثوم على كرسي موجود في مقدمة المسرح . . و أعضاء الفرقة يمرنون أناملهم و على أوتار الآلات و أفواههم على مباسمها . . جوٌ ينأخِذُ به لـُبَّ غايب مرهون العربنچي تأخاذاً.
أخذه الجو الى ذكرى أبيه . . و محطة قطار بعقوبة . .
أخذه الى ذكرى دروب بعقوبة التي طرقها مع أبيه متسولا . .
أخذه حتى الى تخيل طرقٍ في بعقوبة لم يطرقاها قط . .
و مرت بخاطره ملامح وجه أمه نرجس المشوشة . . .
و تقاطيع وجه أميرة الأحمدي بجسدها الكمتنز الملتز القصير و شعرها الجعِد الأشقر!
و يكاد يبكي مثلما بكى يوما على أبصال النرجس المتكسرة!
و تبدأ الفرقة إطلاق أولى أنغام الحفل . . و ها هي السيدة أم كلثوم تقوم لتنتصب قامتها على المسرح، فيقف لها الجمهور مرة أخرى ضاجاً إلا غايب. و بلحظةٍ أولى إستند على تكئةِ المقعد كي يقف إستحياءً بصمت مثل صمت الحجر، ثم عاد و جلس منزوياً بين قامات الجمهور العالية في

المقاعد الخلفية لرجال إعتادوا أن يظلوا واقفين لدقائق بعد جلوس جمهور الصفوف الأمامية يصفِرون و يحيون السيدة.
و ها هي أنغام موسيقى الأغنية الجديدة . . .
أولى كلمات الأغنية تتفوه بها السيدة . . و تضج القاعة بالتصفيق و الصفير تكريماً لسيدة الغناء العربي، و يقف الجمهور من حول غايب مرة أخرى محييا السيدة . . و غايب يظل غائرا في مقعده . . و ما أن يجلس الجمهور، يتطلع غايب الى خشبة المسرح البعيدة، محاولاً أن يطابق، من بعيد، في ذهنه بين صورة السيدة الماثلة أمامه حيَّة و الصورة التي طلب من أمير القيرواني نسيبه أن يرسمها للسيدة . . القرطين المتدليين . . تسريحة الشعر . . الوجه و ملامحه . . و إنسابت إلحان الأغنية ينقلها الأثير حول كوكب الأرض تلك الليلة . . تلك ليلةٌ واتى فيها الحظ معتقلي موقف شرطة بعقوبة المستلقين فوق أفرشة لا تقيهم إلا قليلا من برودة الأرض الكونكريتية الصلبة المُقرَّةِ . . ليلة صادف فيها الا يأخذ الحرس القومي أحداً منهم الى مقبرة الشريف المرتضى في جولة تعذيب . . و من راديو ترانزستور صغير قريب بمعية أحد النزلاء، كانت ألحان أغنية أم كلثوم تصل الفتى شمران الأحمدي و رفيقه الشروگي أبا ذر المحمداوي، يستمعان و هما مستلقيين في ساحة المعتقل تحت سماء صافية تتلألأ فيها النجوم . . و شمران منذ كان صبياً في أول لقاء له بغايب مرهون نفر، و لسبب ظل يجهله، من الذي سيكون يوما ما زوج أخته أميرة، و أتى نفوره من أم كلثوم حين طلب غايب من أمير القيرواني أن يرسم صورة لأم كلثوم كي يعلقها على واجهة الكازينو.
غيرُ دارٍ بما يخبؤه الغد، يسمع شمران أبا ذر يقول:
- بويه شمران . . تراهم اليوم ما خَذَوْ أحد للتعذيب . . خلنه اليوم نتونس بأم كلثوم!
فيرد معلقا:
- تحب تسمع أم كلثوم؟
- چا شلون . . ذوق و جمال و فن راقي!
و يجد شمران نفسه مجبرا على الإصغاء لأم كلثوم تترنم بكلمات أغنيتها

. .
تغيب عني و ليلي يطول
و قلبي في هواك مشغول . .
و أقول إمتى أنا و إنت
هنتقابل مع الأيام . .
مع الأيام . .

و رغم آلامه من التعذيب، سيهزُّ شمران الشوقُ الى سطح بيتهم الشرقي و غصون شجرة اليوكالبتوس الضخمة تحجب عنهما القمر، هو و الصبية خولة على السطح لا يباليان ببرد الشتاء . . و يصغي أكثر ليتذكر بخاصة لقاءهما الأخير في ليلة سبقت صباح إقتياده للمعتقل. و يصله صوت أم كلثوم تقول كلماتها . . .

و لما ألقاك قريب مني . . .
و أقول البعد تاه عني . . .
أشوف عينك تراعيني
و قلبي من لقاك فرحان . . .

و تسيل دموع شمران الفتي بصمت، فيدحس رأسه بين مخدته و فراشه، كي لا تنفضح دموعه لأبي ذر رفيقه، يدفن رأسه تحت وسادته الوسخة مشبعة بالرطوبة و العفن . . لكن جاره الشروگي الفطن الحنون و قد إعتاد أن يداوي جراحه و يواسيه كلما أعادوه من جولة تعذيب، سينتبه لنشيجه الصامت، و ينحني عليه، ليعلق:

- بويه شميران . . چا إنت واگع و ما تگِللي! . . إنت واگع و ما تحَچي! . . بويه إحِچ! . . سُولِف! . . إنت ويامن واگع بالعشگ؟

و من بين عينيه المترقرقتين بالدمع يجيب بصبيانية معترفا:

- خولة . . بنت الجيران.
- بچيت على خولة يا مفلوگ! . . جيران سطح يم سطح؟
- بلي.
- لحتهه لو ما لحتهه؟
- أي . . إلتقينا.

- و من الطوفه تلوحهه! . . و جرّبت النعيم؟
- إي . . يعني . . مثل ما تـگول لأن إحنه سطح يم سطح!
- يا للجمال! . . بويه . . . الله يساعدك!
و إذ لـم يحصـل و أن بكـى شـمران يومـاً مـن آلام التعذيـب، كأن زميلـه الشروگـي حـزر مـا أثـار مواجـع شمران و هـو يسـتمع الـى كلمـات أم كلثـوم . . قبيـل إعتقالـه بشـهر، كان شـمران قـد بـدأ بتجربـة لوعـة الشـوق و ذاق طعـم الجسـد، و إن بفجاجـة، فأسـكره نعيـم لقائـه لأول مـرة فـي حياتـه مـع خولـة إبنـة الجيـران . . يلتقيـان فـوق سـطح المنـزل ليـلاً حيـن يهجـع النـاس مـن البـرد الـى أسـرتهم مبكريـن . . تَعبـر إليـه مـن فـوق سـتارة سـطح واطئـة نسـبياً تفصـل بيـن سـطحي بيتيهمـا . . يجلـب معـه لحافـاً ثخينـاً يلفهمـا مـن بـرد الليـل . . يجلسـان علـى سـرير الجريـد الموجـود علـى سـطح المنـزل فـي الزاويـة . . يعريـان أعلـى جسـديهما، و حيـن يبغـي رؤيـة نهديهـا الصغيريـن الأبيضيـن ببيـاض الثلـج و كأنهمـا وليمـة لناظريـه فـي ضـوء القمـر، يـروح فيسـحب اللحـاف مـن فوقهمـا لينكشـف لـه النهـدان فـي ضـوء القمـر الفضـي المتسـلل مـن بيـن أغصـان شـجرة الكالبتـوس الضخمـة مـن فوقهمـا، فيبهـره لـون نهديهـا الثلجييـن الصغيريـن و يأخذانـه بلونهمـا المزيـج الـذي طالمـا حيرتـه تسـميتهما . . رمانتيـن صغيرتيـن؟ . . لا! . . تفاحتيـن صغيرتيـن . . لا! . . ليمونتيـن صغيرتيـن و هـو التشـبيه الأقـرب فـي اللـون و الحجـم . . و النهـدان يسـكرانه فـي ضـوء القمـر؟ . . لا! . . بالتأكيـد شـئ أبهـى مـن كل مـا يتصـوره الآن!

و يبكـى شـمران فـي داخلـه بـكاءً مـراً . . و هـو يسـتمع الـى أم كلثـوم مـن راديـو ترانزسـتور صغيـر . . ينبهـر بصوتهـا و تأخـذه ألحـان الأغنيـة و

شجيه كلماتهـا . . و إذ كان الدمـع عصـي، فمنـذ اليـوم سـينفرط عقـد عصيِّـهِ . و سـيغدو مـا أسـهل أن ينسـكب دمعـه!
سابح بالدمـع، و لـو قـُيضَ لشـمران أن يخبـره أحـدٌ مـا بمـكان تواجـد صهـره غايـب تلـك الليلـة، لـكان فَضّـلَ المـوت علـى أيـادي معذبيـه علـى أن يـدري

بمكان صهره غايب الغائص اللحظة في مقعده في حفلة لأم كلثوم . . المفارقة! . . غارقٌ بدمعه الغزير و صهره الذي ينفر منه في مسرح حدائق الأوزبگية في القاهرة مبهوراً يتطلع الى أم كلثوم يعيش لحظة قد لا تخطر حتى في خياله، و هو أمام بهاء أم كلثوم، هو أيضا لا يخطر بباله بأن نسيبه الفتى شمران الأحمدي كان ينفر من أم كلثوم بسببه و لا يدري أيضا أن نسيبه في هذه اللحظة نفسها سيتصالح مع أم كلثوم مستمعا الى آهاتها و كلمات أغنيتها تصور له الحال الذي هو فيه!

و بعشقِ أبي ذر رفيقِ سجنه لأم كلثوم، يروح تراضي شمران الفتي يتعزز مع أم كلثوم . . و عند آذان الفجر، و هما ما يزالان صاحيين، قال أبو ذر لشمران:

- ما يجيك نوم؟
- لا!
- و لا آنه!

مغطياً على صوت السيد عبد الكريم المدني يؤَذِنُ لصلاة الفجر آت من المدى البعيد . . يتيه صوت أبي ذر حميماً و دافئاً يغني لشمران:

- شلون ينام اللي غطاه هموم . . .
و فراشه حِسچْ سِعدان . . .
ما ينْجاسْ . . بويه لا لو . . .
بويه لالو . . .

و إن لم يكن ليفهم بالتمام معنى التعبير . . حِسچْ سِعدان . . بلغة الشروگية بكى شمران مرة أخرى على تعبير . . شلون ينام اللي غطاه هموم . . و هو يستمع لصوت رفيقه الجنوبي الدافئ يترنم بالشجن، و يكتشف أبو ذر مرة أخرى نشيجه الصامت، فيغنى له:

- يا شميري بطِّلْ نوح . . و إهجع شويه
نوحك بعد شيفيد . . بويه وشالت خولية[34]

---

٣٤ البيتان في الأصل في أغنية لداخل حسن و حضيري ابو عزيز . . . يا «حضيري» بطل النوح و إهجع شويه/ نوحك بعد شيفيد بويه و شلات «هدية».

و آنه اللي هِويت الضيم . . بويه ما جاني گـوه
و يـگولي إنت منين . . بويه و أنكر الخوه

و يظل شمران ينتحب ببكاء كبته منذ أول مرة أخذوه بها الى التعذيب . . و سيغفو مع أول إنبلاجات الصبح . . و لم يكن ليدري أن في غناء رفيق سجنه نبوءة، سيتفاجأ بها عند خروجه من السجن!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مثل عراقي شائع يقول . . صيف و شتاء على نفس السطح! . . في تلك الليلة نفسها، ليلة 8-7 من آذار 1963 . . و صوت أم كلثوم يدور شاقاً طريقه في الأثير حول كوكب الأرض ليصل الى راديوات العالم، كانت زمرة من ضباط بعثيين و ناصريين ينتشرون تحت جنح الظلام مع ثلة من جنودهم في العاصمة السورية دمشق الواقعة جغرافياً بين العاصمتين بغداد و القاهرة . . يتحركون مثل خفافيشَ ليلٍ ليستولوا مع إشراقة يوم الثامن من آذار على السلطة.
و في الليلة التالية، سيحتفل الحرس القومي في بعقوبة، على طريقتهم الخاصة، بعرس رفاقهم البعثيين الشاميين، فيقودون أكبر عدد ممكن من المعتقلين الى مسرح التعذيب بين قبور السيد الشريف المرتضى في بعقوبة الجديدة . . و كان شمران من بينهم . . و يقولون لنا إن الخير ينتصر!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعودته من رحلة عمره و وصل بعقوبة ظهرا، و فيها إنتظره خبرُ رحيل أم رحمن عن الدنيا أثناء و جوده في مصر . . حماه نزهان الأحمدي و بعض رجال جيرة المحلة و السوق كانوا هم من حمل جثمان أم رحمن الى مثواها الأخير في مقبرة أبي دريس . . المرأة المتوفاة بمثابة أمٍّ لغايب و راعية لأميرة أثناء بِعادِ زوجها عن البيت . . أراد غايب أن يسألهم أن كانوا قد دفنوها قريبا من أمه نرجس، لكنه أحجم و قرر الذهاب بنفسه الى المقبرة، و هناك بكى على رمس بعيد عن قبري أمه و أبيه، للمرأة التي كانت تعين أميرة زوجته في تربية ولده مرهون و

إبنتـه نرجـس، و زار قبـري والديـه . . و عنـد عودتـه الـى البيـت، ستلمح لـه أميـرة بأنـه برحيـل أم رحمـن سيكون عليـه وضـع ترتيـب لوضعهـا. و إذ رحلـت المـرأة التـي كانـت ترعاهـا بغيابـه، سيكون مـن غيـر المناسـب أن تبقـى لوحدهـا فـي المنـزل!

الليلـة التاليـة سـهرته فـي البسـتان، غايـب فـي محنـة خوفـه مـن بقـاء أميـرة لوحدهـا فـي البيـت دون أنيـس، بعـد رحيـل راعيتهـا أم رحمـن، فتجيئـه النصيحـة مـن حسـين گـطمة بالسـعي لإقنـاع أنسبائه بإسكان زوجتـه و عيالـه عندهـم. و بعودتـه منتصـف الليـل مخمـوراً، سيجد حماتـه صافيـة فـي بيتـه تنتظـر مجيئـه، و سـتواجهه بشـكواها مـن بقـاء إبنتهـا لوحدهـا فـي الـدار. . و بتأثيـر الخمـرة يتشـجع غايـب بمفاتحتهـا بمـا نصحـه بـه نديمـه حسـين، معلـلا ذلـك لحماتـه بحاجتهمـا هـي و إبنتهـا الـى ونيـس. و كأن حماتـه كانـت متهيئـةً

لتقبـل الحـل، فوافقـت فـوراً، بخاصـة و هـي تعانـي مـن غيـاب ولدهـا شـمران فـي المعتقـل . . فـي يـوم تـالٍ سـيوافق نزهـان الأحمـدي علـى إنتقـال أسـرة صهـره غايـب للسـكن معـه فـي بيتـه.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

عـودة غايـب مـن مصـر لـن تمـر دون عقابيـل الأحاديـث . . ظهـورهُ فـي سـوق بعقوبـة بعـد عودتـه مـن القاهـرة لـم يكـن ليمـرَّ دون ذيـول . . بمَـرْآهُ فـي السـوق، سيـُصار حسـادُه عليـه إلـْباً واحـداً، و أغلـب الذين سيتألبون على حسـده، سـيفكرون بكيفيـة إيقاعـه، بعـد أن بلـغ، برأيهـم، سَـيلُ إبـن مرهـون العربنـچـي الزُبَـى . . و سيتألبون عليـه أكثـر حيـن يـروح، بعـد يوميـن مـن صحـوه مـن محنـة بيتـه بمـوت أم رحمـن، ليمـر مـن أمـام مقاهـي بعقوبـة و كأنـه يسـتعرض نفسـه و هيأتـه التـي حضـر بهـا حفلـة أم كلثـوم . . و رُئِيَـت هيئتُـه فـي سوق بعقوبـة فجـة بنظـر الكثيريـن مـن رواد مقاهـي السـوق، يتزيـا ببدلـة مـن قمـاش الـچوخ خاطهـا لـه فـي بعقوبـة زاهـد الخيـاط . . مكشـراً لهـذا أو لـذاك بصـف أسـنانه الذهبيـة، و مسـتمعاً لتعليقاتهـم التـي يسـوقونها بظاهـر غبطـة و باطـن غمـز و لمـز، لدرجـة أن البعـض منهـم كانـوا يُسـمعونه مـن

بعيد تعليقات عن أيامه مع أبيه في محطة القطار و عن ماراثون الـگـدية في دروب بعقوبة . . أشد المتألبين عليه نقمة كان أولئك الذين في مقهى حسين صفاوي. يمر من أمامهم ضحى و يغيضهم، بخاصة مزهر الكهية الذي بلغ حقده على غايب شأوا بعيدا، بخاصة بعد إختطافه للچايچي أبي فردوس من الكهية. و حقد الكهية على غايب سيتجاوب معه جليس المقهى الدائم حسين الجيراوي رب عمل غايب . . و ما أكثر المتألبين الآخرين!

الأيام تمر، و ها هو راغب السامرلي يعاد من معتقل خلف السدة الى موقف شرطة بعقوبة، فينوى غايب على زيارته هو و صُبيحْ الدنداوي. و يترتب أمر الزيارة . . الوقت ضحى و غايب واقف وراء باب الموقف ذي القضبان الحديدية، و تلتقط عينا غايب صهره شمران الذي صادف أن رآه هو الآخر من بعيد بنظرة خاطفة. . يتبادل النسيب و الصهر النظرات من بعيد . . أجاء صهره غايب ليراه؟ . . مستحيل! . . نفور متبادل بينهما، فيستبعد شمران ذاك الإحتمال . . و سرعان ما سيصدُقَ ظنه، حين ينادى الشرطي على راغب و صبيح، ليذهبا الى باب الموقف حيث يقف غايب مرهون من الجهة الأخرى . . يسلمون على بعض و يتبادلون القبل من وراء القضبان. و ها هي بدلة الصهر تشدّ إنتباه شمران، و من هيأة صهره بالبدلة سيزداد نفوراً . .
بُعيد مغادرة غايب للموقف، سيشعع في المعتقل نبأ سفرة غايب مرهون صاحب كازينو أم كلثوم الى القاهرة لحضور حفلة أم كلثوم التي بُثتْ قبل أيام . . و ها هو الخبر يصل الى مسامع شمران و رفيق سجنه أبي ذر. ينقله أحد المعتقلين متبرعاً، لمعرفته بصلة شمران بغايب . . يقنط شمران و يقنت طوال ذاك اليوم عن الأكل، و كي يخرجه من قنوطه بمجيئ الليل، يسأله رفيقه أبو ذر:
بويه . . چا هذا اللي چان واگف علىَ باب المعتقل زِلْمَةْ أخيتك و ما حچِيت وياه و لا حچه وَياكْ؟
اي . . هذا الواقع!

- . . عِجيب! . . چـا لِيش مـا حـچِـه وَيـاك؟ . . شـميران بويـه . . و شـنهو السـبب ليش مـا تتحاچـون؟

- سالفة طويلة!

- و إنـت بهالمحنـة! . . يـروح للقاهـرة . . و مـا يجـي يـزور أخُـو مريتـه! . . عِجيـب!

- أبـو ذر صديقـي . . هـذا اللـي شـفته مـن ورا القضبـان . . آنـي مـا حـچـيت ويـاه إلا چـم مرَّة و غصبن علـيّ . . چـم مـرة و بـس . . و هـذا صـار گـبل ما يتـزوج أختـي . . و بعـد مـا تـزوج أختـي مـا أتذكـر آنـي فـد يـوم حاچـي ويـاه!

- عِجيب! . . لـيِشْ؟

- مـا أدري! . . مـن أول مـا شـفته و آنـي زغيـر . . چـنت بـأول متوسـط . . حسيت أكـو بداخلـه فـد شـي غلـط! . . فـد شـي مزيـف! . . شـنو هـذا الشـي؟ . . مـا گـدرت أعرفـه و لا حتـى هسـه أگـدر أحـزره . . و إحتمـال الـى أن أموت مـا راح أگـدر أميـزه! . . و چـنت أتمنـى لـو أبويـه و أخويـه أميـر القيروانـي چان بإمكانهـم التفكيـر زيـن و تمييـز الغلـط اللـي بداخلـه گـبل مـا يزوجونـه أختـي أميـرة!

- بويـه . . بالمناسـبة . . إنتـو أصلكـم مـن القيـروان هـاي اللـي بتونـس و مـا تـگـول؟

- لا أبو ذر! . . لا! . . لا تروح بعيد . . يا تونس!

- چـا شنو هذا لقب الأحمدي . . اللي سوولكياه البعثية الأحمري؟

- لا! . . أبـو ذر . . لا! . . هنـا بالعـراق هميـن أكـو قيـروان . . . هنـاك علـى واجهـة ربيعـة الموصـل قريـب مـن حـدود سـوريا . . و الأحمـدي لقـب أسـرة الوالـد . . بالمناسـبة والـدي مـا يحـب هذنـي شـغلات العشـاير!

- آدمـي إبـن أودم . . آنـه أشـوفه مـن بعيـد مـن يجـي يـزورك . . مـن ورا حدايـد بـاب التوقيـف . . مـن شـوفته عرفـت هـو خـوش زلمـة!

ثـم يحكـى شـمران لرفيقـه أبـي ذر قصـة كازينـو أم كلثـوم و صـهره صاحـب الكازينـو، فيعلـق أبـو ذر:

- إذا جـاي تشـوف أكـو شـي غلـط بهـذا رجيجيـل أخيتـك و مـا جـاي تـگـدر تعرفـه . . و يخليـك علـى حـذر منـه . . بويـه هـذي يسـمونه الفطـرة السـليمة!

. . الفطرة السليمة هي اللي جاي تزودك بهالهاجس . . بس آنه متحير برجيجيل أخيتك . .
- بيش محيرك؟
- وحيِّد بيه شي غلط چا شلون سوَّى بولايتكم مشروع مثل كازينو أم كلثوم! . . هذي همين حزورة!
كادت القطيعة مع أم كلثوم أن تراود رأس شمران من جديد. ما سمعه عن سفرة صهره غايب الى القاهرة كان صاعقا! . . و يظل شمران تلك الليلة في صراع، و يلاحظ رفيقه أبو ذر قلقه. و سيعترف شمران لأبي ذر بسبب نفوره من أم كلثوم لإرتباطها عنده بشخص صهره، فيعلق رفيق سجنه:
- شنهو ذنب أم كلثوم . . ما تحبهه لأن تذكرك بزلمة ما تحبه تريد تنساه و چنه ما موجود؟
- يعني شي من هالقبيل!
- بويه . . أم كلثوم مالهه ذنب!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

تتفاعل الأحداث بين عواصم ثلاث . . بغداد و دمشق و فيهما البعثيون يتمتعون بسلطة مطلقة مع دور هامشي للناصريين . . القاهرة فيها سلطة مطلقة لعبد الناصر بميله المطلق الى الإستحواذ غيرَ تاركٍ دوراً لأحد سواه . . الحاكمون في العواصم الثلاث القاهرة و بغداد و دمشق كأنهم يضحكون على بعضهم البعض . . سقيفة و غدير من نوع آخر! . . ماضون في تهورهم لتحقيق غاية لم تكتمل مقوماتها، و بتهورهم يجعلون تحقيقها أبعد منالا . . و و ها هم يقومون بحركة مسرحية، فيجلسوا ليُوقِعوا في مايس ١٩٦٣ ميثاق وحدة فورية. لكن العقل التآمري لكل طرف من أطراف إتفاق الميثاق كان أقوى من قدرتهم جميعاً على تنفيذ بنود إتفاق وقعوه إن لم ينفرط غداً، فبعد غد! . . أو بالأحرى وقعوه منفرط الحبات! . . و سرعان ما سيدِبُّ الخلاف. و من الشائع أن دبيب الخلاف بين أقطاب الإنقلابات لا يتوقف إلا بإنفراط حبات مسبحتهم المتنافرة أصلاً و المغرقة في المصلحة العشوائية، بخاصة حين قرر البعثيون في بغداد

الإنفرد بالحكم، و بإستفحال جرائم ميليشياتهم المسماة الحرس القومي، التي باتت آنذاك تطال حلفاءهم من القوميين و الناصريين من مؤيدي جمال عبد الناصر، بخاصة حين راحت طائرات القوة الجوية العراقية يقودها مغامرون مراهقون بالسياسة، تنطلق من بغداد لتقصف المختلفين معهم بالرأي الموجودين في البصرة، أو تنطلق من الموصل لتقصف في بغداد . . ها هي من جديد السقيفة تنقلب على نفسها! . . و الغدير يصير بركة نسنة! . . و عندها سيفلح الضباط القوميون من ناصريين و غيرهم بإنقلاب ينفذوه في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ ليزيحوا فيه البعثيين من السلطة صارخين في بيانهم الأول ... لقد بلغ السيل الزبى! ... و لكي يُبرئ الإنقلابيون الجدد أنفسهم من جرائم الحرس القومي و يعتقوا رقبتهم من قتل عبد الكريم قاسم و رهطه من ضباط وطنيين . . سيحل الإنقلابيون الجدد الحرس القومي و يطاردوا أنفاره إعتقالا و و نفيا مسترجعين السلاح منهم . . . و ستكون الفضيحة النكتة أن أغلب الحرس القومي في بعقوبة سيرسلون سلاحهم الى مراكز الشرطة بيد زوجاتهم! . . و لكي يؤكد الإنقلابيون القوميون تملصهم الكامل من جرائم الحرس القومي بحق اليساريين، إتخذوا خطوات عملية و سريعة نحو إطلاق سراح الكثيرين من المعتقلين اليساريين الذين كانت المعتقلات و السجون ما تزال تعج بهم!

بضعة أسابيع ستمضي على الإنقلاب الجديد، و يطلق سراح صُبيح الدنداوي مع زمرة من المعتقلين، و لأن راتبه الحكومي توقف منذ يوم إعتقاله. و كي يعيش، عليه إذن إسترجاع موقعه على منقلة كبابخانة كازينو أم كلثوم. و لم يكن إنتزاع موقعه السابق على المنقلة من أخيه أبي دعوچة يسيراً و سهلاً، بخاصة و قد راح أبو دعوچة يُبَيّتُ خططاً مع أبيه لإسقاط غايب مرهون العربنچي من داخل معسكره ظاناً هو و أبيه الدنداوي أن أبنهما صُبيح الشيوعي سيظل الى الأبد في السجن، بل و اشاعوا أنه قد يرسل الى . . نگرة السلمان . . المعتقل الصحراوي سئ الصيت في بادية السماوة. و ما يكاد شهر آخر يمر . . و يطلق سراح راغب السامرلي مع رهط آخر من المعتقلين.

و أسبوع سيمر على ترحيل رفيقه أبي ذرٍ الى بلدته العمارة، و يُطلق سراح شمران الأحمدي مع زمرة أخرى، حاملاً معه الى خارج المعتقل لقب الأحمري. لم يجد شمران من جانبه غضاضة في تلقيبه بالأحمري خارج السجن، طالما راح اللقب يسبغ عليه تعويضاً عن السقوط السياسي الذي أوقعه فيه المعتقل . . و سيعتاد الناس على سماعه يعلق قائلاً متأثراً بلهجة رفيق سجنه الشروگـي:

- بويه . . مو عيب يسمونه الواحد أحمري! . . الواحد أقصد الزِلمة!

و سيطيح شمران من الضحك يوما ما، حين يخبره شروگـي آخر بأن مفردة . . واحد . . يستعملها الشروگـية مجازيا للتعبير عن فرج المرأة! و يظل يطيح ضحكا كلما يتذكر مقولة أبي ذر . . مو عيب يسمونه الواحد أحمري!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بهروبه من بيته الى المدينة و أنحائها، سيتوزع وقت غايب على ما يقوم به من أنشطة، و حساده و مبغضوه يراقبون و يتحينون الفرصة للإنقضاض عليه! . . أهل بلغ طلوع نجم غايب مرهون العربنچي الذروة؟ . . الذروة التي يبلغها عادة شأن شخصٍ ما في حظوظه السعيدة . . و يأتي بعدها إنحدار مفاجئ و أفول . . ثمة ما يشير الى أنه ليس بعد!

خريف عام 1964 و أم كلثوم تصدح نهاراً بأغنيتها، إنت عمري، موظة الموسم . . سيعبر غايب الشارع من الكازينو الى بناية مصرف الرافدين المقابلة، لجلب فلّاح الحديقة الى الكازينو ليجدد له زراعة صف النرجسات، فيلتقيه هناك برهان الريس موظف المصرف في الحديقة، و يسلم عليه . . برهان الريس معروفٌ في بعقوبة مدمنَ قمار . . و بلفات في الحديث و إستدارات و مناورات يبرع بها المقامرون، و ربما لجهل غايب بعواقب إستضافة فريق من القمرچية، سينجح برهان في اقناع غايب، بإستقبال شلته من لاعبي قمار موثوقين بسريتهم في غرفة الكازينو مرتين في الأسبوع لقاء ما هو مقرر من عائد لمن يسمونه عادة . . صاحب الميز . . إعتاد أفراد الشلة من قبل على اللقاء تناوباً

في بيوتهم. و بإتفاق زوجتين من أزواج شلة المقامرين على طردهم من البيت، كيداً بزوجتي مقامرَين ثالثٍ و رابعٍ في الشلة، لا بسبب ما يسببه القمار من خراب و لا من صيت شائنٍ للبيت . . و هكذا نجحت الشلة بجهد رجل المصارف البارع برهان الريس، بإقناع غايب في إستقبال الشلة . . برهان الريس، و كمال، موظف في صحة ديالى يلقبونه في المدينة فسيفِس، و آخران هما فُلان الخشالي و عِلّان البندر.
يُقال في الأسطورة أن نقطة ضعف أخيل كانت في عقب قدمه! . . و غرفة الكازينو ستكون عقب قدم كازينو أم كلثوم، و ستكون عقب قدم غايب مرهون شخصيا بعد أن راح يجري في الغرفة أكثر مما تحتمله إدارة مقهى . . قناني العرق القچغ في الدولاب . . طاولة القمار التي وضعها غايب بين السريرين الحديديين الذين إستبدلهما بسريري الجريد هدية نديمه حسين . . تأتي شلة المقامرين الأربعة مرتين في الأسبوع لكي يخلطوا لعب الورق بالخديعة، و هكذا سيدر ميز القمار على غايب ربحاً جديداً لا بأس به و إن لم يكن وفيراً . . العيون كثيرة فيما حول الكازينو تترصد ما يدور في باحة عمل غايب . . رئيس عرفاء إنضباط الشرطة تركي الفتلاوي . .علو الدنداوي و ولديه برهوم عريضي و أبو دعوچة الثلاثة الذين لم يعبأوا بصداقة إبنهم صُبيح بغايب مرهون. باتت وجهة هدفهم، إسقاط غايب بأي ثمن، بخاصة بعد نجاح صُبيح في إسترداد موقعه خلف منقلة الكباب أمام كازينو أم كلثوم! . . سيضع الدنداويين

خطةً، و الهدف إسقاط غايب ليحل أبو دعوچة محله في الكازينو! . . هذا . . ناهيكم عن وجود غادر خارجي يعين الغادر الداخلي . . يعمل بعيون فلكية في سوق بعقوبة و مقاهيها تترصد من بعيد، مترقبة إسقاط غايب باي ثمن!
ذات ليلة، و آخر الرواد يغادرون، و قد فضَّل غايب المبيت تلك الليلة في الكازينو، سيختلي أبو فردوس برب عمله. غايب جالسٌ يرتشف كأساً من العرق قبل إيوائه للسرير، فيخاطبه أبو فردوس:

- أبو مرهون تسمح لي نسولف بشغلنا!

- گول أبو فردوس!

- إنت هسه ولي نعمتي و رزق أطفالي . .

ينتبه غايب مصغياً، متوقعاً أن عامله يريد أن يقول شيئاً، فيضيف أبو فردوس:

- . . و آني صار واجب عليّ أراعي مصالح ولي نعمتي!

- خير أبو فردوس؟

- . . آني أخاف عليك من خَشة بعض الناس لغرفة الكازينو اللي بيهه كل أسرار شغلنا!

- بعض الناس! . . منو مثلاً؟

- حسن الدماري مثلا!

- الدماري؟

- إي . . هذا زعطوط . . و آني أخاف من وگفاته و التپشپش ماله ويا برهوم عريضي . . و إنت زين تعرف شلون صارت وضعية هذي الغرفة!

ما يتحدث به أبو فردوس يجده غايب معقولاً، فيسأل:

- كلامك معقول! . . و شتريد نسوي؟

- . . أشوف تودي الدماري لصالة العرض و تحصر شغله هناك و تگطع علاقته بهذي الغرفة.

- بس هذي؟ . . هذ ممكن نسويهه . . أكو شي آخر؟

- . . إي أكو شي آخر . . أبو مرهون . . اللي خاش و اللي طالع من غرفة الكازينو الناس كلهه تشوفه!

- و هذي شنسويلهه؟

- . . أشوف لو تفتح باب لغرفة الكازينو بالدربونة من يم شباچ التذاكر مال السينما الصيفي . . حتى جماعة الميز يخشون و يطلعون من ذاك الباب مو من باب الغرفة اللي على ساحة الكازينو . . و هذي الباب مال الساحة ما أحد يدخل منها للغرفة غيرك إنت و آني عند الحاجة!

- عند الحاجة! . . و الأوجاغ؟

- حتى الأوجاغ ننقله بَرّه لساحة الكازينو . . و هيچي راح نأَمِّنْ الوضعية و أسرار عملنا تظل بعيدة عن العيون!

- حچي معقول!

أفكار تحصين المكان يطلقها أبو فردوس، و يتراخى غايب في التنفيذ مستسلما لخديعة الزمان! . . . دون معرفة بما يحاك من حوله، ها هم الدنداويون يواصلون إقتناص فرصة لتأليب يهودا صاحب الملك على غايب، فيخفقون حتى بعد إنضمام الدماري إليهم يُسرِّب لهم معلومات عما يدور في غرفة الكازينو . . إذن! . . لم يكن أمامهم سوى اللجوء الى الشرطي الشروگي الجهم للإنقضاض على غايب . . و ها هو تركي الفتلاوي صار يعلم بما يدور في غرفة كازينو أم كلثوم . . و ها هي الدناءة ستتكشف عن مخططات بارعة في الإبتزاز! . . بسماعه أخبار الغرفة و ما يجري فيها، و لم يعتد الفتلاوي على التهور، فقرر بدءً ألا يعلق بشئ على ما سمعه . . الفتلاوي رجل جهم جدا و لكنه متروٍ . . دنيٌ و لكنه مخططٌ . . و ها هو ينـَهَرَ الدنداوي و رهطه بقوة عندما يؤلبونه على غايب . . كي يفكر مليا بالأمر!

ذات ليلة راح تركي الفتلاوي يبيّت فيها خطة لإبقاء الشرطيين اللذين معه بعيدين عن مسرح الحدث . . و ها هو يقرر مداهمة غرفة الكازينو لوحده، كي لا يُضطَّرَ لتفرّيط بعض ما يغنمه للشرطيين أو ربما تسريب معلومة تفرض عليه شركاء فيما قد يفوز به لوحده إذا ما داهم غرفة كازينو أم كلثوم. و متيقنا بأن الوشاية التي ظل يسمعها من ثلة الدنداوي غدت خبراً موثوقاً عليه أن يتعامل معه على أرض الواقع في غرفة الكازينو! . . و كي يفوز بما وجد، و بتأثير من دناءته و أنانيته و طمعه و حقارته، سيظل يداور الأمر كله في رأسه مرة . . مرتين . . ثلاث . . أربع مرات، بل خمس مرات. و سيرى أنه ما الذي سيكسبه لو حصل و أظهر ما يدور في غرفة الكازينو الى العلن، حتى لو أن عقوبة غايب القانونية ستكون شديدة . . و لو فعل و كشف ما يدور في غرفة الكازينو لن تكون جريرة ما يجري في غرفة الكازينو سوى جرجرة غايب مرهون الى مركز الشرطة و تقديمه هكذا لقمة سائغة لمراتب و ضباط مركز شرطة بعقوبة يستنزفونه و لا يحاسبونه، و سيخرج هو مثلما يقول المثل الدارج . . لابس الغرفة و مطلّع إيديه من الروازين!

و ذات مساء . . الفتلاوي واقف عند باب العرض السينمائي و كأنه ينام مثل ذئبٍ إحدى مقلتيه على السينما و تاركا الأخرى على باب غرفة الكازينو . . ها هو يرى أحداً يدخل . . و بعد دقائق يجيئ آخر . . و دقائق ثم آخر . . و تريث لِلأيٍ لغاية أن وصل مقامر رابع . . ينتظر نصف ساعة و لا يخرج أحد ممن دخلوا الى الغرفة. فيسير الفتلاوي لوحده دون الشرطيين نحو باحة الكازينو، و يُهرَعُ إليه غايب يتبعه . . يدخل الغرفة ليتفرج و يسلم على جماعة ميز القمار الذين من فزعهم من صيت الفتلاوي و حقارته و جهامة وجهه نهضوا منتفضين مضطربين. الفتلاوي يرى بأم عينه ما أحدثه هجومه السلمي من إضطراب، و سَعِدَ بسطوة صيته و هو يرى أحد المقامرين يخطف سترته المرمية على السرير يائساً ليغطي بها ما موجود على الطاولة من ورق القمار و قطع النقد و أوراقه الموجودة في صحن وسط الطاولة، فَتسقِطُ حركة السترة

قنينـة عـرق كانـت أمـام أحدهـم علـى الأرض و تـزوع القنينـة مـا فيهـا مـن خمـرة فتفـوح رائحتهـا فـي جـو الغرفـة الملـئ بالدخـان.

الفتلاوي يتفرج . . و سيفاجئ جماعة المقامرين يخاطبهم:

- يا جماعة . . إتفضلوا إستريحوا بويه!

ظلوا واقفين . . و بلهجة آمرة يضيف:

-. . إستريحوا!

ثـم يسـتدير نحـو غايـب الـذي مـن هـول مفاجـأة مداهمـة الفتـلاوي للمـكان ظلـت لا تفـارق وجهـه إبتسـامته البلهـاء كاشـفة عـن صـف أسـنانه الذهبيـة، و يضيـف الفتـلاوي سـائلا:

- . . . غايب . . . شنهو هاذ اللي بهالديلاب؟

يجيب غايب بهلع:

- غرضاني!

- غريضاتك؟ . . أشو إفتحه . . و خلينه نشوف غريضاتك!

يتقـدم غايـب مذعـورا ليفتـح الـدولاب بيـد مرتجفـة. و بإنفتـاح الـدولاب علـى مصراعيـه، بانـت قنانـي العـرق القچـغ مسـتلقية علـى الرف الوسـطي. يحـاول الفتـلاوي أن يبتسـم لكـي يمهـد لمسـاومة مـن نـوع مـا، لكـن جهامتـه الكالحـة أبـت أن تفـارق وجهـه علـى مقاومـةً إبتسـامته، فيسـأل ساخراً:

- . . غايب! . . وهذني كلهن غريضاتك؟

غايـب لا يجيـب و يظـل مخرسًـا، فيطلـب الفتـلاوي منه أن يسـد بـاب الدولاب، ثـم يخـرج يتبعـه غايـب بعـد أن أغلـق بـاب الـدولاب. فـي الخـارج سيطلب الفتـلاوي مـن أبـي فـردوس قنينـة بيبسـي كـولا، و يأتـون لـه بمـا أمـر فـوراً

. . لم يكن غايب ليجرؤ على النطق بأية كلمة و هو يراقب الفتلاوي يرتشف من القنينة ببطءٍ، و كأنه لم يشرب كولا في حياته قط . . يتلمس بشفتيه رشفاتٍ مُقترة مُتبِعًا كل رشفة بجُشأةٍ قصيرة و لمظة . . كيف سيبدأ تركي بمساومة غايب على ثمن السكوت و الحماية؟ . . و أبو فردوس أثناء رواحه و مجيئه، يحاول أن يقتنص ما سيدور من حديث بين الفتلاوي و غايب . . و بسبب أخلاق الشرطي الكريه الذي في داخله، سيطيل الفتلاوي من عذاب غايب قبل أن ينطق قائلاً:

- غايب . . بويه تدري؟

- شنو رئيس عرفاء تركي؟

- هذي شغيلتك اللي بالغرفة خطر علِيك . . إذا وصلت لمركز الشرطة و مناك للمحكمة حسابهه بويه يصير چبير . . چبير هواي! . . چا شلون؟ . . عرك قچغ! . . و ميز قمار! . . بويه هِذَني وحيداتهن إذا عرفو بيهن راح يلعبون بيك جولة! . . و إنت شإلك بهالطرگاعة!

يرتعد غايب و هو يستمع للفتلاوي يفصِّل الموقف، و لكن نبرة الفتلاوي الناعمة حيرته فيعلق قائلاً:

- أوامرك رئيس عرفاء تركي . . و آني حاضر!

أخذ و رد. و إستفسارات يرد عليها غايب همسا . . و ها هما يتوصلان الى تفاهم حول ثمن سكوت الفتلاوي و معه الحماية . . نصف دينار و معه گلوص سگائر من نوع . . جمهوري . . يسددهما غايب أسبوعياً و معها دون ريب أشرِبَة الفتلاوي اليومية له و لأنفاره المرافقين كي يسد بها أفواههم. و إحتياطاً من إنكشاف أمر الغرفة لغيره و تأمنيا لموارده الأسبوعية، سيوصي تركي الفتلاوي هو بنفسه غايب بوضع لوحة على باب غرفة الكازينو . . ممنوع الدخول لغير أصحاب الكازينو! . . الفتلاوي يغادر بعد آخر سحابة ريح تخرج من فمه عقب آخر جُشأة. و داخلاً من

باب غرفة الكازينو متجها الى الأوجاغ، يتوقف أبو فردوس أمام غايب الذي كان متكئاً على ركن الباب، ليعلق لائماً غايب:

- شِفِتْ أبو مرهون! . . جالك كلامي اللي گِلته گبل چم يوم؟ . . هذ كله من هذا الضبع الدماري!

فيعلق غايب مؤيداً:

- صحيح! . . هذا الدماري منيوك! . . شلون أَمِّنِتْ بيه كل هالمدة؟ . . ما أدري!

- بس أبو مرهون . . أكو شي آخر لا تنساه و خليه ببالك.

- شنو؟

- هذا اللي راح تدفعه لهذا الشروگي الفتلاوي حاول تاخذ على الأقل نصه من جماعة الميز!

- و هذا هم حچي معقول!

بإبرامه عقد إتفاق الحماية، يمشي الفتلاوي الى باب السينما. و هناك سيوبخ الدنداوي و شلته بوقاحة متناهية على تسريبهم معلومات كاذبة عن غرفة الكازينو، و يتوعدهم بألا يشغلوا مرة ثانية الشرطة بأخباريات كاذبة و إلا فسيسوقهم الى المركز بتهمة إيصال إخباريات كاذبة! . . و هكذا سقطت محاولة الإنقلاب الأولى في كازينو أم كلثوم التي دُبِّرَتْ من داخل منظومة دار عرض سينما ديالى . . و سيظل صوت أم كلثوم يصدح بآخر أغاني المواسم.

اليوم التالي . . سيشرع غايب بإجراء التغييرات التكتيكية التي إقترحها الچايچي.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

سهرات غايب مرهون و أوقات هروبه من بيته تطول، و يتلبسه أثنائها حيطة و حذر بعد إطلاع الفتلاوي على ما يجري في الكازينو . . و لا يؤخذ المرء إلا من مأمنه!

كانت جولات شرطة إنضباط بعقوبة الراجلة محصورة بحوض نهير الشاخة في المنطقة المحصورة بين قنطرة خليل پاشا شمالاً و محطة القطار جنوباً . . و هذه هي بعقوبة و ليس ثمة من زيادة! . . في ترتيبات مركز شرطة بعقوبة تنقسم هذه المنطقة إجرائياً الى رقعتين تتناوب على جولة الإنضباط الأمني فيهما زمرتان . . زمرة من أربعة افراد يقودها رئيس العرفاء تركي الفتلاوي الذي يؤدي صلاة جمعته وراء السيد عبد الكريم المدني في حسينية بعقوبة و معه أربعة أنفار، و تمتد سلطته الراجلة في إحدى الرقعتين من محطة القطار و ما يحيط بها جنوباً . . و من هناك تمتد شرقاً نحو مقهى مجيد سباب و گراج شهربان و غرباً الى جسر نهر ديالى و قرية شفته . . و تسري سلطته على طول الشاخة شمالاً نحو مركز البلدة مع إنعطافة شرقاً على طول شارع العنافصة لغاية مقهى جبارة المعيدي و مستشفى بعقوبة و السجن و إنعطافة غرباً نحو مركز شرطة بعقوبة و البيوت القريبة منه.

و الرقعة الثانية لها زمرة إنضباط أخرى يقودها رئيس عرفاء الشرطة عثمان الكرخي الذي يؤدي صلاة جمعته وراء الشيخ صفاء الدين في جامع بعقوبة المطل على الشاخة. و هو الآخر معه نفس عدد الأنفار، و تمتد سلطته على طول الشاخة من مقهى مجيد محسن و تسير شمالاً لتغطي سوق بعقوبه في صوب التكية على إمتداده منعطفة شرقاً لتغطي منطقة العلاوي و خانات العرباين و منطقة أم النوة و منطقة جرف الملح، و من جامع بعقوبة تنعطف غرباً لتغطي سوق الصاغة و تصل الى . . محلة راس العگد و محلة المنجرة، ثم تسير شمالاً لتغطي محلات القيصرية و الگِنِثْ و الفايزية حتى تصل الى قنطرة خليل پاشا و محطة الكهرباء و ما يجاورها من محلتي السوامرة و البكرة، و تنعطف غربا لتصل الى البساتين المطلة على نهر ديالى.

و أمور غايب مرهون في غرفة الكازينو تسير على منوالها حتى حين يجري في مركز شرطة بعقوبة إعادة إنتشار لأدوار قوى الإنضباط على مناطق و مقتربات الشاخة . . كأن تحل السقيفة محل الغدير و الغدير يحل محل السقيفة! . . فيتبادل رئيس العرفاء تركي الفتلاوي مع رئيس العرفاء عثمان الكرخي بقعتي نفوذهما في محاصصة مبيتة بين الإثنين . . و يظل كل منهما يتلقى عوائد المنطقة التي أسس بها مصالحه حتى لو تناوب مع رئيس زمرة الإنضباط الأخرى على مكان النفوذ! . . إتفاق جنتلمان!

الأمور باقية على هذا المنوال . . و صوت أم كلثوم عام ١٩٦٥ يصدح ليلاً نهاراً في فضاء كازينو أم كلثوم بأغاني موسمها حيناً . . نِسيت النوم و أحلامو . . نِسيت ليالي و أيامو . . بعيد عنك حياتي عذاب ما تبعدنيش بعيد عنك . . و حينا . . طول عمري بخاف من الحب و سيرة الحب و ظلم الحب لكل اصحابوا . . و حيناً . . يا ما َقلوب هايمة هايمة حواليك . . تتمنى يوم يوم تسعد بلقاك!

تسير مركبة كازينو أم كلثوم لتجتاز عام ١٩٦٦ و جهازا مايكرفونها متجهان واحدٌ شمالَ غرب و آخرُ جنوبَ غرب يبثان أغنيتي أم كلثوم لذاك الموسم . . حيناً . . يا فؤادي لا تسل أين الهوى . . كان صرحا من خيال فهوى . . و حيناً . . أمل حياتي . . يا حب غالي ما ينتهيش . . يا أحلى غنوة حلوة سمعها قلبي . . ما تنتهيش!

و تمرق مركبة الكازينو في مسيرها طيلة شهور عام ١٩٦٧ الخمس الأولى تصدح لياليها و نهاراتها بأغاني موسم جديد غنتها السيدة في حفلة باريس في مايس . . حيناً . . كلموني تاني عنك فكروني . . فكروني صحّوا نار الشوق في قلبي و في عيوني . . و حينا . . حديث الروح للأرواح يسري . . و تدركه القلوب بلا عناء . . هتفت به فطار بلا جناح . . و شق أنينه صدر الفضاء!

و أم كلثوم يصدح صوتها . . فات الميعاد بقينا بعاد . . و النار بقت دخان و رماد . . و كأن أم كلثوم تتنبأ للنار في المنطقة فتصير النار الثورية رماداً حين تحصل هزيمة العرب الكبرى في الخامس من حزيران . . و ها هي شعوب المنطقة تُضرَب بالصميم، فينشط إثرها حراك بين الناس لإدانة الحكومات التي حولت النار الثورية الى دخان و رماد في هزيمة هزت أيضا كيان شعوب العالم الثالث برمته. و من بين اللغو الدائر سترتفع أصوات في بعقوبة لتفلسف أسباب الهزيمة في مقاهي معروفة بتوجهات روادها العروبية و تغذيها نوايا أصولية إسلامية مبيتة . . هذرٍ ضد الفن و تأثيره و إنتشاره . . بخاصة بعد ما أشيع بأن طياري مصر ليلة بدء العدوان كانوا مشغولين بالإستماع الى أم كلثوم، فترتفع أصوات في المقاهي، لا تخلو من غرض شخصي تجاه الكعكة التي تحولت عجباً في يد اليتيم غايب مرهون صاحب كازينو أم كلثوم، لتدين أم كلثوم و تعزو الهزيمة الى إنشغال جمهور العرب و محاربيهم بالإستماع الى أغاني أم كلثوم، تغذيها الضغينة التي تعتمل مثل نار خفية تحت الرماد تجاه صاحب كازينو تحمل إسم . . أم كلثوم!

و تصل أخبار الهذر السياسي الأحمق الى مقهى جبارة المعيدي . . بالتحديد الى فرمان الكبابچي، و عنده شمران الأحمدي يقضم لفة كباب، فيعلق فرمان بنغمة إعتاد عليها:

- سياسة سُزْ . . أخلاق سُزْ . . ديمقراطية سُزْ . . ذوق سُزْ . . و بالتالي أم كلثوم شعليهه! . . اللي ما يعرف يرگص يگول الگاع عوجه! . . إذا هم مخانيث بالحرب أم كلثوم شعليهه! . . رحمة لوالديهه اللي گلت على رجلهه . . أسدٌ عليَّ و في الحروب نعامة!

و شمران الأحمدي يصغي أيضا، و هو يلوك آخر ما في فمه، مستمعا الى ترهات إتهام أم كلثوم فيتذكر كلمات أبي ذر رفيق معتقله . . و أم كلثوم شنو ذنبهه! . . و بإلتهامه للقمته، يعلق لمحدثيه:

- يعني يصير نگول إستماع الباريسيين لبياف أو بيتهوفن أو برليوز هو اللي چان سبب هزيمتهم أمام هتلر و إحتلال النازيين لباريس! . . ترهات!

و يتذكر شمران يوم جعله غناء أم كلثوم في المعتقل يتذكر نهدي خولة الثلجيين و مرآهما في ضوء القمر البارد شتاءً، فيضيف بحزن عميق:

- النور اللي يشع من الفن . . و بالذات غناء أم كلثوم أقوى من البصيص اللي يحچون عنه هذوله الناس الطايحين بالقومية و الدين!

و سرعان ما سيعتاد الناس على عقابيل الهزيمة و يعاودون الإستماع الى أم كلثوم في كازينو أم كلثوم!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مجتازةً الأشهر الأولى من عام 1968، تسير مركبة كازينو أم كلثوم زمانها متناسية الهزيمة و مرارتها. و ها هو جمهورها يستمتع بأغنية الموسم الجديدة . . سمعت صوتا هاتفا في السحر . . نادى من الغيب غفاة البشر . . هبوا إملأوا كأس المنى . . قبل أن تملأ كاس العمر كف القدر!

في غرفة الكازينو، ميز القمار كالعادة شغّال مرتين في الأسبوع. و دولاب الغرفة تدخله كل يوم عشرة قناني أو أكثر من العرق القچغ يفرغ منها تماماً بُعيد وقت العشاء . . و أزاء هذا كله، صار القنوط و اليأس، منذ سنين ولّتْ، صفةً ملازمة لعلو الدنداوي و ولديه، بسبب يأسهما الكامل من إسقاط غايب مرهون، و إستسلما الى إعتقاد مفاده بإن إسقاط غايب مرهون لا يأتي إلا بمنّة من السماء، فالله وحده هو القادر على إسقاط غايب مرهون . . و من أين كان لملة الدنداوي أن تعلم بأن الأقدار تشتغل دون علمهما . . و متى سيغلط الشاطر الغلطة التي هي إياها! . . و بسبب غلطة شاطرٍ سيعود غودو الذي يطول إنتظاره الى الدنداوي!

شلة القمار في غرفة كازينو أم كلثوم إعتادت في جلسة اللعب على تَأَخُّرِ

كمال فسيفِسْ في أغلب الأحيان، و لكي يغطي فسيفِسْ على تَأَخُّرِهِ الدائم عن الحضور لجلسة القمار و إرضاءً منه للشلة، كان قد إعتاد على أنه ما أن يدخل باب الغرفة، يبتدأ عند وصوله بشتيمة نفسه:

- أنعل أبويه . . و أنعل أبو اللي خَلَّفْني . . و كُسْ أُخُتْ أبو الجِدة اللي جيّبَتْ أمي بيّ! . . يعني آني شسوي إذا شغلي بالعيادة ما يخلص غير ساعة ثمانية . . و آني إذا ما أشتغل و أضرب أبر . . گولولي إنتو . . منين أجيب فلوس حتى ألعب وياكم قمار! . . كس أخت أبو الجِده اللي جيّبَتْ أمي بيّ! . . و إنتو زين تعرفون . . آني أكو بيني و بين مرتي عهد شرف . . أسلمها الراتب مال الدوام الصباحي و هي تترك لي فلوس العيادة ألعب بيهه قمار . . كس أخت أبو الجِده اللي جيّبَتْ أمي بيّ!

و يغرق المقامرون المالّون من الإنتظار في الضحك من مشهد شتيمة فسيفِسْ لنفسه . . مهرج الشلة! . . و قد إعتاد فسيفس على البقاء واقفاً لغاية أن يسمع من واحد من الشلة يجيز له الجلوس قائلاً:

- أگعد أبو الهرورة! . . أگعد و خلّصنه!

و قد إعتاد فسيفس أيضا على ألا يجلس قبل أن يفتح دولاب الغرفة و يتناول نصف قنينة عرق يفتحها و يضعها أمامه . . و تسير أمور ميز لاعبي القمار . . و تمضي سنون أربع، و شلة القمار في كل مرة تغرق بالضحك و كأنهم يسمعونها لأول مرة مستأنسين بشتيمة فسيفِسْ لنفسه مع تنويع باللازمة يمليه طبعه الساخر و دوره مهرجاً!

و ذات مساء من أماسي أوائل تموز 1968 تشاء الأقدار أن يتفاجأ الأطباء و المراجعين من المرضى، حيث يعمل فسيفس ممرضا، بدخول زوجة فسيفِسْ مبنى العيادة الشعبية صارخة:

وين هذا المنيوك رجلي؟ . . دلوني عليه! . . وين كمال فسيفس؟

و يسود الصمت، مع صراخها بتكرار الشتيمة، و هي تضيف:

لا! . . مو بس كمال! . . و ين هذي الممرضة الگحبة تسواهن؟ . . دلوني عليهه!

اصطف المراجعون عند جدران الممرات الضيقة للبيت الصغير يراقبون

المشـهد . . و هـا هـم الطبيبـان و الطبيبـة الوحيدة فـي البنايـة يخرجـون مـن غرفهم ليستطلعوا أمـر الصـراخ . . و يصـادف أن يكـون فسيفِسْ و تسـواهن يعمـلان فـي غرفتيـن للتمريـض متلاصقتيـن مفتوحتيـن علـى بعضهمـا . . تدخـل عليهمـا زوجـة فسيفِسْ، و تنـزع نعالهـا، و تشـرع بضـرب كامـل أولاً و بعـده تضـرب تسـواهن بفردتـي نعالهـا، كلَ فـردة بيـد، و تظـل تضـرب بهمـا، و همـا يتلقيـان الضـرب دون مقاومـة، و كأن مفاجـأة مجيئهـا أصابتهمـا بالشـلل، و هـي تصـرخ:

- ولـك فسيفِسْ . . گـواد . . منيويـچ . . لعد إنـت صارلـك مـدة تنيـچ بهـذي البربـوگ . . و آنـي باقيـة إلكم الله يالساهين! . . شـهور تنيـچ بيهـه! . . و لـو مـا تجينـي فد بنـت حـلال و تـگـوللي چـان إنـت تظـل تنيـچ بيهـه سنين . . و آنـي مـا أدري!

يـكاد المشـهد أن يطـول لـولا تدخـُـلِ بعـض أهـل النخـوة، محاوليـن إنتـزاع فسيفِسْ و تسـواهن مـن ضربـات نعـال زوجـة فسيفِسْ، و إخـراج الزوجـة مـن العيـادة، ربمـا لإغـلاق الفـم الـذي يهـدر بالشـتائم الشـنيعة المخدشـة للحيـاء أمـام المراجعيـن . . و مـا سيلاحظه النـاس هـو أنـه لا فسـيفس و لا تسـواهن حـاول أيٌ منهمـا الـرد علـى مزاعـم الزوجـة!

بمغـادرة زوجـة فسيفس، غـادرت تسـواهن هـي الأخـرى العيـادة الـى البيـت، و خـرج فسيفس مـن العيـادة ليلتجـأ الـى أقـرب مقهـى مـن شـارع الأطبـاء، و يجلـس هنـاك صامتـا . . يفكـر فـي مصيـره مـع إمـرأة لـم يكـن ليتزوجهـا إلا بعـد أن أدى نكاحـه لهـا سـفاحا الـى إرتفـاع بطنهـا، و تهديـد أهلهـا لـه بقتلـه و قتلهـا مـا لـم يتزوجهـا بعـد أن أشـبعوه ضربـا كاد أن يصـل بـه الـى المـوت.

تفكيـر فسيفس فـي مصيـره و أمـوره فـي تلـك الأمسـية يطـول و يطـول، و يأخـذه الوقـت و يتأخـر وقتـاً أطـول ممـا إعتـاد عليـه عنـد ذهابـه الـى شـلة القمـار . . و مـا أن دخـل علـى الشـلة، و لا أحـد منهـم يـدري بمـا حصـل، سـيصرخ بـه المقامـرون الثلاثـة بصـوت واحـد:

- لك هاي إنت وين؟ . . سافل إبن السافل!

و كأنهـم هـذه المـرة بمبادرتـه بالشـتيمة، قبـل أن يشـتم هـو نفسـه بنفسـه كمـا

يفعل كل مرة، جعلوه يظن أن شتيمتهم له ما هي إلا تجاوزٌ منهم على دوره المعتاد . . و ها هي القشة تقصم ظهر بعير صبره في تلك الليلة . . فإن كان فسيفِسْ هو نفسه يعلم مقدار جبنه أمام زوجته فتلك مصيبة، و إن كانوا هم لا يعلمون مقدار جبنه أمام زوجته فالمصيبة أعظم . . فمن أين لشلة القمار أن تتصور مقدار جبنه أمام زوجته التي لم يجرؤ أن يرد عليها و تلقى ضربات نعالها مكرهاً بالرضا لا بطلاً! . . لكن المصيبة الأعظم التي حصلت هو أنه لَمْ يعلم لِمَ و كيف خطر بباله تلك الليلة، لا بغيرها من قبل، أن يجرؤ فيغيّرَ مزاجه، بقلب معادلة الشتيمة، ظناً منه أن الساحة هنا مع شلة القمار متاحة لرد الشتيمة بشتيمة لكي يعوض ما تلقاه من ضربات نعال زوجته، و خُيّلَ إليه أن دور شتيمته لنفسه قد ولى و فات تلك الليلة، لأن زوجته قد سبقته و تولت شتيمته لنفسه بدلاً عنه قبل ساعات . . فقرر تلك اليلة أن يقلب دور الشتيمة، بأن يقوم هو بشتيمة المقابل، بأن يشتم الشلة ظناً منه بأن الشلة ستتسامح معه، فيسترجع، بشتيمته للشلة، نتفة من كرامته المسلوبة التي أهدرتها زوجته بنعالها أمام خلق مدينة بعقوبة من المراجعين للعيادات الخاصة، و سمعه سنتظروه يرد:

- و الله . . تردون الصدگ؟

و يعقبون بفضول شديد نافذي الصبر:

- طبعاً!

و الله . . أنعل أبوكم . . و أنعل أبو اللي خلفكم! . . إنتو واحد واحد خوات گحبة! . . يعني شكو بيهه لو إنتظرتوني شوية! . . إنتو مو تدرون العيادات الخاصة ما تعَزِّل غير ساعة ثمانية! . . و الله إنتو مو بس خوات الگحبة! . . . خوات الگحبة و مناويچ! . . سَفَلَة!

ما يتفوه به فسيفسْ مفاجأة صاعقة للشلة، بل و إن الإنقلاب في مزاج فسيفس كان عندهم لا يقل صعقاً من صعقة هزيمة العرب الكبرى قبل عام و نيف . . مفاجأة لم يعتادوا على صدورها من فسيفِسْ . . كان صعباً عليهم أن يهضموا ما تفوه به، و لم يكن يهمهم تحري أسباب الإنقلاب المفاجئ في مزاجه . . كان في إفراطه بشتيمته لنفسه أمامهم

تفريطاً طوعياً بكرامته، ما وضع شخصه عندهم بمنزلة أدنى بكثير من منزلتهم و بوضع لا يصلح به سوى بوصفه مهرجاً أثناء لعبهم للقمار . . و كأنهم قرروا ألا يلاقوا شتيمته لهم بالمزحة و المسامحة، و لا حتى فكروا بالذي غيّر مزاج لعّابِهم و تلعيبتهم، و أهمها أنهم تناسوا أنهم ظلوا لسنين يضحكون على فكاهات فسيفس بشتيمته لنفسه . . و سينهض الثلاثة من كراسييهم تاركين ميز القمار وراءهم، ثم ساحبين فسيفِسْ ليتواردوه بغتةً و من كل صوب أثناء ما كان منشغلاً بتناول قنينة العرق القچغ من الدولاب . . فإنهالوا عليه ركلاً و لكماً و شتيمة، لدرجة أن أحدهم قرر أن ينزع قندرته ليضرب بها فسيفسْ . . و من كثرة الهرج العالي الذي أحدثته حفلة ركل و ضرب فسيفس، سيطغى صوت ما يحصل داخل الغرفة على صوت أم كلثوم في خارجها . . لقد سبق السيف العذل! . . و خرج صراخهم الى خارج الغرفة، و رئيس العرفاء تركي الفتلاوي قريبٌ في الجوار يقف على الرصيف، فيخطف بصره أناساً يتجمهرون و يتدافعون عند باب غرفة الكازينو في الشارع الفرعي المجاور للكازينو قرب شباك التذاكر . .ما الذي يجري؟ . . و تخفّ قدماه قبل غيره، تاركاً أنفاره وراءه، و يصير فوراً عند باب غرفة الكازينو. و حفاظاً على مصدر رزقه، كان أول ما فعله الفتلاوي هو تفريق من تجمهر من الناس عند باب الغرفة، و منع دخول الغرفة على كل من سمع صوت الصراخ مِن رواد الكازينو و المارة . . يقترب من باب الغرفة ليستطلع الأمر، يتبعه شرطيان من أنفاره . . أوقف الشرطيين عند باب الغرفة، و دخل الغرفة و حفلة ركل فسيفس كانت ما تزال جارية و فسيفس يرفس بين أيديهم مثل دجاجة مذبوحة . . فض الفتلاوي النزاع الذي إنتهى بمغادرة فسيفِسْ من الباب الجانبي لغرفة الكازينو دون عودة . . و أشار على الشلة ألا يغادروا و أن يبقوا حيثما هم، و يخاطبهم معلقاً:

- هاي شنهو؟ . . چا مو إنتو أولاد ناس! . . بويه مو إنت زِلمة خشالي! . . و إنت زِلمة بندر! . . و إنت زِلمة ريس! . . يلله يلله! . . جاي تلعبون قمار . . إلعبو صنتاوي!

و يغادر الفتلاوي يتبعه أنفاره . . و في الباب يلقاه غايب الذي لم يكن

حتـى ذلـك الحيـن يـدرى بمـا جـرى، فينهـره الفتـلاوي بشـده موبخـاً:
- و لك إبن مرهون العربنـچـي! . . لـيِش ما تضبط أمور عيشتك؟
بمضـى الفتـلاوي فـي طريقـه، يدخـل غايـب الـى الغرفـة، فيجـد الشـلة تواصـل لعبهـا بثلاثـة لاعبيـن . . و قـد أقصـوا فسيفس مـن شـلة اللعـب.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

إعتـاد فسيفس طـوال سنوات لعبـه للقمـار مـع الشـلة فـي غرفـة الكازينـو أن يأتـي صيفـاً فـي جيبـه بحبـة خيـار و حبـة طماطـة و يقطـّعْهما أمامـه علـى طاولـة القمـار و أن يجلـب شـتاء معـه مـا يتوفـر فـي السـوق . . رأس خـس مثـلا . . تمـر جسِبْ مثـلاً . . قطعـة جبنـة مالحـة مثـلا . . و يأخـذ مـن دولاب غرفـة الكازينـو نصـف قنينـة عـرق قـچـغ، و يـروح أثنـاء اللعـب يرتشـف منهـا مباشـرة مثلمـا يقـال . . سـادة . . هكـذا دون مـزج العـرق بالمـاء و مـا أن تـروح الخمـرة تلعـب برأسـه، بخاصـة حيـن لا يكـون معـه مـا يمـزّ بـه فتكـون مازتـه جمـاع كفـه يمسـح بـه مـن علـى شـفتيه و شـاربيه مـا يعلـق بهمـا مـن بقايـا رشـفته، معلقـاً:
. . ها آها . . و المَزّة جِمِعْ!
و تـروح الشـلة تضحـك . . و مثلمـا يحصـل نـادراً ألا تمـر خسـارة شـعب الملـك أو خسـارة ملـك لمهرجـه دون عاقبـة وخيمـة، لـم تمـر خسـارة شـلة ميـز القمـار لمهرجِّهـا دون عاقبـة . . و العاقبـة كانـت حيـن دفعـت الشـلةِ فسـيفِسْ، بفعلتهـا تلـك معـه، الـى البحـث عـن مـأوى يعـبّ فيـه عرقـاً و يـداور بـه أوراق قمـار.
- من أيـن للشـلة أن تعلـم، و قـد ركبتهم إزاء الشـتيمة الفريـدة اليتيمـة التي وجهها لهم فسـيفس، متلبسـين حماقـة و قحـة و عـدم تـروي، بـأن فسـيفِسْ سـيكون . . داس! . . . ذلك الواحـد منهـم الـذي سيسلـّم غايـب مرهـون الـى حسّـاده و مغضيه و مـن يـدِ أولئـك الـى يـد تركـي الفتـلاوي لقمـة سـائغة فيضيّـع الشـلة و مـن أيـن لعقولهـم المقامـرة أن تفهـم بأنهـم بفعلتهـم مـع فسـيفِسْ قـد خـرأوا على الطاولـة التـي يغرفـون منهـا لعبـاً و تلعابـاً . . و تبعـه حـرمانهم النهائـي لأنفسهم من البهلوان الذي يزيّن لهم جولات القمار!
العيون التـي تترصـد غايـب و تتلهـف لسـقوطه تـزداد يومـاً فيومـاً . . منهـا

موجـودة فـي محيـط . . كازينـو أم كلثـوم . . و منهـا مـا يترصـد و يخطـط مـن بعيـد، كأنهـا قمـر صناعـي يشـبه سـفينة فضـاء تحـوم حـول الأرض و تنقـل أخبـار مـا يجـري عنـد غايـب مرهـون و تنقلـه الـى العيـون المتلقفـة . . و هـا هـي تلـك العيـون تتلقـف حادثـة فسـيفِسْ التائـه المضـروب مـن زوجتـه و المضـروب المهـان مـن شـلته . . و لـن تمـضِ علـى هزيمـة فسـيفس فـي غرفـة الكازينـو سـوى أيـام معـدودة . . و فـي مسـاء ١٧/١٦ تمـوز ١٩٦٨، و لـم يكـن قـد مضـى مـن الليـل سـوى ثـلاث سـاعات تقريبـاً، و شـلة المقامريـن مشـغولة باللعـب لا تـدري مـا ينتظـر الكازينـو، و صـوت أم كلثـوم يمـلأ فضـاء الشـارع . . يـا ليتنـي منظـر بديـع تطيـل لـي نظـرةِ الرقيـب . . و ليتنـي طائـر شـجّي أشـدو بإنغـام عندليـب . . أظـل أسـقيك مـن غنائـي سـلافة الـروح و القلـوب! . . كانـت ثلـة إنضبـاط شـرطة يقودهـا الفتـلاوي تحـث الخطـى فـي الشـارع الفرعـي نحـو غرفـة الكازينـو . . يراهـم غايـب فيُـهرعَ إليهـم مهـرولاً وراءهـم متملقـاً:

- رئيس عرفاء تركي . . شراح تشربون اليوم؟

لا يتوقف الفتلاوي، و هو سائرٌ يرد على غايب بحدة:

- ولـك أغبـر إبـن الأغبـر . . و لـك إبـن مرهـون العربنـچـي! . . تسـألني شـنو شـراح تشـربون؟ . . شـنوهو؟ . . إحنـه جاييـن نتونـس و إنتكشـمر حتـى تـسألنا شتشربون!

سـلاطة لسـان الفتـلاوي لـم يعتـد غايـب علـى سـماعها، تفاجـأ بهـا علـى الرغـم مـن إعتيـاده علـى وقاحـة الفتـلاوي، فيخـرَسَّ و يتجمـد فـي مكانـه . . و يواصـل الفتـلاوي طريقـه نحـو بـاب غرفـة الكازينـو و يتوقـف هنـاك، صـارخـاً بغايـب:

- تعـال ولـك! . . هـاي شـنو القطعـة مـال . . ممنـوع الدخـول! . . إنتـو شـعدكم جـوه؟ . . عندكـم معسـكر؟ . . حتـى تمنعـون الدخـول!

و يصعـب علـى غايـب فهـمُ مـا يتفـوه بـه الفتـلاوي و إسـتيعابه، لأن الفتـلاوي هـو نفسـه الـذي أوعـز إليـه بوضـع لافتـة المنـع. فيبتلـع لسـانه و يظـل مِخرَّسـا لا ينبـس بكلمـة و مستسـلماً للوضـع . . سـيطلب الفتـلاوي مـن الشـرطيين خلـع القطعـة الموجـودة علـى البـاب، و يأمرهمـا بالإنتظـار و الوقـوف عنـد البـاب لغايـة فـي نفسـه، كـي لا يطّلِـع الشـرطيان علـى مـا موجـود فـي الداخـل مـن

غنيمة، لأنه يعلم ما ينتظره في الداخل من أشياء يستأثر بها من جراء المداهمة . . المقامرون الثلاثة في داخل الغرفة مستمرون في اللعب حين يدخل الفتلاوي . . و ها هم ينتبهون لدخوله، و لكنهم لم يتوقفوا عن اللعب لظنهم أن الترتيب الذي وضعه الفتلاوي قبل سنين مع صاحب المكان ما يزال سارياً و هم يدفعون قسطاً منه، و هو يتقدم نحو ميز القمار، يصرخ الفتلاوي بهم:

- . . و لكم هاي شجاي تسوونْ؟ . . لعب قمار بمكان عام! . . إنتو ما تعرفون هذا عيب؟ . . إنتو ما تعرفون هذا عيب و يحاسب عليه القانون! . . . مو أنتو أولاد ناس! . . چا إنتو ما تدرون القمار وحدة من المنكرات الثلاثة اللي يحاسب عليها رب العباد و توديكم الى جهنم! . . إنتو ما تستحون؟ . . بأبي عبد الله الحسِين . . تدرون؟ . . تراني هالمسيّة راح ألعب بيكَم جولة . . إنتم و هذا إبن العربنچي!

مشدوهون من هول الصدمة، و لا يدرون كيف سيتصرفون أزاء إنقلاب يقوده رئيس عرفاء شرطة معروف بوقاحته و صلافته . . يتسمَّرَ المقامرون الثلاثة في مكانهم. و حالهم حال كل أهل بعقوبة بدرايتهم بصلافة و وقاحة الفتلاوي و الشطط الذي قد يأخذهم إليه . . و ها هم يصعبُ عليهم ان يحزروا ما يدور في رأس الفتلاوي . . و ما لم يحزروه هو وضع الفتلاوي لخطة فورية لإدارة الإنقلاب كي لا يفلت منه شئ، و في الوقت نفسه عليه أن يُؤَمّن ألا يشهد أحد على ما سيقوم به، أو كيلا يتهمه أحد فيما بعد بشئ دون بيان . . فهو يعلم أنه إضافة الى ميز القمار كان ثمة دولاب غايب و بحس الحرامي الفهيم و الشرطي الخبيث المشحون دناءة سعاً، و بحسب المعلومات التي رشحت له من الدماري، كان الفتلاوي يعلم أنه فضلاً عن قناني العرق القچغ لا بد من وجود مقتنيات شخصية ثمينة يحتفظ بها غايب في الدولاب . . و ما أن تسمَّرت عيناه أولاً على ما موجود على صحن النقود الموضوع وسط طاولة القمار، نادى على الشرطيين، فأمرهما أولاً باقتياد المقامرين الثلاثة الى خارج الغرفة كي يخلو له الجو في تصفية ما موجود في الغرفة . . يحاول المقامرون الثلاثة رِشا الفتلاوي إغراءً بإعطائه كل ما في جيوبهم، و هنا سيتصرف

الفتلاوي على غير ما يشاع عنه حين يعرض أحد ما عليه رِشا في الشارع للتغاضي عن مخالفة ما . . أبى منهم ذلك صارخاً بهم:
- . . بويه . . إنتم أولاد ناس! . . ذاك زلمتكم الخشالي! . . و ذاك زلمتكم البندر! . . و ذاك بيناتكم الريس! . . چا شلون تخربون ضميركم و تريدون ترشون رئيس عرفاء إنضباط شرطة يخاف الله و ما ياخذ حرام! . . چا هي ولاية بُطيخ حتى ترشون تركي آل فتلة و تخربون ذمته بدرهم لو بدرهمين! . . هاذي الشغيلة ما بيهه كشمرة!
و يصرخ الفتلاوي بالشرطيين لإخراج المقامرين الثلاثة و يحتفظا بهم خارجا أمام غرفة الكازينو.
بخروج الجميع، ها هو الفتلاوي يختلي بالموجود في الغرفة، و سيخلو له الجو ليبيض و يصفر كيفما يشاء! . . مدَّ يده، بنفس بالغة الدناءة، أول الأمر ليخطف ما موجود في الصحن من أوراق نقدية قليلة من فئة ربع دينار و نصف دينار، و ضعها في جيب سرواله الأيمن، و لم يتخلف في الصحن سوى عدد غير وافر من قطع النقد المعدنية. . ثم يتوجه الى دولاب غرفة الكازينو، و يفتحه . . قناني عرق في الرف الوسطي . . ملابس و أشياء أخرى في الرف السفلي . . و هناك على الرف العلوي كان ثمة صندوق خشبي مزخرف صغير بقفل صغير جداً و بجانبه صندوق حديدي أكبر من الأول قليلا . . و يا للصدفة! . . الصندوق دون قفله الموضوع بجانبه . . يسحبه الفتلاوي نحو الرف الوسطي ليضعه فوق قناني العرق المنطرحة و أفواهها نحوه . . و يفتح الصندوق فينفغِرُ فوهُ فوراً بمرأى أوراق النقد . . خضراء . . و حمراء . . و زرقاء . . من فئات عشرة دنانير و خمسة دنانير و الدينار المفرد . . و بروح الجشعِ، تبان له حقيرة حفنة الأوراق النقدية من الفئات الصغيرة التي إصطادها من صحن ميز القمار . . بجانب أوراق النقد ثمة أوراق كمبيالات و أوراق أخرى . . الغرفة خالية دونه . و ها هو يحرص على ألا يكلفه تدبّرِ الأمر سوى ثوان معدودات كي لا يفلت منه وقت الغنيمة . . مردداً لنفسه . . الحمد لله! . . سبحان الله! . . الصلاة و السلام على الرسول و آل الرسول! . . بإسم الله! . . أي بويه! . . هيچ الله يجازيهم زين لمحبي آل الرسول!

.. يسلطهم على قمرچية .. يا الله! .. يمد يده و يسحب دون حساب من رزمة كل فئة حوالي نصفها و يضعها جميعاً في جيب صدر سترته الأيسر .. حيث موضع قلبه .. و يعيد غطاء الصندوق و يعيد الصندوق الى حيث كان في الرف الأعلى .. و لا يستغرق هذا منه سوى أقل من دقيقة، ثم يلقى نظرة نحو الصندوق الخشبي المجاور للصندوق الحديدي .. و بسبب عجلة أمره لم يعبأ بما في الصندوق الخشبي .. فلو فتحه ما الذي سيكون فيه أثمن من الذي حظي به في الصندوق قرينه! .. و يتوجه الفتلاوي نحو باب الغرفة آمراً الشرطيين المنتظرين في الباب بالدخول، و صارخاً في الوقت نفسه بغايب و قد مُلِّئَ بالرعب منتظراً خارج الغرفة:

- .. تعال ولك! .. إنت إبن مرهون العربنچي .. تعال!

يدخل غايب الغرفة يتعثر بدشداشته، و من رعبه يترك البله على وجهه ما يبدو للناظر أبتسامة باهتة في وجه مذهول. و يستطرد الفتلاوي بصوت عال و نبرة وقحة الغاية منها أن يسمعه من تجمع من الناس خارج الغرفة من رواد الكازينو:

- .. و لك إبن مرهون العربنچي .. چا إنت مسويهه هنا ملعب مال سنكر و إحنه ما ندري! .. قمار و شرب عرگ و بيع عرك! .. مايخانة و قمار! .. شباقي بويه حتى تسويهه كلچية و تروح عليهه إعدام! .. ما باقي شي! .. بس تجيب گحاب و تصير كلچية!

من بين الذين وصلهم خبر الضوضاء و المداهمة علو الدنداوي و ولديه مرهوم و صُبيح و الدماري .. أتوا جميعاً ليتفرجوا غير مصدقين ما يجري. و من فرط ذهوله مما يدور أمامه و يسمعه من الفتلاوي، إنتاب علو الدنداوي مزيج من شعور لا يوصف .. فرحٌ شيطاني .. إشتشافُ مغتل للثأر .. ثأرٌ بالغٌ مداه .. بل و من إنتشاء الدنداوي بما يجري لم يخشَ حتى من إنفضاح أمر مؤامراته ضد غايب، فيعلق على آخر ما قاله الفتلاوي:

صارلنا سنين نحچي وياك رئيس عرف تركي و إنت ما تصدِّگنه!

فنهره الفتلاوي صارخاً:

- إنت إنچب و إنجّر! . . و لا تتدخل بشغل الشرطة! . . إنجّر إنت . . إنجّر!

مُطيعاً و مُهاناً . . ينسحب الدنداوي و ولداه بإتجاه الرصيف الضيق المقابل، و يتبعهم من تجمهر من الناس خشيةً.

و هما يدخلان، جرّ الشرطيان غايب و دفعاه الى داخل الغرفة، فيصرخ الفتلاوي به طالباً منه أن يفتح دولاب الغرفة على مصراعيه. يتقدم غايب مذعوراً ليفتح أحد بابي الدولاب، و قد توارت بعض قناني العرق القچغ وراء الباب الثاني، و يصرخ الفتلاوي به مرة أخرى ليفتح الدولاب على مصراعيه. ينصاع غايب للأمر، و تظهر للعيان قناني العرق . . و ينتهر الفتلاوي غايب صارخاً:

- لا! . . و موش بس مسويهه ملعب قمار! . . إبن مرهون العربنچي . . چا إنت هيـَچ! . . و چماله مسوِّيهه مايخانه تبيع بيهه عرگ!

كان أبو فردوس الچايچي قد جاء عند الباب تاركاً الكازينو وراءه . . و هو خارج الباب، أراد أن يدافع عن صاحب نعمته، فتجرّأ على الرد:

- رئيس عرفاء تركي . . هذا العرگ مال أبو مرهون . . يشرب منه نص الليل من نـُغْلـگ الكازينو!

فيعلق الفتلاوي صارخاً:

- و لك! . . إنت إنچب! . . إنت ما تحچي أبد! . . و لك إنتَ خَلـَگْ چايچي! . . تراني هسه أصيح للشرطي يكلبچك ويا هذوله اللي برّه . . خليك برّه و لا تِحـِچْ!

يطلب الفتلاوي من الشرطيين أن يكونا الشاهدين على ما يضبطاه و يتحفّظا عليه في غرفة الكازينو من أجل التحقيق و يرفعانه معهما. . و يروح أحد الشرطيين ليحصي قطع النقد المعدنية الموجودة في الصحن . . ثلاث قطع من فئة الدرهم الفضي و إثنتان من فئة المائة فلس الفضية و قطعة واحدة من فئة المائتي فلس الفضية. و عدّ الشرطي الثاني قناني العرق الموجودة في الدولاب، و كانت أربع قناني خضراء كبيرة، و خمس قناني زرق صغيرة . . و أنزل الشرطيان الصندوق الحديدي من الدولاب، و أمرهما الفتلاوي بفتحه ليظهر ما فيه . . و سرعان ما إنفغر

فاهـا الشـرطيين مـن مـرأى كميـة أوراق النقـد. و يطلـب إليهمـا الفتـلاوي أن يعـدّا النقـد الموجـود . . و يخبـراه إنهـا مائـة و خمسـين دينـاراً، فيعلـق الفتـلاوي:

- هذا ربح القمـار اللـي حرمـه الله سبحانه تعالـى فـي كتابـه الكريـم! . . بويـه . . و هسـه راح يـروح مـال المـاي للمـاي و مـال اللبـن للبـن! . . بـس آنـي مـا جـاي أشـوف لبـن! . .شـو كل اللـي جـاي أشـوفه مـاي بمـاي . . چـا وِيـن اللبـن الحـلال اللـي هنـا! . . . . كلـه مـال حـرام؟

و كأنـه، لربمـا، أراد أن يعنـي أن مـال اللبـن الحـلال صـار فـي جيبـه و غـدى مـن حقـه غنيمـةً مـن فاعـلِ منكـر، و هـذا الـذي ضبطـه الشـرطيان ليتحفّظـا عليـه هـو مـال المـاي الـذي يضـاف الـى اللبـن غشـاً، فقـال للشـرطيين:

- هـاي الفلـوس اللـي لـگـيناها بالصنـدوگ هي أربـاح القمار و العرگ القچـغ . . فلـوس حـرام راح تصيـر حصـة الحكومـة!

و علـى الرغـم مـن أنـه يـدري، بـل واثـق، مـن أنهـا لـن تذهـب الـى الحكومـة و إنمـا الـى جيـوب ضبـاط مركـز الشـرطة، سيضيـف بسـخرية مبطنـة:

- چـا شلون! . . لازم تصير للحكومة!

و سـيأمر الفتـلاوي الشـرطيين بجمـع كل مـا وجـداه فـي الـدولاب فـي كيـس.

و أثنـاء مـا كانـا يحصـران الموجـودات فـي كيـس أخـذاه مـن الـدولاب، يخـرج الفتـلاوي حفنـة الأوراق النقديـة التـي سلبها مـن صحـن ميـز القمـار، يقسـمها نصفيـن، و يقتـرب مـن نفـري الشـرطة اللذيـن معـه، و يضـع فـي يـد كل منهمـا حصتـه، هامسـاً فـي أذنيهمـا:

- بويه . . هذي حصتكم من رزق اليوم!

بشـكره الشـرطيان، و يشـاء أحدهمـا أن يقبـل يـده، فيستسـلم الفتـلاوي منتشـياً .

. قُـبِّلَتْ يـدُ الفتـلاوي اليمنـى آيـة مـن آيـات الله، فوجـد الشـرطي الثانـي نفسـه مضطـراً لتقبيـل اليسـرى مكرهـاً.

و الغريـب فـي الأمـر هـو أن المداهمـة و كبسـة المقامريـن جـرت علـى نحـو و كأن أحـداً مـا أوصـى الفتـلاوي أو طلـب إليـه أن يجعـل العمليـة سـافرة و فاضحـة و مجلجلـة، فيأمـر رئيـس العرفـاء الشـرطيين بتصفيـد غايـب، الـذي ظـل يراقبهـم مذهـولاً و هـم يصنفـون مـا فـي الغرفـة مـن أدوات جرميـة.

و سيخرج غايب مصفداً، يسير بإتجاه شارع الشاخة، متبوعاً بالثلاثة . . البندر و الخشالي و الريس، من غير أصفاد. و سرعان ما سينقلب دنيا كازينو أم كلثوم عاليها سافلها، و تقوم دنياها و لا تقعد، بمرأى أولاد بعض أعيان بعقوبة يمرون مخفورين من قبل الشرطة، و كأنهم كومبارس لحملة إقتياد غايب مرهون صاحب الكازينو . . سار الجميع يتقدمهم تركي الفتلاوي، و يسوقهم شرطيا إنضباط . . هبّ رواد الكازينو من على جانبي الشارع ليتفرجوا على منظر الخارجين من الشارع الفرعي المجاور للكازينو . . موكب لا يحسد عليه أي منهم! . . و نزولاً الى الشارع متوجهين نحو أقرب قنطرة تؤدي الى مركز شرطة بعقوبة . . كان صوت أم كلثوم ما يزال يصدح من ورائهم . . يا ليتني زهرةٌ تساقتْ مع الندى قبلة الحبيبِ . . و ليتني جدولٌ تهادى ما بين زهرٍ و بين طيبِ! بضعة خطوات . . خبّبَها وراء شلة المكبلين بالقيد علو الدنداوي و ولداه، و عيونهم ليست في محاجرها، غير مصدقين ما يجرى . . برهوم عريضي و الدنداوي الوالد يخبان تشفياً، بل يهرولان فرحا . . و صُبيح يجرجر خطواته أسفاً و حزناً على صديقه غايب مرهون! . . و تخلف الدماري ذاهباً الى الصالة لجمع القناني الفارغة . . و سيسيل الدمع من عيني أبي فردوس الچايچي عطفاً و رثاءً و حزناً على ما حصل لوليّ نعمته غايب . . و لربما خوفاً مما ستؤول إليه أمور العمل في الكازينو.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بإنبلاج صبح ليلة الإنقلاب الذي قاده رئيس عرفاء الشرطة تركي الفتلاوي في كازينو أم كلثوم . . صباح السابع عشر من تموز ١٩٦٨، صحا الناس في بعقوبة على خبري إنقلابين أحدهما حمله صوت من إذاعة بغداد يُنبئ عن قيام إنقلاب قيل عنه أنه أبيض إستولت فيه ثلة من البعثيين على السلطة بعد إستسلام رئيس الجمهورية ليلاً، موضوعا في طائرة و مرحلّا طائعا الى تركيا . . و معه إنطشّ ضحىً كطشيش الزكام خبر الإنقلاب الذي حصل في كازينو أم كلثوم بإقتياد صاحبها غايب مرهون الى التوقيف على ذمة التحقيق!

في ثنايا النهار اللاهب . . ظل الناس، رجال المقاهي و السوق و

نسـاء الحـارات، يلوكـون الخبريـن أحدهمـا إثـر الآخـر أو أحدهمـا متزامنـاً و متداخـلاً مـع الآخـر. . يتسـاءلون أولاً عـن قـادة إنقـلاب الحكومـة و مـن هـم الإنقلابيـون و مـاذا يريـدون، ثـم يتبعونـه بخبـر إنقـلاب كازينـو أم كلثـوم و توقيـف صاحبهـا غايـب مرهـون . . ظـل النـاس يناقشـون التفريـق بيـن الحدثيـن . . و ذاع صيـت الشروگـي تركـي الفتـلاوي الـذي أطـاح بـكازينو أم كلثـوم . . أميـرة مقاهـي بعقوبـة . . و عكسـت ردود أفعـال أهـل بعقوبـة علـى خبـر توقيـف غايـب مرهـون عـدداً مـن التعليقـات يفـوق بكثيـر عـدد التعليقـات عـن إنقلابيـي الحكومـة، و سـيذيع مـن بينهـم صيـت صـدام التكريتـي، مثلمـا ذاع صيت تركي الفتلاوي! . . حـدث الإنقـلاب ضـد حكومـة الرئيـس عبـد الرحمـن عـارف لـم يحتـج لأكثـر مـن يـوم واحـد كـي تخفـت تعليقـات النـاس حـول مـا قيـل عـن دور ضابطيـن كبيريـن، طـُمِّـعـوا بمنصبيـن كبيرين مـن قبـل عصبـة الإنقلابييـن، كـي يعمـلا علـى إسـقاط القصـر الجمهـوري مـن داخلـه بإستسـلام رئيـس الجمهوريـة للإنقلابييـن البعثييـن . . و لكـن تعليقـات النـاس حـول إنقـلاب تركـي الفتـلاوي ضـد غايـب مرهـون لإسـقاط كازينـو أم كلثـوم لـم تخفـت و لـم تهـدأ، إذ راح أصحـاب المقاهـي و روادهـا يلوكـون كلامـاً لا يختلـف كثيـراً عـن الـكلام الـذي لاكـوه عـن سـفرة غايـب مرهـون الـى القاهـرة. و لـم تخفـت التعليقـات علـى سـقوط كازينـو أم كلثـوم إلا بعـد أسـبوعين، حيـن عـادت الـى الواجهـة أخبـار الإنقلابييـن البعثييـن يطيحـون علـى طريقـة جـزاء سـنمار بالضابطيـن الكبيريـن اللذيـن باعـا القصـر الجمهـوري و رئيـس الجمهوريـة لشـلة الإنقـلاب البعثـي. و هـا هـي شـائعة تـروج عـن عصابـة إستهوت الضابطيـن الكبيريـن بالسـلطة و قـادت إنقـلاب السـابع عشـر مـن تمـوز بإسـقاط القصـر الجمهـوري و لـم يكـن وراءهـا سـوى عـددٍ مـن عرابـي مافيـا لا يزيـد عـن عـدد منفـذي إنقـلاب كازينـو أم كلثـوم . . فئـة مـن سـتة أو سـبعة أنفـار يتحركـون فـي سـيارة پـيكآپ و يقودهـم صـدام حسـين الـذي خـرج ذكـره الـى الوجـود أثنـاء محاولـة إغتيـال عبـد الكريـم قاسـم عـام ١٩٥٩، و شـاع إسـمه إرهابيـاً، يطلـق عيـارات ناريـة هـو و عصابتـه يهـددون بهـا طلبـة جامعـة بغـداد لإجبارهـم علـى القيـام بإضـراب تمهيـدا للإنقـلاب المذكـور و الإسـتيلاء علـى السـلطة.

و ليلة إنقلاب تركي الفتلاوي على كازينو أم كلثوم . . دُبِّرَتْ بليل لـمَلْـمة موضوع المقامرين الثلاثة . . فُلان الفلاني و عِلّان العلاني و فستگان الفستگاني . . و سُوِيَت قضيتُهم مع إنبلاج صبح السابع عشر من تموز بإتصالات جرت ليلاً مع قاضي التحقيق و المدعي العام في محكمة بعقوبة، و أطلق سراحهم غبشاً حتى قبل أن يلتحق أي شرطي بدوامه في مركز شرطة بعقوبة!

و تلك الليلة . . راح المال الذي ضُبِط في غرفة كازينو أم كلثوم ليكون معظمه نصيب ضباط الشرطة الخفر، و لم يُسجَّل سوى ما ضبط من قطع النقود المعدنية في صحن ميز القمار و معها دستة أوراق اللعب، قرينة على إستعمال المكان نادياً للقمار. و قناني العرق التي ضبطت في دولاب غرفة الكازينو هي الأخرى صارت قرينة على شرب و بيع و تداول خمور غير مرخصة، سواء بإنتاجها أو بتجارتها، من قبل مُسلم يحرِّم عليه القانون الإتجار ببيع الخمور . . و ما أسرع ما جُمِعَت الإدلة في صباح السابع عشر من تموز في قضية جرمية مُرَكّبَة ضد صاحب كازينو أم كلثوم . . فحواها إستغلاله لمكان عمله في لعب القمار و تناول الخمور و تداول خمور غير مرخصة و بيعها . . عُرِضَ غايب مرهون المتهم بها جميعاً فورا على قاضي التحقيق . . و كأن يداً خفيةً غايتها تجميعَ مواد قانونية شتى لتُفبّرِكَ أقصى مدة سجن ممكنة لغايب مرهون العربنچي سيقضيها في سجن بعقوبة.

ظلال الفانتازيا . . . حسين الجيراوي

المدن كالبشر لها قسمات تدل عليها . . و مثلما تتبادر الى الذهن فوراً قسمات إنسان ما حين يُذكر إسمه، فعندما يُذكَرُ أسم مدينةً، تقفز الى الذهن فورا قسماتها التي تشكلت عبر أطوار تاريخها . . الشوارع هي شفاه المدن تتحدث عمن داس عليها . . الأشجار أنوف المدن تتنشق منه هواءها . . البساتين المحيطة بالمدينة هي عيونها التي ترى بها المدى . . و مثلما يُرى شعر الرأس هالةً للبشر، يُرى حزام النخيل المحيط بآفاق المدينة كأنه هالة المدينة! . . هذا هو ما يسمونه بالمكان.

و عن الزمان . . لربما يتناسى الناس أحيانا ما يقال عن أن ما يشكل زمان المدن هو أسواقها . . أجل السوق! . . سوق المدينة هو الذي يشكل زمان المدينة! . . التجارة و البشر هما من أوجد السوق . . و تاريخ الأسواق يتميز غالبا بعلامات فارقة ترسم كل حقبة يمر بها السوق . . و ما يُشكِّلُ هذه العلامات هم أفرادٌ غالباً ما يشار إليهم بالبنانِ لأنهم رموز حقبات السوق . . و لا فرق في هذا سواء أكانوا مهمين أو تافهين . . نابهين أو أغبياء . . أشراف أو أجلاف! . . و إلّا فكيف ستُعرف الأشياء إن لم تعرف بإضدادها؟ . . هكذا تَتَنَسَّجُ قسمات السوق لتغدو بالتالي ملامحا للمدينة و تاريخ سوقها و سيماء وجهها . . و جرت العادة هكذا . . تَتذكَرُ حقبة من حقب أية مدينة، فتقفز فجأة الى الذاكرة وجوه و أسماء متميزة من البشر يرسمون للأسواق قوامها و للمدينة غناها.

بعقوبة المدينة . . ما أن تستدعى الى الذاكرة حقبة مسيرتها ما بعد الحرب

العالميـة الثانيـة إلا و تثـب الـى الذاكـرة فـوراً أسـماء لامعـة فـي سـوقها . . أسـماء فـي قلـب السـوق . . حسـن علـو الگـفـچـي بائـع الخضـراوات . . و محمـد عيشـة القصـاب . . كريـم علـو بائـع الفواكـه . . حسـن قيـز القصـاب . . هـادي الوسـخ بائـع الرقـي صيفـاً و الخـس شـتاءً . . داود شـناوة بائـع الخضـراوات . . حسـن چـنگال القصـاب . . الأخويـن فالـح و حميـد مطـر بائعـيّ الفواكـه . . جمَيِّـل الحـلاق . . ناجـي الحـلاق . . خمـاس القصـاب . . جميـل أبـو حدبـة القصـاب . . أسـطة عبـاس البنـا . . حميـد النجـار . . ناجـي نرگـوزة بـوق أعلانـات المدينـة . . حيـدر مزرطـون بائع الملابس المسـتعملة . . رشـيد العانـي بائـع الحبـال . . كريـم البـزاز . . حُبَيِنِـي بائـع الحـلاوة الشـكرية و الرمليـة . . عكـاوي صانـع كل أنـواع الحـلاوات و صانعـه حسـن حـلاوة . . عبـاس جويريـد . . عبـاس أبـو إليَكـّة بائع الـچـقلنفوچ . . ياسـين رشـيد البزاز . . هـادي سُـنبيلخ بائـع الخضـر . . عبـود أسـطة عبـاس بائـع السـلاح المرخـص . . أبـو شـخان بائـع الخمـور المرخصـة . . داخـل الصائـغ . . الحـاج صالـح بائـع الفحـم . . حسـن غايـب بائـع التبـوغ . . مجيـد كـرادي بائـع التبـوغ . . عبـاس القندرچـي . . نزهـان الأحمـدي بائـع الخضـراوات . . شـعلان الجربـة بائـع الخضـر و الفواكـه . . رحومـي علـو صانـع الكعـك و الزلابيـة و البقـلاوة . . هـادي أبـو الفحـم . . عـلاوي الخشـالي الخيـاط . . دكتـور إسـكندر المصـري الطبيـب و المرابـي فـي عيادتـه فـي قلـب السـوق . . جميـل الشـيعي . . نصيـف حلبوطـة . . عبـود فليجـة البقـال . . عبـاس الكهيـة بائـع الخضـراوات . . محمـد صالـح شـفيق . . محمـود شـفيق . . حيـاوي العلوةچـي . . جاسـم دبـدب العلوةچـي . . صـادق رازقيـة الحـداد . . فاضـل السـراج . . سـيد فليفـل . . و هابـي النجـار . . موسـى الحمّـال . . رزوقـي أبـو البطايـق . . محمـد هيـدان أبـو اللنـگـات . . كمـال أبـو الدوندرمـة . . عبـاس قچـو . . مهـدي عنافصـة . . قاسـم منـارة . . فخـري العلوةچـي . . إبراهيـم الحيالـي البـزاز

و أسـماء . . تقفـز الـى الذاكـرة مـن حافـات السـوق . . أميـر القيروانـي و رسـومه الفاضحـة بنظـر المتزمتيـن مـن النـاس . . جاسـم بُـدِّي بائـع المجلات و الكتـب . . محمـد الديـري بمطحنتـه . . هـادي السـعيد بمصنـع العصيـر المعبـأ

بالقناني . . راسم آغا الفندقچي . . يهودا و أخوه ناجي صاحبي محطة البانزين و دار سينما ديالى . . حسن الزيدي و أحمد حسك صاحبي دار سينما بعقوبة . . آل حبيب البستنچية . . آل البندر . . الخشالات . . آل المتولي . . جبار سعودي المختار . . جاسم التميمي الصباغ . . مجيد بُدّي الصباغ . . سيد إسماعيل المختار . . إبراهيم عيدان الملاك . . ضابط الشرطة فاضل القريشي

في مدينة بعقوبة . . من في قلب سوق بعقوبة أو في حافاته . . الجميع، هُم ومن معهم، أولادهم و بناتهم و نساؤهم . . و أي عاش في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم تفته فرصة التفرج في مدينة يا لأرضِ شوارعها من تَشَكّلٍ عجيب، و هي تتشَكلُ بقدرة لافتة للنظر على يدي . . حسين أبي الجير . . شاب مفتول العضلِ بقامةٍ شاهقةٍ تُساهم في صياغة ما يراه الرائي له من جبروت جسدي يضفي خفةً و مهارةً على حركة يديهِ و هو يدحرج أسطوانة نحاسية يبلغ طولها متراً تقريباً ضاغطاً عليها بيديهِ المخضلتين بالزيت الأسود ليسوِّي بها ما يُنثَرُ أمامه من إسفلت، لتعبيد الطريق . . إسفلتٍ فائرِ القيرِ يتصاعد منه بخار سيحوِّل وجه حسين أبي الجير بالتدريج الى سيماء مكفهرة و بتقطيبة لا تفارق وجهه . . و أمام هذه السيماء المكفهرة كانت تتشكل شوارع بعقوبة الإسفلتية و تمتدُ لتخنق غبار الأرض بيدي أبي الجير و هي تبسط الأسفلت الذي يحرقُ أرجل الصبيان الماشين عليه حفاةً لمناكدة أبي الجير و هم يتسلون بترك طبعات أقدامهم على ما تجترحه يديه من صقل و عدالة في الأرض، و يضطرون في الصيف اللاهب الى الركض في مشيهم للتقليل من أثر اللسعة التي تكوي باطن أقدامهم بتأثير السخونة التي تحدثها أشعة الشمس اللاهبة في القير . . و يقال أن طوابير الصبايا و المراهقين و الأطفال و النساء ما كانوا يأتون و يصطفون على طول مسناة الشاخة إلا لكي يتفرجوا على حسين أبي الجير منتهيا من عمله في التبليط . . يرونه آتيا لينحدر في مياه الشاخة صيفاً أو شتاءً مصطحباً معه قطعة صابون ليغتسل بها مما علق به من زيت محروق

و دخـان . . يصطفون ليتفرجوا علـى عضلـه المفتـول و قامـة مديد بتقاطيـع متناسـقةٍ لجسـد مفتـول العضـل لـم يـروا مـن قبـل لـه مثيـلا!

التناسـق يضفـي علـى جسـد أبـي الجيـر جبروتـا ينعكـس أحيانـا علـى شـكل فضاضـة و زمجـرة يطلقهـا تجـاه مـن يتفرجـون عليـه . . و هـو يخـوض فـي مـاء الشـاخة يومـاً، تلمحـه إمـرأة حسـنة الخلقـة لتتفـرج عليـه، فيزمجـر فـي وجههـا، و تـرد عليـه بعبـارة:

- . . و لك إنت وحشي؟ . . عِيبْـلك هالخلقة!

و هـا هـو قـدر التـي عابـت لأبـي الجيـر خلقتـه يجعـل أبـا الجيـر يأخـذ مـا قالتـه المـرأة معكوسـا تمامـاً و يحسبَهُ فـي معنـاه ناضحـا بغَـزَلٍ جـرئ بـه، و يـروح ليسـأل عـن المـرأة، و سـيخبرونه أنهـا ترملـت بعـد سـنتين مـن زواجهـا . . و يسـعى أبـو الجيـر الـى التعـرف علـى أبيهـا . . يخطبهـا منـه فيوافـق و توافـق هـي و يتزوّجهـا، و يظـل يحبهـا مـع أنـه سـينحرم معهـا مـن الضنـى لمـدة طويلـة!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

حسـين أبـو الجيـر . . نشـأ فـي أسـرة صغيـرة لأب يعمـل أجيـراً فـي بسـاتين البلـدة و المناطـق المحيطـة بهـا فـي الهويـدر و خرنابـات، و لأم عليلـةٍ دائمـاً، و أخـتٍ وحيـدةٍ، فـي بيـت صغيـر تسـكنه الأسـرة فـي محلـة الفايزيـة . . و فـي السـنة التـي تزوجـت بهـا أختـه مـن هـادي الجريـو، الـذي كان يكبرهـا بعشـرين عامـا، أبـان الشـهور الأخيـرة مـن الحـرب العالميـة الثانيـة، ماتـت أمـه و تبعهـا الأب الـى العالـم الآخـر . . و كان زوج أختـه يعمـل متعهـداً لتجهيـز مستشـفى بعقوبـة بأرزاقهـا . . ألجَـأه زوجُ أختِـهِ إلـى بيتـهِ، فـي محلـة المنجـرة فـي صـوب السـراي، و حـدب الرجـل عليـه لأنـه كان دون ذريـة و رعـاه رعايـة الوالـد الحـق للولـد النـازل مـن صلبـه، لدرجـة أن الرجـل شـرع بتدريـب حسـين علـى مهنتـه و راح يصطحبـه أحيانـا فـي جمـع الأرزاق و الذهـاب بهـا الـى مستشـفى بعقوبـة . .

فتوة أبو الجير في طور التشكُّلِ . . و يحصل أن يجيئَ الى المدينة مقاول من بغداد ليبلط شوارع محلة المنجرة، و يروح حسين ليتفرج على التبليط، فتستهويه حركات الرجل الذي يُسَوِّي الأسفلت بإسطوانة معدنية يستعملها في تبليط الشوارع. و سيتوّسل حسين و يتضرع الى المتعهد و الى الأسطة المُبَلِط لكي يقبلونه معهم في فريق العمل . . و أزاء إلحاحه و إصراره قبلوه عاملا بأجر ضئيل جدا . . و ها هو حسين يتعلم تحريك إسطوانة التبليط بخفة و يتفنن بها بمهارة فريدة، لدرجة أن المتعهد حين أوشك على الإنتهاء من تبليط أزقة محلة المنجرة، طلب من حسين أن يرافقه في عمله في بلدات أخرى في لواء ديالى، و لكنه رفض . . و سرعان ما سيتلقف مقاول من بعقوبة حسين، و أمّله في حسين و مهارته في التبليط كبير جداً، و يشرع المقاول بأخذ تعهدات تبليط طرق في بعقوبة و بلدات أخرى في المنطقة . . و هكذا وفر المقاول الفرصة للناس يتفرجون على جسد حسين المفتول العضل و المتناسق و هو يستحم بماء الشاخة، غير مبالٍ بقرٍ أو حرٍ . . ومذاك اليوم شاع أسمه بلقبه . . أبو الجير[35] . . و سرعان ما سيغدو حسين رمزا من رموز بلدة بعقوبة و علامة من علامات سوقها . . ينزل الى الشاخة عصرا بعد إنتهاء عمله و يغتسل بمائه المنساب يحمل معه صفار رغوة الصابون الرقي . . و يعود الى البيت ليتزيا بملابس لائقة و يذهب الى مقهى محمود جوير ليتفرج منفوش الريش و هو يحتسي الشاي على رسميِّهِ اللذين صوَّره أمير القيرواني فيهما على جدران المقهى . . إحدهما و هو مُنحنٍ يلعب بإسطوانة التبليط يتصاعد منها الدخان، و الأخرى و هو يغتسل في ماء الشاخة و قد بانت عضلاته و الأطفال يتفرجون عليه!

تمضي عليه سنوات في تبليط الشوارع . . و سيشكو أبو الجير من حرقة في عينيه، فيشير عليه المعارف بالذهاب الى مسعودة زوجة شلومو اليهودي طبيبة العيون في دربونة أم الدجاج . . فتنصحه مسعودة بالتخلي عن عمله في تبليط الشوارع لأن ذلك قد يؤدي به الى العمى بسبب

٣٥ «جير» هي تسمية الناس في وسط العراق و جنوبه لمادة «القير»

الأبخـرة المتصاعـدة مـن القيـر المغلـي الـذي يسوِّيه علـى الأرض.

وطـأةُ التخويـفِ مـن العمـى ستجعل حسـين يتـرك حرفـة أحبهـا مستغنيا عمـا تـدرّه مـن مكسب مـرضٍ . . و سيفرح زوج أختـه فرحـاً شديداً لعـودة حسـين إليـه و قـد عـاد ليـزاول المهنـة رجـلا راشـدا، عركتـه مهنـة بسـط الأسـفلت علـى طرقـات بلـدات و قـرى لـواء ديالـى. و سـرعان مـا سـيثبت أبـو الجيـر لصـهره تحليه بفطنـة عملية إضافـة لجبروتـه الجسـدي. و سيثبتها عند تعامله مـع موظفـي مستشـفى بعقوبـة المسـؤولين عـن تَسلـّمِ الأرزاق . . براعـة فـي المسـاومة مـع المسـؤلين بتضحيـة بسـيطة لترضيتهـم. جـدارة فـي توفيـر هامـش ربـح إضافـي صـغيـر، فيندهـش الصـهر مـن النسـيب، مثلمـا سـيندهش حسـين هـو نفسـه مسـتقبلا مـن عاملـه غايـب مرهـون . . و بحـرص حسـين علـى ثـروة صـهـره الصـغيـرة، سـرعان مـا سـيجعل هـذا الأخيـر يتصـرف أزاءه و كأنــه وريثــه المرتقـب . . دمـاء أبـو الجيـر المتجـددة تلهمـه دومـا بأفـكارا جديـدة، و كأن إختلاطـه بالعامليـن و العامـلات فـي مستشـفى بعقوبـة يكسـبه بإسـتمرار رؤيـا متفوقـة لعملـه. عملـه فـي بسـط الإسـفلت لـم يذهـب سـدى، و إذ كان عملـه ذاك مغـزاه تعبيـد الـدروب ليطرقهـا البشـر، فهـا هو ذاك العمـل قـد هيـأهُ لهـذا العمـل لتعبيـد أفكـار جديـدة و بسطها للتنفيـذ. و سـرعان مـا سـيبدى الوريـث المرتقـب لفتـات غيـر متوقعـة فـي رجاحـة عقـل عملـي يبحـث عـن مصـادر جديـدة للربـح.

يتناولون عشاءهم ذات مساء، فيفاجأ أبو الجير صهره قائلا:

- آني ما أدري شنو اللي يخلينه حاصرين نفسنا بس بشغلة المستشفى!

فيتساءل صهره:

- حسين . . لعد شنسوي؟ . . .شنو اللي يدور براسك الفلتة هذا؟

- أكو جهات غير المستشفى تريد أرزاق!

- ياهيَّ مثلا؟

- . . سجن بعقوبة! . . دار الأيتام!

- بس إحنه وحدنا ما نـگدر نسوي كل هذا الشغل!

- نشغِّل مساعدين!

و ها هو الصهر يستجيب لأفكار نسيبه المتجددة . . و بنوبة جهدٍ من ذاك الذي يسمونه جهد المخادع الزوجية و أحاديث الوسادة سيوافق الصهر على أن تكون إتفاقات التعهدات الرسمية الجديدة بإسم حسين أبي الجير . . و سيحصل أبو الجير في عام 1956 على تعهد تزويد دار الأيتام في بعقوبة بأرزاق الأيتام اليومية . . و على الرغم من نزاهة السيدة أديبة العلوچي مديرة الدار، إلا أن ذهاب أبي الجير يومياً الى بناية دار الأيتام، المطلة على نهر ديالى على طريق قرية الهويدر، و تعامله مع موظفٍ فاسدٍ و مرتشٍ و طباخٍ لا يختلفُ عنه قد أكسب أبا الجير معرفةً بوجه آخر من وجوه النفع . . من طريق الرشى . . و بفقرات هذا التعهد الجديد القليلة لم يحتج أبو الجير فيها الى عمال إضافيين. أدار التجهيزات بنفسه، و هو ما أدهش صهره أي إدهاش في وسائله لتحقيق الربح. فبات الصهر موقناً و هو دون ضنى بأن من يستحق ثروته هو حسين لا غيره، و لأنه لم يرد أن يكافأ أي من أقربائه بحصول أي منهم على أية نتقة من ثروته بسبب طمعهم الجشع في ثروته و ترويج أقاويل عنه، سيذهب الرجل ذات ضحى الى بناية محاكم بعقوبة ليوصي لحسين أبو الجير رسمياً بكل ما يملكه!

و يجاهد أبو الجير في عامٍ تالٍ لبلوغ أهداف جديدة . . مثلما كان يُعبِّد الدروب بالإسفلت فيصير طُرْقُها أيسرَ و أريحَ للناس، إجتهد حسين ليُعَبِّدَ عند جهات حكومية عديدة، طرق حصوله على تعهد تجهيز أرزاق سجن بعقوبة . . و هكذا سيصبح حسين قاب قوسين أو أدنى من إحتكار تجهيزات الأرزاق لمؤسسات مدينة بعقوبة، لولا بقاء تعهد أرزاق موقف مركز شرطة بعقوبة في عهدة قاسم العگلاني و عامله محمود أبي شوارب،

اللذين إرتعدا من تقدم حسين في مجال تعهدات الأرزاق، و خافا على مصير مهنتهما، لكن حسين إلتقاهما يوماً و هو في السوق، لامزا ضآلة حجم العگلاني و طمأنه معلقا:

- قاسم . . هذي الشغلة اللي عندك مال واويه إصغار مثلك . . لا تخاف ما آخذها منك!

بمرور عام سيستغني أبو الجير عن تعهد تجهيز أرزاق دار الأيتام، لأن ذاك العمل صار برأيه لا يناسب سوى واويه صغار من نوع قاسم العگلاني! . . و لأن شغل أبي الجير الجديد سيحتاج فيه الى أيد عاملة إضافية . . و في اليوم الذي رست فيه عليه مناقصة تجهيز أرزاق السجن، يصادف أن كان مساءً هو و صهره في حمام إبراهيم جوير، و غايب مرهون هو مُدَلِّك حسين و صهره . . كان حسين معجباً بحركات غايب في التدليك، لدرجة أنه علق له ذاك المساء:

- حركاتك بليفة التدليك . . تذكِّرني بحركاتي برولة تبليط الجير!

فيضحك غايب، و يسأله:

- أبو علي . . و هذا شنو معناه؟

- معنها . . إنت أسطة بشغلتك؟

و سيحسب غايب ما قاله حسين إطراءً قد يرفع من سقف بقشيشه ذاك المساء . . و غايب كأهل بعقوبة، كان قد حظي أيام زمان مرات بفرصة التفرج على حسين يحرك أسطوانة التبليط حركاته البهلوانية التي إشتهر بها، و لم يعدم أيضا التفرج عليه يوما و هو يغتسل في مياه الشاخة!

و ها هو أبو الجير يفاجئ غايب بسؤاله:

- غايب . . تشتغل ويايه؟

- أشتغل وياك! . . وين أشتغل؟ . . شنو أخذت تعهد الحمام الجديد هذا اللي دا تبنيه البلدية براس محلة الفايزية من صفحة البساتين؟

- ولك غايب! . . إبن مرهون العربنچي . . هاي إنت وين؟ . . يا حمام! . . مخك هذا ما راح يطلع من الحمام و الحمامات و من ليفة التدليك! . . بس أوگف! . . يواش! . . و الله هذه فكرة الحمام الجديد فكرة جديدة! . . تريد أدخل مزايدة تعهد الحمام الجديد و أسلمه إلك تصير الأسطة هناك؟ . . بكيفك!

سأمُ غايب من شغل الحمام كان قد وصل حداً جعله يحزر بسهولة بأن تلميح أبو الجير يدور على شئ آخر، فرد فورا:

- لا . . لا أبو علي . . الله يخليك . . ما أريد أطلع من حمام و أدخل بحمام! . . و إنتَ بالبداية وين چِنِت رايدني أشتغل وياك؟

- تنقل تجهيزات أرزاق مستشفى بعقوبة.

حلم مفارقة العمل في الحمام ظل يخايل غايب منذ تسرَّح من الخدمة الإجبارية في الجيش . . و أن تأتي الفرصة له هكذا و هو في الحمام و كأنها من مكان ما . . مدندلة بزنبيل! . . هكذا! . . مثلما يقال في الأمثال . .هذا شئ كان يفوق توقعاته، فقال فوراً:

- موافق . . بس لازم أقنع عمي إبراهيم جوير!

و مذذاك المساء ستنشأ علاقة بين حسين أبي الجير و غايب مرهون . . و سرعان ما سينضم غايب للعمل مع أبي الجير سيكون جزئيا في أوله . . أحي رِجْليّ غايب في الحمام ليلاً و رِجْله الأخرى في مستشفى بعقوبة نهاراً . . و تمر بضعة أشهر فيغري أبو الجير غايب بترك عمله في الحمام نهائياً و التفرغ لعمله معه كلياً، و سيوافق غايب، و سيفرح أبو الجير بإستحواذه على غايب كاملا!

ذاك العـام . . الزوجـة التـي قالـت لـه يومـا . . عِيبلـك هالخلقـة! . . خالهـا تحرمـه مـن الضنـى فطلقهـا، تخيَّـر حسـين لنفسـه زوجـة مـن جيرانـه فـي محلـة المنجـرة، و بعـد زواجـه بشـهر مـات صـهره مخلفـاً لـه ثروتـه التـي لـم تكـن كبيـرة جـدا و لكنهـا نمـت بجهـد أبـي الجيـر. و بمـرور سـنة علـى مـوت نسـيبه، و لأن زوجتـه الثانيـة، حالهـا حـال طليقتـه، تأخـرت فـي إرضـاء غريـزة الأبـوة، سـيزين لـه وضعـه المالـي المريـح أن يتـزوج بثالثـة . . و مـا أشـبه اليـوم بالبارحـة، فتمـوت أختـه بعـد زواجـه الثانـي بشـهرين! . . و مثلمـا كنَسَـت زيجتـه الأولـى مـن أمامـه صـهره، هـا هـي الزيجـة الثانيـة تجيـئُ لتكنـس الماضـي كلـه بمـوت أختـه! . . و صـفى لـه كل شـي! . . و هـا هـو يصـح عليـه القـول الـدارج . . صـفى البيـت لأم طيـرة و طـارت بيـه فـرد طيـرة!

مـا تنفـك أعمـال أبـي الجيـر تتقـدم، و تتقـدم معهـا قابليـات غايـب مرهـون للتـلاؤم مـع عملـه الجديـد و ينغبـط أبـو الجيـر رضـاً لإخـلاص غايـب فـي عملـه بتوفيـره مصاريـف لا لـزوم لهـا فـي عمـل التعهـدات . . و مثلمـا يقـال . . مـن المحـال دوام الحـال . . و كأن شـغل غايـب مـع أبـي الجيـر سيسـاهم فـي فتـح عينـان لغايـب، لا عينـا واحـدة. و هـا هـي عينـا عاملـه تتفتـح علـى مصالـح مسـتقبلية . . و مـا أشـبه اليـوم بالبارحـة! . . و مثلمـا تدندلـت لـه شـغلة أرزاق المستشـفى بزنبيـل ذات مسـاء، تدنـدل لغايـب زنبيـل آخـر ذات صبـاح و ذات مسـاء فـي يـوم واحـد و هـو يسـتمع لإعـلان مزايـدة إيجـار كازينـو ملحـق بـدار سـينما ديالـى يتلـوه ناجـي النـرگـوزة دلال مدينـة بعقوبـة و صـوتها الإعلانـي علـى أهالـي سـوق بعقوبـة صباحـا و علـى جمهـور سـينما ديالـى مسـاء . . و سـيذهب غايـب مرهـون دون علـم أبـي الجيـر الـى تلـك المزايـدة . . و هـا هـو زنبيـل الحـظ ينـزل ذات يـوم ضحـىً فـي مزايـدة أعلـن عنهـا، و لـم يحضرهـا أحـد سـوى غايـب، و دون مزايـدة سيسـتأجر غايـب الكازينـو . . و دون درايـة مـن ابـي الجيـر يـروح غايـب ينسـج لمسـتقبله فـي عمـل جديـد، و يهـيئُ لـه بغفلـة عـن أبـي الجيـر . . و ذات يـومٍ يتفاجـأ أبـو الجيـر بنيـة غايـب تـرك عملـه معـه . . لـم يسـتوعب أبـو الجيـر هـول المفاجـأة

و الصدمة على الرغم من اللياقة التي أقتضت غايب، جزاءً حسناً لأبي الجير، لإخراجه إياه من عالم الحمامات، كي يعطي أبي الجير مهلة أسبوع لترتيب أموره قبل أن يتركه . . يسأله أبو الجير عن وجهته و فيما إذا كان قد ضاق ذرعاً بمهنته الجديدة و نزل عليه حنين الرجوع الى الحمام! . . و يمتعض غايب كثيراً لأن أبي الجير يظنه لا يصلح إلا لشغل الحمامات . . فيقول معلقا:

- أبو علي . . يا حمّام؟ . . آني ما أرجع لأيام الحمامات و لا لِلِي گبلهه!

- وين رايح لعد؟

- أستأجرت الكازينو اللي يم سينما اليهودي . . أقصد اللي يم سينما ديالى! . . و بعد أسبوع راح أتزوج همين!

ها هو أبو الجير يُصابُ بالدوار و هو يسمع من غايب عن مشروع عمله الجديد و عن زواجه . . و يندم أبو الجير لأنه لم يستطع أن يستشف نيات عامله و يعلق فوراً:

- . . صدگ لو گالو . . اللي مأمِنْ خسران! . . غايب . . سوَّيت كل هذا و آني ما أدري! . . تفتح كازينو و تتزوج و آني ما أدري!

و تنزل نوبة إحباط على أبي الجير، فيتذكر إنه كلما كانت الأخبار تأتيه عن رؤية غايب في الكازينو يخدم روادها، فيستفسر من غايب، و يرد غايب عليه:

- أبو علي . . أشتغل هناك . . شكو بيهه إذا شغلي هناك ما يأثر على شغلي وياك؟ . . هذا الصبح و ذاك بالليل!

و يتذكر أيضا أنه لم يحصل قط و أن أخبره غايب بأنه رب عمل في الكازينو و ليس عاملا مثلما هو الحال عنده، و لام نفسه لأنه لم يقرأ تصرفات عامله على وجهها الصحيح، و بنبرة المُسقَطِ في يده يضيف:

- روح . . هي هذي الكازينو وين . . بتلفات الله! . . منو راح يروح يگعد بيهه هناك! . . و چماله صاحبهه يهودي! . . روح . . هسه يومين تلاثة . . أسبوع أسبوعين . . تعزّلهه و ترجعلي!

بمغادرة غايب، سيشهد عمل أبو الجير بضعة عثرات قبل أن يعود و يستقيم، و لكن أبا الجير لن ينسى يوما مطلقا ما بيَّتَهُ غايب و نسجه في غفلة منه. مصالحه تتشعبت، طرق أبواب عمل جديدة يتواصل، قنوات موارد إضافية تنفتح، ثروته تكبر، نفوذه في المدينة يزيد، . . و مع ذلك لن ينسى أبو الجير ما يكون حسبه، لربما مُبالِغاً، ضربة نجلاء تلقاها من غايب بغتةً يوماً ما بعد أن تفضَّلّ عليه و أخرجه من سجن الحمام و أبخرته. و في سريرته أضمر موقفا لا يحمل وداً على الإطلاق تجاه غايب و مبطنٍ بتحين فرصة إنتقام . . . . سينظر حسين الى غايب مرهون نظرة الأب لولدٍ عاق خرج على نعمة أبيه و عليه إسترجاعه يوما . . و مع نمو شعوره اللاودي تجاه غايب، ثمة شيئان سيظلان ينموان و يتضخمان على نحو متساوق . . ثروته و كرشه . . ثروته ظلت تنمو بوتيرة متصاعدة و كرشه ظل يكبر بتأثير العرق الذي كان يهرقه كل ليلة في كرشه و يزيد عليه صحنا من ثريد الباچة لغاية أن بات رجلا أكرشا دون منازع عدا إبراهيم مساوي بائع عرق هبهب القچغ و المعروف في بعقوبة بسمنته المفرطة . . و يتحول شعور أبي الجير اللاودي تجاه غايب الى ضغينة مضمرة، بخاصة و أخبار كازينو أم كلثوم التي إستأجرها غايب مرهون تصله فيميز غيضاً . . و ما يزيد الطين بلة هو سماع أبو الجير لخبر ولادة زوجة غايب توأمٍ و هو محرومٌ من الضنى حتى من زواج ثالث!و ما يجعله يستشيط بغيضٍ أكبر هي أخبار المتع التي كان يحظى بها غايب في بستان حسين گـطمة، و ما تنشره أخبار فتوحات سكارى ذاك البستان مع نساء الكاولية من إشاعات ملأت سماء البلدة! . . و مثلما هو دارج ، ها هي الإشاعة تضخم ما يجري و ما يتسرب من أخبار البستان! . . فما الذي سيفعله أبو الجير كي يطيح بغايب ويجعل عاليه سافله؟

رجل من نوع أبي الجير غالبا ما ينجح في نسج علاقات بموظفي الدولة، بخاصة الشرطة . . و ناجي الشهربنلي رجل شرطة تناغمت علاقته بأبي الجير على مائدة الشراب. و يشاع عن الشهربنلي هذا أنه على إستعداد لبيع أبيه بزجاجة عرق مستكي صرمهر أو ببضعة دنانير ينتزعها من المشكلچية و المتشاكلين من الناس . . بنوبة من نوبات السكر ذات ليلة على مائدة أبي الجير، و على الرغم من تَتَـعتُعِهِ، كانت أُذنا ناجي الشهربنلي على إستعداد لتستقبلا من أبي الجير أية كلمات تأليب ضد غايب مرهون و حسين گطمة و لياليهما الحمراء في البستان . . و تظل عيون شرطة ناجي الشهربنلي تترصد بستان حسين گطمة تحيُّنا لفرصة إنقضاض على المكان. بضعة أيام تمر . . و يصل ذات صباح خبر مداهمة قوة من الشرطة في منتصف الليلة الفائتة بستان حسين گطمة، و إقتياد أربعة أشخاص . . صاحب البستان و غايب مرهون و راغب السامرلي و هاني شيرخان القصاب و معهم سائق التاكسي عبد كولونيا . . الجميع رهن التوقيف في مركز شرطة بعقوبة . . يصل الخبر الى أبي الجير و يطلق ضحكة مجلجلة و هو يصرِّح:

- لعد شعباله! . . هذا إبن مرهون العربنچي . . شچان شايف نفسه؟ . . سبع السبمبع! ها ها ها ها ها!

و يظل يضحك و كرشه يهتز لغاية أن تنغزه خاصرته!

من حسن حظ ندامى البستان الأربعة و قد دوهموا، و هم في نشوة سكرهم أنهم تلك الليلة لم يتسنَ لهم الحصول على مطربة من الكاوليه تؤنس لهم سهرتهم . . و سيطلب الأربعة محامياً ليأتي و يستفسر من نقيب الشرطة ناجي الشهربنلي عما إذا كان ثمة فقرة في القانون تمنع إجتماع أشخاص في بستان صديق للسكر سوية . . و يُسقط بيد نقيب الشرطة و لم يحصل من تلك الكبسة على شئ سوى زجاجات العرق التي أخذها من البستان غنيمةً!

و هـا هـي الغـزوة التـي أمِلَ أبـو الجيـر منهـا إنجـازاً يلـوي بـه ذراعـي غايـب مرهـون تخيـب . . و يضيـع الأمـل! . . و بضياعـه يـزداد أبـو الجيرغيضـاً علـى غيـض . . و لكـي يشـغل نفسـه عـن فشـل حملتـه الإنتقاميـة مـن غايـب مرهـون، يقـرر تلبيـة الدعـوة التـي وجههـا فخـري الزبيـدي مقـدم . . برنامـج شـايف خيـر[36] . . للمشـاركة فـي حلقـة مـن برنامجـه مخصصـة جائزتهـا لأسـمن رجـل يحضـر الـى البرنامـج . . الظهـور فـي التلفزيـون كان لفتـة مـن نـوع مـا عنـد النـاس . . و سيغادر أبـو الجيـر يـوم بـث برنامج شـايف خيـر متوجهـا الـى بغـداد، و سـيتفاجأ هنـاك بحضـور إبراهيـم مسـاوي الـى البرنامـج، و لكـي يضيِّـع علـى نـاس بعقوبـة ظهـور إبراهيـم مسـاوي منافسـاً سـيفاجئ الجميـع بتقديمـه لنفسـه علـى الشاشـة الصغيـرة بإسـم . . حسـين الجيـراوي . . و بحـس الفكاهـة المتناهيـة المعـروف بـه الزبيـدي مقـدم البرنامـج، سـيتطلع الـى حسـين، ببدانتـه المفرطـة و الكرسـي يـكاد أن يفطـس مـن تحتـه و هـو أمـام الكاميـرا فـي ستوديو التلفزيـون، فيضحـك معلقـاً علـى مسـمع مشـاهدي التلفزيـون فـي كل أنحـاء العـراق:

- عينـي أبو علي . . . إنت لازم نسميك حسين ديناصور!

و سـيظن حسـين فـي حينهـا أن فـي لقـب الديناصـور إطـراءً مـن نـوع مـا، لكـن مقـدم البرنامـج و قـد أدرك تماديـاً فـي فكاهتـه، و لكـي يغطـي علـى التمـادي، إسـتدرك ملقيـا سـؤالاً لـم يتوقعـه حسـين:

- عينـي أبـو علـي . . زيـن هـذا لقـب الجيـراوي منيـن جاكـم بالأصـل؟ . .آنـي مـا سـامع بهاللقـب!

و بتمـرس حسـين فـي فـن إختـلاق الأكاذيـب و البـدع فـي أوقـات مناسـبة كـي يصدقهـا النـاس، يـرد علـى السؤال قائـلاً بـأن اللقـب أطلقـه النـاس منـذ زمـن بعيـد علـى أبنـاء عشـيرته لكثـرة عطفهـم علـى الجيـرة و الجيـران!

---

٣٦ «شايف خير» هو برنامج كان يقدمه فخري الزبيدي من على شاشة تلفزيون بغداد عام ١٩٦٢ . . بعد برنامجه «صندوق السعادة»

حلقة برنامج شايف خير تلك الليلة . . ها هو حسين الجيراوي أمام ملايين المشاهدين يصعد على الميزان و يسجل رقماً عالياً و يصفق له المشاركون في الحلقة و يصفق له معهم المئات من رواد مقاهي بعقوبة . و سيظن الجيراوي بسبب غروره أنه الفائز لا محالة بلقب أسمن رجل في العراق يحضر الى البرنامج، و لكن ما أن يصعد إبراهيم مساوي على الميزان ليسجل رقماً أعلى من الجيراوي بخمسة علامات، سيضج جمهور البرنامج و معهم آلاف المشاهدين في مدينة بعقوبة بالضحك . . و يصاب الجيراوي بصدمة و خيبة!

أسبوع يمر على الظهور في برنامج شايف خير . . و سيداهم نقيب الشرطة ناجي الشهربنلي و معه شرطي واحد مساءً بيت إبراهيم مساوي، و سيكتفي نقيب الشرطة الشرطة بإنتزاع قرابات و قناني العرق الموجودة في بيت مساوي تاركا بائع القجغ لحاله!

بدعة لقب الجيراوي سينشغل بها ناس بعقوبة لزمن طويل، يقلبونها على جهاتها الأربع . . البعض من المتعلمين أستأنسوا بفكاهة فخري الزبيدي حسين ديناصور. وجدوها مناسبة جداً قائلين إن فخري الزبيدي سمى الأشياء بأسمائها و راحوا يتندرون بها فكاهةً. آخرون إنشغلوا باللقب الجديد نابشين أسماء القبائل و عشائرها و أفخاذها و فروعها علّهم يجدون له أصلا، و بعد أن أعياهم البحث، و من كثرة ترداده في بعقوبة إعتادو عليه و نسوا لقب أبو الجير القديم و ضاع بنسيانه خبر القير الذي كان حسين يبسطه بأسطوانات النحاس الحارقة! . . و سيذهل الناس بالسرعة التي نشأت بها من لقب الجيراوي،عشيرة، أو أسرة، أو شلة، أو جماعة تتلقب بلقب الجيراوي . . صبي يفقد معيله و يأويه الجيراوي عنده في عمله ليستغله و هو صغير و يعلمه على طاعته فيتَلقّبُ بالجيراوي . . و ذاك مفلس فاقدَ الأمل في عيشةٍ بها ضنك يتلقفه الجيراوي و يستغله فيتلقب بالجيراوي . . و ذاك فار من اللامكان و يجيئُ الى بعقوبة و يأويه الجيراوي ينتفع منه في مكائده فيتلقب بالجيراوي . . . و شمل هذا حتى مصريين فارين من العَوَزِ في بلدهم آتين للعمل عنده، فيتلقبون بالجيراوي

. . و بالطبع مع فارق لفظ اللقب باللهجة المصرية . . الگيراوي! . . يا سلام! . . إلا غايب مرهون، فحين سيعود الى العمل مع الجيراوي سيرفض لقب الجيراوي و يفضِّلَ عليه لقب أبيه . . العربنچي الذي سيروح المصريون العاملون عند الجيراوي لتحريفه الى . . العربگي . . راح فين إبن العربگي؟ . . أنا رايح مع إبن العربگي! . . فينهرهم غايب مرهون مفضلاً لقب العربنچي . . و يلفظونها . . العَرَبنگي!

ها هي تنتشر عند محدثي النعمة في بعقوبة عادة إقتناء سيارات شخصية، و ها هو الجيراوي يغدو أحد أوائل من يقتنون سيارة بلوحة أرقام خصوصية . . و من بين أفراد تلك العشيرة التي نشأت من مكون لا علاقة له بصلة الدم بل من لقب إخترعه حسين الجيراوي ذات مساء بفرية على شاشات التلفزيون، نشأ عامر كبسوني الجيراوي سائقاً شخصياً لحسين الجيراوي و خادماً مطيعاً يتلقب بلقب سيده و يتقلب تقلب خرز المسبحة في يدهِ، و يزيِّت له ماكنة سياساته.

و لا ينسى الجيراوي قط ما فعله غايب به يوم فاجأه بفراق لم يحسب له حساباً تكتيكياً و لا ستراتيجياً، حين إستقل بمشروعه الشخصي في كازينو أم كلثوم. و بخيبة حملة نقيب الشرطة ناجي الشهربنلي لحساب الجيراوي على البستان، سيزداد الجيراوي غيضا على غيض، و يشتد إصراره على تَحيُنِ فرصة يُسقِطُ بها غايب مرهون بالضربة القاضية. صار ما أن تداهمه نوبة للتحرر من هاجس الإنتقام من غايب و التفرغ لأموره لإراحة نفسه، سرعان ما تعيده أخبار نجاحات غايب الى الهاجس ذاته . . خبر عن تسليف غايب للناس بفائدة ربا متدنية جداً يشيع كلاما مطريا لغايب . . خلف الله على غايب يفك ضيگة الناس! . . و يغتاض الجيراوي و يحاول أن يقوم على نحو مجاني بشئ مشابه كي يسمع من الناس كلاما عنه يشبه ما يقولونه عن غايب، و لم يفلح لأن ما يقوم به مخالف لطبعه فيزداد غيضاً . . فاقد الشئ لا يعطيه!

ذاتُ يومِ صيفٍ من عام 1968 . . غايب مرهون مأخوذٌ بسُكر إنتصاراته

في مهنته و بأرباحه التي تَـنْدَرُّ عليه علنا و خفية، و تصل أخباره الى الجيراوي فتتحول ضغينته تجا غايب الى حقد دفين . . و بفلتة من فلتات الحظ، و ذات مساء إلتئمت جلسة ندمان الجيراوي و سيكون من بين الندامى كمال فِسيفِّسْ مدعوا من أحدهم. و فيسفس ما يزال تحت تأثير الضرب الذي تلقاه قبل أيام على أيدي عصبة مقامري كازينو أم كلثوم، سينسى يمين القمار الذي حلفه ذات يوم قبل أن يدخل صالة قمار كازينو أم كلثوم الصغيرة على إلا يفشي ما سيراه في المكان الذي سيدخل ليلعب القمار فيه . . و ما أصدق ذمة المقامرين في الحفاظ على القسم و الذمة! . . و مدعوا عند شلة ندامى الجيراوي، سيحنث كمال فِسيفسْ بيمينه و يحدِّث ندمائه عما يدور في غرفة كازينو أم كلثوم و ما في دواليبها من أسرار.

الجيراوي منذهلٌ بما تسمعه أذناه . . أول ما تبادر الى ذهنه هو تقصيره في إنشاء شبكة تجسس على غايب مرهون، و لام نفسه كثيرا على أنه كيف فاته أمر إرسال جواسيس ينقلون له معلومات من محيط الكازينو! . . أن يرسل عامر كبسوني مثلا، ليرتاد الكازينو و يتشمم أخبار ما يدور! . . و لو فعل لكان قد إنتهى من غايب و أسطورته منذ زمن بعيد! . . مصغيا الى فسيفس يفشي ما يدور في غرفة كازينو أم كلثوم، سيعضَّ الجيراوي على إصبعه أمام الجميع ندما و لا يدري الندماء لم فعل ذلك . . مصغيا لما يكشفه حديث فسيفس من معلومات، و نظراته لا تفارق ناجي الشهربنلي . . ما فائدة هذا الشهربنلي إذن إن لم يكن قادرا على تقصي أخبار غايب مرهون من قلب الحدث؟ . . الأيام تُعلِّم دون ريب! . . و ها هو العَرَقُ يثبت أنه أصدق أنباء من الشرطةِ! . . مصيب من قال أن الزمن كفيل بإيجاد الحلول! . . ها هي الفرصة آتية من حيث لم يصدِّق! . . متلقفا ما يسمعه من فسيفس، ها قد حان وقت تحقيق إنتقام الجيراوي من غايب مرهون و بالضربة القاضية. و ها هو يحصلُ على من دلـَّهُ أخيراً على عقب أخيل الموجود في كازينو أم كلثوم، و قد أفشى سره كمال فسيفِسْ، بل و دلـَّه عليه بثمن بخس لا يتعدى كلفة ربع عرق

مسيَّـحْ، و كاملُ لا يـدري بـأن الجيـراوي كان علـى إسـتعداد لدفـع ثمـن العرق الـذي يشـربه لمـدة سـنة لقـاء تسـريب سـرٍّ بهـذه الخطـورة . . فـي الغالـب يـا لرخـص الأسـرار!

مستمعين لكمـال فِسيفسْ . . الشـهربلي أيضـا مصـغٍ متوفـزا متلمضـا بمـازة اللحـوم و يتطلـع الـى الجيـراوي بنشـوة فهمهـا الجيـراوي، فيتجاهلـه و يتذكـر غـزوات الشـهربنلي الخائبـة، و يقـرر أن يتمهـل و لا يتهـور، و ألا يُـبدي أيـة ردة فعـل مـن أي نـوع، فتضيـع الفرصـة و تتبـدد! . . آن أوان التخطيـط المـدروس و الترتيـب الـذي لا يخيـب! . . أول شـئ عملـه الجيـراوي دون علـم نديمـه ناجـي الشـهربلي هـو تقصيـه عـن نـوع شـرطة الإنضبـاط التـي تحـوم فـي منطقـة سـينما ديالـى و لمـن نوبـة جولـة الإنضبـاط هنـاك . . و مـع أن الشـرطة كلهـم فـي أدنـى سـلم الدنـاءة . . أللدنـاءة سـلم أم هـي دنـاءة و كفـى! . . إسـتعلم أولاً إلـى أي حـدٍ تصـل دنـاءة أولئـك الشـرطة، فأخبـر أن نوبـة إنضبـاط الشـرطة فـي منطقـة سـينما ديالـى ذاك الأسـبوع كانـت لرئيس العرفـاء الكرخـي، و نُـصح بالتريـث و الإنتظـار لغايـة أن تعـود الـى محيـط سـينما ديالـى نوبـة رئيـس عرفـاء شـرطة الإنضبـاط تركـي الفتـلاي، و أعلِـمَ أن تركـي الفتـلاوي علـى إسـتعداد لبيـع أمـه و أبيـه و زوجتـه و أختـه و بنيـه بدينـار واحـد، بخاصـة إذا توفـر مـع الدينـار علبـة سـگـائر روثمـن . . فهل يلجـأ الجيـراوي الـى ضابـط شـرطة مُرَعبـل مثـل ناجـي الشـهربنلي مـرة أخـرى؟ . . لا طبعـا! . . بعـد خيبـات نقيـب الشـرطة كانـت فطنـة الجيـراوي العمليـة قـد أوصلتـه الـى قناعـة بـأن الشـرطة مـن المراتـب الدنيـا يـؤدون فـي مثـل هـذه الحـالات أدواراً أفضـل بكثيـر مـن الأدوار التـي يقـوم بهـا ضبـاط شـرطة مـن مراتـب أعلـى!

رسـالة مـن الجيـراوي تصـل الـى رئيـس العرفـاء تركـي الفتـلاوي يطلبـه فيهـا . . يجيـئ الفتـلاوي، و يجلـس فـي مكتـب الجيـراوي قبالتـه. و الجيـراوي علـى يقيـن تـام بـأن شـرطيا دنيئـا مـن شـاكلة الفتـلاوي لا يمكـن أن يخفـى عليـه أو علـى بديلـه الكرخـي مـا كان يجـري فـي دهليـز كازينـو أم كلثـوم، و لا بـد أنـه يتقاضـى ثمنـا مـن غايـب مرهـون عـن سـكوته و رعايتـه للمـكان . . و

على الرغم من معرفته بتعابير وجهه الجهم الملغّد عند التطلع الى نفسه في المرآة، سيرتاع الجيراوي من الجهامة السوداء التي للرجل الجالس أمامه، فتذكّرَه بالقير الذي كان يلعب به يوماً ما. و سيبغي قولا يتفوه به للشرطي الجالس أمامه . . هاي ليش خلقتك هيچي مگلوبة هالگلبة! . . و لكنه سيعزف عما يريد قوله، فيتذكّر أنه هو شخصياً حين ينظر في المرآة لا يجد في جهامته وطأة أقل من وطأة جهامة رئيس العرفاء الشروگي الجالس أمامه، بتأثير ما تركته أبخرة القير أيام زمان على وجهه من تعبير عابس طوال الوقت، بل طول الزمان، و ما إستطاع وجهه أن يتحرر منها! . . ما ضرّهُ هو؟ . . جهامة تليق بشرطي إنضباط! . . و يستمر مراقبا الشرطي يحتسي شايه و منتظراً أن يبادر الشرطي بسؤاله عن سبب إستدعائه، لكن الفتلاوي و كأي شرطي آخر، و لربما لأنه أدرك بأن طلب الجيراوي منه للمجيئ إليه لا بد أن يكون لغاية معينة و بالنتيجة سيدرك أنه ليس في صالحه أن يعرض هو خدماته، بل العكس، عليه الإنتظار و إظهار طول بالٍ و تجاهل تاركاً طالب الخدمة يفصح عن نواياه . . و يفاجئ الجيراوي الشرطي الجهم سائلاً و معلقاً:

- رئيس عرفاء تركي . .

- . . شتآمر أبُو عِلي!

- . . لا تگللي إنت ما تعرف باللي يجري بغرفة كازينو إبن مرهون العَرَبَنچي!

الفتلاوي شرطي حتى النخاع . . يفضّلَ ألا يَرُدَّ أو يعلق فوراً. و ها هما الطلب و الغاية من إستدعائه قد توضحا كلاهما! و لكي يرفع سعر بضاعته المطلوبة قرر أن يتمادى بتظاهره جهلا عما يدور في غرفة الكازينو التي دوخ خبرُها الجيراوي، و بعد ثوان طويلة سألَ الجيراوي:

- أبو عِلي . . و شنهو هذا اللي جاي يصير بغرفة الكازينو؟ . . آنه ما أعرف!

- . . إنت هناك و المنطقة بيدك و ما تدري؟ . . معقولة ما تدري باللي يصير بغرفة الكازينو!

- لا أبوُ عِلي . . . بويه . . چا گِللي إنت شجاي يصير هناك . . و ريِّحني حتى أتبصر!

- أقصد ميز القمار و قرابات العرگ القچغ اللي يبيعه إبن مرهون العربنچي!

واضح أن الفتلاوي سيختار مرة ثانية، و ربما ثالثة، أن يتمادى في إظهار جهله لغاية أن يعرف المطلوب منه بالضبط، فعلق:

- بويه . . أبو عِلي . . آني ما أعرف بكل هذا اللي جاي تگوله . . بس أريد أعرف رباط الحچي وِين و شنهو! . . و آنه شللي بكِل هذا! . . بويه أبو عِلي . . حتى لو عرفت آنه باللي جاي يجري . . و راح أعرف من باچر . . و إذا آنه عرفت إنت شنهو اللي يخصك؟ . . المطلوب مني شنو؟

بخبرته العملية بالناس . . الجيراوي يعلم علم اليقين بأن تركي يكذب و يناور و يطيل لكي يعرف ما يراد منه بالضبط، كي يرفع سقف سعره قدر ما يستطيع، فقال:

- المطلوب منك تفلِّشْ كل هذا!

- شنهو؟ . . أفَلِّشْ! . . هيَچ! . . بهالبساطة! . . أفلِّشْ كِلشي! . . التفليش ينرادله چاكوج! . . و ينرادله قزمة! . . و ينرادله هيم! . . و ينرادله مساحي! . . بويه . . و چا هذني و ينهن راح نلگاهن كِلهن؟

و ها هو الجيراوي يفهم الرسالة التي يتحدث بها الفتلاوي عن أدوات التفليش، فيعقب:

- رئيس عرفاء تركي . . أدري مو بالهالبساطة! . . و أدوات التفليش

جاهـزة!

- شلون؟

- تسوي كبسة على الكازينو و كلشي بثمنه!

- أبو علي. . و شنهو هذا الثِمن اللي راح آخذه؟ . . و شگد؟

مهلة تفكير . . الفتلاوي ينتظر، و يعرض الجيراوي سعره:

- . . خمس دنانير كافي؟

يفضّل الفتلاوي ألا يرد فوراً . . لأنه يتذكر ما حدث قبل أيام في غرفة الكازينو من عراك هناك بين كمال فيسفِسْ و المقامرين الآخرين . . و يتريث في الإجابة لكي يحسب الفرصة المعروضة حساباً مضبوطاً . . إذا كان سرُّ غرفة كازينو أم كلثوم قد إنكشف و إنفضح و تفشّى على هذا النحو الى درجة وصول خبره الى الجيراوي، فمن أين له هو تركي الفتلاوي أن يعرف بأن الجيراوي لن يلجأ الى غيره لتنفيذ ما عرضه عليه؟ . . و سيسمع الجيراوي يغريه مضيفاً:

- و إنت . . رئيس عرفاء تركي زين تعرف . . اللي راح تلگاه على ميز القمار كله راح يصير من حصتك عدا الثمن اللي راح نتفاهم عليه!

الجيراوي ينتظر رداً . . و يتريث الفتلاوي دقائق إضافية ليغرق في حساب معادلة المكسب الذي سيجنيه. بين ما يتلقاه من غايب مرهون و ما يعرض عليه هنا و ما سيجده على ميز القمار بخاصة و المقامرون هم، عدا كمال فسيفِسْ، من أثرياء بعقوبة . . و مع ذلك سيقع الجيراوي بفخ الفتلاوي بسبب تأخره بالرد، فيظن أن العرض المقدم للفتلاوي غير كاف لإقناع شرطي الأنضباط، فيرفع الثمن قائلا:

- خلينه نگول . . سبع دنانير؟

- بويـه . . أبـو عِلـي . . هـذي الشـغْيلة تراهـه چـبيرة . . سـالفة العـرگ القـچـغ هـاذي وحيدهـه يروحلهـه بالسـجن ذاك الحسـاب!

- إبـن مرهـون العربنـچــي يـروح للسـجن؟ . . الـى سقر! . . يطبَّـه مـرض! . . نـگـول عشـر دنانير؟

- بويه . . و هذي شغْيلة القمار و الميسر خو بيهه حساب سجن إضافي!

- . . إثنعش دينار؟

الشـهية لإسـتزادة الثمـن المعـروض تـزداد . . لـم يجـب الفتـلاوي. و مـع أنـه قـرر للتـو إغتنـام الفرصـة قبـل أن تفلـت مـن يـده و تذهـب الـى عثمـان الكرخـي رئيـس عرفـاء الإنضبـاط المنـاوب، لكنـه ظـل يـراوغ لرفـع غطـاء سـعره منشـغلاً بمناقشـة نفسـه فـي معـادلات الربـح و المكسـب هنـا و هنـاك. فيعلـق قائـلا:

- بويه . . أبو عِلي . . تراهه راح يصير بيهه كسران رگـبة!

الجيـراوي كان علـى إسـتعداد لعمـل أي شـئ لإطفـاء بريـق صـاحب كازينـو أم كلثـوم الـذي غطـى علـى مدينـة بعقوبـة، و تصميمـه علـى تحويـل ذاك البريـق الـى ظلمـة، قـرر أن يذهـب فـي شـوط العـروض الـى آخـره، و هـو عنـده وسـائله الخاصـة فـي المنـاورة، و عندهـا قـال:

- . . تنكسـر رگـبة إبن مرهون العربنـچـي؟ . . خلي تنكسـر وياه رگـبة أبو اللـي خلَّفـه . . أخمسـطعش دينـار . . و هـذا آخـر مـا عنـدي!

يحسـبها الفتـلاوي حسـاباً دقيقـاً . . أخمسـطعش دينـار تحطـْهِـنْ فـوگ گـيّاتيك . . بويـه تِركـي معناهـا بعـد شـوية و يصيـرن بويـت زغيـرون بمحلـة أم النـوة لـو دربونـة أم الدجـاج و حتـى لـو بالعمـارة! . . فيـرد علـى الجيـراوي قائـلاً:

- أبو علي . . أحاول . . و التسهيل من الله!

- آمنا بالله! . . بيده المُلك . . هو ينطي و هو ياخذ!

يمد الجيراوي يده في جيبه و يخرج رزمة مطوية من أوراق نقدية حمراء اللون. يستل منها واحدة يضعها على المكتب، و جهامته تزداد تغضُّناً و روحه ضغينةً، و يقول:

- . . رئيس عرفاء تركي . . و هذا العربون . . خمس دنانير . . و المبلغ الباقي يوصلك يوم يصدر الحكم بسجن غايب!

جهامة وجه الفتلاوي الشديدة السوداء تزداد و تحول وجهه الى بقعة للتغضنات و الحفر . . يمدُّ الفتلاوي يده الى ورقة النقد الحمراء ساحباً إياها، و يكرر:

- بويه . . أحاول . . أحاول!

الجيراوي يحرقهُ لظى الإنتظار . . و ها هو قطار الجيراوي ليلة السادس عشر على السابع عشر من تموز ١٩٦٨ يقوده تركي الفتلاوي و معه شرطيان ليداهم غرفة كازينو أم كلثوم . . في وقت ما كان أحد في محيط دار سينما ديالى، و ربما في بعقوبة برمتها، يدري أنه في ذات الليلة و تحت جنح الظلام ثمة في بغداد قطار أمريكي يحمل ثلة من المجرمين سيمسكون برقبة العراق كله! . . و في الليلة ذاتها يصل الى الجيراوي خبر مداهمة الشرطة لغرفة كازينو أم كلثوم، و إقتياد ثلاثة أشخاص متلبسين بلعب القمار و ضبط عدد من قناني العرق القچغ غير المرخص . . و لأن الجيراوي يعرف مقامات الأشخاص الذين كانوا يلعبون القمار في غرفة كازينو أم كلثوم و قدرتهم على الإفلات من الموقف، و قد يحصل و يُفلتون غايب معهم، و كي لا تضيع الفرصة التي صرف عليها مالاً كثيراً و و وقتا طويلا و إنتظاراً بفارغ الصبر، سيسارع في ذات الأمسية بالذهاب الى مركز الشرطة للتعرف على الضباط الذين يمسكون بالقضية . . و يا لضربات الحظ! . . كان في خفارة مركز شرطة بعقوبة تلك الليلة النقيب ناجي الشهربلي، ما مكنه من تزييت ماكنة التنفيذ كي

لا يفلت غايب من القضية بمساعدة أناسٍ من مقامات عليا كانوا يلعبون عنده القمار! . . و بإتصالات مع المدعي العام و أحد القضاة، في الليلة ذاتها سُويت قضية الأعيان الثلاثة بإطلاق سراحهم بكفالة، بحيث يذهبوا الى المحاكمة و يخرجوا في يوم المحاكمة ذاته بقرار ما، و بقي غايب مرهون العربنچي لوحده كي يلاقي مصيراً بالسجن في قضية مركبة إقتضت سجنه بمحكوميتين بالتعاقب.

يوم عرض القضية على المحكمة، حضر الجيراوي بنفسه منتظراً خارج بناية المحكمة لكي يفش غِلـَّهُ برؤية غايب يُقتادُ الى السجن و غير بعيد عنه كان يقف تركي الفتلاوي بإنتظار أن يسدد له الجيراوي ما تبقى له من حساب . . وها هو الجيراوي يرى ما خطط له يتحقق برؤيته غايب خارجا من قاعة المحكمة مقتاداً بالإصفاد، يدنو من غايب و كأنه آت الى بهو المحكمة صدفةً، ليتصنع نبرة تعاطفٍ و تأسُّفٍ و يعلق:

- لا . . لا . . لا . . لا . . و الله ما تستاهل!

و تبلغ به الجرأة أن يعانق غايب، مضيفاً:

- أجيك للسجن! . . غايب . . لا تدير بال!

يمضي رجال الشرطة بغايب الى مصيره. و يدنو الفتلاوي من الجيراوي مطالباً بما تبقى له من حساب. و أثناء ما كانت أميرة الأحمدي و أبوها يمران مشيعين غايب بنظرات أخيرة، كان الجيراوي ينقد الفتلاوي دينار واحد لا غيره، و هو يعلق:

- تركي . . هذا الدينار زايد . . يكفيك شهر للجگاير . . أحمِد الله!

رئيس عرفاء الشرطة حائرٌ و مصدومٌ بما فعله الجيراوي. إزداد وجهه يزداد جهامة و إسوداداً و تغضُناً محدثاً نفسه . . بويه شَگولن؟ . . ما أگدر أگولن آه! . . و لا أگدر أگولن طاحت بغلتي ببريجي! . . و لك يا تِركي هَيْچ يصيدك هذا الجريو أبو الجير! . . و ظَلَّيتْ هَيْچ مثل بلّاع

الموس . . إذا بلعيِته يجرحني و إذا طلعيِته يفضحني! . . ولك تِركي شلون صادوك و إنت من أهل الصايود . . و لك تركي شلون صادوك يا ريس الأنضباطية! . . و لك تركي شلون صادوك يا ريس السختچية! . . و لك تركي بويه إنت موش ريس عرفاء مركز إنت طلعيت ريس عرفاء مال يعبي! . . حسبي الله و نعم الوكيل! . . روح ولك جريو . . روح يا أبو الجير سَلْميتَكْ بيد داحي باب خيبر ياخذ لي حقي منك!

و سيوفي الجيراوي بوعده الذي قطعه لغايب في باب المحكمة . . و يظل يزوره في السجن بين حين و حين. و لكي يتفرج على ما إجترحته يدا غايب و ذاع صيته في بعقوبة و يراه ينهار، كان أيضاً يجد وقتاً بين حين و حين يرتاد فيه كازينو أم كلثوم كي يتفرج على إبن غايب الصبي يشغل مكان أبيه في إدارة المكان و يلمس بناظريه تضاؤل رواد المكان شيئاً فشيئاً و يتحول الى شئ باهت . . و سيعد غايب زيارات الجيراوي له في السجن مجاملة من رب عمله السابق، و يحفظ للجيراوي هذا الجميل!

و يوماً ما سيشَبِّهُ شمران الأحمدي حسين الجيراوي لأبن أخته مرهون غايب واصفاً إياه:

- الجيراوي صياد مثل أي عنكبوت ينصب الشبكة الرقيقة و يظل يتربص للفريسة . . ما يروحلهه للفريسة برجليه و يطاردهه مثل المفترسين الموجودين بالغابة . . ما يتعِّب نفسه بالجري وراء الفريسة. ينصب شبكته و يگعد ينتظر الفريسة تجيله برجليهه . . و أعتقد هو نصب شبكة لأبوك . . و أبوك وگع بيهه!

شـمــران الأحــمــدي

مكمـلاً دراسـته الإعداديـة للتـو، لـم يتقـدم شـمران لأيـة كليـة للإنتسـاب إليهـا، معـولاً علـى وسـاطة لـم تفلـح بإدخالـه الـى كليـة الشـرطة . . فكـرةٌ عشعشـت فـي خيالـه و حثتـه علـى التقـدم الـى كليـة الشـرطة، كـي يصـير شـرطياً نزيهـاً، و يضـرب مثـلاً إسـتثناءً لمـا يروّجـه قـول جـورج برناردشـو الشـائع . . إذا سـقط المـرء صـار شـرطياً! . . و لكـي يكشـف أيضـاً علـى قـدر مـا يسـتطيع عـن سـقوط سـلك الشـرطة حتـى نخاعـه و يحـاول الوقـوف فـي وجـه فسـاده مهمـا كلفـه الأمـر! . . رومانسـية و شـطحة مـن شـطحات الخيـال!

فـي خريـف 1962، بعـد يـأس شـمران مـن الإلتحـاق بكليـة الشـرطة، و قـد فاتتـه الفرصـة للإلتحـاق بأيـة كليـة عداهـا، تحولـت أسـرته مـن منزلهـا فـي بـاب دربونـة الدجـاج مقابـل السـتمونية الـى منـزل فـي محلـة الـگِـنِث. . بيـت شـرقي الطـراز كسـابقه و لكنـه بحَـوشٍ مكشـوف و اسـع تتوسـطه شـجرة كاليبتـوس ضخمـة، تـكاد تغطـي الأجـزاء القريبـة منهـا مـن سـطح المنـزل .

. و فـي ركنـي الحـوش نخلتـان سـامقتان تـَمرُهُما كلاهمـا مـن نـوع الزهدي المبـذول الرخيـص الثمـن، و راحـت أمـه صافيـة تصنـع منـه دبسـا . . و فـي البيـت غرفـة كبيـرة بنوافذ خشـبية واسـعة و عاليـة تـكاد تصـل السـقف. نافذتـان منهمـا تطـلان علـى الدربونـة، و واحـدة تُطِلُّ علـى مجـاز مدخـل البيـت، و رابعـة تطـل هـي و بـاب الغرفـة علـى حـوش البيـت المكشـوف. و هـا هـي هـذه الغرفـة تثيـر مـن نصيـب شـمران. و غرفتـان أخريـان أمـام كل منهمـا إيـوان، إحداهمـا شـُغِلت غرفـةَ نـومٍ لنزهـان الأحمـدي و زوجتـه صافية و إيوانهـا الأمامـي سيُتخَـذُ مـكان معيشـة يوميـة. و الغرفـة الأخـرى رُتِبَـتْ لإسـتقبال ضيـوف متوقعيـن و إيوانهـا تُـرك لنزهـان الأحمـدي يسـتغله أحيانـا شـتاءً مخزنـاً لبضاعـة محلـه الفائضـة . . فاكهـة مسـتوردة طازجـة مـن سـوريا و لبنـان . . و لأن قطـار إلتحاقـه بأيـة دراسـة كان قـد فاتـه ذاك العـام بسـبب رغبتـه الإلتحـاق بسـلك الشـرطة، و خيبتـه فـي حلمـه، سـيظل شـمران يشـاغل نفسـه بإعانـة أبيـه نهـاراً و شـطراً مـن الليـل فـي محلـه تحـت منـارة حسـينية بعقوبـة مباشـرةً.

بإنقضـاءِ أسـبوعٍ مـن شـباط 1963 . . فاجـأت ثلـة مـن العسـكر عبـد الكريـم قاسـم بإنقـلاب أسـفر منـذ لحظاتـه الأولـى عـن نـزوع إنتقامـي و تصفـوي . . و حيـن أعتقـل الشـاب الغَـضّ شـمران الأحمـدي مـع آلاف اليسـاريين فـي ديالـى، بعـد إنهيـار القيـادة الشـيوعية فـي أعلـى هـرم التنظيـم فـي اللـواء، جـراء القسـوة المفرطـة التـي عرفـت بهـا مليشـيا الحـرس القومـي البعثيـة فـي التحقيقـات مـع معتقليـن بارزيـن فـي بعقوبـة، سـرعان مـا سيمسـك البعثيـون بالخيـوط الهرميـة للمنظمـة اليسـارية المحليـة . . و يحصـل هـذا بتواطـؤٍ مـن لـدن قـوى الأمـن و الشـرطة فـي اللـواء التـي ضلعـت فـي الإنقـلاب بالتهيئـة لـه بوسـائل شـتى.

و هذا ما كان!

و بانكشـاف هيـكل التنظيـم السـري بالإسـماء العلنيـة و بالأسـماء الحركيـة الحزبيـة السـرية علـى حـد سـواء، لـم يـأتِ تعذيـب شـمران و مئـات المعتقليـن

الآخرين، على يد الحرس القومي البعثي، سوى سلوك مجاني للعنف و يشي بوحشية الميول الفاشية المطلقة التي تربى عليها البعثيون . . فما الذي كان الحرس القومي يريده أكثر من إنكشاف أسماء أعضاء الحلقات التنظيمية الهرمية في التحقيق، و إعترافهم بإنتمائهم للحزب الشيوعي؟ و من يعترف منهم سيُعدًّ ساقط تنظيميا! . . و هذا ما حصل! . . فلِمَ إذن سيُرى الحرس القومي يتلذذون بحفلات تعذيب و قتل ينظمونها ضد المعترفين بشيوعيتهم غير التطبيق العلني لما ورد في البيان التأسيسي الأول لحزب البعث عن إبادة الخصوم، إمتدادا للدعوة التاريخية الأولى . . إقتلوهم حيثما وجدتموهم! . . أقتلوا الخصوم لمجرد أنهم مختلفون!

و سيمتد إعتقال شمران لأشهر طويلة، و لم يجرِ إطلاق سراحه مع آخرين إلا بعد خلاف سيدبُّ بين أركان سلطة الإنقلاب، البعثيين في طرف و القوميين و الناصريين في طرف آخر . . و يبلغ الخلاف الذروة بإنقلاب آخر في تشرين الثاني من العام نفسه 1963، يقوده عبد السلام عارف لإزاحة البعثيين من السلطة و إعتقال بعضهم، و تشتيت شمل بعض آخر، و أبعاد آخرين من مدنهم و وظائفهم.

مُطلقَ السراح، و على الرغم من إستقبال أمه الحنون و أخته المحبة اللتين لم تسعهما الفرحة لرؤيته خارج السجن، سيجد شمران نفسه في بيتهم بوضع جديد، عليه التكيف له . . فاجأه حرق أمه لمكتبته المتواضعة كاملة مع أن كتب السياسة لم يعد لها في المكتبة نصيب منذ أن داهم الأمن بيتهم مرتين عام 1961 بحثاً عن علب دهان أحمر دليلاً ظرفياً على مشاركة شمران في حملة كتابة شعارات على الحيطان . . الديمقراطية للعراق و الحكم الذاتي لكردستان . . فأسى كثيراً على ما فقد في محرقة أمه من كتب أدبية ثمينة عنده لأنها تُذَكِّرُهُ بأولى نزوعاته و محاولاته القرائية . . مجلات مصرية معروفة . . الكواكب . . المصور . . آخر ساعة . . و كتب . . أرسن لوبن . . طرزان . . روكامبل . . همنغواي . . غوركي . . بلزاك . . ديكنز . . نجيب محفوظ . . يوسف السباعي . . فؤاد التكرلي . . نزار قباني . . يوسف السباعي . . علي محمود طه . . و

لوعتـه سـتكون أكبـر علـى دواويـن نـزار قبانـي التـي كان يغيـر فـي الأسـماء الـواردة فـي أشـعارها كـي تلائـم إسـم خولـة حبيبتـه و يقرأهـا لهـا و همـا يلتحفـان الليـل البـارد بلحـاف القطـن علـى سـرير جريـد النخـل تحـت شـجرة ليوكاليبتـوس و يطلـب إليهـا حينئـذ أن تكشـف لـه نهديهـا ليراهمـا فـي ضـوء القمـر . . و تسـتجيب!

و مـن حزنـه علـى كتبـه، قـال لأمـه و هـو يحتظنهـا كـي لا تـرى لوعتـه علـى كتبه :

- . . يـا أمـي! . . يـا أمـي! . . يـا أمـي! . . إذا آنـي عندهـم و بقبضتهـم . . و مـع آنـي معترفلهـم آنـي شـيوعي . . ظلـو أربـع شـهور يروحـون بـيّ لحفلـة تعذيـب كل يـوم تقريبـاً بمقبـرة هـذا السـيد اللـي يسـموه شـريف و هـو غيـر شـريف يتفـرج عليهـم يعذبونـي و مـا تلحلـح و إسـتنكر . . يمـه بعـد معقولـة راح يجـون يـدورون هنـا علـى الكتـب اللـي أقراهـا!

و كأن قلـب الأم كان يعلـم بأنـه بخطابـه . . يـا أمـي يـا أمـي يـا أمـي! . . كان يقصـد يـا كتبـي! يـا كتبـي! يـا كتبـي! . . و تعبيـراً عـن إحساسـها بالذنـب، سيراود عقـل أمـه أن تصـرف بالـه عـن كتبـه، فإنتزعتـه مـن عناقهـا قائلـة:

- . . شـمران و ليـدي . . بـس إنـت شـو مـا حچـيتلنه عـن هـذا الشروگـي رفيجك بالسـجن و اللـي يگـول أبـوك چـنت بمكاتيبك تسـميه الشروگـي النبيـل . . شـو آنـي مـا إفتهمـت . . يعنـي شـنو النبيـل؟

و يـدرك أنهـا تريـد أن تصـرف إنتباهـه، و مـن غيـر المعقـول ألا تعـرف أمـه معنـى نبيـل، فيـرد قائـلاً:

- . . سفروه لأهله . . للعمارة . . و مناك يطلقون سراحه!

و مـا سـيلاحظه شـمران فـي الوضـع الجديـد فـي بيـت أبيـه هـو مـا حصـل أثنـاء غيابـه لأقـل مـن سـنة هـو تغييـر غرفتـه . . كان يحتـل أكبـر غرفـة فـي البيـت ذات شـباكين كبيريـن مطليـن علـى الدربونـة، وقبـل سـجنه كانـت

الغرفـة عالـم مسـرته و أسـراره و ذكريـات و رسـائل حبـه الأول تمـر لـه مـن نافذتيهـا المطلتيـن علـى الدربونـة، واسـطة خولـة حبيبتـه بنـت الجيـران للإتصـال بـه و ترتيـب مواعيدهمـا . . و هـا هـم أثنـاء غيابـه حولـوا مقامـه دون علمـه و دون إستشـارته الـى غرفـة داخليـة و أمامهـا إيـوان و ليـس فيهـا منفـذٌ علـى الخـارج سـوى شـباك صغيـر تحـت السـقف. و حيـن أطـل فـي يومـه الثانـي مـن عودتـه علـى البيـت علـى غرفتـه القديمـة، علـم فـوراً بـأن أختـه أميـرة و ولديهـا مرهـون و نرجـس يسـكنون الغرفـة . . فمـا الـذي جـرى و أتـت أختـه لتسـكن فـي بيـت والدهـا؟ . . ظـن فـي البدايـة أن أختـه لابـد و أن تكـون تطلقـت مـن زوجهـا غايـب الـذي ينفـر منـه، فيستفسـر مـن أمـه:

- شنو السالفة؟

و تحكـي لـه أمـه موضحـة سـبب سـكن أختـه معهـم. و هـا هـي الحيـرة تتملكـه، فكيـف سيتسـنى لـه تحمّـلّ رؤيـة غايـب يدخـل الـى بيـت يسـكنان فيـه سـوية . . و سـيجد بعـض سـلواه فـي حبـه لأختـه أميـرة و فـي اللعـب مـع طفليهـا، مرهـون و نرجـس، و سـيحبهما قـدر حبـه لأمهمـا. و لـن يـرى غايـب فـي بيتهـم أيضـا إلا لمامـاً بسـبب عادتـه فـي الهـروب مـن بيتـه، و إن حصـل و يتواجـدان سـوية فـي البيـت، سـيتلافى رؤيتـه إكرامـا لأختـه.

و أين خولة؟

جـاءت أم خولـة أول يـوم إطـلاق سـراحه لتسلـّم عليـه و تبـارك. . و سـيبشُّ وجهُـهُ حيـن يسـمع صوتهـا تتحـدث مـع أمـه فـي مجـاز مدخـل البيـت، و تسـرح بـه خيالاتـه فـوراً بمقـدم خولـة آتيـة مـع أمهـا لتسـلم عليـه، فينهـض مـن مكانـه فـي إيـوان غرفتـه متلهفـاً لرؤيتهمـا، لكنـه يتفاجـأ بظهـور أم خولـة لوحدهـا تخـرج مـن المجـاز الـى حـوش المنـزل . . يظـل ينظـر و ينتظـر . . و ينتظـر . . و ينتظـر ظهورهـا و لا تظهـر . . أيـن خولـة؟ . . و تسـلم عليـه أمهـا. و هـي تقبلـه، يتلهـف ليسـألها عـن خولـة، لكنـه يحجـم كـي لا ينفضـح أمـره مثلمـا ظـن . . و مـن أيـن لـه يـا تـرى أن يـدري بـأن أمرهمـا ظـل أو

لـم يظـل طـي كتمانهمـا المشـترك منـذ أن أُقتيـد الـى المعتقـل و لغايـة الآن! . . بعـد ضيـاع الشـباكين اللذيـن كانـا واسـطة المرسـال بينـه و خولـة بسـبب مجيـئ أختـه أميـرة للسـكن معهـم، ظـل منـذ اليـوم الثانـي مـن حريتـه الجديـدة يخـرج الـى الدربونـة يضـعُ كرسـياً عنـد بـاب بيتهـم، و لـم يكـن هـذا معتـاداً فـي الدربونـة مـن قبـل و لا تسـمح بـه حتـى التقاليـد . . يجلـس هنـاك سـاعة و يدخـل الـى البيـت سـاعة، حتـى يُخيّـمَ المسـاء، و لـم يحـظَ برؤيـة خولـة!

أين أنت يا خولة؟

بعـد منتصـف الليـل، حوالـي الوقـت الـذي كان يجـري فيـه موعـد لقائهمـا القديـم علـى سـطح البيـت قبـل أن يعتقلـوه، صـعد علـى السـطح. سـرير جريـد النخـل ليـس فـي مكانـه الـذي تركـه فيـه. سُـحب الـى منتصـف السـطح، فعدّ تحريكـه ذاك طبيعيـاً، فلربمـا إسـتعمله أهلـه فـي نومهـم علـى السـطح أثنـاء الصيـف الفائـت . . و سيسـحب السـرير مـرة أخـرى ليعيـده الـى مكانـه فـي ركـن السـطح تحـت شـجرة الكاليبتـوس حيـث صـار صـومعـة حبهمـا الجنونـي ليتحـدى بـرد الشـتاء بلهيبـه و يقيهمـا مـن قـرًّ ليالـي الشـتاء القارسـة البـرد و يسـتر الليـل بحلكتـه حكايتهمـا الفانتازيـة . .

جلس هناك ساعة و لم تأت خولة!

ساعتين و لم تأتِ خولة!

ثلاث ساعات و لم تأتِ واهبة النشوة و الحياة و الجمال!

و يقوم من مكانـه كل ربـع سـاعة تقريبـاً يطـل علـى سـطح ديـار خولـة، فيجده سـاكناً و مسـكونا بحلكـة الليـل و ضجيـج كائناتـه الصـغيـرة غيـر المرئيـة مثـل فـلاة داهمهـا الظـلام!

أين أنت يا خولة . . يا لنهديك يهبان الضوء للقمر!

صـوت السـيد عبـد الكريـم المدنـي ينبـث عبـر الأثيـر مـن مأذنـة حسـينية

بعقوبة . . بسم الله الرحمن الرحيم . . مبتدِئاً آذان الفجر. و لا ييأس من مجيئ خولة لكنه ينزل خشية إنفضاح أمر حبه الملتهب الذي صبا به إليها منذ ساعة خروجه من المعتقل و كاد يمزق ملابسه من فوقه!

الليلة التالية . . و لم تأت خولة!

التي بعدها . . و لم تأت ذات البشرة الفضية!

التي بعد بعدها . . معذباً بحنينه لوجهها منتشية في حضنه بضوء القمر . . لم تأت!

التي بعد بعد بعدها . . و يظل يتشوَّف!

خمس ليال و لم تأت خولة . . و شوقه يكاد يبلغ الجنون!

في الليلة السادسة . . بعد صعوده بساعة يتناهى الى سمعه صدى خطوات على السلم في الطرف القصي من السطح . . يرفع بصره و بالضوء الخافت الفالت من مصابيح الحوش ميّز من بعيد هيأة أمه . . فاجأه صعودها إليه، لكنه ظل في مكانه ساكناً حتى وصلت إليه . . تطلّع إلى وجهها مستعيناً بضوء النجوم الآتي من أعماق الكون. و ها هو بياض ثلج لون وجه أمه يذكّره بلون وجه خولة و لون نهديها الصغيرين في ضوء القمر . . و لكي تختصر أمه له الأمر، تطلعت إليه و الى اللحاف الذي بجانبه على السرير، و فاجأته قائلة بنبرة فيها الكثير من الشفقة و المؤاساة:

- إبني . . و ليدي . . لا تعذب نفسك أزيد من هذا! . . خولة ما تجي بعد!

حدثته نفسه . . ماذا؟ . . و لِمَ لا تأتِ خولة؟ . . أكان أمرنا يا ترى قد إنفضح! . . إذن . . لم يعد مهما عنده السؤال عن كيف إنفضح أمر حبهما، و إنما أراد في داخله أن يعلم لم لا تأتي خولة بعد الآن؟ . . يجيئه

الجواب من أمه حتى دون أن يسأل:

- إبني . . و إنت بالسجن . . خولة تزوجت . . زوجوها لواحد گرايب أمها بالناصرية.

- شلون يمه؟ . . شلون زوجوها؟

- هذا اللي جرى و صار!

- و شلون عرفتو بينه و بسر علاقتنا؟

تحاول أمه أن تتملص من الإجابة عن سؤاله الأخير بجواب لا يعي حيلة:

- إي . . عرفنا و هاي هي! . . و هسه خولة تزوجت و راحت لحال سبيلها!

- و إذا چنتو تعرفون أكو علاقة حب بيناتنه . . ليش ما تصرفتو؟

عندها أضطرت أمه أن تجيب عن السؤال لكي توضح له:

- إبني تريد تعرف شلون عرفنا بعلاقتكم؟ . . هذي الشغلة أبوك هو اللي عرف بيهه . . لأن أبوك چان مرة و هو جاي من السوك شايفهه من بعيد تنطيك مكتوب من الشباچ . . و چان گبلهه شايفك إنت تنطيهه مكتوب من شباچهم . . و بشوفتكم لعب گلبه . . و شلون چنتو تلتقون على السطح بالليل هنا بنفس هذا المكان و تتغطون بلحاف . . هذي همين أبوك هو اللي إنتبه عليكم مو غيره! . . من يگعد للصلاة الغبشة چان مرة رايح لغرفتك صدفة و ما لاگيك بغرفتك . . و ظال يدور عليك . . و شنو اللي مخليه يتوقع إنت فوك السطح؟ . . هاي ما أدري بيهه . . چان شايفكم متلفلفين باللحاف حتى روسكم و سامعكم تحچون . . و إنت تدري زين أبوك رجل عاقل . . بوقتهه من شافكم و سمعكم قرر يخليهه صنته و نزل و چان مقرر

يتفاهم وياك الصبح حتى يزوجك من خولة . . هذا چان ليلة الإنقلاب الأگشر مال البعثيين . . و يوم اللي بعده سولفلي عنكم بالليل من رحنه ننام . . و چان مقرر إذا أنت توافق تشتغل وياه بالمحل و ما تروح تتوظف . . يروح و يحچي ويا أبو خولة و يزوجكم . . و بعدين إنت تدري باللي صار و جرى على إيدين هذوله البعثية!

مصغياً لأمه تسرد له ما جرى . . في داخله يزداد تقديره لأبيه لإحترامه خصوصية وضعه مع خولة، بعدم مفاجأتهما و عدم هدره لكرامة حبيبته خولة تلك الليلة و تجنبه فضح أمرهما و هو يراهما يضعان اللحاف خيمة تحجب سرهما الليلي، و مع ذلك و على ما عرضته أمه، جاء تعليقه عفوياً و مليئاً بالحرقة:

- . . زين يمه . . إذا أبويه يعرف كل هذا و چان مقرر يتصرف . . ليش ما تصرف من جوّي يخطبوهه؟

- إبني . . مو إنت عاقل! . . لما جانه خبرهه ديزوجوهه . . يعني شتريده لأبوك چان يروح يگول لأبو خولة؟ . . يگولّه أريد أخطب بنتك لأبني المسجون و ما أدري شوكت يفكون سجنه! . . إبني مو إنت عاقل! . . لعد أخاف ما تدري! . . إحنه أصلا چنه زاربين على نفسنه من الخوف . . يوم نسمع البعثية قتلوا فلان بالتعذيب بمندلي . . و اللي بعده نسمع عدموا فلان و فلان و فلان بمعسكر سعد . . و يوم نسمع عدموا المئات بمعسكر الرشيد . . و يوم نسمع البعثية قتلوا فلان بالتعذيب بنواحي الخالص . . و غيرهه . . و غيرهه . . أصلا إحنه ما چنه متوقعين نشوفك برا السجن!

إذ لم يعلق أو يرد على أمه . . إنتظرت الوالدة دقيقة و إستدارت تعود ماشية نحو السلم لتنزل الى الحوش . . و ظل هو يتبحر عِبرَ ظلام السطح في هواجسه و رؤاه لخولة متجردة من ملابسها بالكامل تنام في حضن رجل في مدينة الناصرية . . قام من جلسته على سرير الجريد

متجهاً نحو السلم، ثم نزل و توارى في غرفته الصماء قبل أن يستيقظ أبوه لصلاة الفجر!

و لكي يشغل نفسه بطريقة ما عن موضوع ضياع خولة من أحضانه، ذهب في اليوم التالي ليستطلع القبول في معهد المعلين كي يرى إن كانوا سيقبلون تسجيل نزيل سجون سياسي مثله في الدراسة عندهم ليغدو معلماً، فأُخْبِرَ أن دورة لمدة سنة ستفتح لإستيعاب خريجي الإعدادية لتدريبهم كي يكونوا معلمي إبتدائية، و راح يفكر في الموضوع . . و مع ذلك، سيظل في داخله طيلة اليوم التالي يتمزق حين تراوده بين فينة و أخرى رؤاه عن خولة تنام عارية في حضن رجل آخر.

و المساء يُخيِّمُ على المدينة . . قرر أن يسير في دروبها على غير هدى . . غادر الدار و إستدار يساراً . . عشر خطوات و ها هو يصير أمام أطلال خولة. إستدار لا شعورياً الى اليسار تجاه باب بيتها، و توقف ليتملى باب بيت الحبيبة الضائعة و فتحة النافذة التي كان يمرر منها رسائله إليها . . ما أمامه أطلالٌ غير منسية . . و من حيث لا يدري نبع في رأسه مطلع أبيات قصيدة طَرَفَة بن العبد . . لخولة أطلال ببرقة ثهمد . . تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ . . وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهُم . . يقولون لا تهلك وَ تَجلَّدِ . . مشغولٌ بتذكر ما حفظه من القصيدة، يقاطع خاطرته إنفتاح باب الطلل الذي أمامه، فيبان أمامه فجأة وجه أمها الأربعينية الأسمر بوشومه المتناثرة . . أمها معروفة بالوشوم التي تغطي كل جسدها الظاهر منه و المتواري . . و على الرغم من الوشوم، يظلّ وجه الأم جميلاً يذكّرُه بوجه خولة في ضوء القمر . . ملامح الوجه الأسمر نفسها ملامح إبنتها الوحيدة البيضوي الأبيض الثلجي!

من أين أتت خولة ببياض ثلج بشرتها؟ . . أبوها حسين حوار فيه بياضُ بَشَرةٍ شبيه ببياض بشرة خولة و قد لوحته الشمس فغدى بياضاً فاتراً . . أكان خُروجُ خالة مسيعيدة صدفة، أم أنها قد تكون رأته من وراء النافذة

المجاورة للباب، فخرجت لتتحدث إليه؟ . . أمن المحتمل أنها تريد أن تقول لي شيئا عن الحبيبة الضائعة؟ . . و تسأله أم حبيبته بنبرة أسى:

- يمه شمران . . شلونكَم؟

منذ ميلاد خولة و هي في بعقوبة و لم تفتر لهجتها الشروگية إلا قليلاً، فيرد عليها:

- مثل ما تشوفين خالة مسيعيدة! . . شدتشوفيني زين؟ . . مبين عليّ آني سعيد لو فرحان؟

- يمه . . الله يساعدك وليدي . . الله يعينك!

- شلون يعيني؟ . . آني چنت بداخل السجن خسران و طلعت خارج السجن و لگيت نفسي همين خسران!

- . . أعرف وليدي! . . إنت برا السجن خسران و خارج السجن خسران . . آني أدري بقهراتك!

ما الذي تعرفينه خالة مسيعيدة عن قهراتي؟ . . أهلي يدرون! . . أهي أيضا تدري! . . كيف يتسنى له ليعلم؟ . . إذا كانت تدري فأي سر مضعضع كان سرنا! . . و من كان أيضا يدري؟ . . جيران الجهة الأخرى المقابلين لبيتنا ربما؟ . . و من أيضا من أهل الدربونة القريبين و القصيين كان يدري؟ . . مصيباً من قال أن السر إذا تجاوز الإثنين شاع! . . يا خالتي مسيعيدة القمر كان شريك سرنا . . أكان القمر هو من فضحنا و أخبر الجميع؟. . سرير الجريد كان يسمع تأوهاتنا التي يبتلعها الليل! . . و حلكة الليل! . . و شجرة اليوكالبتوس! . . و سعف النخلتين السامقتين! . . أم يكون اللحاف الذي نتلفع به هو من أفشى سرنا؟ . . و أحياناً صوت عبد الكريم المدني يؤذن لصلاة الفجر يسرق منا لحظات حميميتنا و ينذرنا بمجيئ الصبح الغادر! . . أخشى يا خالتي مسيعيدة أنك أنت أيضا رأيتنا نقطف من التي يسمونها زوراً الشجرة الحرام و هي حلال صاف

مثل الماء الزلال! . . مصيباً من قائل بأن السر إذا تجاوز الإثنين شاع! . . و كيف لي أن أدري إنك تدرين!

و يسمعها تضيف:

- . . وليدي . . إحنه القهر كاضّ بينا كضّ . . آنه همين مقهورة . . تزوجت خولة و ظليت وحيدي . . هذا مو قهر!

تذكّره لهجتها بنبرتها و لحنها بلهجة صديقه أبي ذر الشروگـي النبيل، و هي تتحدث، بقيت عيناه معلقتين على ما تحت فوطتها و عندها إكتشف أن نهدي خولة الصغيرين بما يثيرانه في ضوء القمر في كيانه من جنون موروثان من أمها!

يشكرها دون أن يضيف شيئاً أو يعلق . . و يمضي سائراً في الدربونة المتربَةِ حَذاءَ مجرى صغير لمياه آسنة منحدرة من فتحات صغيرة أسفل أبواب البيوت. . و عند كل إنعطافة كانت بعض نسوة يعرفنه يصادفهن متوقفات عند أبواب بيوتهن، يسلمن عليه و يباركن له خروجه من المعتقل . . و قبل آخر إنعطافة تؤدي الى شارع الشاخة، كانت السيدة بتول زوجة حسن الـگـفـچـي تقف عند باب البيت تنادي على إبنها ذي الأربع سنوات كي يدخل الى البيت:

- يمه سلام! . . يمه سلام! . . تعال عيني . . جيب أخوك كريم وياك و تعال . . مو صار المغرب!

سيدةٌ في أواخر عقدها الثالث، و قد سطت على عقول شباب المحلة بجمالها الآخاذ، تعرَّفَ شمران على عطفها و حنانها و إنعقدت له معها علاقة إحترام روحية عمادها مزيج من مشاعر أمومية و أخوية منذ اليوم الذي طارده به ظُهراً رئيس عرفاء الأمن سَمين الكركوكلي بسبب كتابته لشعارات تدعو لإقامة الديمقراطية في العراق. كان في حينها فارا أمام رجل الأمن تاركاً وراءه علبة الدهان الأحمر على الأرض و بيده

الفرشاة العريضة يلوح بها . . و صادف أن كانت هي واقفة في باب بيتها تتفرج على ما يجري في الشارع من وراء إنعطافة الشارع نحو الدربونة، فرأته يركض لاهثاً و كأنه يطلب النجاة من شئ يخشاه . . و في قلب الإنعطافة أحس بيدها دون أن يدري ترتطم بزنده و تَختِطَفه الى بيتها حتى دون أن يدرك كيف فعلت ذلك، موارية إياه فوراً خلف باب البيت، و أغلقت الباب، أحس في حينها و كأن سطلَ ماء بارد إنسكب فوق رأسه و إنساب على جسمه و لم يدرِ ما يقول لها سوى تكرار مفردة . . شكرا خالة! . . . شكرا خالة! . . . شكرا خالة أم سلام! . . و تلقائياً مد يده متناولاً يدها و قبّلها، فضحكت لذلك . . و ها هو يتذكر الآن كيف تفاجأت بحركته لتقبيل يدها فإستسلمت لحركته بقلب تغمره السعادة، و إبتسمت له و قالت:

- تعال . . أبو سلام دا يتغدى بالطارمة . . تعال أگعد تغدى وياه!

يتذكر أنه أطاعها دون نقاش متوجهاً نحو زوجها الذي نهض و أستقبله و دعاه الى تناول الطعام معه، فجلس . . و لم يكن زوجها أبو سلام غريباً عليه، لأن دكانه في السوق قريبٌ من دكان أبيه، و كان يعرفه معرفة جيدة . . و تذكر أيضا و هو يتناول غداءه مع أبي سلام في حينها، سألته:

- هذا العتوي منو؟

- الكركوكلي؟

- إي . . و ليش چان يركض وراك؟ . . شيريد منك؟

- شافني أكتب شعارات بالبويه الحمرة على الحايط!

- و إنت ما لـگيت وكت تكتب بيه شعارات على الحايط غير هالظهرية!

- شوكت لعد؟

- بالليل مثلا!

لا يعلق شمران و كأنها أفحمته بإقتراحها، ويسأله أبو سلام:

- اللي چان لاحـگك . . هذا ياهو منهم؟

- سَمين الكركوكلي.

- هذا ملعون إبن ملعون . . بس آنـي أريد أعرف! . . هالنمونـات الزعيم يدري لو ما يدري بيهم دا يسوون هيـچ بيكم و بالنـاس اللـي يحبوه؟

- حتما يدري!

- معقولـة! . . ليش ما تشتكون عليهم يَمْ الزعيم؟ . . و تعـال گـولي . . هسه إحنـه . . ثـورة عرفنـه معناهـه . . و إشـتراكية . . عرفنـه معناهـه . . و رجعيـة و إقطاعيـة عرفنـه معناهـن . . بـس متـگـولي . . هـي هـذي . . شتسـمونه . . الدمقراطيـة . . هـي شـنو معناهـه؟

و ها هو يتذكر أيضـا الإبتسامة التـي إنبثـت مـن وجـه السيدة بتـول حيـن طـرح زوجهـا سـؤاله، لأنهـا علـى عكس زوجهـا كانـت تقـرأ و تكتـب، و كانـوا قـد إنتزعوهـا مـن المدرسـة المتوسطة ليزوجوهـا لقريـب أمهـا حسـن الـگـفـچـي. و كانـت تعـرف مَـنْ مِـنْ بيـن شـباب المحلـة كان مـن شـاكلته مشـغولاً بالسياسـة، و يتذكـر أنـه تريـث فـي الإجابـة علـى سـؤال زوجهـا . . و مـن إبتسـامتها ظـن أنهـا هـي التـي سـتجيب علـى السـؤال، و إذ لـم تفعل أجـاب هـو:

- عمـي حسـن . . ديمقراطيـة مـو دمقراطيـة! . . الديمقراطيـة معناهـه تصيـر أحـزاب و إنتخابـات . . و اللـي يفـوز بالإنتخابـات هـو اللـي يحكـم!

و يتذكر أيضاً أنها حين سمعت إجابته أطلقت ضحكة مسموعة، و علقت:

- يضحكـون عليكـم! . . و الله يضحكـون عليكـم! . . يـا أحـزاب! . . يـا

ديمقراطيــةًا . . يــا شــجر حجــي أحمــد! . . إنتــو تضيعــون وقتكـم دون داعــي! . . و إنــت خويــه شــمران لــو تنشــغل بدراســتك هوايــه أحســنلك!

و يتذكـر أيضـاً أنـه مـا أن أكمـل غدائـه مـع الـزوج آنـذاك، طلبـت مـن زوجهـا إيصالـه الـى البيـت، فأوصلـه الرجـل الـى بيتهـم و ذهـب مـن هنـاك الـى السـوق، و أنـه فـي ليلـة ذاك اليـوم طـُرِقَ علـى بـاب منزلهـم . . و كان ثمـة عنـد البـاب سَمين الكركوكلـي الـذي نعتتـه السيدة بتـول بالعتـوي و معـه نفـر آخـر إقتـاداه الـى غرفـة دائـرة الأمـن فـي مركـز الشـرطة، و إحتفظـوا بـه هنـاك لمـدة سـاعتين لغـرض التحقيـق، و أطلقـوا سـراحه بعـد وقـت العشـاء.

و هـا هـي أم سـلام أمامـه اليـوم، يسلـّم عليهـا و يتذكـّر كلماتهـا . . يـا أحـزاب يـا ديمقراطيـة يـا شـجر حجـي أحمـد! . . و هـي تـرد علـى سـلامه وتهنئـه علـى خلاصـه مـن السجن، وَدَّ لـو أنهـا تسـمح لـه مـرة أخـرى بتقبيـل يدهـا، تقـدم منهـا و لكنـه لـم يجـرؤ علـى تقديـم طلبـه . . قـُبلـَتـُهُ العفويـة التلقائيـة تلـك التـي طبعهـا علـى يدهـا عرفانـاً بالجميـل صـارت مـن أيـام زمـان، و سـيظل يتذكرهـا . . شَكـَرَهـا و مضـى فـي سـبيله.

عنـد بلوغـه الشـارع . . و قـد إمتـدت أمامـه الحديقـة النصـف مـدورة التـي أنشـأتها بلديـة بعقوبـة قبـل سـنين علـى شـكل نصـف دائـرة، و شـارع الشـاخة المسـتقيم يشـكل قاطـع نصـف الدائـرة، و قـوس البيـوت بطريـق ضيـق أمامهـا هـو منحنـى الحديقـة نـص الدائـرة التـي تحتـل خاصـرة منطقتهـم بأكملهـا. يتذكـّر الليالـي التـي قضّاهـا فيهـا، قبـل أكثـر مـن عـام، فـي الشـهر الـذي سـبق إمتحانـات البكالوريـا الإعداديـة. أضويتهـا الباذخـة توفـر إنـارة كافيـة تحـث علـى القـراءة و معـه شـلة محلتـه مـن طـلاب مـن شـاكلته ناشـطين فـي السياسـة . . عـلاء عـارف فرّ الـى الإتحـاد السـوفيتي قبـل إنقـلاب شـباط و نجـى مقبـولا فـي جامعـة الصداقـة فـي موسـكو . . جاسـم محمـد سـعيد إلتحـق بكليـة الزراعـة فـي بغـداد و عامـر عبـاس أسـد مقـُبولا فـي كليـة العلـوم فـي بغـداد . . أيـن أنتمـا الآن؟ . لا يـدري! . . و أيـن أنـا؟

بوصوله الى شارع الشاخة، فَضَّلَ عبور القنطرة المقابلة لشارع القيصرية الضيق. توقف هناك عند رأس القنطرة بحذاء الشاخة و إنتصب أمامه عبر الشارع بيت الطبيبة الموصلية المعروفة في بعقوبة وجيهة قاسم الخطاط. بيت الطبيبة سكنٌ و عيادة في آن. البيت مقفلٌ و ليس في مظهره ما ينم على حركة و لا أحد يعلم حتى اللحظة عن مصير الطبيبة شيئاً، و سيسأل عنها لاحقاً فيخبرونه أنها فرّت الى مدينتها نجاةً من بطش الحرس القومي . . لم تكن دكتورة وجيهة شيوعية و لكنها معروفة بصداقتها المديدة و القوية بناشطات المدينة القليلات، و إثنتين منهن في منطقتهم. و تذكر كيف كانت الطبيبة وجيهة تنصحهم بتعليق لافتاتهم على واجهة منزلها كي تحميها ليلاً من إعتداءات الخصوم . . و من رأس القنطرة إستدار يساراً، و ظل يمشي الهوينا في صوب السراي حذاء الشاخة . . يتلكأ هنا و هناك، محاولاً أن يبدد المشاعر المضطربة بعد سماعه من خالة مسيعيدة قصة زواج خولة . . و أثناء مروره مقابل جامع الشابندر، تناهى الى سمعه الصوت الواهن لمؤذن الجامع أحمد طَرْطُرْ يصيح لآذان العشاء . . الله أكبر! . . إلتفت فرأى المؤذن يقف حيث إعتاد أن يقف قبل سنين على السياج قرب باب المسجد . . و تذكَّر أيام الولدنة حين كانوا يصيحون على أحمد طرطر و هو يؤذن . . أحمد طرطر طيزك منگبر! . . فيترك طرطر ما وصل إليه من الأذان و يرد عليهم . . مناويچ و لد الگحاب! . . ثم يعود الى مواصلة الأذان! . . لم يتغير من المدينة شئ هنا سوى صوت أحمد طرطر الذي صار أوهن من السابق! . . يواصل سيره مجتازاً القنطرة المقابلة لمحلة . . راس العگد . . مقابل بيت علي الحسون في صوب التكية. . بعد عشرات الخطوات، و هو ما يزال يسير حذاء الشاخة في صوب السراي، وصل الى الجهة المقابلة لدكان أبيه القديم الملاصق للستومنية و كان الدكان أصلا لأخيه أمير القيرواني . . أين أنت يا قيرواني؟ . . و صار الدكان بعدها محلاً ثانياً لأبيه قبل إنتقاله ليجاور حسينية بعقوبة. ثم تطلع الى مقهى غنيم السامرلي المجاورة لدكان أبيه القديم، حيث إعتاد أبوه الجلوس فيها بعد صلاة العشاء لساعة متأخرة من المساء، و لم يجدها مكتظة بالرواد . .

ظل يتطلع الى المقهى علّه يرى أباه! . . لم يكن هناك . . و حين وصل القنطرة القريبة من جامع بعقوبة[٣٧]، و كان المؤذن قد إنتهى للتو من آذان العشاء، تاهت نظراته صوب الجانب الآخر من الشاخة، كانت . . مقهى حسين صفاوي . . غير مكتظة بروادها، و من بعيد ميَّز صاحبها و بجانبه صهره مزهر الكهية يجلسان في مدخلها منتفخيّ الكرشين . . و لفت إنتباهه تناقص عدد روادها . . فراق البعثيين و القوميين زعل حبايب! . . فالمقهى هو مقهى عبود صفاوي كانا محسوبين ناديين للبعثيين، و من الطبيعي أن ينفرط عقد روادهما بإنصراف الرواد القوميين الناصريين لإرتياد مقاه أخرى . . و بعد مسيرة بضعة خطوات، كانت على يمينه . . مقهى لفتة . . هي الأخرى غير مزدحمةً، و مثلها مقهى عبود صفاوي ليست كسابق عهدها، حين كانت هي و مقهى حسين صفاوي مركزين لحشد العداء ضد الزعيم عبد الكريم قاسم و أنصاره و مؤيديه، و منهما كانت تتحرك مجاميع الإعتداء على اليساريين تمهيداً لإسقاط عبد الكريم قاسم . . و ها هو الزعيم و من والاه قد غابوا جميعا عن الساحة! . . و مع ذلك، فضوضاء رواد هذا المقهى الصغير كانت ما تزال تُسمَع لا في الشارع فحسب، بل و ربما في المقهى المجاور . . عند تجاوزه المقهى تسترعي نظره المكتبة الموجودة بعد المقهى، فيترك السير بمحاذاة مسناة الشاخة و يفضِّلُ عبور الشارع الضيق متوجهاً نحو مكتبة الشباب العربي التي كان زبوناً دائماً فيها، يشتري منها كتب الأدب. و ها هو صاحبها يستقبله مرحبا و مستغرباً غيبته الطويلة:

- شلونك؟ . . هاي وين هالغيبة الطويلة أخي! . . مسافر؟

و يستغرب شمران في الظاهر و يستهجن في داخله تَصنُّع صاحب المكتبة لهجته و جهله بما حصل له من إعتقال و تعذيب . . النفاق! . . كيف سيفسر غيبته الطويلة لصاحب مكتبة معروف بميوله القومية المتطرفة، و كيف ألا يكون صاحب هذه المكتبة على دراية بأمزجة و إتجاهات زبائنه . . و هو العائش في بيئة مشحونة بالإنقسام في بلدة صغيرة،

٣٧ مكان الجامع الآن الأرض الخالية المجاورة للعيادة الشعبية

في حقبة صارت فيها حتى كائنات مثل الكلاب و الصراصير و الذباب و الطيور التي تقف على أسلاك الكهرباء في محيط بيوت اليساريين متهمة بالشيوعية . . و كيف، يا ترى، لَمْ يحسب صاحب المكتبة أو يحزر إحتمال إقتياد زبون يساري من زبائنه مكشوف تماما الى المعتقل؟ . . فضّلَ شمران أن يتجاهل إستغرابَ و تجاهل صاحب المكتبة من غيابه، فيرد قائلاً:

- أخي . . هسه أترك غيبتي الطويلة جانبا . . و فَرِّجْني على الجديد اللي وصلكم أثناء غيابي بسفرتي الطويلة!

و من قراءته لردة فعل الرجل بتعبيرات وجهه، سيحزر شمران بأنه كان على صواب تقريباً، و أن الرجل لا بد أن يكون عارفاً بسجنه . . و ينشغل صاحب المكتبة بإختيار كتب معينة من الرفوف ليعرضها أمامه موضحاً:

- هذا جون شتاينبك . . حين فقدنا الرضا . . هذا جاك لندن . . العقب الحديدية . . و هذا إيليا أهرنبرغ . . سقوط باريس . . و هذا إندريه مالرو . . قَدَر الإنسان . . و الغزاة!

تقليب صفحات الكتب و التعرف على المترجم و دار النشر مهم جدا، و يقول لصاحب المكتبة:

- راح آخذها كلها!

ينقد الرجل ثمن الكتب و يحملها بكيس ورقي، و يمضي في طريقه . . عند وصوله القنطرة المقابلة لمقهى البغدادي، و هي القنطرة التي تربط شارع الحسينية بشارع بناية السراي القديم، يعبر الشارع الضيق و يعاود سيره بمحاذاة مسناة الشاخة. بضعة من عشر خطوات و يسترعى نظره على يمينه البيت الذي كان مقرا للشبيبة مضروباً بسلسة و قفل كبير . . و مواصلاً طريقه بمحاذاة الشاخة عبر لاشعورياً القنطرة المقابلة لمقهى الشبيبة . . و تساءل إن كان قد سُرِّحَ صاحبها مجيد محسن من سجنه

. . يسير محاذياً المسناة، و حين يمسي مقابل المقهى يتطلع إليها عبر الشارع علّه يرى أحداً يعرفه . . المقهى خالٍ تقريباً سوى من بِضعة كهول متفرقين هنا و هناك، و الـچايچي مشغول عند الأوجاغ.

مواصلاً سيره محاذياً لمسناة الشاخة . . يتوقف عند الركن أمام . . مقهى أبي عوف . . و قد صار أسمها بعد الرابع عشر من تموز مقهى الأحرار. و ها هو مطعم حسين الآشچي في ركن رأس شارع العنافصة مقابل المقهى. يتوقف هناك متطلعاً في مدى شارع العنافصة المترب تسير فيه سيارتان أثارتا وراء إطاراتهما غباراً قليلاً. مقهى الأحرار هي الأخرى تكاد أن تكون خالية. و أمام المقهى سيكون عليه الإختيار بين أن يستمر سائراً في الشارع المبلط الذي تطل عليه واجهة مقهى أبي عوف و تتبعها بيوت على جانبي الشارع المبلط، أم يختار الممر الترابي المتروك بمحاذاة الشاخة وراء المقهى و البيوت، و قد بات مجرى الشاخة أمامه دون مسناة.

أخيراً يُفَضِّلُ السير في الطريق الترابي من وراء البيوت، ملازماً مجرى الشاخة المكشوف، و قد نمت على حافاته الحشائش العالية نسبياً، و صار مرتعاً للضفادع التي يملأ صوت نقيقها المكان، و للحشرات و صرّارّت الليل و قد ضجَّت عند المساء صَرّصَرتها تطغى مع نقيق الضفادع على فضاء المكان . . على جانب الجرف و بالضوء الكابي المتسلل من خلف البيوت، يجلب إنتباهه أمامه و قرب قدميه ضفدعان أحدهما يركب الآخر. و على الرغم مما أثاره حضوره من إضطراب لكائنات المكان الصغيرة، يظل الضفدع الذي تحت يَنِطّ و الضفدع الذي فوق متمسكاً بموقعه المتميز و غير مبالٍ بما حصل من تطفُّلٍ على المكان من قبل الأغراب . . ذكر و أنثى؟ . . تزاوج؟ . . يا لليل و يا لأسراره! . . فلا بد أن يكون ما فوق ذكراً و ما تحت أنثى! . . و تذكر بأنه في نشوة حبه لخولة لم يجرب قط وضع الفوق و التحت لأنهما إعتادا على الجلوس متلاصقين بطريقة أو أخرى بسبب قلة أدواتهما ضد البرد . . و مع ذلك، فهو لا دراية له بتزاوج الضفادع، لكن مروره عبر هذه العزلة لا بد أن

يكون قد سبَّبَ إزعاجاً للكائنات الصغيرة الموجودة على جرف الشاخة و تطفلاً على خلوتها، و هي تتمتع بعزلتها الفريدة و الإستثنائية!. . و أمامه ضفدعة تَنـُط و فوقها ضفدع متمسك بموقعه لغاية أن يبلغ مناه! . . هكذا تخيَّل الوضع و العلاقة لجهله بعالم الضفادع! . . إسقاط لا أكثر! . . و تذكَّر فجأة ما حكته له أمه بالأمس وحسبه إحتراماً من أبيه لخصوصية خلوتهما هو و خولة و إنسحاب أبيه حتى دون أن يدريا به . . توقف فوراً كي لا يزيد من الإضطراب الذي سببه مروره قرب خلوة الكائنات الصغيرة، و تمنى لو أنه علم أن مروره من هنا سيكون فيه تجاوزٌ على خصوصية كائنات المكان الصغيرة لكان أخذ الممر الآخر المبلط . . يا للعجب! . . و ندم كثيرا على إعتدائه على خصوصية المكان . . سبق السيف العذل! . . تلبية رغبتي بالعزلة في مساري في طريق لا أحد فيه أحدثت تجاوزا و تطفلاً على عزلة كائن آخر! . . عليّ إذن أن أفهم و أحزر بالسليقة أين تتوقف حريتي و تبدأ حرية الآخر! . . معادلة صعبة! . . في هذا المكان أين يتوقف حقي و يكفُّ ليبدأ حق الضفدعين؟ . . و هو واقف يتفرج على الضفدعين مَن تحت يَنـُطُّ بحملٍ من فوق . . هذه فرضيته! . . و يود لو يعلم إن كان المحمول مأخوذاً بنهدي الحامل و تسحرانه في غابة العشب الممتد على طول حافة الشاخة! . . أللضفادع نهود؟ . . و سرعان ما سيتوارى الضفدعان في غابة حشائش الجرف العالية المعتمة بحثاً عن ركن معزول لا تطاله أقدام البشر المفسدين في الأرض!

و يعاود السير في طريقه.

و تجنباً للمرور من أمام كازينو أم كلثوم، كي لا يرى زوج أخته أميرة و لا ذاك يراه، فضَّلَ الإنتقال الى صوب السراي مرة أخرى عِبْرَ القنطرة المقابلة للشارع المؤدي الى مركز مديرية شرطة بعقوبة[٣٨] . . و ظل يسير و جرف الشاخة على يساره. و بمسيرة بضعة خطوات،

[٣٨] مكان بناية مديرية مركز بعقوبة و ما يجاورها، توجد الآن مديرية إطفاء بعقوبة

يجيئه صوت أم كلثوم من بعيد تغني . . دليلي إحتار . . و كلما إزداد إقتراباً من موقع سينما ديالى، يزداد صوت أم كلثوم علواً و وضوحاً. و حين سيصبح من صوب السراي في الجهة المقابلة لدار سينما ديالى المتوارية واجهتها و معها واجهة كازينو أم كلثوم وراء بناية مصرف الرافدين و الأشجار العالية المحيطة بها محاذية الشاخة في جانب التكية، سيقف ليستمع لأم كلثوم . . تغيب عني و ليلي يطول . . و قلبي في هواك مشغول . . و أقول إمتى أنا و إنت . . هنتقابل مع الأيام . . مع الأيام!

الصوت في داخله . . نتقابل مع الأيام! . . أية أيام؟ . . مستحيل! . . . حلمٌ و طار! . . مائيَ إنسكب على قارعة الزمان! . . أستأتي خولة يوما لزيارة أمها و تكون فرصة أراها و لو لآخر مرة في حياتي! . . أكانت تلك المرة التي إلتقيتها فيها ليلة إعتقالي هي آخر المرات؟ . . أكانت نبوءة لي عن ضياع خولة مني دون أن أدري حين غنى لي أبو ذر لي في السجن . . يا شميري بطل النوح و إهجع شوية . . نوحك بعد ما يفيد بويه و راحت خولية؟ . . هذا النبي أبو ذر! . . و يتلفت حوله بحثاً عن مكان يجلس عليه كي يجد له بعض سلوى في أغنية أم كلثوم، فيجد على بعد خطوتين منه على جرف الشاخة دكة كونكريتية لسدّاد من سدّادات ترع الري المستعملة في سقي بستان كرم الخشالي و البساتين التي وراءها . . يجلس على الدكة ملقياً من يده على إسفلت الشارع بكيس الكتب و فيه رسائله لخولة الحبيبة، و يروح ليصغي لأم كلثوم تعيد المقطع الأول . . و لما ألقاك قريب مني . . و أقول البعد تاه عني . . أشوف عينك تراعيني . . و قلبي من لقاك فرحان! . . أعليه أن يبكي مثلما ليلة بكى تحت المخدة و إكتشف أمره رفيق سجنه أبو ذر و غنى له . . يا شميري بطل النوح؟

صوت في داخله. هذا في خاليات الأيام! . .غزالتي ضائعة بنهدين بلون بياض الثلج! . . و تذكر أنه سمع الأغنية و رفيق سجنه الشروگي النبيل في المعتقل تغنيها السيدة على الهواء مباشرة . . و تذكر أغنية أبي ذر . . شلون ينام اللي غطاه هموم . . و فراشه حِسچْ سِعدان . . ما يِنْجاسْ! .

. رفيقي أبا ذر . . هذا آني هسه . . بهذا حالي! . . غطاي هموم و فراشي حِسچْ سِعدان! . . أكنت تقرأ لي مستقبلي و تتنبأ لي خسارتي؟

و يشدّه الشوق الى لياليه الخوالي تحت شجرة الكالبتوس و الى مرأى نهدي خولة في ضوء القمر، و لم يحتمل أكثر سماعه لكلمات أغنية أم كلثوم الواعدة بلقاء لا يتحقق . . و يتذكر مرة أخرى أبي ذرّ و ما قاله و هما يتجاذبان الحديث في ليلة من ليالي السجن:

- شميران . . شوف! . . آنه معتاد إذا طاحت عليّ طرگاعة چبيرة و أشوف نفسي ما أگدر عليهه . . أروح بليلتهه و أطِگلِي ربعية عرك و أگعِد مصباح اللي بعدهه غاسل راسي من الطرگاعة و ناسيهه!

هذا أنت أيها الشروگي النبيل! . . و ماذا عني؟ . . أين مني ربعية العرق يا أبا ذر؟ . . لم يكن قد جرِّب غير البيرة لبضعة مرات! . . ينهض من جلسته حتى قبل أن تنتهي أم كلثوم من أغنيتها، و يسير في طريقه جنوباً بإتجاه محطة القطار . . يصل القنطرة المقابلة لشارع نادي الموظفين[39] و يتجاوزها. و بمسيرة دقيقتين يصل الى قنطرة المحطة. و هو يتجاوزها سائراً على غير هدى، يلتفت يساراً و من بعيد يرى الدخان المتصاعد من منقلة أبي دعوچة، فيشيع في جو المكان رائحة الشواء التي وصلت إليه رغم بعد المسافة أو هكذا توهم . . أختلاط و تداخل في المدركات! . . و يبقي على خط سيره بمحاذاة جرف الشاخة العاري بإتجاه بهرز، من دون غاية أو هدف سوى إلهاء نفسه للخروج من طرگاعة فقدانه لخولة. و على الرغم من التضاؤل التدريجي للضوء الآتي من أعمدة النور المتباعدة يظل يسير دون روية . . و يتذكّر أنه قبل إعتقاله إشتدت حملات أفراد الأمن عليهم بأسابيع سبقت إنقلاب شباط، و كان في أثنائها قد إعتاد على قطع الطريق الى بهرز نهاراً راكباً وراء جمال كريم الشِجرة على ماتوسيكله الأحمر يذهبان الى هاتف البهرزاوي ليجلبا نسخ جريدة . . إتحاد الشعب . . و بذا، عُرِفا آنذاك بـ .

٣٩ قبل إنتقاله الى بناية في بعقوبة الجديدة كان نادي الموظفين يحتل البناية التي صارت فيما بعد مقرا لنادي المعلمين في صوب السراي

. راكبي الماطور الأحمر!

الليل يمضي قدماً، و يواصل هو مشيه قدماً و لا يدري أيَ خابطِ ليلٍ أليلٍ هوَ . . سرى لمدة نصف ساعة تقريباً حتى دون أن يدري إلى أين وصل. و لا يسمع سوى صوتِ نباحِ كلابٍ يتصاعد بالتدريج من جهة قرية شفتة على يمينه، و يتخلل النباح أحياناً بالتدريج ضباحُ بنات آوى و بنات زهرة آتٍ من أماكن أبعد ربما . . و تحاول عيناه بالسليقة شق حجب الظلام . . أين أنت أيها القمر؟ . . يا قمراً يا كاشف الأسرار أين أنت؟ . . لا! . . القمر لا يليق طلوعه بغياب نهدي الحبيبة الثلجيين! . . إذهب الى مستقرك أيها القمر و إهجع هناك الى نهاية الزمان! . . و هو يتلمس طريقه على طول حافة جرف الشاخة، و فجأة تتسع حدقتا عينيه الى أوسع ما تستطيعانه لتتمليا بنظرهما ربوة طولانية صغيرة لا ترتفع فوق الأرض لأعلى من شبر و نصف الشبر، إذ جلبت إنتباهه الطابوقة الموضوعة عرضياً فوق أحد رأسي الربوة . . أين تراني رأيت هذه الربوة و الطابوقة؟ . . آه! . . فيتذكر و يستدير يميناً، و لا يتفاجأ إذ يرى بناية مرقد أبي دريس حسيرة الرأس! . . أبلغت هذا الحد و لا أدري؟ . . حين إنتبه لنفسه و هو يرى القبور و شواخصها بإرتفعات مختلفة تنتشر عبر الشارع الذي ميّز دكنة إسفلته، و ضجيج الحشرات ينبث من بين القبور بنغمات و إيقاعات مختلفة . . تذكر ليالي العذاب و التعذيب لأشهر خلت في . . مقبرة مرقد الشريف . . في بعقوبة الجديدة. و كان يدرك جيداً أن معذبيه إختاروا المقبرة مكاناً لحفلات التعذيب لأسباب كثيرة . . أقواها بث الرعب في قلوب المعتقلين بالإستفادة من إعتقاد عامة الناس عن إمتلاء المقابر ليلاً بملائكة و شياطين و جن و أشباح . . ثم يتذكر حكاية مسؤوله الحزبي و إبن محلته . . جمال كرَيم الشِجرة . . الذي مُلّيَ رعباً منذ أول ليلة تعذيب، فإنهار و سلـّمَهم أسماء خليته التنظيمية و كان هو شمران من بينهم. و مع ذلك، ظلوا يأخذون جمال للمقبرة كل ليلة و لأسابيع عديدة لمجرد إرضاء نوازع شريرة مجانية. يأخذونه و معه المُعتَرَفِ عليه أيضاً . هو يشعر بخشية عند القبور إحتراماً

لمثوى المغادرين من هذي الحياة، إلا أنه لم يكن ليرتعب قط من دخول المقابر ليلاً، لأنه لا يؤمن أصلاً بوجود ملائكة و شياطين و أشباح و جن أو أية كائنات خرافية أخرى غير منظورة يقال أنها تخرج جميعاً في جنح الظلام سواء في المقابر أو في غيرها من الأماكن . . و يحصل أمامه مرةً، حين إقتادوا جمال الشِجرة و أعضاء خليته و هو بينهم، و كانت تلك أول حفلة تعذيب يأخذونه هو إليها في المقبرة. و من رعبه الشديد من المكان، حتى قبل أن يعذبوه، كرر جمال الشِجرة أمامهم معترفاً لمعذبيه بأسمائهم العلنية و الحركية بوصفهم منتسبين للحزب . . و مع ذلك، لم يعتقوه، و ظلوا يعذبونه بربط سلك ثخين حول جبهته، و يشدون ربطة السلك من خلف رأسه، و يروح جمال يصرخ و يبكي. و لا يتركونه إلا بعد إشباع نزوتهم بسماع صراخه لأطول مدة ممكنة، ثم يتركون جمال ليباشروا مع الآخرين. و كان هو أولهم، لأنه يتمتع بخصوصية أخرى غير شيوعيته تربطه بجمال كريم هي كونه أحدَ . . راكبيِّ الماطور الأحمر . . و يتذكَّرَ أنه ما أن راحوا يربطون السلك الثخين حول جبهته، كان قد قال لهم معترضا:

- على كيفكم! . . يواش! . . إذا هذا الرجل إعترف و إنطاكم أسمي العلني و الحزبي . . و آني هسه إعترف و أؤيدلكم آني چنت شيوعي بهالإسم الحركي . . بعد ليش تشدون هذا السلك على راسي؟

و ها هو يتذكَّر رد جاسم حسين صفاوي المليشياوي البعثي جاءه ساخراً و مفاخراً:

- ما تعرف ليش نشد الواير؟ . . نشد الواير حتى نعذبك و نتونس عليك و إنت تعيط و تبچي . . أنت مو چنت تركب الماطور الأحمر ويا هذا إبن كريِّم الشِجرة؟ . . و إحنه مو بس راح نعذبك . . راح نعذبك و نِيْچَك . . و نِيْچْ أختك مَرِةْ هذا إبن مرهون العربنچي أبو الكازينو الخابص الدنيا بأم كلثوم ليل نهار!

و مـا يـزال يتذكـر أن قهقهـات الحـرس القومـي المجلجلـة راحـت تهـدر بيـن القبـور . . سـكت هـو عندهـا و تحمّـل عـذاب السلك الـذي دام وقتـاً بـدى لـه كأنـه يـوم طويـل، تـروح خلالـه صرخاتـه تهـز شـواهد القبـور، و لكنـه لـم يبـكِ قـطُ مثـل مسـؤوله الحزبـي إبـن كريـم الشِـجرة! . . و راحـت حفـلات التعذيـب تلـك الليلـة تـدور علـى باقـي أعضـاء الخليـة الحزبيـة. و إمعانـاً فـي القسـوة تكـررت تلـك الحفـلات لأسـابيع.

وقوفـاً مقابـل مقبـرة أبـي دريـس عنـد جـرف الشـاخة، مـا يـزال ينظـر الـى أسـفل نحـو الأرض، و تحديـداً نحـو الربـوة الصغيـرة بطابوقتهـا القريبـة مـن قدميـه تسـاءل . . أتكـون هـذه الطفلـة الرضيعـة ذات الشـهر عمـراً قـد ماتـت و إسـتراحت، و دفنهـا بيديـه، و وضـع بيديـه الطابوقـة علـى أحـد رأسـي ربـوة رمسـها الصغيـر، كـي تكـون أمـارة قبرهـا؟ . . ماتـت و إسـتراحت! . . و مـرت بخاطـره أن . . ليـس مـن مـات و إسـتراح بميّـت . . . إنمـا المَيْـتُ مَيّـتَ الأحيـاءِ! . . كانـت الرضيعـة إبنـة جيرانهـم فـي بيـت يبعـد بيتيـن عـن بيتهـم. حيـن ماتـت أول الليـل سـمع هـو و أمـه صـراخ أمهـا العالـي، فهُرعـا الـى دار الجيـران . . و هنـاك غَسِـلت أمـه صافيـة الطفلـة و كَفَّنَتْهـا طلبـا للأجـر، و أثنـاء مـا كانـت الأم مشـغولة مـع أمهـا بتغسـيل الطفلـة و إعدادهـا للدفـن، إقتـرب منـه والدهـا و إعتـرف لـه برهابـه مـن المـوت و الأمـوات و المقابـر بخاصـة وقـت الليـل، فطمأنـه بأنـه سيرافقه حامـلاً الطفلـة . . و بجهـوز جسـد الرضيعـة للدفـن، حملهـا و سـار مـع أبيهـا الـى الشـارع . . و قـرب الشـاخة لاحـت لـه عربانـة قادمـة مـن جهـة السـوق، فأوقفهـا و قـال للعربنـچـي:

- عمـي ماهـي . . هـذي الطفلـة نِطَـتَـكْ عمرهـه . . نحتاجـك تودينـه ندفنهـه بأبـو دريـس!

- إنـا لله و إنـا إليـه راجعـون . . لا حـول و لا قـوة إلا بـالله! . . شـمران إبـن أختـي . . و لـو آنـي تعبـان بـس هنيالـه لفاعـل الخيـر! . . توكلـوا و إصعـدوا . . و عسـى ربـي يجعلهـا أجـر إلـي و لموتـاي و لموتاكـم . . توكلـوا علـى الله!

و هنـا فـي المقبـرة، ماهـي العربنـچـي هـو الـذي إختـار مـكان دفنهـا عنـد جـرف النهـر، و شـرع هـو بنفسـه يحفـر الحفـرة الصغيـرة يسـاعده ماهـي مسـتعينان بمـا يوفـره فانوسـا العربانـة النفطيـان الجانبيـان مـن نـور ضئيـل . . و طلـب ماهـي مـن أبيهـا أن يذهـب ليبحـث عـن بضعـة طابوقـات لـزوم الدفـن، لكنـه تذكـر مـا قالـه لـه والـد الطفلـة المتوفـاة فـي البيـت عـن فوبيـاه مـن المـوت و القبـور، فطلـب مـن ماهـي:

- عمـي ماهـي . . خليـي هنـا يسـاعدني بالحفـر . . و أفضـل تـروح إنـت لأن إنـت إحتمـال تـدري ويـن تلـگـه طابوك!

مواصـلاً الحفـر، و يعـود ماهـي بالطابـوق. جهـزت الحفـرة، و وضعـا جسـد الرضيعـة فـي لحدهـا و هـالا عليهـا التـراب، و الأب واقـف يتفـرج عليهمـا بأسـى . . و حيـن زادت عندهـم طابوقـة وضعهـا هـو بنفسـه علـى أحـد رأسـي رمـس الطفلـة مخاطبـاً أباهـا:

- عمي . . هذي الطابوگـة نيشان الـگبر إذا رادت أمهه تجي تزورهه!

ثـم قـرأوا سـورة الفاتحـة . . و شـكرهما الرجـل، و عـاد بهمـا ماهـي الـى البيـت.

أماتـت و إسـتراحت؟ . . صديقـي أبـا ذر . . أيـن أنـت الآن يـا تـرى؟ . . رفيـق سـجني أبـا ذر سـأجرب نظريتـك لأكتشـف مقـدار صوابهـا فـي تجـاوز الطرگـاعات بربـع عـرگ! . . و راح أحـاول أخلـص مـن هالطرگـاعة و أغسـلهه و أنسـاهه بربعيـة عـرك؟ . . لكـن السـؤال هـو أيـن سـأجد ربـع العـرق؟ . . تذكـر فجـاة أن حسـن چنـگـال القصـاب جـار دكان أبيـه تحـت منـارة الحسـينية كان قـد دعـاه مـرات، حيـن يغـادر أبـوه و يتركـه فـي الـدكان مسـاء، ليكـون نديمـه و يتـذوق طعـم العـرق . . نظـر فـي أرقـام سـاعته الفسـفورية . . الوقـت لـم يتجـاوز التاسـعة بعـد. سـيقفل راجعـاً متوجهـاً شـطر سـوق بعقوبـة. كان يعلـم بـأن حسـن چنـگـال يسـتعمل ثنيـة دكانـه، المعزولـة فـي عقـب الـدكان بسـاتر خشـبي، لأقامـة سـهرات سـكره لوحـده حتـى سـاعة

متأخرة من المساء و ليس من نديم له سوى راديو ترانزستر صغير موضوع على الساتر الخشبي.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بدخوله شارع الحسينية من جهة الشاخة، سيلاحظ من بعيد بأن جميع محلات الشارع مقفلة تقريباً. و ها هي الأنوار تلوح له من بعيد تشع من مكانين فقط لتنير الشارع الصغير . . دكان حسن چنگال و محل حلويات عبود الحلو الذي سُرِّحَ من المعتقل قبله بوقت قصير و إلتقاه قبل يومين . . بوصوله الى دكان حسن چنگال، سيجده هناك بجسمه الضئيل الشديد السمرة واللامع بإستمرار بتأثير دهون اللحوم التي يبيعها، جالساً على كرسي في باب المحل يطق إصبعتين متماهياً مع أغنية زهور حسين . . هذا الحلو كاتلني يا عمه . . آني شگد أحبه و أرد أكلمه . . إنت شلون عمتي . . بيّه ما إفتهمتي . . روحي كلهه يمه يا عمه يا عمه!

زاره حسن يوم إطلاق سراحه، و ظل يراه صباحاً في دكان أبيه طيلة الأيام المعدودة الماضية . . يلقي شمران السلام و لا يرد عليه حسن إلا بعد أن ينهى تماهيه مع مقطع أغنية زهور حسين، فيرحب به و السُكْر يخايله:

- هله بشمران . . ضوه منارة الحسينية . . إسمعْ . . خليني أحزر! . . شلون ما دا أشوفك إنت شكلك هسه مال واحد جاي يريد يسكر! . . تمام؟ . . . عليك علي أبو الحسن و الحسين . . دِگول؟ . . عليك فاطة الزهرة . . دِگول؟ . . جاي تسكر . . تمام؟

يا للفطنة! . . فيعلق شمران:

- و شلون حزرت؟

- شمران . . يخليك الله . . لعد إحنه وين گضينه هالعمر! . . خو مو

گـضيناه بـس نبيـع معـلاك و چـلاوي وپـاچـة مـال طلـي و لحـم مـال گِزگ!

سيماء وجهـه الخمسيني المـدور يطغـي عليـه سـمار غامق يتحـول الـى لـون مارونـي أقـرب للسـواد حيـن يسـكر، و يضيـف:

- إذا جايـب مفاتيـح المحـل . . أفتـح المحـل حتـى أعَمُّرْلـك پـَيك و تاخـذه يمـك . . هـو نـص البطـل مـال اليـوم الباقـي منـه يعَمُّرْ پــيكين . . واحـد إلـك و واحـد إلـي!

- عمي حسن . . بس للأسف . . آني ما جايب مفاتيح المحل وياي !

- يلله . . و لا يهمك! . . پيكاتنا إثنيناتنه راح تصير يمي!

ينهـض حسـن داخـلاً و يتبعـه شـمران . . فـي صـومعـة سُكْرِه راح حسـن يُعِدُّ قدحـاً لشـمران، ثـم يرتشـف وشـالة قدحـه ليسـكب آخـر مـا تبقـى مـن عـرق القنينـة فـي كأسـه، وصلهمـا مـن ورائهمـا صـوتٌ بنبـرة نـاتـرة:

- لا! . . لا . . لا يـا ظـَلـَمة! . . لا يـا ظـلّام! . . لا يـا مـا تخافـون مـن الله! . . تشـربون عـرك جـوه منـارة الله و أكبـر!

و يلتفتـان مفزوزيـن ليستطلعا المتكلـم . . كان حجـي عيـدان برهومـي معتمـد حسـينية بعقوبـة و اقفـاً ينظـر إليهمـا نظـرات ملؤهـا التأنيـب و اللـوم و التوعـد، و يضيـف الحجـي مخاطبـاً حسـن:

- ولـك حسـن چنـگـال . . إحنـه صارلنـه زمـان . . مـن مـدة طويلـة نسـمع عنـك تسكر هنـا جـوه المنـارة . . إنـت مـا تخـاف لا تـروح هـذي المنـارة فـد يـوم توگـع علـى راسـك و إنـت دا تصـّـك علـى گـلاص العـرك؟

و يجيئ رد حسن چنـگـال عفوياً:

- حجـي . . رحمـه لوالديـك! . . أولاً للبيـت رب يحميـه هـو و منارتـه! . .

و ثانياً هذي المناره اللي خليتو بيهه مو أقل من تلاثين ألف . . إذا مو أربعين ألف طابوگة . . راح يوگِعْهه ربع عرك؟ . . معقولة! . . حجي رحمة لوالديك گول غيرهه! . . لعد هذي شلون منارة هذي اللي توگعهه ربعية عرك! . . كل هذا الصريخ مال الله أكبر و قراية القرآن اللي يطلع من فوگاهه ليل نهار و بالأخير توگعهه ربعية عرگ!

يا للحِكَمِ! . . و يا للحكماء! . . خذو الحكمة من أفواه المجانين و السكارى! . . ها هو رد حسن چنگال يأتي مفحماً الى حدٍّ يَخرَسُ به لسان حجي برهوم. و شمران يحاول حبس إبتسامة سافرة داهمت محياه، بل و تراءى له حتى إن ظل إبتسامة أقل منها سفوراً جاهدت تتشفَّفُ وراء ملامح وجه الحجي العابس و لم يكن يتوقع من حسن رداً منطقياً و مفحماً، و لكنه حبسها . . و لكي يخرج الحجي من المأزِق، و محاولاً إسقاط إخفاقه بطريقة ما، يخاطب شمران قائلاً:

- و إنت إبن نزهان الأحمدي . . الحساب يصير باچر الصبح ويه أبوك نزهان مو وياك!

بمضي الحجي العابس مغادراً . . كانت زهور حسين ما تزال تغني . . هذا الحلو كاتلني و أريده . . ماخذ مهجتي و الروح بيده . . ما أصبر بعد عمه أريده . . نار العشگ كبره . . عمه شلون أصبره! . . روحي كلهه يمه يا عمه . . يا عمه!

الإنتصار الذي حققه حسن چنگال دفاعاً عن بطولة ربعية عرق مظنونة بقدرةٍ خارقة على إسقاط منارة واضح و كاسحٌ. و مع ذلك، سيعلق شمران:

- صحيح إنسدت نفسي . . بس مع ذلك ما أزال أريد أسكر الليلة و إلا راح روحي تطگ طگاگ!

- لا! . . لا! . . لا! . . أبو شمير . . شنو إنسدت نفسك! . . شنو روحك تطگ طگاگ! . . أول گوللي . . إنت خو مو تخاف تاخذ وياك مشروب للبيت؟

- تقصد . . أخاف من الوالد؟ . . لا! . . يعني شيريد يگول؟ . . هو همين چان يلطع عرك أيام زمان! . . و من كان بيته من زجاج فلا يرمين الناس بالحجارة!

- عفيه عليك أبو شمير! . . إعذرني تصورت إنت خواف!

- لا ما أخاف . . بس مو هنا المشكلة!

- عيني أبو شمير . . لعد وين المشكلة؟

- و ين راح ألگه عرگ بالهلوكت؟

- موجود . . أبو شمير . . متي أبو ناظم محله بعيد بالمحطة! . . و ذاك أبو شخان بسوگ الصياغ القديم يبيع عرگ صرمهر مگمرگ مال الحكومة . . . بس إنت عليش المصرف الزايد! . . أسعار عرگ الحكومة غالية . . تگدر تروح لو لبيت إبراهيم مغامس . . هنا قريب وره السوك . . لو لإبراهيم مساوي بربونة بيت عباس الچيال شويه غادي من الگنث . . إثنيناتهم يبيعون عرك قچغ بنص سعر عرگ الحكومة!

لا يعلق شمران، فيواصل حسن:

- حتى تروح لبيت مغامس . . هذا الشارع تكمله لحد سوك المْخَضَّر . . و تلوف يسره و بعدين تلوف يمنه . . خامس بيت على إيدك اليمنه . . بس يَمعَوَّد دير بالك لا تروح تدك على باب غير باب بيت مغامس و تسويلك مصيبة بهالليلة! . . و يطلعون عليك هدادة بالسچاچين لو بالتواثي!

في موقف من هذا النوع . . لم تكن رغبة شمران في الحصول على ربع قنينة عَرَق لوحدها هي التي حثته على الذهاب، و إنما إنضاف إليها جريه وراء عنصر مغامرة شراء العرق في هذه الليلة المليئة بالعزم . . ودع حسن و مضى بإتجاه سوق الخضراوات، و من ورائه تلاحقه نصيحة حسن محذرة إياه من الإلتباس في تمييز باب بيت أبراهيم مغامس:

- مثل ما گلتلك . . دير بالك لا تسوي مصيبة . . و لا تنسى إتدبُّر شويه لبن . . اللبن أحسن مزَّة ويه الخيار . . و يظل اللبن أحسن مزَّة حتى لو ماكو خيار!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

في البيت و ربعية العرق في جيبه . . فتح صندوق الثلج الخشبي الذي يحتفظون به بالأطعمة موضوعا في الطارمة. و إن حصل ألا يجد لبناً بموجب فتوى آية الله حسن چنگال فما العمل؟ . . لا لا لا! . . ها هو اللبن! . . و إنْ لم يتبقَ سوى القليل جداً منه في قعر كاسة الفافون الكبيرة . . سيكون كافياً . . أخرج كاسة اللبن، تذوَّقه بطارف إصبعه فصعقته حموضته . . هوَّ الزين! . . لأنه سمِع أكثر من مرة بأن مذاق الحموضة أصلح من الحلاوة في المزّة. حمل الكاسة، و سد الصندوق متوجهاً الى المطبخ للعثور على ملعقة، سيأخذها و يُيمم وجهه شطر السلم حيث يقوده الى السطح.

لم يدرِ شمران أن أخته أميرة، و منذ دخوله، كانت تراقبه من شباك غرفتها المطل على مجاز الدخول الى البيت، و لاحقته عيناها من شباك غرفتها الآخر المطل على الحوش . . و هي تراه يصعد سلم السطح، ذهبت الى أمها مستغربة تسألها:

- يوم هاي شكو الليلة؟ . . هذا شمران شيسوي بكاسة اللبن أخذهه وياه للسطح؟ . . عشاه راح يصير لبن! . . و ليش فوگ السطح؟

وتـأنُّ أمهـا و تتـنَهَدْ . . لأنهـا منـذ أيامهـا الأولـى مـع نزهـان الأحمـدي حفظت الـدرس، لِمَ يـروح زوجهـا بعـد مضـي سـاعة أو سـاعتين مـن الليـل ليبحـث عـن خيـار و لبـن و ثلـج و قـدح، فـردت علـى إبنتهـا:

- و الله . . شمدريني بنتي! . . شو هذا أخوچ طلع من السجن مسودن!

مفـردة مسـودن إلتقطتهـا صـافيـة زوجـة الأحمـدي مـن جارتهـا مسـيعيدة الشروگـيـة، فعلقـت أميـرة:

- تقصدين . . مخبل؟

- بنتـي . . مسـودن . . مخبـل . . الله أكبـر . . آنـي شـمدريني . . كلـه يـك حسـاب!

السـاعة تتجـاوز العاشـرة و النصـف، و هـو فـوق السـطح . . و هـا هـو يتذكـر، فاتَـهُ جَلْـبُ مـاءٍ و ثلـجٍ و قـدح ليمـزج الخمـرة فيَسكَـرَ و يتخلـص من طرگـاعة ضيـاع خولـة منـه بموجـب نظريـة رفيـق سـجنه أبـي ذر . . نـزل الـى تحـت، و هـا هـي خطواتـه و هـو نـازل تسـترعي إنتبـاه أمـه الجالسـة فـي إيـوان غرفتهـا تتفـرج هـي و أميـرة علـى فلـم مصـري فـي التلفزيـون . . يدخـل المطبـخ مقتربـاً مـن صنـدوق الثلـج و يخـرج قدحـاً، و فاتحـاً صنـدوق الثلـج، تناهـى الـى سـمعها تكـسيره قطـع ثلـج يضعهـا فـي القـدح و يسـد الصنـدوق و يسـرع نحـو السـلم، فقالـت لإميـرة إبنتهـا معلقـة:

- بنتـي . . هـذا أخـوچ . . هسـه بنزلتـه مـن السـطح و صعدتـه راجـع للسـطح ماخـذ ويـاه ثلـج بالـگـلاص . . ثبـت هـلال العيد!

و تفهـم الإبنـة تلميـح الأم، فينبـشّ وجههـا المغطـى بالنمـش بإبتسـامة باهتـة علـى تعليـق أمهـا، فهـي المتعاطـف الأزلـي مـع أخيهـا تعاطفـاً شـديداً فـي قصـة حبـه مـع خولـة.

ركـن السـطح هـو صومعـة قصـة حبـه التـي ضيّعتهـا السياسـة . . جالـسٌ

على سرير الجريد، و لم يكن ثمة ما يبدد صمت المكان سوى أغصان شجرة ليوكالبتوس الضخمة، تتلاعب بها الريح الشمالية الغربية، فتمر من بين فروعها فوق السطح نسمة بلمسة باردة و صوت المجموعة الغنائية لإذاعة بغداد، أو ربما من التلفزيون، يأتي من الأسفل من حوش المنزل . . مو مني كِل الصوچ أنَـهَ . . من أهلي و الله . . ظلت الروح تلوب . . يساعدها الله . . أهلي بحُكم فرعون حِكـْمَو عَليّ . . ما تـگِللي يا محبوب شطايح بيديّ! . . ملتقطاً كلمات الأغنية تأتيه من حوش البيت و تكاد تأخذها النسمة و لا تَقتنصها أذناه إلا بصعوبة . . داهمت أحاسيسَه و عقلَه صورة خولة و أشياء خولة . . تذكّر أول تماس توفَّرَ له مع خولة الصبية قبل أكثر من عامين حين إشترت والدته جهاز تلفزيون للبيت، و راحت أمه حينها تدعو خالة مسيعيدة و إبنتها كل ليلة جمعة لتشاهدا فلماً عربياً على شاشة التلفزيون و لم يحصل لهما من قبل، هي أو إبنتها، أن شاهدتا فلماًعلى شاشة سينما أو على شاشة تلفزيون . . و من هناك و أثناء مشاهدتهما الفلم، شرعت نظرات الفتى و الفتاة نحو بعضهما تؤسس خلسة لتيار أثيري يجري بينهما، و تتلبّسُ نظراتهما معنىً مسكوناً بالهيام مع مشاهدة أي تماس حميمي بين البطل و البطلة، و ستتحول نظراتهما بمرور الأسابيع الى لغة إشارات و إيماءات في قاموس غير منظور . . و سيبرعان في شيطنة مراهقتهما بالتعبير عنها بوسائل حيمية في غفلة من بيئة لم يكن من اليسير فيها على فتاة و فتى الوقوف سوية لوحدهما للتحدث لمدة طويلة، عدا إلقاء تحية متعجلة، دون إثارة مخاوف و إستهجان و إستنكار الأهل و الجيران . . ها هي صرخة الطبيعة في داخلهما تعلن عن نفسها بغفلة من المحيطين! . . و نجحا في نقل لغة الإشارة تلك الى فضاء يتجاوز لمة مشاهدة التلفزيون . . كانت خولة ولوعةً في أول كل خريف بتهيئة دكة نافذتها الداخلية العريضة نسبياً لزراعةِ زهورِ النرجس الشتوي في أصصٍ تضعها على دكة نافذة غرفتها المطلة على الدربونة تتركها في الفضاءِ الضيق بين زجاج النافذة و الستارة المتدلية على الشباك . . التيار الأثيري بين روحيهما بدى و كأنه قادرٌ على تحويل نظراتهما الى لغة صمت . . و

لـم يكـن شـمران يسـتطيع الوقـوف أمـام نافذتهـا و لـو لثـوان، فيكتفـي بالنظـر اليهـا مُبطِئـَـاً فـي سيره عنـد مـروره مـن أمـام نافذتهـا، و هـي تتفقـد نباتاتهـا الصغيـرة تتفتـح، بمـرور الأسـابيع، زهـراً . . يراقبهـا لثـوانٍ تشـم زهورهـا البيـض الوليـدة بحركـة فيهـا دلالات لا يَفُتـُـهُ علـى الإطـلاق فهمهـا الفهـم الـذي تبغيـه، فيتفتـت قلبـه عشـقاً. و مـع ذلـك، هوحريـصٌ علـى ألا يسـبب لهـا حرجـاً فـي الطريـق و هـي ذاهبـة الـى المدرسـة كـي لا ينفضـح سـرهما . . الحفـاظ علـى الخصوصيـة هـو لـب النشـوة . . سـرهما عنـده هـو كنـزه الوحيـد الثميـن! . . ظـل عذابـه تداويـه حـلاوة الزهـر و قلقـه يداويـه حبـور وجـه خولـة، أمـا هيامـه فقد ظـل لا يداويـه شـئ! . . و طيلـة الشـهرين اللذيـن ظـل الزهـر ينمـو فـي نافذتهـا، ظـل هـو تنمـو نظراتـه المكحلـة بالشـوق تجـاه خولـة فينمـو أثنائهـا شـئٌ خفـيٌ . . النظـرات الواعـدة لا تخُطِـئ أبـداً! . . تشـجع يومـاً عاقـداً العـزم علـى أن يتـرك لخولـة فـي شـباك غرفتهـا أول رسـائله كتـب فيهـا بحـروف كبيـرة كلمـة واحـدة I LOVE YOU . . العبارة التـي تعلمهـا مـن الأفـلام مـلأت الصفحـة بالتمـام، عـدا مسـاحة صغيـرة فـي إحـدى زوايـا الورقـة كتـب فيهـا إسـمه بالإنكليزيـة أيضـاً . . و ذات صبـاحٍ و الدربونـة خاليـةً مـن المـارة، خـرج فـي الوقـت المحـدد لتفقـُدِ الزهـر . . راحـت مثلمـا تفعـل كل يـوم تراقبـه بفضـول، و بهتـت حيـن رأتـه يتقـدم بجـرأة نحـو نافذتهـا ليحشـر الرسـالة، و يـده ترتجـف، فـي فتحـة صغيـرة ضيقـة جـداً بيـن درفتـي الشـباك الخشـبيتين، و ينسـحب مسـرعاً قبـل أن يـراه أحـدٌ . . و هـا هـو يمضـي شـهر قبـل أن تـرد علـى رسـالته بمثلهـا، يمارسـان الهيـام بالنظـر لبعضهمـا . . هيـام لا تداويـه النظـرات! . . و ذات يـوم دخـل البيـت ظهـراً، و سـيجلب إنتباهـه أُصَيصـان مـن زهـرِ النرجـس أسـفل جـذع شـجرة ليوكالبتـوس، فيتوقـف عندهمـا . . كانـت أمـه فـي الإيـوان المقابـل جالسـة تنظـف رؤوس بصـل أخضـر، فقالـت لـه:

- هذني هدية من خولة!

حـرص ألا تظهـر منـه ردة فعـل تفضـح أمـرا مـا، لا بإشـارة و لا بكلمـاتٍ . . لا تعليـق! . . و يداهمـه شـعور بالبهجـة و هـو لـم يـدرِ بعـدُ أنهـا بالإضافـة

الـى أصيصـيِّ الزهـر، كانـت قـد ردت علـى رسـالته بمثلهـا بخـط عربـي جميل كتبت فيهـا كلمـة . . أحبك . . و زيَّنَـتْ زوايـا الورقـة برسـوم زهـور النرجس الملونـة بالأبيـض و الأصفـر . . رسـالة بورقـة بيضـاء فـي ظـرفٍ و معهـا زهـرة نرجس وجدهـا محشـورة بين درفتي شـباك غرفتـه الملاصقـة لغرفتها، جلبـت إنتباهـه، و طـار الـى الظـرف ينتزعـه بسـرعة مـن بيـن درفتـي الشـباك الخشـبيتين. يفتـح ظـرف الرسـالة فيحدِّثـهُ قلبـه . . يـا هـذا . . هـا هـو الـرد! . . كأن قصـة غرامهمـا إحتاجـت وقتـاً كـي تنضـج علـى نـار هادئـة . . بعدهـا، و كـي يداوي هيامـه، كيـف سـيقنعها بلقـاء ليلـي فـوق سـطح المنـزل؟ . . إحتـاج لأسـابيع يكتـب أثناءهـا رسـائل مسـهبة يصـف بهـا نعيـم لقـاء المحبيـن مسـتعيناً بعبـارات ملتهبـة و مشـجعة إقتبسـها مـن الكتـب التـي يقرأهـا، و تـرد هـي عليهـا برسـائل مقتضبـة خائفـة متـرددة مليئـة خشـيةً . . ظلـت مكاتيبـه لخولـة التـي تصغـره بعـام و لـم تكمـل الدراسـة المتوسـطة بعـد، تختـرق نافذتهـا يوميـاً تقريبـاً، و تـرد هـي كل يوميـن أو ثلاثـة بواحـدة . . البريـد بينهمـا يتواصـل يرافقـه شـمُّ زَهـرِ النرجـس الشـتوي مضمخـاً بآهـات صـارت تمـرق كأنهـا لهـبٌ عبـر النافذتيـن . . النافذتيـن المتلاصقتيـن المطلتيـن علـى الدربونـة فـي بيتيـن متلاصقيـن أحدهمـا فـي غرفتـه و الآخـر فـي غرفتهـا صـارتـا بوابتـي دنيـا الحـب المضطـرم بمشـاعرهما و أحاسيسـهما و هـي تتحـول الـى شـحنات أثيريـة تمـرق تـارة علـى الـورق و تـارة بأنفـاس يتلقفانهـا عنـد لقائهمـا . . و بـات حرصهمـا شـديداً علـى ألا ينفضـح مـا بينهمـا و همـا بيـن أسـرتيهما يشـاهدان فلمـا عربيـاً فـي إيـوان أمـه صافيـة . . الحاجـة الـى الأمـن و الأمـان مهمـة فـي موضـوع خطيـر مـن هـذا النـوع! . . و همـا يتبـادلان رسـائل تـدور حـول لقـاء مقتـرحٍ، صـارا يتصرفـان أمـام الجميـع و كأنهمـا لا يعرفـان بعضهمـا . . و أخيـراً و ذات يـوم أثمـر إلحاحـه بإقناعهـا بلقـاء فـوق سـطح المنـزل، جـاءه الـرد . . نعـم! . . و تحـددت سـاعة اللقـاء فـي وقـت يكـون الجميـع فيـه قـد نامـوا . . فـي بيتـه كان الجميـع يهجـع الـى النـوم بعـد إنتهـاء برامـج التلفزيـون، و فـي بيتهـا قبـل ذاك الوقـت بسـاعة أو سـاعتين، حيـن يعـود أبوهـا حسـين حـوار سـكراناً و يأخـذ مسـيعيدة ليلفهـا بأنفاسـه المشـبعة برائحـة الخمـرة، فتسـكر هـي الأخـرى ربمـا بنوعيـن مـن الخمـرة . . سُـكْرٌ

ايجابـي و سُـكرٌ إيجابـي! . . و تظـل خولـة وحدهـا فـي غرفتهـا و حيدةً تُشـغِلُ نفسـها بقـراءة أو تطريـز . . و ذات ليلـة، و قـد تجـاوز الليـل نصفـه، مـن ليالـي أواسـط كانـون الثانـي، و مسـتعداً عنـد الطوفـة التـي بيـن سـطحيهما، يتطلـع مـن فوقهـا نحـو فتحـة السـلم فـي سـطح بيتهـا و القمـر ينشـر ضـوءه الفضـي، بـان لـه خيـال قامتهـا الرشـيقة . . كان علـى إسـتعداد لعبـور طوفـة السـطح وصـولاً الـى سـطح بيتهـا، لكنهـا إقتربـت مـن الطوفـة مسـرعة لتقـول لـه هامسـة أنهـا هـي التـي سـتعبر إليـه . . يـا للجـرأة! . . أدهشـته جرأتهـا غيـر المتوقعـة . . و وافـق طائعـاً وراغبـاً و مرغمـاً . . سـحبت سـرير جريـدٍ مـن سطح بيتهـا نحـو الطوفـة و إسـتعانت بـه لعبـور الطوفـة، فتلقهـا فـوراً مسـتعيناً بسـرير جريـد علـى سـطحه سـحبه نحـو سـتارة السـطح . . و دون أيـة مقدمـات غرقـا فـي بعضهمـا لا يعرفـان للوقـت حسـاباً، ثـم إنتزعـت نفسـها منـه قائلـة:

- آنـي اليـوم . . چـنت صايمـة . . مـا أگـدر أتأخـر هوايـة . . حتـى أنـزل أسـوي سـحور!

- صايمة!

- أي حبيبـي . . إحنـه بنـص شـعبان . . بعـد أسـبوعين و يجـي رمضـان . . آنـي و أمـي معتاديـن نصـوم شـعبان كل إثنيـن و خميـس!

- فيستدرك هو:

- إي صحيـح! . . فاتتنـي شـغلة الصيـام بشـعبان! . . مشـغول بهـواچ! . . أمـي و أميـرة هميـن صايميـن!

و يغرقـان فـي بعضهمـا ملتحميـن مـرة أخـرى لا يدريـان كـم مـرّ مـن الوقـت، و إنتزعـت نفسـها لتغـادر . . عشـوائية الحميميـة لـم تطفـأ ظمأهمـا! . . و سـاعدها علـى تسلـُّقِ سـرير الجريـد و هـو يسـتمتع بملمـس جسـدها الناعـم . . مـن فـوق السـرير الـى السـتارة ثـم الـى سـرير الجريـد فـي السـطح الآخـر.

- تصبح على خير!

- تصبحين على خير . . الى لقاء!

بـرودةُ الجـو زمهريـرٌ علـى سـطح المنـزل . . البـرد فـي لقائمهـا الأول كان غائبـا تمامـاً و لا وجـود لـه في قلبيهمـا المضطرمـين رغبـةً. فـي لقائهمـا الثاني بعـد يومين، إلتصقـا ببعضهمـا لمـدة أطـول و دون فكاك. و هـا هـي أنفاسـهما تختلـط وقوفـاً أو جلوسـاً علـى سـرير الجريـد لكـي تكـون نفسـا واحـدا. و هـي فـي حضنـه تودعـه، فكـر فـي حـلٍّ، يقيهمـا البـرد . . فـي لقائهمـا التالـي بعـد ثلاثـة ليـال، سـاعد خولـة فـي عبورهـا إليـه، فتتفاجـأ بدوشـگ قطنـي فـوق السـرير و فوقـه لحـاف و بطانيـة . . فـي البدايـة تمنعـت، و بعـد خدرهـا فـي حضنـه و قوفـاً و إصـراره علـى شـمِّ جسـدها مـن رقبتهـا، طاوعتـه بالذهـاب الـى الفـراش، خلاصـاً مـن البـرد و طمعـاً فـي المزيـد مـن البهجـة . . الـدرب الملكـي للمتعـة و النشـوة! . . و هنـاك تحـت اللحـاف، جُـنَّ عنـد رؤيتـه لنهديهـا المكوريـن الصغيريـن الممتلئيـن حيـن إنكشـفا فـي ضـوء القمـر . . يسـتمتع بمرآهمـا و يقبلهمـا برقـة. رآهمـا كأنهمـا همـا اللـذان يشـعان نـورا الـى القمـر و ليـس العكـس . . و هـا هـي تكشـف لـه عـن جسـدٍ تقاطيعـه الجميلـة تأخـذ لبَّـه، و سـرعان مـا سـيتحول تعلقـه بهـا الـى جنـون و عبـادة . . و يحـدث نفسـه أحيانـا و هـي فـي حظنـه . . ألا يقولـون أن الله موجـود فـي كل مـكان و فـي كل شـئ؟ . . و أسـمعهم يقولـون أيضـا إن الله محبـة! . . هـذا هـو الله سـاكن عنـد خولـة! . . كونـه و مجراتـه و شموسـه و أقمـاره و شـهبه و نيازكـه و جبالـه و و وديانـه و محيطاتـه و ينابيعـه . . حبـور الحـب! . . و يـروح متماهيـا فيمـا خلقـه فـي مخيلتـه مـن تصـور عـن علاقـة نهديهـا و القمـر بالنـور. . هـا همـا نهداهـا يتـرآيـان لـه كأنهمـا همـا اللـذان يشـعان فيكشـفان لـه عـن ملامـح وجههـا البيضـوي الأبيـض الجميـل الخـارق بتقاطيعـه الناعمـة و بشـفتين ظلتـا، مـا أن يقبلهـا، يفيضـان رضابـاً فـي فمـه، فتـذوب روحـه مـع كل قطـرة رضـاب . . هـا هـي الجنـة! . . مـن قـال أن الجنـة عرضهـا السـماوات و الأرض؟ . . فهـا هـي عرضهـا و طولهـا عـرض و طـول سـرير الجريـد الـذي تحتهمـا! . . و صـارا مـا أن تأتـي إليـه يعيـش معهـا فـي عالـم مـن السـحر! . . و مـا كـان ليـدري أنهـا إضافـة لجرأتهـا سـتذهلته بحـلاوة و دفء وجودهـا رغـم بـرد

ابالـي الشـتاء! . . و يتكـرر لقاءهمـا . . و مـن شـدة إنغماسـهما بالحـب و نعيـم اللـذة أنهمـا، حيـن جـاء رمضـان شـهر الصيـام و كانـا قد إعتـادا علـى صيامـه سن قبـل، وجـدا أن الوقـت قـد فـات علـى التفكيـر فيمـا كان يعـده الآخـرون حرامـاً أو حـلالاً، و ظلـت تأتيـه كل ليلتيـن أو ثـلاث . . و إسـتمرا حتـى ليلـة اعتقـال شـمران مـن لـدن ميليشـيا الحـرس القومـي البعثيـة فـي العاشـر مـن شباط و كان قد مـر مـن رمضـان سـتة عشـر يـومَ صيـام . . و فـي تلـك الليلـة وحسب كانـت قـد تجـرأت و سـألته:

گـولي شميري . . شوكت راح نتزوج؟

نجـنَّ . . و هـو يسـمعها تدلعـه . . شـميري! . . و تطلـب إليـه الـزواج! . . و سيتذكرها و يبكـي حسـرة حيـن سـيغني لـه رفيـق سـجنه . . يـا شـميري بطِّـل النـوح! . . و هـو يقبلهـا رد عليهـا بجـواب متقطـع كل كلمـة تليهـا قبلـةً . .

- عزيزتـي . .خولتـي . . غزالتـي . . هـذا . . الموضـوع . . أيضـا . . شـاغلني! . . راح أفاتـح أبـو أميـر . . و أم أميـر . . مـن يخلـص رمضـان . . بـس إنـتِ . . ليـش هالـگـد . . مسـتعجلة؟

تريد الصدگ؟

أي!

شـميري . . إنـت مـو تـدري آنـي وحيـدة أهلـي . . أريـد أشـوف خلفتـي منـك . . ولـد يشـبهك نسـمي نزهـان! . . بنـت تشـبهك نسـميها نرجـس!

نرجـس؟ . . يـا لهـذا النرجـس! . . شـنو هالجنـون بالنرجـس؟ . . مـو أختـي أميـرة عندهـا بنوتـة إسـمهه نرجس!

و ترد عليه بدلال:

و إحنه شعلينة بنرجس مالت أختك!

ها هو الآن . . على سرير الجريد يتحسَّرَ و يكاد قلبه أن يفرَّ من صدره بزفيره الملتهب . . فتح قنينة العرق و راح يسكب منها فوق ثلج القدح، و فطن الى أنه نسي مرة أخرى أن يجلب ماءً ليمزج بها خمرته. و لكونه سمع كثيراً عما يسمونه . . شرب سادة[40] . . كرع الخمرة دون مزجها بالماء، تجاوز الأمر بالإكتفاء بالثلج مازجاً و مُبَرِّداً . . يرتشف من القدح بحذرٍ و بُطءٍ شديدين، صدمته أول الأمر مرارة الخمرة، فعاجلها بلطعة لبن صغيرة حامضة من الملعقة . . فيرى أن عليه الإقتصاد في اللبن لشحته في الكاسة! . . ألا يقولون بأن الله خلق العالم في ستة أيام و زعم البعض أنه في اليوم السابع إستراح . . آخرون زعموا أنه في اليوم السابع جلس على عرش عند سدرة المنتهى؟ . . ها هي إعادة الخلق الكاريكاتيرية لقصة حبي مع خولة قد فات منها ست ليال و ها أنا أجلس على عرش الخيبة في ليلة سابعة! . . في حرماني ها أنا ذا و ها هي ليلتي السابعة هنا . . جالس على كرسي الحرمان و عازم على أن أستريح من إعادة خلقي لخيبة حبي! . . هذي الطرگاعة! . . يا خولاه! . . ليت الكرى يَخطُرُ في عينيَّ كي أرتاح! . . و ظل يرتشف . . كيف يخطرُ بعينيه الكرى! . . كان القمر بضوئه منادمه الوحيد أيام كان ينتشي بخمرة خولة . . تـُظهِرُ له نهديها فيعتصر منهما بنظرة خمرةً سكرهِ، ذوابةٌ فيه عطرها فيرتشفه، و تذوب روحه في كأس وجوده الفريد . . أما الليلة فالخمرةُ ليست هي الخمرةَ . . و ها هي خمرة الليلة طعمها مرٌّ . . مرٌّ و بلا نديم في ليلة يشتد سوادها . . و الخمرةُ ليست هي الخمرةَ! . . تلك فاضت حلاوة و هذي تقطر مرارة! . . و تلك كان يخرج من لحظاتها خليّاً و ممتلئاً و راضياً بالكامل بما يعينه على تحملِّ صعوبات النهار الذي يلي ليلة العشق و النشوة . . و ها هي ذي خمرة الليلة تغرقه بجوع و سخط و أسى! . . متذكراً حلاوة خمرة جسد خولة، و يائساً من مجيئ خولة، متذكراً كيف كانت تعبر بلهفة الطوفة بين السطحين مستعينة بسرير جريد نخل هناك و سرير جريدٍ هنا، قافزة

٤٠ «يشرب سادة» قول متداول بين شاربي الخمرة و يعني شرب الخمرة دون مزجها بالماء

عليه تحتظنه بل تركبه أحيانا. قام و سحب السرير الذي ها هنا لُصقَ الجدار، تاركاً مسافة أكثر من متر بين السرير و الطوفة، و جلس مقابل جدار الطوفة . . و رشفاته تتسارع لغاية أن أنهى قدحه الأول . . يا ويحي أنا مني! . . و أين الطبيب الذي يعاينني فيداويني! . . قال لي أبو ذر العرق هو المداوي! . . كان الخدر قد تمكن منه تدريجياً و هو يسكب من زجاجة الخمرة في قدحه. و إذ كان الثلج الذي في القدح قد ذاب و تلاشى مع كأسه الأول، منعه خدره من التفكير في النزول لجلب ثلج إضافي، فسكب ما تبقى في الزجاجة كلها دفعة واحدة، فإمتلأت الكأس تقريباً. و إذ لم يتبق من اللبن الشحيح الموجود في كاسة الفافون شيئاً أيضاً، راح يشرب على طريقة . . شُربْ سادة و المزّة جِمِعْ . . مثلما هو شائع بين المستخمرين!

و من لهفته للألم سيجد نفسه في سباق مع كأسه لبلوغ السُكرِ . . و سرعان ما تعتعه السكر:

- . . هْوع! . . هُوع! . . هُوع! . .

و بالكاد يحتمل جوعه بسبب شربُه السريع للخمرة فضاعف من إحساسه به . . ثم و ما تزال نشوته المتعثرة بالجوع تتصاعد، إشتد إلتياعه بسبب خسارته غير المتوقعة للحظات النعيم التي كان يبحر فيها، و حلم بها و هو في المعتقل تبريه من عذاب السجن . . يا للوعد الخائب! . . شخص بناظريه نحو الطوفة متصوراً فضاء ما وراء جدار السطح و من وراء الطوفة، فخايله شكل سرير الجريد الذي كانت تتسلقه خولة وصولاً إليه، و راح ينشد بصوت مسموع مشيراً بيديه نحو سطح بيت حسين حوار المجاور:

- . . لِخَولةَ أطْلالٌ بِبُرقَةِ ثهمَدِ . . .تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ . . هوع! . . هوع! . .

لم يكن قد مضى سوى سنة و نيف على كتابته لقصيدة طرفة بن العبد

في إمتحان البكالوريا و حكايته مع خولة حبيبته الضائعة هي التي أذكت ذاكرته بالقصيدة، فإحْتـُيِّيتْ القصيدةُ في وجدانه، و رسخ ما دَرَسَهُ منها و ظل عالقاً و حاضراً:

- .. هُوع! .. هُوع! .. بروضة دعميٍ فأكناف حائلٍ .. ظللت بها أبكي وأبكي إلى الغدِ .. هُوع! .. وُقوفاً بِها صَحبي عَلَيَّ مَطيَّهُم ..

متعتعاً من السكر تذكَّرَ أنه جالسٌ على سرير جريد النخل، و لزومَ الموقف في إنشاد البيت يتطلب وقوفاً لا جلوساً .. يتماسكَ متكئاً بيده على السرير، فينتصب واقفا شاحذاً صوته:

- .. هُوع! .. هُوع! .. وُقوفاً بِها صَحبي عَلَيَّ مَطيَّهُم .. يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَ تَجَلَّدِ .. هُوع! .. خذولٌ تراعي ربرباً بخميلةٍ .. تناول أطراف البريرِ وترتدي .. هُوع! .. هُوع!.. و وجهٍ كأن الشمس ألقت رداءها .. عليه نقي اللون لم يتخددِ.

و يتذكر وجه خولة الذي كان يراه منيرا بشعاع نهديها:

- هُوع! .. وإني لأقضي الهمَّ عند إحتضاره .. بعوجاء مرقالٍ تروح و تغتدي .. هُوع! ..

و يخطر في باله أن يلتفت ليتأمل السرير الذي كان يوما ما سفينة إبحاره في محيط نشوة لا تـُداني، فتصوره عوجاءه:

- هُوع! .. أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةْ .. و ما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ .. هُوع! .. وأياسني من كلِّ خيرٍ طلبتُه .. كأنّا وضعناه إلى رمس مُلحَد .. هُوع! .. و ظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً .. على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهنّد .. هُوع! .. هُوع! .. فإن مُتُّ فأنعيني بما أنا أهلهُ .. و شُقّي عليَّ الجيبَ يا أبنةَ معْبد .. هُوع! ..

و يتذكر ما أوحتبه له خالة مسيعيدة أول المساء عن ذهاب خولة مرغمة

.. و لسانه يتلعثم بالكلمات صرخ بأعلى صوته:

- شُقّي عليّ الجيب يا إبنة حسين حوار! .. شُقّي! .. شُقّي الجيب! .. هُوع! .. هُوع! .. هُوع! .. و لا تَجْعَلِيني كامرىءٍ ليسَ هَمُّهُ .. كهمّي ولا يُغني غنائي ومشهدي .. هُوع! .. هُوع! .. هُوع!

و لا يتحمل المزيد من شعوره بالجوع و الأسى و الخسارة .. منحنيا لسيتفرغ ما في معدته، كاد ينكب على وجهه ساقطاً في حوش البيت .. و سرعان ما فاحت رائحة الخمرة ممزوجة بالقيء و إمتلأ بها جو السطح، فيأتيه صوت من ورائه يخاطبه:

- ها زوَّعتْ؟ .. إرتاحيت؟ .. فرَّغِتْ الموجود بمعدتك و براسك؟

الصداع الذي خلّفه السكر مُشّدِّداً معه ألم الإستفراغ، و يلتفت ليجد أمامه أباه الذي لم يمهله كثيراً، فأضاف:

- إبني .. نحمد الله لأن الجو بارد و ما ظل أحد نايم على سطوح البيوت، و إلا چان هذا الخطاب مالك و القصيدة اللي گلتهه گبل شويه صارن فضيحة! .. مو عيب إبني! .. أشو إنت طلعت من السجن مخبل!

و لأنه ما يزال يتذكر ما قالته أمه عن معرفة أبيه بحكاية خولة و الليل و القمر، رد على أبيه:

- مخبل! .. ليش مخبل؟ .. مخبل لأن آني چنت بالسجن حقي ضايع .. و طلعت بره السجن لگيت حقي ضايع!

و يتحير أبوه بالإجابة معلقاً:

- إبني .. يعني إنت چِنِت شرايدنه نسوي حتى ما يضيع حقك بره السجن؟

- چـان من سمعتو جـاي واحـد مـن الناصريـة يخطـب خولـة تروحـون و تخطبوهـه إلـي!

- أخطبهـه إلـك!.. هـو هـذا حـچـي مـال عقّـال!.. يعنـي شـلون أروح أخطبهـه؟.. يعنـي چـان أروح أگـول لأبوهـه.. أريـد أخطـب بنتك لإبني المسجون و مـا أدري شوكت يفكونـه مـن السجن؟.. أبنـي إنـت و غيـرك چـان مصيركـم مجهـول بالكامل!

- لا!.. بـس چـان بإمكانـك تعتمـد علـى فعـل الزيـن اللـي چِـنتْ و مـا تـزال تسـوي لحسين حوار أبوهـه!

شـمران يعلـم بـأن رِزقَ حسـين حـوار والـد خولـة يعتمـد كثيراً علـى أبيـه الـذي كان يشـتري البضاعـة لحسين حـوار مـن العلـوة و يقـوم حسين حـوار ببيعهـا و تسـديد ثمنهـا لأبيـه دون أيـة فائـدة يتلقاهـا أبـوه.. و كأنـه بذكـره لفعـل أبيـه الزيـن لحسين حـوار قـد أعطـى لأبيـه فرصـة الـرد المُستنكر و المفحـم فـي آن:

- هـا؟.. شنو؟.. شـگـلـت بـالله؟.. تحـچـي عـن الزيـن اللـي أسـوي لأبوهـه!.. إنـت شـلون شـيوعي؟.. مـو إنتـو الشـيوعية اللـي علـى طـول تـحـچـون عن عدالـة ضايعـة؟.. لعـد ويـن العدالـة الضايعـة اللـي إنسـجنت إنـت علمودهـه و ظلـت ضايعـة؟.. يعنـي الشـيوعية تسـمح لواحـد يـروح و يرهـن مصيـر بنـت شـابة بالمصيـر المجهـول مـال إبنـه المسجون.. حتـى لـو إنـت إبنـي و مـن صلبـي!.. يصيـر أروح أرهـن مصير البنـت لأن آنـي دا أسـوي لأبوهـه عمـل إنسـاني زغيـرون كل يـوم؟.. چِـنتْ إنـت تحبهـه و هـي تحبـك علـى راسـي!.. و تونَسِـت وياهـه و بالعافيـة و علـى راسـي!.. لـو تحبهـه صـدك چـان المفـروض تتقبّـلْ الوضـع لأن هـي حسـب علمـي راحـت لنصيبهـه!.. و حسـب علمـي راحـت لنصيبهـه غرگـانه بدموعهـه!.. لعـد ويـن الإنسـانية؟.. ويـن العدالـة اللـي تـحـچـي بيهـه الشـيوعية!.. ليـش مـا حسـبت حسـابك؟..

هـو شـنو اللـي ضيّـع بنـت حسين حـوار منـك غيـر هـذي شـغلة البعثيـة و الشـيوعية!

السـكر و الدوخـة مـا يـزالان يخايلانـه . . عـدا مـا رسـب فـي بالـه بسـبب مـا حصـل لـه و لرفاقـه فـي المعتقـل مـن أذى، نـوى أن يفـرغ مـا فـي قلبـه مـرة واحـدة ليقـول لأبيـه . . إنتـو بـس چـنتو مسـتعجلين علـى تزويـج أختـي أميـرة مـن هـذا غايـب اللـي مـا يسـتاهلهه! . . لكـن بشـغلتي ظليتـو تضربـون أخمـاس بأسـداس! . . و يقـرر أن يمسـك لسـانه . . فـرد علـى أبيـه معلقـاً:

- تريد الصدک؟

- يلله . . . گـولْ!

- لعنة على السياسة و أبو السياسة!

بسـمع أبـوه شـتيمته للسياسـة، و كأنهـا إعتـراف منـه بـأن إنشـغاله بالسياسـة هـو مـا أضـاع خولـة مـن يديـه، و يعلـق الأب:

- إبنـي . . و تريد إنت همين الصدگ؟

- أي!

- إحنـه أصـلاً چـنه خايفين و إيدينـه علـى گـلوبنه مـن إجـو أهـل الناصريـة يخطبوهـه . . و بوقتهـه چـنه نتمنـى لـو ماجييـن . . وچـنّه نتمنـى مـا تتـزوج و تظـل تنتظـر!

- ليش؟

- لأن آنـي چـنت خايـف منـك . . خوفـي مـن إحتمـال چـنت مسـوي شـغلة چـبيرة سِـگـَطْ ويـه البنيـه . . أقصـد چـنه خايفيـن لا تكـون مدندل السـطل بالبيـر! . . و بوقتهـه آنـي خفـت يـروح رجلهـه بليلـة الدخلـة يكتشـف هـذي الشـغلة السِـگـَطْ و تـگـُـبْ العيطـة و هذولـه الشروگـية مـال الناصريـة

إيدهم و السچين و الخنجر و المسدس و يروحون يذبحونهه للبنيه .
. . لكن من شفنه بعد مرور أشهر من زواجه ما گَبَتْ أي عيطة
إرتاحينه و أمنّا و برد راسنا!

ما يزال دائخا . . أهل أبوه بحاجة للتأكد من إن إبنه لم يتجاوز حد الدم كي يطمئن، فعلق:

- سَدَّكْ يمين . . چنت أعرف حدودي! . . و لا نزل سطل بالبير و لا هم يحزنون! . . تعرف ليش؟

- ليش؟

- لأن آني چنت أحبهه و أريد أتزوجهه . . لأن آني أعرف التجاوز يسبب أضرار و أذى . . لهذا چنت محتسب!

يسمع أبوه هذا التأكيد . . فيحس الأب و كأن أمرأ جللاً أزيح عن كاهله تماماً. و لربما أدرك أيضا أن إبنه قد يكون صحى على حقيقة جديدة، فيتركه في وقفته في ظلام الليل و سط السطح خاسراً و مخذولاً و ضائعاً، و يتَجِهَ نحو السلم نازلاً.

يظل شمران واقفاً لحين، ثم يرجع الى سرير الجريد . . أين أنت يا ليالي القمر حين كان صُبحُكِ ينبلج فأكون خلياً من الهموم و راضياً! . . الجو يزداد برودة مع إشتداد هبوب نسمات أواخر تشرين الثاني الليلية، و يتحول ما بقي من سكر في رأسه الى مجرد دوخة و صداع و رغبة طاغية في النوم، فيستلقى تلقائياً هناك على عيدان سرير الجريد الصلبة العارية.

قد يكون أغفى ربما لساعة أو أكثر . . و ستوقظه لسعات البرد. و قد صحا قليلاً من آثار الخمرة، و إن كان ما يزال يعاني من فراغ معدته، ينهض و معدته تكاد تتقطع و يكاد أن يغمي عليه . . ينزل من السطح متهالكاً و يدخل الحمام . . يتعرى جالسا، فاتحاً الحنفية تسكب ماءها في

الحـوض السـمنتي الصغيـر. و مسـتعيداً لبعـض نشـاطه بسـكب المـاء البـارد علـى جسـمه، يصوبـن جسـمه و يعـود ليصـب المـاء علـى رأسـه و جسـمه، مـا حـرره قليـلاً مـن شـعوره البالـغ بالغثيـان.

فـي غرفتـه، إسـتلقى علـى فراشـه و ظلـت الغفـوة تغالبـه ممزوجـة بمحيّـا خولـة و محيّـا رفيـق سـجنه أبـي ذر لغايـة أن إستسـلم لهـا.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

يسـتيقظ و الوقـت ضحـى . . هـا بويـه أبـو ذر هـذي هـي ربعيـة العرك و طـگـيناه! . . و آنـي دَأشـوف مـا إنحَـلّ مـن الطرگــاعة غيـر نصهـه مـو كلهـه! . . لكنـه علـى الأقـل أحـس بـأن تغييـراً حصـل علـى درب الخـلاص مـن الطرگــاعة! . . و كأن جلوسـه لليلـة سـابعة على سـرير الحرمـان بالأمس كان فيـه إعتـراف بالخسـارة و تطهيـر مـن عقابيلهـا. سـيتناول فطـوره و أمـه تراقبـه بيـن شـك و رضـا. و قبيـل الظهـر يغـادر البيـت الـى معهـد المعلميـن، ثـم يعـود ليخبـر أبـاه بأنـه سيلتحق بـدورة تربويـة لمـدة عـام دراسـي يتخـرج بعدهـا معلـم إبتدائـي . . و بذلـك سـيظل معـه فـي العمـل عنـد عودتـه مـن المعهـد و أثنـاء العطـل.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

أواخر صيـف عـام 1964 . . تخـرج شـمران فـي معهـد المعلميـن. و سـينتظر هـو و الخريجـون مـن الـدورة لشـهرين أو أكثـر و لا يُبـتّ فـي أمـر توظيفهـم وسـط إشـاعات بعـدم رغبـة حكومـة رئيـس الـوزراء طاهـر يحيـى بتعييـن خريجـي الـدورات التربويـة التـي غطـت جميـع ألويـة العـراق . . و يتلقّـف شـمران خبـر عـن إتفـاق خريجـي الـدورات التربويـة مـن جميـع أنحـاء العراق بالتجمـع أمـام وزارة التربيـة فـي القشـلة للتجمهـر و الإحتجـاج و المطالبـة بتوظيفهـم فـي سـاعة معينـة فـي يـوم معيـن.

فـي اليـوم المحـدد . . إجتمـع المئـات مـن الخريجيـن أمـام مبنـى وزارة التربيـة.

فمن ذا يا ترى دعى الى تجمهرهم وكان وراء حشدهم أمام وزارة التربية؟ . . لا أحد يدري! . . أبجهود فردية إحتشدوا أم بجهود تنظيمية من جهة مجهولة لم تُرِدْ أن تسفر عن وجهها؟ . . لا أحد يدري! . . إجتمع الخريجون و حوالي الثلث منهم كان من جنس الإناث. و بتأثير الضغط الذي أحدثوه على الوزارة، و عند الظهر سيفاجئ المحتشدين رئيس الوزراء طاهر يحيى بظهوره أمام وزارة التربية و التعليم العالي . . و لكي يفسحوا مجالاً و يوسعوا الطريق لمرور موكب رئيس الوزراء، دفع حرس الوزارة الخريجين المتجمهرين بالمناكب.

داخلا مبنى الوزارة . . يفاجأ رئيس الوزراء الخريجين المتجمهرين بسباب و شتائم بذيئة يطلقها لسانه ضد المحتشدين في القشلة و كأنه يحدِّث نفسه:

- هذوله شيريدون؟ . . بيش نعينهم! . . منين نجيبلهم فلوس و رواتب؟

ثم يستدير مشيراً الى البنات المتجمهرات على يمين الحشد:

- إنتن ليش ما تروحن تتزوجن و تسوَّن بيوت!

و يلتفت نحو المحتشدين الذكور، صارخاً:

- و إنتو روحو إشتغلو بالعمّالة . . البلد محتاج عمال مو معلمين . . ماكو فلوس! . . منين نجيبلكم رواتب؟

ثم يتوجه رافعا ذراعيه مخاطباً جمع المعتصمين مباشرة:

- ماكو فلوس . . روحو إشتغلو!

و حين إستدار مولياً ظهره ليدخل الوزارة، سرى من بعض المعتصمين القريبين من باب الوزارة أنهم سمعوه يتفوه بآخر عبارة له:

- سرسرية و گحاب . . بِيهم واحد طاهر! . . نصهم شيوعية و نصهم الآخر عفلقية!

و سرعان ما أثارت البذاءة المزعومة ضجة بين المعتصمين، و من بينهم إنطلقت بضعة أصوات محتجة على لهجة رئيس الوزراء:

- ما تستحي؟

- أبو فرهود[41] . . مو عيب على كرشك!

- مو إنت رئيس وزراء!

- أبو فرهود!

لدرجة أن أحد المعتصمين صاح دون خشية:

. . إنت إسم على غير مسمى . . و لو إلك من إسمك نصيب ما چان تجرَّأتْ و تحچيت هالحچي!

و ها هي عبارات الإحتجاج تنتشر . . واضح أن رجال الشرطة و الأمن الموجودين سيتأهبون لرد المعتصمين بعد أن جاءهم مدد من الدوائر القريبة . . أسباب التوتر متوفرة، الكل متوفز للعدوان أو الرد . . و قبل أن يستفحل الأمر الى صدام من نوع ما و محاولة الخريجات الإناث أثنائها الإفلات و الفرار قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه، ها هو وزير التربية يخرج بعد نصف ساعة ليعلن أن الجميع سيجري توظيفهم و عليهم الإنصراف و مراجعة مديريات التربية في مدنهم!

و يصرخ أحد المعتصمين:

وعود!

---

41 «أبو فرهود» هي الكنية التي راجت بين العراقيين عن طاهر يحيى بعد إنتشار شائعات في حقبة رئاسته للوزارة عن إستيلائه على بعض عائدات مدينة الألعاب حديثة التأسيس و شائعات أخرى عن الرشى التي دارت أخبارها حول إتفاقية «إيراب الفرنسية» للنفط و قضية شركة «الكوكاكولا» . . . و لكنه حين توفي عام ١٩٨٦ لم يكن يملك (مثلما قيل) غير بيته في بغداد و راتبه التقاعدي

فيعقب الوزير:

- و سنوفي بها . . راجع دائرة التربية و تأكد!

الوفاء بالوعد يتحقق . . و سيُعَيَّن شمران معلما في مدرسة الأمل في قرية أبي حصيوة من قرى بلدة المقدادية من جهة ناحية الوجيهية. ملتحقا بوظيفته هناك، سيجد في المدرسة وضعاً إستثنائياً، فظنه لا يتكرر إلا نادرا في مدارس أخرى، و لكنه سيجد له شبيهاً في مدارس أخرى في المناطق النائية . . مجموعة المعلمين، بعد إلتئام جمعهم في تلك المدرسة، سرعان ما ستنكشف مرجعياتهم السياسية السابقة لبعضهم البعض . . ستة، و هو منهم، شيوعيون سابقون مسقطون في إنقلاب شباط . . إثنان من بعقوبة و إثنان من بهرز و واحد من المقدادية و واحد من بغداد . . و معهم ثلاثة من غرمائهم البعثيين المسقطين المنفيين بعد إنقلاب تشرين الثاني 1963 . . واحدٌ من الحساوية و آخر من العواشق و ثالث من المقدادية.

خليط إن لم يكن عجيباً فهو لافت للنظر! . . خليط المعلمين في المدرسة عجيب حقا . . إمتحان لحسن النية و لسوء النية . . متخاصمي الأمس في السياسة . . جلادون و ضحايا! . . أو ضحايا و جلادون! . . فكيف يا ترى سيحاول جلاد الأمس و ضحية الأمس المتنافران في الماضي القريب التكيف مع الوضع و التعايش سوية؟ . . كلٌّ، و على طريقته، سيحاول أن ينسى، أو يتناسى، بطريقة ما ما تلبسه من دور في الأمس، جلاداً أو ضحيةً . . أمتاحٌ لضحية الأمس تناسي ألمها، أم أنه سيظل دفينا مثل جمرة تحت الرماد و هي ترى جلّادها أمامها و عليها التعايش معه؟

ما ألعن السياسة! . . و يتذكَّرَ شمران بيت المتنبي . . و من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ! . . ما ألعنها! . . الجلاد يتغافل عما فعله بضحية الأمس، مع أنه ليس من طبع الذئب أن يتطبع بأخلاق الحمل سوى في الحكايات الخرافية الأسطورية! . . طوبى للقائل

. الظلم من شيم النفوس! . . و لكي يداري الجلاد خجله من نفسه، إن كان يشعر بالذنب، يروح الذئب الذي في داخله يسفُّ في عاطفته تجاه من كانوا طرائده، و لكن دون توبة . . إمتحان للنفس و ليس كأي إمتحان! . ملعونة هذه التي إسمها سياسة! . . و ها هو شمران يتذكَّرَ قصة ليلى و الذئب!

ليس من السهولة التحرر آثار خصومة سياسية أصلها التطرف القومي، ربما أما بسبب شعور قوي بالذنب لا يتحرر منه المرء إلا بالذهاب الى أقصى الطرف المقابل، أو بتأثير دافع قوي لإستعادة توازن تَطلَّبُهُ النفس بتأثير من فطرة من نوع ما. و بذا، يجيئ التحرر من الشعور بالذنب و كأنه حلّ من نوع ما . . و ها هو الحلُّ المفترض يأتي من لطيف الفهد، البعثي، ليؤسس، بقصد أو دون قصد، لنقد ذاتي و هو ينتقد علناً تصرفات البعث أبان عهده القصير في الحكم. و لطيف يطرح نفسه بعثياً يساريا . . يا لليسار من يافطة مطاطة! . . فيقوم بدعوة زملائه جميعاً، الذين يراهم أخوةً أعداءً، الى سهرة في نادي موظفي الخالص لتكون إنطلاقا لعلاقة جديدة مبنية على ود إجتماعي و مهني، أو لتبدو هكذا بين زملاء مدرسة واحدة على الأقل.

و سرعان ما ستتحول هذه السهرة الى تقليد يكاد أن يكون شهريا، يحصل في الخالص او شهربان أو بعقوبة او بغداد، يلتقي فيها غرماء الأمس ليكونوا متنادمي اليوم . . و بإرتفاع سورة الخمرة عند اللقاء يروحون ليتبادلوا العتاب و اللوم و الإعتذار، و قد لا تخلو من تجريح مبطن أحيانا، إلا أنهم و مع إرتشاف آخر قطرات العرق المستكي المصنوع من التمر، تراهم بعدها في أحاديثهم يتوحدون في جبهة مناهضة للإمبريالية الأمريكية اللئيمة التي تسعى الى تفكيك وحدة مناهضيها بإتباع . . سياسة فرِّقْ تَسُدْ! . . و متناسين جميعاً،جلادين و ضحايا، إن الإمبريالية الأمريكية اللئيمة هي التي أتت بإنقلابيي شباط على دبابة أمريكية!

يحصل هذا مرة في نادي الموظفين في المقدادية، يدعوهم الى السهرة أما

مدير المدرسة البعثي أو حميد المتزوج من أخت فاضل عباس المهداوي، أو من فليح حسن الجاسم[42]، و في نادي موظفي بعقوبة يدعوهم عزيز البهرزي أو أحمد، أو شمران، أو تكون سهرة المعلمين الندامى في واحد من بارات بغداد يدعوهم لها واجد القاسمي النزوع أو عدنان.

و ها هو شمران، في هذه الحقبة، ينسحب بالكامل الى حيز هو الخواء و لا شئ غيره. الذهابِ الى المدرسة و العودةِ منها الى البيت، و يقضي وقته أحيانا في دكان أبيه تحت منارة حسينية بعقوبة، يلاغي المتسوقات من دكان أبيه، صبايا صغيرات كواعب من الجيرة لا يجدن أحداً يلاغينه سواه. و مع أن بعضهن يذكِّرنَهُ بخولة، و لكن إنشغاله معهن يشغله في الوقت نفسه عما تبقى في نفسه من طرگاعة ضياع خولة منه. و يقضي أغلب لياليه أحيانا يشرب البيرة مع حسن فليح في ستوديو ميسلون المطلة على الشاخة في الركن القريب من مقهى مناتي. و حسن فنانٌ تشكيليٌ و مصورٌ فوتوغرافيٌ معروفٌ بنكاته اللاذعة التحشيشية التي تجعل قهقهات شمران تتيه في رغوة كأس البيرة الذي في يده، أو يقضي سهراته مع عبيد الصباغ . . هو و هو، يعبان عرقاً قجغاً من تجارة درويش عبد الله للمشروبات الروحية جداً . أو يتيهان في فلم من

---

٤٢ «فليح حسن الجاسم» قيادي بعثي أصله من منطقة العواشق بين بعقوبة و المقدادية، أبان إنقلاب شباط ١٩٦٣ كان مسؤول ميلشيا الحرس القومي في المقدادية، و بعد إنقلاب تموز ١٩٦٨ ترقى في مناصبه الحزبية حتى وصل الى قيادي قطري و أستوزر للصناعة. و عين عضوا في المحكمة التي حوكم فيها المشتركون في ما سمي بـ»إنتفاضة خان النص» في النجف في شباط ١٩٧٧. و لأنه رفض إصدار أحكام بإعدام المنتفضين، بحجة أنهم لم يصلوا أصلا الى قاعة أية محكمة و ذلك لمفارقتهم الحياة من التعذيب في سراديب المخابرات، و قيل أيضا أن فليح حسن الجاسم لم يكن قد حضر أصلا جلسات تلك المحكمة الصورية المزعومة لأن تلك المحكمة لم تنعقد قط. و راج أيضاً أن الأحكام التي أصدرت بإسم المحكمة بحق المتهمين كانت من وضع صدام حسين إعتباطاً. فأقصي فليح الجاسم في حينها من جميع مناصبه القيادية و الوظيفية هو و الدكتور عزت مصطفى العاني في إجتماع لمجلس قيادة الثورة من قبل صدام شخصيا بتهمة التخاذل، و أبعد الى إقامة إجبارية في تكريت. ثم حين قرر صدام التخلص منه نهائيا سُمح له بمغادرة مدينة تكريت لزيارة بلدته المقدادية، حيث أغتيل قرب بيته في بلدة المقدادية و هو عائدٌ من السوق ليلة ٩/ ٨/ ١٩٨٢.

أفلام هوليوود، و يظلان يتحدثان طيلة أيام عن بطلة الفلم دالعة الصدر و ناهدته و بطله الوسيم الشجاع، و عادة ما تكون أكثر أحاديثهما عن البطلة التي ربما يقضي ليلته مع خيالها تحت لحاف فراشه . . و عندما تعاف روح شمران كل ذلك، يجلس ليقرأ القليل و يتذكر خولة الكثير.

عام 1964 . . يزور النجفَ مسؤولٌ عراقيٌ كبيرٌ[43] في أعلى هرم السلطة، ليعبر عن شكره لبعض مرجعيات النجف الشيعية ثواباً لهم لتكريس فتاواهم عبد الكريم قاسم بالتمهيد لإنقلاب البعثيين و القوميين الوحدويين ضده في شباط 1963 . . أغلب مرجعيات النجف تخاطب رئيس الجمهورية عبد السلام عارف بإبننا الحاج! . . و بالرئيس الحاج! . . و الرئيس الحاج هو الذي أجاز لهم . . حزب الدعاة الإسلامي يوم كان وزيرا للداخلية في أول حكومة شكلها عبد الكريم قاسم عام 1958 . . و ها هو الرئيس الحاج يرسل لهم رئيس وزرائه ليسألهم عن طلباتهم، إذا كانت لهم مطالب من أي نوع يرغبون بتحقيقها، جزاء وفاقا لمساندتهم لإنقلاب شباط 1963. و جاءت مطالبهم السماح لهم باللطم على الحسين علانية، إحياءً لذكرى مقتله في العاشر من محرم، و ما يرافق ذلك من شعائر أخرى.

بعودة المسؤول الكبير ذاك الى بغداد، ستروج إشاعات عن رحلته الى النجف تصوره يكاد يطير فرحاً، ليطلق لزمرته السنية الحاكمة ما قيل أنه تصريحه النكتة الشهير . . "يا جماعة شتريدون منهم! . . يريدون يلطمون؟ . . خلوهم يلطمون الى آخر الدهر!"

و ستنطلق المواكب الحسينية في جميع المدن التي فيها جمهرات الشيعة، و منها مدينة بعقوبة. و إنطلاق المواكب الحسينية من جديد في بعقوبة، بعد أن منعتها سلطات 14 تموز 1958 كونها ظاهرة تستغل التذكير بالحسين و بمأثرته لإدامة الخرافة خدمة لشبكة مصالح تثري رجال الدين، كان مناسبة لإنطلاق موكب عزاء السراي و موكب عزاء التكية،

---

[٤٣] كان على الأغلب طاهر يحيى التكريتي رئيس الوزراء

و أبناء علو الگفچي، حسون و حمد و حسن و رحومي و كريم، و هم عمومة صافية أم شمران، كانوا هم متبنيه و ممونيه و منظميه لينطلق من محلة الگِنِث، محلة شمران الأحمدي . . و سيُصار لشمران دورٌ صغيرٌ في فعاليات الموكب.

ربيع عام 1965 يشهد حدثين هامين في حياة شمران . . الأول مثوله و عدد من معتقلي إنقلاب شباط ١٩٦٣ الى المجلس العرفي العسكري بتهمة الإنتماء الى الحزب الشيوعي في قضية كان أفرادها إثني عشر متهماً لا رابط تنظيمي بينهم سوى تهمة الشيوعية . . و سيسعى حسين الجيراوي، من شخصيات بعقوبة و متعهد تجهيزات أرزاق الجيش، لترتيب رشوة لرئيس المجلس العقيد نجم الدين العبدلي كي لا يصدر حكما بسجنهم، و إسم نسيبه جاسم الجيراوي ضمن القضية نفسها . . جلسة المحكمة نكتة كبيرة مثلما أشيع عن كل جلساتها الأخرى! . . في باب قاعة المحكمة يستقبلهم جندي بأضابير القضية و يطالبهم بالبقشيش مقدماً، فسألوه:

- . . ليش البقشيش مقدما؟

فيرد قائلاً:

- هاذي هي أحكامكم الخفيفة مسجلة هنا على الأضابير!

فينهره الجيراوي ليسكته . . اللي جوه أباطه عنز يبَغِّجْ! . . يدخلون قاعة المحكم حتى بغياب حاجب يستدعيهم بأسمائهم. دخلوهم العشوائي يفاجؤهم بقلعة المحكمة التي لم تكن سوى غرفة صغيرة تكاد ألا تليق بهيئة محكمة. ثمة منضدتين، على إحداها يجلس رئيس المجلس، و على الأخرى ضابط شاب، سيعرفون فيما بعد أنه ممثل الإدعاء العام . . و سمعوا رئيس المحكمة يقول:

- يلله فضّوهه أوگفو عدل! . . صف عدل أمامي!

تحاول جماعة المتهمين أن تقف بصفٍ مستقيمٍ، و لا يفلحون بسبب صغر

ساحة الغرفة، فيشكل وقوفهم منحنيا يبتدئ من يسار منضدة رئيس المحمة و لغاية يمين منضدة المدعي العام . . و هو ينظر إليهم من وراء نظارة سميكة و وجه جهم قبيح متوعد، يطلب الرئيس من المدعي العام قراءة لائحة الإتهام، فيقرأ المدعي العام الوسيم الطلعة لائحة الإتهام مهنّدِما بدلته العسكرية المُعْتَنى كثيرا بكيِّها بعد كل كلمة، ذاكرا في اللائحة أسماءَ المتهمين و التهم الموجهة إليهم، ثم يطالب المحكمة بإنزال أقسى العقوبات بالملحدين الواقفين أمام المحكمة . . و يتنحنح العقيد رئيس المحمكة و يصرخ بهم:

- .و لكم إنتو جحوش! . . آني حچيت عُربي لو فارسي؟ . . آني مو گـلتلكم توگفون عدل! . . صيرو صف مستقيم أمامي . . عوُج أولاد العوُج!

و يحتار المتهمون في كيفية تدارك الموقف و الوقوف صفا مستقيما في غرفة قمقم هي قاعة المحكمة، و يستدرك رئيس المحكمة الموقف أخيرا و يضيف:

- يلله . . صيرو صفين كل صف ست جحوش!

في قاعة محكمة مهزلة لا بد أن يتقبل مزاج المرء الإهانة! . . و يقفون صفين مستقيمين في كل صف ستة متهمين. نصيب شمران في الصف الأمامي، و سيخاطبه رئيس المحكمة صارخا و شاتما:

- و لك جحش ملحد! . . إنتَ جاي للمحكمة لابس قميص أحمر . . إنتو ما تجوزون من الأحمر!

و ها هو شمران يتقبل الإهانة على مضض . . آهو! . . شراح يطلّع هالزمال من هالوحلة! . . يا للأحمر الذي يطارده! . . و يحتار شمران بِمَ يجيب، و يدمدم في داخله . . طمغة حمرة ورايه ورايه وين ما أروح! . . لا غرابة! . . ألستُ أحد راكبي الماطور الأحمر! . . أولست الأحمدي

اللـي صـار أحمـري . . شـنو السـالفة؟

قميصـه الـوردي الفاقـع لـم يكـن أحمـرا، و ينـوي الـرد علـى الرئيـس، لكنـه تذكـر وصيـة حسـين الجيـراوي لهـم بـألا يـردوا إطلاقا علـى أي تعليـق أو كلام صـادر مـن رئيس المحكمـة مهمـا كانـت الأسـباب، فقد يكـون ذلـك سـببا فـي زعلـه عليهـم و يسـوقهم بأحكام ثقيلـة . . و يتذكـر شـمران صبـره علـى معذبيـه فـي مقبـرة مقـام الشـريف فـي بعقوبـة الجديـدة، و يصبـر هـذه المـرة أيضاًعلـى الإهانـة، و و يبتلعهـا متصابـراً أمـام إلحـاح نظـرات رئيـس المحكمـة عليـه بالـرد، و هـو مـا يـزال يسـمع تمـادي العقيـد الرئيـس بالإسـتفزاز:

- هـا ولـك؟ . . جحـش! . .ليـش مـا تـرد علـيَّ؟ . . گـول! . . إعتـرف! . . ليـش جـاي للمحكمـة لابـس أحمـر؟

خايلـت شـمران إبتسـامة خفيفـة لأنـه مـرة أخـرى فـي هـذا الموقـف تذكـر لقـب الأحمـري الـذي أطلقتـه عليـه ميليشـيا الحـرس القومـي فـي المعتقـل، فخايلتـه بسـذاجة فكـرة أن يقـول لرئيـس المحكمـة إنـه لبـس الأحمـر لأن لقبـه هوالأحمـري، إلا أن الرئيـس المحكمـة لربمـا إعيـاه إنتظـار الـردُّ، و دون حتـى المقدمـات التـي يسـمعها النـاس عـادةً عنـد نطـق رئيـس هيئـة المحكمـة بالحكـم علـى المتهميـن بذكـر المـادة القانونيـة و غيرهـا مـن الديباجـات، راح يخاطـب المتهميـن معلنـا:

- يللـه! . . إنتـو الثلاثـة اللـي مـن هالجهـة . .مـن هـذا الجحـش أبـو قميـص الأحمـر الـى حـد ذاك الجحـش اللابـس قميـص أبيـض حكمناكـم سـتة أشـهر مـع وقـف التفيـذ . . و إنتـو الثلاثـة الباقيـن حكمناكـم بثـلاث أشـهر مـع وقـف التنفيـذ . . و إنتـو بالصـف اللـي وراهـم الحكـم يصيـر بالعكـس . . مـن هـذا اللـي لابـس غتـرة بيضـة الـى ذاك أبـو جاكيـت قهوائـي حمكناكـم سـتة أشـهر مـع وقـف التفيذ و الثلاثـة الباقيـن اللـي يمهـم حكمناهـم ثـلاث أشـهر مـع وقـف التفيـذ . . يللـه إطلعـو بـرا!

ذهـول و عـدم تصديـق لخلاصهـم، فيتلكـؤون بالخـروج، و يصـرخ بهـم

رئيس المحكمة:

- إنتو ما تفتهمون؟ .. جحوش ولد الجحوش! .. آني مو گِلِت إطلعو برا! .. ملحدين .. يلله برا!

و عندها يطلق المتهمون العنان لسيقانهم متدافعين للخروج من قاعة المحكمة، مع إنطلاق أنفاسهم التي ظلت مكبوتة طيلة بقائهم في داخلها.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بدءاً من أول يوم من محرم، عشرة أيام من اللطم يتبعها شهرٌ و نيف من الأسى و التأسي يختتم بيوم معروف هو يوم .. مَرّد الراس .. الشائع أنه يوم إعادة رأس الحسين الذي قطعه أعوان يزيد بن معاوية، تماشيا مع تقليدٍ جارٍ عند العرب و المسلمين عموماً دون إستثناءٍ و عند غيرهم من الأمم بقطع رؤوس خصومهم .. و ها هو شمران يجد في هذه المواكب سلواه، يمارس فيها نوعما إسقاطاتهِ و إنسحاباتهِ النفسية و هروبه من خواء روحي قاتل يلتهم يومه، بعضه يقضيه بمساعدة الوالد في دكانه، و بعضه يستمر ليلا سكراً، نديما مع حسن فليح في ستوديو ..سلون، أو نديما مع عبيد الصباغ في دار عبيد .. و نهارا يزجي بعضه بلعب الدومينو في مقهى الحاج إبراهيم صالح في شارع الحسينية.

هروبا من حياة الخواء، سيقوده يأسه الى إنغماس في فعاليات الموكب الحسيني، أحيانا لطماً يقود بها حلقة لطم للشباب و الصبية، و أحيانا مشاركة في تمثيل ما يُعرف بالتشابيه الحسينية، و هي تشبيهات شخوص .. معركة الطف .. و ها هو سيحسب كل ذلك محاولة للخروج من حالة ضياع كامل .. هروبٌ واضحٌ الى الخلف الى قعر القرون و ليس الى الإمام! .. هروبٌ من فراغ بائسٍ الى فراغ فاره في بؤسه! .. و في حالة اللطم، كان حماسه يشتد هياجا و ثورته و صراخه يبلغان مداهما، و كأنه يريد أن يبزَّ كل العوام و السوقة الغارقين بالشعور بالذنب، بخاصة حين كانت أشعار و ردات حلقات اللطم توهمه بما ينطوي على الكثير

مما يُظنُ غمزات و لمزات و تلميحات مقصودة أو غير مقصودة لظلم الحاكم الجائر، فيروح ليرتكس في جُبِّ اللطم و لجة الهذيان، متماهيا مع ما تحمله كلمات ردات للطم من شتيمةٍ هذيانية مُبطَّنَةٍ للحاكم تتماشى مع وهم تحقيق عدالة من نوع ما، و بما كان يحسبه تعويضا سلبيا عما خسره من كرامة في المعتقل بسبب الحاكم و عما تلقاه من عصابات الحرس القومي من أذى . . جلدٌ للذات ليس إلا! . . و ليس غير! . . جلد للذات ناجم من شعور بعجز كامل و إحباط متواصل! . . و لكنه من ناحية أخرى، كان في الوقت نفسه، خلال الأيام العشرة الأولى من محرم، و بمجرد أن ينفَّضَّ الموكب عند غايته النهائية في حسينية بعقوبة، يقطع المسافة مشيا الى أي بيت من بيوت بيع العرق، ليجلب قنينة خمر قچغ، يذهب بها الى بيت عبيد الصباغ، و يهرقانها في كأسيهما، ليكمل شمران ليلة لطمه هناك، و قد إعتاد بعد الشروع بإرتشاف پيك الخمرة الثالث مستمعاً لفريد الأطرش يغني . . الربيع . . و مع قول . . آدي الشتا يا طول لياليه على فاتو حبيبو! . . فيتذكر خولة و الشتاء الذي أبهجته فيه و فقدانه لها فيه . . مع فارق هو أنه مع الكأس هو يعلم على مه يبكي و ينوح و يلطم مفرغا في جوفه ما بقي في الكأس دفعة واحدة و ينخرط في بكاء مرّ. يخرج بعدها مغادراً بيت الصباغ متوجهاً الى بيتهم مشيّا على قدميه، و إن يكن يترنح أول الأمر في مشيته قليلاً، إلا أن قامته سرعان ما تنتصب، و تنتشي روحه بهبات نسمات ما بعد منتصف الليل.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

عاشوراء عام 1966، سيحصل ما عدّه شمران نفسه حداً فاصلاً و نقطة تحول في إنسحاباته النفسية . . إنسحاب من تدن في الوعي ظل يتسبب بهروبه الى ظِلال متاهة لا لون فيها و لا إثارة، و أسوأها حين إكتشف ان لطمه على لا أحدٍ سوى على نفسه الضائعة! . . و هو ما كانت تكشفه له كؤوس الطلا التي يرتشفها مع نديمه الصباغ . . موكب اللطم الحسيني ينطلق من دربونة محلة الگِنِث حيث يسكن أبناء علو الگفچي رعاة موكب التكية، و يسير في شارع التكية المحاذي للشاخة، مرورا

بالسوق، ثم ينعطف الى شارع الحسينية قرب القنطرة القريبة من خان علي الحسون، وصولا الى حسينية بعقوبة.

أوار حلقات اللطم يشتدُّ . . و كأنه حرب ضد الكون، يبتدئ بإمتهان النفس و أذاها ما يؤدي بالذات الى حافة التدمير، و يبلغ أشدّ البأس حميته، لأسباب نفسية، حين تمر حلقات اللطم من أمام تجمعات النساء المتفرجات على الموكب على طول شارع الحسينية. . عجائز يبدأن بالعياط و الصراخ و النحيب و هنّ يتفرجن على رجالٍ مدميَّةٍ صدورهم من اللطم مكررين إسم الحسين . . و بجانبهن صبايا و شابات، في الأصل سافرات، و قد كسين سفورهن المعتاد، تمشيّاً مع الموقف، عباءات إستعرنها من أمهاتهن أو أخواتهن، ولا يعود ليظهر منهن سوى وجوه تبرق كأنها بدور مشعة من بقعُ نورٍ وسط سواد العبآت! . . و ها هي إمرأة ستنظر الى الرجل فتجعله يستدير مائة و ثمانين درجة! . . أين تلك الأنثى؟ . . شمران يقود بنفسه حلقة لطم شباب و صبية، تتقدمها أربع رايات يلطم بها بالغون من شباب و متوسطي العمر . . يقول شمران الردة اللطمية بلغة عامية دارجة، و من ورائه يكررُّ شباب وصبية الردات بإيقاع يزداد حماساً و سرعة و الموكب يزداد إقتراباً من حسينية بعقوبة . . سباق نحو اللاجدوى! . . و لم يكن في حينها قد بقي للوصول الى باب الحسينية و دخولها سوى بِضعَ عشرة من الخطوات . . بلغت الحماسة أولَ أوجِها أمام محل جعفر لبن للألبسة بخاصة و الليلة هي ليلة سبق نهار مقتل الحسين في أرض الطف . . شمران يصرخ بقول صدر الردة، رافعاً ذراعيه الى أعلى ليعود بهما بكفين تتحرقان للطم صدره و [illegible] بلون الدم، فتختطف عيناه وجه فوزية القيسي، شقيقة صديقه وسمان القيسي رفيق المعتقل . . تتلقف نظراته عيني فوزية تتطلعان إليه، أو [illegible] هكذا توهم . . وجه بيضوي ناصع البياض يشعُّ لونا بدا له ثلجيا وسط سواد اللباس المحيط به، يذكّرَه بوجه خولة . . فأحس كأن عيناها تتفحصانه من فوق الى تحت . . عينا فوزية أم عينا خولة؟ . . لدرجة أنه [illegible] تلقت عيناه نظراتِها المتفحصة لحالِه، بَرَقَت في ذهنه ملامح أبي

ذر رفيق معتقلـه فارتخـت يـداه لا شـعوريا فجـأة، و بثـوان تاهـت كفـاه عـن صـدره المـُحمرّ . . و بظـرف ثانيـة أخـرى و يـداه تائهتـان عـن لطـم صـدره، مـرّ بخاطـره مـا سـأله إيـاه أبـو ذر أول يـوم نقلـوه مـن معتقـل نقابـة المعلميـن الـى معتقـل موقـف شـرطة بعقوبـة، و كان الوقـت ظهـراً تقريبـاً . . أبـو ذر هـو الوحيـد دون باقـي معتقليـن مـن أبنـاء مدينتـه مَـنْ وَسَّـعَ لـه مكانـا الـى جانبـه فـي باحـة المعتقـل المزدحمـة بالبشـر و الأفرشـة . . و كان رمضـان، فسـأله:

- صايم؟

في حينها رد مضطربا:

- لا . . بـس چـنت معتـاد أصـوم . . و السـنة چـان أكـو سـبب قـوي خلانـي مـا أصـوم!

و مـع أن أبـا ذر، و قـد تعـرف عليـه للتـو، قـد يكـون فهـم الأمـر مثلمـا يبغيـه لا مثلمـا أراده هـو شـمران بنفسـه، سـمع أبـو ذر يسـوغ لـه:

- يعني چـان أكو سبب خلّاك تتحرر من الوهم!

و لـم يـدُرْ فـي بالـه حينهـا أي وهـم عنـاه أبـو ذر ليكـون السـبب، سـوى سـبب هيامـه بخولـة، فسـأل الرجـل:

- يا وهم؟

- بويـه . . مـو هـذي هـي المصيبـة اللـي جـاي نشـوفهه هـواي . . شـيوعي و صـايم! . . چـا هـو منِيـن جانـه البلـى! . . هـذي هـي الـچـذبة الـچـبيرة!

- چـذبة؟ . . و چـبيرة!

- إي بويـه . . چـذبة الواحـد اللـي مـا يـگـدر يتصـور هـذا العالـم بـلا إلـه متسـلط حتـى لـو هـو شـيوعي! . . و إذا إضطريـت بيـوم مـن الإيـام، لأسـباب تخصـك . . أسـباب فلسـفية و نفسـية تخليـك تعتقـد أن هـذا الكـون

المنظم هذا التنظيم الدقيق لا بد من وجود خالق عظيم صنعه، و حتى تخلص من مصيبة الدجل . . و تسلّم جدلا أمام نفسك أولا و امام الناس بوجود خالق لهذا الكون . . بويه وراهه راح يفهمون أسبابك غلط و يگولولك . . چا إذا إنت تعرف أكو الله لِيشْ ما تصلي بويه؟ . . و حتى تسكتهم تگوم تصلي و من تسجد يصير طويزك أعلى من راسك . . و بعدهه راح يگولولك . . بويه يا بويه . . چا شلون يصير صلاة من غير صوم؟ . . و تروح حتى تصوم . . و بعدهه يگولولك . . بويه إذا إنت هَيچ خوُش آدمي تصوم و تصلي و خايف من الله چا لِيش مخلي أخيتك و مريتك مفرّعات بلا ستر و لا حجاب؟ . . و تروح و تُجبُر نسوان اللي عندك بالبيت حتى يغطّنْ بيهنْ شما شي حلو و يسرّ العين! . . بويه و لِيش همه راح يعوفونك هَيچ! . . و بعدهه يستمرون وياك . . و چا لِيش علان شي! . . چا و لِيش فلتان شي! . . چا و لِيش ما أدري إيش؟ . . چا و هذِيچ! . . چا و هاذي! . . چا و هذيچن!. . و الى أن فد يوم تلاگي نفسك بويه جاي تحتفل و توزع چِكلِيت بميلاد فلان لو عِلّان لو فلانة لو علانة و إنتَ نفسك ما تحتفل لا بعيد ميلاد و لا بعيد ميلاد أبيَّك و لا بعيد ميلاد الزايرة أمك! . . لو تلگه نفسك دا تحزن على وحيِّدْ إنت بحياتك ما شايف شوف العين! . . و تاليهه تكتشف إن الموضوع مو أكثر من شبكة مصالح لچم معمم عايشين على روحات الزايرات أمك و أمي هِذني اللي شما تروح و حيّدَتهِن تِشمُرلهه وحيِّدْ أَحَمَرْ من هذني أمهات الخمسة دنانير من وره القفص على الگبر اللي مغطينه بقماشة خضرة . . و الرجال اللي بالگبر برئ من كل هاذي البلاوي! . . و ما تصحى من حالك الا من تلاگي نفسك وراهه لو جاي تضرب درباشة بتكية من تكيات الدراويش لو جاي تلطم بالشارع و تاذي جسمك هذا الحلو . . جسمك الحلو نطية المطلق إله الكون الحقيقي و عطية الطبيعة الحلوة! . . عليشْ؟ . . بويه ليش هو هذا اللي يصومولّه و يصلولّه چا مو هسه جاي يتفرج و يشوف البعثيين شجاي يسوون بينا هسه! . . بويه چا ليش ما يتلحلح و يشوّفنه نفسه إذا صِگِد هو موجود! . . يعني هو و

البعثيين شراكة و إحنه ما ندري!

دوره في قلب حلقة اللطم قياديّ، و في ثانية أخرى يمرّ في خاطره بلمحة البرق أنه و في أول لقائه بأبي ذر ذاك، و بسبب عجزه عن التحكم في جسده المتهالك من الجوع و هو يستمع الى الرجل آنذاك، تذكّر، أن كلمات أبي ذر ظلت ترنُّ في رأسه:

- گوم بويه! . . گوم! . . گوم لا تاذي نفسك و تظل جوعان چنك صايم يومين! . . گوم إغسل وجهك و تعال . . هاذي عندي كسرة خبز أكلها حتى تتقوى . . على طريقة . . اليومُ خمرٌ و غدٌ أمرْ!

؟ . . في وسط حلقة اللطم غرقت نفسه في الهاجس الذي حدَّثه به أبو ذر يمتزج بهاجسٍ آنيٍّ . . و ترك هو الآخر لاشعوريا عينيه تنظران نزولا على صدره داكنِ الحمرة بلون النبيذ و قميصه المتدلي فوق حزامه و سرواله الذي إنسحب الى أسفل، و كأنه أحد أولئك الذين يسمونهم الناس . . هتليّه!

ما الذي كانت فوزية تنظر إليه في روحي التائهة فأنسكب على مظهري؟ . . لا يدري! . . أَإلى ثلمٍ غائرٍ في روحه التعبة الضائعة؟ . . لا يدري! . . أَإلى صدره المدمي من الجلد الذاتي؟ . . لا يدري! . . أفي منظره و هيئته ما إسترعى إنتباه فوزية فعلا؟ . . ما هو؟ . . لا يدري! . . لا بد من وجود علة في وجوده وسط بهيمية تنضح بها هيئته فإستحوذت على عيني فوزية! . . بهيمية فيها كل شئ أسود و مظلم إلا الحب و الشغف بالحياة!

يا روحي التعبة . . ما تلك العلة؟ . . لا يدري! . . لدرجة أنه تاه عن قول صدر الردة المطلوبة في آوانها بإنقطاع واضح و سافر في الأداء لَم يغبْ عن شباب و صبيان حلقة اللطم الذين ظلوا لثوان ينظرون إليه . . هو قائد اللطم و الأذى تائهاً و لا يعرفون السبب، فظلوا ينتظرون منه صدر الردة مستنكرين منه قطعه لنوبة ذروة هيجانهم في قول عجز الردة، فنكزه أقرب اللطّامة إليه، و هو من عمره تقريبا، في خاصرته هامسا:

شمران وين سهيت؟ . . وين رِحِتْ؟ . . نعله على ربك! . . إخرسّيت؟ . . گول! . . يلله گول الردة!

.. هانُ و سهوٌ؟ . . لا! . . بل إنقطاع قصير يكاد لا يحس في لاوعي الحواء الذي يمر به اللطامون . . و عنده كان ذاك الإنقطاع بذرة لإنقلاب .. ن نوع ما في داخله . . نقطة تحول دراماتيكي . . و سرعان ما صحى .. مران من ذهوله القصير المؤقت الذي إستغرق ربما خمس ثوانٍ لا .. ر، فقال الردة الشعرية المطلوبة بفتور ظاهر للجميع، و ظل يرددها .. ور أشدّ في كل مرة تالية، و بنبرة كادت تبتلع صوته فتغور الكلمات .. ي أعماقه، لدرجة أنه هو نفسه أحس بأنه ينطق كلمات الردة و لكنه في الواقع لا يقول شيئا . . فكيف يا ترى بحلقة اللطامة من حوله! . . و يظل .. ا يحصل لغاية أن دخلوا الحسينية . . و هناك في صحن الحسينية حيث .. سع لطامة المواكب جميعا، لم ينتظر شمران ما كان يفعله عادة في .. ي عاشوراء التي مرت، هو و اللطامة الآخرون، حيث ختام فعاليات .. ب العزاء النهائية، التي تنتهي عادة بفصل يبتدأ بصعود الحادي .. ني المعروف و المصور الفوتوغرافي و الشاعر الشعبي علي حسين .. الدليمي على المنبر، يلقي قصيدة من نَظمِهِ تُشيدُ بمناقب بني هاشم .. لاتهم فرادى يوم الطف، و لا تنسى القصيدة طبعا ذكر مثالب .. هم المنافسين من أبناء عمومتهم، و يتخلل إلقائه للقصيدة ردات من .. م كلماته لرفع درجة الحماس عند اللطامة لغاية أن تُدمى صدورهم .. ي .. ملة قوامها السادية- المازوخية!

.. ان لا ينتظر . . ها هو يتسلل تاركا صوت الحادي الحسيني يدوي في .. الصوت، بينما كان هو يشق طريقه نحو ركن مغاسل الحسينية بين .. ا التي راحت تفوح نتانة من الجَلْدِ الذاتي و مما تفرزه الأجسام .. رق . . و هناك غسل نفسه على عجل، و لبس قميصه مُزرِراً إياه .. و كأنه إكتشف فجأة لا عِريَ بدنِهِ المحتاج الى ستر فحسب، بل .. في أعماق روحه التائهة . . و هو يزرر كُمي قميصه شعر في .. لة بأنه إنتهى من ستر أعلى جسمه . . فكيف، يا ترى، سيستر

روحه و عريهِ النفسي و قد كشفته له نظرات فوزية القيسي و عزَّته؟ . . أو لربما توهم ذلك من طول عذابه و خواء روحه و هي بحاجة لقشة تتمسك بها لتنجو من البهيمية؟ . . و نظرات فوزية لم تكن سوى تلك القشة التي تعلقت بها روحه للخلاص. و سيمر بخاطره رأساً . . طوبى لذاك الذي قال يوما . . الدين أفيون الشعوب! . . صرخة المستغيث العاجز لا أيمان الإنسان المؤمن بالحياة و النضال في سبيلها!

يهربُ الى الخارج سائرا مباشرة بإتجاه الشاخة . . و يا للصدف! . . تلتقط عيناه عبيد الصباغ ما يزال واقفا على دكة محل جعفر لبن يتفرج على مَن تخلـَّفَ مِن الناس في الشارع بعد دخول مواكب اللـّطامة الى الحسينية. جاء الى عبيد، فبادره هذا:

- هاي شبيك ولك شمران؟ . . شنو اللي شغلك عن ردة اللطمية؟ . . إنت سكران؟

- لا . . مو سكران! . . عبيد . . أكو واحد يسكر بهيچي يوم! . . حشرّ مع الناس لطم!

- لعد شنو القصة و خليت هذا الأرعن يلكزك بخاصرتك! . . يابه أحلف بدين درويش عبد الله . . إنت چنت تستاهل واحد يدغك بخاصرتك! . . و لك أبو البرابخ[44] إنت منو ورطك بهذي شغلة اللطمية؟

و يتذكر شمران مكان وقوف فوزية أمام محل حلويات عبود الحلو . . أي في الجهة المقابلة تماما للجهة التي يقف فيها عبيد الصباغ أمام محل جعفر لبن! . . فهل من المحتمل أن يكون عبيد لربما إلتقط المشهد بعين الرسام التشكيلي و لاحظ الموقف كاملاً؟ . . ما يعني أن فوزية كانت من أمامه و عبيد من ورائه، فرد قائلا:

---

٤٤ الـ«بربخ» باللغة العامية لأهل البساتين هو فتحة في أسفل سور البستان على شكل ثقب كبير تمر منه ترع السقي بين البساتين و تمر منه عادة الكلاب و بنات آوى و غيرها من الحيوانات.

- موضوع شورطني بشغل اللطمية . . فهذي مسالة فيها نظر ! . . و إذا أني أبو برابخ . . ما أعتقد أكو بربخ آني عبرت منه إذا مو چنت إنت گبللي عابر منه! . . الحقيقة آني ما نسيت الردة . . و اللي شغلني عن الردة هذي قصة!

قصة! . . شنو هالقصة؟

أحچيلك بعدين.

عبيد الصباغ مراقب لا تفوته واردة أو شاردة، فيسأل:

و أريد أعرف أيضا . . إنت هالليلة ليش طلعت من وكت من الحسينية؟ . . ليش ما كملت واجبك الثوري اللطمي ويه علي مطر بالحسينية؟

السخرية واضحة بنبرة عبيد، فيتجاهلها راداً:

هذا جزء من القصة . . هسه إمشي نروح لدرويش عبد الله و راح أحچيلك بالطريق.

مشيا غربا . عند بلوغهما شارع الشاخة و عبورهما هناك الى الرصيف المحاذي للشاخة، إلتقاهم سليم الزيدي يتمشى على الرصيف. سليم المتخرج حديثا في قسم المسرح من معهد الفنون الجميلة علاقته بشمران ترجع الى عهد الصبا، فيخاطب شمران قائلا:

شمران . . أداءك بعاشور يجلب الإنتباه بلفتات مسرحية . . بالأخص تمثيلك بتشابيه الموكب الحسيني! . . بالذات من تقوم بدور حرملة!

يا هذا! . . تسخر؟

شمران يأخذ حديث الزيدي على أنه مزاح من نوع ما، أو ربما سخرية مبطنة من النوع الذي سمعه أيضا قبل دقائق من الصباغ، فتتضخم عنده

كلمات الزيدي، بخاصة و هو ما يزال تحت التأثير الدرماتيكي لتجربته مع نظرات فوزية القيسي تفضح عريه النفسي و البدني، فيضيف معلقا:

- إي يابه؟ . . سيد سليم . . أستاذ الزيدي! . . و شتقصد؟

إستياء شمران واضحٌ من تعقيبه، فيعقِّبَ الزيدي:

- إسمع شمران . . آني لا أمزح و لا أسخر! . . و اللي سمعته مني . . آني أعنيه فعلا . . إحنه في الواقع شكلنا فرقة مسرحية!

الزيدي يسوق توضيحا ليحرر شمرانَ من سوء فهمه . . و متذكراً مبادرات الزيدي السابقة، و بالذات المبادرة التي قام بها الزيدي أيام ترك أخوه أمير القيرواني عام 1958 دكانه مجاور الستمومنية و هاجر الى بغداد و ظل الدكان خاليا لمدة طويلة و أبوه يدفع إيجاره، و إقترح عليه الزيدي أن يشكلا فريقا لكرة القدم سمياه . . فريق الزعيم الثائر لكرة القادم، فوافق و شكلا الفريق و صار دكان القيرواني مقرا له . . فعلق معتذراً و مستفسراً:

- تقصد هاذي فرقة مسرح بعقوبة اللي نسمع عنها؟ . . فرقة ثامر الزيدي و عبد الخالق جودت و ابراهيم إبن أبو البوريات و سعدون شفيق و عقيل إبن عباس القندرچي و سعدون مراد؟

- لا لا لا! . . ها وين رِحِتْ! . . هذي اللي سويناهه فرقة غيرها! . . فرقة جديدة إسمها . . فرقة مسرح المجددين . . فرع أخذناه من مؤسسة البصام للسينما و المسرح الموجودة في بغداد . . و يشتغل ويانه حالياً فاضل القيسي خريج موسيقى و إحتمال يلتحق ويانه بالفرقة ياسر إبن علي الحارز الحلاق من قسم المسرح . . و تعرف جبلة إبن مدير التجنيد؟

- إي أعرفه! . . أظنه طالب مسرح . . أكاديمية الفنون الجميلة؟

- تمام . . راح يجي ويانه . . و ويانه ممثل هاوي إنت حتما تعرفه لأن دكان أبوه مقابيل الحسينية بسوك الگرطاني.

- منو؟

- يونس إبن حجي خضر الخياط.

- حلو!

يتردد شمران أول الأمر، فيعلق مضيفاً:

- و مع ذلك . . آني ما خاطر في بالي أصلا في أي يوم من الأيام أصير ممثل على خشبة مسرح! . . إنطيني فرصة أفكر!

- بالنسبة إليّ . . أگدر أنتظر . . شتگول؟

و يوافق شمران معلقا:

بهذي الحالة . . إي أوافق . . ليش لا! . . ماكو مانع أجَرّبْ و أشغل وقتي الضايع! . . ليش لا! . . ما راح نخسر شي لو حاولنا!

يعقب سليم:

و أزيدك علم . . إحنه إحتمال نستأجر شقة زغيرة نسويهه مقر للفرقة . . شتگول؟ . . أقصد متفقين؟

بالتأكيد . . عليها إذن! . . متفقين.

سيد الصباغ مستمعٌ جيد. حين تركهما الزيدي ماشياً بإتجاه بيته الى ربونة أم الدجاج، سيطلق شمران الحرية للسانه:

عبيد! . . شنو القصة هالليلة! . . تعتقد هالليلة طير السعد جايني و اني ما أدري!

يعلق عبيد ساخراً مرة أخرى:

- و لـك شـمران أبـو البرابـخ . . إنهـدم بيـت ليلتـك! . . طيـر سـعد يجيـك بهالليلـة الدراماتيكيـة!

هـا هـو عبيـد مـرة أخـرى يسـخر وبوضـح . . سـخرية فيهـا مـن القسـوة مـا يجعلهـا فعـلاً مفارقـة فـي الموقـف . . طيـر سـعد يأتـي مـع ذكـرى ليلـة أسـى! . . و يتجاهـل شـمران سـخرية عبيـد هـذه المـرة أيضـاً، و يعقـب:

- آنـي مـا أمـزح! . . مـرة يجينـي وجـه فوزيـة القيسـي كالبـدر المنيـر فـي ليلـة ظلمـاء . . و بعدهـا يجينـي عـرض سـليم الزيـدي مثـل نسـمة يريدنـي أصيـر ممثـل علـى المسـرح! . . فرصتيـن للنـور فـي ليلـة مظلمـة للخـروج مـن تنـور اللطميـة!

- ولـك شـجالك الليلـة؟ . . فوزيـة القيسـي! . . . يـا فوزيـة هـذي؟ . . . قمـر منيـر! . . هـذا يـا قمـر منيـر؟

- عبيد . . هذي هي القصة!

و يحكـي شـمران حكايـة وجـه فوزيـة الـذي بـرز لـه مـن بيـن عشـرات وجـوه النسـاء و الصبايـا، و لـم تلتقـط عينـاه سـوى وجههـا مـن بيـن تلـك الوجـوه ليـراه علـى نحـو لـم يألفـه مـن قبـل، و بالـذات نظـرات عينيهـا و قـد بثتـا فـورا بـه تيـارا أثيريـا أصـاب كل شـئ فـي داخلـه، فإجتاحـه شـعور فـوري و سـريع و غريـب و غمـره بشـئ لا يعـرف كنهـه تحركـت لـه حتـى أحشـائه . . منتهيـا مـن سـرد حكايـة أمـارة خلاصـه، سـأله عبيـد:

- عجيـب! . . و لـك شـميران بـن نزهـان الأحمـدي . . أول مـرة گـولي . . هـذي هـي فوزيـة منيـن؟

و يخبـره شـمران بخبـر فوزيـة حيـن يلقاهـا فـي بيـت أخيهـا و يصافحهـا و تسـتبقي يـده فـي يدهـا أطـول مـدة ممكنـة، فيعقـب الصبـاغ:

- آهـا! . . ولـك إعتـرف! . . هـذي قصتـك بيهـه حـب و غـرام مـن صـدگ . . لـو هيـچ حـچـي فاشوشـي؟

- تريـد الصـدگ؟ . . مـا أدري! . . ألتقيهـا عـادةً مـن أروح لبيتهـم أشـوف أخوهـا . . نسـولف بـالأدب و القصـة . . و فـي كل المـرات هـي اللـي تبـادر و تمـد إيدهـه للمصافحـة و تحـاول تستبقي أيـدي بأيدهـه أطـول مـدة ممكنـة . . و بالتأكيـد يتحـرك شـي بداخلـي . . لكـن مـا أدري شـنو التالـي!

- و شـنو اللـي چان بنظراتهـه و گـُلبـَتـَكْ هالگـَلبة الـچـقلوبية؟ . . هيـچـي رأسـا علـى عقـب!

- صدگـْـنـيْ . . مـا أدري! . . و هيـچـي . . خـَطـُـفْ! . . مـن نظراتهـا . . غابـت العبايـة اللـي چانـت متلفلفـة بيهـه . . و حضـرت أمامـي بكامـل هيئتهـا اللـي أشـوفها بيهـه عـادة . . قوامهـا الرشـيق . . الوجـه الجميـل المشـع . . و گصـة الشـعر القصيـرة . . و بشـرتهه البيضـة اللماعـة . . و التنـورة المينـي جـوب الحـمرة . . و السـاقين الأبيضيـن المسـتقيمين الرشـيقين!

- كل هذا شفته بيهه بوجود كل عبايات النسوان اللي داير مداير هه؟

إشـارة و أمـارة . . مـا چـنت أحتـاج لأكثـر مـن إسـتدارة وجههـا البيضـوي و تفصيلاتـه . . و بالأخـص العينيـن اللـي فضحـت عـار الجهالـة اللـي چـانت ماكلتنـي و مـا أدري بنفسـي!

و شنو اللي خلّاك تفسر نظراتهه بهالطريقة؟

حسـيت بنظراتهـا أكـو إسـتنكار كامـل لهيئتـي و آنـي مسلـَّـخْ متحـول الـى مسـخ . . و إسـتغراب مـن صـدري المحمّـر مثـل الـدم و آنـي دا ألطـم . . شـلون إنتـو الرسـامين تـگـولون أكـو لوحـات فنيـة تسـوي إنقـلاب عنـد المشـاهد . . إسـتدارة الوجـه البيضـويـة چـانت بـؤرة لنـور الحيـاة كشـف لـي مـا وراء العبايـة اللـي چـانت متلفلفـة بيهـه!

- عجيب!

- كأنها چانت دا تگولي . . و ين ذاك الشاب الأنيق اللي معتادة أشوفه في بيتنه! . . و لك عبيد . . و حسيت چنهه تريد تسألني أيضا إنت عليش دا تلطم؟ . . ميتلك أحد من أهلك و إحنه ما ندري! . . و فعلا عبيد آني عليش چنت ألطم و ما ميتلي أحد؟

فيعلق عبيد فورا:

- بالله عليكم يا ناس . . شوفو منو اللي ده يحچي! . . مو أگولك إنت أبو برابخ! . . و لك شميران! . . و لك سكران بن نزهان! . . هو آني اللي چنت ألطم لو إنت اللي چنت تلطم؟ . . إنت اللي المفروض راح تگوللي عليش چنت تلطم مو آني اللي راح أگللك!

- يعني أگول . . حتى لو موجودة قضية من نوع ما . . أكو ميّة طريقة أفضل من طريقة اللطم للتذكير بهذي القضية!

- زين! . . و بعدين؟

- حسيت أيضا أكو إستهجان من صوتي المبحوح من ترديد عبارات لا طائل من ورائها غير السماجة و السوقية!

- هذا تصورك و تخمينك إنت لتفسير نظراتها . . شنو چان شعورك؟

- ما أدري! . . صراحةً ما أدري! . . يعني . . أگول و ما راح تسميه اللي أگوله جلد للذات؟

- لا ما راح أسميه جلد للذات . . گولْ! . . لأن واضح إنت لحظتك چانت لحظة تجلي.

- تسخر!

لا أبدا! . . هالمرة مو سخرية . . ولك إحچي گول!

. . الطم و أصرخ و أهذي و أدور و أقود قطيع من اللطامة . . أمام نظراتهه حسيت بعري مخزي كامل أمام نفسي . . حسيت وضعي هو من نوع بربرية وصلت حد الدونية! . . همجية و ضعة! . . عقاب للذات على ذنب مو آني اللي أقترفته! . . إذلال من نوع ما! . . و عبودية و مسكنة! . . هذيان مليان توسل و إستجداء! . . إستجداء و توسل من منو؟ . . و على شنو؟ . . ما أدري! . . و غيرها من الأحاسيس اللي ما تختلف عن هذا!

و لك . . لعد آني شحچيت وياك چم مرة! . . و چنت إنت تفسر هذا اللطم تفسير ثوري و تبرر هذا اللطم . . اللي هو مو على الحسين أصلا . . كلٌ يبكي على ليلاه! . . و هالمرة من تشوف فوزية و تمدلك إيده . . أشكرهه و تشجعْ و إرفع إيده الى لشفايفك و بوسهه و خليهه على گصتك . . بس خليهه بوسه بريئة مو بوسة دغش!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

[illegible] شمران بعد يومين عصراً بإتجاه بيت فوزية خلف مركز شرطة [illegible] و ها هو ينضح فضولاً لمعرفة ردة فعل فوزية فعلاً حين سيسألها [illegible] دلالة نظراتها تلك و تعليقها على تفسيره لنظراتها . . طرقٌ على [illegible] و ليس من مجيب . . و يطرقُ ثانية، و ثالثة . . فيخبره جارٌ مارٌ [illegible] البيت أن ساكني البيت حملوا أثاثهم صباحاً منتقلين الى شهربان . [illegible] شمران لمدة طويلة في حسرة تفسير نظرات فوزية و أسرارها [illegible] ان ينساها!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

[illegible] من معهد الفنون الجميلة في قسم الرسم . . كان عبيد الصباغ، [illegible] شمران، شيطان سياسة . . و يكاد شمران أن يكون على يقين بأن

عبيد عاد الى العمل السياسي، بعد لملمة الشيوعيين لجراحهم الثخينة التي خلفتها لهم عقابيل إنقلاب شباط 1963 . . و تخمينُ شمران هذا ستثبت الأيام صحته من خلال ملاحظته لزيارات قصيرة كان الصباغ يحرص على أن يقوم بها لوحده بين آونة و أخرى الى بغداد أو الى مدن أخرى غيرها أو إلى كردستان . . و لم يحصل أن عرض عبيد على شمران صراحة العمل من جديد في السياسة، لكنه كان يفعل ذلك بالإيحاء، منتظرا من شمران أن يطلب هو بنفسه ذلك، و لكن شمران لم يفعل و قاوم رغبته تلك، مفضلا البقاء حراً طليقاً. و لم يفت شمران إدراك المزية التي يتمتع بها عبيد . . فعبيد لم يكن تنظيمه الحزبي قبيل شباط 1963 مرتبطا بهيكل تنظيم بعقوبة، و إنما بتنظيم بغداد أيام كان طالباً في معهد الفنون الجميلة . . و بعيدا عن عيون رجال الأمن الراصدة في بلدة بعقوبة، توفر له هامشَ حركةٍ يسيرةٍ نسبيا.

رجوعا الى مرحلة الصبا، ربطت شمران بعبيد علاقة منذ كانا في المدرسة الإبتدائية. يلتقيان عند مصبغة جاسم التميمي والد عبيد القريبة من دكان نزهان الأحمدي، و المقابلة لمنزل الأحمدي القديم في رأس دربونة أم الدجاج عند الستمومنية. يذهبان الى السينما سوية، و يعيدان في اليوم التالي رواية الفلم أحدهما الى الآخر، و يشتريان أحيانا قصص الصبية و مجلة سمير المصرية. يقرآن كل شئ سوية، و يتناقشان حول أبطال القصص و أحداثها و شخصياتها . . طرزان . . روكامبل . . أرسين لوبين . . و يذهبان منذ مطلع أيام الربيع المبكرة و الماء ما يزال قارس البرودة نسبياً ليعوما و يسبحا مع شلة صبية من الأقران، سواء في الشاخة مقابل بيت عبيد الصباغ في محلة البكرة من منطقة السوامرة في إنحناءة عميقة من الشاخة إعتادوا على تسميتها . . الخمبة . . و تستمر رياضتهما الصيفية هذه طيلة أشهر الصيف و حتى الأسابيع الأولى من الخريف . . و حين قوي عودهما صار نهر ديالى حوض سباحتهما في شاطئ منه على طريق قرية الهويدر بين البساتين . . و ظلا هكذا متعلقين ببعضهما.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

ها هو ما عرضه سليم الزيدي من نشاط على شمران يجيئه مثل قارب نجاة من سفينة روحه التي يتقاذفها الموج و الهوى، بحيث ما عاد يعرف لروحه وجهةً و لا مستكنّاً . . مشغولا أحيانا مع طفلي أخته أميرة التوأم . مرهون و نرجس . . الطفلة نرجس بالذات و إسمها يذكّره بنرجسات دولة . . الطفلان يكبران و راحا يملآن البيت ضجيجاً و مرحاً يؤنسه أحيانا، فينشغل بمصارعتهما. و يظل سأمَهُ و الفراغ الذي يعيشه بعد فقدانه لخولة حبيبة ليالي البرد لم يكن ليشفى منه بسهولة على الرغم من النور الذي شع عليه من وجه فوزية القيسي. يلتقي يوميا تقريباً بشلة المسرح تلك، ليشغل أكبر شطر من أوقات فراغه. و سرعان ما استأجرت الفرقة شقة صغيرة في منطقة محطة القطار في أملاك يهودا و أخوه ناجي، مجاورة لمقهى مناتي كي تمارس فيها الفرقة تمريناتها، خاصة بعد أن إلتحقت بالفرقة إقبال رشاد . . شابة صغيرة الحجم و السمر و هاوية تمثيل.

نشاطه المحموم، سليم الزيدي لولب الفرقة بحق، مؤلفا، و مخرجا، و إداريا نبيهاً و نشيطاً، و مبادراً . . و ها هي الفرقة بفضله، و بتعاون ثلة الهواة الذين معه، تطوف المسارح المدرسية و مسارح النوادي في المناسبات، تقدم مسرحيات إنتقادية ذات فصل واحد. مسرحيات هزلية تسخر من تمسك الناس بالعادات القديمة البالية، و يكاد المتفرجون أن يموتوا ضحكاً مقهقهين من أعماق قلوبهم على الأداء التلقائي للممثلين الهواة. و تسنح لشمران مرة فرصة القيام بدور الشخصية الشعبية الشهيرة لـفتاح الفال . . و مرة لشخصية أب بائس فقد نظره و العثرات التي تصادفه بسبب عشوه. و كلها أدوار كانت توفر للجمهور مسرّة حين يخرج عليها و يؤديها ممثلون شباب كان الماكير غير البارع قد عَبِثَ بوجوههم عبثاً صار هو الآخر مصدرا لمسرة الجمهور حين يظهرون على خشبة المسرح . . و سرعان ما سيتحول شمران و الممثلون الآخرون الى نجوم فكاهة محليين مشهورين في مدينة بعقوبة، يحييهم الجمهور أينما صادفهم في الشوارع و الدرابين الضيقة، بخاصة الصبية الصغار . . و

أهم من هذا كله ما تشيعه إبتسامات صبايا و فتيات بعقوبة الصغيرات من مسرَّة حين يلاقين نجوم فرقة مسرح المجددين للتمثيل. هذا كله مصدرَ سرورٍ لشمران و تطهير لروحه التي إستنزفها ضياع خولة و لوثها بإنهماكه لطما على لا شئ!

مناقب سليم الزيدي لا تحصى، و ها هي طبيعة وظيفته في قسم النشاط الفني في مديرية التربية تتيح له التعرف أولا بأول على موظفين جدد يلتحقون بالدائرة. أثناء ذلك العام تعرّف الزيدي على حسين الجليلي من شطرة الناصرية . . الجليلي شيوعيّ غادر المعتقل للتو و أعيد الى الخدمة إبعادا إلى مدينة بعقوبة، موظفاً في حسابات مديرية التربية. و سرعان ما سيعرِّفه الزيدي على شمرانَ في جلسة في مقهى مجيد محسن. و سيتكشف الجليلي، إضافة الى بساطة شخصيته و كرمه، عن رجلٍ مثقفٍ يقضي أغلب وقته في القراءة و الكتابة. و سرعان ما سيتحول بيته، الذي يشتريه في بعقوبة الجديدة، إلى صالون ثقافي، يجتمعون فيه أمسياتٍ للحديث في أمور ثقافية شتى. صالون ثقافي آخر ياتقي فيه شمران الى جانب الذي يوفره مقر فرقة مسرح المجددين للتمثيل.

متأثرا بالنشاط الدائر في الصالونين، سرعان ما تكشفت لشمران بعض أوجه أميّته الثقافية، و حدود قدرته الفقيرة على مجاراة الآخرين عند التحدث في أحد الصالونين الإفتراضيين! . . روح جديدة ستنبعث في داخل شمران. إحياءٌ لروحه القديمة صبيا، أيام كان يلتهم المجلات و كتب الأدب المبسطة إلتهاما، أيام كان في سباق مع عبيد الصباغ صنوه في القراءة . . و مع هذا الإنبعاث سيأخذ شمران ما فعلته نظرات فوزية في روحه و كأنه إحياءٌ لمسار طبيعي في التفكير و نهضة في الوعي! . . بادرةُ إحياءٍ سويٍ للروح! . . في الليالي التي يغيب عنه تهريجُ الراحِ و أغاني سكرِ الندامى، غالبا ما يروح يبحث عن صحو واع في كتب من كل الأنواع . . يلتهم كتب المسرح و القصة و الرواية و الشعر و السياسة و الإجتماع، بل و حتى كتب الدين، إلتهاما و كأنه في سباق من نوع ما . . و كي يكون على بينة و لا يأخذ جهل الناس بالشبهة لا بالحقيقة،

سيغرق بخاصة في هوة كتب الأديان جميعها تقريبا . . و سيزعم فيما بعد بأنه قتل الدين قراءة و بحثا ليخرج بنتيجة مفادها أن الأديان جميعا ليست سوى ثلة من الأكاذيب إبتدأت حين أضطُر أول غبي لتصديق أول دجال في التاريخ!

الكتب تتراكم في غرفته، و سينثار إستغراب والدته في تلك الآونة مقترناً بإزدياد إلتهامه للمزيد من صحون الرز العنبر، و هو مهووس بأكل الرز أصلاً . . يلتهم الكتب و يتركها مبعثرة وراءه هي و كؤوس الطِلا الفارغة، ما سيجعل أمه الحنون تنظمها و ترتبها له بعد كل ليلة . . المهم عندها هو تهدئة روحه و تخفيف عذابه من ذكرى حب خولة. و ظلت أمه في الوقت نفسه تغريه بتزويجه بواحدة من قريباتها التميميات في شهربان!

قالت له مرة مازحة:

أشوف إنت تاكل مواعين تمن مليانة و متلتلة . . و مع ذلك أشوفك تضعف يوم ورا يوم! . . هاي شنو إبني؟ . . أخاف مو إنت اللي دتاكل مواعين التمن . . يصير هذي الكتب هي اللي دا تاكلهه! . . أشوفك أنت تاكل تمن و الكتب هي اللي دَتسمن و تزيد مو إنت اللي دتزيد و تسمن!

و إذ يفضلُ، متضاحكا، ألا يعلق على ما تقوله أمه، تروح لتلقي له الطعم:

و إذا هيچي أشوفك تموع يوم ورا يوم . . شراح تلگه بيك سهيلة لو عاتكة لو نجاح إذا تزوجت واحدة منهن؟

أمه تنتظر منه ردا أو تعليقا، و يظل يتضاحك، و يسرح ذهنه ليتذكّر من يكن صاحبات تلك الأسماء، و ما أن يتذكر أن سهيلة تميمية و هي إبنة لأبنة خالة أمه في شهربان، و أن عاتكة هي صبية من بنات خاله التميمي في شهربان، و نجاح هي صبية إبنة عم أمه التي فتحت ستوديو

لأخيـه أميـر القيروانـي . . يتوقـف عـن تضاحكـه و يتـأوه، فتتركـه أمـه و تمضـي.

و هـا هـو يكتشـف أن مـا يقـرأه لكتـاب عـرب فـي الأدب و الديـن و السياسـة لا يكفيـه . . و سـيميل شـمران الـى قـراءة ترجمـات مـن بـكل اللغـات المتوفـرة فـي السـوق، لدرجـة أنـه كان لا ينـام ليـلا، إلا بعـد أن يكمـل الكتـاب الـذي فـي يـده إن كان قليـل الصفحـات، و يجعلـه لعبـة ليلتيـن إن كان الكتـاب ضخمـاً . . و صحيـح أنـه كان قـد قـرأ مـن قبـل نسـخة مختصـرة مـن بؤسـاء هوغـو و بعـض روايـات همنغـواي و جـاك لنـدن . . العقـب الحديديـة . . و بعـض روايـات ديكنـز و أسِـرَّ بهـا جميعـا، إلا أن إنغماسـه الحاضـر عرّفـه علـى عدد هائـل مـن الكتـاب . . جـاءه مدرِّسـه عبـد السـتار خمـاس بنسـخة أصليـة مـن كتـاب البؤسـاء فـي أربـع مجلـدات كبيـرة بحـدود ألفـي صفحـة، و راح يبحـث عـن مؤلفـات لروائييـن منهـم ديستويفسـكي و تومـاس مـان و سـتندال و غوتيه و إيليـا إهرنبـرغ و أندريـه مالـرو و هرمـان هسـه و جيكـوف و تولسـتوي و ليرمنتـوف و غوغـول و ثربانتـس و بلـزاك و كافـكا و كازانتزاكـي و إلبرتـو مورافيـا و نجيـب محفـوظ و يوسـف أدريـس و حنـا مينـا و يوسـف السـباعي و غائـب طعمـة فرمـان و فـؤاد التكرلـي و ذوالنـون أيـوب و غيرهـم . . و شـعراء منهـم شكسـبير و جـون كيتـس و ودزورث و بـول إيلـوار و بودليـر و أراغـون و لامارتيـن و رامبـو و لـوركا و بوشـكين و علـي محمـود طـه و أمـل دنقـل و السـياب و عبـد الوهـاب البياتـي و نـازك الملائكـة و أودونيـس و نـزار قبانـي و غيرهـم . . و قـرأ لماركـس و إنجلـز و لينيـن و جـون فريـزر و وول ديورانـت و سـارتر و كامـو و برترانـد رسـل و هايدجـر و موريـس توريـز و أبـن طفيـل و أبـن باجـة و أبـن رشـد و إبـن خلـدون . . و لحسـن حظـه سـتبلغ المجـلات الفكريـة المصريـة أوج رقيِّهـا فـي تلـك الآونـة، فـراح يقـرأ فيهـا لمحمـود أميـن العالـم و حسـين مـروة و لطفـي الخولـي و أحمـد عبـاس صالـح و ثـروت عكاشـة و غيرهـم . . قـراءة و قـراءة و قـراءة . . فـي المدرسـة و فـي البيـت و فـي المقهـى و فـي الشـارع و أينمـا توفـر النـور ليـلا . . و حصـة الأسـد فـي قراءاتـه ظلـت لترجمـات الأدب و المسـرح . .

شكسبير و الفريد فرج و برانديللو و جون أوزبورن و جيكوف و أبسن و بيكيت و برشت و غيرهم . . عربي و إنكليزي و روسي و فرنسي و الماني و إيطالي و أسباني و بلغاري و إسكندنافي و أيراني و هندي، دون أن يبخل على نفسه بقراءات مبسطة باللغة الإنكليزية أيضا!

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

شلَلٌ ثلاث تتداول أوقات شمران الأحمدي . . شلته الأولى في المدرسة . . و شلته الثانية مع عبيد الصباغ التي بات ذهابها الى بغداد كل جمعة تقريبا تقليداً أسبوعياً . . يتجولون في شارع المتنبي حيث المكتبات، و يصرف شمران قسطاً كبيراً من راتبه على شراء الكتب . . يتناولون وجبة غداء في مطعم تاجران الشهير في الشارع نفسه . . يدخلون الى صالة سينما ليشاهدوا فلماً جديداً في عرض الساعة الواحدة ظهراً قبل عودتهم الى بعقوبة . . و توفرت السينما لشمران قناةً ثقافية إضافية يغني بها ثقافته و روحه و تنأى به مسافات أبعد عن أوهام المثالية الفلسفية . . تعرَّف في صالة السينما على قصص حياة موسيقيين كبار . . فرانز ليست . . بيتهوفن . . ريتشارد فاگنر . . چايكوفسكي و غيرهم، وأفلام سيرة الموسيقين هي التي حفزته على الإستماع الى الموسيقى الكلاسيكية ، البحث عنها و محاولة فهمها، و الإندماج فيها، فعرف في وقت مبكر جدا الفرق بين الموسيقى مع الغناء و الموسيقى مجردة من الكلمات . . فرق سيضعه لنفسه فيما بعد في معادلة من نوع ما . . على قدر ما يستهلك الغناء من مشاعر إنسانية، تروح الموسيقى لا لتستهلك المشاعر بل لتولّد مشاعر! . . و تعرف في السينما أيضا على حياة ثائرين من طراز سبارتاكوس و على قصص الميثولوجيا اليونانية في أفلام كثيرة . .

و شلته الثالثة كانت شلة الزيدي من الممثلين و المثقفين الذين إلتحق بهم الكاتب العام سلوان البكري، بعد إطلاقه من المعتقل و إعادته الى الخدمة و إبعاده من المقدادية الى بعقوبة . . تلتقي الشلة أما في بيت حسين الجليلي او في مقر فرقة مسرح المجددين . . و سيعمل شمران مع الزيدي و

البكري على إصدار نشرة متواضعة تنقل أخبار المسرح و الثقافة عموما في بعقوبة، و طباعتها و توزيعها على حساب جيوبهم الخاصة. و سيتبع ذلك إصدارهم لعددين من . . مجلة القصة . . و سينشر شمران فيهما محاولاته الكتابية الحيِيُة الفجة الأولى، و ستمتد محاولاته الحييّة منذ ذاك الوقت لتصل الى صحف بغداد بمساحات صغيرة جدا.

و شمران تتوزعه الشلل الثلاث، وقعت بالديار نكستان . . أولاهما الهزيمة التي هزت العالم و المنطقة بخسارة جيوش الدول العربية أمام إسرائيل الدولة الصغيرة في حزيران 1967، و بروز العمل الفدائي الفلسطيني عنصرا في ساحة الصراع، و إصطفاف المثقفين عموما لدعم الفلسطينيين. و راحت . . فرقة مسرح المجددين للتمثيل . . لتكون جزءً من جهد الدعم، فتتمرن على العديد من المسرحيات القصيرة الداعمة للفلسطينيين . . و على مسرح قاعة نادي الموظفين سيشهد الجمهور مسرحية . . الحقيبة . . كتبها حسين الجليلي و أخرجها سليم الزيدي، و سيقوم شمران فيها بدور فدائي يخترق خطوط العدو و يعود مصابا . . و ها هو شمران ياخذ دوراً في مسرحية قصيرة أخرى داعمة للفدائيين، قدمت على مسرح قاعة مدرسة الإنتصار للبنات مقابل نادي ديالى الرياضي، من تأليف و إخراج سليم الزيدي . . و تروح الفرقة لتجول في مناطق عديدة.

ثاني النكستين هو نجاح المخابرات الأمريكية في الوصول الى الثائر الأممي الأرجنتيني تشي غيفارا في أعماق غابات بوليفيا و إغتياله في أكتوبر 1967 . . مأثرة غيفارا التي إستلهمها المثقفون كانت زهده بالمنصب وزيراً في حكومة الثورة الكوبية و تفضيله الخروج شاهراً سيفه . . من أجل من لم يجد الدقيق في بيته من المسحوقين البوليفيين . . فصار مصباحَ هُدى، لأنه لم يخرج مطالبا بإرثِ حكمٍ يجيئه من أبيه أو جده! . . يا للمثالية! . . و أجهضت المخابرات الأمريكية مجهوده ليكون سفينة نجاة لفقراء البوليفيين، مثلما كان للكوبيين.

حرب حزيران 1967 هي هزيمة بإمتياز للنظام العربي و تسلطية الفكرة

الواحدة . . و ها هي حلقات المثقفين تنشط و ينشط معها حراكا شعبيا من نوع ما . . إرهاصات تشير الى توقعات مفادها أن الأمور لا بد أن تفضي الى شئ ما يخفف من آثار هزيمة حزيران على العراقيين . . نارٌ تحت الرماد! . . بمجئ عام 1968 كانت سُحبٍ نُذُرٍ كثيرة تتجمع في المجهول وراء كواليس . . في أروقة الشريحة الحاكمة في العراق و إمتداداتها . إشاعات تدور . . و تدور . . و تدور . . و تدور عن الشيوعيون يلتقطون انفاسهم و يلفظون جراحهم التي خلفها إنقلاب شباط 1963 و باتت تلتئم باستعادة لبعض قواهم . . إشاعات تدور عن قدرتهم للقيام بفعل ما . . رافق الإشاعات تخويفٌ من عمليات إنتقام سيقوم بها الشيوعيون إن وصلوا . . و ذات ليلة من أوائل ليالي صيف عام 1968 في منتصف حزيران تقريباً، و شمران يستمع لترديد بعض هذه الإشاعات على مائدة تكر مخصصة لتوديع العام الدراسي جمعت شلة معلمي . . مدرسة الأمل في نادي موظفي الخالص . . مصغياً لندمائه يتداولون الإشاعات بجدية و قلق، فيعلق شمران و هو يرتشف من كأسه قائلاً:

ندمائي الأعزاء . . على مهلكم! . . و أعذروني . . آني كلما أسمع حملة تخويف من الشيوعية . . ذهني ينصرف فورا الى هاجس هو أن خطباً ما سيحصل في البلد! . . حملات تخويف منيش؟ . . هذي مو فرنسا الرأسمالية بها شيوعيين . . و هذي مو بريطانيا مثلها . . و إيطاليا نفس الشي . . و هي كلها بلدان رأسمالية عقيدتها تعادي الشيوعية!

يسأله فليح حسن:

شلون يعني؟

بناءً على الإشاعات اللي هسه ذكرتوهه عن قدرات الشيوعيين . . إحنه أولاً بحاجة لإجابة سؤال من هذا النوع . . هل يستطيع الشيوعيون فعلاً القيام بإنقلاب بعد أن نُتِفَ ريشُهم في الجيش العراقي

نـَتفاً كامـلاً علـى أياديكـم بإنقلابكـم مـال ثمانيـة شـباط!

ندمـاؤه مـن البعثييـن يَأخـذون تلميحـه لإنقـلاب شـباط علـى أنه مـزاح، فتروح القهقهـات تضـج فـي حديقـة النـادي الكبيـرة لدرجـة أن ندمـاءه البعثيين أنفسـهم راحـوا يتلفتـون خشـية ألا يكـون أحـد علـى الموائـد المجـاورة قـد سـمع مـن شـمران هـذا التلميـح، بخاصـــة الندمـاء الذيـن تعـرَّف عليهـم شـمران فـي السـهرة و لـم يلتقهـم مـن قبـل، و تبـرع أحدهـم للتعليـق:

- تـگـول نتفنـه ريشـهم بثمانيـة شـباط؟ . . عجيـب! . . أشـو ظنينـا فعـلاً إحنه بثمانيـة شـباط نتفنـا ريشـهم كامـلاً . . و بعديـن بعـد چـم شـهر فـي بدايـة تموز طلعلنـه حسـن سـريع بمعسـكر الرشـيد و كاد بمجموعتـه الزغيـرة يطيـح بينـا لومـا الخربطـة اللـي صـارت و سـوء التوقيـت!

و يخطـر فـي بـال شـمران أن يعلـق بـأن البعثييـن بالتالـي قـد أطيـح بهـم مـن قبـل أخوانهـم القومييـن الناصرييـن، لكـن نديمـاً آخـرَ يسـبقه بالتعليـق:

- عمـي . . إنـتَ تـگـول مجموعـة حسـن السـريع زغيـرة؟ . . يـا مجموعـة زغيـرة! . . خـوات الـگـحبة چـانو أكثـر مـن ألفيـن بتنظيـم المؤامـرة . . هـي الألفيـن مجموعـة زغيـرة؟

شـمران يبتسـم، و بثـلاث ثـوانٍ يمـر بخاطـره . . طبعـا مجموعـة حسـن السريع مـو زغيـرة . . الألفيـن مـو زغيـرة بعيونكـم لأن العصابـة اللـي نفذت إنقـلاب شـباط لـم يكـن عددهـا ليصـل الـى بضعـة عشـرة . . و الفـرق هـو . . أكـو نـاس متمرسـين بالتآمـر و آخريـن غشـمة بخبـرة التآمـر! . . و يـرى شـمران فليـح حسـن ينغـز المتحـدث بعكسـه ربمـا لينبهـه لبذاءتـه، لكنـه يـرد علـى فليـح بصلافـة:

- هـاي شـبيك أسـتاذ فليـح! . . شـنو مجموعـة زغيـرة؟ . . هـذي حقيقـة . . هـم مـا چـانو مجموعـة زغيـرة . . بس المنفذيـن الفعلييـن اللـي حاكموهـم و عدموهـم چـانو أكثـر مـن ثلثميـة!

و يحس شمران أن عيار النقاش عند الندماء الجدد الذين تعرَّف عليهم للتو قد يفلت أكثر، فيحاول أن يعود بالحديث الى منطق معقول، فيعلق:

زين يا جماعة! . . هسه دعونا من اللي راح و مضى . . خلونه نحچي باللي يجري هسه باللحظة . . إنتو كلكم حتماً سمعتوا باللي حصل في كليات جامعات بغداد بالأشهر اللي مضت!

[illegible]فاطعه لطيف الفهد مستفسراً:

تقصد إضراب الطلبة؟

[illegible]رد شمران:

أحسنت . . عاشت ذاكرتك أستاذ لطيف! . . آني چنت أسمع أيامها بأسماء مثل صدام التكريتي . . طالب بن ماهية . . سعدون شاكر . . جبار الكردي . . ناظم گزار[45] . . بالله عليكم رجاءً . . خلونه نگول

[45] لم يكن أحد قد سمع بـ«**صدام التكريتي**» إلا لماماً بعد مشاركته في [illegible]وم على موكب عبد الكريم قاسم في رأس القرية عام ١٩٥٩ و تردد أسمه [illegible]ا من جديد في الإضراب الإجباري الذي أرغم عليه طلبة جامعة بغداد من [illegible] التهديد شتاء و ربيع عام ١٩٦٨ و تردد في حينها أن صدام كان أحد أفراد [illegible] التي كانت تطلق النار على الطلبة لترويعهم و تهديدهم. و «**سعدون شاكر**» صار بعد نجاح إنقلاب تموز ١٩٦٨ قياديا في حزب البعث و تسنم عددا [illegible] المناصب الوزارية من بينها وزيرا للداخلية و بعد إحتلال العراق عام ٢٠٠٣ فر [illegible]ون شاكر الى فرنسا. و «**ناظم گزار**» صار بعد إنقلاب تموز ١٩٦٨ مديرا [illegible]الأمن العامة» العراقية و لكنه أعد لمؤامرة فاشلة في مطلع السبعينيات [illegible]طار بغداد الدولي أراد بها الإطاحة برئيس الجمهورية احمد حسن البكر [illegible]ودته من زيارة لدولة في أوروبا الشرقية و بصدام أثناء إستقباله لرئيس [illegible]ورية. و راجت إشاعة في حينها إن إستخبارات دولة أوروبية شرقية هي [illegible]كشفت خيوط تلك المؤامرة و أعلمت بها الإستخبارات العراقية. و بعد مدة [illegible]سلم البعثيين للسلطة عام ١٩٦٨ ترددت شائعات عن أن صدام التكريتي [illegible]د إنقلاب تموز ١٩٦٨ الى تصفية بعض افراد العصابة المذكورة و منهم «**[illegible]مار الكردي**» و «**طالب بن ماهية**» و آخرين بعد تسريبهم لمعلومات عما [illegible]»**منظمة حنين**» و هي المنظمة التي رأسها صدام و كانت مسؤولة [illegible] إدارة شؤون حزب البعث و إدارة سياسات العراق في مطلع إنقلاب تموز ١٩٦٨ و حاول ناظم گزار أن يتغدى بصدام قبل أن يتعشى صدام به و فشل. [illegible] هذه العصابة قيل فيما بعد انه في عشية إنقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨

صدام التكريتي أحنه سامعين عنه بمحاولة إغتيال عبد الكريم قاسم سنة 1959 و نعرف هو بعثي . . بس هذوله الباقين شنو؟ . . و منو هُمَّ اللي چانو بالشهور اللي فاتت يروحون لكليات جامعة بغداد و يضربون طلقات من مسدساتهم بالهوا لإجبار الطلبة على الإضراب؟ . . هذولة چانو شيوعيين!

و لأن لطيف الفهد كان لربما يعلم أن صدام بات منذ أكثر من عام أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث في العراق، يعلّقَ قائلاً:

- لا مو شيوعيين بالتأكيد! . . ثلة من عصابة! . . أستاذ شمران . . هذوله عصابة . . عصابة معروفة زين في بغداد من النشالين و قطاع الطرق و محترفي مهنة اللواط!

ويسمع شمران من ندمائه من يتنحنح و يلاحظ بينهم أيضا من تضطرب جلسته في كرسيه منبها الفهد على تفريطه المبالغ به و منهم من سيعقب:

- على كيفك أستاذ لطيف! . . الإشاعات اللي تلوكهه ألسن الناس كثيرة و هوايه . . و هيچي ما راح ينعرف الصدگ اللي بيهه من الچذب!

ندماء شمران من زملاء مدرسته من غير البعثيين ظلوا صامتين يستمعون بفضول للطريقة التي أدلى بها شمران بدلوه، طالما كان الحاضرون من البعثيين هم الذين بدأوا يتحدثون بالإشاعات عن لَمٍّ الشيوعيين لقواهم للقيام بإنقلاب على السلطة. و شمران يعلم علم اليقين

في الوقت الذي كان فيه ضباط كبار من طبقة أحمد حسن البكر و حردان التكريتي و عبد الرزاق النايف و عبد الرحمن الداوود و سعدون غيدان و غيرهم يشتغلون في الواجهة لتدبير الإطاحة برئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف كان صدام ببزة عسكرية برتبة كبيرة (هو الذي لم يخدم يوماً في الجيش) يعتلي دبابة تراقب مداخل القصر الجمهوري في الوقت الذي كانت به عصابته (التي سيشاع عنها تسمية «منظمة حنين») تتسلل الى القصر الجمهوري في سيارة بيكآب (و ربما كانت هذه السيارة البيكآب و العصابة التي فيها هي الدبابة الأمريكية الرمزية التي عناها علي صالح السعدي معترفاً بحملها البعثيين الى السلطة في شباط ١٩٦٣، جاء لكي يتسلل الى السلطة من جديد).

انه بدلالة إسم صدام في المجموعة بإمكان حتى الساذج أن يستنتج بأن مرجعية العصابة التي روعت طلبة الجامعة و أجبرتهم على الإضراب هي مرجعية بعثية، مع أن معلوماته عن صدام كانت شحيحة جداً . . و سيحاول شمران أن يعود بالحديث من حيث بدأ، فيقول:

بس آني بعدني عند رأيي اللي ذكرته بالبداية . . من تبدي حملات إشاعات بتخويف الناس من الشيوعيين، رأساً يخطر في بالي أن خطباً ما مُقبل على البلد! . . فهل أن خطباً يلوح في أفق هذا البلد؟

[illegible]ادما ربما على أفراط في حديثه عن العصابة التي أجبرت الطلبة [illegible]ى الإضراب . . أراد الفهد أن يجد مخرجاً مما عدَّهُ الندماء من رفاقه [illegible]مثيين تفريطاً، فيقول مخاطباً شمران بلهجة مهذبة:

أستاذ شمران . . شنو رأيكم يا جماعة؟ . . نطلب عشاء!

[illegible]يل مفاجئ و مقصود في الحديث، و يستنتج شمران رغبة المضيِّف [illegible]لاق موضوع النقاش بأكمله، و كان محقاً في فهمه . . سيجيئ خادم [illegible]ذي ليأخذ طلبات العشاء . . و تظل مجموعة الندماء التسعة صامتة [illegible] محاولين إرتشاف ما وَشِلَ في كؤوس الطلا من العرق المستكي . [illegible]مجئ العشاء سيروحون يلوكون قطع لحم التكة بصمت، عدا تعليقات [illegible]براعة شي التكة التي راحوا يمضغونها بفكوك سَكِرةٍ.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

[illegible] صافية أم شمران دؤوبٌ في التوفير . . و ها هي تفلح بحلول ربيع [illegible] بجمع ما يكفي لشراء قطعة أرض في المنطقة المقابلة لبلدية [illegible] و سيتولى شمران عملية البناء. و سرعان ما تَشَيَّدَ بيت للأسرة [illegible]قطعة الأرض. و بمجرد أن أُخْتُتِمَ بناءُ البيت أواخر حزيران، إنتقلت [illegible] هان الأحمدي الى بيتها الجديد و معهم إبنتهم أميرة زوجة غايب [illegible]ن و طفليها. . و مع إنشغاله في ترتيب و زراعة البيت الجديد، و

منذ إنتقالهم هناك، كان شمران حين ينوي الذهاب الى دار سينما ديالى لمشاهدة فلم، قد إعتاد على أن يأخذ الشوارع الخلفية للوصول الى دار السينما.

ذات ليلة من تموز 1968 . . سينما ديالى تعرض فلم عبد الحليم حافظ . . أبي فوق الشجرة . . ذهب شمران تلك الليلة الى صالة العرض الصيفية. قطع تذكرة في الموقع الأول، و باب الدخول إليه قريبة من الباب الخلفي لغرفة كازينو أم كلثوم، و لا يفصل بينهما سوى حانوت إبراهيم أبو العنبة. إستمتع شمران بقصة الفلم، و إستمتع أكثر بالإستماع الى ألحان أغاني الفلم. و قد إعتاد عند إنتهاء عرض الفلم على أن يتأخر في مقعده لغاية أن يخف الإزدحام عند الباب، و هو يغادر الصالة حوالي الساعة العاشرة، و قد خف في الشارع إزدحام المغادرين لصالة العرض، سيجتَلبَ إنتباهَهُ الإزدحامٌ عند الباب الخلفي لغرفة كازينو صهره غايب، و في وضع لم يعتد على رؤيته من قبل عند باب غرفة الكازينو. و ما سيجلب إنتباهه أكثر هو وجود شرطيين في باب الغرفة . . شرطيان؟ . . لِمَ؟ . . وجود الشرطيين هو الذي حول إنتباهه الى فضول شديد لمعرفة ما يجري على الرغم من إنصرافه عن معرفة شؤون صهره غايب مرهون.

يقترب شمران رويداً من الزحام ليستطلع ما يجري . . صهره هناك عند باب الغرفة مولياً ظهره الى الشارع و لم ينتبه لمجيئه . . و مع نفوره من صهره غايب، يسوقه فضوله الى الوقوف و الإنتظار ليعرف لبٌ ما يجري . . رأى أحدَ الشرطيين يدخل الى الغرفة و يخرج بعد دقيقة و معه ثلاث رجال، ميّز شمران من بينهم موظف مصرف و الآخران كان يعرف أن أحدهما من آل البندر و الآخر من الخشالات، و لكنه لا يعرف إسميهما، و رأى الشرطي يصفـّهُم عند الجدار. حاول أن يرى من في داخل الغرفة و لكن باب الغرفة وُريَ بعد خروج الثلاثة . . و لم تمضِ سوى دقيقتين، و سُمِعَ صوت آتٍ من داخل الغرفة:

- و لك! . . غايب إبن مرهون العربنچي . . تعال!

، ها هو صهره يدخل الغرفة متعثراً. بعد دقيقتين نودي على الشرطيين
ـن داخل الغرفة. و لم يمض وقت يتجاوز الدقيقة خرج صهره مكبلاً
بالإصفاد و مطوقاً بالشرطيين، فوقعت نظراتهما، هو و صهره، أحدهما
على الآخر، ما ذكّر شمران بنظراتهما احدهما الى الآخر أثناء وجوده
في المعتقل . . و من باطن الغرفة ظهر وراءه الوجه الجهم لرئيس عرفاء
انضباط الشرطة تركي الفتلاوي و يعرف شمران الكثير عن دناءته حين
تكون نوبة دورياته الإنضباطية في سوق بعقوبة و شارع الحسينية . .
، أمام أنظار الجمع المحتشد سار موكب لافت و غريب نحو شارع
الشاخة، يقوده تركي الفتلاوي و وراءه غايب مرهون مكبلاً بالأصفاد، و
يسير وراءه ثلاثة من أبناء أعيان بعقوبة دون أصفاد، و وراءهم شرطيا.
بعض الجمهور الفضولي بلحق بهم متفرجا على المنظر . . و إنفضاض
النسبي للناس عن باب غرفة الكازينو، سيتلفت شمران حواليه، فيرى
ابراهيم أبو العنبة مشغولا يلملم أغراض دكانه إستعداداً للإقفال، فهمَّ
شمران لسؤاله عن الموضوع و لكنه أحجم. و يستدير شمران الى الخلف
سالكاً طريقه في الشارع الخلفي لدار السينما، متوجهاً الى البيت.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

منشاغلاً بسقي الشجيرات التي كان قد زرعها قبل أسابيع في حديقة
بيتهم الجديد و متفحصاً بعدها نمو ثيل الحديقة . . راح شمران ليُقَلِّبَ
الموقف و المشهد الذي رأى صهره فيه تلك الليلة . . لم يخبر أخته أميرة
بما جرى لزوجها . . فمن أين لها يا ترى لتعلم بما حصل و قد إعتادت
على غياب زوجها عن البيت أسابيعا، و ربما شهورا طويلة! . . أحس
ان ليلته لن تمضي دون قلق . . و لم يكن ليهتم بالأمر كله لولا إحساسه
ان الأمر سيمس حياة أخته و عيشتها . . قلق! . . صهرٌ مكبلٌ بالأصفاد!
تأفف رامياً خرطوم المياه من يده، و خرج ليصل الى محل أبي ناظم
المشروبات، فهو الأقرب إليه. ذهب و عاد بربعية عرق مستكي، أخذ
معها ما يحتاجه من مطبخ البيت و رَكَنَ الى غرفته يرتشف الخمرة و
يقرأ في ديوان أراغون . . عيون إلزا . . و هو يقرأ . . عيناك أرى فيهما و

أنا أنحني لأشرب كل الشموس تنعكس . . تذكر نهدا خولة يشعان كأنهما عينان ليعكسا ضوء كل أقمار الكون على وجهها فتلتمع عيناها . . و ذاب في القراءة حتى وقت متأخر لغاية أن أتى على الديوان من آخره . . و لم يكن قد إرتشف من زجاجة الخمرة سوى القليل.

متأخرا في صحوه من النوم صباحا . . ظلت يدا أمه تهزانه، فظن أول الأمر أن اليدين تهزانه في منامه. لكن صوت أُمِّهِ الحي الهادر يحثه على الصحو و النهوض هو الذي أفاقه فعلاً . . و لم تكن عند أمه، أو عنده، عادةَ أن يُفيقَهُ أحد من النوم لثقته بساعته البايولوجية في الإستيقاظ المبكر حتى لو نام عند آذان الفجر . . لِمَ لَمْ يصحو هو بنفسه من نومه كعادته؟ . . هذا خاطر ورد الى ذهنه، و هو يرى أشعة الشمس تنعكس في زجاج النافذة . . و سينتبه الى أنه ينضو عرقاً و قد تبللت فانيلته و لباسه الداخلي على الرغم من أنه خلع بيجامته قبل أن يأوي الى السرير، سألته أمه:

- هيچي! . . غرگان بعَرَگَكَ!

و يلتبس الأمر عنده في مقصدِها، فرد و هو يغالب نومه في عينيه يعلق:

- أمي العزيزة! . . يا عرگ؟ . . هذي مو هي ربعية العرگ بعدهه تقريبا صاغ سليم على الميز!

فتضحك أمه صافية، معلقة:

- شوفو شلون اللي جوه إباطَـهَ عَنـز يبغِّـج! . . إبني . آني دا أقصد عرگ جسمك مو هذا العرگ المنكر اللي على الميز . . اللي شِاگ أفادك بيه! . . چنت أقصد . . ليش ما صعدت نمت على السطح . . هناك هوه الله يفرفح الروح . . و هوه الله أحسن من هوه هذي الپانكه التعبانة!

و يتصاحى في السرير، ليرد عليها:

چـانت ببالي حسبة . . حسبة چـبيرة و حاولت إنشغل عنها بالقراءة!

تقاطعه:

حسبة! . . خيـر! . . يـا حسـبة؟ . . بـس شـگـد مـا تصيـر الحسـبة اللـي شـاغلة بالـك چــبيرة . . هـذي الحسـبة اللـي سـمعت عنهـه گـبل شـوية بالراديـو راح تنسـيك كل الحسـبات!

حسبة؟ . . . بالراديو؟ . . . حسبتيش أمي!

يـگـولون إنقلاب أبيض!

ىـز ناهضاً من سريره بصحوٍ كاملٍ، و يعقب:

أبيـض! . . شـنو أبيـض أمـي؟ . . يعنـي تقاتلـو و سـقطو الحكومـة بالسـلاح الأبيـض . . لـو اللـي سـوو الإنقـلاب لابسـين هـدوم بيض؟

شـمران . . إبنـي گـوم . . تحـچـي نـكات! . . . يـا سـلاح أبيـض! . . يـا هـدوم بيـض! . . لا تغشّـِم نفسـك! . . يقصـدون إنقـلاب مـا إنقتـل بيـه أحـد!

يمـه . . أم أميـر القيروانـي! . . أم شـمران الأحمـري! . . شـنو هالحـچـي الرومانسـي؟ . . هـذا البلـد مـا تصيـر بيـه إنقلابـات بيـض مـن هالنـوع! . . كل الإنقلابـات تبتـدي و تنتهـي لـو بقتـل أو شـنق أو سـحل . . و هـذي كلهـا يجـري بسـببهه دم أحمـر!

إبنــي هـذا اللـي سـمعته مـن الراديـو . . و يـگـولون رئيـس الجمهوريـة عبـد الرحمـن عـارف حاطينـه بطيـارة و دازينـه لتركيـا.

عجيب! . . شئ لا يُصدَّقْ!

يتحمم متخلصـاً مـن عَـرَقِ جسـمه . . خبـر الإنقـلاب الأبيـض لـم يُنسِ شـمران قضيـة صهـره التـي حصلـت بالأمـس، و لا بـد أنهـا سـتكون هـي الأخـرى

حدثاً جللاً و إنقلابا بالنسبة لأخته أميرة، فهي عنده أهم من كل الإنقلابات بيضاً أو سوداً أو حمرا! . . و يظل يُقلِّبَ الأمر في رأسه، و يقرر أخيراً أن يحكي لأمه قبل أي أحد آخر.

متناولا فطوره في المطبخ يستمع الى أخبار الإنقلاب الجديد يوم السابع عشر من تموز 1968، و مقاوماً حرَّ نهارٍ يشي بلهيبه منذ الصباح الباكر . . و أمه تأتيه بمدد فطاره من الشاي . . أخبر أمه بما حصل لصهرها بالأمس . . لم تعلق و لم تقل شيئاً، و يظل شمران يراقبها و هي تحاول أن تتغلب على ما سمعته و تحلله بإشغال نفسها بأمور صغيرة من أمور المطبخ، صامتة مرةً، و مرةً أخرى مثلما إعتاد أن يراها تتحدث مع نفسها بصوت خافت يغلب على حركات يديها، فيعلق هو:

- ها؟ . . هذا خبر أقوى من خبر الإنقلاب الأبيض . . مو؟

- إبني . . و شراح تسوي؟

- فاس طاح بالراس! . . خليني أروح أشوف و أفتهم القصة من الكازينو مو من غير مكان!

- من الكازينو؟

- أي أم أمير . . هو هذا الچايچي البهرزاوي ماله مو تگولون يبات بالكازينو؟

- هذا اللي نعرفه!

- إذن أروح أسمع القصة منه . . مو من غيره! . . بس أفضِّل آخذ مرهون الزغير ويايه حتى يتعرف على مصالح أبوه بوقت مبكر!

- مرهون الزغير!

و يفضَّل ألا يخيف أمه منذ البدء بإحتمالِ إيداع زوج إبنتها لمدة طويلة

في السجن، و إن تكشفت نيته بتعريف طفل أخته بمصالح والده لإحتمال غياب زوجها لمدة قد تطول لسنين، فأجاب بكلمة واحدة لا غير:

- إي.

الوقت ضحىً . . تاركا أمَّهُ تُسرِّبُ خَبَرَ سجنِ صهرها لإبنتها الوحيدة .
غادر شمران مستصحباً معه مرهون إبن أخته الذي ظلَّ يلاعبه طول الطريق بالكلام، فهو يعلم بأنه سيكون من الصعوبة جعل طفل بعقله الصغير يدرك ما سيحصل لوالده، إن لم يتدخل أحد لتخليص الوالد من مشكلته بمعجزة . . و مع ذلك، وجد أن من واجبه أن يبدأ بإطلاع الصغير على ما يجري.

وصولهما هناك . . يفضّلَ شمران إلا يذهب الى الكازينو من بابها على الشارع العام، بل من الباب الخلفي الذي شاهد منه الموقف بالأمس . . يطرق على الباب، فيسمع صوت في الداخل يصرخ . . يا ساتر! . . و سرعان ما إنفتح الباب، و برز من ورائه وجه الچايچي و معه صوت المذيع من راديو داخل الغرفة مواصلا إذاعة أخبار الإنقلاب الجديد . . ظل أبو فردوس يتطلع لثوان في وجه شمران و وجه الصبي ببلاهة و ذهول و حيرة، فيقرر شمران أن يعرِّفه بنفسيهما، مشيرا الى الصبي:

هذا مرهون إبن غايب.

يتطلع الچايچي الى وجه الصبي الذي لم يره من قبل إطلاقاً، ثم تطلع الى وجه شمران قائلاً:

آه! . . أستاذ شمران . . الله يلعن النسيان! . . لعد إنت أستاذ شمران نفسك أبو الماطور الأحمر و نسيب أبو مرهون و آني ما أدري!

بمزاج سيءٍ يعلق شمران:

يا للماطور الأحمر! . . عفيه هالماطور الأحمر و سالفتة العتيگة راح

تظل مثل البليَّة تركض ورايه وين ما أروح!

يرد الرجل معتذراً بأدب جم:

- العفو أستاذ شمران . . العفو! . . و الله ما چان هذا قصدي! . . تفضل!

يدخل الغرفة و معه مرهون الصبي، و يضيف الرجل معتذراً و موضحاً:

- أعذرني أستاذ شمران . . آني گبل ما أجي أشتغل في بعقوبة عند حسين صفاوي چنت أشتغل في بهرز بالگهوة اللي چان هاتف أبو الجرايد يحط الميز ماله جدّامهه . . و چنت أشوفكم إنتَ و ذاك اللي يجي وياك على الماطور تاخذون صَفطَة جرايد!

واضحٌ أن الرجل يريد أن يعرِّفَ بنفسه و لم يجد غير تلك الطريقة . . و شمران يتلفت متفحصاً موجودات الغرفة، يقاطع الرجلَ مستفسراً:

- هسه ما علينا! . . أبو فردوس . . گوللي هذا شنو اللي صار البارحة؟

يرد الرجل:

- مصيبة أستاذ شمران! . . إنتً لو ما جاي هنا بنفسك . . آني گبل شويه چنت ناوي أجيلكم للبيت و أخبركم!

و يقدَّمَ أبو فردوس الچايچي تقريرا مفصلاً عن وضع الغرفة و ما حصل فيها في الليلة السابقة، و يضيف قائلاً:

- بس آني اللي محيرني . . هو شنو اللي خله هذا الچلب تركي الفتلاوي يگلب هالگلبة علينا . . و الله يا أستاذ شمران . . هذا اللي سواه الفتلاوي چان إنقلاب!

إنقلاب! . . لم يعلق شمران، و يمرّ بخاطره . . شنو قصة الإنقلابات هاليومين! . . البارحة بالليل إنقلاب بكازينو أم كلثوم . . اليوم الصبح

إنقلاب بالبلد كله! . . و راح شمران يحاول تعريف مرهون الصبي بمهنة أبيه، التي لم يحصل له قط و أن رآها أو تعرَّف عليها من قبل، و سيظل أثناء حديثه مع الوَلَد يستمع الى أبي فردوس يضيف:

- و آني أبد ما أبرئ الدنداوي و أولاده . . و هذا اللعين حسن الدماري . . من اللي حصل! . . هذي مصيبة چبيرة . . وراها سجن طويل!

يفضَّلَ شمران ألا يعلق، و يظل مستمعاً لأبي فردوس يزوده بأكبر قدر من التفصيلات:

- أستاذ شمران . . الشرطة گَشوه لهذا الدولاب گَشْ . . حسب علمي چان بيه فلوس عشرات الدنانير . . إذا مو ميّات! . . كل خزينة أبو مرهون چانت هنا . . ما تركو بيهه و لا قَمَري غير هذي الأوراق اللي بالصندوگ . . و هذا صنوگ الخشب الزغير الزرقورق!

بدنوه من الدولاب و فتحه . . يتطلع شمران الى الصندوق الحديدي و يسحبه خارج الدولاب ليتفرج على ما فيه . . أوراق و كمبيالات عديدة لغايب في ذمة أشخاص آخرين. و يقلِّب فيها، فيتعرف على أصحاب بعض الأسماء الموضوعة على الكمبيالات . . ثم يسحب الصندوق الخشبي الصغير، و يفتحه و يتطلع على ما بداخله و يعيدُ غلقه.

- أستاذ شمران . . عيني شراح يصير بينا؟

يكاد الرجل يبكي، و هو يضيف:

- إحنه لحم چتافتنه كلنا . . آني و مرتي و بناتي . . من خير هذا المكان! . . شراح يصير بينا أستاذ شمران؟

يهدِّئه شمران واعداً:

- خلينا نفكر زين . . و نشوف شراح نسوي! . . إنتَ مَشِّي الشغل اليوم

بـأي طريقـة و آنــي راح أجيكـم بالليـل متـأخـر شـويـة.

و يُخرج أبو فردوس كيسا من عبِّه، مخاطباً شمران:

- و هذا دَخَل الكازينو مال البارحة جمعته بعد ما أخذو أبو مرهون.

يطلب شمران منه الإحتفاظ به عنده لغاية أن يجيئه ليلا.

مستصحباً مرهـون الصغيـر معـه، يخطـر ببـال شـمران أن يقـوم بجولـة فـي باحـة الكازينـو لإطـلاع تقريبـي علـى مـا فيهـا، و لطالمـا كان يريـد أن يطلِّـعَ علـى مـا فيهـا و هـو مـار فـي النهـار و لكـن نفـوره مـن صـهره منعـه مـن الذهـاب الـى الكازينـو . . أخبـر أبـا فـردوس بنيتـه، فيصطحبهمـا الرجـل الـى هنـاك . . تطلـع شـمران الـى واجهـة الكازينـو . . صـورة أم كلثـوم مطـرزة فـي إطارهـا بزهـر النرجـس، فيتذكـر مجـئ غايـب الـى دكان أخيـه أميـر القيروانـي ليتفـرج علـى صـورة أم كلثـوم المعلقـة فـي ركـن الـدكان . . صـورة يتدلـى فيهـا مـن أذنـيّ المطربـة قرطـان طويـلان، فسـأله غايـب آنـذاك:

- هاي ليش هـيـچـي ترچيتهه طويلة و واصلة لـچنافاتهه؟

رد عليه:

- . . و آني شمردريني! . . ليش ما تسألهه هي؟ . .

و يتذكـر أنـه ضحـك، و علـى ضحكتـه ضحـك غايـب ببلاهـة كاشـفاً و كأنـه يتعمـد ذلـك عـن صـف أسـنانه الذهبيـة! . . أكانـت تلـك البلاهـة و صـف الأسـنان المغلفـة بالذهـب هـي سـبب نفـوره مـن غايـب؟ . . و هـا هـو مـرور نرجسـات خولـة فـي خاطـره بأصصـها صـغيـرة تصـرف إحساسـه بـالنفـور مـن غايـب، فيقـرر فـي داخلـه ألا ينسـى شـراء سـنديانات لبيتهـم الجديـد كـي يـزرع بهـا بحلـول الخريـف زهـر نرجـس و يضعهـا فـي طارمـة المنـزل و كأنـه ركـنٌ زهـر خـاص بـه لا بغيـره مـن أهـل الـدار . . طـُـلُ زهـرِ تذكـّرُه

خولـةا! . . ثـم راح يجـول فـي باحــة الكازينـو متفرجـا علـى ترتيبهـا . . و
اتـي لصـف الـورد و الزهـر الموجـود علـى طـول سـياج الكازينـو الواطـئ،
يسـأل أبـا فـردوس:

- أخـي أبـو فـردوس . . أتذكـر آنـي مـن چـنت أمـر مـن هنـا بالشـتا
شوف هنـا صـف زهـر نرجـس مـو غيـر زهـر!

- تمـام . . مضبـوط! . . لأن أبـو مرهـون مـا چـان يقبـل ينزرع بالشـتا
غيـر النرجـس ويـه هـذي شـتلات الـورد . . و أكـو فـلاح كـوردي چـان هنـا
في بنايـة المصـرف اللـي گـبال الكازينـو . . هـذا الفـلاح چـان يجيبلنـه ويـه
اول گـرصـات البـرد بالخريـف نرجـس و يـزرع هـذا اللايـن كلـه!

ولـعُ غايـب بزهـر النرجـس كان كبيـرا لدرجــة أنــه سـمى إبنتـه الوحيـدة
رجـس و هـي مسـألة شـغلت بـال شـمران طويـلاً . . و حيـن سيسـأل أختـه
أميرة عـن هـذا الأمـر ستخبره أن أم غايـب العصمليـة كان أسـمها نرجـس . .
، ذكـرى نرجسـات خولـة هـي التـي جعلـت شـمران يطلـب مـن أبـي فـردوس:

أبو فردوس . . إذن راح أطلب منك خدمة زغيرة!

- أأمر أستاذ؟

أكـون ممنـون لـو هـذا الفـلاح مـن يجـي بـأول البـرد . . تأخـذ لـي منـه
شتلات نرجـس حتـى أزرعهـا بالبيـت! . . أريـد كميـة زينـة مـن الشـتلات . .
إحتمـال أسـوي لايـن مثـل هـذا بالبيـت!

صار!

باطلاعـه علـى وضـع الكازينـو و ترتيباتهـا . . راودتـه تسـاؤلات عـن شـخص
الرجـل الـذي عمـل كل هـذا الإنجـاز الـذي يتفـرج عليـه و حـاول أن يتذكـر
و يـعرِّفَ لنفسـه لِمَ بالتحديد نـفـَرَ مـن شـخص غايـب الـذي صـار فيمـا بعـد
صهره رغمـاً عنـه . . تذكـر إبتسـامة غايـب الرخيَّـةِ التـي كشـفت عـن صـفِ

أسنانه الذهبية يوم سأله قبل عشرة سنوات أمام عارضة سينما ديالى المعلقة على عامود قنطرة السوق:

- هذا الفلم شسمه؟

يتذكر أنه رد عليه في وقتها:

- . . موگامبو! . .

و يتذكر أنه حين سمع غايب رده و هو يبتسم إبتسامة بلهاء تخايل له صف أسنانه الذهبية لا يختلف في حينها بشي عن صف أسنان هادي أبو الفحم . . على بُعد خطوات من محل أبيه . . قابعاً في دكانه الجُحر الأسود المجاور لبيت جميل الشيعي مثل عنكبوت أسود و هو يطلق نفس الإبتسامة البلهاء و يروح يتغزل متحرشاً بأي صبي يمر من أمام دكانه ليستدرجه الى شبكته إن أمكن في زاوية مستورة في آخر دكانه بصف من أكياس الفحم التي ترتفع الى أكثر من قامة الرجل . . و ما أكثر ما حذَّره أخوه أمير و والده نزهان من التحدث الى هادي أبو الفحم! . . و بسبب تلك الإبتسامة البلهاء التي بانت عن صف أسنانه الذهبية، نفر شمران من غايب منذ تلك اللحظة! . . و عدا عن هذا . . فحتى لو كانت أم غايب أسمها نرجس . . نرجس يؤطر صورة أم كلثوم! . . و صف زهر نرجس يؤطر سياج الكازينو! . . و يسمي إبنته نرجس! . . شئ لا ينم عن بلاهة! . . و يقرر شمران الخروج و التوقـُّفِ على الرصيف ليلقي نظرة بانورومية على الكازينو و المكان . . إنسجام بين واجهة دار العرض السينمائي بريازتها الجميلة المعتنى بها و واجهة الكازينو التي إعتنى بها غايب و شاركت جزء من المشهد يتناغم مع واجهة السينما . . أبهة تفتقر لها الكثير من واجهات مقاهي بعقوبة! . . و أبو فردوس يراقبه . . تحسَّرَ شمران . . و ظل يتطلع مأخوذاً بما صنعته يدا غايب مرهون من معجزة على الرغم من أميَّتهِ و سوقيته. . إنسان لا يقرأ و لا يكتب تجترح يداه كل هذا الجمال و الترتيب! . .

، تذكَّر اخوه أمير مؤخوذا بمشاريع غايب، و مع ذلك لم و لن يخطر ..اله الغفران لأخيه أمير عثرته بالموافقة على تزويج أخته من غايب!
. و لكن ها هو صوت في داخله اللحظة يصيح . . حرام أن يذهب كل هذا سُدىً! . . و سيرى شمران أنه من الصواب أن يذهب الى صاحبي المنلكِ . . يهودا و أخيه ناجي . . ليبذل جهده عندهما بالحفاظ على المكان ..ل فوات الأوان!

. املاً الصندوق الحديدي الذي سيكون له شأن في تاريخ غايب مرهون االي و معه الصندوق الخشبي المزخرف الصغير، إستأذن شمران من ا ي فردوس، مستصحباً معه الصبيَ مرهون و غادر المكان.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

. االتام شمل الجميع على مائدة الغداء في البيت، لم يبدُ على أميرة أية . ملامح تاثرٍ عميقٍ على إفتقادها لزوجٍ إعتادت على طول غيابه عن البيت . . فأي فرق سيحصل لو راح الزوج ليغيب في سجن طويل!
لكن الحيرة تتملكها فعلا عما ستفعله في مصير عمل زوجها. أما ..بها فكانت حيرتها أكبر في مشكلة صهرها، لأنها إكتشفت منذ مدة بأن ..ويج إبنتها أميرة من غايب كان خطأً فادحا، و لكنها لا تريد التصريح . . كيلا تزيد من همِّ إبنتها . . وبإعتراف نزهان الأحمدي الضمني ..سامت بخطئه في إختيار الزوج المناسب لإبنته الوحيدة، و لمعرفته . . أي إبنه شمران بالصِهرِ الموقوف على ذمة التحقيق في قضية لا بد .. سجنه سيطول بسببها، و كيلا يسمع كلامَ ملامةٍ من إبنه بهذا الصدد، ..سلم لإبنه شمران قائلاً:

ابني إنت أعرف مني بقضايا من هالنوع . . اللي تشوفه مناسب سوِّيه . . لأن هذي المصلحة اللي عافها غايب هي مصدر رزق أختك و أولادها! . . و شوف إنت الطريق اللي شلون تدبُّر بيهه الموضوع.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

التصرف السريع في مثل هذه الحالات لازمٌ . . و تلافيا لأي تطور غير محمود يطال رزق أخته أميرة و أولادها و للحفاظ على ما رأته عيناه مبهورتين بعالم كازينو أم كلثوم، أول ما سيتبادر الى الذهن هو مقابلة أصحاب ملك الكازينو، يهودا و أخيه ناجي، و محاولة إعادة ترتيب أمور المكان الذي باتت أخته أميرة هي المعنية به قبل غيرها، ثم الإتصال بمحامٍ ليعرضوا عليه ما جرى.

سيسأل شمران عن مكان بيت يهودا و أخيه ناجي و يستدل عليه. و عصرا كان يطرق على باب بيت يهودا، فإستقبله الرجل في بيته. و يعرّف شمران نفسه لصاحب الملك، و يرد صاحب الملك بأنه يعرفه لرؤيته كذا مرة وقتما يمرق في سوق بعقوبة في دكان أبيه نزهان الأحمدي المشهور بجبنته المملحة التي يبيعها شتاءً.

يحتسيان القهوة . . و يشرع شمران حديثه مع الرجل عما حصل في الكازينو، فيخبره يهودا أنه زُوِّدَ بأخبار ما جرى، و أضاف:

- في الواقع . . إحنه مبهورين باللي أنجزه غايب . . الرجل على بساطته سوه كازينو و بإسم فنانة من نوع أم كلثوم . . كازينو إسم على مسمى! . . هذا نادر في بعقوبة . . و آني شخصياً ما أنسى شجاعته يوم اللي جا للمزاد بتأجير الكازينو قبل عشر سنين . . لكن هذي سالفة العرگ القچغ و القمار هي اللي چانت مو على البال . . أقصد ما چان على البال تجيب نتائج من هالنوع!

من عبارة يهودا الأخيرة، يستنتج شمران أنهم على علم بما يجري و لكنهم قرروا أن يغضوا الطرف . . ضربة معلمين! . . فيعلق شمران:

- و لا إحنه ندري بيهه . . لأن إحنه ما نتدخل بشغل غايب إطلاقاً!

- آني شخصياً . . چانت تجيني أخبار من الدنداوي و أولاده برهوم عريضي و أبو دعوچة عن موضوع العرگ القچغ و القمار . . بس

انــي مــا چــنت أعيرهــا أهميــة و أحسـبها حسـد رزق!

و يمـرق فـي خاطـر شـمران . . فعـلا ضربـة معلميـن! . . و يتأكـد عنـده ما أخبره بـه الـچايـچـي عن دور محتمـل لهـؤلاء فيمـا سماه إنقلابـا، و هـو يستمع ليهـودا يضيـف:

و لعلمـك . . آنـي حتـى أطمئـن . . سـألته لغايـب مـرة عـن قصـة العـرگ القـچـغ و القمـار و كـذبْها . . و گـال عنهـا ونسـة أصدقـاء . . و آنـي شـفت أيضـاً أنـو مـو مـن اللائـق أروح أفتـش حتـى أعـرف شـكو ماكـو بغرفـة الكازينـو!

و ينأخـذ شـمران بكياسـة الرجـل العمليـة، و لـم يُجِـرْ تعليقـاً، فإستفسـر يهـودا:

أستاذ شمران . . هسه شنو المطلوب؟

المطلـوب هـو . . حتـى لا يتغيـر شـي بالوضـع عدا غيـاب غايـب الطويـل المحتمـل . . نحتـاج موافقـة حضرتـك علـى تحويـل عقـد إيجـار الكازينـو من إسـم غايـب الـى إسـم زوجتـه . . أختـي أميـرة!

و يقاطعه يهوادا معلقاً:

تـگـول عقـد؟ . . أسـتاذ شـمران يـا عقـد؟ . . مـا كـو عقـد! . . هـو شـنو اللـي عجبنـي بغايـب؟

شنو تحديدا؟

. . اللـي عجبنـا آنـي و أخويـه ناجـي هـو عفويتـه و لهـذا مـا كتبنـا عقـد . . هـذا اللـي چـان جـاري ويـه غايـب . . يسـمونهه المثقفيـن عـادة . . إتفـاق جنتلمـان . . إتفـاق بـدون ورق و قلـم! . . إحنـه و غايـب مـا وقـَّعنا عقـد مكتـوب . . عقدنـا چـان شـفوي! . . و إلتزمنـا بـه.

- و هسه؟

- و هسه . . إذا ترغبون إتفاق الجنتلمان راح يبقى ساري . . و يصير بين جنتلمان و جنتلوومن اللي هي أميرة نزهان الأحمدي مع إني ما شايفهه بعيني . . لكن موافقة غايب مطلوبة . . جيبولي موافقة غايب!

- صار نجيبلك موافقة غايب . .

- تدري أستاذ شمران . . آني جدا مستغرب!

- منيش؟

- آني أعرف . . بقضية من هالنوع السلطات تتحفظ على المكان و تقفله بختم أحمر! . . ليش ما غلقو المحل؟

- فعلا . . آني معلوماتي قليلة بقضايا الإجراء . . فعلا! . . و شنو تفسيرك؟

- غلطة الشاطر! . . آني شخصيا عندي أخبار ما يدور في ملك السينما بأدق التفصيلات . . و غيرها من أخبار الكازينو و غايب . . آني صاحب ملك و لازم أعرف! . . و منها مثلا عزل الغرفة عن الكازينو بعد أن صارت نادي قمار . . و هذا كان بصالح الوضع الحالي . .

و يقاطعه شمران:

- بنظرية غلطة الشاطر . . إذن . . حضرتك تعتقد فعلا أكو أحد رتب هذا اللي سماه الچايچي إنقلاب نفذه تركي الفتلاوي؟

- بدون شك! . . بس هذي غلطة الشاطر خلينه نستغلها!

- شلون؟

- أولا أنقلو غراضكم اللي بغرفة الكازينو و أغلقو باب الغرفة المطل

علـى باحـة الكازينـو بقفـل مـن الداخـل و أغلقـو بـاب الغرفـة الخارجـي بقفـل مـن الخـارج حتـى بحالـة إجـراء أي كشـف رسـمي الغرفـة راح تبيِّـن مالهـا علاقـة بالكازينـو . . و جيبلـي أختـك باسـرع وقـت نوقـع وياهـه عقـد للكازينـو مكتـوب بتاريـخ قديـم . . و بهـذا راح نعـزل الغرفـة و مشـاكلهه . . و إذا صـار إستفسـار راح نـگـول الغرفـة عقدهـا شـفوي ويـه غايـب و الكازينـو عقدهـا مكتـوب و يـه أميـرة نزهـان الأحمـدي . .

انـي عاجز عن الشكر!

و أفضـل هسـه فـورا تـروح تقفـل الغرفـة و بنفـس الوقـت تستشـير محامـي بخصـوص الترتيـب اللـي إقترحته!

فـورا . . بـس أريـدك تعـرف سيد يهـودا . . أكـو سـبب آخـر خلانـي أجـي لحضرتـك عـدا موضـوع ضمـان حـق إسـتمرار العقد.

اللي هوَ؟

هذا المشـروع . . هـذا مشـروع كازينـو أم كلثـوم ممكـن نسـميه بطريقـة ما مشـروع ثقافـي قبـل أن يكـون أي شـي آخـر؟ . . أقصـد هـذا اللـي سميته حضرتـك . . مشـروع كازينـو بإسـم مطربـة و فنانـة مثـل أم كلثـوم هدا و قالبـاً!

سكـن! . . أسـتاذ شـمران . . لعـد آنـي شـنو اللـي چـان مصبرّنـي و مـا اخذ الحـچـي اللـي چـان يجينـي عـن العـرگ القـچـغ و القمار اللـي بغرفة الكازينـو غيـر هـذا الموضـوع!

و لعلمـك . . سـيد يهـودا . . أشـگـد چـنـت أتمنـى و مـا أزال أشـوف فـي بعقوبـة . . كازينـو بإسـم زكيـة جـورج العراقيـة أو سـليمة مـراد باشـا او زهـور حسـين أو منيـرة الهـوزوز أو حضيـري أبـو عزيـز أو صالـح الكويتـي أو رضـا علـي . . أو . . لكـن علـى رأي أهلنـه . . منيـن نجيـب رار للزيجـة هَـدَل!

يبتسم الرجل للمثل الذي ضربه شمران . . و بحسرة عميقة في داخله، و بثوان ورد في خاطر شمران أن يقول ليهودا . . و المفارقة الكبيرة هنا هو أنو واحد أميّ من شاكلة غايب . . خله زرار لزيگ بلدة بعگوبة الهَدَل . . و أسس كازينو بإسم فنانة! . . و ليس هذا فقط! . . بل و طاوعه الحظ في تماديه و راح و حضر واحدة من حفلات أم كلثوم! . . ثم تذكّر شمران مرة أخرى لحظة سأله غايب قبل عشر سنوات عن صورة أم كلثوم المعلقة في باب دكانة أخيه أمير القيرواني . . هذي منو؟ . . و يفيقه يهودا من خاطرته، معلقاً:

- فعلا . . آني ردت چم مرة أسأل غايب . . هُوَّ ليش إختار أم كلثوم . . و إختياره هذا چان صدفة لو مقصود؟ . . و فعلاً ليش ما إختار مطربة عراقية و حسب معرفتي البسيطة بغايب . . جو أغاني المطربات العراقيات چان أنسب لنوع شخصيته؟

- أتفق وياك . . و لعلم حضرتك . . حسب علمي . . هو بسهراته بالبستان چان يسمع غناء مال كاوليه و ريفي! . . أقصد چانو هو و الشلة اللي وياه يجيبون للبستان فرقة كاولية و مطربين ريفيين!

- يا سلام! . . و چان عنده سهرات يجيب بيهه كاولية و مطربين ريفيين للبستان؟ . . عجيب! . . تريد الصدگ؟ . . شخصية غايب على الرغم من العفوية الظاهرة اللي يوحي بها سلوكه يصعب على الناس تفسير ميوله و مصدر هذي الميول! . . و لهذا آني قلق من اللي راح يواجهه بقضية العرگ القچغ و القمار! . . بس إنتو إطمَئِنو . . إتفاق الجنتلمان راح يظل ساري . . و أتمنى لو تگدرون تحافظون على . . كازينو أم كلثوم!

- راح نعيش هذا الأمل!

بضمانه إستمرار الكازينو و عملها، يشكر شمران الرجل، و يغادر مولياً وجهه شطر مكتب كمال العلمدار المحامي ليفصِّل له ما جرى

عارضا في الوقت نفسه الترتيب الذي إقترحه يهودا بخصوص المكان و غلطة الشاطر التي تركت المكان مفتوحا، فوافقه المحامي و أيده، و قبل المحامي تولي قضية صهره في المحكمة، و طلب إليه عمل توكيل له من أختَه و من صهره.

مساءً في الكازينو، سيصرف شمران حسن الدماري من العمل، و يقرر جلْبَ واحدٍ من أبناء خؤولته من شهربان ليساعد أبا فردوس الذي اصبح الرجل رقم واحد في الكازينو، و سيطل عليهما يوميا تقريبا مستصحباً معه غالبا الصبي مرهون الذي صار إعتبارياً صاحب المكان و وكيلاً عن أمه . .

عشية محاكمة غايب مرهون، سيسأل شمران المحامي عن حظوظ غايب، فيرد المحامي:

قضية هذا صهركم تثير الإستغراب!

ليش؟

رغم كل الخريطة القانونية اللي رافقت مداهمة غرفة الكازينو، گدرَو يحبكون التهمة و القضية حبكة ما منها فكاك . . بالشرطة و بالمحكمة . مسوِّين كلشي بالقضية قانوني مية بالمية إعتماداً على اللي وجدوه بغرفة الكازينو . . ما تاركين و لا أي ثغرة تساعد المحامي . . لا استعمال شاهد نقض و لا غيرها . . و هذا العامل اللي بالكازينو زودني بمعلومات و تفصيلات مهمة . . تهمة مسبوكة سبك مسبق . و كأنها مهَنْدِسة تهنْدَس قبل ما يروح هذا رئيس الإنضباط تركي الفتلاوي و يسوي هجومه على المكان!

مسبوكة؟

اي مسبوكة.

- مِنْ مَنْ؟ . . هذوله اللي بمحيط الكازينو؟

- يعني إنت تشك بهذوله العمال مال يهودا و ناجي اللي بالسينما أو غيرهم من اللي بمحيط السينما؟

- إي.

- مو بعيدا! . . لكن هذوله اللي ذكرتهم ناس زغار شگد ما يحاولون ما يگدرون ينسجون هيچي نسج و يخربطون خريطة غايب . . همَّ لو صدگ يگدرون چان خربطو خريطة غايب يم يهودا و ناجي!

و يؤيده غايب معلقا:

- صحيح! . . لعد منو؟

- قراءة لما بين سطور التحقيق . . ممكن الإستنتاج . . هذا شغل ناس كبار صارفين عليه و كاتين فلوس بالشرطة و بالمحكمة! . . هذا اللي إستنتجته من قراءتي لما بين السطور بعد تحقيقاتي مع كل الناس بالمكان و حتى ويه تركي الفتلاوي!

- ناس كبار؟

- إي ناس كبار يگدرون و متمكنين!

و ها هو شمران يتعلم الشك . . و على الرغم من التعاون التام و المخلص الذي ابدا يهودا معه، راح ليسأل:

- ناس كبار يگدرون و متمكنين . . أصحاب الملك مثلاً؟

- لا! . . يهودا و ناجي ما يهمهم شي غير الإيجار القوي اللي يدفعه غايب . . و بوضعهم الضعيف بوصفهم يهود هم أذكى من أن يتورطون و يحطون راسهم تحت مطرقة واحد جلف مثل هذا الشروگي تركي

الفتلاوي!

- و إستنتاجك؟

- هذا شغل يسمُّونه عوام الناس .. شُغُل مدَسْتَر .. شغل ناس من برا .. من خارج محيط الكازينو و خل نگول .. شغل قوة خارجية .. و ساعدهم أحد من الداخل!

يا لهذه القوى الخارجية! .. و يتذكر شمران إعتراف علي صالح السعدي أحد قادة إنقلاب شباط 1963 من إنهم جاؤوا على دبابة أمريكية، فأراد أن يقاطع المحامي ليُعلـِّقَ سخريةً .. معقولة يعني بشغلة غايب و كازينو أم كلثوم همين إحتمال أن يكون تركي الفتلاوي جا على دبابة أمريكية! .. لكن المحامي قطع عليه خاطرته مسترسلاً:

آني اللي إفتهمته من أبو فردوس هو غايب چان مرتب أموره خوش ترتيب ويه تركي الفتلاوي .. و چان يدفعله أتاوة أسبوعية عدا الأكل و المشاريب و الجگاير .. شنو اللي خله الفتلاوي يگلب هالگلبة؟ .. حتما هذا اللي سواه الفتلاوي چان لقاء ثمن أكبر من الثمن اللي چان يدفعه غايب! .. و منو دفعله هذا الثمن؟ .. هذي اللي ما گدرت أعرفه و لا گدرت ألزم خيط من خيوطه! .. بَس أحسه موجود!

زين أستاذ كمال .. و باچر بالمحكمة .. حظوظ غايب شگد بتقديرك؟

صعب أحزر! .. لأن شغل مدَسْتَّر بهالطريقة راح يكون صعب نحزر شنو راح تكون نية القاضي .. إذا كان القاضي هو نفسه ضمن اللعبة!

معقولة! .. القاضي ضمن اللعبة؟

ليش لا؟ .. إذا مو القاضي ضمن اللعبة خلينه نگول إحتمال المدعي العام!

- ما يعني؟

- يعني . . إذا رادو يرأفون بحال غايب . . راح يحكمونه مو أقل من ثمانية سنوات! . . هذا إذا ما رادو يوصلون بالقضية الى حد أخطر!

- ـ حد أخطر؟

- إحتمال . . لأن آني طيلة عملي محاميا ما صادفتني قضية تتقدم للمحكمة بهالسرعة و لكي يُبَت بها بالسرعة اللي تقدمت بها هاي القضية . . عموماً لا تقلق! . . خلينه نشوف شنو اللي راح يصير! . . لا تقلق!

- زين أستاذ كمال . . . سؤال أخير!

- أتفضل.

- زين الجماعة اللي كبسوهم يلعبون قمار . . شنو موقفهم بالقضية؟

عند سماعه السؤال، إنحلت نسبيا تقطيبة الرجل التي إعتاد وجهه عليها طيلة عمره، ليضحك ضحكة طويلة قبل أن يعلق:

- حتى هذولة القمرچية . . فلان العلاني . . و علان الفلاني . . ما أسهل ترتيب موقفهم! . . أولا لأن مالهم سوابق . . يحضرون و يدلون بشهادة و ينحكمون شهر مع إيقاف التنفيذ . . و يخلون الچلب يعض هذا الفقير اللي چان على ظهر بعير كازينو أم كلثوم!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

ظهيرة يوم محاكمة غايب مرهون . . بعد شهر من هجوم تركي الفتلاوي على غرفة كازينو أم كلثوم، أواسط آب 1968 . . شمران لا يذهب الى بهو المحكمة. و أميرة و معها أبوها في بهو دار العدالة في بعقوبة، يجلسان خارج قاعة المحكمة بإنتظار الحكم الذي سيصدر ضد غايب

مرهون . . و في الساعة الواحدة بعد الظهر، يظهر لهما المحامي كمال العلمدار ليخبرهما بقرار المحكمة:

- مثلما توقعت . . ثمان سنوات سجن!

و تبهت أميرة الأحمدي و أبوها، و يظلان واقفين ينتظران في باب قاعة المحكمة . . بعد دقائق يخرج غايب مكبلاً يقتاده شرطيان . . إبتسم غايب ببلاهة لزوجته و حماه و بان صف أسنانه الذهبية السفلى كله لامعاً . . الإنكسار بادٍ على وجهه أمام زوجته الجميلة الشقراء الدُحَدِيحة، لكنها و إن كان الأسى قد غطى وجهها كاملاً عند مرآه في موقف من هذا النوع، لم تذرف و لا حتى دمعة واحدة على زوج لم تعتد على رؤيته سوى أسابيع طيلة عشرة سنوات أو يزيد من الزواج . . و حتى أن و لا كلمة مفردة جاهدت للخروج من فمها مواساةً للزوج!

بمرور يومين و هو في غرفة نظارة مديرية شرطة ديالى، و إستكمالاً للإجراءات . . سِيقَ غايب مرهون بعد يومين ليدخل سجن بعقوبة الذي كان قبل عشر سنوات يسمع منه أناشيداً لا يفهم كنهها صادرة من السجناء السياسيين صباح كل يومٍ يذهب فيه بالأرزاق الى مستشفى بعقوبة.

و طيلة مدة سجن غايب لن يزوره سوى خمسة أشخاص . . زوجته الشقراء أميرة الأحمدي التي سيأخذها أبوها و ينتظر خارجاً و يتركها تدخل لوحدها دون أولادها بداية الأمر . . ثم و معها إبنها مرهون أحيانا فيما بعد بزيارات منتظمة . . و أبو فردوس چايچي كازينو أم كلثوم في زيارات متقاربة . . و حسين گطمة لوحده من بين ندمائه بزيارات متقاربة . . و عبد كولونيا عرفاناً منه بأفضاله عليه بزيارات متباعدة . . و حسين الجيراوي بزيارات متباعدة جداً.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

تروج رواية عن النهج المدروس الذي برع به البعثيون، بإستدراجهم ضباطاً طموحين للسلطة من ضباط القصر الجمهوري كانت بيدهم المفاتيح الأمنية الرئيسة للقصر الجمهوري، كي يتعاونوا معهم لترتيب خطة الوثوب الى القصر . . بعد نجاح إنقلابهم على الرئيس عبد الرحمن عارف سيتخلّصون مِمَن مكنهم من السلطة . . بعد أسبوعين تخلصوا من بعض، و بعض آخر تخلصوا منه بعد حين أما غيلةً أو أبعاداً . . و سترشحً الأخبار فيما بعد عن أنه في الوقت الذي كانت فيه شبكة العنكبوت ممثلة بثلة من الضباط بعثيين و حلفاء لهم تتحرك في الواجهة من أجل هدف قريب هو الإستيلاء على أعلى مفاصل صنع القرار في الدولة العراقية، كانت ثمة دبابة يعتليها صدام بنفسه ببزة عسكرية على كتفيها رتبة عسكرية كبيرة، مع أنه لم يحصل له قط أن كان يوماً في الجيش مثل كل العناكب! . . العنكبوت يراقب المداخل المهمة للقصر الجمهوري كي يحكم سيطرته بالكامل هو و ثلة عصابته، و لكي يفلت بسهولة عند الإخفاق! . . القطار الأمريكي! . . المعروف بمنظمة حنين . . يتسلل الى القصر الجمهوري في سيارة پيكاپ ليرسي الأساس لإمساك طويل الأمد بمقادير ضباط واجهة الإنقلاب و يمسك أيضاً بالقلة البعثية المتناثرة في المدن العراقية من تلابيبهم . . و وشيت الأخبار أيضاً بإن ذاك القطار الأمريكي المتخفي، الذي لا يختلف عن القطار الدبابة الأمريكية التي حملت البعثيين الى السلطة في شباط 1963 بإعتراف علي صالح السعدي أحد أقسى قادة إنقلاب شباط و أكثرهم إجراما، جاء لإجهاض ما راج عن مسعىً لطاهر يحيى التكريتي رئيس الوزراء يجمع فيه قوى سياسية علنية و سرية فيها قوميين و ليبراليين و بعثيين و شيوعيين من أجل خطة وطنية لإنقاذ البلد من أزماته، و لكن هيهات! . . قِيل أن أي من تلك الأطراف التي دعاها لم يوافق على الجلوس معه!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

نهج الرأسمالية الأمريكية كان و ما يزال و سيبقى يتجدد . . أخلق الحاجة للبضاعة قبل إنتاج البضاعة! . . لم يكن قد مضى سوى شهر و نيِّف

علـى إنقـلاب تمـوز 1968 راحـت الصحافـة البعثيـة فـي خريـف بغـداد تتحدث عـن مؤامـرة صهيونيـة يخطـط لهـا يهـودٌ موجـودونَ فـي بغـداد و البصـرة . يُعتقل العشـرات مـن كافـة الطبقـات الاجتماعيـة والأعمـار بتهمـة التجسس لصالـح إسـرائيل وبعمليـات تخريـب . . و سـتبدأ حمـلات إعدامـات و تصفيـة جسـدية فـي الخفـاء.

و يخطـر فـي بـال شـمران . . أليس مـن الممكـن أن تكـون أحدوثـة التجسس اليهوديـة لعبـةً لترهيـب خصـوم البعـث؟ . . و يتذكـر شـمران مـا قـرأه عـن نهـج هتلـر بعـد أن نجـح بالتسلل الـى السـلطة بإختـراع خصـوم يصـبُّ عليهـم جـام غضبـه و يسـتثير بعداوتهـم مشـاعر الجماهيـر!

أخبارٌ ترشح عن إتصالات بين الكورد و الحكومة.

و ترشح غيرها عن إتصالات بين البعثيين و الشيوعيين.

و يصحـو النـاس ذات يـوم فـي منتصـف تشـرين الثانـي 1968 علـى إغتيـال ناصـر الحانـي أحـد مهندسـي إنقـلاب شـباط 1963 . . تمـت تصفيتـه علـى خلفيـة جمعـه لشـخصيات سياسـية عسـكرية و مدنيـة ليبراليـة لتشـكل قاعـدة نظـام برلمانـي فـي العـراق . . و جـدت جثتـه مرميـة علـى شـارع القنـاة مشـوهة الـى حـدٍ بحيـث عجـزت حتـى قرينتـه مـن تشـخيصه لـولا معرفتهـا بالبدلـة التـي كان يرتديهـا آنـذاك!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بمجـيءِ البعثييـن للسـلطة مـرة ثانيـة فـي إنقـلاب تمـوز 1968، سيكتشـف شـمران إن أحـدَ البعثييّـن الذيـن معـه فـي المدرسـة . . فليـح حسـن الجاسـم . كان قيادياً وكادراً محلياً عالـيَ الرتبـة فـي حـزب البعـث، و قـد نمـت بينـه و شـمران علاقـة صداقـة متينـة. يبيـت عنـد شـمران هـو و حميـد البغـدادي معلـم آخـر مـن المقداديـة حيـن يدعـو شـمران شـلة معلمـي مدرسـته لسـهرة في بعقوبـة . . فـي تلـك السـهرات سـينمو نـوعٌ مـن تفاهـم بيـن أفـراد مجتمـع

معلمي مدرسة الأمل، بخاصة بعد تظاهر بعض البعثيين فرادى، تلميحا و بإستحياءٍ في أكثر من مناسبة، إستنكارهم للنهج الإرهابي التصفوي العنيف الذي إتبعه حزبهم في سابق عهده، و إدعائِهم . . في سياسة عامة . . الإنفتاح على القوى التي كانوا يعادونها بضراوة في الأمس، و لكن دون ندم صريح على ما جرى على أيديهم، بخاصة ضد القوى المعادية للإمبريالية!. . كذا! . . و مهدوا لذلك بإتفاق مع الكورد بمنحهم حكماً ذاتياً في آذار 1970، و تهيئتهم لعلاقات مع الشيوعيين.

و راح البعثيون يمدون أذرعهم بوسائل شتى في دوائر الدولة و المنظمات، بل وحتى في الهيئات غير الحكومية و منها فرقة مسرح المجددين. دسوا في الفرقة إسلام صفاوي، شرطي أمن وقح و صلف و جلف، بذريعة أنه يهوى المسرح و يريد أن يكون ممثلا . . و سيحتار أعضاء الفرقة في طريقة التصرف إزاء شاب نزق يدعى أنه يهوى الفن و كل ما فيه على ضدٍ مع الفن! . . و مع ذلك، قبلوه عضوا بحجة أنهم ليس حزباً سياسياً و ليس لديهم ما يخفونه عن السلطات . . أما عند شمران، فكان وقع قبول شرطي الأمن هذا في الفرقة غير مريح إطلاقاً، بخاصة و ما تزال ماثلة في ذاكرته أحداث تعذيبه المروعة هو و آخرين على يدِ جاسم صفاوي البعثي المليشياوي الذي برع في تعذيبهم في مقبرة السيد الشريف، و هو أخٌ لشرطي الأمن المندَّس . . ما يتذكَّره شمران عن ليالي المقبرة سيكون سببا كافياً لنفوره من الشرطي المندَّس نفوراً مضاعفاً و يعامله بجفاء واضح و دون خوف. و سيظل أعضاء الفرقة يقاومون أساليب إسلام صفاوي لإرهابهم بطرق مختلفة، لكنه مهما فعل، لن يتوفق في تركيعهم بإعطائه دورٍ تتلوث به خشبة المسرح.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأحداث تتوالى . .

بمسعى للإمساك بمنابع الثورة النفطية . . في عام 1969 أخبارٌ عن

مناوشات بين السلطة و شركات النفط في كركوك و البصرة . . و أخبارٌ عن وصول المناوشات الى قصف بالمورترز ينصب على بعض حقول كركوك!

أخبار مستفيضة عن شبكة تجسس عمادها يهود في بغداد و البصرة . . أحكامٌ بالإعدام على يهود و معهم متواطئين مسلمين. و يتفاجأ الناس ذات صبيحة من عام 1969 بأجساد ثلاثة عشر عراقياً تتدلى من أعواد مشانق منصوبة في ساحة التحرير في قلب بغداد . . تسعة يهود و أربعة مسلمين . . متهمين بالخيانة و التجسس للموساد الإسرائيلي و التخطيط لإنفجارات و تخريب في مدن العراق.

و هو يتفرج في الصحافة و التلفزيون على الصور البانورامية لمنظر الأجساد المشنوقة معلقة على شكل قوس مقابل نصب الحرية . . و حول الجثث المعلقة نساءٌ بغداديات إحتشدن يزغردن، و رجالٌ بغداديون إحتشدوا لتصخب ساحة التحرير بهتافاتهم لهذا النصر المؤزر . . يا للتبغدد من صور و أشكال! . . و تخطر في بال حمدان . . يا للعبرة! . . رموز الحرية في نصب جواد سليم الشهير أعيَّت رأس الفنان بالتفكير ملياً بمضامينها و حركاتها التشكيلية التي أرادها كي تكون مفاتيحا لرموز الحياة و الحرية . . ها هي تنظر خجلى من مشهد القسوة و الفناء و الموت التي أحاطها بها البعثيون! . . و تذكر شمران هذه المرة لا هتلر وحده، بل هتلر و ستالين!

في راديوات العالم . . أنباء إشمئزاز عالمي من الإعدامات وتعليق الجثث والإحتفالات . . و تظل ترشح أنباء طيلة ما تبقى من عام 1969 عن أساليب أخرى لإعدام و قتل اليهود . . ما الحكاية؟ . البابليون كانوا وراء اليهود! . . مسلمو يثرب كانوا وراء اليهود! . . مسيحيو أوروبا كانو وراء شايلوك! . . النازيون كانوا وراء اليهود! . . الستالينيون أفنو بشنق و اعدام اليهود! . . و ها هنا ها هو يأتي دور لا ندري ما سنسميهم يجرون وراء اليهود! . . ما قصتهم هؤلاء جميعا مع اليهود؟ . . لا بد أن نعرف!

. . يصورون اليهود كائنا موحدا مطلق القوة و يلقون على كاهله بكل موبقات العالم! . . و تذكَّر شمران تلك الحكاية الشعبية الشائعة عن ذاك الغاوي الذي ظل يراود إمرأةً حد الزهقان، فشكت أمره لزوجها، فوضع لها ترتيباً تستقبل به ذاك الكازونوفا كي يصطاده . . أخبرت الزوجة الكازانوفا بموافقتها على مواقعته و جاء فإستقبلته . . و هو على وشك أن يَقُدَّ قميصَها من قُبُلٍ . . ها هو الباب يندق . . فتقول له متظاهرة بالرعب . . شراح نسوي هذا زوجي جا! . . و أشارت له على كسوة مصنوعة من جلد الخرفان مرمية قريباً منها قائلة . . الله يخليك ما تاخذ هذي الكسوة و تتغطى بها و تروح تضيع بين الخرفان اللي بالحوش، و يمتثل الكازونوفا . . و يدخل الزوج و بعد أخذ و رد مع زوجته يصرح الكازانوفا لزوجته بصوت عال جدا كي تسمعه جميع الخرفان . . آني أشوف نفسي اليوم مشتهي أنكح طلي! . . و تشير له الزوجة الوفية السوية بمكرٍ على مكان الكازونوفا بين الخرفان . . و يذهب الزوج حيث الخرفان و يُسْقَطَ بيد الكازانوفا و يتقبل صاغرا ما سيفعله به الزوج . . إمتطاه الزوج و عاد لزوجته! . . و تمرُّ هنيهة و ها الزوج يعلن مرة أخرى بصوت عال عن غرامه بالطليان، فيذهب و يركب كازانوفا ثانية . . ثم يعلن عن رغبة ثالثة . . و في المرة الرابعة لم يجد الكازانوفا الساجد بين الطليان سوى أن يأبى لحلحة الزوج عليه، فيرفع رأسه من تحت كسوة الخروف صارخاً مستنكراً . . ماع ماع ماع . . مو هذي الزريبة مليانة طليان! . . هو بس آني طلي!

هاجس قلقٍ مستديمٍ جعل شمران يتساءل . . إذا إنتهوا من هذا الخروف اليهودي على من سيأتي الدور، فيرضى صاغرا التخفي بكسوة الخرفان؟

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

يوم شتائيّ عام ١٩٦٩، يجيئ رئيس القلم السري في محافظة ديالى الى مقر فرقة مسرح المجددين ليخبر سليم الزيدي رئيس الفرقة إن محافظ ديالى يطلب رؤية أعضاء الفرقة.

المحافظ يطلبهم! . . لِمَ؟ . . فيفيدهم الموظف أن ثمة إشاعات تدور عن خلل في حسابات الفرقة وصلت إلى أسماع المحافظ، بخاصة و الفرقة تزعم أنها تقيم عروضها المسرحية و حفلاتها لدعم العمل الفدائي الفلسطيني.

عجيب! . . خلل في حسابات الفرقة! . . و يمر في خاطر شمران . . أنحن النسخة العراقية لفرقة مسرح شكسبير اللندنية التي تدوم عروضها أشهراً و و يتطلب عملها فريقاً من المحاسبين و لا ندري! . . أهكذا و بضربة واحدة و صلت الى أسماع المحافظ أخبار خربطة أمورنا و ليس لغيره ممن لهم شأن بأمور الحسابات؟ . . و و الأنكى من ذلك هو أن حسابات فرقتنا لا تتجاوز بضعة عشرات من الدنانير؟ . . و في حزورة من هذا النوع من الطبيعي أن تدور الشكوك عند أعضاء الفرقة أول الأمر حول دور مفترض لإسلام صفاوي في هذا الشان!

الحذر لا يدفع القدر! . . ذات مساء، و على موعد مسبق، سيذهب أعضاء الفرقة الى مبنى محافظة ديالى في الساعة الثامنة مساء، و من المفترض أن يكون المحافظ بإنتظار رؤيتهم . . إنتظروا في الإستعلامات لبرهة من الوقت . . بمضي نصف ساعة تقريباً، يدخل أمين القلم السري على المحافظ و يخرج ليشير إليهم بالدخول.

د. خالد عبد الحليم، أول محافظ في ديالى بعد إنقلاب ١٧ تموز بإنتظارهم . . رجل في أوائل عقده الخامس . . يقف خارج مكتبه لإستقبالهم، و غير بعيد عنه يقف رجلٌ ضخمَ الجثة قاسيَ الملامحِ، و عدا ملامحه و نظراته المريبة المتوعدة لأي شئ تقع عليه عيناه، كل ما في مظهره يدل على غَلَظَة و ريفية فجة و سماجة، على الرغم من البدلة المترهلة التي يلبسها و الرباط المعوّج الذي حول ياقة قميصه المفتوحة . . ليس في مظهره ما يدعو الى الإرتياح مطلقا في موقف تغلبت فيه الظنون على تفكير أعضاء الفرقة، بخاصة عند شمران بمرآه للرجل الغليض و هو آت و الظنون تساوره . . من هذا؟ . . موظف حسابات؟ . . رجل

أمن؟ . . رجل مخابرات؟ . . قاطع طريق؟ . . أخللٌ في حسابات فرقة مسرحية صغيرة قد لا يتعدى بضعة عشرة من الدنانير يتطلب كل هذه الإجراءات؟ . . المحافظ بكل سلطته و مركزه و معه رجل مخيف من هذا النوع! . . و تكاد ساقا شمران ألا تحملانه و ظلت الشكوك تتآكله حول السبب الذي سوّق لهم بطلب المحافظ رؤيتهم وإستقبال المحافظ لهم بوجود رجل كل ما فيه يشير الى فضاضة متناهية! . . من يدري؟ . . فالمصائر الدراماتيكية المجهولة سببها غالبا ما يكون هفوات صغيرة! . . لكن مبادرة المحافظ بالترحيب بهم هي التي إنتزعت شمران من بعض هواجسه!

يتقدمهم سليم الزيدي مقدما نفسه بوصفه رئيسا للفرقة، و يتبعه أعضاء الفرقة الآخرين مقدمين أنفسهم للمحافظ بإسمائهم. و يجيئ دور شمران ليقدم نفسه قائلا:

- شمران . . .

و يتفاجأ شمران، و ربما الذين معه أيضا، بالمحافظ يسبقه بإكماله لإسم شمران قائلا:

- . . . نزهان الأحمدي؟

و يرد شمران متوفزاً:

- نعم أستاذ . . هذا هو أنا!

و قبل أن يدعوهم المحافظ للجلوس، يقدّمهم المحافظ للرجل:

- الجماعة أعضاء فرقة تمثيل في بعقوبة.

ثم يقدّم المحافظ لهم الرجل الواقف قريبا منه مضيفاً:

- يا جماعة . . هذا أستاذ مزبان خضر هادي![46]

لا أحد من الحاضرين يعرف من هو مزبان . . و على العكس من ديناميكية المحافظ، لم يتحرك مزبان من مكانه، فأضطر أعضاء الفرقة الى التقدم منه لمصافحته . . أثناء ما كان يصافحه، و متفاجِئاً بقساوة كفه و غلظتها و قوتها الصاعقة، يحاول شمران أن يتذكر متى و أين سمع باسم الرجل . . و لِمَ علِقَ إسمُ هذا الرجل بباله!

يجلس الجميع.

المحافظ رجلٌ وقورٌ. و من خلال أحاديثه معهم يتكشّف الرجل أيضاً عن إنسان محب للثقافة و الفنون، و سيخبرهم بأنه على إستعداد لتقديم أي عون تحتاجه الفرقة. و ما كان غريباً عند الجميع هو أن المحافظ لم يتطرق قط لأية أمور تتعلق بمالية الفرقة أو أية أسباب شبيهة بها، و راح يحدثهم عن أمنياته بأن يقوم الفن بإسناد الفعل الثوري، ثم راح يسألهم عموما عما يتوقعون تحقيقه في المستقبل بعد إنقلاب تموز 1968 و الذي سمّاه ثورة، فعبَّر أغلب أعضاء الفرقة عن تفاؤلهم بالحدث إلا شمران الذي ظل ساكتاً، ما أثار إنتباه المحافظ، فتوجه إليه المحافظ مخاطبا إياه مباشرة:

أستاذ شمران . . أشوف أنت بقيت ساكت و ما شاركتنا تفاؤلنا!

ها هو شمران يُحْرَجُ و يحتار فيما سيقوله، و لكنه أخيراً يجد أنه لا بد له

[46] «مزبان خضر هادي» بعثي معروف بميوله الإجرامية و كان بعد إنقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ قد تسنم الكثير من المناصب الحزبية و الحكومية. بعد الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، قامت قوات الإحتلال الأمريكي بتطوير بطاقات لعب اعتمدوها لتسهل لهم التعرف على اعضاء حكومة صدام حسين المطلوبين للعدالة الأمريكية، وأغلبهم رؤساء وشخصيات كبيرة في حزب البعث العربي الاشتراكي أو أعضاء مجلس قيادة الثورة. هذه البطاقات سميت رسمياً بـ «بطاقات لعب التعرف الشخصي». و صنفوا أوراق اللعب الإفتراضية الى «بستوني» و «كبة» و «سباتي» و «ديناري» . و كان رمز مزبان «تسعة كبة» . . ولد مزبان في نواحي قضاء مندلي في محافظة ديالى في أسرة من الكورد الفيللية، و مزبان المعروف بإيمانه الشديد و سوقيته و كان يُلقب بـ»سيد مزبان» بوصفه أحد أحفاد الرسول.

من قول شيء، بعبارت عمومية على الأقل لغرض المجاملة التي يقتضيها الموقف، فيعلّق قائلاً:

- تعليقاً على كلمات التفاؤل اللي أطلقوها الأخوة الموجودين . . أولاً . . الجميع تحدثوا بنوايا حسنة و لكن مثلما يقال . . الطريق الى جهنم نجده غالباً مفروشاً بالنوايا الحسنة و بالتفاؤل! . . و سيكون جميلا لو تحققت هذه النوايا!

يضحك المحافظ . . و يضحك الجميع. و إثناء الضحك يتلقى شمران نظرة لوم من سليم الزيدي . . لكن المحافظ يصرّ على حث شمران على الحديث:

- هذا كان أولا! . . و ثانيا؟

- ثانيا كل اللي راح يجي ما يزال بعد في عبِّ الغد! . . و سنرى ما سيتحقق و حينها سيكون بالإمكان إطلاق أحكام!

و يصرَّ المحافظ على أن يسترسل بالتعداد متسائلاً:

- و لا بد من وجودِ ثالثاً؟

واضح أن المحافظ يصرُّ على سماع شمران يقول شيئا . . و لم يكن شمران، في الواقع، قد وضع في باله أن يتحدث المحافظ في إحتمال ثالث. و ها هو يجد أنه لا بد من إرتجال قول ثالث و لو لغرض المجاملة، و أضيف:

- و ثالثاً . . أرى أن كل الثوار يقولون في عشية إنقلابهم بأنهم آتون لمنح الشعب مكاسباً . . و لكنهم و بمجرد أن يتثبتوا من مراكز قوتهم، يحتفظون بالمكاسب لأنفسهم . . و بعد ذلك ليذهب الشعب الى الجحيم!

ضحكٌ مرة أخرى . . الإرتجال الجرئ الذي أبداه شمران، يجعل من

ضحكـة المحافـظ أطـول، و يعلـق المحافـظ قائـلاً:

- لكـن إذا أخذنـا مـا يحصـل فـي كوبـا مثـالاً . . راح نشـوف مـا لا يؤيـد فرضياتـك! . . و آنـي كـُنت فـي كوبـا قبـل شـهر و شـفت بعينـي شـلون الثـوار اللـي هنـاك مـا يزالـون ينطـون لشـعبهم مكاسـب و لا يحتفظـون لأنفسـهم بشـئ علـى الرغـم مـن مـرور أكثرمـن عقـد علـى ثورتهـم!

فيعلق شمران:

- صحيح . . ذاك في كوبا!

ضحـكٌ مـرة أخـرى للمفارقـة التـي أطلقهـا شـمران، و ينـوي أن يضيـف كلمـات مجاملـة للمحافـظ عـن الوضـع الجديـد، يفسـر فيهـا المقارنـة بيـن كوبـا و الوضـع هنـا، و لكـن نظـرات مزبـان خضـر المتحديـة الجالـس قبالتـه تقريبـا صامتـاً بـدت لشـمران متوعـدةً، و مـا تنطـوي عليـه تلـك النظـرات مـن ترقـب غيـر مريـح لشـمران، تجعلـه يحجـم عـن قـول ذلـك و يكتفـي بالقـول:

- هذا ما يجري هناك . . أقصد في كوبا!

و سيدرك المحافظ بأن شمران إكتفى بما قال، و يعلق قائلاً:

- لكن إحنه جايين . . و راح نبذل جهدنا بخدمة الناس!

- أرجو ذلك . . متمنيا لكم و لنا الموفقية!

أعضـاء الفرقـة يعبـرون عـن شـكرهم للمحافـظ و يسـتأذنوا بالإنصـراف . . ينهضـون ليصافحـوه مودعيـن، و كلّ منهـم يخطـو نحـو مزبـان خضـر مصافحـا . . و يجيئ دور شـمران. و فـي اللحظـة التـي يمدًّ بهـا يـده لمصافحـة مزبـان، تنبعـث فجـأةً فـي ذاكرتـه المعلومـة التـي غابـت فـي ذاكرتـه عـن إسـم مزبـان بوصفـه أحـد أكثـر البعثييـن دمويـة و إفراطـا بالعنـف فـي تعذيـب المعتقليـن فـي بلـدة مندلـي، و المسـؤول عـن مليشـيا الحـرس القومـي هنـاك

أبـان إنقـلاب شـباط 1963، و معـروف بجريمـة مقتـل إثنيـن مـن المعتقليـن علـى يـده مباشـرة جـراء التعذيـب . . متـردداً و خائفـاً، يفكـر شـمران بسـحب يـده كـي لا تصافـح يـداً ملوثـة بالـدم، لكـن مـا يمـرق بخاطـره عـن دماثـة خـُلـُق المحافـظ هـو مـا واسـاه ليكـون مبـرراً لقبولـه مصافحـة مزبـان، و سـيينتزع يـده إنتزاعـا مـن جسـده الرافـض لممالئـة الشـر الماثـل أمامـه إنتزاعـاً، و يمـد ذراعـه علـى مضـض لمصافحـة مزبـان بكـف مرتخيـة غيـر مباليـة و ربمـا خائفـة، لدرجـة أن كفـه بـدت لـه و هـي فـي يـد مزبـان كأنهـا قطعـة ورق تنبعـج و تضيـع فـي كـف مزبـان الضخمـة القاسـية القويـة، و قـد لا يكـون فـات صاحبهـا أبـداً فتـور كـف شـمران التـي تصافـح.

موَدِعَهُـم . . يتمنـى لهـم المحافـظ التوفيـق و النجـاح لجعـل الفـن أداةً ثوريـة لخدمـة أهـداف الشـعب. و يغـادروا مكتـب المحافـظ الـى السـكرتارية. و هـا هو رئيـس القلـم السـري ينتظـر واقفـا ليودعهـم، فيسـأله سـليم الزيـدي مسـتغرباً:

- خليتنـه نرجـف! . . لعـد ويـن الحـچـي عـن خلـل بحسـابات ماليـة الفرقـة! . . أشـو المحافـظ مـا حـچـه عـن شـي مـن هالنـوع؟

- آنـي شمدريني! . . هم اللي گالولي أگـول هيـچ!

- غريـب!

يومـان يمـرا، و سيسـتغرب شـمران و هـو يسـمع مـن فليـح حسـن الجاسـم بإنـه إقتـرح إسـمه قبـل أسـبوع عنـد المحافـظ ليكـون رئيسـا للجنـة العمـل الشـعبي فـي المحافظـة. و لهـذا طلـب المحافـظ رؤيتـه قبـل أن يوافـق علـى الإقتـراح. و هـا هـو شـمران يسـتنتج إن المحافـظ هـو الـذي طلـب مـن رئيـس القلـم السـري فـي المحافظـة أن يرتـب لقـاءً لأعضـاء الفرقـة بـه، بإختـراع أي سـبب ممكـن للقائهـم كـي لا يبـدو لقـاء المحافـظ بشـمران شـخصياً، فإمتعـضَ شـمران معلقاً:

- عجيـب! . . و هـذا أميـن القلـم السـر مـا لـگـه سـبب، لمقابلتنـا للمحافـظ، غيـر هـذا السـبب السـخيف اللـي سـوَّقه؟

يضحك فليح معلقاً:

- هذي هي عقلية موظف مسلكي من هالنوع!

فيما بعد، سيخبر فليح شمرانَ بموافقة المحافظ على إسمه رئيسا للجنة العمل الشعبي، و يكون رد شمران التريث لدراسة الإقتراح و العرض المقدم . . و يستشير شمران عبيد الصباغ في أمر ترؤُسِهِ للجنة النشاط الشعبي المقترحة، فيحثه هذا الأخير، على نحو غير مباشر و بكلام مبطن، على الموافقة، مبررا ذلك بأن الإشتراك في أنشطة مشتركة من هذا النوع ستقرب من وجات نظر الفرقاء السياسيين في مصلحة البلد، و تضعهم أمام أمر واقع، و يقصد بالفرقاء السياسيين، على نحو غير مباشر، الشيوعيين و البعثيين . . و يريد شمران أن يصارح الصباغ بأنه ليس شيوعيا و ليس من حقهم إستغلال وضعه على هذا النحو، لكنه أحجم. و ينوي أيضا إن يسأل الصباغ عما إذا كان ثمة خطوط سرية للإتصال و التفاهم بين البعث و الشيوعي، و هنا أيضاً أحجم عن إلقاء السؤال.

تفكيرٌ مليٌ طويلٌ يُقلِّبَ فيه شمران كل الإحتمالات و العواقب . . و سيرد شمران على إقتراح تَرَؤُسِهِ لجنة العمل الشعبي بالإعتذار عن قبولها، و يفضِّل عدم التسرع و الإنغماس في فعالية من هذا النوع كي لا يحشر نفسه في زاوية يَصعُبُ عليه فيما بعد الفكاك منها دون خسائر، و تحسباً لما ليس متوقعا في بلد تتقلب أحواله عشوائياً و بسرعة . . و عشية رفض شمران سيُقَدَّمُ عَرضُ ترؤسِ اللجنة لمدرس شيوعي مُسقط في إنقلاب شباط 1963 من قرية الهويدر . . و يوافق.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

جوِ أنفتاح مُغازِلِ غير معلن بين القوى السياسية يجتاح الشارع، و نضخِّمه إشاعات متضاربة . . .

إنفتاح للعهد الجديد على دول المعسكر الإشتراكي . . .

و مثلما إعتاد الناس على أن يقرأوا أو يسمعوا عن حكايات مدبجة تتنبأ بظهور نبي جديد . . قائدٍ مغوار . . مجرم عُتِلٍ يغدو إمبراطورا . . و تسرف في أوصافه و علامات ظهوره بنجيمات يغيرن مواقعهن في أبراج السماء و و تدبيج حكايات أسطورية عن طريقة مولده التي تبان بأمارات من نوع يتزلزل بها طلوع الشمس و زوالها . . بدورانه يضاعف القمر من نوره . . و يجيئ مارقون من أقاصي الأرض ليتأكدوا من مولدِ فلتةِ الزمان كي يؤمنوا به و يفلسفوا و يخدموا غزواته . . راحت الإشاعات تدور عن حكايات تجري عن توقع ظهور كاسترو جديد يخرج من رَحِمٍ معينٍ في الشرق الأوسط . . و التلميحات هنا طبعاً تشير الى صدام التكريتي!

إحتفال بالذكرى المئوية لميلاد فلاديمير إليتش لينين يرعاه شخصياً صلاح عمر العلي وزير الثقافة البعثي في العراق!

ضغوطات من الأخ السوفيتي الأكبر على رفاقه العراقيين كي لا يفوتوا فرصة بزوغ . . كاسترو الشرق الأوسط الجديد . . و يتناسون و يتغافلون عن أنه آت على دبابة أمريكية! . . آت كي يلقن الإمبريالية درساً آخر شبيهاً بالدرس الذي لقنها إياه كاسترو أمريكا اللاتينية أبان عهد جون كيندي، و فشل في تلقينها إياه جمال عبد الناصر! . . يأتي هذا الكاسترو . . فيقلب معادلة القوى في الشرق الأوسط بعد هزيمة العرب الكبرى و فشلِ عبد الناصر في حزيران 1967 . . و النصيحة تأتي دوما من الأخ السوفيتي الأكبر . . إنسوا جراح الأمس و لا تكونوا قصار نظر! . . دوروا حول الخرائط! . . لا أحد برئ!

المركز الثقافي السوفيتي في شارع أبي نؤاس يوسع نشاطاته . . .

أفلام سوفيتية تغزو دور السينما في بغداد . . و ها هو شمران يتفرج في سينما النصر المفتوحة حديثا في شارع السعدون على فلم المدرعة

بوتمكين . . و في سينما روكسي في شارع الرشيد يتفرج على فلم الطلقة الحادية و الأربعون . . و يأتي مرة اخرى الى بغداد ليتفرج على فلم الحرب و السلام في سينما النصر . . و فلم حبيبتي زليخا في سينما الوطني!

كتب دار التقدم السوفيتية تجتاح مكتبات بغداد و باعة الكتب على أرصفة العاصمة . . بالإنكليزية . . و العربية . . و بالروسية . . و ها هو شمران يطور مهاراته الترجمية بترجمة بعض قطع من مجلة الأدب السوفستي الإنكليزية لينشرها في صحف بغداد!

في غمرة كل هذا . . يجئُ سليم الزيدي لشمران الى البيت ذات يوم خريفي عصراً لينقل لشمران خبر وصول مثقف آخر الى بعقوبة، من شلة جان دمو و جليل القيسي في كركوك . . و عليهما مساعدته في تنظيف البيت و إعداده للسكن.

من يكون؟

ممتلئٌ فضولا، يرافق سليم الزيدي مشياً على الأقدام من البيت مُخترقَينِ الشارع الفرعي وصولاً الى شارع الشاخة، و منعطفين يميناً، يتناقشان في شأن العمل في مسرحية برتولد برشت . . السيد بونتيلا و تابعه ماتي . . و إحتمال أن يقوم بإخراجها للفرقة ياسر علي الحارز، طالب في صف منتهٍ من أكاديمية الفنون الجميلة، و إحتمال تكليف شمران بدور السيد بونتيلا في المسرحية. شمران كان قد قرأ مسرحية برشت قبلا، فيسأل سليم عما اذا كان عليه إعادة قراءة المسرحية، فيوافقه سليم . . عند وصولهم الى عمارة جمال البندر، سينعطفان يميناً و يدخلان الدربونة الضيقة . . ثم إنعطافة نحو اليسار من وراء البناية مباشرة، و بمسيرة قصيرة كان هناك بإنتظارهم رجل قصير القامة، مليح الوجه، بحلة و هندام لائق، و لكنه مقطب الجبين معقود الحاجبين أبداً، و سيكتشف شمران أنه سيظل مقطب الجبين حتى عندما يبتسم أو يضحك!

سليم الزيدي يقدمهما لبعضهما:

- حامد الدين الزنگناوي . . أديب و مثقف و مدرِّس في إعدادية بعقوبة وصل البارحة الى المدينة . . و هذا شمران الأحمدي معلم إبتدائية كاتب يتمرن على الكتابة و ممثل مسرحي واعد!

يتصافح الثلاثة، و يدخلون البيت الخالي لإتمام مهمة تنظيفه و تعليق ستائره و إعداده للسكن . . و سرعان ما سينضم الزنگناوي الى شلة صالون سليم الزيدي المسرحية أولا . . و سينضم أيضا الى شلة صالون حسين الجليلي، التي إنضم إليها في العام نفسه عبد الأمير الحبيب، مُبعَدٌ آخر، كاتب قصة، جاء ليعمل مدرسا منطقة أبي صيدا . . و سينظَمُّ أيضا الى الشلة إبراهيم حميدي مدرسا في إعدادية بعقوبة، جاء إبعادا من شطرة الناصرية.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الإشاعات ما تزال تروج عن الدبابة الأمريكية التي ركبتها العصابة التي مهدت لإنقلاب تموز 1968 بإجبار طلبة الجامعة على الإضراب و راجت معها حكايات عن تسلل تلك الجماعة الخفي الى القصر الجمهوري للإمساك بخناق الضباط الذين أمسكوا بالسلطة في الواجهة. و مع ذلك ثمة تطورات جارية . . تجميل الشيوعيين للمشهد القادم بتفاؤل مفرط في قيام دولة معادية للإمبريالية في العراق. و ها هو شمران يقع في فخ الإغراء بإمكانية سير البلد نحو عهد جديد. و سيتذكر ما سمعه و هو صبي أبان العهد الملكي عن أن الشيوعيين هم لا غيرهم من تبرع للبعثيين بآلة طابعة كي يطبعوا عليها نشراتهم الحزبية قائلين لهم . . إذهبوا و قووا تنظيم حزبكم و قووا تنظيم الحركة الوطنية . . و قابل البعثيون ذلك الكرم بجزاء سنمار في إنقلابهم في شباط 1963 . . و مع ذلك . . أسيخطأ الشيوعيون مرة أخرى و يكونوا قصار نظر الى حد أنهم قد يلدغون من الجحر نفسه مرتين؟ . . هذا هو ما أشاع تشوشاً في ذهن

شمران و ذهن كثيرين غيره!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

خريف عام 1969 . . يقدَّم شمران الأحمدي طلباً لنقله من مدرسة الأمل، و سينقل الى مدرسة المناهل في خرنابات . . من أمل العلم الى مناهل العلم!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بوادر مبكرة لعلاقة جديدة مختلفة بين خصوم الأمس القريب تشرع بالظهور . . إنشطة مشتركة أوحت بها القيادات السياسية بين البعثيين و الشيوعيين على مستوى التنظيمات المهنية غير الحزبية . . ما الذي يجري في الخفاء و لا يعلمه شمران؟ . . الكثير! . . يخفق البعثيين بإستمالة شمران بمبادرة من فليح الجاسم للعمل معهم عام 1969 في منطقة صوَّرَها له الجاسم أنها ستكون حيزاً وسطاً لمجرد تنشيط الفعل الجماهيري في ظروف إيجابية . . ينجح الشيوعيون بإستمالة شمران من طريق عبيد الصباغ، صديقه و نديمه، للعمل من جديد على مستوى المنظمات غير الحزبية فيوافق على إستحياء . . لكن شرط ألا يكون في هذا مقدمة لإنخراطه مرة أخرى في أي تنظيم حزبي و دون إلزامه بأية قواعد . . رومانسية بما تنطوي عليه من مغامرة جديدة . . النار تحت الرماد! . . و سرعان سينجح عبيد الصباغ بزجِّ شمران في نشاط إنتخابات نقابة المعلمين في شباط 1970. و يتكفل شمران بالدعوة الى احياء أنشطة . . القائمة المهنية . . لإنتخابات نقابة المعلمين، و هي قائمة تضم المعلمين اليساريين. يتولى شمران شخصياً، لا غيره، جمع نصاب المرشحين المطلوب للقائمة عبر جولات يقوم بها شخصياً في مدارس محافظة ديالى . . المقدادية و الخالص و خانقين و مندلي و كنعان و بهرز و الهويدر و خرنابات . . و مدارس ما تسمى بقرى الشط، جديِّدة الشط، الكّصيرين، و ما يجاور . . بعد إستكمال النصاب القانوني للمرشحين

يقدمه شمران للجهات المعنية، و يجرى طبع نشرة تضم أسماء المرشحين و برنامج القائمة. وها هو شمران يطرح فكرة أن يُعقد إجتماع عام لهيئة المرشحين، لكن إقتراحه سيرُفِض لأسباب أمنية.

عشية بدأ الحملة الدعائية للقائمة المهنية، يتسلَّم شمران توجيهاً فحواه أنه سيكون عضواً في وفد يترأسه عبد الأمير الحبيب لبدءِ مفاوضات مع ممثلي القائمة العربية التي تمثل البعثيين و القوميين و أنصارهم . . لماذا عبد الأمير الحبيب؟ . . من الذي يدير الأمر برمته؟ . . عبيد الصباغ؟ . . عبد الأمير الحبيب؟ . . لربما أحدهما لأن الحبيب حاله حال عبيد الصباغ على علاقة ببغداد و ليس بديالى، و ينبغي أن يقود وفد المفاوضات شيوعيٌ و ليس غيره؟ . . أم لربما لأن الحبيب هو المنسق الفعلي مع قادة القائمة المهنية في المركز في بغداد؟ . . أم ثمة أحد ما يزال يوجه من خلف ستار عبيد و الحبيب؟ . . و إذ وجده أمراً لا يعنيه مباشرة و ليس من شأنه، لم يلتفت شمران الى الخفايا!

في يوم الموعود للِّقاء بالخصوم . . ها هو فريق القائمة المهنية يدخل بناية روضة أطفال بعقوبة[٤٧] . . غرفة معدة للقاء الوفدين المفاوضين بصفين من الكراسي وُضِعَت وسطهما طاولة كبيرة. جلس وفد المهنية يتوسطهم عبد الأمير الحبيب[٤٨] و على يمينه شمران و على يساره إبراهيم حميدي[٤٩] ينتظرون . . بمرور نصف ساعة وصل وفد القائمة المنافسة.

---

[٤٧] «روضة أطفال بعقوبة» كانت بنايتها مقابل بناية المكتبة العامة في بعقوبة و يجاورها من الشرق «نادي ديالى الرياضي» و تطل على الساحة من جهة الشرق في الركن الأيمن من الشارع المؤدي الى منطقة أم النوة بالنسبة للشخص الآتي من ساحة العنافصة. و في مكانها يوجد حالياً سوق ذو طابقين.

[٤٨] «عبد الأمير الحبيب» مدرس في متوسطة في منطقة أبي صيدا في ديالى . . . كاتب قصة قصيرة، شيوعي سابق أعتقل عقب إنقلاب شباط ١٩٦٣ و بعد خروجه من الإعتقال أعيد الى الخدمة و أبعد الى بعقوبة . ثم سافر الى الجزائر و عاد الى بغداد. بعد الإحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ عمل محررا في جريدة «طرق الشعب» و توفي مؤخرا في بغداد.

[٤٩] «إبراهيم حميدي» مدرس في إعدادية بعقوبة، مثقف أصله من شطرة الناصرية،، شيوعي سابق، أعتقل و عذب في إنقلاب شباط ١٩٦٣ . و بعد خروجه من السجن و إعادته للخدمة عام ١٩٦٩ أبعد الى بعقوبة. و يعيش الآن في لندن.

مزبان خضر يتقدم الوفد حاملا رشاشة. و ها هو يجلس مقابل عبد الأمير الحبيب، و الى جانبيه عبد الكريم هادي الربيعي[٥٠] و محي الدين نافع[٥١] عضوين. و بطبعه العدواني وضع مزبان رشاشته على الطاولة، و كأنه يتعمد وضع فوهتها بإتجاه الوفد الخصم . . إذن الكلمة الفصل عند وفد الفريق الآخر ستكون لمزبان. و الرشاشة فاغرة فاها تجاه شمران شخصياً لا تجاه أحدٍ من زميليه، لم يجد شمران في هذه الحركة سوى تصرف إستفزازي للترهيب! . . و تحت تأثير من الأفكار المتضاربة عن الوضع الجديد المختلف الموعود، متداخلة بتذكره علمه عن إجرام مزبان، سيجد شمران أنه لا بد من قول شيءٍ عن حركة مزبان الإستفزازية و إلا فإن التفوق في الجلسة سيظل ظاهريا لمصلحة الخصوم . . مال شمران نحو رئيس وفده هامساً بإذنه بضعة كلمات، فمطَّ هذا الأخير شفتيه و عقد ما بين حاجبيه ثم صعَّرَ خده في تعبير سريع إحتار شمران في تفسير مراده . . ما الذي يعنيه رئيس وفده؟ . . لا حاجة لذكر الموضوع؟ . . لا داعي للتعليق؟ . . ليس من الضروري أن نفعل؟ . . ثم و هِب أنه وضع الرشاشة على هذا النحو؟ . . ثم ماذا؟ . . حتى لو فعل فماذا سيجري و ما تأثيره؟ . . تصرف غير لائق يجب تجاوزه؟ . . انس الموضوع؟ . . و حين عسر على شمران تفسير ما أراد رئيس وفده أن يرد به على حركة وضع الرشاشة، و من إعيائه لإنتظاره الجواب لثوان، سيجد شمران نفسه في نوبة قهرية، غير قادر على تفويت فرصة التعليق عن الموقف، فقال مخاطباً الجميع في البدءِ:

---

[٥٠] «عبد الكريم هادي الربيعي» ، أصله من لواء الكوت، جاء الى بعقوبة بصفة معاون مدير تربية ديالى، و صار فيما بعد مديرا للتربية، ثم نقل الى بغداد و هناك جرت تصفيته عام ١٩٧٩ من قبل منظمات البعث السرية لإتهامه بضلوعه في التآمر مع مجموعة محمد محجوب و محمد عايش . . و أشيع أن إبنه قتله

[٥١] «محي الدين نافع» أصله من «دلي عباس» التابعة لقضاء المقدادية في محافظة ديالى. . . جرت تصفيته في عام ١٩٧٩ في منطقة «حي المعلمين» في بعقوبة من لدن منظمة البعث السرية بتهمة التآمر (ع في الصفحة التالية) . . على سلطة البعث مع مجموعة محمد محجوب و محمد عايش بوصفه أحد آخر ذيول تلك المجموعة التي لم يعلن عنها لأسباب كانت الغاية منها حجب حجم التيار المعارض لصدام و «منظمة حنين» داخل حزب البعث. . . و قُيِّدت الجريمة ضد مجهول!

- بعد إذن أستاذ عبد الأمير رئيس وفدنا . .

مشيرا الى الرشاشة الموضوعة على المنضدة، مخاطبا مزبان مباشرة:

- و بعد إذن حضرتك أستاذ مزبان . . هاي شنو؟

فيرد مزبان مستغربا بعصبية:

- شنو! . . . ليش ما دا تشوفهه شنو! . . شكو؟ . . إنت ما شايف سلاح بحياتك؟

- بالتأكيد آني شايف سلاح . . و يا ما شفنه سلاح! . . إذا ما شايفه بالأفلام . . أو أثناء الإنقلابات و عقابيلهه . . على الأقل أيام زمان و إحنه زغار چنه نشوف سلاح عند الچرخچية! . . المقصود هو أكو داعي لوضع سلاح على طاولة تفاوض بين طرفين في لقاء أول المفروض به أن يكون تعبير عن حسن النية! . . أستاذ مزبان . . إحنه من طرفنه هنا جايين نتفاوض و نتفاهم للتأسيس لعمل مشترك مو حتى نتحارب؟

و يأتي رد مزبان بنرفزة واضحة و طريقة إستفزازية:

- شنو قصدك؟ . . لعد هي المفاوضات مو حرب؟ . . لو هي غير شي برأيك!

- سيد مزبان . . إحنه جايين نتفاوض و التفاوض يتطلب توفر حسن نيَّة عند الطرفين . . و حسن النية حسب علمي لا يُعبَّر عنه بوضع سلاح فوهته بوجه المفاوض الخصم . . إنت سمعت من قبل بمفاوضات يجيلهه أحد الطرفين و بيده سلاح؟

و كأنه لم يفهم ما رمى إليه شمران، أراد مزبان أن يتمادى، فعلق:

- أي! . . و شنو قصدك؟

- قصدي . . إحنه هذا ما نشوفه غير بالأفلام فقط . . لمّا المافيات تجي تتفاوض تجيب وياهه سلاح؟ . . لكن لمّا تجي جهات من النوع الموجود في هذي الغرفة حاليا حتى تتفاوض الوضع يختلف . . آني متأكد إحنه من طرفنه مو مافيات أستاذ مزبان! . . و أعيد سؤالي رجاءً . . أكو داعي لوضع رشاشة على الطاولة أمامنه و فوهتها بوجوهنه؟

و لكي يتخلَّص من الموقف دون تراجع، بدى مزبان لشمران و كأنه يريد خَلْطَ الأمر بمزحة، و هي خصيصة ليست من طبعه، فكاد أن يردَّ بابتسامة متحدية و تشي في الوقت نفسه بوقاحة و حقارة أراد لها في نفسه اللئيمة أن تبدو تكشيرة:

- و شنو يعني! . . أفترض حطيتهه وما ناوي أشيلهه! . . شراح تسوي؟

ها هو شمران يحسُّ بالورطة التي أوقع نفسه فيها! . . أكان يمزح حين أثار موضوعاً من هذا النوع كمدخل للحديث بين الطرفين؟ . . حتى لو إفترضنا أنه يمزح! . . يمزح مع من؟ . . مع نفسه؟ . . مع شخص مثل مزبان بتاريخه الإجرامي الذي سمع عنه؟ . . فهو على الرغم مما سمعه عن بلطجية مزبان و قسوته و صلافته و إجرامه، كاد حسن نيته يحولُ دون توقعه بأن تبلغ الصلافة و الوقاحة بمزبان الى هذا الحد! . .
فهل كان التطرق الى أمر السلاح الموضوع أمامه على الطاولة تهورا منه؟ . . أم كان عليه أن يمرر ما نجم من تصرفٍ من مزبان و يتركه كي ينطرح من تلقاء نفسه أثناء المفاوضات؟ . . و مع ذلك . . ماذا عن رشاشة ما تزال كلما وقعت عيناه عليها يراها فاغرةً فاها نحوه و كأن مزبان وضعها على هذا النحو متعمداً لكي يمتحن الوضع و يختبر أرض المفاوضات؟ . . أو . . لا! . . أم أن مزبان لربما كان يستهدفه هو لا غيره بوضع الرشاشة على هذا النحو طالما كانت فوهتها متوجهةً نحوه شخصياً لا نحو غيره؟ . . و آخر الأمر أجاب على نفسه . . لا بالتاكيد! . لم يكن تهوراً! . . و أنه حتى لو كان قد رَسِبَ في أعماقه ظلٌ لمزحة

من نوع ما حين أثار الموضوع كي تكون مدخلاً للحديث بين طرفي المفاوضات، فإنه عليه الآن أن يُطـهِّرَ نفسه من آثار و هم تلك المزحة. . و كان لا بد له من إثبات قوة طرفه المفاوض على النحو الذي جرى! . . فإختار أن يذهب بما إجترحته يداه الى غايته المنطقية، فقال مخاطباً مزبان:

- أستاذ مزبان . . بغض النظر عن المهمة اللي جايين علمودهه . . إحنه أولاً زملاء مهنة! . . ما يعني إسمحلي أسألك . . إنت من تدخل المدرسة تاخذ وياك رشاشة؟

- إي!

- و تخليهه بهالطريقة على المنضدة أمام زملائك المعلمين؟

- أحطهه مثل ما أريد . . و ما أحد يعترض!

- إذن! . .

تباطؤ شمران في التفكير يعني حاجته لمهلة للتفكير و التخطيط لم سيفعله و يقوله للخروج من هذا المأزق، فأستعجله مزبان و كأنه يستدرجه:

- إذن؟

- إذن . . آني أشوف إنتَ حتماً تعرف أن الإصرار على وضع السلاح بهالطريقة راح يعني إن كفتي التفاوض غير متعادلتين و لا متكافأتين.

واضحٌ أن مزبان يزداد وقاحة و صلافة . . إحساس بالتفوق . . و رشاشته على الطاولة، و كأنه يريد أن يقول بأنكم أنتم الطرف الخصم المفاوض لستم بالجرأة التي تأتون بها و في أحزمتكم سلاح! . . و ها هو يستمرئ لعبة التفوق و عرض العضلات، فيعلق بتعالٍ و سخريةٍ سافرةٍ:

- و شراح تسوي حتى يصير تعادل و تكافؤ بين الطرفين؟

ثمة خشية من تطورات في الموقف . . و شمران ينظر مباشرة في عيني مزبان الجاحظتين في وجهه المرعب، و قد أتسعت حدقتاهما و كأنهما تطفران شرراً، رد شمران:

- حتى يتحقق التكافؤ و التساوي بين طرفين متفاوضين . . أستاذ مزبان . . هذا يعني آني راح أضطر أحط شي من طرفنا إحنه أيضاً مقابل هذي الرشاشة حتى يتحقق التكافؤ!

تصريح مباشر و جرئ . . و الكل ينتظر ما سيضعه شمران مقابل الرشاشة و فوهتها ما تزال تَنفَغِرُ و بإصرار في وجهه . . أية ورطة! . . بل أي إحساس بالقهر! . . أول الفرج جاءه بتذكره لصورة مرت به مرة لصبية تضع وردة في فوهة رشاشة يحملها جندي . . و من أين يا ترى سيأتي بالوردة؟ . . ظل بؤبؤ عينيه يتحرك دائريا في كل الإتجاهات و رأسهُ ساكنٌ لا يتحرك، علَّهُ يجد وردة في المكان! . . أو زهرة حتى لو كانت ذابلة! . . المكان لا ورد فيه و لا زهر! . . غرفة في روضة أطفال لا ورد فيها و لا زهر! . . و كي يعطي نفسه فرصة ثانية إضافية للخروج من المأزق على نحو مشرف، سرعان ما إلتقطت عيناه في دورانهما نظر الى الأسفل ذاك القلم اليتيم الذي ينتصب رأس غطائه في جيب قميصه. جاء القلم قاربَ نجاةٍ يمنحه فرصة الإحتفاظ بزمام الأمر الذي بدأه، و أمام النظرات المتطلعة الفضولية للجالسين على جانبيه و قبالته . و قد ذهبت بهم ظنونهم جميعاً الى حيث شاءت عما سيضعه شمران مقابل الرشاشة . . سحب القلم من جيبه، و وضعه بهدوء و أرتياح في فوهة الرشاشة، قائلا:

و آني أشوف ماكو شي أحسن بل و أفضل من هذا القلم يصلح ينحَّط بفوهة رشاشة!

الجميع مأخوذون . . و إن لم يكونوا قد إستوعبوا الموقف فورا، فأضاف شمران:

- . . سيد مزبان . . تدري ليش القلم يتمتع بدور من هذا النوع؟

و يستفسر مزبان بوقاحة:

- ليش؟

- لأن إحنه نعتبر القلم هو المعادل الموضوعي للرشاشة أو لأي قطعة سلاح مهما كان حجمها!

يا للقريحة! . . حلّ أتى هكذا! . . و كأنه تدلّى من حيث لا يدري! . . و على بساطة الأداة التي حَلحَلت موقفاً صعباً أثار شكوكاً و فضولاً، لم تكن المفاجأة إستثنائية فحسب، بل و معبرة . . قلم إزاء رشاشة؟ . . يا للرومانسية! . . و بعد حركة القلم الذي سد فوهة الرشاشة، سيستمر الصمت لثوانٍ، و كأن الجالسين من حول شمران إحتاجوا وقتاً كافياً كي يهضموا ما جرى أو لربما كي يفيقوا مما كانوا فيه من حيرة . . و سرعان ما إنطلقت قهقهةٌ خافتةٌ من قبل واحدٍ من طرف مزبان و إمتدت القهقهة الى زميله الآخر، قبل أن تتحول الى ضحكات عالية من رفيقي مزبان أولاً، ثم إمتدت الضحكات، بادئ الأمر حييَّة، الى رفيقي شمران اللذين لربما كانا أثناء الموقف مثلما يقول المَثَلُ الدارج . . . يَبِسَتْ القملةُ في رأسيهما من الخوف! . . و لأنهما ربما لم يكونا ليتوقعا أن موقفاً من هذا النوع قد يحصل في بداية الجلسة أو أثنائها! . . و يظل شمران لا يدرك كنه الضحكات . . سخرية! . . إعجاب! . . إستصغار شأن القلم! . . أحُسِبَ القلم بحجمه الضئيل شيئا نكرة إزاء شيءٍ مهولٍ مثل الرشاشة! . . و مع ذلك كان لا بد لشمران في داخله أن يعد ما إجترحته يداه نصراً صغيرً مؤقتاً حققه أثناء في الموقف!

الوحيد الذي لم يضحك كان مزبان . . و راحت أسنانه تصر علانية و بوقاحة، و أوداجه تنتفخ و تكاد تنفجر . . .و ستثبت الأمور بعد بضعة أيام فقط بأن مزبان لم يكن من شاكلة البشر الذين يفوّتون فرصة الإنتقام لكرامته التي لربما ظنها ديست أمام رفيقيه! . . و ممن! . . و لكي يداري

مـا مـر بـه و يقلـل مـن أيـة قيمـة للقلـم اليتيـم الموضـوع فـي فـم الرشاشــة، و حتـى دون أن يضـع فـي حديثـه مدخـلاً لنيـة فـي التعـاون، خاطـب مزبـانُ شـمرانَ متحديـاً و سـاخراً:

- يللـه! . . بعـد أن حطيـت هـذا القلـم الخـُلـَّـب بحلــگ الرشاشــة المليانــة نــار . .

تقاطعـه ضحـكات الطرفيـن للمقارنـة التـي أجراهـا . . و لكـن مزبـان لـم يعبـأ بجـو الإنفـراج الـذي أحدثـه شـمران، فقاطـع الضحـكات مضيفـاً و بسـخرية أكبـر مخاطبـاً شـمران:

- يلله . . خلينه نـگول هسه صار أكو تعادل . . گـول . . شعدكم؟

هـذا إنتصــار تحقـق لـه فـي الموقـف . . سـيقدر شـمران أن الـدور فـي إجابـة مزبـان هـو دور رئيـس وفدهـم عبـد الأميـر الحبيـب، فإلتفـت إليـه قائـلاً:

- أستاذ عبد الأمير . . تفـَضـَّل . . جاء دورك بالإجابة!

و يجيؤه رد الحبيب مفاجئاً و مستسلماً:

- لا أخــي! . . الـدور مــا يـزال دورك بالإجابـة لأن أسـتاذ مزبـان خاطبـك إلـك!

مـاذا؟ . . . أهـل إمتعـض الحبيـب و ربمـا حَسِـبَ مـا قـام بـه شـمران تماديـاً بطرحــه موضــوع الرشاشـــة مُـصعـّـدا مــن الموقــف بطروحاتــه! . . أم أنـــه إستسـلام منــه لشـمران خوفــاً مـن مزبــان لأنــه يجهـل الكثيـر عــن مزبـان، فاكتشــف بعضــه أثنــاء الموقــف مــن الرشاشـــة! . . أم أنــه لـم يكـن ينـوي أن يظـّهِـرَ لــه دورا بــارزا فــي المفاوضــات! . . لـم إذن صــارَ أو صُيِّـرَ رئيـس وفـد؟ . . كان عضـوي الوفـد الآخريـن كلاهمـا أكبـر منـه سـناً . . ثـم جـال فـي خاطـر شـمران فضـول هـو أن يجـرِّب، مـن بـاب اللياقـة، موقـف عضـو وفدهـم الآخـر، فإنحنـى ليخاطـب إبراهيـم حميـدي:

- أستاذ إبراهيم . . أو إحتمال الدور دورك!

يلقي إبراهيم نظرة نحو الحبيب يحتار شمران في تفسيرها . . إستسلام! . . إستفسار! . . أتحدث أم لا أتحدث؟ . . عجز! . . فيرد على شمران هو الآخر قائلاً:

- لا! . . مثل ما گال أستاذ عبد الأمير . . ما يزال الدور دورك!

ماذا؟ . . ما يزال الدور دوري! . . أينويان إحراجي كي يتملصا من أي عاقبة بعد أن بلغ الموقف من أوله مبلغاً لا يستطيعان تجاوزه؟ . . أم إستكثر عليَّ زميلي هذين إنتصاري الصغير هذا! . . أو ربما أنهما لا يعدانه إنتصاراً و لا من أي نوع . . و بلحظة سيدرك شمران صواب رأيه حين قرر ألا ينخرط في نشاطات الحزب و يظل حراً . . تحيا الرومانسية! . . بل تحيا الفوضوية!

و لم يجد شمران إلا أن يخاطب مزبان معلقاً:

- شعدنه!

بهذا التعليق المقتضب، و شمران لا يتصور أن الدور كله سيكون دوره في هذا الموقف . . و على الرغم من التفاهمات التي جرت بينه و زميليه في الوفد عن آفاق المفاوضات و الحدود العليا للمطالب و الحدود الدنيا التي ينوون ألا يتعدوها، كان بحاجة لوقت كي يهضم ما سيقول طالما أن زمام الأمر بات في يديه . . صحيح أنه كان قد إنخرط في نشاط سياسي و هو ما يزال فتى غِراً لا يفقه من السياسة شيئاً سوى ترديد الشعارات و كتابتها على الجدران بدهان أحمر . . و كان نشاطه بمجمله عشوائياً يقتصر على تلقي الأوامر و تنفيذها . . الشعار العتيد . . نَفّذْ ثم ناقشْ! . . فها هو الآن سيدير اللعبة بخياره الحر . . الكل خائف! . . و الكل غير خائف! . . خيار الوجود! . . و هو منشغل بخطف النظر مرة الى وجه زميله إبراهيم الأسمر الساخر إبداً بشاربيه المتدليين و كأنه سمع للتو

نكتة، و مرة بوجه زميله الحبيب الأصفر الكتوم الذي طالما رآه يضحك فيظنه يبكي . . و جاءه صوت مزبان يرد:

- أي . . شنو الأفكار اللي عندكم؟

يلتفت ليواجه مزبان فيجده يتفرس فيه بعينين جاحضتين حمراوين و كأنه عُيِّلَ صبرا و زميليه غارقين في النظر الى المنضدة . . كومبارس ليس أكثر! . . ثم تذكر شمران بأن زميليه أيضا قد تحولا الى كومبارس بإرادتهما . . يا للفروسية! . . من يفز منهما هو أو مزبان سيصفق له فريقه! . . أي تصفيق! . . و مع ذلك، و لكي يعزز شمران إنتصاره الصغير، و في الوقت نفسه كي يوجه رسالة الى زميليه في الوفد اللذين فاجآه بإحجامهما عن الإشتراك في الحديث ليقول لهما أنهما خذلاه أكثر مما فوضاه، رد بسرعة:

- لا! . . أستاذ مزبان! . . و طالما إنت خاطبتني إلي شخصياً مثل ما گال زميلي أستاذ عبد الأمير . . آني بدوري راح أخاطبك إنت شخصياً!

- إحچي!

- . . آني ما راح أگول شعدنه من أفكار أستاذ مزبان . . آني أفضل إنت اللي أولاً تگول شعدكم إنتو من أفكار و تصورات عن جهد مشترك بين الطرفين لخدمة المعلمين . . و إحنه اللي راح نشوف!

مزبان متهيئٌ نفسيا و دون أي تفكير مسبق للقيام بتصعيد على هامش لعبة الرشاشة، لربما لوضع نهاية غير مشجعة للأمر كله، فقال بنبرة لا تخلو من تهكم:

إحنه بالبداية چنا ناوين نختار من بين أسماء مرشحي قائمتكم چم إسم نضيفهم لمرشحي قائمتنا العربية و نفُضّ السالفة بأكملهه!

- هذا بالبداية! . . و هسه؟

- هسه! . . آني بعد أن شفت بطولات من قلمك اللي هسه أگدر بنفخة أطيِّره من حلگ الرشاشة . . إحتمال نقرر ننطيكم ممثل واحد في الهيئة الأدارية للنقابة . . ها شتگولون؟

و لأن شمران يعلم بأن أقل الهيئات الإدارية عددا في النقابات تتكون من خمسة أعضاء، فما قيمة صوت يتيم واحد تحصل عليه قائمته إزاء عدد من الأصوات يفوق الواحد بكثير . . و بالطريقة التي قدم بها مزبان خضر عرضه، حاول شمران أن يفسر الأمر على أساس . . نعطيكم صوتاً لا قيمة له و نُنيطُ بكم دورا ميتاً قبل أن يولد، و أنتم أحرار أن تقبلوا أو لا تقبلوا! . . و ما يعني بالتالي أن وجودكم بيننا يساوي لا وجودكم بيننا! . . و ما يعني أيضاً يا سيد مزبان إنكم تريدون واحد خزمچي ينظف لكم مظهركم أمام خلق المعلمين و الخلق عامة لكي ترفضونه وقتما شئتم! . . و لأن شمران يدرك جيدا إن تكليفَ شخصٍ من شاكلة مزبان لهذه المفاوضات يعني بأن العرض الذي سمعه منً مزبان لن يتلقى أفضل منه إطلاقاً . . و على الرغم من معرفته بنفسه كونه قليلَ خبرة في أمور المفاوضات و لخذلان زميليه له و إحجامهما عن القيام بدور ما، ساوره ظنٌّ بأن قبول القائمة العربية الجلوس معهم لم يكن سوى إسقاط فرضٍ من نوع ما قد يستمر على مستويات أخرى، و كي لا يطيل الحديث دونً جدوى، علق شمران متسائلا:

- هذي آخر عروضكم؟

- بلي . . هذا آخر عروضنا!

شمران غشيم دون ريب، فهو لا يدرك إفتقاره الشخصي لرؤية في السياسة كونها لعبة شد و جذب، و مفرداتها ليست بيد اللاعبين الظاهرين في الواجهة. و من أين لشمران أن يحسب بأن الأمور ستجري على هذا النحو بعد ثلاث سنوات، في تشكيل ما سيسمى . . الجبهة الوطنية

و القومية التقدمية . . بمنح الشيوعيين حقيبتين وزاريتين لا ثقل لهما! . . حاول شريكاه في الوفد أخيراً بما إعتادا عليه من تداول عبارات عامة حييَّةٍ مداهنة يتبادلها عادة أخوة أعداء لحلحلة و تليين موقف الطرف الآخر بعبارات جاهزة و شعارات و سرعان ما تجاوب معهما كومبارس مزبان بالإيماء و الإنحناء و الإبتسام المداهن، لكن رد مزبان جاء قطعياً و هو يكرر:

- مقعد واحد . . و هذا اللي قررته آني هسه! . . و ما أنطي أكثر من هذا!

و لم يجد سوى رد بنبرة ندية:

- هذا ما يفيدنا بشي! . . ممثل واحد بالهيئة الإدارية معنه ما بيدنه شي . . صفر على الشمال لا يقدم و لا يؤخِّر! . . و ما يعني بالنتيجة . . إحنه ماكو أمامنا إلا خَوض إنتخابات نقابة المعلمين بوصفنه قائمة منافسة لقائمتكم . . و أنا واثق من فوزنا!

إنفـضَّ اللقاء دون التطرق الى فحوى يهم مصالح المعلمين . . و بمغادرتهم سيعلّق عبد الأمير الحبيب مخاطبا شمران:

- معوَّد . . شدعوه رحت هلگد طوخ بموضوع الرشاشة! . . آني مو أشرتلك تعوفه للموضوع!

اذن . . الحبيب أراد مني أن أنصرف عن الموضوع! . . يا لسوء فهمي! . . و هو يتطلع مستغرباً في وجه عبد الأمير الحبيب المصفرِّ الذي لا يشي بشئ، عجز شمران هو الآخر عن قول شئ!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

عبيد الصباغ يستمع من شمران لما جرى في لقاء المفاوضات، و يظلُّ ساكناً لا يعلق. ليس من عادة الصباغ أن يبِتُّ بموضوع فورا! . . و يبلغه

شمران أنه سيبدأ منذ اليوم التالي حملة الدعاية للقائمة المهنية بنشرة تضم أسماء المرشحين. و كي تنجحَ دعايته الإنتخابية سيبدي إهتماما بمظهره، بإختيار بدلة كحلية و أقمصةٍ بيض، و أربطة عنق . . تركوازي . . زهري مقلّمٌ بخطٍ أخضرٍ رفيعٍ . . أحمرٌ مقلّمٌ بخطٍ أزرقٍ رفيعٍ . . حنيّ مُزَّهرٌ بأخضرٍ فاقع. و راح يدور في المدارس. بعقوبة و أطرافها إبتدأها بمدرسته. و و يدور بذهنه إختيار معلم شجاع و جرئ من بين مرشحي القائمة في البلدات الأخرى. و خصص بعضاً من صباحاته للوقوف في باب مديرية تربية ديالى[٥٢] للمدة التي يسمح فيها وقته قبل ذهابه الى دوامه الظهري لتوزيع نشرة الدعاية على الداخلين الى المديرية و الخارجين منها. و كل يوم يمر به أي من عضوي وفد القائمة العربية، عبد الكريم هادي الربيعي أو محي الدين نافع، فيتذكران بالتخاطر معه حكاية الرشاشة و القلم و يطلقان قهقهة تطول قليلا!

وقوفاً لمدة ثلاثة أيام للترويج للقائمة المهنية في باب مديرية التربية، و في اليوم الثالث بوصوله باب مدرسته في خرنابات عند حافة البساتين، لاحظ وجود سيارة أمام بناية المدرسة يتكئ عليها وقوفاً رجلان، و ملاحظا قامة المدير من وراء زجاج غرفته المطلة على الطريق، يدخل المدرسة و يتدلّفُ مباشرة الى اليمين نحو غرفة المدير، فيسحبه فوراً مشيرا الى خارج النافذة، و حدَّثه بصوت خفيض جدا:

- هذوله الإثنين سَألَو عنك!

- عني؟ . . هذوله منو أستاذ عبد الحسين؟

مدير المدرسة من المتعاطفين مع القائمة المهنية، فقال:

- بصراحة آني أعتقد هم من الأمن! . . و لا بد أن واحد منهم يعرفك! . . بس ليش ما أخذوك مباشرة گبل ما تدخل المدرسة؟ . . هذا هو

---

٥٢ كانت دائرة «مديرية التربية في ديالى» في البناية المجاورة لناية «دار بلدية بعقوبة» و البناية المذكورة تحتلها الآن «متوسطة الجواهري»

اللـي يحيرنـي!

و ينصاب شمران بالقشعريرة فوراً:

- أمن؟

- إي لأن هـذا الـچـبير منهـم أظـن آنـي شـايفه چـم مـرة يجـي لخرنابـات مرافـق ويـه مـلازم أول سـعدون!

و تتحول القشعريرة عند شمران الى إنبهات، و يسمع المدير يضيف:

- بـس أمِّـنْ لا تخـاف . . يبيـن الشـغلة خفيفـة! . . إحتمـال علـى شـغلة إنتخابـات النقابـة!

شلون؟

لو الشـغلة ثـگـيلة چـان إختطفوك من الشـارع و حتى بعيداً عن المدرسـة و لا أحـد شـاف و لا أحـد درى! . . ثـم هـم ليش مـا أخـذوك گـبل مـا تدخـل المدرسـة! . . هـذي جيتهـم بهالطريقـة تخويـف مـو أكثـر! . . تخويـف مـو بـس إلـك للآخريـن أيضـاً! . . تخويـف علنـي!

بـس مـع ذلـك . . أسـتاذ عبـد الحسـين . . إذا رحـت وياهـم أريـد أحـد يوصـل خبـر لوالدتـي.

اطمئنْ . . يوصل.

و إذا كان هذا تخويف علني مثل ما گِلتْ . . أفضِّل آني أطلعلهم!

يوافقـه المديـر . . و يخـرج شـمران و يتبـادل مـع الرجليـن التحيـة و بضعـة كلمـات، و هـا همـا يُـصْعِدانه فـي السيارة و تنطلـق تشـيعها نظـرات المديـر الـذي خـرج الـى بـاب المدرسـة.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

دائـرة أمـن ديالـى مـا تـزال شـعبة صغيـرة تحتـل جناحـا صغيـرا فـي بنايـة محافظـة ديالـى . . الجنـاح المواجـه لبنايـة مديريـة الإحصـاء و لا يفصلهـا سوى شـارع ضيق عـن بنايـة بلديـة بعقوبـة . . توقفـت السـيارة عنـد مدخـل البنايـة . . ترجـل منهـا شـمران و سـار محاطـا برجلـي الأمـن . . دخلـوا بـاب المحافظـة الخلفيـة. و هـم يقتربـون مـن بـاب جنـاح دائـرة الأمـن، تـراءت لشـمران مـن بعيـد كتلـة بـدن مزبـان خضـر الضخمـة يجالـس رجـلاً آخـر فـي الحديقـة غيـر بعيـد عـن بـاب الدائـرة . . و هـا هـو الرجيـف يداهـم قلبـه متوجسـا خيفـة و سـيجول فـي خاطـره فـورا . . مـا كان مزبـان مـن شـاكلة الرجـال الذيـن يفوتـون فرصـة للإنتقـام! . . و بدنـوه هـو و شـرطيّ الأمـن، ألقـى شـمران السـلام. لـم يـرد جليس مزبـان علـى السـلام، و إنفـرد هـذا لوحده بالـرد بنبـرة لا تشـي بـأدبِ رد السـلام قـدر تشـيانها بتشـف و نكايـة واضحـةٍ. و ينهـض جليس مزبـان، مخاطبـا الشـرطيين و هـو يشـير نحـو شـمران:

- هـذا اللـي شـايف نفسـه شـوفه . . إسـحبوه وراكـم . . و روحـو أربطـوه بغرفتـي بالشـباچ اللـي يَـم مكتبـي!

يُـقتادُ شـمران و يُـدخَلُ أول غرفـة فـي الجنـاح الـى اليسـار بشـباكها المطـل علـى الحديقـة حيث يجلـس مزبـان و الآخـر، و سـيعرف شـمران فيمـا بعـد أنـه العقيـد علـي العـزاوي مديـر أمـن ديالـى. يأتـى أحـد الرجليـن بحبـلٍ مـن غرفـة قريبـة. آثـارُ الـدم الجافـة أكسـبت الحبـل رائحـة زنخـة. رُبطـت يـدا شـمران مـن الخلـف مرفوعتيـن الـى الشـباك المطـل علـى الحديقـة بوضـع و بطريقـة كادت علـى الفـور أن تُمـزِّق عضـلات كتفيـه . . و يتركـه الشـرطيان هنـاك معلقـا و يخرجـان بعـد أن سـدّا بـاب الغرفـة عليـه. بمـرور دقيقـة. مـن خلـف الشباك قهقهـات تتعالـى فتصـل أذنيـه مـن الحديقـة التـي وراءه. ظنـون و شـكوك شـمران تتوالـى . . أهـي غرفـة المديـر هـذه؟ . . أهـل موضوعـه بهذه الخطـورة كـي يُربـط فـي غرفـة المديـر لا فـي غرفـة أخـرى؟ . . مـا دور مزبـان فـي هـذا؟ . . كانـت ظنونـه تتوالـى لمجـرد أن يتغلـب علـى محنتـه و الألـم الشـديد الناجـم مـن الشـدِّ العضلـي و المفصلـي الـذي راح يجتـاح لا كتفيـه فحسـب، بـل و زنديـه و صـولاً الـى عِكسـيهِ و سـاعديهِ اللذيـن شـلّا تقريبـاً.

و لكـي يتماهـى مـع الألـم، راح يتخيـل ألا كتفيـن لـه و لا جـذع و إن رأسـه مركّـبٌ مباشـرة علـى فخذيـه، بخاصـة بعـد أن تذكـر مـا فعلـه بـه الحـرس القومـي أغلـب الليالـي التـي أعقبـت إنقـلاب شـباط 1963، علـى الرغـم مـن تأييده للمعلومـات التـي حصلـوا عليهـا عـن حلقـة تنظيمـه مـن حلقـة أعلـى فـي الهـرم، حيـن كانـوا يقتادونـه ليـلاً مـع عـدد آخـر مـن المعتقليـن، لا تتجـاوز أعمارهـم العشـرين عامـا، أو قـد تجـاوزت العشـرين للتـو. يذهبـون بهـم الـى مقبـرة الشـريف . . و هـو فـي وضعـه الجديـد مربوطـا الـى شـباك قهقـه صـوت فـي رأس شـمران . . شـريف! . . أي شـريف! . . لِمَ لَـمْ يُخـرج ذاك السـيد الشـريف رأسـه مـن قبـره فـي الظلمـة ليخيـف المجرميـن و يسـتنكر أفعالهـم فـي مقبرتـه المطلـة علـى نهـر ديالـى؟ . . و تذكـر أن قائـد المجموعـة، جاسـم صفـاوي، كان يفتتـح مهرجـان العنـف، بربـط سـلك رفيـع حـول رؤوسـهم الغضـة، ثـم يأمـر أفـراد زمرتـه بشـد السـلك بقـوة بكماشـة حديديـة، فيعلـو صـراخ المعتقليـن وسـط القبـور فيروحـون، مـن شـدة الألـم، يتخيلـون أشـباح الموتـى تخـرج مـن القبـور، محتجـة علـى تبديـد الصمـت الـذي إعتـادت عليـه، و لربمـا كانـت تلـك الأشـباح تأبـى أن تكـون شـاهداً علـى القسـوة المفرطـة، فتولـي تلـك الأشـباح الأدبـار فـراراً الـى أماكـن لا قسـوة فيهـا، و سـط قهقهـات الحـرس القومـي . . و هـا هـي الآم كتفيـه تتلاشـى مـع تماهيـه و إنشـغاله بذكريـات حفـلات التعذيـب تلـك، متذكـرا تفصيـلات أيامهـا يومـاً بيـوم . . و مـا ان يشـتدُّ ألمَـهُ مـن جديـد مربوطـا الـى شـباك غرفـة مديـر الأمـن، و الوقـت يمضـي سـاعات، يـروح شـريط الذكريـات ينعـاد لاشـعوريا فـي رأسـه كأنـه شـريط فلـم بمشـاهده و تفصيلاتـه الدقيقـة.

نوبـات تَجَّرُعِ الألـم تختلـط بذكـرى ألـم رأسـه الأشـدّ . . و لا يـدري كـم مـن الوقـت مضـى غيـر منتبـه لـزوال النهـار و مجـئ الليـل . . التماهـي مـع الألـم هـو عـلاج القسـوة الآتيـة مـن المجهـول . . يـا هـذا! . . لكـن القسـوة التـي نتلقاهـا آتيـة مـن المعلـوم! . . و فجـأة راح جهـاز التلفـون يـرنُّ بصـوتٍ عـالٍ علـى المكتـب القريـب منـه، و يـكاد يلامسـه . . جـاء شـرطي مسـرعا. يـرد الشـرطي علـى التلفـون، و يسـمع شـمران مـن الطـرف الآخـر صوتـاً آمـراً

بعلوٍ تُسمَعَ به الكلمات بوضوحٍ. يضع الشرطي السماعة مفتوحة على المكتب و يخرج مهرولا.

في غمرة عذابه و هو ينظر الى فتحتي سماعة التلفون . . تذكر حكاية الثعلب و الغراب التي قرأها في درس القراءة في المدرسة الإبتدائية عن ثعلب أعلن توبته بنيَّة الذهاب الى الحج . . يا للحج من كذبة يتبرأ بها الآثمين من آثامهم! . . صدَّق الغراب التوبة المزعومة للثعلب. دعاه الثعلب للذهاب معه الى الحج، ليكون شاهداً على توبته . . هناك في بيت الله الحرام! . . فيقع الغراب في الفخ . . الحج هو الفخ! . . و شرعا برحلتهما بحراً. منتصف الطريق، و ها هو الثعلب يظهر ما بيَّتَه من سوء نية، فيثب بغتة على الغراب ممسكا به بين فكيه ليأكله، لكن الغراب، و هو في محنته، أراد أن يظهر أمارة ذكاء . . لعين يلاعب لعين! . . سأل الغراب الثعلب . . بودي أن أسالك سؤالاً قبل أن تأكلني أنا محتار في إسمك! . . و يرد الثعلب مومئاً برأسه موافقاً، فيسأله الغراب . . يا هذا . . أنا مفارق الدنيا و لا أدري أهل الذي سيأكلني هو واوي أم ويوي؟ . . و لكي يجيب على سؤال الغراب لم يكن أمام الثعلب سوى أن يفتح فكيه على مصراعيهما ليقول . . واااااوي! . . و بإنفتاح فكي الثعلب أفلت الغراب من فكي الثعلب! . . و لسوء حظ الغراب، و هو يطير مضطرباً غير مصدقٍ بفلتانه و نجاته، إرتطم بشراع القارب الذي يبحر بهما، و سقط على قاعدة القارب أمام الثعلب، الذي فَزِع نحوه غير مصدق هو الآخر أن فريسته عادت إليه و أمسك بالغراب ثانيةً . . و ستعيي الغراب حيلته، فيظن أن الثعلب من شاكلة القوم الذين تنطلي عليهم الحيلة مرتين، فصرخ . . تمهل يا هذا! . . أنا لم أسمع جوابك جيداً في المرة الأولى على سؤالي . . واوي أم ويوي! . . و يرد الثعلب فوراً مصرّاً على أسنانه و فكيه هذه المرة . . ويوي . . و يوي! . . ها هو شمران رغم عذابه و محنته تنطلق منه قهقهات خافتة تزامنت مع دخول المدير ليرد على التلفون، فخزره بعينيه حمراوين على وقاحته و ضحكه و تلبسه الجنون!

يضع المدير السماعة على أذنه، و يرد:

- نعم . . رفيق فليح!

بسماعه المدير يذكر إسم محدِّثه في الطرف الآخر . . ينشد إنتباه شمران محاولا التنصت على ما كان يدور من حديث. لم يكن المدير لينتبه أنه في صمت الليل من الممكن أن تسمع كلمات محدثه في الطرف الآخر بعيدا عن أذنه . . و ها هو يلتقط كلمات الطرف الآخر يحدِّثُ مدير الأمن:

- شلونكم؟

- الحمد لله رفيق.

ثم يسأل مدير الأمن:

- عقيد علي . . أريد أعرف هذا الرجل المربوط بالشباك أمام مكتبك . . منو اللي گالك تعتقله عندك؟

و يلتفت المدير بنظراته نحو شمران، و يرد:

- رفيق فليح . . جاني أمر من بغداد!

- شنو أمر من بغداد؟ . . شوكت جاك أمر من هالنوع؟ . . ليش هو شنو اللي سواه بالضبط هذا الرجل المربوط يمك حتى يجي أمُر من بغداد بإعتقاله؟ . . لعد إحنه هنا شنو؟ . . . إحنه هنا خِرّاعة خُضرة حتى ما أحد ياخذ رأينا بالناس گبل ما تعتقلوهم؟ . . إذا عبالكم هذا المربوط يمك شيوعي فإنتو متوهمين! . . هو هسه مو شيوعي . . أيام زمان چان شيوعي!

و هو يرى نظرات المدير حائرةً غاضبةً ومغيضةً نحوه، فيتعقد لسان المدير عن الردِ على محدثه، يسمع الطرف الآخر يضيف:

إسمع عقيد علي . . آني أفضِّل هسه . . فوراً . . تفك الرجل من

شباكك و تخلي بسيارة و تودي لبيتّهم!

يرد المدير:

- صار . . رفيق!

معيدا السماعة الى مكانها، المدير يتطلع إليه . . و ربما متسائلا عمن أوصل خبر إعتقال هذا المعلَّق بالشباك الى المسؤول الحزبي الأول؟ . . و ضاغطاً على زر الجرس، يسأل المدير شمران:

- فليح شيصير منك؟

على الرغم من آلامه و معرفته بما دار، يفضّل شمران التجاهل، فيتساءل:

- يا فليح؟

- أمين السر.

- كلشي ما يصير مني!

- هممممم!

- ليش إنتو مو چنتو بمدرسة واحدة؟

- إي . . . چنه و تِطَشَرنه . . كل واحد من عندنا راح بطريق!

- همممممممم!

يدخل شرطي، يؤدى التحية، و يسمع من المدير:

- تعال فك هذا من الشبّاچ . . و حطـّه بسيارة و أخذه لبيتهم؟

يـُفـَكّ وثاق شمران . . يكافح لإرجاع ذراعيه الى وضعهما الطبيعي. و ينوى أن يسأل المدير عن سبب إعتقاله، لكنه يحجم . . و حين حاول

الشرطي إقتياده الى الخارج، و آلام كتفيه و ظهره لا تقهر، نهره شمران طالبا إليه تركه لحاله و أن لا داع للسيارة و إن بإمكانه الذهاب الى البيت مشيا على قدميه.

كأنَّ الليل يقترب من منتصفه، حين بات شمران خارج دائرة الأمن . . أواخر نسمات الربيع الباردة، تحملها ريحٌ شمالية غربية، تلسعُ جسمه فيتضاعف ألم الشدّ الذي يعانيه في عضلات ظهره و كتفيه و زنديه. . هو بحاجة الى دِفءٍ يُرخي له تشنجاته، فيحس و كأنَّ الألم شرع يدبُّ نحو ساقيه اللتين ظلتا بالكاد تلمسان الأرض أثناء ما كان مربوطاً لساعات، فراحتا و هو يمشي تراوحان للتحرر مما أصابهما من شذوذ نجم من وقفته مربوطاً أمام النافذة . . و يكاد أن يهوى في الطريق، و لكنه تحامل الألم و الشدَّ. و بدخوله شارعهم الفرعي، سيشاهد من بعيد أمه تفترش أرض الشارع بعباءتها في باب حديقة المنزل، و عيناها شاخصتان تتطلعان نحو الجهة التي فيها بناية محافظة ديالى. و ما أن إقترب قليلاً و قد تعرفت عليه في ضوء الشارع الكابي، سحبت جسدها الثقيل من الأرض، و هُرعت إليه و هي تنشج نشيجاً متواصلاً، و من لهفتها لمجيئه تتعثر بعباءتها و كادت تقع. على الرغم من إعيائه و عجزه، وثب نحوها كي لا تقع، فإحتضنته و شمته، و من بين دموعها ظلت تصرخ:

- لعد هذوله البعثية الچلاب يگولون هالمرة ثورتهم بيضا مو سودة! . . الله يلعنهم دنيا و آخرة! . . الله يلعنهم دنيا و آخرة! . . تعال وليدي . . إمشي عيني خش للحمام و إسبح . . يتنظفْ جسمك و ترتاح و تبرد جروحك گبل ما تنام!

لم يردَّ، لأنه كان عاجزا بالمرة عن الكلام، و لم يتحدث أيضا لأنهما سمعا صوت سيارة تقترب من ورائهما و هو ما يزال في حضن أمه. . توقفت السيارة الشوفروليه الزرقاء موديل منتصف السيتنيات بالقرب منهما، و يستديران ليستطلعا القادم . . فيترجل فليح الجاسم من سيارته، و يتقدم من صافية أم شمران، ساحبا يديها محاولاً تقبيلهما معتذرا، فتسحب

يديها منه بقوة، و خاطبها قائلا:

- خالة أم أمير . . أعتذر عن اللي صار . . و الله و الله و الله . . هذا اللي صار تراه صار دون علمي! . . دون علمنا!

ثم أشار بيده الى بيت صافية، ليضيف:

- . . . و لازم تعرفين زين هذا البيت اللي نمت بيه أكثر من مرة، و اللي أكلت من زاد أهله مرات . . ما راح يتعرض لأذيّة طالما آني موجود في بعقوبة . . و الله هذا الشي صار دون علمي!

و يظل فليح يكرر إعتذاره لشمران، فتكفكف أم شمران دموعها، لتعلق:

- يمه فليح! . . إنتو مو طلعتو بالتلفزيون أول يوم إنقلابكم و گلتو إحنه ثورتنا هالمرة بيضا . . لا سودة و لا حمرة . . و ما بيهه أذيَّة على أحد؟

فيرد فليح:

- و إنشاء الله خالتي العزيزة نسويهه و نخليهه ما بيهه أذية على أحد! . . إن شاء الله الناس اللي مثلي راح يحاولون يخلوهه بيضا على گد ما يگدرون!

و سيتفوه شمران بضعة كلمات موجهة الى فليح بصوت واهن كأنها تُنتَزعُ من روحه:

- أي مثل ما تگول أستاذ فليح . . تمام . . صحيح بيضاء لكن مع تغيير بسيط؟

و لإستجلاء التغيير تلميحٍ ظاهري أبداه شمران، يسأله فليح:

- و شنو هالتغيير؟ . . أتمنى لو أعرفه . . عساه يكون زين!

- . . لا! . . ما أعتقد زين!

- ليش؟

- . . لأن أتوقع هالمرة . . الواوي صار ويوي!

فليح يحيط بمغزى كلمات شمران، فيحاول أن يداري إحراجه بإبتسامة باهتة، و لم يجد سوى تكرار الإعتذارات، و غادر.

في غرفته في البيت . . كان كل سكان البيت نائمين، أخبر شمران أمه أنه غير قادر على الإستحمام . . و كانت بإنتظاره قنينة خمرة مصنوعة من الرز، جلبها له إبراهيم حميدي منذ أسابيع . . لم يكن حجم القنينة يزيد عن حجم قنينة الكوكا كولا. حمل شمران نفسه و ذهب الى المطبخ بحثا عن الثلج، و جلبه . . و ضع الثلج في القدح، و سكب من خمرة القنينة حتى إمتلأت الكأس. و راح يرتشف منها إرتشافا متواصلا لدرجة أنه أتى على آخر قطرات خمرة الكأس بدقائق. و لم ينتظر أكثر من دقائق أخرى قبل أن تبدأ أوصاله تتنمل بتأثير السكر السريع لخلو معدته من الطعام، و إرتمى على سريره . . و قبل أن يغفو أخبرته أمه أن مدير مدرسته سأل عنه مرتين قبل المغرب و وقت العشاء . . و غفى.

*****   *****   *****

لم تتسبب حادثة ربط شمران بشباك الأمن له بنكوصٍ عما كان سائراً فيه . . صَوَّرَ الحقبة لنفسه بشيءٍ سمّاه . . جدل القصر و الكوخ . . يعيش المرء في كوخ و يظل يتطلع الى رفاهية العيش في قصر! . . و يعيش المرء في قصر و يظل يتمنى لو أنه يعيش بساطة الكوخ! . . شدٌّ و جذب. رومانسية التجربة الحرة تشدُّهُ من جانب و يجذبه من طرف آخر إحجامه عن التورط فيما لا تحمد عقباه . . و ها هو يدرك مرة أخرى بأن ما يمر به الآن و هو ليس حزبياً يختلف بالكامل عما كان يفعله يومَ كان حزبياً غِرا! . . و ما يضفيه جدل الكوخ و القصر من رومانسية

علـى حياتـه يجعلـه، و سـيجعل وعيـه هـو الآخـر، يعيش وسـطاً . . بين بين! . . قـوة تشـدُّه يمينـاً و أخـرى تشـدُّه يسـاراً . . و بمـا توفـره هـذه الجدليـة مـن مغامـرة، لـم يكـن شـمران فـي الواقـع لوحـده المعرَّض لهـذه الجدليـة، و إنمـا أفراد جيلِـهِ كلهم تقريبـا، ممـن مـرّوا بقنـاة الإسـقاط السياسـي علـى يـد البعـث فـي إنقـلاب شـباط ١٩٦٣ . . كان معروفـاً عنـه روحُ المغامـرة و هـو صبـي . . مغامـرٌ مـن نـوع يبعـث الهلـع أحيانـا فـي نفس والدتـه صافيـة، و مـا يزيـد فـي ميلـه للمغامـرة فـي هـذه الحقبـة قراءتـه عـن نضـال الأبطـال و المثقفيـن العضوييـن عنـد گـرامشي . . و علـى الرغـم مـن الأثـر السـئ العميـق الـذي تركتـه تجربـة إقتيـاده الـى المعتقـل بعـد إنقـلاب شـباط ١٩٦٣ و مـا تركـه هـذا الأثـر مـن جـروح فـي روحـه جـراء القسـوة المجانيـة التـي عـرف بهـا الحـرس القومـي البعثـي، ينضـاف لهـا تجربتـه الأخيـرة مـع مزبـان خضـر هـادي و هـو واحـد مِـنْ أعتـى مجرمـي السياسـة فـي محافظـة ديالـى، إلا أن مـا أمدتـه بـه قراءاتـه النهمـة فـي السنوات القلائـل التـي مضـت عـن معادلـة الخيـر و الشـر و أطيـاف الحقيقـة الإنسـانية و آسـاليب السياسـيين فـي الوصـول الـى غاياتهـم حفزتـه الـى دخـول التجربـة الوجوديـة لزمانـه . . و لكـن بمحـض إرادتـه و دون إرتبـاط بحـزب . . لـم يكـن همّـه منصبـاً علـى . . سـواء أوصـل اليسـاريون أم لـم يصلـوا الـى السـلطة لتحقيـق أهدافهـم التـي يلخصونـهـا بشـعار فضفـاض . . وطـن حـر و شـعب سـعيد . . و إنمـا همَّـهُ كان العيـش فـي تجربـة تضعـه علـى تخـوم الخطـر اللذيـذ، فتوصـل الـى قناعـة مفادهـا . . الوجـود علـى تخـوم الأحـزاب قـد يكـون فيـه مـن الأغويـة مـا يعجـز الحزبيـون عـن فهمـه و إدراكـه!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

صبـاح اليـوم التالـي الجمعـة الموافـق ٢٠ آذار ١٩٧٠ . . و مـا يـزال مـا جـرى لشـمران عنـد شـباك الأمـن لا يـدري بـه أحـدٌ، غيـرَ أمِّـهِ و مديـر مدرسـته الـذي وعـده أن يبقـى الأمـر طـي الكتمـان عمـن فـي المدرسـة . . و مسـاء اليـوم ذاتـه يسـمع شـمران مـن عبيـد الصبـاغ خبـر إختطـاف محمـد الخضـري[٥٣]

٥٣ «محمـد الخضـري» . . كادر شـيوعي تخـرَّج فـي دار

الذي كان متوجهاً من داره إلى صدر القناة في بغداد للمشاركة في حفل تكريم وفد الكورد الآتي الى بغداد لتوقيع اتفاقية ١١ آذار، ولكنه لم يصل الى مكان الاحتفال . . و وُجِدَت جثته في اليوم التالي في ناحية بلد وفيها عدة أطلاقات نارية.

سياسة الجزرة و العصا تكشف عن وجهها، يتَّبِعها البعثيون مع خصومهم السياسيين بعد انقلاب تموز ١٩٦٨ لغرض دفعهم لصيغة عمل بالمواصفات التي تناسب البعث!

الخضري أحد مؤسسي نقابة المعلمين . . قتلوه؟

خطر في بال شمران . . و صلت الرسالة!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

في يوم تالٍ سيكتشف شمران أن رياح من كلفوه بمهام القائمة المهنية ما عادت تجري بما تشتهيه سُفُنُهُ . . فهو أولاً سمِعَ ملامة شديدة من عبيد الصباغ على رفضه للدور الصغير الذي عرضه مزبان خضر للقائمة المهنية، و ظَنَّهُ شمران في حينها عرضاً مُهيناً لقائمته و لا قيمة له و لا يعادل شيئاً أكثر من الصفر و لا يفضي لشئ . . و الملامة متبوعةٌ باتهام بطفولة سياسية و فوضى . . و طاف في رأس شمران . . أهكذا؟ . طفولة سياسية! . . و يُتهم بما أحدث من فوضى أهدرت فرصة قابلة التطوير في تعاونٍ مُفتَرضٍ قد يمهد لقيام جبهة في عموم البلد على المستوى السياسي تزيح الإمبريالية من العراق نهائياً! . . أهكذا؟ . . أكان ملف محمد الخضري و مقتله جرَّةَ أُذنٍ للشيوعيين؟ . . عصا! . . عصا لا جزرة توازيها أو تقابلها؟ . . يا للنكتة! . . بربكم قولو لنا . . أين هو الجزر . . فنحن لا نرى غير العصيّ! . . و يتأمل شمران الأمور . . أهَلِ العيش على التخوم هو الذي نجّاه من مصير كمصير محمد الخضري؟

المعلمين الإبتدائية في بعقوبة عام ١٩٥٤. . كان أحد مؤسسي نقابة المعلمين العراقيين أبان خمسينيات القرن العشرين.

. . الإحتمال كبير جدا . . و جاءته المعلومة من لسان فليح حسن الجاسم و هو يخاطب مدير الأمن عبر التلفون . . إذن هم يعلمون بإنه ليس شيوعيا! . . كيف علموا و هو يتصرف أمام الجميع و كأنه شيوعي!

مصغيا لتأنيب الصباغ له على ما آلت إليه الأمور مع القائمة العربية . . أراد شمران أن يُطلِعَ الصباغ عما جرى له عند شباك الأمن، لكنه عفَّ و نَكِف! . . ناهيك عن أنه سيسمع بعد أشهر مِن بين الشيوعيين مَنْ يروج لفكرة أن النائب الأول لرئيس الجمهورية، مرشحٌ ليكون كاسترو جديد في الشرق الأوسط . . يأتي ليُقِضَّ للإمبريالية مضاجعها في سبعينيات القرن العشرين مثلما فعل فيديل كاسترو في الخمسينيات! . . و يتوه شمران في هواجسه . . إذن! . . لكلِ مسرحيةٍ بطلٌ . . مسرحية الإنتخابات التي ستدور هنا في بعقوبة مثلما هو ظاهر بطلُها مزبان خضر . . فمن يا ترى هو بطل المسرحية الدائرة في عموم البلد! . . كاسترو الجديد! . . مزبانُ بطلُ مسرح صغير لمسرحية ذات فصل واحد! . . و من يدري كم من الفصول ستطول المسرحية الكبرى على المسرح الكبير! . . و لأننا لا ندري . . ستكون المصيبةُ أعظمُ!

بعد هنيهة، سيأتي الصباغ عرّاب العلاقات ليطلب من شمران بوصفه المسؤول الرسمي الذي سلَّمَ قائمة مرشحي القائمة المهنية الى نقابة المعلمين كي يسحب مشاركة القائمة في إنتخابات النقابة، تعبيراً عن حسن نية القائمة تجاه القائمة الخصم قائمة حزب السلطة، معللاً ذلك بالتطلع الى علاقة على مستوى أعلى بالجهة الراعية للقائمة العربية و هي البعث الحاكم الجديد للعراق، و لإيصال رسالة الى البعث بأنهم لا يلتفتون الى صغائر الأمور! . . صغائر أمور! . . أهكذا؟ . . و يتيه شمران مرة أخرى في هواجسه . . أهكذا يراد للقيمة المعنوية لإنتصاره المعنوي الصغير على مزبان خضر أن تذهب هباءً و يروح ذاك الإنتصار أدراج الرياح! . . و سيرفض شمران إقتراح عبيد الصباغ لتقويض ما إبتنته يدا شمران و يَفُتَّ في عضد كل المعلمين الذين ساندوه ترشيحاً و عزما على خوض الإنتخابات، و سيصمم على ألا يخيِّبَ أمل جمهور معلمين يتطلعون

لتفويض من يمثلونهم أفضل تمثيل في نقابتهم . . و ها هم يلومونه على خطفه ذاك الإنتصار الصغير من مزبان! . . بل و يريدون أيضاً التعبير عن حسن نيِّة تجاه مجرم قد يغدو هو أو غيره من المجرمين حاكماً دون منازع! . . من ذاك الذي قال يوماً . . يُوضَعُ اللصُ الصغيرُ في السجن، بينما قاطعُ الطرقِ الكبيرُ يصبحُ حاكمًا للأمةِ! . . آه! ها هو يتذكر . . إنه جوانغ زي الصنو الصيني لدايوجينوس اليوناني!

ما العمل كي يخالف شمران عبيد الصباغ في مبدأ . . نَفَّذْ ثم ناقشْ . . و شمران لا يريد بأي حال الإنصياع لهذا الأمر! . . السياسيون لا يعدمون طرقاً خلفيةً من أجل الوصول الى غاياتهم! . . الدوران حول الخرائط هو فنهم المطلق! . . التضحية بالجنود هي لب الإنتصار في السياسة و الحرب! و سيتفاجأ شمران بعد يومين بنقابة المعلمين تبلغه أن ترشيح القائمة المهنية ما عاد قانونياً . . و بذا تعتبر مشاركتها بالإنتخابات لاغية من الناحية القانونية! . . سيسألهم: لِمَ؟ . . فيجيبون: لأن خمسة من مرشحي قائمته سحبوا ترشيحهم بطلب مكتوب بخط يدهم. و بذا قل النصاب القانوني لعدد مرشحي القائمة و بذلك لن يكون بمقدورها خوض الإنتخابات! . . تلك كانت يد عبيد الصباغ العرّاب! . . يا للطرق الخلفية! . ما لي أرى الناس يُقدمون و لا يفعلون! . . أواحدهم تَخشَّى أم أُخْشِيَ؟ . فأسْقِطَ بيدِ شمران . . و راح نصرُهُ الصغير الذي خطفه أدراج الرياح . باعلان فوز القائمة العربية بالتزكية دون منافس بعد أسبوعين من جولة المفاوضات اليتيمة تلك.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأحداث تتوالى . .

السعي للإمساك بمنابع الثروة في عام ١٩٧٠ لم يتوقف و ما فتئ يزداد!

ترشح أخبار عن إقتراب صدام التكريتي من الإمساك بكامل مفاتيح السياسة النفطية العراقية!

و مـا تـزال الأنبـاء ترشح عـن قتـل المزيـد مـن اليهـود فـي أقبيـة السـجون علنـا و غيلـة!

هواجـس شـمران تتفاعـل . . أهَلْ مـا يـزال ذات الخـروف الـذي أُسـبِطّ بيـن الخرفـان يعانـي مـن سـبوطه؟

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعيشـه غمـار تجربتـه الوجودية، يتشـكلّ عند شـمران نـَفـَسٌ لزعزعـة المفاهيم و المعانـي النهائيـة . . مـا عـاد ينظـر الـى الحيـاة بلونيـن. و بمـوازاة هـذا يظـل طيـف خولـة التـي سباه نهداهـا المـدوران الصغيـران يومـاً مـا بضـوء القمـر يخايلـه عنـد الفـراغ لنفسـه . . الأحـداث تتوالـى . . مـا الـذي يـدور؟ . . و مـن ذا يـا تـرى الـذي يديـر اللعبـة و يُخـرج المسـرحية؟ . . و تحـت ضغـط الهـواجـس تذكـر أن نشـاط فرقـة مسـرح المجدديـن كان قـد تلاشـى أو كاد بتنـاغـم سـليم الزيـدي مـع الوضـع الجديـد بتماهيـه مـع تعرضـه السـلطة مـن جَـزَر! . . أواخـر ربيـع عـام ١٩٧٠ . . بعـد شـهرين تقريبـا مـن تجربـة إنتخابـات نقابـة المعلميـن و مـا أحدثتهـا مـن عقابيـل وصلتـه أخبـار طلـب الجزائـر للمعلميـن و المدرسـين العراقييـن . . آه . . هـا هـي الفرصـة مواتيـة للإفـلات مـن كل هـذا العـذاب . . جـاك الـواوي و جـاك الذيـب! . . الجزائـر البلـد الـذي عـاش فيـه غريـب آلبيـر كامـو تجربتـه الوجوديـة! . . لـم لا؟ . . لأذهبـنَّ لتجربـة وجوديـة هنـاك!

عائـداً مـن مدرسـته ظهـرا، عنـد رأس شـارعهم الفرعـي مقابـل بنايـة مديريـة التربيـة، سـتجلب إنتباهـه شـابة تنـزل مـن سـيارة تحمـل لوحـة حكوميـة تقـف أمـام مدخـل البنايـة . . فـي قوامهـا الرياضـي و ملبسـها الكثيـر ممـا يلفـت النظـر . . يعبـر الشـارع و يتوجـه الـى بنايـة التربيـة. رآهـا تدخـل أمامـه بمعيـة موظـف مـن المديريـة . . و يتفـرج علـى مشـيتها الرشـيقة و كيفيـة صعودهـا لدرجـات مدخـل البنايـة . . و فـي داخـل البنايـة سـيراها تنعطـف يسـارا لترتقـي السـلم المجـاور للمجـاز الـى الـدور العلـوي . . و إنعطـف هـو يمينـاً ليمـرَّ

بغرفـة مديـر التربيـة مستفسـراً منـه عـن العـروض الخاصـة بالجزائـر . . كان قـد تعـرف علـى المديـر فـي واحـدة مـن سـهرات نـادي الموظفيـن فـي الخالـص، و سـيخبره المديـر أن الفرصـة متاحـة و المعلومـات موجـودة فـي غرفـة شـعبة الذاتيـة فـي الطابـق العلـوي لترتيـب موضـوع إنتدابـه معلمـاً الـى الجزائـر.

بصعـوده السـلم و إنعطافـه يسـارا فـي الممـر . .هـو يعلـم بـأن غرفـة شـعبة الذاتيـة هـي الرابعـة علـى اليسـار. يصلهـا و يدخـل خطوتيـن داخـل الغرفـة، فيسـتوقفه فجـأة منظـر إمـراة منحنيـة علـى طاولـة صغيـرة موضوعـة قـرب نافـذة الغرفـة المطلـة علـى الشـارع، تسـكب مـاءً مـن إبريـق زجاجـي فـي قـدح . . ظـن لأول وهلـة نفسـه أمـام مشـهد سـينمائي، فـراح ينظـر صامتـاً الـى سـاقيها المسـتقيمين الأبيضيـن و هـي مـا تـزال بإنحنـاءةٍ نسـبية علـى الطاولـة الصغيـرة، و قـد أنحسـرت تنورتهـا المينـي جـوب قليـلا مـن الخلـف عـن أسـفل فخذيهـا . . و يظـل مستسـلماً لمـا رأى منهـا واقفـة فـي زاويـة لا تـُظهر إليهـا وجـودَه فـي الغرفـة. و هـا هـو يطيـل النظـر إليهـا و هـي ترفـع القـدح و ترتشـف مـن المـاء الـذي فيـه علـى مهـل . . بإرجاعهـا القـدح الـى الطاولـة، إسـتدارت قليـلا لتسـير بإتجـاه أحدِ ثلاثـة مكاتـب موجـودة فـي الغرفـة، فيسـتفيق هـو مـن إنغماسـه فيمـا ظنـه مشـهدا فـي فلـم فـي الوقـت المناسـب، و إنتبهـت هـي أيضـا الـى وجـوده مسـمَّراً فـي وقفتـه. خايلـه فـورا إحسـاسٌ بالذنـب لإدراكـه متأخـراً إستسـلامه لموقـف التلصـص الـذي حسـبه مشـهدا سـينمائيا، فنـدت منـه فـوراً بنبـرة معتـذرة عبـارة:

- هي هسه الدنيا شوَكِتْ من النهار؟ . . شنـگول؟ . . صباح الخير!

فترد بإبتسامة تكشفت عن أسنانها البيض:

- صباح الخير!

- رجاءً . . خو مو توهمت؟ . . هذي مو المفروض هي غرفة الذاتية؟

لا يأتيه الردَّ فورا . . و بقيت تنظر إليه لمدة ثوان نظرات، و هو في موقفه، إحتار في تفسيرها . . تأنيب؟ . . تقريع؟ . . إستغراب؟ . . إستنكار لتطفل؟ . . و لكنه حين تمعن في وجهها و المسافة بينهما ليست أقل من ثلاثة أمتار . . حيادية! . . في داخله صرخ صوت . . لا مستحيل! . . لا مبالاة؟ . . ربما! . . و حين ردت على سؤاله لم يجد في نبرتها مما يدل على أية من تصوراته عن الموقف، و هي تقول:

- و الله . . بالواقع و حسب علمي هذي الغرفة چانت مكان شعبة الذاتية . . لكن يبدو حضرتك ما شِفِتْ اللافتة اللي عالباب . . بس قبل أسبوع صارت غرفة النشاط الرياضي!

لفظها للراء فيه لثغة على النحو الذي يلفظه بها الأمريكيون فيبلعونه و لا يكاد يسمع منه سوى صدى إرتداد لصوت الراء و كأنه لا يرتطم بشئ في الحلق . . لم يُعِرْ إنتباهاً كبيراً للثغتها بالراء، قدر ملاحظته لملبسها الأنيق الصارخ و بإنحدار نظراته، و هي تراقبه، نحو ساقيها و العودة الى أعلى بالتدريج . . فخذيها المشدودين بالتنورة . . و سطها . . خاصرتها . . صدرها . . كتفيها . . و تنورة قصيرة رمادية اللون ترتفع إصبعين أو أكثر فوق الركبة و قد إنحدر فوقها قميص مفتوح الأزرار العليا و بكُمَّين طويلين . . مدٌّ في منطقة النهدين . . و جَزرٌ في منطقة الذراعين . . ذكاء فطري للأنثى بطرق الإعلان عن الأنوثة!

جولة نظراته المتأنية تتابعه هي بوجه باشٍ . . فتضيف بنبرةٍ أقربِ الى الرضى:

- شعبة الذاتية . . حسب علمي ظلت وراك بالغرفة اللي گبلنه!

- آني آسف جدا!

- بسيطة . . ما صار شي!

و حين همَّ مستديراً ليغادر الغرفة، يسمعها تضيف:

- هذا لون ربطة عنقك شنو؟

و يرد و هو في منتصف إستدارته:

- تركوازي!

- نفس الرباط اللي چنت لابسه من چنت واگف في باب المديرية توزع مناشير!

- حسبما أذكر . . بلي! . . على أي حال . . شكراً!

يقال أن للرب طرقٌ خفيةٌ، و للأنثى أيضا طرقٌ و لكن خفية و علنية . . مكملاً إستدارته ليغادر . . و خلال الخطوتين اللتين قطعهما الى الباب. . من هي؟ . . معلمة؟ . . مدرِّسة؟ . . لم يسبق ان رآها من قبل! . . من تكون؟ . . لم يكن ثمة في بعقوبة لحد الآن موظفة في دائرة حكومية على الإطلاق عدا المدارس! . . جرأة! . . و بالتالي ما سؤالها هذا عن لون ربطة عنقه! . . و حين أصبح خارج الغرفة تماماً و ما تزال التساؤلات تتوالى، و ما زال أيضا ما تخلّف من نظراته الى تفصيلات قوامها الرشيق من تأثير، و قبل أن يستدير الى اليمين عائدا بإتجاه غرفة شعبة الذاتية، يسمع صوتا يأتيه من جهته اليسرى:

يابه! . . هاي وين أشو ما أحد يشوفك هالأيام!

انتفت يسارا فيجد سليم الزيدي . . لم يرد لأنه كان ما يزال تحت تأثير ما حصل في الغرفة التي وراءه. مجتازاً باب الغرفة الى اليمين خطوتين، توقف هناك بإنتظار سليم الزيدي، الذي وصل ليكرر سؤاله، ويرد شمران بإستفسار:

و إنتو؟ . . يابه هاي شنو التغييرات اللي صايرة هنا بالغرف؟

إعادة توزيع.

- تعال سليم . .

يأخذه خطوتين أبعد، و يضاف مستفسرا:

- هذي منو بالغرفة المخصصة للنشاط الرياضي؟

- أستاذ . . هذي سعدية الخطاط . . أول خريجة تربية رياضية أنثى تصل الى تربية ديالى.

- يعني مدرِّسة؟

- لا . . هسه حالياً ما عينوها مدرسة لأنهم بحاجة الى خريجة إختصاص تتتابع أنشطة الرياضة في مدارس البنات.

- يعني؟

- يعني خلوهه ويه طالب الدجيلي بمديرية التربية بقسم النشاط الرياضي . . و سمُّوهه مشرفة رياضية.

- و هي منين أصلا؟

- من بغداد . . و لعلمك و بهذا صارت أول موظفة إمرأة تدخل واحدة من دوائر ديالى الرسمية عدا المدارس طبعا . . شي ما صاير من قبل!

- و رضيَت . . هچي . . تكون الوحيدة وسط دائرة كل موظفيها من رجال!

يعلق الزيدي بلهجة ذات مغزى:

- هي من بغداد! . . و إنت تعرف نسوان العاصمة . . هِنَّ وين ما يروحن يتبغددن . . إحساس بالتفوق على نسوان الأطراف بالجرأة!

- أتفق معك!

مكتفياً بهذا التعليق . . يتركه شمران و يمضي ليدخل غرفة شعبة الذاتية. و هناك يجد ناجي التكريتي، رئيس قسم الذاتية ليزوده بما يطلب من معلومات . . بإستكمال بعض الإجراءات، و لأن طبّاع المديرية في إجازة، طلب التكريتي إليه المجيء في يوم تالٍ للحصول على كتاب إنتداب للتدريس في الجزائر يذهب به الى وزارة التربية.

تأجيل طباعة أمر الإنتداب الى الغد له وقع مريح في نفس شمران . . بخاصة و كان ما يزال تحت تأثير لقائه بسعدية الخطاط . . أول رياضية و أول موظفة تدخل دائرة رسمية بين الرجال و تفتتح بذلك عالم إختلاط بين الموظفين! . . بالميني جوب! . . ساقين يدلان على صحة وافرة و فتوة! . . يا للرومانسية! . . يا للجرأة! . . إمرأة رائدة! . . و هل يحتاج الرجل هذه الأيام الى غير هذا النموذج من النساء! . . لكنه للأسف لم يتذكر تفصيلات دقيقة عن ملامح وجهها سوى لون أحمر الشفاه الوردي! . . و يمر بخاطره . . أكانت تلثغ بالراء؟ . . و ما إشارتها تلك الى لون ربطة العنق بتلك اللثغة!

يمرُّ يومٌ . . و بعودته بعيد الظهيرة من قرية خرنابات، توجه شمران الى مديرية التربية . . و سيدخل غرفة النشاط الرياضي عامداً متعمدا كي يراها! . . تحت أية ذريعة يا ترى سيفسر أمر ذهابه الى هناك؟ . . أي دوران حول الخرائط سيلجأ إليه؟ . . و هِبُّ أنك لن تجدها وحيدة هذه المرة و سيكون طالب الدجيلي هناك . . فماذا إذن؟

بارتقائه السلم الى الطابق العلوي . عند إنعطافة السلم صادفه طالب الدجيلي نازلاً بسرعة و مسلماً عليه بعجالة . . و ها هو يتنفس الصعداء . . هي إذن لوحدها هناك! . . و هِبُّ أنها هي الأخرى ليست موجودة! . . فما العمل؟ . . حاجته لأنثى في حياته تَشتد بمرور الأيام، بخاصة بعد رحيل فوزية القيسي الى المقدادية و قد إعتاد على ملمس كفها الناعم

الأبيض و بمجرد أن بدى طيفها يخايله شريكاً لطيف خولة، صار منذ رحيلها الى المقدادية يتوق الى ملمس كف أنثى! . . غارقٌ في سَوقِ الإحتمالات التي ربما تصادفه، لم تتبق أمامه سوى خطوتان و يكون قد وصل باب غرفتها، فأبطأ و توقف . . ثم تخطر بباله مهارته المتواضعة في التمثيل! . . يا لسليم الزيدي و ما إبتعثه فيَّ من طاقات! . . ما يزال تعليقها على ربطة عنقه يجول في خاطره، فتوجهت نظراته الى أسفل . . بدلته الكحلية ذاتها و القميص الناصع البياض تتدلى عليه فوق صدره ربطة عنق حمراء اللون بخط أبيض عريض نسبيا مائلٍ عُرضاً.

مشى و إستدار يسارا و هو يُمثّلُ . . داخلاً الغرفة و نظره الى الأسفل و كأنه مطرق تشغله فكرة ما . . و ما أن قطع خطوتين داخل الغرفة، رفع بصره، و رآها تجلس وراء واحدٍ من المكاتب قبالة الباب و أمام نافذة الغرفة، فتوقف فجأة و مستغلا مهاراته في التمثيل بحركات بشفتيه و ذراعيه و حتى برجليه تَصَنّعَ التفاجؤ برؤيتها . . ظلت هي تنظر إليه من مكانها دون أن تتحرك، فتبدو له نظراتها متسائلةً، و يبادر قائلاً:

- هاي آني! . . أغلط بالغرفة مرة أخرى! . . الإعتياد! . . هذا كله بسبب الإعتياد!

ها هي تقفت وراء مكتبها، و تشيع على وجهها إبتسامة باهتة، فأضاف:

- تدرين؟

رفعت حاجبيها إستفسارا، فإسترسل:

- بالهويدر و بخرنابات و حتى في بهرز . . هذي قرى حتما سمعتِ بها!

لم تنطق و أومأت موافقة، فواصل:

- دروب البساتين بهذي القرى طويلة و ضيقة . . ما تدخل بها سيارات

. . و لما صاحب البستان يريد يجيب للبستان زميج لو سماد لو دِمَنْ . . اللوري ما يگدر يدخل الدربونه و يگلب التراب بحلگ الدربونة . . و صاحب البستان عادة عنده زمايل . . يعبي التراب بالسابل على ظهر الزمال و ينطيه للزمال دغّة على مؤخرته . . و يمشي الزمال و من يوصل لباب البستان يطخ الزمال السابل اللي على ظهره بالحايط . . و ينگلب السابل لحاله و يفرّغ التراب اللي بيه و يرجع الزمال لصاحبه! . . إعتياد!

رآها تتطلع إليه و شبح إبتسامة على وجهها ربما بإنتظار العبرة من الحكاية، فأضاف:

- العبرة . . إحنا همين عبيد الإعتياد . . چنه متعودين على أن غرفتكم هذي على أساس هي غرفة شعبة الذاتية . . إحنه مثل زمال المچارية! . . إعتياد!

٭ هي ما تزال واقفة وراء المكتب . . ينفرج فمها ضاحكة للطرفة و المفارقة، و يتكشف فمها عن صفين منظمين من الأسنان، فأطلق عبارة اعتذار و أضاف قائلا:

و بهذي الحالة و بعد الإعتذار . . مرتين أغلط و أجي لهنا بسبب الإعتياد . . و أجي لهنا و إحنه لحد هسه ما متعارفين! . . أشوف لو نتعارف . . شتگولين؟

٭ دون أن ينتظر موافقة، واصل بنبرة مسرحية:

شمران نزهان الأحمدي . . معلم بمدرسة قروية . . و هسه آني دا أراجع على معاملة إنتداب للجزائر . . و بيتنا هنا بالشارع اللي گبال دائرتكم . . و أبويه معروف بسوگ بعقوبة . . معروف جداً . . صاحب محل تحت منارة حسينية بعقوبة.

٭تعقب هي:

- سعدية الخطاط . . خريجة تربية رياضية . . من بغداد . . و آني هنا مسؤولة النشاط الرياضي لمدارس بنات ديالى!

- يعني شغلتچ مثل محمود عيشة و رشيد مطر؟ . . أقصد مشرفة؟

- لا لا! . . مو مشرفة لأن الإشراف إختصاص . . بالمناسبة أنت ليش ما تستريح! . . أتفضل أگعد!

و ها هما أذناه لا تصدقان دعوتها له بالجلوس . . لبّى دعوتها فوراً و خطى نحو أقرب مكتب الى يساره بجانب الباب، كي يكون قبالتها و جلس هناك معقِّباً:

- تفضلي إنت أيضا . . أگعدي رجاء . . إذن شغلچ هنا مو مثل أستاذنا محمود عيشة؟

تَجلِس . . و يروح يستمع إليها متأملاً ملامحها و طريقة لثغها بالراء، و قميصها التركوازي اللون هذه المرة مفتوح الصدر و لكن ليس الى حد يُبان فيه جزء كبير من نهديها:

- لا . . شغلنا هنا . . آني و أستاذ طالب الدجيلي . . نحضِّر بنات المدارس للسباقات و الإستعراضات و المهرجانات الرياضية و المعسكرات الكشفية و غيرها من الأمور.

- جميل! . . و تباتين في بعقوبة؟

- لا أبداً . . أجي الصبح من بغداد و أغادر بعد الظهر راجعة.

- بالحقيقة . . آني صار مرتين أغلط و أدخل عليچ هيچي . . أقصد دون إستئذان! . . أريد أفرض على نفسي غرامة . شتگولين؟

تطلق ضحكة بانت رضيَّة، و علقت:

- لا . . لا . . أرجوك! . . ما صار شي يستدعي فرض غرامة!

- . . بس لعلمچ . . الغرامة اللي في بالي مو شي چبير . . بالحقيقة مفكر أوجهلچ دعوة لبيتنا . . تتغدين عندنا ويه أمي و أختي . .هذي هي الغرامة . . و تراني ما عندي غير أمي و أخيتي أميرة . . إحتمال على الأسبوع القادم . . شتگولين؟

ينتظر منها رداً . . فوجدها تتأمل مظهره مبتسمةً دون أن تجيب. إستأذن منها و غادر، يراوده سؤال عن عمرها . . أكبر مني قليلاً؟ . . لا يهم! . أثرُ حبِّ الشباب ما يزال يغطي وجهها؟ . . ليس مهماً . . أثر فتوة مبكرة!

بعودته الى البيت . . حضَّرت له أمه غداءه على طاولة المطبخ الصغيرة، و جلست كعادتها تتفرج عليه يلتهم صحن الرز الذي أمامه . . كيف سيدخل الى أمه بموضوع دعوة سعدية البياتي الى غداء في بيتهم؟ . . ظلت أمه طوال شهر مضى تحاول إستمالته للزواج من إبنة خال له في المقدادية، و رفض الفكرة قائلاً لأمه بأنه لن يتزوج قبل مرور عشر سنوات على الأقل! . . و لكنه آخر الأمر سسيقدر على إقناعها بإستقبال سعدية الخطاط و أنه يفكر بالزواج منها إذا رضيت سعدية به، و بأنه يحتاج الى إستضافتها في بيتهم كي يتعرف عليها أكثر قبل مفاتحتها بالزواج.

و يمرّ أسبوعٌ . . إصطحب معه أخته أميرة زوجة غايب مرهون كي توجه لسعدية الدعوة لزيارة بيتهم . . و يمرُّ يومٌ . . وتأتي سعدية ملبية دعوته للغداء. إستقبلتها والدته بفتور ظاهرٍ منذ البداية. و راح هذا الفتور يزداد حدةً، كلما تأملت والدته وجه سعديةٍ و هيئتها و هي تتناول غداءها و تتحدث . . و ستجد الوالدة عذرا للإنسحاب الى المطبخ تاركة إياه و سعدية و أخته أميرة، التي كانت حيادية منذ البداية مجاراة لأخيها الذي يغمرها بأفضاله و يرعاها و زوجها غايب مرهون ما يزال في السجن.

لحق شمران بأمه يعاتبها، فسألته جزعة:

- إبني . . هذي هي سعدية اللي تريد تتزوجها؟

- أي!

- و إشگد يمه هذي سعدية أكبر منك؟

- إشكد يعني؟ . . ثلاث أربع سنين!

- و هي هذي الثلاث الأربعة قليلة؟

- يمه . . نبيكم تزوج وحده أكبر منه بخمسطعش سنة!

و تتحير والدته بالرد، فيضيف:

- و بعدين نبيكم تزوج وحدة أزغر منه بأربعين سنة! . . و أشوفكم قابلين و لا تگولون و لا تعلقون!

و كأنه أفحم والدته بهذا التفسير، فظلتْ ساكتة. و لكنه و بعد زواجه من سعدية و من طريق الصدفة ستخبره إبنة أخت سعدية بأن خالتها تكبره بسبع سنوات!

يمرُّ شهرٌ على عقد القران . . فتتجمع عند شمران أسباب عديدة لعدم السكن مع أمه، و يستأجر بيتاً مجاورا لمدرسة بعقوبة الإبتدائية، بناه أحد اليهود الفارين من فرهود بغداد في الأربعينيات. و بإستكماله متطلبات السكن، تزوج بعيدا عن والدته التي لم تخفِ معارضتها لزواج إبنها من إمرأة حسبتها عجوزاً و لا تظاهي إبنها جمالاً. . و في أواخر أيلول 1970، و أثناء ما كان العالمُ كلُهُ منشغلاً بموت عبد الناصر . . و التوقعات تدور و تسيح شمالاً و جنوباً ثم شرقاً و غرباً عما سيحصل في المنطقة بعد موت رجل عرَّضَ المنطقة لأقل من عقدين من السنين لمدٍّ و جزرٍ أوصلاها الى حافات الجنون. و بالذات في اليوم الذي شُيِّعَ فيه عبد

الناصر صادف أن كانت سيارة تاكسي شوفرليت قديمة تعود لعبد كولونيا قد ذهبت الى بغداد و عادت الى بعقوبة بشمران الأحمدي و عروسه سعدية البياتي، دون زفة و لا طبل و لا مزمار!

يمرُّ شهرٌ على الزواج . . و هذا الذي علقت له أمه عن كتبه يوما:

- . . أشوفك أنت تاكل تمن و الكتب هي اللي جاي تسمن و تزيد مو إنت اللي جاي تزيد و تسمن!

حصل يوماً بعد زواجه أن تأخذ سعدية أمام بصره رزمة من كتبه، يتملكه العجب و الفضول! . . أين تريد هذه المرأة بالكتب؟ . . أنَزَلَ عليها وحي قراءة! . . و أمام بصره رآها تتوجه نحو سلم السطح . . ما الذي تفعله بالكتب فوق سطح المنزل؟ . . أتكون قد رتبت لي مكتبة صيفية لكتبي على السلم أو على السطح؟ . . و لِمَ على السلم أو السطح؟ . . و كيف؟ . . و أمام ناظريه و هو يراقب مذهولا رآها تصعد السلم و طول انتباهه يعينه على الإنتظار ليعرف ما يجري! . . و بعد دقائق ها هي تنزل على السلم و يديها خاليتين دون الكتب . . عجيب! . . سألها:

وين رِحتِ بكتبي؟

هناك فوگ . . روح شوفهه وين!

مرتقياً السلم و عيناه تمشطان الأمكنة التي يسلكها بحثا عن الكتب . . ليس على السلم! . . و ها هو يبلغ السطح و يظل يدور فيه علَّهُ يجد كتبه! . . ليس على السطح! . . و تقوده عيناه الى النظر من فوق ستارة السطح الخلفية الى أسفل . . ها هي تلك كتبه على أرض البستان منبعجة الأوراق تغرق حتى نصفها و بعضها مفتوحة على مصراعيها في أوراق شجرة التوت المصفرة المتساقطة من الشجرة العتيدة المجاورة للسطح . صدمة! . . و أية صدمة! . . و هو ما يزال على السطح نوى شمران أن يعاقبها و يطلب منها أن تذهب بنفسها لإستعادة الكتب من البستان كي

يكون درساً مفيداً . . و لكن هيهات! . . فالصدمة التي تلقاها كانت أقوى من أن تتيح له وقتا للتفكير بعقوبة من نوع ما . . فها هي قالت كلمتها في حياتها معه على هذا النحو . . و هل سينفع العقاب! . . و أخيراً بدَّلَ رأيه و ذهب هو بنفسه للعودة بالكتب! . . و حينها إكتشف حقيقة عن نفسه . . ها إني أكتشف الآن لِمَ أنا فاشل في السياسة!

و سيمرَّ شهرٌ آخر . . و يكتشف شمران أي خطأ جسيم إقترف حين قاده تهوره الى زواج غير مدروس، بخاصة حين أمسى الزواج منذ أيامه الأولى يقرض شيئاً فشيئاً من روحه نتفاً . . أردتُ إمرأة تُبرِئُني من طيف خولة! . . و أنظروا ما الذي حصلت عليه! . . حاول مرات أن يحسب مقدماً خساراته الناجمة، و التي ستنجم مستقبلا، جراء تهوره بزواجه من سعدية، فأخفق! . . و لكنه بات مقتنعا بأن رحلة عذاب طويلة ستكون بإنتظاره! . . و إكتشف كم من المظاهر تخدع و تغري! . . لا تنورات الميني جوب . . و لا الأفخاذ شبه المتوازية و شبه المتوارية تحت التنورات القصيرة . . و لا جيوب القمصان المفتوحة . . و لا التبرج بألوان زاهية هي أمارات على وعي و تحضُّرٍ كان ينشده عند المرأة التي إختارها زوجة! . . و ندم لأنه لم يأخذ برأيٍ أمِهِ . . و إكتشف أيضا، بطلان ما تزيَّن له من مظاهرِ سلوكٍ و صلاحيةٍ لقِيَمٍ مفترضة، بتأثير أجواء ما قرأه من روايات أوروبية و عربية في السنوات القلائل السابقة لزواجه . . و بات أكثر إقتناعاً بأن ليس من الحتمي أن تكون المرأة لابسة الميني جوب مع أحدث قصة شعر مقياسا إيجابيا للتحضر . . كما و أنه ليس من الحتمي أن يكون جميع الرجال، من واضعي ربطات العنق الحديثة مع بدلات إيطالية أو فرنسية مقياساً لتحضر الرجل . . يبدو أحُدُهم . . سواء أكان إمرأةً أو رجلاً . . بهذا الملبس و كأنه نور على نور! . . و لكنك ما أن تحتك به عن قرب ستجده، في الواقع، وهم على وهم! . . و سيظل يتذكر قول نيتشة . . أتمنى لو أن الأرض تميد بيَّ حين أرى رجلا فاضلا متزوجا من إمرأة حمقاء! . . فما العمل؟

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بمـرور بضعـة أشـهر علـى زواجـه، و لعزوفـه عـن السـكن مـع والدتـه و زعلهـا منـه، تقـرر الوالـدة بيـع البيـت الـذي بنـاه شـمران لهـا، لتشـتري بيتـاً أصغـر قـرب السـوق . . سـألتها إبنتهـا أميـرة متفاجـأةً:

- يا أمي . . ليش؟ . . هذا البيت شمران هو اللي بناه . . واسع و چـبير!

و ترد الأم:

- هـذا هـو السـبب . . واسـع و چـبير! . . شسـوي ببيـت واسـع و چـبير؟ . . آنـي مـن شـفته بنـى هيچـي بيـت واسـع و چـبير فـُرَحِـت . . و گـلـت مـا دام بنـاه واسـع و چـبير حتمـاً راح يتـزوج و أشـوف خلفتـه يلعبـون يمـي و توَّنّـس بيهـم!

- و هسه؟

- هسـه مثـل مـا دتشـوفين بنتـي! . . ويـن أودي هـذا البيـت . . و أولادي الإثنيـن واحـد منهـم راح لبغـداد گـبل خمسـطعش سـنة . . راح و ما أسـمع عنـه خبـر غيـر كل تـلاث سـنين مـرة . . ويـن راح؟ . . لجـزر الـواق واق! . . و هـذا إبنـي الآخـر الـعمدة . . الزغيـر . . مـو بـس تـزوج واحـدة بـگـد أمـه لفلَّـِفت عقلـه و قشـمرته . . و راح چـمَّلهه و سـكن بعيد عنـي . . بنتـي آنـي أُفـادي راح ينفطـر مـن اللـي سـوّاه إبنـي! . . و آنـي نادمـة لأن مـا رِحِـتْ گـبل ثمـان سـنين و خطبتلـه خولـة حتـى لو چـان هو بالسـجن! . . بنتـي شسـوي بهـذا البيـت الـچبيـر؟

\-   * * * * *   * * * * *   * * * * *

طلبـت صافيـة شـكر الأسـود مـن زوجهـا نزهـان أن يأتـي لهـا بمـن يبيـع بيتهـا و يشـتري لهـا بيتـاً أصغـر دون علـم إبنهـا شـمران . . و تـم لهـا ذلـك . . و تحولـت الأسـرة الـى بيـت صغيـر غيـر بعيـد عـن السـوق دون علـم إبنهـا شـمران الـذي سـيتفاجأ حـدَّ الجنـون بمـا فعلتـه أمـه . . و لـم يكـن ليلومهـا علـى مـا فعلتـه، بسـبب زواجـه مـن سـعدية الخطـاط، فهـي التـي توقعـت منـذ

أن رأت سعدية إن إبنها لن يرى السعادة بزواجه من سعدية . . هيهات! . . و سيظل و كأنه يتحمل تقريعاً صامتاً من أمه . . و سيمرُّ شهرٌ على إنتقال الوالدة الى البيت الذي إشترته قرب السوق و تفارق صافية الحياة كمداً جراء ما فعله إبنها بزواجه، و سيُلاحق شمران بندم غير مفارق على ما فعل، يخالط ذكرياته عن خولة . . و سيحس ندماً أقوى، لأنه أمانة منه لزوجته مزّق جميع رسائله لخولة و رسائلها إليه عشية زواجه من سعدية البياتي!

و ستمرُّ سنتان على وفاة صافية الأسود . . و بسبب فراقه لزوجته، سيصاب نزهان الأحمدي بالخرف المبكر و قد تجاوز السبعين، لتعتني به إبنتُه أميرة في البيت الذي سيشيَّعُ منه زوجُها غايب مرهون الى مثواه الأخير!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بإطلالة عام 1970 . . الأجواء عموما و معها ترتيبات السياسية في العراق تلهث وراء ما يجري في العالم. و ستبدو الأحداث المتمخضة عن تلك الأجواء و كأنها إنعكاس لما يدور في أقاصي الأرض . . تبدو هكذا على الأقل بالذات للمراقبين المأخوذين بسياقات تفكير مثالية لا وجود لها على أرض الواقع، فيكتشفون إنهم بأحكامهم كانوا مخدوعين بالمظاهر، و إنهم مهما فعلوا في محاولة قراءة ما بين السطور أو فوقها أو تحتها سيظلون عاجزين عن قراءة الأجواء و أحداثها الموجودة خلف السطور لا فوقها و تحتها! . . و تأثير مثل هذه القراءات على أشخاص من نوع شمران يأتي حاسماً، و معه تقريباً أغلب مجايليه . . و لظنه أنه لن يستسلم بسهولة لما كان يُلَخّصُ عادة بتسميته . . الهمّ العام . . فيتصرف بموجبه و كأنه عضوٌ في حزب أو مجموعة يلتزم بأولوياتها قبل أولوياته الشخصية التي يجري التعبير عنها عادة بمفردة . . الخاص . . و يقبل التضحية بالخاص من أجل العام . . و سيتساءل مئات المرات ما إذا كان قبوله معايشة زواج فاشل . . أهو عام أم خاص؟

الأجواء تنتقل الى مقهى مجيد محسن، فتشيع عن شلتهم . . هوَ و الجليلي و الزنگناوي و الحبيب و إبراهيم حميدي تسمية . . شلة المثقفين . . و صارت الكنبتان المتجاورتان عبر الشارع، أمام مسناة الشاخة، في الطرف القريب من القنطرة المقابلة للمقهى تسمى ركن شلة المثقفين. و صارت فعلاً كأنها مقر صالون ثقافي بدل بيت حسين الجليلي . . يلتقون فيه أغلب أيام الأسبوع عادة عصراً و تستمر جلستهم أحيانا لما بعد الساعة العاشرة ليلا . . ساعات من نقاشات طويلة و تحاليل للأحداث تخللها إلقاء فكاهات و نكات بذيئة، تقال بحمى الحديث، و بصوت عالٍ أحياناً، فيسمعها رواد المقهى الجالسون على الكنبات القريبة، فتروح قهقهات هؤلاء لتمسي صدىً لقهقهاتِ أفراد الشلة . . و يتلفت الرواد الجالسون على الكنبات البعيدة و تصدر منهم، أحيانا حسرةً قهقهات خافتة أشبه بنوبة ضحك وبائي، بخاصة حين تشتد حماوة النقاش فيما بينهم . . يتلاكن الجليلي و حميدي و الحبيب بلهجتهم الشروگية الجنوبية و الزنگناوي بكرديته السورانية و الأحمدي بلهجته الخليط من البغدادية و البعقوبية و الشهربنلية . . يُفَشِّرُ أحدهم على آخر بالملاكنة و لا يفهم الآخر ما قيل عنه من شتيمة فيروح الجمع يضحك . . و هم جالسون على كنبات المقهى المصفوفة على طول مسناة الشاخة، فتبتلع مياه مجرى الشاخة أصداء أصواتهم تدعر بنكات بذيئةٍ . . و نقاشاتهم في أغلب الأحيان تنصب على ما يتراءى لهم من تعرجات و منعطفات حادة غير منطقية تأخذها الأحداث من حولهم . . محلياً و عالمياً . . يحاولون التفلسف أن يؤسسوا للأحداث منطقاً من نوع ما و يضعوا لها تصنيفاً في باب ما! . . و يتحول ما يتحدثون به أحيانا الى سفسطة!

. . ثان هامان لافتان تشيع أخبارهما . . خبر الإمساك بعزيز الحاج و نفر النواب و آخرين معهم بعد إنهيار مَنْ سَمّوا أنفسهم القيادة المركزية المنشقة من الحزب الشيوعي . . متبوعا بخبر إغتيال القائد الشيوعي محمد أحمد الخضري. و في أثنائها سرعان ما تكللت المفاوضات بين المسائل الكوردية و البعث أول السبعينيات في 11 آذار بإتفاق حصل

الكورد بموجبه على حق إقامة منطقة حكم ذاتي، و تبعه صدور جريدتهم التآخي بالعربية. . . و الشيوعيون كانوا دائما مع حق الكورد بتقرير المصير . . فأين دورهم في هذا الإتفاق؟ . . و أين المنطق؟ . . إنشغلت شلة المثقفين بإرساء منطق لما جرى! . . وبإنشغال شلة المثقفين في مقهى مجيد محسن بإيجاد منطق لتعرجات أحداث من هذا القبيل، حاولوا أولاً، و كعادة اليساريين في حقبتهم الحالية، و لربما في كل الحقب، أن يجدوا مثالاً من العام يفصلون به الخاص الذي يمرون به، فإستذكروا إنكسارين من الماضي القريب . . هزيمة العرب أمام إسرائيل في حزيران 1967 و خسارة الثورة العالمية للمناضل الأممي تشي جيفارا في تشرين الثاني من العام نفسه على يد الإستخبارات الأمريكية . . بوصفهما حدثين متبوعين بتعرج إيجابي في الأحداث من قبيل ما سمي . . ربيع باريس عام 1968، الذي قاده الشباب و قوى اليسار الفرنسي و شلَّ فرنسا و أصاب أوروبا بالهلع . . و أتُّهم الفيلسوف الوجودي جان بول سارت بالتحريض عليه . . و لم تجرؤ حكومة بومبيدو على إعتقاله إذ قال بومبيدو معلقاً . . و من ذا يقوى يا ترى على إعتقال الشمس! . . فإنهارت حكومته . . و خاطب شمران شلته:

- . . جدوا لي هنا فيلسوفاً يقود ثورة و ينجو من العقاب الإلهي و الأرضي! . . ببساطة لأن الثورات هنا لا يفوز بها سوى الجسور من قطاع الطرق! . . و هكذا يغدو قطع الطريق أما إرهاص نبوَّةٍ . . أو قيادةٍ أوحدةٍ . . أو قدسيةٍ معصومةٍ!

يجرى هذا التناظر و التظير في لقاءات الشلة، و أخبار المفاوضات بين البعثيين و الشيوعيين تتسرب و كأنها جارية على قدم و ساق من أجل الوصول الى إتفاق من نوع معين . . و لم تنجو شلة المثقفين بسبب إختلاف رؤى أفرادها، من تعريض نفسها بنفسها الى التصنيف المعتاد بين يمين و يسار و وسط. على يمينها كان الجليلي و الحبيب، و على يسارها كان الزنگناوي و إبراهيم حميدي، و في وسطهم كان شمران الأحمدي، لا حباً سافراً بالوسطيةِ، و إنما لأنه كان يحس بنفسه، أزاء أفراد

بمين الشلة و يسارها على حد سواء، بقصور عن مجاراة الطريقة التي يدرِك بها أفراد الشلة الآخرون ما يجري من أحداث. و كان ينشدُّ تارة يميناً و تارة يساراً! . . و يظل مراوحاً بين بين . . يعيش تجربته الوجودية على التخوم!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

انعطافات حادة في الأحداث تتبعها تعرجات . . المفارقات لا تظهر بين حدث و حدث فحسب، عالمي أو محلي، بل أحياناً يأتي الحدث المفرد منها هو نفسه مركَّباً و يمر معقداً، منطوياً على إنعطافات و تعرجات عصية على الفهم عند شمران بمفارقات لا يصدقها عقله النشيط، لأنه كان ما يزال يضع الحدث و نتائجه في سياقات مثالية . . المسافة بين الأبيض و الأسود عنده ما تزال غائمة في أغلب الحالات . . و لم يستطع شمران التحرر بسهولة من تلبُّدِ غيم ذهنه لإيجاد طيف يساعده على توقع ما سيحصل بإستحضار صعود اليسار الى السلطة في تشيلي عام 1970 ممثلا بزعامة سلفادور آلندي في إنتخابات ديمقراطية دستورية.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأحداث تتوالى . . السعي لبلوغ الثروة و الإمساك بعصا سلطتها قائم على قدم و ساق!

المناوشات بين العراق و شركات النفط الأجنبية تعود عام 1971 الى المواجهة!

ترشحُ أخبارٌ عن أمساك مطلق لصدام التكريتي بمفاتيح و عصا السياسة النفطية!

في مطلع 1971 ما يزال الخروف اليهودي العراقي يُسامُ موتاً!

أواخر تموز يأتي خبر من السودان . . إعدام القائد الشيوعي عبد الخالق

محجوب الذي سألوه قبل إعدامه . . ما الذي قدمته لشعبك؟ . . و يجيب . . الوعي بقدر ما أستطعتُ! . . و يفيد مأمور السجن بأن عبد الخالق ذهب إلى المشنقة بخطى ثابتة وكان أنيقَ الثياب، لامعَ الحذاء ، متعطراً و باسماً كعريس . . هكذا علق الضابط عثمان عوض الله مأمور سجن كوبر!

يا لغنى هذه المادة! . . و تروح شلة المثقفين لتنشغل بالتحليل مرة أخرى . . و كأن أحدهم ديدرو الذي خاطب شلة زملاءه الإنسكلوبيديين الفرنسيين عشية الثورة الفرنسية قائلا لهم . . نحن العقلاء الوحيدون في أوروبا!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

و سيتكَشَّفُ الإختلاف بين أفراد شلة المثقفين بصدور أول كتاب لحامد الدين الزنگناوي عام ١٩٧١ مسرحيته . . سرب الجراد . . و كانت وصفاً رمزياً سافراً، عند القاري الفهيم، لمجئ البعثيين الى السلطة ثانية عام ١٩٦٨، بتشبيههم بسِربِ جراد طويل لا ينقطع، يجئ بمواسم، فيحجب الشمس . . جراد نهم للجريمة، جاء هذه المرة كي لا يُبقي على شيءٍ! . . ليأكل الزرع و يُبيد الضرع و يُغيِّبَ المُرعَ . . و يستقبل الجليلي و الحبيب المسرحية بفتورٍ لأنها، برأيهما الظاهر، مسرحية سوداوية تصادر كل أمل للإنسان بالخلاص من الجراد و مبينان في الوقت نفسه تأثـر الكاتب برواية جورج أرويل . . ١٩٨٤ . . و لربما في داخلهما أبطنا إستنكارا تجاه الزنگناوي لتوصيفه حليفهم القادم المحتمل القادم بالجراد! . . في حين تحمس لها إبراهيم حميدي مؤيداً رأي الكاتب طالما كان الجراد يمثل نزوعاً قومياً متطرفاً . . و حجة حميدي مؤيدا الزنگناوي أن الفكرة القومية مثلُها مَثَلُ الفكرة الدينية، مبطنة بالإنسانية و لكنها مسكونة بالجريمة أبداً . . أما شمران الأحمدي، فقد وقف موقفاً وسطاً، و كتب مقالة عن المسرحية، معطياً فيها تلخيصاً لثيمتها، و لكن دون حصر للخاص و دون حتى أي تلميح صغير الى سلطة البعث الجديدة، مكتفياً بما يحمله النص من عموميات قد تحصل في أي بقعة في العالم، ثم

ـلاه بتحليل للنص و لشخوص المسرحية و ديناميكيتها على الرغم من التشاؤمية التي ترشح من النص. و مثلما كانت مسرحية سراب الجراد لكاتبها فتحاً أولياً في عالم النشر، كانت فتحاً أولياً لشمران الأحمدي في عالم الكتابة رحبت به جريدة التآخي، مخصصةً صفحةً كاملةً تقريباً لمقالة مكتوبة عن كاتب كوردي يكتب بالعربية و نشرتها دون تحوير أو حذف، على خلاف ما يحصل لأغلب مساهمات شمران المنشورة في الصحف الأخرى.

صعود اليسار في تشيلي، ما شغل شمران هو مسالة كيف يكون ضمن تحالف لليسار يقوده إشتراكي من طراز آلندي حزب إسمه الحزب الديمقراطي المسيحي. و شمران ما يزال يتذكر ما قرأه عند لينين مرة حق رجال الدين .. هل نسأل رجال الدين؟ .. نحن نعلم ما سيقوله رجال الدين! .. و يعني ما يقوله رجال الدين عادة من ترهات! .. و مع ذلك قال جناح يمين الشلة:

لننتظر و نرى ما ستؤول إليه الأحداث!

يعلق جناح يسار الشلة:

لننتظر!

يعقب شمران:

اني أخشى أن يكون الحزب الديمقراطي المسيحي داخل جبهة آلندي هو الضبع الذي سيمزق أحشاء الجبهة .. فأيد الزنگناوي من جناح يسار الشلة رأي شمران معقباً:

أليس هذا هو ما حصل للشيوعيين حين زودوا البعثيين في العهد الملكي بطابعة يطبعون عليها منشوراتهم الحزبية قائلين لهم .. إذهبوا قووا تنظيمات حزبكم و قووا الحركة الوطنية! .. و ذهب البعثيون و تقَوّوا، في حينها، و بعد حين شقوا بطوننا في شباط 1963؟

الأحـداث تتوالـى فـي المشـهد بإنعطافـات سـريعة و تعرجـات حـادة . . و كأن الشـيوعيون باتـوا متأكديـن مـن توقيـع إتفـاق شـراكة قـادم مـع البعثييـن، و قناعتهـم أمسـت راسـخة بـإن توقيـع إتفـاق مـن هـذا النـوع بـات وشـيكا، فراحـوا و منـذ منتصـف علم 1972 يبحثـون لهـم فـي بعقوبـة عـن بنايـة تكـون مقـراً لفـرع حزبهـم، فضـلاً عـن أنهـم سـعوا لإسـتعادة مـن خسـروهم فـي شـباط 1963 الـى صفـوف الحـزب، و مفاتحـة الشـباب للإنخـراط فـي أنشـطة المنظمـات غيـر الحزبيـة . . الشـباب . . الطلبـة . . المـراة . . النقابـات.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

عام 1972 . . الأشهر تمضي مسرعة.

في نيسان . . توقيع معاهدة صداقة و تعاون بين العراق و الإتحاد السوفيتي.

فـي حزيـران . . يظهـر رئيـس الجمهوريـة أحمـد حسـن البكـر علـى شاشـات التلفـزة و يعلـن تأميـم شـركات النفـط الأجنبيـة! . . و هـا هـو صـدام يمسـك مـن خلـف السـتار بكامـل مفاتيـح الثـروة العراقيـة!

ذات يـوم مـن خريـف 1972 . . يُـدَقّ البـاب علـى شـمران الأحمـدي ليـلاً . . يفتحـه فيجـد الفنـان المسـرحي جبـار النـداف عنـد البـاب ينقـل إليـه رسـالة شـفوية يدعونـه فيهـا إلـى العمـل فـي أنشـطة ثقافيـة لمنظمـة الشـباب . . هـا هـو شـيوعي آخـر يكشـف عـن وجـوده فـي الديـار! . . لـم يـرد شـمران فـورا علـى الدعـوة، و تريـث طالبـا مهلـةً للتفكيـر. و فـي نفسـه دارت خواطـر البقـاء علـى التخـوم! . . العيـشُ علـى التـل! . . و مبـدأ العيـش علـى التخـوم سيؤسـس لـه فلسـفة ذاتيـة مفادهـا تـرك مسـافة بينـه و الأحـداث، بينـه و الأشـخاص، بينـه و الجماعـات، و حتـى بينـه و هواجسـه. و مـا أن تمسـي هـذه المسـافة لـه أشـبه بالعـادة أو الفلسـفة سيسـميها . . مسـافة الأمـان بينـه و الآخـر! . . أيـن هـو الأمـان يـا تـرى؟ . . ثـم سـتراوده فكـرة أن يَعـرِضَ علـى شـلة المثقفيـن موضـوع هـذه الدعـوة التـي تلقاهـا ليـرى ردود أفعالهـم كـي يكتشـف علـى الأقـل مـا بيـن سـطورهم و مـا خلفهـا و مـا تحتهـا و مـا فوقهـا!

مساء اليوم التالي . . في ركن شلة المثقفين ألقى شمران بالحصاة، منتظرا ردود الأفعال . . أول رد فعل تلقاه جاءه من الزنگناوي قائلاً و كأنه يسطر حواراً في مسرحية:

- يا هذا! . . مع أن الأمر يعود لك أولاً و آخراً! . . آني من ناحيتي ما راح في أي يوم أشترك بأي نشاط أو بأي فعالية ينظموها . . حزبية أو ثقافية طالما سيقود هذا بعد حين للجلوس مع جراد من نوع مزبان خضرهادي . . و أظنني حددت موقفي من الوضع بأكمله في مسرحيتي . . سرب الجراد!

لم يكن غريباً أو غير متوقع ما أدلى به الزنگناوي، و مع ذلك يعلق شمران:

- آني ما سألتك عن نفسك!

ويعلق الزنگناوي:

شلون تريد تفهم رأيي إفهمه بالطريقة اللي تعجبك!

و يسمعه شمران يضيف عبارة بالكوردية، و مع إحتمال أن باقي افراد الشلة لم يفهموا ما قال بالكوردية سيطلقون قهقهة عالية، و لا هو شمران نفسه فهمها بالضبط، إلا أنها تخميناً كانت عدم موافقة . . و سيسأل شمران بعد حين كوردياً من أصدقائه عما تعنيه فيقال له معناها . . روح و ضرِّط مثل ما تريد!

و يسمع إبراهيم يعلق:

- آنه ويه حامد الدين بالرأي . . بويه بعد تجربتنا وَياهم بإنتخابات نقابة المعلمين . . ما راح أكرر أي تجربة وَياهم طول عمري!

هذا أيضا متوقعٌ من إبراهيم . . فشمران ما يزال يتذكر موقفه المساند

للمضـي فـي خـوض إنتخابـات المعلميـن و عـدم الإنسـحاب . . و سـيظل شمران بإنتظـار ردة فعل الجليلـي و الحبيب اللذين صحيح أنهمـا لـم يجاهـرا بعد بعلاقتهما بالحـزب، لكنهمـا كانـا بوسـائل شتى يوحيـان بأنهمـا يعلمـان مـا لا يعلمـه باقـي أفـراد الشـلة . . و يمـر فـي ذهـن شـمران خاطـر . . أيكونـان همـا بالـذات، أو أيـّاً منهمـا، أصـلاً صـاحبـيّ فكـرةِ دعوتـه للعـودة الـى العمـل؟ . . لـم لا! . . ظـل الحبيب صـامتـاً و هـو مـا عـزز ظـن شـمران الأخيـر، و شـرع بالحديـث الجليلـي المعـروف بهدوئـه وبإنتقائـه المعهـود للكلمـات حيـن يتحـدث و بمحاولتـه إتقـان لهجـة المنطقـة و التحـرر مـن لهجـة الشـروگية:

- فـي الواقـع . . إحتمـال أكـو شباب زغـار . . طلبـة كليـة . . طلبـة إعداديـة . . رسـامين هـواة . . شـعراء مبتدئيـن . . كتـاب قصـة قصيـرة . . رياضيين . . محبـي موسـيقى . . و كلهـم يحتاجـون رعايــة . . و أعتقـد إذا كان أكـو أحـد إختـارك لهـذي المهمـة . . فهـو إختـارك لأن إنـتَ أقـرب لذولـه الشـباب بالعمـر و الإهتمامـات و الملبـس و غيرهـا مـن الأمـور . . و هـذي النشـاطات هـي بأولهـا و بآخرهـا مـا لهـا علاقـة بالعمـل الحزبـي!

هـراء! . . مـا ورد فـي خاطـر شـمران . . يـا لهـذا الـدوران! . . دوران و دوران و دوران! هـا هـو الجليلـي يفصـح عمـا بيـن السـطور و مـا فوقهـا و مـا تحتهـا! . . مـا هـذا يـا جليلـي! . . و مثـل أي سياسـيٍ . . يـدور حـول الخرائـط لكـي يقنعـك! . . مـا هـذا يـا جليلـي؟ . . هـذه المنظمـات هـي بوابـات الأحـزاب! . . و ليقيـن شـمران بـأن أنشـطة مـن هـذا النـوع مـا هـي إلا المنخـل الـذي تغربـل بـه أيـة منظمـة الراغبيـن بالإنضمـام إليـه، أو إسـتدراجهم للإنخـراط فـي صفوفـه . . و كـرد فعـلٍ و تعقيبـاً علـى نبـرة البـراءة الظاهريـة التـي تحـدث بهـا الجليلـي، سيطلق شـمران ضحكـة عاليـة ذات دلالـة، و سـافرة الـى حـد يـفهـم الغايـة منهـا جميـع أفـراد الشـلة، بـل و سيلتفت علـى وقـع جلجلـة الضحكـة جميـع الجالسـين علـى تخـوت المقهـى عنـد مسـناة الشـاخة و سـيتطلع إليـه عبـر الشـارع حتـى بعـض أولئـك الجالسـين علـى تخـوت الرصيـف أمـام المقهـى، ، و يعقـّـب الحبيـب:

- يا شمران . . سيدنا الجليلي يقصد . . يعني هَيْچ و هَيْچ!

إلتفت شمران نحو الزنگناوي، و كانت ردة فعله إنفعالية كالعادة، فعلق مقطب الجبين:

- يا شمران بن نزهان . . بإختصار . . إذا تريد . . هذوله الرسامين و الشعراء و الكتاب و الموسيقيين و الرياضيين و الرواگيص الزغار . . روح اِشبع بيهم!

شمرانُ معتادٌ على مزاح من هذا النوع يطلقه الزنگناوي، فيعقِّبَ:

- آشبع بيهم!

- أي اِشبع بيهم . . و تمضرط وياهم الى أن تِتَرّيَعْ!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

في ركنٍ حي من ذاكرة شمران، ما يزال يتفاعل كل ما تردد عن عصابة الإجرام التي حرضت على إضراب طلبة الجامعة و قادته بنفسها، تهيئة لأجواء إنقلاب 1968، ملقياً بظِلِـهِ على الأحداث التي تمر، بخاصة بعد أن إنكشف للبيب أن نصيباً كبيراً من أوراق اللعب بالسلطة، إن لم تكن كلها، باتت بأيدي بعض أفراد هذه العصابة. و تتردد شائعات عن تحويل هذه العصابة الى منظمة سرية تتحكم بحزب البعث و ربما بأهم مفاصل الدولة . . و قد تعود شمران أن يتذكر، بسبب تجربة زواجه غير المدروسة، قول نيتشه . . أتمنى لو أن الأرض تميد بي حين أرى رجلاً فاضلاً تقوده إمرأة حمقاء! . . و لكي يجد تطابقاً بين العبارة و ما يقرأه في الواقع، حوَّر شمران عبارة نيتشة إلى . . أتمنى لو أن الأرض تميد بي حين أرى حزباً فاعلاً تقوده زمرة عرجاء! . . و مع ذلك، و على الرغم مما تركته تجربته مع مزبان خضر هادي في إنتخابات نقابة المعلمين من أثر عنده، كان إغراء العيش بين بين على حافات الخطر، ليس في قلب الخطر و لا خارج الخطر، ما يزال يدفعه الى المغامرة و الدخول

في المجهول . . أن تكون بين القشرة و اللب في هذا الحيز الذي يكان أن يكون متناهيا في المكان و تبحث فيه عن معنى للوجود . . هذا أيضا له معنى من نوع معين! . . و بعد تأنٍ أرسل موافقته على الدعوة التي تلقاها للعمل مع تطلعات الشباب الثقافية . . اللعبُ بين القشرة و اللب!

و ذات يوم، سيُبلغ شمران عن جلسة مسائية في بيت إبن محلته القديمة، المعلم رزوقي القيسي الذي يكبره ببضعة سنين. و هناك، و بوجود جبار النداف، إجتمع ثلاثة أشخاص، صاحب البيت و مصطفى الذْيو[٥٤] و شمران . . أبلغ الثلاثة بأنهم قيادة الشباب ديالى، و عليهم بذا أن يختاروا من بينهم رئيسا للجنة و سيكون جبار النداف صلتهم الرابطة بالمكتب التفيذي في بغداد . . و شرعت اللجنة تضع خططها، بتقسيم ديالى و بخاصة بعقوبة و ما يحيط بها الى مناطق، كل له منطقة يشتغل بها مع الشباب. ينظمون سفرات ثقافية في ظاهرها، و في باطنها تثقيفية و إعداد لمرحلة تالية . . هذ هو اللعبُ بين القشرة و اللب! . . تولى مصطفى الذْيو و رزوقي القيسي أنشطة الرياضة، و أنشطة الفنون و الأدب تُركت لشمران . . وأضحت بساتين بهرز و الهويدر و خرنابات و العبّارة، و بحضور شمران، منصة يلقي من فوقها شعراء شبان قصائدهم على جمهور حاضر من الشبيبة، فتياناً و فتيات . . و مسرحاً يجرِّب عليه ممثلين هواة أداءهم المسرحي و موسيقيين فتيان قدراتهم في العزف . . و لم تخلو الأنشطة من سفرات جماعية الغاية منها التحشيد!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الأحداث تتوالى . . عام 1973

أوائل العام . . أخبار تفيد بأن قلة فقط من اليهود هي من تبقّتْ. جرى قتل 14 من اليهود رجالاً و نساءً. 9 منهم أعتقلوا و إختفت آثارهم ثم نهبت أموالهم . . و 6 منهم قتلوا في بيوتهم . . و لم يتبق منهم في العراق سوى بضعة!

٥٤ «ذْيو» هي التسمية الشعبية للسبع و يطلقها العراقيين على الرجل الشجاع

هاجس شمران . . بتصفية اليهود تماما تقريبا، آنت لليهودي العراقي الخروف ساعة الخلاص بالموت المطلق، و سيكون على المجرمين البحث عن خروف غيره! . . فمن ذا يا ترى سيكون الخروف الذي سيتنمَّرون عليه؟

أول يوم من تموز 1973 . . ناظم گزار مدير الأمن العام في بغداد يُعِدُّ العدة لإنقلاب. گزار المتفوق ربما على الروسي بيريا الأمارةِ الصارخةِ لبشاعة الحقبة الستالينية . . و المتجاوز ربما لهملر الألماني رمز رعب الحقبة الهتلرية. گزار الشروگي الشيعي البرم بسيطرة التكارتة السنّة على طريقة قيادهم للبلاد، و بصيته المشهور بإختراعه وسائل شديدة القسوة ضد الشيوعيين في إنقلاب شباط 1963 في النادي الأولمبي في الأعظمية، و بصيته بما فعله في قصر النهاية بكل رموز حقبة الحكم العارفي غداة إنقلاب تموز 1968 لدرجة أشيع عنه أنه أجبر طاهر يحيى التكريتي على أكل برازه. و ها هو إنقلابه يجيئُ ذروة صراع خفي بين أفراد العصابة التي تمسك بتلابيب البعث و المجتمع، و يخطط به ناظم گزار للإطاحة بالطاقم التكريتي الممسك برأس السلطة . . و لكنه يفشل لإعتماد الإنقلابيين على سيناريو واحد . . مرة أخرى هفوة البَيضُ كلهُ في سلة واحدة! . . و سرعان ما سيسقط سوء التوقيت و عدم التحسب على سلة البيض فينكسر البَيض كله بمقتل ناظم گزار!

الأحداث تتسارع . .

16 تموز 1973 . . لم يمضِ على إنقلاب ناظم گزار الفاشل سوى أسبوعين، خبر على شاشات التلفزة يظهر فيه أحمد حسن البكر و سكرتير الحزب الشيوعي العراقي يوقعان ميثاق الجبهة الوطنية و القومية التقدمية، و يتصافحان و يتعانقان عند تبادل وثائق التوقيع على الميثاق. و يصرح البكر في اليوم نفسه تصريحه المشهور . . لا نريدها جبهة تنعقد اليوم و تنفرط غداً! . . و ستثبت الأيام وجود من يريد لها ساعة توقيعها أن تنعقد اليوم كي يفرطها في الميقات المحتوم!

لجنـة عليـا تتشـكل يقودهـا بعثـي و بعضويـة شـيوعي و أعضـاءٍ آخريـن يسـمون أنفسـهم أمـا تقدميين أو قوميين . . و سـتثبت الأيـام أن دورهـم جميعـاً لـم يكـن ليتعدى دور الكومبـارس فـي المشـهد السـينمائي أو المسـرحي! . . و سـتثبت التطـورات التاليـة فـي حيـاة شـمران أن العضـو الشـيوعي فـي لجنـة الجبهـة هـو أيضـا ليـس أكثـر مـن كومبـارس لقيـادي بعثـي يمـارس لعبـة مـن نـوع مـا! . . و بالتالـي ربمـا الحـزب كلـه سيقوم بـدور الكومبـارس بإستشـارة مـن الأخ الأممـي الأكبـر! . . و تعلـن لجنـة الجبهـة عـن إجتمـاع جماهيـري فـي ملعـب الشـعب الدولـي ذات مسـاءٍ بعـد أيـام مـن إعـلان الميثـاق . . و مـع أن أي مـن جنـاح يميـن شـلة المثقفيـن لـم يعـد يتحـرج مـن أعـلان شيوعيته، إلا أن شـمران لـم يسـمع منهمـا قـط، و لا مـن أي أحـد فـي بعقوبـة، نيتـةً بالذهـاب الـى الإجتمـاع الجماهيـري المعلـن عنـه! . . و بدافـع الفضـول، و لكـي لا يفوتـه مشـهد مـن حـدث الحشـد الجماهيـري، كـي يـرى مـا يكشـفه لـه العيش علـى التخـوم مـن مفاجـآة و أسـرار، و كـي تتسـنى لـه فرصـة قـراءة مـا خلـف السـطور و مـا فوقهـا و مـا تحتهـا، يقـرر شـمران الذهـاب الـى ذاك الإجتمـاع الجماهيـري.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

أمسيةُ يومٍ قائـضٍ مـن تمـوز . . مدرجـات ملعـب الشـعب مـا تـزال تـكتوي بمـا تبقـى فيهـا مـن لظـى لهيب شـمس نهـار فائـتٍ. دخل شـمران ملعب الشـعب مـن البـاب المقابـل للمقصـورة. و هـذا هـو مجيئـه الثانـي بعـد مجيئـه الأول أواسـط السـتينيات يـوم إفتتـاح الملعـب فـي مبـارة العـراق- بنفيكا البرتغالـي التـي تعـادل فيهـا الفريقـان بهدفيـن . . و هـو مـا يـزال فـي ممـر المدخـل وصلـه صـوت دلال شـمالي تصـدح بأغنيتهـا . . مـن قاسـيون أطِـلُّ يـا وطنـي فـأرى بغـداد تعانـق الشـهبا! . . و دار فـي خاطـره . . متـى حصـل هـذا العنـاق و أيـن؟ . . عنـاق قاسـيون و بغـداد! . . بغـداد تعانـق الشـهبا! . . أيـة شـهب؟ . . متـى؟ . . وصـل باحـة الملعـب، و عشـب سـاحة اللعـب يشـع بضـوءٍ مخضـرٍ، ينعكـس علـى المدرجـات فيخلـّف فوقهـا جـوا أشـبه بالظلمـة الخفيفـة . . وقـف شـمران عنـد السـياج الأسـفل الـذي يفصـل المدرجـات عـن سـاحة اللعـب، و راح يـدور

بعينيه من حواليه على مدرجات الملعب . . بالضوء الكابي المتسلل من الساحة الى المدرجات، لاحظ أنه صحيح أن المدرجات لم تكن خالية، غير أن الجماعات المتفرقة هنا و هناك، على شكل مجموعات، و بحسب تخمينه لعدد المجموعة القريبة منه، لا تقل أعدادها بعضها عن مئة، و لا تزيد أعداد أخرى عن ثلاثمائة، متفرقة هنا أو هناك، و قد توقع لحدث تصوره مزلزلا من نوع إعلان ميثاق الجبهة، و هو تصوره يخيب، إذ تصور إكتظاظا في المدرجات يفوق إكتظاظها في لعبة العراق- بنفيكا أبان الستينيات . . و يدور في ذهن شمران خاطر . . ليست أمارة خير!

متكِئً على السياج الحديدي المحيط بساحة اللعب . . يتلفت يمينا و شمالا و وجهه للمدرج الذي فوق الباب الذي دخل منه الملعب، محاولاً قراءة اللافتات المرفوعة وسط المجموعات. . الجبهة الوطنية و القومية التقدمية تجسيد لمبادئ حزبنا في العمل الوطني . . مذيلة بتوقيع الشيوعيين . . و حاول ان يقرأ لافتات المجاميع البعيدة و الأبعد على هدي النور الضئيل المتسرب من الأضوية الكاشفة، فلم يفلح . . أحيانا يستدير دورة كاملة ليلقي نظرة بعيدة بإتجاه المقصورة التي كانت خالية عدا بضعة أشخاص يتمشون أو يراوحون في أماكنهم، في حين راحت مكبرات الصوت المبثوثة في الملعب ما تزال بأغنية دلال شمالي . . من قاسيون أطل . . ثم عاد، و هو يتلفت بنظرات بعيدة نحو لافتات المجاميع البعيدة ليقتنص ما مكتوب عليها من شعارات، مستعينا بوميض متكرر صادر من فلاشات كامرات المصورين المتناثرين قرب المجاميع و أمامها . . لعلّه يحظى بكلمة أو كلمتين من أي شعار! . . و يُفاجِؤه رجل من المجموعة القريبة منه، ينزل من أوطأِ درجة في المدرج متجها نحوه، ليسأله:

- آني صار لي ربع ساعة عيني عليك! . . عليش تدَوِّرْ؟

فيتفاجأ شمران بالرجل الأربعيني و بسؤاله الذي عدَّه أول الأمر تطفلاً. و سرعان ما سرحت به الظنون حول فضول الرجل و طريقة طرحه لسؤاله . . متطفل؟ . . رجل أمن؟ . . عامل في الملعب؟ . . دليل؟ . . و هو

ما يزال يحاول إيجاد إجابة مناسبة يرد بها على الرجل، أضاف الرجل بما يشبه المفاجأة:

- بالمناسبة . . إنتَ رجل أمن؟

و ها هو شمران يحتار بـمَ سيجيبه . . المفاجأة صارت أكثر تعقيداً، و زادها الرجل تعقيداً على تعقيد، حين إسترسل ليقول بنبرة تشي بمزاح:

- يابه . . لا تخاف! . . تره آني همين رجل أمن . . مثلك!

هنا و مع هذا التعقيد المفترض، ظن شمران إن الموقف إنفرج، فضحك و علق:

- آني متأكد إنتَ مو رجل أمن! . . و آني متأكد إنت متأكد آني أيضاً مو رجل أمن!

- ليش إنت متأكد آني متأكد إنت مو رجل أمن؟ . . لأن رجال الأمن إحنه معتادين ما نشوفهم مثلك و مثلي!

- شتقصد؟ . . تقصد نشوفهم مو حلوين مثلي و مثلك؟

- أحسنت . . يعني بهالمعنى . . أقصد معتادين نشوفهم مجعمرين!

- لا . . خليني أصححلك . . إحتمال البعث هالمرة جاء و هو مستفيد من هوايه دروس . . و منها مثلاً هسه همَّ جاي يختارون رجال الأمن ناس بيهم شوفه . . أقصد بَطْـلَـو . . بعد ما يجيبون رجال مجعمرين بالأمن!

- أتفق وياك . . و ببساطة لأن هالمرة أظنهم جايين ويوي مو واوي!

يستغرق الرجل بضحكة طويلة معلقاً:

- يسلم مخك على هالوصف! . . هاي إنت همين ملحگ على قصة

توبــة إبــن آوى اللـــي قريناهــه بالإبتدائيــة!

- صـحيـح . . قريناهـه بالإبتدائيــة . . و مــا مسـتفيدين مـن دروس هالحكايــة البسـيطة!

- . . و هسه گـوللي من چِـنت تتلفت . . عليش چـنت تدَوِّر؟

و قبل أن يجيب شمران، أضـاف الرجل:

- چـنت تدَوِّر على جماعتك؟ . . على أهل مدينتك؟

و مرة أخرى، قبل أن يجيب شمران، الرجل يضيف:

- نتعــارف؟ . . آنـــي وسـيم الحسـني مــن النجــف . . و هذولــة الجماعــة القريبيــن جماعــة النجــف!

و قبل أن يسترسل الرجل، تعجل شمران كي يجيب:

- تشــرفنا . . شـمران نزهــان الأحمـدي مـن بعقوبــة . . چــنت أحــاول أقـرأ لافتــات الجماعــات الموجــودة هنــا!

و يقاطعه الحسني بفكرة لم تخطر على باله سائلاً:

- چـنت تحاول تقرأ اللافتات حتى عن طريقهه تندل جماعة بعقوبة؟

- بالحقيقة آني ما أدري إذا چـانو أهل بعـگوبة جايين لو ما جايين! . .

- لعـد چــنت تقـرأ اللافتــات و إحتمــال جــاي تــدَوِّر علــى لافتــات لحـزب البعــث . . مــو؟ . .

- و لو ما چـان هذا قصدي . . بس أريد أعرف قصدك!

- أقصـد . . اللافتـات اللـــي جـاي تشـوفهه حتـى لـو مــا كاتبيـن إسـم الحـزب

عليها . . هيانهه صارخة هي مال الشيوعيين! . . كل اللافتات الموجودة هسة بملعب الشعب هي ما الشيوعيين!

- معقولة!

- معقولة و نص! . . يابه أگص إيدَيَّ هذني الإثنين هسه أمامك إذا لگيت هنا لافتة واحدة لحزب البعث ترحب بهذي الجبهة اللي وقعوهه . . و أگص إيدَيَّ الإثنين . . لا يابه! . . شنو أگص إيديَّ؟ . . لا! . . و أگص وياهن حتى زِبِّي إذا لگيت لافتة واحدة لحزب البعث!

و يخفق شمران بكتمان ضحكة مسموعة خرجت رغماً عنه بقهقهة ضاعت مع صوت دلال شمالي، فذكرته بتعبيرات . . شلة المثقفين . . الداعرة، و إسترسل الحسني معلقاً:

- ها! . . تضحك؟ . . لعد راح أعيدهه حتى تضحك أكثر . . أگص إيدي ثنيناتهن و أگص وَياهن زِبِّي إذا لِگيت بهالمِسيِّة بعثي واحد بالملعب عدا ذولاك . . چم واحد الإمن اللي بالمقصورة . . و إحتمال خاتل واحد أو إثنين أمن بين كل جماعة من هذي المجموعات . . عيني أستاذ شمران . . هذوله اللي جاي تشوفهم بالملعب هسه كلهم شيوعيين! . . هذوله هنا القريبين على هذا المدرج هم جماعة النجف. . ذولاك اللي هناك أقصد اللمة الچبيرة و وَياهم هواي بنات جايين من الحلة. . و اللمة اللي بعدهم البصرة . . و اللي بعدهم كربلاء . . و ذيچ من الناصرية و الحبل على الجرار!

و يستغرب حمدان لأن ما قاله الحسني لم يخطر على باله قط، و قد يكون صحيحاً، فسأله:

- و هذا شنو معناه؟

- رفيقي!

- أرجوك . . آني لم أعد رفيقاً في حزب! . . أي حزب!

- آني همين لم أعد رفيقاً في حزب!

- تشرفنا!

- . . هذا . . يا سيد شمران . . معناه . . هذوله الشيوعيين بعدهم ناس . . كمش على الطوفة![55] و آني واحد منهم طبعا شما حاولت أگول العكس! . . و ما أريد أتجاوز عليك و أگول إحتمال إنت همين منهم!

- و هذا شنو يعني؟

- يعني؟ . . يعني هذا فخ! . . آني ما أريد أگول راح ينبط أفادي . . و لا أريد أگول روحي راح تطگ طگاگ! . . تدري ليش؟

- ليش؟ . .

- لأن أفادي هو إنبط فعلا! . . و روحي خلاص طگت طگاگ! . . أريد أحد هنا أحچيله المصيبة اللي إحنه بيهه هنا و ويانه كل ذوله الغشمة اللي بالملعب. . أريد أحد أفضفضله! . . و إنتَ اللي وگعت جدامي! . . لأن هذا الحچي اللي سمعته مني لو أروح و أگوله لأي واحد من أهل النجف اللي گاعدين على المدرجات هنا راح يصير طشارهم ماله والي!

- هذا شي مخيف فعلاً!

- بس إنتَ ما گِلتلي وين جماعة بعقوبة!

---

55 «كمش على الطوفة» تعبير يستعمله المطيرچية العراقيين و يقصد به الطير الذي يضيّع داره فيقف على طوفة أي سطح من سطوح المنازل يرى عليه طيورا محتارا في وجهته و في خضم حيرته يتقدم المطيرچي الذي وقف الطير على طوفة سطحه و يمسك به أسيراً عنده لغاية أن يأتي صاحب الطير الأصلي مساوماً على إسترجاعه و «الطوفة» من «طوف» و هو حائط سطح الدار. و التعبير يستعمله العامة ليقصدوا به أن الشخص غشيم و يمكن إصطياده بسهولة!

- ما أدري! . . في الواقع لا شفتهم و لا دَوَّرِت عليهم! . . و لا آني على موعد وياهم و ما أدري همه جايين لو ما جايين!

- و لعلمك . . تشوف هذوله المصورين المنتشرين؟ قرب كل جماعة أكو واحد منهم!

يتلفت شمران ليرى وميض فلاشات الكاميرات الذي لم ينقطع منذ دخل هو الملعب، فيسأل:

- إي؟

- هذوله حبيبي كلهم مصوري أمن . . و إذا مو كلهم فأغلبهم!

و يمر بخاطر شمران . . إحتمال أن يكون الرجل مبالغاً. و لكن وصف الرجل لما يراه في الملعب يكاد أن يكون مطابقاً للواقع، و لم يتح الرجلُ لشمران وقتاً لمزيدٍ من التحليل، فأضاف:

- شوف! . . آني حالي حال غيري بالنجف اللي وِگَع تنظيمهم بشباط الأغبر بتلاثة و ستين! . . بس مع مزية!

- شنو هالمزية؟

- آني أحد الناجين من قطار الموت . . سمعت بهذا القطار؟

- طبعاً!

- بس هسه مالي علاقة بالحزب.

- لعد هذي جيتك هنا هالليلة شنو! . . حنين؟

- خلينه نگولهه هيچ . . حنين! . . و لعلمك ما أحد من أهل النجف گَللي عن هذا الإحتفال . . آني سمعت به و جيت هيچ! . . جيت على رسلي حتى أتفرج! . . و حتى بعدين لا أندم على شي فاتني!

- تقريباً نفس الغرض اللي جابني!

- بإعتقادك إشگد عددهم ذوله اللي على المدرجات؟

مع أن شمران هو نفسه تفاجأ بعد دخوله الملعب، و حاول تقدير عددهم، سيفضّل ألا يجيب بغير:

- ما أدري؟ . . آني مو أسطة بحساب من هالنوع!

- إشگد يعني؟ . . ألفين؟ . . ثلاث آلاف؟ . . أربعة؟ . . يابه روح خمسة! . . هذوله اللي أمامك على المدرجات هم كل القوة العددية التنظيمية للحزب الشيوعي . . و ها هو الحزب يكشفهه هيچ على العلن بهالطريقة المجانية. . و عليك أن تقدر النتائج اللي جايه بعد ما أدري چم شهر لو چم سنة . . خصوصا و مثل ما گلت إنتَ . . و هالمرة الواوي البعثي صار ويوي!

كلامُ الرجلِ فيه منطق مفحم . . لم يعلق شمران، و لكن الرجل أضاف كمن في قلبه لوعة:

- . . مو گلتلك . . ناس كمش على الطوفة! . . أحسبلك المرات اللي إنكمشنا بيهه على الطوفة؟ . . وآخرها چانت ويه عبد الكريم قاسم . . و هذوله چم دوب راح يظلون كمش على الطوفة؟

و يظل شمران محتاراً لا يعلِّق بشئ متواصلاً مع الحسني، و يسمعه يضيف:

- شوف مثلا . . صحيح أكو جماعة من أهل النجف يعرفوني . . و إحتمال متفاجئين بوجودي هنا و مستغربين . . بس شوف ذولاك الشباب الإثنين بالصف الأمامي . . اللي ترتيبهم رابع و خامس من جهة اليمين؟

يتطلع شمران الى المدرجات و يستفسر:

- إي شبيهم؟
- هذوله ضبعين بوسط الجماعة!
- ضبعين؟
- إي!
- شلون؟ . . تقصد إحتمال يكونون رجال أمن مندسين و الجماعة ما يعرفون بيهم!
- لا مو أفراد أمن مندسين . . هذولة الإثنين بحزب الدعاة الإسلامي . . و آني أعرفهم بهذا الحزب لأن واحد منهم ما چان يدري آني شيوعي سابقاً . . و شافني أتردد على الحضرة العلوية . . عادة قديمة! . . يجوز لقبي الحسني هو اللي غشهم و أغراهم!
- إحتمال!
- آني راح أموت من القهر . . أريد أعرف هذولة الإثنين الدعوچية شنو جايين ويه هاللمة اليسارية؟ . . يعني جايين حتى يحتفلون بجبهة بين بعثيين و شيوعيين . . و هم ما يحبون لا البعثية و لا الشيوعية و يسمون الطرفين كفار!
- عجيب فعلا!
- و آني بس أريد أعرف هذولة النجفيين اللي هنا يعرفون بهذولة الإثنين دعوچية لو ما يعرفون؟
- فعلا . . هذا همين شي مُحيِّر!
- شفت؟ . . إذا تدري مصيبة . . و إذا ما تدري مصيبتين! . . لنفترض

مـا يعرفـون بيهـم . . شـلون يجـون و بيناتهـم نـاس مـا يعرفوهـم؟

- فعـلا! . . نخلـي هـذا الفـرض لـو چـانو مـا يـدرون بيهـم . . و إذا چـانوا يـدرون؟

- إذا چـانو يـدرون بيهـم . . معقولـة يجـون إثنيـن دعوچـية يشـاركون بمثـل هالإحتفـال و إحنـه نـدري هالأيـام أكـو بيـن الدعوچـية و بيـن البعثييـن ملحمـة دم! . . و بالـذات علـى موضـوع الهريسـة و اللطـم لأن ممنوعـات بأمـر البعـث . . و ملحمـة أخـرى بيناتهـم علمـود رجـل ديـن إيرانـي . . و مـا أدري إنـت تعرفـه لـو مـا تعرفـه!

- منو؟

- الخميني اللي بالنجف!

- لا . . ما سامع بيه! . . بس يبدو مثل ما تـگول!

- و ليـش مـا نخلـي إحتمـال هذولـة الإثنيـن هـم بنفـس الوقـت رجـال أمـن و دعـوچـية ! . . و بالحالتيـن هُمَّ ضبـاع!

- إحتمال مو بعيد!

- هـا شنو رايك هسـه؟ . . هذولـه نـاس اللـي بالملعـب كمـش لـو مـو كمـش علـى الطوفـة؟

شمران يستغرق بضحكـة طويلـة . . و فـي هـذه الأثنـاء، ينقطـع صـوت دلال شمالي، و صـوت مذيـع يعلـن عـن بـدء برنـامج الإحتفـال بكلمـة يلقيهـا ممثـل حـزب البعـث، فعلـق الحسـني و كأنـه يريـد ختـام حديثـه:

- و لإحتمـال إنتـو مـا أحـد مـن هذولـه الدعوچـية عايـش بيناتكـم . . أريـدك تعـرف . تراهـم هذولـه إذا لزمـو سـلطة بإيديناتهـم راح تشـوف شـيجري علـى النـاس!

- يا سلام! . . أكو إحتمال هذولة الدعوچية يلزمون سلطة؟

- شنو المانع! . . هذوله اللي عددهم چم بعثي مو أكثر مو لزمو سلطة!

- يا للهول! . . يعني تقصد البعث ورانه الدعوچية راح نلگاهم أمامنا ؟

- شنو المانع يكونون أمامنا . . لا بد أن يكون لهم دور في مسرحية قادمة . . الناس اللي بإيدهم خيوط اللعب لا بد راح ينطون دور لهذوله الدعوچية . . هذا اللي أتوقعه! . . بس شوكت راح يطلع بطل المسرحية منهم؟ . . الله أعلم!

- هذا تصورك للوضع؟

- إي! . . جماعة هذوله الضبعين راح نلگاهم على السچة . . بعد ما جاي دورهم! . . و إنت جاي تشوف بعينك . . الجماعة راجعين للوراء للبعث و هسه تشوف بعدين نتائجهه و تتذكرني . . و إنت بنفسك گبل شويه گِلتهه . . هالمرة البعثيين ما جايين واوي جايين ويوي! . . تمام؟

- تقريبا تمام!

- و هسه الرفاق راجعين يشتغلون ويه البعث . . و إذا أدوار اللعبة إحتاجت يطلع بطل للمسرحية من الدعوچية راح نشوف مصيبتين مو مصيبة وحدة!

- زين و إحنه؟

- شبينه؟

- شوكت راح يجي دورنا باللعب؟

- ما راح يجي لنا أي دور! . . راح نظل كومبارس! . . و طويل عمر

و تشوف!

- ما يعني؟

- القومية ورانا و الدين راح نلگاه أمامنه! . . و إثنيهن شينات . . بس آني أستغرب!

- منيش؟

- إنت يا ماركس! . . مو إنت فيلسوف و عالم إقتصاد و رجل عاقل حچيت عدل بأولهه من گِلت . . الدين أفيون الشعوب . . شجاك بويه و خليتلهه تعلاگه وراهه و گِلت . . إنه صرخة المستغيث! . . بويه صرخة يا مستغيث هاذي؟ . . صرخة هذوله المعممين اللي جاي يجمعون نوطات أمهات الخمسة الحُمُر اللي تشمرهن أمك الزايرة لو أمي الزايرة بقفص العباس أو الحسين أو علي و ياخذوه للفلوس بالآلاف و ما أدري وين يودهه؟

يا للمفارقة! . . ها هو شمران يتكرر على مسامعه ما قاله أبو ذر رفيق السجن يوما و كأنه شريط يعيده وسيم الحسني مضيفا:

- . . البعثيين يگولون علينه شعوبيين و الدعوچية يگولون علينا ملحدين . . و راح نظل منين ما نلتفت تجينه الهراوات!

و يريد شمران أن يعقب مضيفا . . و الأممية تعثرت أيضا أمامنا على يد البطل ستالين و شگت هواية بطون لو ما دورها في إسقاط النازية ينقذ سمعتهه! . . لكنه أحجم . . و يسمع الحسني يكمل:

- و على هذا الأساس راح يظلون يخَللون شگ بطوننا!

- أين المفر؟

- لا مفر! . . و لعلمك إحنه النجفيين عندنا مثل مشهور . . من واحد

من عندنا يسألوه . . شلونك فلان؟ . . يرد يگول . . ماشين بالزَلَگ!

- ما يعني؟

- إحنه ماشين بهالزَلَگ! . . هذا اللي جاي تشوفه أمامك بالملعب . . كله زَلَگ بزَلَگ! . . و حتى لا تنطگ حوصلتي لو تنمرد چلوتي زيادة راح أغادر . . فرصة سعيد!

- فرصة سعيدة!

يبتسمان لبعضهما إبتسامة الحيارى و يتصافحان بقوة . . و يستأذن الحسني من الأحمدي مغادراً، و لم يرجع وسيم الحسني الى المدرجات التي كان عليها أهل النجف الذين راحوا هم و جمهور المجموعات الأخرى يصفقون لما يطلقه نعيم حداد ممثل البعث في كلمته من شعارات واعدة بمستقبل أفضل .

مشيِّعاً وسيم و هو يجتاز باب الملعب . . سرح شمران بنظره . . ها هو واحدٌ آخر يعيش وجوديته على التخوم! . . و بسرحانه بأفكاره، لم يُعطِ أذنيه لما كان يقوله ممثل البعث في كلمته . . عصابة من المنحلين تحولت بقدرة قادر . . أجل بقدرة قادر! . . يا للقطارات الأمريكية و يا لدباباتها! . . منظمة تقود حزبا يرسم سياسة البلد . . صدام و طالب بن ماهية و جبار الكردي و سعدون شاكر و كان معهم ناظم گزار . . ما هذا التاريخ الأرعن؟ . . و إذا صدقت نبوءة وسيم الحسني ستأتي ثلة من العصابة الدَعوَچية المسلمين يوما ما بالإسلوب نفسه و تتسلل بقدرة قادر . . دجل القومية و دجل الدين! . . و هذا ما حصل و يحصل و سيحصل في كل الأزمان . . لا بد من وجود قادرٍ من نوع ما! . . ما الذي جعله يتذكر ورقة بن نوفل؟ . . من هو هذا القادر الذي يرتب أمور العرض و يُخرج بطلاً للمسرحية يصفق له الجمهور الجاهل و ينجرف وراء مطلقاته؟ . . لا أحد يدري من ذا يأخذ بألبابِ جمهورٍ مهووسٍ بالأجداد! . . و بالجريمة! . . و بالسرقة! . . و بالسيف البتار! . . مستغيث موهوم من نوع ما! . .

أكاذيب يزيّنُـها الكتـاب و يضفـون عليهـا مـن الجمـال مـا شـاؤوا! . . ثم تذكر قـول فردريك هيغل و مـا أكثـر مـا يتذكـره! . . التاريـخ أغلبـه ظـن و مـا تبقـى هـو مـن إمـلاء الهـوى! . . مـن الـذي سيشيع العدالـة بيـن النـاس؟ . . خطـر في بالـه أنـه بمجـرد عودتـه الـى بعقوبـة سيعيد قـراءة كتـاب ميكافيللـي . . الأمير . . مـرة أخـرى . . لمـاذا يشتم النـاس ميكافيللـي؟ . . عجيـب! . . ألِأنـه وصـف مـزاج العـوام و مـزاج الحـكام و حـاول التوفيـق فيمـا بيـن المزاجيـن؟ . . و مـا يـدور أمامـه لا يختلـف بالمـرة عمـا دار أيـام ميكافيللـي! . . بـل و حتـى قبـل ميكافيلـي بـآلاف الأعـوام بعـد أن إنفـرط عقد مـا سـماه ماركـس المشـاعية البدائيـة . . أكان هـذا حـال ثـورة أكتوبـر؟ . . منطـقٌ يـا سـيوف خذينـي! . . و منطـقٌ مـن ينبـت فـي عانتـه شـعرٌ أقتلـوه . . و منطـقٌ . . و الله سـأجري مـن دمـاء هـؤلاء الكفـار نهـراً . . و منطـقٌ . . حجـب المـاء عـن السـاقية كـي يجـري فيهـا دم المقتوليـن . . و بعـد جـزِّ المئـات مـن رقـاب الكفـار جَـزِع القعقـاع بـن عمـرو و هـو يتفـرج علـى كثـرة المقتلـة و رؤيـة الـدم يسـيح و تمتصـه الأرض و لا تتركـه يجـري نهـراً . . أجَـزِعَ حقـاً؟ . . القعقـاع مشـهورٌ انـه لا يذهـب الـى سـاحة الحـرب إلا مخمـوراً . . لِـمَ يذهـب مخمـوراً و هـو فـي سـاحة الوغـى لنشـر ديـن الله الـذي يحـرم الخمـر؟ . . هـا نحـن قـد علمنـا أن الخمـر مسـموح بهـا للمجاهديـن فـي سـبيل الله! . . لِمَ جَـزِع؟ . . ألأنـه ربمـا كان مخمـورا فـَجزِع؟ . . . فجـزع القعقـاع بـن عمـرو مـن الـدم المُسيِّـح . . و جـزع السـيّافُ أو ربمـا تـَعِبَ مـن الذبـح و قطـع الرقـاب فـأراد أن يسـتريح هـو الآخـر مثلمـا إسـتراح خالـق الكـون فـي اليـوم السـابع مـن الخلـق؟ . . و لكـي تتحقـق رغبـة القعقـاع . . نصـح السـيّافُ القائـلَ المُـقسِمَ بـأن يُـجري مـن دمهـم نهـراً أن يطلـق المـاء فـوق الـدم فيتلـون! . . يـا للحيلـة مـن تحريـرِ ذبّـاحٍ مـن قسـمه! . . أصحيـح أن ضحايـا جنكيزخـان بلغـوا أربعيـن مليونـا؟ . . أصحيـح أن الكاثوليك قتلـوا فـي يـوم واحـد عشـرة آلاف مـن بروتسـتانت باريـس فـي زمـن شـارل؟ . . أي شـارل منهـم فهـم كُثُـرُ! . . بـل أي شـارل أو لويـس! . . و أي جـاك أو جـون! . . و أي أودولـف أو فردريك! . . و أيَ حجـاج أو أبـو العبـاس! . . و أي مختـار أو بتـار! . . و أي إيفـان أو جوزيـف! . . و أي تشـن أو تشـي! . . و أي سنغ أو راج! . . و أي فردنانـد أو خوليـو! . . . و أي

روبرتو أو ألبرتو! . . و أي رستم أو أردشير! . . و أي هشيار أو جوتيار! . . أيهم؟ . . طززززززززززززز! . . فهم كُثُرُ! . . و تذكر أغنية أم كلثوم فحاول أن يلحنها في داخله صرخة تكون صنواً للحن العبارة في أغنية أم كلثوم . . أيييييُههُممووو؟ . . فَهُموووووو كُثثثُرُ!

و تقع عينا شمران صدفة و لا شعوريا على من أشار إليهما وسيم الحسني الضبعين الدعوچية جالسين على المدرج . . فيصحو من غفلته عما يدور من حوله. . ألقى نظرة أخرى على الضبعين، فإكتشف هذه المرة أن أحدهما أشقرٌ الى حد البَرَشِ و الآخرُ أسمرٌ الى حدِّ التَفحُمِ . . عجيب! . . أبين الضباع من لا يشبه بعضه بعضا! . . و وصله صوت مذيع الحفل يعلن عن كلمة الحزب الشيوعي يلقيها كريم أحمد . . ما الذي سيقوله كريم أحمد غير تكرار للشعارات التي أطلقها البعثي من قبله و لكنها معادةَ بصياغات بلاغية أمية و بترتيبٍ جديدٍ؟ . . لا أكثر! . . يا للإبداع! . . ثم ألقى نظرة بانورامية أخيرة على مدرجات الملعب، و الجمهور الصغير الضائع فوقها، يصفق مرحباً بالخطيب القادم، باذلين جهداً دون جدوى لإيصال صراخهم الترحيبي للخطيب! . . ليس ثمة من صوت مجلجل!

و يدور في خاطره . . يا للغباء! . .

و هكذا سيغسل الشوعيون القذارة التي لَطَّخَت جبين البعثيين لعقد من الزمان! . .

يا لخسارة الدماء التي سالت!

و سرعان ما سيحرر شمران ظهره من سندهِ على السياج الحديدي الذي وراءه، و يتحرك نحو باب الملعب. . . حين غادر الباب الخارجي للمدرجات كان صوت كريم أحمد ينتشر عبر مكبرات الصوت . . يا جماهير شعبنا المناضل!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

الليلة تقترب من منتصفها عند وصوله بعقوبة . . في البيت صعد الى سطح المنزل. أول ما إستقبله، في ظلام ليلة غاب عنها القمر . . بعد زواجه صار الأمر عنده سيان يتذكر خولة و نهدي خولة إذا طلع القمر او غاب! . . أكان هذا بتأثير قصيدة أراغون . . عيون إلزا! . . نهدا خولة! . . غطيطُ زوجته يشير الى نوم عميق، فآوى الى السرير الى جانبها فورا، و راح يتفرج على النجوم المتناثرة في أعماق الكون، مستعيدا حديثه مع وسيم الحسني . . مشهد الملعب . . الجمهور . . و ميض فلاشات الكاميرات تصور هنا و هناك . . صوت نعيم حداد الواثق . . صوت كريم احمد الراجف . . و بات ليلته يتقلب في فراشه، و نوبات النوم القصيرة التي كانت تغشاه بين نوبتي صحو و صحو، كان يرى فيها كوابيس إنعكاسات سريالية لما رآه قبل ساعات في ملعب الشعب . . الجراد يغطي الملعب بألوان زاهية تخلُبَ اللـُّبِ . . الضبعان النجفيان الأشقر و الأسمر بهيئة جرادتين يتوسطان غيمة الجراد االتي تغطي الملعب. . يسحب الضبع الجرادة الأشقر نصف غيمة الجراد الملوَّن و ينتزع وسيم الحسني من على المدرج من بين الجمهور و الجموع على المدرج تصيح به . . ملعون عبالك تفلت! . . ها! . . ها! . . هاي شنو؟ . . هذا آني! . . و هو في مكانه عائما في الفراغ، ها هو شمران يرى نفسه و كأن شطراً آخرَ من وجوده تحمله نصف غيمة الجراد الأخرى يتوسطها الضبع النجفي الآخر الأسمر مُكشِّراً عن أنيابه و ألوانه تتغير مثلما تتغير أضوية نشرات النيون في الإحتفالات . . و يروح شطر شمران العائم يتفرج على شطره المحمول . . و مع أنه ما عاد يرى سربَ الجراد الذي يحمل وسيم لكنه يصرخ من شطره المحمول لا من شطره العائم، ليسأ وسيم . . ولك وسيم هذوله وين رايحين بينه؟ . . ما من مجيب! . . ثم سرعان ما سيرى شطر نفسه المتلبثة في مكان ما تسبح في أثير بارد، فيقشَعِرُّ جسمُه و يندمج شطره العائم مع شطر نفسه المحمول، فيلتفت الى الخلف . . ها! . . هاي شنو؟ . . و يصرخ . . يا ضبع يا نجفي يا أشگر گوللي . . هاي وين رايحين بينه؟ . . و يجيب أحد الضبعين مكشراً عن أنيابٍ جراديةٍ ضائعةٍ في لحية كثة و بصوت

يخرج مضخماً و كأنه صادرٌ من آلة كبيرة خلف طرة جبهتيهما السوداء . . موديك لجهنم! . . و يردد الآخر بصوت مثله . . نوديك لجهنم! . . و يحاول شمران أن يرد بلغة غريبة غير مفهومة، و مهما حاولَ لا صوت يفلت منه مطلقاً الى أي مكان و تغور الكلمات في داخله . .

و يصحو على صوت زوجته:

- بسم الله الرحمن الرحيم . . بسم الله الرحمن الرحيم! . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . يا ساتر! . . بسم الله الرحمن الرحيم . . هاي شبيك؟ . . شبيك تصرخ بنومك . . جهنم جهنم جهنم! . . جراد جراد جراد! . . وسيم وسيم وسيم! . . هذا هو اللي يجينه من السياسة!

محاولاً أن يصحو من كابوسه، بإنتباهه لزوجته تصيح . . يا ساتر! . . يتطلع الى وجهها على ضوء النجوم، فتذكر كلمات الحسني . . ماشين بگاع زَلَگْ! . . لا! . . و أي زَلَگ! . . و أراد أن يكذب أحدوثتها، فصرخ بها:

- شنو هالنوم إلزَلَگ! . . و لچ يا جهنم؟ . . يا جراد؟ . . يا وسيم؟ . . إنتِ تحلمين؟ . . أرجعي نامي!

- ياه! . . إسم الله عيني! . . لا ما أنام بعد! . . هذا مو صوت سيد عبد الكريم يگول الله أكبر! . . أگوم أصلي!

و تغادر سعدية السرير . . و سيلعن شمران في سره الزنگناوي و مسرحيته عن الجراد التي غار جرادها لكثرته في أعماق لا شعوره و طفح في أحلامه هذه الليلة!

بعد ساعة أو أكثر . . و قد إنتهى للتو من طقوس نهوضه من السرير . . وضع في جهاز الستيريو شريط سمفونية بيتهوفن التاسعة، و راحت أنغام الموسيق بأعلى صوتٍ تملأ جو البيت لتغطي في داخله على آثار الكوابيس التي غشِيَتْهُ ليلاً . ألعن الجراد و أبو الجراد و أبو الزنگناوي

اللـي خلانـي أقرأ و أكتب عن الجراد! . . و راح ينشغل بحلاقته و نظافته . . ينتهي من حلاقته و يتعطّر، دخل المطبخ و جلس الى مائدة الإفطار.

الزوجة إنتهت للتو من إعداد مائدة الفطور، فقالت:

- أوف! . . هم حطيت عِطر من هذي الشيشة الزرگة! . . ثم إنت ليش ما تنطينه يوم صبحية راحة؟ . . كل يوم تگرِّع راسي بطرگعة هالموسيقى!

- يا طولة بالي! . . .إنتِ مو گعدتي و صليتي و قريتي قرآنچ . . و ما أحد إعترض! . . آني مو گايلچ مية مرة ذيچ صلاتچ و آني هذي صلاتي! . . لكن يظهر حچينه يروح ويه ماي الشاخة! . . گوليلي؟ . . إنتِ شلون مدرِّسة رياضة! . . الرياضة مثل الرقص نصها موسيقى و الباقي حركات تتجاوب ويه موسيقى كونية صامتة . . أصلاً آني من أحضر مبارياتكم و أتفرج على بعض اللاعبين أحس و كأن أنغام موسيقى ترن هنا براسي ويه حركات اللاعبين!

- آها! . . أيباخ! . . تشوف لاعبين بس!

- يابه يلله . . لاعبين و لاعبات! . . و لعلمچ آني حتى أحيانا أحس و كأن اللاعبة أو اللاعب . . يحاول يخلينه نعتقد كأنه يكتب قصيدة شعر بحركاته!

- أيباخ . . هالدورة كتابة قصائد بحركات الرياضة!

سمعان رنين جرس التلفون، فينهض من مائدة الفطور الصباحي للتخلص من سماجة الحديث، و تعلق سعدية:

ياساتر! . . هذا منو من الصبح؟

متحركاً بإتجاه جهاز التلفون الموضوع على دولاب المطبخ، يعقِّبَ على

مـا قالتـه:

- ليش يـا سـاتر؟ . . يـا طولـة بالـي! . . شـوفي هـذا الفرق بين الموسيقى و القـرآن اللـي تقريـن إنـتِ بـه بعـد الصـلاة . . رنـة جـرس تلفـون مـن أسـمعهه الصبـح . . الموسيقى تخلينـي أگـول . . عسـى اللـي جـاي خبـر حلـو! . . و اللـي تقريهـن إنـتِ يخلـنـچ تگـولين . . يـا سـاتر أسـتر! . . هذا هـو الفـرق.

يرفـع شـمران سـماعة التلفـون لكـي يـرد . . فـي الجانـب الآخـر جبـار النـداف يبلغـه عـن إجتمـاع عاجـل مسـاءً للجنـة التنفيذيـة للشبيبة لتقريـر أمـر مهـم.

واضعـاً سـماعة التلفـون . ؛ تـاه بإسـترجاع حديثـه مـع وسـيم الحسـني . . الكوابيـس . . الجـراد . . الضبـاع . . الأحـداث تتسـارع، أقلهـا بتعرجـاتٍ منظـورةٍ، و أغلبهـا بتعرجـاتٍ غيـر منظـورةٍ، مفهومـة و غيـر مفهومـة. و مـع ذلـك خطـر ببالـه . . لا فُـضَّ فُـوهُ مـن قـال يومـا . . خليك ورا العيَّـار لبـاب الـدار! . . كان علـى شـمران أن يكـون وراء عيَّـارين إثنيـن لا عيَّـاراً واحـداً! . . عيَّـارٌ فـي داخلـه و آخـرُ فـي نفسِ الآخـرِ أيـاً كان! . . و مـن متطلبـات مـا جـاءه فـي المكالمـة الـواردة عليـه أن يُبلـغ رزوقـي القيسـي و مصطفـى الديـو، فأبلغهمـا عنـد عودتـه مـن المدرسـة بعـد الظهـر. و تقـرر مـكان الإجتمـاع ليكـون فـي بيـت مصطفـى الديـو فـي طـرف سـاحة العنافصـة.

تلتئـم اللجنـة المحليـة للشـبيبة مسـاءً بوجـود جبـار النـداف، و يبلغهـم جبـار النـداف بضـرورة مشـاركة شـباب ديالـى فـي مهرجـان الشـباب الديمقراطـي العالمـي القـادم فـي برليـن الشـرقية مـن 28 تمـوز و لغايـة 8 آب 1973، و يبلغهـم أيضـا بطلـب المكتـب التنفيـذي فـي بغـداد ترشـيح حامـد الديـن الزنـگـناوي ليمثـل شـباب ديالـى فـي برليـن.

ظـل أعضـاء اللجنـة ينظـرون لثـوان الـى النـداف، ثـم لبعضهـم البعـض. يتطلعـون أحدُهـم الـى الآخـر لمـدة دقيقة علـى الأقل و النـداف ينتظـر. يحاولـون هضـم ترشـيح الزنـگـناوي و تفسـيره و هـو ليـس عضـواً فـي المنظمـة، و

كأن أي من الثلاثة يحاول أن يجد عند الإثنين الآخرين مبادرة للسؤال أو التفسير! . . أول ردة فعل ستجيئ من شمران.

شمران يعلم برأي رزوقي القيسي تفضيله البقاء على التخوم بعدم الإنخراط في السياسة! . . لكن وضع مصطفى الديو كان مختلفا. الديو عضوٌ في الحزب، و رياضيٌّ معروفٌ على مستوى المحافظة، لقيادته للفريق الأهلي لكرة القدم، أقوى فرق بعقوبة، و الفريق يسمونه . . الفريق الأحمر . . و لم تأتِ صفته هذه عبثا، لأن ميول أغلب أعضائه نحو اليسار . . و ها هو شمران يتطلع الى الديو بهدوئه و كياسته و دماثة خلقه الطاغية، و هي مزايا كانت مصدر جذب للشباب، نحوه شخصياً و نحو فريقه و نحو تجمع اليسار في مقهى جبارة المعيدي في العنافصة . . و يظلُّ السكونُ مخيماً على جو الإجتماع لمدة بدت أطول من دقيقة . . جبار النداف ينتظر، و كأنه هو نفسه لا يجد ما طرحه معقولاً، فظل صامتاً . . لِمَ الزنگناوي؟ . . و خلال مدة الصمت إنشغل شمران بإيجاد مدخلٍ لمناقشة الموضوع محاولا وضعِ رأيه بترشيح الزنگناوي بالفلسفة المطلوبة . . أيحاول الحزبيون جرَّ الشباب لمبدأ . . نفِّذْ و ناقشْ . . و يمطوا إستعمال هذا المبدأ لتطبيه في ساحة ليس من مصلحتهم أن يجرّوه إليها؟ . . فقال مخاطبا النداف:

- أستاذ جبار . . أولا إحنه منظمة أسمها يحمل توصيف لا حزبي . . و هذا ضمنا يعني إن كل شي هنا خاضع للنقاش و القناعة و ربما التصويت قبل التنفيذ . . لو إنتو شايفين الوضع شوفه ما نعرفهه إحنه؟

يرد النداف:

- هذا هو المفروض . . و هو الصحيح!

و يعقب شمران:

- زين! . . و ثانيا نريد نعرف منو اللي رشح الزنـگـناوي؟

- حتماً أكو جهة سمـّته و رشحته!

- منو رشحه الحزب لو منظمة الشبيبة في بغداد؟

بطرحـه مثـل هـذا السـؤال . . هـا هـو شـمران يـدرك بعـد فـوات الآوان مقـدار غبـاء سـؤاله، لأنـه يعلـم بـأن المسـؤول عـن منظمـة الشـبيبة هنـاك فـي الرأس و بالتالـي لا بـد أن يكـون حزبيـاً قياديـا مـن كادر متقـدم . . أيـة تخـوم يـا هـذا؟ . . و أيـن هـو البيـن بيـن؟ . . فعـدّل مـن وضـع سـؤاله مضيفـاً:

- أقصد ترشيحه جا من بعقوبة لو من بغداد؟

- هذي ما أعرفها!

- زين! . . رشحوه على يا أساس؟

- على أساس هو كاتب و فنان مثقف معروف و متعاطف معَ . .

مفـردة متعاطـف ذكـرت شـمران فـورا بقـول الزنــگــناوي لـه بالكورديـة تلـك العبـارة . . روح إشـبع ضـراط بهذولـة الشـعراء و الفنانيـن الزغـار! . . فأراد أن يطلـع المجتمعيـن علـى رأي الزنــگــناوي، و لأن الزنــگــناوي كـان صديقه، قـرر ألا يتطـرق لهـذا الموضـوع، و أن يتمسـك بحجـة أقـوى لمعارضـة الترشـيح، فإسـتدرك مقاطعـا النـداف:

- مع من؟

- مع الشباب و فعالياتهم!

- و على يا أساس؟

- يعتقـدون أن الزنــگــناوي هـو أحـد أفضـل مـن يعكـس تطلعـات شـباب العـراق!

يسود الصمت مرة أخرى لثوان بدت طويلة . . و تذكر شمران حيدر المندلاوي الفيلي بائع اللنگات و صرخته . . مزبووووووووووووووت! . . يطلقها حيدر حين يرى وضعا مائلا أو يسمع قولا مائلا. و سيجول في بال الناشط على التخوم . . ها هم يصنعون وثناً صغيراً . . و سرعان ما سيصدِّق الوثنُ الصغيرُ بمرور الأيام أنه رب كبيرٌ! . . ما هذا الإختلاق؟ . . و أين الأخلاق! . . و ها هو شمران يدرك أنه لكي يضع الأمور في نصاب يجعل المقابل يقتنع برأيه عليه أولاً أن يضحي بفرصته بالترشح و يقبل في داخله خسارته لترشيح نفسه . . الإنتصار على الذات! . . و ألا يطالب بالترشيح لنفسه، فرأى أن يُعقِّبَ قائلا:

- عيني أستاذ جبار . . يابه أريدكم تنسون كل المخاطر اللي أتعرضلهه آني شخصيا بروحاتي للهويدر في بستان طارق الطيار حتى أشوف الشباب اللي هناك . . و روحاتي لبهرز ببستان كامل مصطفى حتى أشوف الشباب المبدعين اللي هناك . . و روحاتي لشهربان للبستان اللي يودينه إلهه خالد حسين غفور لرعاية الفنانين الشباب اللي هناك . . و روحاتي لهنا و روحاتي لهناك بأماكن أخرى . . و حتى أحد لا يلگي ذريعة و يتهمني بأي طمع بالترشح . . لذا و قبل أن أدلي برأيي بترشيح الزنگناوي، أعلن تنازلي الشخصي مقدما عن ترشيح نفسي!

الندافُ محافظُ على صمته . . بوادر الإرتياح أعلنت عن نفسها على وجهي الديو و القيسي، و كأنهما أدركا ما يرمي إليه شمران. و لكي يضع الأمور في نصابها الصحيح دون المغالاة في وصف موقف الزنگناوي، سيتذكر شمران في الوقت نفسه ما تحدث به صباحاً لزوجته عن العلاقة بين الفن و الرياضة، فأضاف:

- أسبابي هي الآتية . . أولاً . . الزنگناوي أعلن أكثر من مرة تَرَفـُّعَه عن المشاركة بأي نشاط . . لأن هو شايف نفسه أكبر من هالملاعيب بحسب تسميته لنشاطات الشباب . . ثانياً . . فهل من المعقول و أنتو

تشوفون بعيونكم رزوقي القيسي خابص نفسه يروح لأبو صيدا و لشهربان و للخالص و للوجيهية و لما أدري وين بعد! . . معرِّض نفسه لكل أنواع المخاطر حتى ينظُّم شي ينفع رياضة الشباب . . و بعدين ما أحد يفكر يرشحه يروح لبرلين و يرشحون الزنگناوي!

الإرتياح صار أوضح على وجهي الديو و القيسي، و إكتسى وجه النداف بإبتسامة خفيفة جامدة، و هم يسمعون شمران يضيف:

- و تخيل أيضاً مصطفى الديو . . مصاحباً فريق الأهلي لكرة القدم و فرق لألعاب أخرى و ياخذ ويا شويه من جمهور الشباب من بعقوبة مشجعين لهذي الفرق . . حشد طاقات! . . و يروح يطوف المحافظات حتى يخوض مباريات ويه فرق شعبية أخرى حتى يعزز علاقة شبيبة ديالى بشبيبة محافظات أخرى . . متحمل كل أنواع المضايقات اللي تجي من البعثيين و من عصابة الأمن لأن همَّ يدرون هو دَيتحرك لصالح من . . و بالتالي ما يترشح مصطفى الديو الى مهرجان برلين! . . ثم يجينا واحد يگوللنا إحنا مطلوب منا . . أنظر الى الأسلوب! . . على طريقة . . نفِّذ ثم ناقش . . مطلووووب منااااااااااااااا نرشح الزنگناوي و هو ماله أي علاقة بالمنظمة لا من قريب و لا من بعيد! . . شتتصور؟ . .هذا معقول؟ . . شنو هالترهات؟

يرد النداف:

- بالتأكيد . . ما معقول!

- ليش؟ . . يعني جماعة المكتب التنفيذي في بغداد شمعتبرين الإنجاز اللي يجي من القيسي و من الديو؟ . . ماله علاقة بالفن و بالثقافة و الأدب؟ . . و شلون مفارقة! . . تدرون آني اليوم الصبح گِلتِلها لزوجتي آني لما أتفرج على لاعبات كرة السلة أو الطائرة أشوفهن بلعبهن عبالك لو جاي يكتبن قصيدة لو أتخيلهن جاي يعزفن قطعة موسيقى عذبة أثناء اللعب!

متذكِّرا عبارة أبيه قبل سنوات على سطح منزلهم القديم ليلاً و هو يجادله في موقفه من زواج خولة، وكان قد زاع للتو كل ما في جوفه بسبب العرق القچغ . . إبني لعد إنتو شلون شيوعيين؟

فخاطب شمران الديو و رزوقي، سائلاً:

- شتگولون شباب؟ . . كل هذا تعبكم و جهدكم وسط الشباب بعگوبة و شهربان و خانقين و الخالص و مندلي . . أقصد كل هذا التعب مال أبو كلاش الديمقراطي . . يريدون ينطونه لأبو جزمة الزنگناوي حتى ياكله ببلاش! . . ثم و بعدين ليش المركز في بغداد أو في بعگوبة شايفكم ما قادرين على عكس تطلعات الشباب بمهرجان عالمي! . . شوفوا المنطق الأعوج! . . لعد وين الديمقراطية؟

فيعلق القيسي فوراً:

- شمران . . إنت فعلاً سجلت عليهم فاول!

و يعقب الديو:

- و شلون فاول؟ . . پنالتي بإمتياز!

النداف ما يزال على إبتسامته الفاترة الجامدة . . إبتسامة معروف بها دائما لاعبو القمار لا غيرهم، و يرجع شمران يخاطبه:

- أستاذ جبار . . بالمناسبة . . إنتَ تدري الزنگناوي واحد من أقرب أصدقائي؟

- هذي حقيقة . . مو بس آني وحدي أعرفهه! . . بعگوبة كلها تدري . . و منو ما يعرف أبطال شلة المثقفين بمقهى مجيد محسن!

- إستاذ جبار . . إذن . . گوللهم للجماعة خلي يخلون الأمور في نصابها الصحيح . . و عيب عليهم يصدرون لنا أوامر حتى نوافق على ترشيح

باطل . . خو يبلغونا بترشيحهم للزنگناوي و يگولولنه ترى إحنه رشحنا الزنگناوي و إنتو جماعة بعگوبة لازم ترضون وتنچبون و تاكلون خرا! . . أستاذ النداف إحنه راح نظل بإنتظار الرد!

- الرد على الأغلب يجي باچر.

و ينفض الإجتماع.

في يوم تالٍ، سيُبلَّغ شمران أن المكتب التفيذي إستجاب لإعتراضهم على ترشيح حامد الدين الزنگناوي، و رَشَّحَوا بدلاً عنه ثامر الزيدي المسرحي البعقوبي المقيم في بغداد . . يا سلام! . . ها هم مصرون على خلق الأوثان! . . البشر في كل لحظة و دقيقة و ساعة يمتهنون خلق الأوثان و الآلهة و أنصاف الآلهة و أرباع الآلهة . . فن الإختلاق بارعون به حتى لو زعموا إيمانا بقول القائل أن الدين أفيون الشعوب!! . . مسرحي بعقوبي! . . عذرٌ أكبر من الذنب! . . و تذكر تلك الحكاية الشعبية الدارجة التي طلب فيها هارون الرشيد من البهلول أن يعطيه عذرا أكبر من الذنب، يُقال في الحكاية، فبعص البهلول الرشيدَ في مؤخرته و حين إلتفت إليه الخليفة مستنكرا رد البهلول . . العفو عبالي ست زبيدة! . . و ها هو شمران يضحك بمرارة، فهو يعرف ثامر الزيدي شخصياً قبل إنتقاله الى بغداد أيام كان داينمو فرقة مسرح بعقوبة للتمثيل . . مزبووووووووووووووووت! . . تيتي تيتي . . مثل ما رحتِي جيتي! . . و حليمة أبد ما تعوف عادتها القديمة! . . يلفون حول الخرائط لكي يختلقوا أصناماً! . . و سرعان ما أبلغ شمران عضوي اللجنة المحلية بإسم المرشح البديل، فأبديا إستغرابهما من إصرار المركز على ترشيح شخص لا علاقة له بمنظمتهما حتى و إن كان بعگوبيا قحاً

*****   *****   *****

موضوعان يتفاعلان في داخل شمران، ما دار في ملعب الشعب و موضوع الضباع من كل نوع. كلها تتفاعلُ في داخله على نحو منطقي و

بعيداً عن سيريالية كوابيسه . . قال شمران لنفسه . . ما يزال ثمة المزيد من الوقت يا ولد! . . يا ولد يا راغب بالبقاء على تخوم الخطر إعطهم وقتا كافيا! . . ثمة وقت يا ولد! . . و قت تظل فيه لاهثا وراء العيّار و وقت تكتشف فيه المزيد من الضباع و العيّارين! . . خليك يا ولد ورا العيّار لحد باب الدار!

الأحداث تتوالى . . .

مزيد من الأخبار عن تعثر حقيقي و خطِر في تطبيق إتفاقية آذار بين البعث و الكورد يترجمه ما يُبَيِّتُ من نوايا غير حسنة . . يا للعبة السياسة!

الشيوعيون في بعقوبة ينجحون بإستئجار بيت تعود ملكيته لخليل السامرائي في شارع الأطباء في بعقوبه ليكون مقراً لحزبهم.

و يذهب شمرن للتهنئة . .

و مثلما تفاجأ شمران من قبل بحقيقة كون فليح الجاسم زميله في المدرسة هو المسؤول البعثي الأول في ديالى، سيتفاجأ في مقر الحزب بأن حسين الجليلي، إن لم يكن الرجل الأول فهو كادر محلي مهم في الحزب . . و عبيد الصباغ عضوٌ فاعلٌ.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعودة الوفد العراقي المشترك الى مهرجان برلين . . حكايات عن سلوك البعثيين في المهرجان . . مضايقات مقصودة يدبرها البعثيون لغيرهم من الشباب هناك لغرض الإنفراد بالتمثيل . . اللعبة و المسرحية متواصلان بتوازٍ عجيب!

في بغداد . . أولى الإشاعات تظهر عن مجرم خطير من نوع يسمونه في الأفلام البوليسية بالقاتل المتسلسل . . يجوب في ظلماء ليالي بغداد.

يقتل و يترك بصمة معينة. و سيسمونه بها أبو طبر!

أنباء عن أستئجار بيت في الكرادة الشرقية ليكون مقرا للجنة المركزية.

أنباء عن إستئجار بيت في شارع السعدون خلف سينما النصر يكون مقراً لجريدة طريق الشعب.

في بعقوبة . . دعوة شمران ليكون مراسلاً لجريدة طريق الشعب، و يكون في الوقت نفسه محرراً في صفحة الشباب فيها بعد صدور عددها الأول . . مغامرة كبيرة تصلح لفيلسوف يريد أن يعيش على التخوم! . . و يُدعى شمران لعقد ندوات ثقافية علنية للشعراء و كتاب القصة و إدارتها في قاعة مقر الحزب الصغيرة . . مغامرة أخرى! و يوافق. أليس خياره الوجودي أن يعيش على حافات الخطر؟ . . و ستثبت الأيام بأنه و معه بعض مِمَنْ على شاكلته من ناشطي التخوم . . أنهم سيتعرضون للعذاب أكثر مما سيتعرض له أغلب قيادي الحزب و كوادره في بعقوبة . . و طبعاً عدا الذين سيُقتلون أو يُعدمون أو يُخطفون، ساعةَ سيصِرُّ الويوي فيها بأسنانه على فرائسه . . فيذهبون و لا يعودون!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

ظهيرةِ نهارٍ من نهارات أواخر آب . . نازلاً للتو من باص عاد به من بغداد، و هو يمشي قرب مقهى مناتي في المحطة محاولاً، بجريدة يضعها فوق رأسه، إتقاء اللهيب الذي تصبه الشمس على رؤوس الماشين، توقفت قرب شمران سيارةٌ لادا حشيشية اللون، و يسمع صوتاً بلكنة لم تكن غريبة عليه و بنبرة آمرة يقول:

- شمران . . إصعد!

يصعد. و تسير السيارة، و يعلق شمران:

- هاي شنو زنگناوي! . . صاير تبدل سيارات! . . شوكت بَدَّلِت

العُـگـرُگــة بسـيارة لادا؟

- باليومين الأخيرة . . بس آني أكو سالفة أريد أحـچـي وياك عنها!

لـم يلتقيـا لمـدة زادت عـن أسـبوعين . . و شـمران إنتبـه منـذ توقفـت السـيارة الـى نبـرة الزنـگـناوي، و هـو يتحـدث إليـه، و قـد إزادت حبـة أو حبتيـن نبرتـه الآمـرة، و قـد تعـودوا عليهـا أصدقـاؤه لظنهـم أنهـا تشـبع عنـده إحساسـاً بالتفـوق، و يحسـوبها أحيانـا مشـروعة عنـد المبدعيـن، و يسـأله شـمرانُ مسـتغرباً:

- يا سالفة حامد؟

- سالفة الترشيح لمهرجان برلين!

و هـا هـو شـمران يحـزر بسـهولة إن موقفـه مـن الترشـيح للمهرجـان قـد وصـل الـى الزنـگـناوي بطريقـة مـا، فتوجـس فـي حديـث حامـد لومـاً أو تقريعـاً مـن نوعمـا و لكـن بنبـرة مـزاح، مثلمـا إعتـادوا عليـه، و هـي خصلـة لا يتـردد الزنـگـناوي فـي إسـتعمالها عنـد الحاجـة . . ضبـط شـمران أعصابـه قبـل أن يـرد علـى صاحبـه، لأنـه شـعر أن نبـرة صاحبـه لا تـشِ بمـزاح مـن أي نـوع كان! . . السـيارة مـا تـزال تسـير مُـبطِئة، و يتبـادلان الحديـث . . عنـد إنعطافـة السـيارة يمينـاً فـي شـارع الشـاخة متجهـة نحـو السـوق، و لكـي يعلـم مـا وصـل الـى صاحبـه عـن حقيقـة موقفـه، سـأله بهـدوء:

- حامـد . . أريـد أعـرف بالضبـط . . يـا سـالفة مـن اللـي لهـا علاقـة بالمهرجـان؟

- رفضك ترشيحي ويه وفد المهرجان!

آه! . . خليـك يـا ولـد ورا العيَّـار لبـاب الـدار! . . و مـا أكثـر العيَّـارين هـذه الأيـام! . . أيهـم؟ . . و مـرة أخـرى . . فهمـو كـُثـُـرُووووووووووووو! . . لـم يجـب شـمران فـورا، و يأخـذ وقتـاً للتريـث و عـدم الإسـتعجال يطـول

لثوانٍ، ما جعل عيني حامد تبقى يسراهما على الشارع و هو يسوق سيارته على مهلٍ، و يمناهما على شمران منتظراً إجابة منه. و في داخله شعور شمران بالسف كان عميقا فوصل الى حد الرثاء، و كي لا يفقد صديقه، تأنى كثيراً بإختيار كلماته:

- أولاً . . هو مو آني شخصياً رفضت ترشيحك! . . أكو لجنة محلية هي اللي قررت!

- بس آني گالوللي إنت چنت صاحب الإقتراح!

يا سلام! . . و الأخبار و صلته بالتفصيل الدقيق! . . فعلق راداً:

- خبر اللي وصلك صحيح . . آني رفضت ترشيحك . . و ببساطة لأن إنتَ مو عضو بالمنظمة!

يفضَّل شمران أن يكون مقتصداً بكلماته كي يجد مخرجاً لصاحبه، لا لنفسه، من الموقف الذي وضع نفسه فيه، لكن صاحبه أصرَّ على عناده بأن يمضي قدماً، فعلق:

- و إنتو بالمنظمة منو عندكم؟

و حتى اللحظة يقرر شمران أن يكون مقتصداً و يترك صاحبه يكشف عن نياته، فيسأل:

- منو عندنا! . . شتقصد بعبارتك . . منو عندكم؟

تذكَّر شمران العبارة التي قالها الزنگناوي يوما ما بالكوردية . . . روح إشبع ضراط بهذولة الزغار، فرد قائلاً:

- عندنا هذولة الزغار اللي گلتلي أروح إشبع بيهم ضراط!

- شِفِتْ؟ . . ما عندكم أحد يصلح!

نبـرة التعالـي تنضـح سـافرة . . شعورشـخصـي بالإهانـة، يكتشـف بـه شـمران إن سياسـة الإقتصـاد بالكلمـات مـا عـادت تنفـع . . السـيارة وصلـت قريبـا مـن مبنـى سـينما ديالـى، فقـال لحامـد و بهـدوء:

- حامـد أوگـف! . . . أخـاف عليـك! . . تحـچــي و تسـوق سـيارة بنفـس الوقـت!

لم يوقف حامد الدين سيارته، فيطلب شمران مصرا و بهدوء:

- حامد . . . أگولك وگـُفْ سيارتك!

تتوقف السيارة، و ما يزال محتفظا بهدوئه، يضيف شمران:

- شـوف حامـد . . . إنـتَ چـنت حـر مـن أعلنـت رفضـك المشـاركة بـأي نشـاط و سمـَّيَت أنشـطتنا بالمنظمـة ملاعيـب . . . مثـل مـا آنـي چــنت حـر بقبولــي المشــاركة . . . لهـذا آنــي أسـتغرب منـك مزايـدات ثقافيــة مـن هالنـوع اللــي تسـتعرضه!

و يتوقـف شمران عـن الـكلام . . متطلعـا مباشـرة فـي عينـي حامـد المسـتدير نحـوه، ليضيـف بنبـرة تهكميـة واضحـة:

- صحيـح إحنــه بالمنظمــة ناسـنا زغــار . . و مــا عندنــا مثقفيـن يرتقـون للطـراز اللــي إنـتَ منـه!

شمران يقولها بنبرة تهكم أقوى و يسترسل:

- . . لكـن مـا تـزال الحقيقـة ماثلـة و هـي أن أعضـاء المنظمـة چـانو أحـق منـك بالذهـاب الـى برليـن . . بغـض النظـر عن مستوى وعيهم أو ثقافتهم! . . و إلا علـى يـا أسـاس هـم مـا يترشـحون و هـم اللــي متحملين كل أنـوع المخاطـر أمـام السـلطة البعثيـة! . . و إنـتَ تريـد تترشـح و إنـتَ مـا يطلـع منـك غيـر مزايـدات علـى حسـاب النـاس اللــي تنشـغل و تنوخـذ بأحاديثـك

الحماسية عن المادية الديالكتيكية و بالأخص على موائد الخمرة! . .
إذن . . على وفق يا منطق إنت جاي تنتقد رفضي لترشيحك؟

الزنگـناوي لا يجيب و لا يعلق . . لأنه يفتقد الحجة و ظهيرها الأخلاقي، و ربما لأنه لم يكن يتوقع من شمران أكثر من كلمات إعتذار مجانية و مجاملة تجري بعدها تسوية من نوع ما للموضوع، و هو نهج إعتاد عليه شمران في تعامله مع الزنگـناوي تقديراً منه لما يكتب . . و يقول شمران مضيفا:

- آني أريد أسالك . . هذا اللي سرَّبلك أسرار منظمتنا . . گـالـك أيضا آني تنازلت مقدما عن ترشيحي قبل ما أعلن إعتراضي على ترشيحك، حتى لا أحد يفسر رفضي لترشحيك بطمع شخصي مني بالترشح؟ . . زنگـناوي! . . يا زنگـناوي يا أديب! . . عيب مزايدات! . . و عيب تعالي! . . بس آني دائما أگـول . . خليك يا ولد ورا العيّار لحد باب الدار! . . و آني ما غلطان . . إتضحلي بأن عدد العيِّارين جاي يزداد يوم ورا يوم!

الزنگـناوي لا يرد ربما لأنه قد يكون تفاجأ فعلا بصراحة شمران، الذي عوَّده على المجاملة لأسباب كثيرة، و يضيف شمران:

- تدري يا زنگـناوي! . . يا كاتب يا مبدع؟ . . يا كاتب سرب الجراد . . نِعْمَ المثقف العضوي أنتَ! . . باي باي!

بنزوله من السيارة و دون مجاملة . . سيتعمَّد شمران عبور الشارع من أمام السيارة لا من وراءها، و أن لا يلتفت نحو صاحبها مطلقاً . . عبر القنطرة الضيقة القريبة على الشاخة، مستعملا الجريدة نفسها التي في يده قبعةً تـقِيهِ من لهيب أشعة الشمس الحارقة، و كانت السيارة الحشيشية اللون ما زالت واقفة . . و منذ تلك الظهيرة الآبيَّـة الساخنة لن يحصل بعدها و أن يتحدث شمران و الزنگـناوي لبعضهما البعض مطلقا!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الوقت مساء حين دخل شمران مقر الحزب. في غرفة الإستعلامات رحب به قيس الرحبي و كانا يوماً زميلين في متوسطة بعقوبة. عبيد الصباغ مشغولٌ بقراءة جريدة، و يستفسر شمران عن حسين الجليلي، و يمر في خاطره فجأة . . لِمَ حسين الجليلي بالذات؟ . . أيشك بالجليلي كونه مُسَرِّبَ الأسرار بحكم صداقته المتينة بالزنگناوي؟ . . ليس متأكداً! . . أم أنه حسب أن الجليلي هو صاحب الشأن الثقافي في الحزب؟ . . ليس متأكداً! . . أم لربما الجليلي هو الرجل رقم واحد في المكان؟ . . ما يزال ليس متأكداً! . . أو ربما لأنه كان على قناعة سابقة بأن الجليلي هو الذي سمّاه كي يكون في قلب النشاط الشبابي؟ . . ليس متأكداً!

عبيد الصباغ يقوده الى غرفة داخلية، ينقر على الباب نقرتين، و يدفعه داخلا . . الجليلي هناك يجلس وراء مكتب متواضع قبالة الباب، فينهض مرحبا بشمران الذي دخل مخلفاً الصباغ و إلتفت وراءه ليمسك بمعصم الصباغ و يدعوه الى الدخول و الجلوس ليستمع، لأنه يريد الصباغ حاضراً لأسبابٍ تخصه هو لا غيره . . و كأن الجليلي وُضِع أمام أمر واقع، لم يعترض. و ها هو شمران يلخص للجليلي و الصباغ موضوع الزنگناوي بأكمله، ثم دخل في لب الموضوع قائلا:

- إحنه بالمنظمة . . بعد هذا اللي جرى بترشيح الزنگناول و بعدين ثامر الزيدي . . صبرنا و بلعنا و قررنا أن ما نلتفت للصغائر و نمضي قدماً . . إضطرينا نگول . . هاي عثرة من الجماعة . . و غلطة الأسطة بعشرة!

الصباغ بطبيعته شخصٌ جَهمٌ، و نظاراته السميكة الداكنة تزيد جهامته جهامة، و كأن الجهامة هي من صفات المناضلين، و إلا فقد لا يبدو عليهم أنهم مناضلون! . . يزداد وجه الصباغ تجهماً و هو يستمع لما يقوله شمران، في حين ظل الجليلي على هيئته التي إعتاد شمران أن يراه

عليهـا محتفظـاً بهدوئـه، و يسترسـل شـمران:

- سـيدنا الجليلـي . . إحنـه سكتنا و گـلنه هـذي عشـرة بدفـرة . . علـى أمـل بلكـي هـاي العشـرة يجـي وراهـا شـي أحسـن منهـا!

يبتسم الجليلي للمثل الذي ساقه شمران . . و يظل يستمع لشمران:

- لكـن الوضـع يختلـف مـن تتوفـر قناعـة أن الأخطـاء الجاريـة مـو كلهـا مـن نـوع عشـرة بدفـرة!

- شلون؟

- أريـد أعـرف . . شـنو اللـي چـان يريـده الزنـگـناوي؟ . . يتعـب أبـو كلاش و يـاكل أبـو جزمـة ببـلاش! . . و يـروح هـو أبـو الجزمـة لبرليـن يتونـس و ليذهـب أهـل الكلشـان مثـل مصطفـى الديـو و رزوقـي القيسـي أو غيرهـم مـن شـباب المنظمـة اللـي متحمليـن كل العـذاب الـى الجحيـم؟

الصبـاغ مـا يـزال يصـغي و لا يعلّــق . . وجهـه يـزداد تجهمـاً. و يظـل الجليلي علــى عادتــه مســتغلاً دماثتــه و محــاولاً وضــع ســياقات توفيقيــة للموضــوع ببعـض عبـارات إسـتعملها لإرضـاء شـمران، و لكنـه لـم يـُـوَّفَق . . و هـو مـا أحسـه الصبـاغ أيضـا مـن وراء نظارتـه السـميكة الداكنـة التـي ظلـت عينـاه مـن ورائِهمـا تتنقـل مـن شـمران الـى الجليلـي. و عـاد شـمران ليسـأل:

- و هسـه نحچـي بالنقطـة الأخطـر و الأهـم . . عيـب أسـرار منظمتنـه و إجتماعاتهـا و قرارتهـا تتسـرب الـى نـاس مـا لهـم علاقـة بالمنظمـة . . لأن هـذا بـأي لغـة تقنيـة حزبيـة يسـمونه خـرق أمنـي . . منـو هـذا بالضـبط اللـي سـرَّب أسـرار منظمتنـا للزنـگـناوي و اليـوم الظهـر شـافني و چـان زعـلان كلـش علـيّ لأن آنـي إعترضـت علـى ترشـيحه؟

مـا قالـه شـمران يفحـم الجليلـي إفحامـاً مطلقـاً . . لـم يعلـق الصبـاغ و ظـل سـاهماً ينتظـر ردة فعـل الجليلـي الـذي حـاول أن يسـوِّف بـأن يعقـب بـرأي

عمومــي:

- الحق معك!

و لكي يضع خاتمة لما جاء من أجله قاطعه شمران قائلا:

- أسـاتذة . .آنــي أعلـن إنسـحابي . . شـوفولكم واحـد غيـري! . . إنسـحاب لا عـودة عنـه.

لم يجد الجليلي ما يقوله سوى الإعراب عن أسفه لما حصل قائلاً:

- قرارك هذا خسارة!

أيُ تعقيـبٍ أو تعيلـقٍ إضافـيٍ سيكون مـن نافلـة القـول . . إسـتاذن شـمران و نهـض و غـادر.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الفـرق بيـن شـمران و الزنـگـناوي يغـور الـى شـئ أعمـق مـن تركيبتهمـا الطبيعيـة و يتعـداه الـى شـخصيتهما. لـم تفلـح مـدة السـنوات الثـلاث التـي جمعتهمـا فـي شـلة المثقفيـن فـي تشـذيب الزوائـد الدوديـة فـي قيـم كل منهمـا بمـا يحقـق تقاربـاً بيـن مُثُـلِ كلٍ منهمـا . . تربـى شـمران علـى فلسـفة والـده بتدريـب نفسـه يالتمييِّـز بيـن الصداقـة و المصلحـة و الواجـب، و ألّا يَـدَعَ الصداقـة تـأكل الواجـب أو المصلحـة، أو بالعكـس . . معادلـة صعبـة التحقـق! . . و مـن ذا يـا تـرى يسـتطيع الزعـم أنـه قـادر علـى تحقيـق معادلـة مـن هـذا النـوع؟ . . و مـن ذا يسـتطيع أن يحـدِّدَ أيـن تتوقـف الصداقـة و يبـدأ الواجـب أو المصلحـة! . . و هـو يتذكـر دائمـا كلمـات أبيـه:

- . . إبنـي أريـدك تعـرف زيـن . . الصديـق اللـي يسـتغل الصداقـة لتحقيـق مصلحـة مَيبقـه صديـق و يتحـول الـى مصلحـچـي! . . الصداقـة عمادهـه الأخـلاق بينمـا المصلحـة متركـُبة علـى الأنانيـة و الفلـوس . . و شـوف

إنتَ الفرق بين الإثنين! . . و رمانتين بفد إيد ما تنلزم إبني . . فلازم تلزم الصداقة بإيد و المصلحة بأيد و هيچي يلله تگدر توازن بيناتهن! . . و إذا لگيت واحدة منهما أثقل من الأخرى فهذا يعني أكو خلل!

كلمات أبيه هذه هي التي هيأت لشمران صياغته لمعادلته شخصية عن الأخلاق و المصلحة. دائرتين العلاقة بينهما بإستمرار عكسية. تكبر أحدهما فتصغر الأخرى! . . و الى جانب هذه الفلسفة كان شمران يرى بأم عينه و يلمس لمس اليد كيف يتجلى فيها والده صديقا و صدوقا لأصدقائه عند المحن . . و الزنگناوي كان على عكسه تقريبا، يحاول دائما أن يلوي عنق الصداقة ليًّا كي يجعلها خادمة مطيعة لمصلحته . . و الفراق بين الإثنين لم يكن سوى فراق بين نمطين للشخصية و أدى في الواقع هذا الى إنفراطِ نهائي لعقد شلة المثقفين. الفراق بينهما لم يكن السبب الوحيد لإنفراط عقد الشلة، فثمة أسباب أخرى، منها إنتقال وظيفتي أبراهيم حميدي و عبد الأمير الحبيب الى بغداد، و إنشغال حسين الجليلي أغلب ساعات يومه بعد عودته من الوظيفة بواجبات الحزب. و لم يبق سوى فرد من يسار الشلة هو الزنگناوي و الفرد الوحيد دائما في وسطها و هو شمران، و سرعان ما إفترقا بعد أول صدام بين تركيبتي شخصيتيهما . .

و من يقف في الوسط يكون عادة صيداً سهلاً لليمين أو لليسار!

و سيبقى ركن الشلة في مقهى مجيد محسن لمدة ليست قصيرة خالياً من رواده، عدا مرور شمران أحيانا للجلوس فيه لمدة ساعة أو أكثر للقاء بعض أصدقاء جدد، لدرجة أن بعض رواد المقهى إنتبهوا الى غياب أفراد الشلة . . و ذات مساء، و شمران جالس بإنتظار إستكان الشاي . . لم يجلبه له چايچي المقهى، مثلما هو معتاد، بل جلبه له مجيد محسن صاحب المقهى بذاته، و جلس الى جانبه ليسأله:

- شنو القصة أستاذ شمران! . . شلة المثقفين وين صفه بيهه الدهر؟ . .

أشوف إنتو ماكو! . . صارلكم مدة ما أحد يجي عداك مرات تگعد ساعة و تمشي!

- عيني أبو عامر . . الشلة تفلشت!

- ليش؟ . . لا سمح الله!

- . . قسم منهم راحو إنتقلو الى بغداد . . و الجماعة الباقية هنا مخبوصين لو بالسياسة لو بالجرايد! . . حاولو تستفيدون من هذي القنفات!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

الأحداث تتوالى بتعرجات و منعطفات حادة . . .

أخبار عن قرب إنهيار إتفاقية 11 آذار بين الكورد و البعث . . أخبار جرائم أبي طبر تنتشر مثلما تنتشر النار في الهشيم . . و مع أن جرائم أبي طبر ظلت تراوح في جنبات بغداد إلا أن شبحه راح يجول ليخيم على جبال كردستان و يطوف بمشحوف في أهوار الجنوب و يظهر للمارة في طرقات بساتين أبي صيدا و العبارة . . و تعيد للوجود الحكايات المنسوجة عن إبن عبدكة و موزر! . . و تروح الإشاعات تدور لتتفسر و تتأول عن دور لحكومة البعث في إختراع أبي طبر للخلاص من خصومها . . من يدري! . . و من يعرف الحقيقة؟

تلكؤ في تطبيق الإتفاق بين الحكومة و الكورد . . لم يبقَ سوى أشهر قلائل لبلوغ التطبيق النهائي في 11 آذار 1974 . . حقبة رمادية بإمتياز!

تداخلٌ و تشابكٌ في الأحداث يحصل بتزامن تقريبي بين خاص و عام.

قطار الإنقلابات الأمريكي يحقق نجاحاً ساحقاً في 11 أيلول 1973 بإنقلاب دموي في شيللي ضد حكومة الجبهة الشعبية التي يقودها سلفادور آلندي

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

يوم الإنقلاب على آلندي . . شمران في المخيم الكشفي الدائمي في بعقوبة، و لم يكن قد علم بعد بما جرى في الطرف الغربي من الكرة الأرضية. . أخو زوجته آتٍ من بغداد مسؤولاً عن المخيمات الكشفية الطلابية في عموم العراق، و قد وصل الى المخيم الكشفي الدائم في بعقوبة ليشرف على إفتتاح مخيم لكشافة عموم طلبة البلدان العربية . . و يعزم شمران، بعد إنتهاء دوامه في المدرسة ظهراً، على الذهاب الى المخيم للسلام ليؤدي واجب سلام الصهر على النسيب.

فعاليات المخيم تفتتح الساعة الواحدة ظهراً برعاية محافظ ديالى، محمد محجوب الدوري، الذي تعرَّف عليه شمران في بضعة مناسبات سابقة، على خلفية الزمالة بين زوجتيهما المدَّرِسَتين في مدرسة واحدة . . عند حضور المحافظ، إستوجب الموقف من شمران أن يسلّم على المحافظ و صديقه فليح الجاسم جالس الى جانب المحافظ . . توجه إليهما، فنهض الرجلان للترحيب به . . مراسيم الإفتتاح تبدأ و تنتهي . . و يُدعى المسؤلونَ الرسميونَ و الحزبيونَ و رؤساء الوفود العربية و الضيوف الى مأدبة غداء، و طالب الدجيلي بارع في إعداد مثيلاتها. شمران يقف على المائدة في الجهة المقابلة للمحافظ و بجانبه فليح. منشغلون بتناول الطعام، يلاحظه شمران المحافظ يستدير نحو مرافقه و يسمعه يطلب منه جلب راديو ترانزستور للإستماع لآخر الأخبار عن شيللي . . أخبار عن شيللي! . . ما الذي حصل في شيللي؟ . . لعبة كرة قدم أو ماذا؟ . . و مع أن الوضع كله مشحون بالسياسة، و ترشح منه أحياناً بعض الأخبار عن الضغط الذي يتعرض له سلفادور آلندي . . أبطلت أغلب تبريرات خصوم اليسار عن عدم قدرة اليسار الوصول الى السلطة إلا عن طريق الإنقلابات أو الثورات المسلحة، و لم يخطر ببالِ أحد إن شيئاً قد يحصل لسلفادور آلندي طالما جاء آلندي الى الحكم من طريق ديمقراطي . . المُستأمنِ الزمان دائما خسران! . . يا للمثالية! . . يا للمثالية! . . و كأن اليسار لم يكن أمامه سوى الوصول مرة واحدة، في مثال واحد، الى السلطة كي يستسلم اليمين لأمر الله! . . الضباع موجودة في كل مكان! .

. و يـا للمثاليـة!

صبــاح ذاك اليــوم . . كان شــمران مشــغولاً، كعادتــه بممارســة طقوســه الصباحيـة الإستماع للموسيقى. و بطبعـه يفضّـلُ ألا يسـمع أيـة أخبـار صباحـاً سـواء أكانـت محليـة أو عالميـة، لأن سـماع الأخبـار صباحـا، برأيِّـهِ، بخاصـة إذا كانـت أخبـاراً غيـر سـارة، قـد يسـتهلك الطاقـة الإيجابيـة التـي تـزوده بهـا الموسـيقى، و هـي طاقـة يحتاجهـا فـي تلطيـف مزاجـه أثنـاء العمـل مـع تلامـذة صبيـة صغـار . . و هـا هـو بتلمسـه إهتمـام المحافـظ بسـماع أخبـار تشـيللي، يتلفـت بإنحنـاءة طفيفـةٍ يمينـاً و يسـاراً علـه يجد مـن يعرفـه قريبـاً منـه فيسـأله عمـا حصـل فـي شـيللي. الوجـوه مـن حواليـه أغلبهـا غريبـة. ليـس أمامـه إذن غيـر المحافـظ مباشـرة:

- أسـتاذ أبـو أحمـد . . سـمعت حضرتـك تريـد تسـمع أخبـار تشـيلي . . شـكو بتشـيلي؟ . . شـنو اللـي صـار هنـاك؟

- إنقـلاب . . الجنـرال أغوسـتو بينـو شـيه يقـود جنـرالات الجيش و بإشـراف مباشـر و سـافر من الإسـتخبارات المركزيـة الأمريكية!

- القطـار الأمريكي مرة أخرى! . . ضد سلفادور آلندي!

يضحــك المحافــظ لتعليــق شــمران، و معــه ضحــك صــف المســؤولين المجاوريـن لربمـا لمعرفتهـم بغزى تلميـح شـمران عـن القطـار الأمريكـي . . و يرمقـه فليـح بنظـرة إسـتطاع شـمران أن يفسـرها، و المحافـظ يـردُّ:

- نعم!

صدمــة قويـة لشـمران . . و يجِيـؤون بالراديـو الترانزسـتور، و تنقـل أخبــار السـاعة الثانيـة بعـد الظهـر أخبـاراً عـن إقتيـاد آلاف المعتقليـن اليسـاريين . . يُـجمعون فـي سـتوديوم سـانتياغو و الإعـلان عـن بِـدءِ حفـلات التعذيـب . . و مـرَّت فـي رأس شـمران صـور حفـلات الإعـدام التـي مـرَّ بهـا العراقييـن و تعذيبهـم فـي المعتقـلات قبـل عشـر سـنوات فـي شـباط 1963 . . و هـا هـم

خصـوم الأمـس و الجـلادون يصبحـون حلفـاء اليـوم! . . يـا للسياسـة! . . يـا للسياسـة! . . و مـر فـي خاطـره . . إذا كان ثمـة مـا هـو أكثـر إنحطاطـا مـن بيـن كل الأشـياء فهـي السياسـة! . . ردُّ المحافـظ . . نعـم . . لـم يكـن عنـده كافيـاً. و علـى غيـر عادتـه متنـاولا الطعـام ببطـئٍ، ظـل ينتظـر ردة فعـل أقـوى للمحافـظ و فليـح علـى الأخبـار. بعـض البعثييـن يعتبـرون أنفسـهم إشـتراكيين مـن طـراز سـلفادور آلنـدي . . أفيهـم حقـاً مـن يصلـح ليكـون مثـلَ سـلفادور آلنـدي و هـو يعلـم علـم اليقيـن أن تسـعين بالمائـة مـن البعثييـن مـا يزالـون يمقتـون الإشـتراكية و لا يريـدون منهـا سـوى أشـكالها السـاذجة؟ . . محـاولاً جس النبـض لمعرفـة النيـات و المواقـف تجـاه الإنقـلاب، يفتـح شـمران حديثـاً بتعليـقٍ:

- خسارة كبيرة إذا نجح هذا الإنقلاب . . بل كارثة!

فيعلق المحافظ:

- و الكارثة تجي وراءها مآسي!

و يتريَّـثَ شـمران لثانيـة أو إثنيتيـن دون تعليـق لعلمـه بحقيقـة الدبابـة الإمريكيـة التـي حملـت البعثييـن الـى السـلطة عـام 1963 و الأشـاعات التـي دارت عشـية السـابع عشـر مـن تمـوز فـي 1968 أيضـا عـن قطـار أمريكـي حمـل الإنقلابييـن الـى السـلطة، و مـع ذلـك قـال لنفسـه . . يـا هـذا أليـس مـا يـدور فـي بالـك هـو جـسُ نبـضٍ و معرفـةُ نوايـا! . . فعلـق قائـلاً:

- و ضلـوع الإسـتخبارات الأمريكيـة بهـذا الإنقـلاب علـى هـذا النحـو السـافر أيضـا مـو غريـب!. . سـلفادور آلنـدي . . أخفـق الرجـل فـي أكثـر مـن محاولـة طيلـة عشـرين عـام . . و قبـل ثـلاث سـنوات آمـن بأنـه دون جبهـة عريضـة لا يمكـن تحقيـق الأهـداف . . صـارت الجبهـة و فـاز آلنـدي بسـتين بالميـة مـن الأصـوات . . و بـدأت عمليـات التأميـم لتحقيـق إنتـزاع ثـروات البلـد مـن أيـدي الأجانـب.

و لكـي يحقق شـمران مـا أبتغـاه مـن سـرده هـذا، و هـو رؤيـة نـوع ردة الفعـل، و القريبيـن منـه يسـتمعون، و المحافـظ يصغـي، أضـاف شـمران بنبـرة فيهـا تأكيد علـى بعـض الـدلالات:

- لكـن لنعلـم أولاً . . هـذا لـم يكـن ليتحقـق لـولا تشـكيل جبهـة مـن حـزب آلنـدي الإشـتراكي و أحـزاب يسـارية أخـرى علـى مبـدأ التكافـؤ و المسـاواة بالمسـؤلية و إتخـاذ القـرار!

فيعلق فليح:

- بس آني چنت شاك من البداية بنجاح جبهة من هالنوع!

يسأل المحافظ:

- ليش؟

- وجـود حـزب بطابـع دينـي مثـل الديمقراطـي المسـيحي . . مثـل مسـمار جحـا فـي وسـط جبهـة آلنـدي! . . لأن أحـزاب بتسـميات مـن هالنـوع هـي اللـي تكـون عـادة صيـد للإسـتخبارات الأجنبيـة و إداة للتخريـب!

و يتذكر شمران ضبعي وسيم الحسني، فيعقب:

- تقصـد حـزب مـن هالنـوع قـد يكـون ضبـع . . ضبـع يشـبه الضبـع اللـي بالحكايـة المعروفـة . . بعـد أن آواه البـدوي بخيمتـه . . شَـگْ بطـن البدوي و فـر!

المحافظ يعقب:

- ضبـع؟ . . تعبيـر جميـل! . . فعـلا ممكـن أن يكـون هـذا الحـزب ضبـع! . . و آنـي أسـتغرب قبـول هـذا الحـزب بصفـوف الجبهـة الشـعبية و هـو . . حسـب معلوماتـي عنـده إسـتعداد علـى بيـع شـيللي بأكملهـا للأمريكييـن!

ثوانٍ قليلة تمر، و يضيف المحافظ:

- و عسى ألا يكون الأمريكان زارعين بأحزابنا ناس من نوع هذا الضبع!

و يتبادر الى ذهن شمران . . و أين سيزرع الأمريكان ضبعهم؟ . . عجباً! . . و ها هي نفسُه تنسد عن الطعام و تعافه منذ لحظة سماعه بإنقلاب تشيلي. و إذ وجد أنه من غير اللائق الإنسحاب من مائدة الطعام قبل المسؤولين و ضيوفهم الأجانب، سينشغل بتناول نتف من السلطات . . ما يتحدث به الناس الذين أمامه، المحافظ و فليح، حيَّرهُ . . يتحدثان عن دور للإستخبارات الأمريكية في الإنقلاب و كأنهما لا يدريان، لا! . . بل يتجاهلان أن حزبهما أتى في شباط ١٩٦٣ على دبابة أمريكية، مثلما إعترف علي صالح السعدي أحد قادة إنقلاب شباط الرئيسيين! . . لا يدريان! . . حافة الخطر! . . أم أنهما يتحدثان عن دور الإستخبارات الأمريكية بحيادية، و قد يكون هو الذي من حيث لا يدري أسقط على حديثهما إستنكارا لدور تلك الإستخبارات على ما كانا يعنيانه؟ . . ثم تذكَّر الهاجس الذي ظل يراوده دائماً منذ سمع عن عصابة إجرامية باتت منظمة تتحكم بأعلى هرم السلطة و الحزب الحاكم في العراق . . مفارقة! . . تناقض لم يجد له شمران حلاً مهما إستعمل من مهارات ذهنية! . . لا غرابة! . . فستالين تسلل الى السطة بالإسلوب نفسه! . . و هتلر فعل الشئ ذاته! . . لا غرابة! . . و لكن أيهم هو الضبع في الجبهة التي أُعلِنَ عن ميثاقها قبل شهرين بين بعثيين و شيوعيين؟ . . أين الضبع الذي سيغلبُ طبعُهُ تطبُّعَهُ؟ . . أكان ناظم گزار الذي أُسقطت أحدوثته قبل أسابيع هو الضبع فإنكشف و إنتهت الحكاية؟ . . أم تلك المنظمة السرية التي قيل أنها ما تزال تتحكم بالبعث و البلد هي الضبع الذي سيشق البطون جميعاً في قادم أيام؟

بالعيش على التخوم أشياءٌ كثيرةٌ يعزّ فهمها، بل و حتى هضمِها! . . هل يفهمها اليساريون و يهضمونها؟ . . و ها هو شمران يفتقد أجواء النقاش المحمومة في ركن شلة المثقفين في مقهى مجيد محسن أثناء ما كانت تمرُّ أحداثٌ ساخنة من هذا العيار الثقيل! . . حاول شمران أن يفهم ما

يجري، فتعسَّر عليه الفهم!

ذاك اليوم . . لم يصبر شمران على وجوده في المخيم الكشفي. كل ما في كيانه يفورُ و يمورُ و يتفاعل. يتحرَّقُ رغبة لمعرفة المزيد عن إنقلاب تشيلي. سيغادر المخيم في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، لتأخذه سيارة تاكسي مباشرة الى مقر الحزب . . و هناك، في الحديقة الضيقة الأمامية للبناية و في غرفة الإستعلامات، لم يرَ في مقر الحزب من قبل إزدحاماً أشدُّ من الذي يراه الآن! . . شيبٌ و شبابٌ . . بضعة نسوة ضائعات وسط الرجال . . كلٌ يحمل جريدة طريق الشعب و ينشرها بين يديه و يقرأ بنهم واضح الخبر المقتضب الذي نقلته الجريدة عن الإنقلاب، و كلٌ كأنه بنيته مدّ السطور الى عشرة أمثالها ليستقرأ المزيد مما يعزَّ عليه إكتشافه . . ما هذه الإنعطافة و ما هذا التعرج العصي و غير المفهوم! . . أجاء كل هؤلاء الناس ليحتفلوا و يفرحوا بصدور العدد الأول لجريدة الحزب أم جاؤوا لمعرفة المزيد عن الإنقلاب على آلندي لظنهم أن الحزب يعرف عن أخبار تشيلي أكثر مما تعرفه الإذاعات و جريدة الحزب؟ . . مدٌّ هنا و جزر هناك! . . و أول ما تبادر الى ذهن شمران . . توجس و خيفة! . . تشيلي هناك في طرف الأرض القصية عشرات آلاف الكيلومترات! . . فمِمَ يتوجس كل هؤلاء الناس؟ . . تضامن أممي؟ . . ربما! . . ما هذا التزامن المعقد؟ . . تعرج و إنعطافة في الوقت نفسه! . . ثم تذكر ما قرأه في الليلة الماضية عند الشاعر الإنكليزي آلكسندر پوپ . . . الطبيعة وضعت كل شئ بميزان و ما نكسبه هنا نخسره هناك . . و ما نخسره هنا نكسبه هناك! . . حركة لنا فيها إرادة و ليس لنا فيها إرادة!

عبيد الصباغ جالس عند مكتب الإستعلامات تغطيه الأجساد الحيّة الحائرة من حوله في غرفة الإستعلامات الضيقة أصلاً فأتخِمَت. سخبره الصباغ أن الجليلي يريده.

يدقُّ على باب غرفة الجليلي و يدخل . . أول ما قاله للجليلي، بعد أن جلس، تساؤلاً:

- شنو هذا اللي يجري هنا! . . فرح بجريدة الحزب لو حزن على اللي يجري بتشيلي؟

- الإثنين معا!

- الإثنين معا؟ . . شنو هالحزورة؟ . . يعني على طريقة أغنية الغزالي . . أضحك چِذِب و النار تلتهب بيَّ!

- يعني قريب من هذا! . . أگعد . . مو غريب هذي جدلية الحياة! . . صيف و شتا على نفس السطح! . . عزاء و فرح بنفس المكان! . . . . و إنت حُرّ . . شلون تريد تفسرها للأمور فسرها!

- سيدنا الجليلي . . أعرف هذا!

- هذا يشبه أن تضحك و أنت في مجلس تأبين . . أو أن تغني أغنية حزينة بحفلة عرس هذا هو العصي على التلبية و الفهم!

- حاول.

- راح أحاول!

- و هسه خلينه بموضوعنا . . في الواقع . . إنت لو مو جاي هسه چان آني طلبتك بالتلفون!

- خير سيد الجليلي؟

- أولا . . أكو مجموعة شباب يكتبون شعر . . محاولات أولى . . حبذا لو تنَظّمْ لهم جلسات قراءات شعرية و تعليقات عليهه هنا بقاعة المقر . . و ثانيا صفحة الشباب بجريدة الحزب بحاجة لمحررين . . عندك إستعداد تروح لبغداد للجريدة بالأسبوع مرة؟ . . لو إنتَ ناوي تقاطعنا نهائياً بعد سالفة مهرجان برلين!

متأنياً بالرد . . المساحتان مطلوبتان عنده و توفران له لعبة معرفية فيها من الرومانسية مما يتطلع إليه بشغف! . . و هو، دون ريب، لا يريد أن يخسر مساحة يمارس فيها إهتمامته الفكرية و الثقافية . . ها هو ذا مرة أخرى أمام فرصة لممارسة خياره الوجودي و ليس ثمة برأيه مناخاً أفضلَ من هذا! . . فيُعقِّب قائلاً:

- لا . . سيدنا . . بالتأكيد لا!

- شنو لا؟

- أقصد . . لا . . لأن المقاطعة أسلوب عقيم لحل القضايا المعلقة!

و كأنه واثقٌ من موافقة شمران، يقاطعه الجليلي و يمد يده في درج مكتبه قائلا:

- إذن . . هاك!

يتسلَّمَ شمران منه رزمة صغيرة من الأوراق، و الجليلي يضيف:

- هذي قصائدهم . . حتى يكون بإمكانك تسوي تحرير للقصائد المحتاجة تحرير و قراءة لغوية . . و تكتب ملاحظاتك و تعليقاتك . . و الجلسة راح إنتَ تديرها . . إنت و أيضا تعلق على أداء الشعراء و كتاباتهم!

شمران يقلب الأوراق بين يديه . . إبراهيم البهرزي . . خليل المعاضيدي . . خالد البهرزي . . أحمد عباس شحاذة . . معمر حميد . . إبراهيم الخياط . . حسين الجنابي . . . و راح بقراءة سريعة يطلِّعُ على ما موجود، فيعلِّق:

- من القراءة السريعة . . الواحد يـگدر يستنتج . . شباب واعدين!

- و أظنك تعرف البعض منهم؟

- طبعا!

- و بوقت لاحق نبلغكم بموعد الجلسة . . و إختارلك يوم تروح بيه للجريدة لبغداد حتى نبلغ الجريدة.

مغادرا غرفة الجليلي ظلَّ في قاعة الإستقبال حتى المساء . . الكادر الحزبي كله تقريبا هناك . . علي محروگ . . عبيد المنيري المهووس بهوى التبشير بظهورِ نبيٍ ثوري إشتراكيٍ جديد في الشرق الأوسط على غرار فيديل كاسترو . . لِمَ لا يشبه آلندي الذي جاء عن طريق سلمي و أطيح به اليوم، أم أن ظهور الأنبياء الثوريين لا بد أن يرتبط بقعقعة بنادق و دخان بارود و بصليلِ سلاح أبيض؟ . . و من بين مَن سيظهر هذا النبي؟ . . أثمة بالديار نوعٌ من ورقة بن نوفل؟ . . متلفتًا نحو وجوه حائرة لأناس كأن إبتسامة مذهولة فاجأتهم و إنطبعت و لا تبغي المغادرة . . من بهرز قيس الرحبي[56] مشغول بحديث مع المعلم عبد العزيز المعموري المثقف المخضرم . . عبد الحميد آل نوفة . . ثابت نعمان . . دهش علوان . . و إطلالة وجوه من شهربان و مندلي و خانقين و الخالص . . أبو صيدا . . بهرز . . شفتة . . خرنابات . . الهويدر . . الگصيرين . . الجدَيدة . . تعرّف شمران على أصحابها أثناء جولته الدعائية لإنتخابات المعلمين . . و شباب آخرين، من بعقوبة مصطفى الديو . . صلاح وهابي . . مصطفى گلّاز . . عبد الرزاق الجليلي . . طاهر عزت . . عوني رزوقي . . نجاح حمدوش . . و من شفتة محمود عبد الحسن[57] . . محمد عباس[58] . . كريم جواد[59] . . و من بعقوبة كريم عيسى التنتچي[60] . . صباح رحومي الگفچي . . محمد بلوز . . عطا كفشي . . غانم كفشي . . حيدر عبود فليجة . . الخياط علاوي الخشالي . . محمد الدفاعي . . و . . و . . و . . و

---

٥٦ قيس الرحبي قيادي محلي شيوعي ألصقوا به تهمة تمزيق لافتة من لافتات البعث في بهرز، و أعدم هو و عبد الحميد محمد آل نوفة جراء تلك التهمة عام ١٩٧٩.

٥٧ إختطفه الأمن البعثي عام ١٩٨٠ و لم يعد لأسرته في قرية شفتة ضاحية من ضواحي بعقوبة . . و سُمِعَ خبرُ إعدامه عام ١٩٨٤

٥٨ إختطفه الأمن البعثي عام ١٩٨٠ و أعدم عام ١٩٨٤

٥٩ إختطفه الأمن البعثي في عام ١٩٨٠ و أعدم في عام ١٩٨٤

٦٠ كريم عيسى غاب عن المشهد أبان الثمانينيات و بات مصيره مجهولًا.

عندما ضاقت قاعة الإستقبال بهم زحفوا ليحتشدو في قاعة الإجتماعات الكبيرة و سرعان ما ستضيق بهم هي الأخرى! . . إذن . . أصابَ مَنْ قالَ . . اللي تعَضـّه الحيَّة بيدّهَ يخاف من جرّةِ الحَبِلْ! . . و أغلب الذين هنا . . إن لم يكونوا بجمعهم . . فأغلبهم من المعضوضين من حيَّة إنقلاب شباط 1963 . . و ها هي جَرَّةُ الحَبلِ تأتي من تشيلي! . . و أيَّانَ ستأتي جرَّةُ الحبل القادمة؟ . . و ممن؟ . . و ها هي آخر الأخبار تحملُ نبأ سيطرة العسكر على سانتياغو سيطرة كاملة إنتهت بمحاصرة القصر الرئاسي . . سلفادور آلندي يرفض الإستسلام و يقاوم الإنقلابيين . . و يلقي خطابه الوداعي محيياً عمال و فلاحي تشيلي . . و ينهي آلندي حياته بيده! . . يا للشجاعة؟ . . يا آلندي أغبطك على شجاعتك! . . من منا سيجرؤ إلا يبكي! . . و بسماع هذه الأخبار ساد الجمهور الموجود في المقر صمت مفاجئ، و إمتد الصمت الى الجمهور المتجمع على الرصيف أمام بناية المقر . . تذكر شمران الوجوم الذي أصاب الوجوه حين تلقَّى الناس قبل عشر سنوات نبأ مقتل عبد الكريم قاسم و نجاح إنقلابيي 8 شباط في السيطرة على البلد و ما تلى ذلك من حفلات تعذيب و قتل، فإجتاحته قشعريرة مباغتة، و تصور الإنقلابَ الحاصل هناك على بعد عشرات آلاف الكيلومترات و مقتل آلندي و كأنهما يحصلان للتو هنا في بعقوبة خارج مقر الحزب! . . و صدق القائل . . و من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بُدُّ!

يغادر شمران قاعة الإستقبال شاقاً طريقه نحو الخارج وسط الأجساد المكتضة في ممر الحديقة الضيقة ثم نحو الخارج . . يا للهول! . . تفاجأ هناك بالحشد المنتشر على الرصيف و على الشارع . . شباب لا يعرفهم . . و شباب إلتقاهم في سفرات الشباب الثقافية الجماعية الى جزيرة أم الخنازير و بغداد و بساتين القرى . . يعرفهم و لا يتذكر أسماءهم . . و شباب يعرفهم . . طلبانة فليجة . . مثنى حميد . . محمد صفر . . ماجد هاشم الياسين . . هلال بندر . . فلاح كرادي . . ممدوح رزوقي . . نادر علاوي . . رشيد حميد أبو مناخير . .علي حسين كبة . . عماد خماس . .

عامر حسين مطر . . إبراهيم الخياط . . ذاري من بهرز . . و ها هو ذاري آخر من بعقوبة . . حكيم الدهلگي . . هاشم مطر . . سعد عبد عيسى . . رعد كاظم . . طارق بردان . . حقي حسين . . محمود عيسى[61] . . سعد كاظم . . باسم حميد أبو مناخير . . جمال صفر . . خليل المعاضيدي . . ضامر خليل . . رافع حسين . . مثنى سلام البدري . . إسماعيل شناوة . . عامر خليل . . ثائر بلوز . . سعد متي . . كريم بردان . . عبد الرزاق عبود . . كريم الدهلگي . . حميد علو الگفچي . . محمد بلوز . . كامل كلاز . . حقي حسين . . كريم حسن علو . . إبراهيم العمر . . رافع حسين . . و بسبب كثرتهم سرعان ما تاهت منه الأسماء!

تلك الليلة لم ينم شمران . . بسبب القشعريرة التي لازمت جسده، سيترك سريره الذي في سطح المنزل و ينزل لينام في غرفة الزوجية في الطابق الأرضي. وضع جهاز المسجل-الراديو الترانزستر جنب رأسه ليسمع آخر الأخبار . . و بين نشرة أخبار و نشرة . . يضع كاسيت موسيقى زوربا في المسجل و يروح يرقص ليتطهر من إحساسه بالخسارة الجسيمة و القشعريرة التي تلازمه بسبب ما يحصل في تشيلي! . . أو ربما كي لا يبكي! . . و في إحدى المرات نزلت زوجته و رأته يرقص في غرفة النوم و علقت:

- ها! . . إنجنيت! . . همين بديت تركص على موسيقى هذا اللي إسمه زَربة؟

يا هذه! . . أفي مثل هذا الوقت العصيب؟ . . يا للسماجة! . . فيرد عليها مستهجاً:

- آني چم مرة گِلتلچ . . هذا إسمه زوربا مو زَربة!

و يظل الناس يستمعون لأخبار مأساة تشيلي . .

---

٦١ محمود عيسى أعدمه نظام البعث الصدامي أبان الثمانينيات

قبيل منتصف الليل . . تأتي الأخبار مفصلة و دراماتيكية . . من راديو موسكو يأتي نبأ فكتور جارا، المدرس الناشط الشاب الشاعر المغني و المسرحي التشيلي المعروف عالمياً بمناهضة الإمبريالية، و بأغانيه الثورية، الذي ظل من صبيحة يوم الإنقلاب، هو و طلبته في الكلية التقنية في سانتياغو، و لغاية صبيحة اليوم التالي الثاني عشر من أيلول يغنون أغنية حزب آلندي الشهيرة . . سننتصر سننتصر! . . و بمرور الأيام العصيبة التالية شمران لا يغادر البيت، كي لا يرى ما يحلُّ بالقطيع . . و تتوالى الأخبار . . يُقتادُ المغني الشاب و جمهرة من المعتقلين يربو عددهم على الخمسة آلاف الى ستوديوم سانتياغو. و يوم الثالث عشر من أيلول يفتتحُ ذوو العِقَب الحديدية ببدلاتهم الكاكي حفلات التعذيب بالمغني فكتور جارا . . يعذبونه و يتمادون في تعذيبه، و يظل يغني . . سننتصر سننتصر! . . و لأنهم يعرفون جيداً إعتياده على العزف على غيتاره و هو يغني، و كي يكسروا شوكته كسروا لهُ يدَه التي تدوزنُ أوتارَ الغيتار و قالوا له ساخرين . . يا هذا إعزف الآن إن إستطعت! . . و يروح صوته يقوم بدور المدوزن للنغمات و يظلُّ يغني . . سننتصر سننتصر! . . و كعادة المجرمين بالتمادي في رؤية ضحيتهم تتعذب يتركونه يدوزون بصوته و يغني . . و يمرُّ يومُ الرابع عشر من أيلول و هو ما يزال يشدو . . سننتصر سننتصر! . . و إطالة لعذابه . . تركوا يومَ الخامس عشر من أيلول يمرُّ و هو ما يزال يترنمُ . . سننتصر سننتصر! . . و في يوم السادس عشر من أيلول يجدونهه ما يزال ينشدُ سننتصر سننتصر! . . آنذاك ها هو ذا اليأس يتمكن من المجرمين في محاولاتهم كسرِ شوكته و روحه الملحمية الجميلة الصابرة . . و ها هو ذا العجز عن إسكاته يذهب بهم مذهبا، حين وجدوه على الرغم من ألم يديه الكسيرتين و روحه المعذبة لا يكفُّ عن الإنشاد . . سننتصر سننتصر! . . و يمطرونهه وابلاً من الرصاص . . كم؟ . . عشرة؟ . . عشرين رصاصة؟ . . ثلاثين؟ . . أربعين؟ . . أربع و أربعين رصاصة إخترقت جسد فكتور جارا النحيل و الجميل ذي الأربعين عاماً . . و هو ما يزال ينشدُ . . جوان يا زوجتي الجميلة . . سننتصر سننتصر! . . و يفارق الحياة و تظل أصداء

روحه الجميلة تشدو و تغني و تنشدُ و تترنمُ . . يا جوان يا جميلتي . . سننتصر سننتصر! . . لغاية أن يتشبَّعَ بها فضاء مدينة سانتاياغو و يمحلها الأثير حول كوكب الأرض . . و تأبى أفلاك مجرة درب التبانة إلا أن تلتقط الصرخة الجلل . . سننتصر سننتصر يا جوان يا جميلتي! . . و يأبى الجمال ألا ينخلق إلا من رحم تراجيديا غطت ملعب سنتياغو. . جوان يا جميلتي . . سننتصر سننتصر!

و يبكى شمران عجزاً! . . سننتصر . . و يبكى . . سننتصر . . و يبكى! . . و سيبكي!

يبكي . . و يبكي . . و يبكي . . و هو يستمع دقيقة بدقيقة لأخبار ملحمة سلفادور آلندي و فكتور جارا، و يتذكر شمران في شريط متقطع و مشوش . . صوراً من ليالي شباط الباردة في مقبرة الشريف في بعقوبة الجديدة . . السلك الذي يلفه جاسم حسين صفاوي حول رأسه و يشده و يروح يصرخ بين القبور . . تمتزج بملعب سانتياغو . . تمتزج بوجه فكتور . . يتخيله أسمراً خمرياً . . وسطَ كوشةِ شعرهِ . . و عيني المُغني الواعدتين المستبشرتين و هو يتلقى رصاص المجرمين . . روحه تُنتَـزَعُ من جسده و أنفاسه الأخيرة يتلقفها الأثير لتنقل صدى كلماته الى الكواكب . . النجوم . . المجرات الكونية . . و هناك أيضا في ستوديوم سنتياغو أراد فكتور جارا أن يمضي الى ما يريد و يجعل من تشيلي وطناً حراً و من عمال و فلاحي وفقراء تشيلي شعباً سعيداً! . . لسنا موعودين بالسعادة يا فكتور! . . و ها هي أمام أنظارنا تلك الأفعى التي تحملها قطارات الليل الأمريكية تكبل أرضَ پابلو نيرودا بأصفادِ العسكر! . . رحماك يا پابلو! . . أين أنت يا پابلو؟ . . أين أنت و أمهات تشيلي الطيبات يُثكلْنَ في كل لحظة في ستوديوم سنتياغو! . . يا پابلو تسهر الأم على خلَفِها عشرين عاما و نيِّف . . كي تصنع منه شابة جميلة و سرعان ما ستقرأ تلك الصبية أشعارَك و تفتنها قصائدك و تروح لتموت من أجل الثورة! . . أو يصبح خلَفُها شاباً فاتناً و ما أن يقرأ أشعارك فيروح ليموت من أجل حبيبة في ثوان؟ . . لِمَ يا پابلو بَلَيتَنا بالثورة و الحبيبة؟

الثورة و الحبيبة! . . سننتصر . . و يبكى شمران عجزاً . . و يتذكَّر خولة و القمر و النهود المكورة الصغيرة . . و يبكى شمران أسىً . . يا فكتور! . . يا پاپلو! . . يا سلفادور! . . نحن نفقد روحنا قطعة فقطعة!

و من القهر . . يظلّ دمعُه يسحّ كأنه نهر!

و تدوم حفلات الموت في ستوديوم سانتياغو لمدة أربعة أيام! . . و البارودُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ . . أُبِيدَ بها من أبيد من الشيليين على يدي إنقلابييّ أيلول، و إحترق قلب من إحترق من بشر هذا الكوكب المشحون بالبغضاء و الأطماع و اللاعدالة! . . يا فكتور! . . و يا پاپلو! . . نحن البشر . . أستكون هذه خاتمة أحزاننا؟ . . أتقولان . . سننتصر! . . سنمضي! . . أسيحصلُ هذا في الغد؟ . . إذن . . الغدُ هو الفخ!

***** ***** *****

أول يوم من تشرين الثاني 1973 . . تصل أخبار جرائم أبي طبر الذروة بإعلان السلطات نظام منع التجول في بغداد منذ الساعة الثامنة مساءً و حتى الرابعة صباحاً . . و ها هي الأنباء تأتي عن دوريات مسيَّرةٍ في بغداد للبحث عن أبي طبر بتمشيط مناطق العاصمة و تفتيش بيوتها بيتاً بيتاً . . و ها هي تأتي معها الإشاعات تنبش النيّات المبيتة مرة أخرى عن نية السلطة الخلاص من خصوم خطرين فتشيع أنهم من أعوان ناظم گزار لكي تتستر على ما يجري!

و تغيم الصور في ذهن شمران المشوش عمن سيكون الخروف الآتي!

الأجهزة الأمنية في بغداد مشغولة لأيام بمنع التجول و محاولة إصطياد أبي طبر . . و بحكايات إشاعات تصفية الخصوم . . يأتي اثناء ذلك طعم خاص يحمله الخبر الذي بثته الإذاعات صبيحة يوم 6 تشرين الثاني . . و تضيع الحكايات عن أبي طبر و جرائمه . . ها هو العام مرة أخرى يأتي ليلهينا عن همومنا الخاصة، فيعلق شمران . . ألم اقل لكم أن العيش

علـى التخـوم فيـه مزايـا! . . أنبـاء عـن عبـور الجيـش المصـري لقنـاة السـويس و تحطيـم خـط بارليـف الإسـرائيلي علـى ضفـة سـيناء مـن القنـاة فـي تشـرين الثانـي 1973 . . طعـم خـاص و وقـع تطهيـري للأحـزان التـي لازمـت النـاس بسـبب المجـزرة التـي تعـرض لهـا شـعب شـيللي قبـل شـهر.

العـراق يرسـل طائـرات الـى مصـر . . و طائـرات و قـوات بريـة الـى سـوريا . . أهـذا خـاص أم عـام أم مختلـط؟ . . و الحـرب متواصلـة علـى قـدم و سـاق، سـرعان مـا سيدور حديـث عـن ثغـرة جنـوب قنـاة السـويس يحدثهـا الإسـرائيليون فتـؤدي الـى قبـول المصرييـن بهدنـة تكـون فاتحـة مشـروع سـلام و إستسـلام فـي الشـرق الأوسـط!

ها هي اللخبطة قد بدأت!

بعـد أشـهر يعـود الجيـش العراقـي . . تيتـي تيتـي مثـل مـا رحـتِ جيتـي! . . مشـاكل و صراعـات بيـن البعـث السـوري و العراقـي و تبـادل إتهامـات . . و مثلهـا داخـل مصـر مـع بعضهـم البعـض.

و ها هو شمران يتعرض للإمتحان مرة أخرى بعد إنفراط شلة المثقفين!

طعـم خـاص لحـدث حـرب أوكتوبـر؟ . . أجـل . . لا جـدال فـي ذلـك! . . أيصلـح منطـق العيـش علـى التخـوم هنـا؟ . . و هـا هـي الأخبـار تأتـي عـن فبركـة ثغـرة مزعومـة سموها الدفرسـوار إسـتطاع منهـا الجيـش الإسـرائيلي عبـور قنـاة السـويس مـن ضفـة سـيناء الـى ضفـة البـر المصـري . . ثغـرة لـم يُـحسب لهـا حسـاب فـي خطـة الحـرب! . . التاريـخ يعيـد نفسـه . . بعـد تحطيـم الإسـرائيليين لقـوة مصـر الجويـة بضربـة مباغتـة فـي حـرب 1967 راحـت التبريـرات تسـري . . توقعنـا طائـرات العـدو مـن الشـرق و جاءتنـا مـن الغـرب! . . ترهـات! . . و علـى الجانـب السـوري حديـثٌ عـن دعـم أمريكـي مطلـق للإسـرائيليين . . مـا وجـه الغرابـة؟ . . و لِـمَ لا يدعموهـم و الإسـرائيليون قاعدتهـم فـي الشـرق الأوسـط؟

شمران يحس وكأن ذاك الطعم الخاص للحرب الذي أشاعه المصريون بتحطيمهم لخط بارليف لم يعد خاصاً و بدأ يتبدد! . . مثل شخص تشبعت خياشيمه بشذى غامر لعطر سوار دو باري . . ثم فجأة . . تداهم خياشيمه روائح البصل منبعثة من فم أحدهم! . . أهكذا؟ . . ثغرة لم يحسب حسابها! . . و دعم أمريكي مطلق! . . يا للقطارات الأمريكية! . . و بالتالي ما هذا الإنعطاف ثم التعرج في الحدث ذاته و في المنطقة ذاتها؟ . . أكان هو على حق منذ البداية حين صنفها من نوع لا خاص و لا عام؟ . . أصحيح ما أشيع في الإعلام العربي من أن الإسرائيليين تفاجأوا حقا بهجوم السادس من أكتوبر العربي عليهم لأنهم كانوا مشغولين في يوم هاكيپيوريم! . . و ماذا عن الأقمار الصناعية التي تدين لهم بالولاء المطلق و تغطي جو الأرض كأنها شبكة عنكبوت! . . يوم هاكيپيوريم هو يوم غفران يُعدُّ عند اليهود نقطة تحول و فرصة أخيرة ليغيِّر به الشخص مصيره أو يغيِّر مصير العالم؟ . . أهكذا؟ . . يوم يغيرون به مصيرهم أو مصير العالم و لا يحتاطون له و يتركون المصريين يحطمون لهم خط بارليف؟ . . أصار الإسرائيليون عرباً كي لا يحتاطوا! . . أهو يقين أم هو إيهام أن الإسرائيليين كانوا مشغولين بعيد الغفران؟ . . إيهام لمن؟ . . لنا؟ . . إحنه قشمر! . . لا مو بس قشمر! . . إحنه قشامر! . . يعني إحنه كتلة من القشمرة! . . إحنه إمكانية يُعتدّ بها من القشمرة!

و مثلما سحَّتْ دموع شمران في يوم فائت على فكتور جارا لغاية أن إنسحن قلبه و إنسحنت روحه . . هذه المرة سيضحك شمران حتى ينفطس من الضحك و تسيل دموعه أسىً . . الإسرائيليين تفاجؤا! . . ها ها ها ها! . . العرب كادوا أن يحرروا القنيطرة و لكن! . . ها ها ها ها ها! . . و المصريون كادوا أن يحققوا نبوءتهم برمي اليهود في البحر و لكن! . . لولا ثغرة الدفرسوار لكانوا إجتاحوا سيناء كلها حتى يصلوا الى صحراء النقب . . أهي نَقَبٌ أم نُقُبٌ . . نُقُبُ من؟ . . نُقُبُ الذين خلّفونا و لم يحسبوا حساب نُقُوبنا! . . ها ها ها ها ها ها! . . يا للعقل الفذ! . . لا لا لا . . لا ليس فذاً! . . يا للعقل الشيطاني الذي يدير حركات الممثلين

من بعيد! . . أهو إله من نوع ما؟ . . لا لا لا لا! . . كان شمران قد تحرر تماماً وقتذاك من فكرة وجود إله و الفضل يعود أساساً الى رفيق سجنه أبي ذر ذاك الشروگي النبيل . . فشرع يصرِّح مكرراً أنه لا يؤمن بشئ سوى بنفسه! . . أهي ماكنة عالمية من نوع ما تدير الأمور؟ . . لا لا لا لا لا! . . تمهل يا شمران! . . تمهل يا مخترع العيش على التخوم! . . حتى و إن كان شيطانياً فما يزال بالإمكان توصيفه فذا! . . و إلا فكيف يكون عقلٌ من هذا الطراز شيطانياً أن لم يتمتع بالفذاذة؟ . . للصفة أخوات . . أكان إبليس ليتحول الى شيطان لولا الذكاء و الفطنة؟ . . خدع الأفعى و أقنعها أن تبتلعه خفيةً كمخبأٍ و تخدع رضوان البواب النبيل و تمر به مبتلعاً من أمام رضوان . . و هكذا دخل الجنة بغطاء أفعى! . . أكانت الأفعى مَلَكَاً كي تستطيع دخول الجنة هكذا و كأنه خانُ جغان؟ . . يا هذا أكان الكون فعلاً كله سِلاما لا أحد يأكل أحدا! . . و هناك إستمال الشيطان حواء الأنثى أولاً كي تأكل من التفاحة . . يا للذكاء! . . الصيد وافر عند الإناث! . . ثم أغوَت هي آدم و تبعها! . . يا للتابع! . . يا لحَمَقِ الرجال! . . الشيطنة و الفذاذة و الذكاء و ما إليها من صفات هي صنوان . . فلكي تنهي عداوة مع عدو عليك فيما بعد أن تلاقي ما تلاقي و تقترف ما تقترف في عقر دارك! . . و لكي تنهي عداوة مع عدو خارجي لا بد أن ينبثق أزاءه عدو داخلي . . عدو نفسك! . . بل و أحيانا تكون أنت عدو نفسك! . . و هنا يكمن لُبَّ المسألة . . فتكون النفس أمام إنعطاف و تعرج متداخلين على نحو يصعب فكاكه . . و يا للحرج و الحيرة لو تمكنت النفس من ذاتها! . . من الداخلي هنا و من الخارجي؟ . . بل ما الداخلي و ما الخارجي!. . لعبة تفتقر تماماً الى القواعد! . . لعبةٌ في البرية . . و تذكر شمران قول ثربانتس . . و من ذا يقدر على وضعِ بابٍ للبرية!

إنعطاف عام في حدث حرب أكتوبر هو لأن الحرب ربما وضعت المصريين العرب على طريق إستعادة أرضهم المحتلة في سيناء، في سيناريو يُبرِّئ السوريين في الشرق من تهمة تسليم الجولان و القنيطرة لإسرائيل مجاناً في حرب 1967! . . ثم يطرأ تعرُّجٌ خاص في الحدث

. . فبعده ها هو العنان يُطلق لمن سُمُنوا بقططٍ سمانٍ راحت تلتهم مردودات الإقتصاد المصري و تسحق الطبقات الدنيا دون حساب . . و ها هو الجدال يأتي مرة أخرى على الخبز . . الحرية . . الدين . . الثقافة و الفن . . الإشتراكية و الرأسمالية.

جدال! . . ثم على ماذا؟

السوريون بدأت تساورهم شكوكٌ تجاه البعث العراقي الشقيق و رغبته في إلتهامهم . . . تهمة إلتهام أزاء تهمة إلتهام! . . قانون الصحراء ما زال سارياً! . . إذا لم تكن ذئبا على الأرض أجردا كثير الأذى بالت عليك الثعالب! . . و ها هو صليل السيوف يُستبدَلُ بقعقعة البنادق و دخان البارود . . الكل يريد أن يلتهم . . و الكل خائف من أن يُلتهم! . . يا للعجب!

و يخطر في بال شمران بأسىً . . و ثمة من يَزعُمُ أننا فارقنا الغاب منذ زمان و يريد أن يأخذنا الى زمن سعيد!

*****   *****   *****

و ينهار إتفاق 11 آذار بين الكورد و الحكومة . . و رد فعل الحكومة يأتي بإعلان الحكومة في 11 آذار 1974 تنفيذ منطقة الحكم الذاتي من طرف واحد هو الحكومة!

عودة الى نقطة الصفر . . ها هم الكورد يقررون العودة الى الجبل!

المناوشات تبدأ . .

و ها هي السلطة في أواخر آذار 1974 تـعلِن عن صيد ثمين . . عثروا على أبي طبر! . . ها! . . ما عادت السلطة بحاجة لتمثيليات تصل بها الى غاياتها! . . و سيكون شمران واهما في هذا!

في نيسان 1974 تصدر أحكام بالإعدام بحق شيوعيين شباب إلتحقوا

بالجيش لتأدية واجب الخدمة العسكرية و حزبهم يتمتع بمنصبي وزيرين في الحكومة التي اصدرت محمتها قرارات الإعدام! . . و يدور في خلد شمران . . . طززززززززززز بالميثاق الذي أراده البكر و عزيز محمد ألا ينفرط! . . و تذكر شمران تعبير وسيم الحسني و هو متكئ على السياج الحديدي في ملعب الشعب يستمع لكلمة نعيم حداد . . و الله هذوله جماعتنا كمش على الطوفة! . . . و ها هو الخروف المُنتَظَر تبان ملامحه ليفتدي المجهول بدمه الذي سيسيح على مذبح الوطنية! . . يا للعبة! . . يا للدهاء! . . هذه أول جرّة حبل! . . شباب بعمر الزهر ينتظرهم الموت و يظل أملهم بالحياة معلق بذمة عزيز محمد الذي وقع ميثاقاً قيل له لن تنفرط عراه مع جلاد هؤلاء الفتية! . . فتية آمنوا بالغد . . و ها هو الغد يتكشف عن فخ مميت!

طيلة ما تبقّى من عام 1974 و بعضٌ من عام 1975 يقع الشيوعيين بين كماشة الكورد و البعث! . . البعث و الكورد، اللذين إنهار إتفاقهما، كلاهما خائفان من إعادة إنتشار الحمر على الساحة! . . قرارات إعدام الشيوعيين العلنية تدور في المنازل و تعانق المقاهي القديمة و الجديدة و تبعث الذكرى عن المشانق . . يأتي مؤتمر للبعث العراقي عام 1974 ليكرِّس حزب البعث قائداً للعملية السياسية . . و ها هي إرهاصات بناءِ صرحِ عبادة الصنم تعلن عن نفسها!

من يا ترى سيكون الفرد المعبود؟ . . أسيكون المعبود هذا هو كاسترو الشرق الأوسط الموعود؟

في كردستان تضييقات من الكورد ضد اليساريين يصل حد التغييب و الخطف و القتل! . . و سيسمع الناس عن سوار بعد گزار!

و يعود دخان البارود يتصاعد بصعود الكورد الى الجبل، بدخول شاه إيران على الخط.

في عموم العراق . . من بيده البارود يضيِّقُ على الخصوم خوفاً من

الإنتشار تصل الى حد الإحالة الى النقل و الإقصاء و الإبعاد!

ليس الجيش وحده حكر لحزب السلطة .. التعليم و المدارس و الكليات .. لن يكتفوا معه بجرَّة حبل! .. و مع من يشك بوجود الحيَّة ستكون حاضرة تلتهمه بمجرد دخوله جنديا في الجيش سور الوطن!

و تصدر أحكام أخرى بإعدام شباب ذاهبين الى الجيش سور الوطن الذي يحميهم أيام المحن!

الأخ الأممي الأكبر ما يزال سادراً في غيِّهِ و ينصح المساكين بالصبر! .. الصبر على عصابة حاكمة أتت بهم دبابة أمريكية و عقد هو معهم معاهدة صداقة!

هل ثمة أحدٌ ما يزال يتحدث عن كاسترو في الشرق الأوسط؟

و لحفظ ماء الوجه الذي أسيحَ بجبهة مع ثلة من المجرمين، و على الرغم من قرارات إعدام صادرة بحق يساريين شباب .. و على عينك يا تاجر! .... يظل البعض يصرخ بما يشبه الهمس .. إنتظروا يا ناس! .. هذي تصرفات فردية! .. أمارات بزوغ فجر كاسترو الشرق الأوسط ما تزال تومض!

صبراً أيها المؤمنين بالغد! .. و الغد هو الفخ!

ألا يقال بان آذار هو شهر الربيع و الزهر؟ .. و قول العراقيين الشهير عن آذار ماثل في الذهن .. آذار ابو الهزاهز و الأمطار! .. و إذا جاء عامُ ١٩٧٥ على أنه غَدُ ١٩٧٤ .. في ٦ آذار ١٩٧٥ .. تزامن في رأس شمران حدثان .. خاص و عام.

صباحاً .. يُفاجئ غايب مرهون زوجته و ولديه بدخوله البيت عليهم ضحىً .. إطلاق سراح مشروط قبل إتمام المدة لحسن سلوك السجين!

في العشية . . أخبار الأثير المسائية تنقل نبأ توقيع العراق و إيران إتفاقية لإنهاء مشاكل الحدود بينهما . . و يصل الى شمران خبر إطلاق صراح صهره غايب مرهون . . يا لغايب مرهون! . . أسمه حاضر و مقرون مع كل حدث خطير! . . يوم زواجه إقترن بيوم مقتل ملك العراق فيصل الثاني عام ١٩٥٨ . . و يوم إقتياده ليقضي مدة سجن طويلة إقترن بعودة القطار الأمريكي الى القصر الجمهوري العراقي عام ١٩٦٨ . . و ها هو يوم إطلاق سراحه من السجن يقترن لمرة ثالثة بيوم خطير آخر لا يدري المرء أية أسرار و خفايا ستحمل عنه الأيام!

إتفاق صدام و شاه إيران برعاية العرّاب بومدين الجزائري . . إذنت بإنحسار الحركة الكوردية المسلحة المدعومة من إيران و رحيل قادتها لا الى الجبل، بل عن الجبل أيضا مخلفين وراءهم على السفوح من سيكون لقمة سائغة خرفان على مذبح القومية . . جزءً من الخروف الذي ستتلَشْلَشُ أحشاؤه على المذبح!

في ١١ آذار قُتِلَ روبن بلبول آخر يهودي في بغداد في ظروف غامضة. . و بسماعه خبر مقتله إنثار الهاجس مرة أخرى في نفس شمران . . ها هم قد إنتهوا من الخروف اليهودي تماما . . فمن التالي؟

أسابيع تمضي على توقيع صدام و الشاه لإتفاقية رسم الحدود . . سيشيع بين الناس نبأ الثمن الباهضِ الذي سدده صدام لشاه إيران من سيادة البلد، كي يتخلص من دخان البارود على الجبل! . . . يا لسعادة الإيرانيين! . . و حين سيكتشف صدام نفسه ما إجترحته نفسه و يداه من إثم سيروح طيلة عام ١٩٧٦ و شطراً من عام ١٩٧٧ ليبحث عن خروف يفشُّ فيه غِلَّهُ . . و لم يكن ثمة أمامه غير اليساريين الذين رضوا بتوقيع ميثاق شرف مع الشيطان . . و ها هو ذا الطير الذي أمسك به صدام على الطوفة ذات يوم عام ١٩٧٣ يتكشف للعيان و معه خصوم صدام الخفيين في حزبه!

نصيب من ستكون البطشة القادمة؟

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بإنحسار الإعلام الكوردي عن بغداد بعد رحيل المقاتلين الكورد عن الجبل . . سيخسر شمران الأحمدي مؤقتاً مساحة نشر وفرتها له جريدة التآخي، و لم تتبقَ له سوى مساحة النشر التي توفرها له طريق الشعب، و إن كان ما توفره من هامش للنقد عموما يكاد لا يرتقي نوعاً الى ما يحلم به شخصه الطائف على التخوم . . و بقيام السلطة بتحويل البنية التحتية لجريدة التآخي الى بنية تصدر جريدة سموها . . العراق . . يديرها بعض الكورد لصالح السلطة، عادت و توفرت لشمران مساحة إضافية ينشر فيها آراءه التي بين بين. و شاء حظه مرة أن تنزل له في اليوم نفسه مادتان . . واحدة في جريدة طريق الشعب، عامود يتحدث عن خطورة تكريس الواحدية في ثقافة الشباب، و في جريدة العراق ظهر له ريبورتاج ينتقد به أيضا الواحدية في ثقافة الشباب، و زاد عليه بإجرائه لقاءً صحفياً مع موظفتين في مركز شباب بعقوبة. إحداهما هي نجلة العبيدي زوجة عُبيد المنيري القيادي الشيوعي المحلي، و الأخرى هي سهيلة السودة و هي زوجة لبعثي موتور.

ليلة من ليالي نيسان ١٩٧٧ لم يغب فيها القمر . . و شمرانُ مسهدٌ و غارقٌ في ذكرياته مع خولة، سيسمع فيها جرس الباب الخارجي يرن رنينا متواصلا بعيد منتصف الليل، ثم إنقطع لثوان، و عاد يرن طويلا . . ما الذي جرى؟ . . أمات والده مثلا؟ . . و من يكون الطارق في مثل هذا الوقت؟ . . و هو ينهض من السرير مستعجلاً تنتابه الهواجس و الوساوس، سمع هذه المرة طرقاً قوياً على الباب، فيسرع حافي القدمين من غرفة نومه، و يزداد الطرق على الباب و هو فيهرول نحو باب المنزل . . لم يستفسر أو يسأل و يفتح الباب، فيظهر له عند الباب في الضوء الكابي شابٌ عشريني بملابس الشرطة. و حتى قبل أن يستفسر ما كان الأمر و ما المشكلة، يعاجله الشرطي الشاب قائلاً بصوت خفيض و هو يتلفت من حوله:

- أستاذ شمران . . معود أخاف يشوفنه أحد . . أستاذ إذا تتذكرني آني تلميذك قيس من قرية أبو حصيوة

و بسبب ما بدى له من حذر محدِّثِه، علق شمران بعجالة:

- بالتأكيد . . أتذكرك . . شلون ما أتذكرك قيس! . . شلون أخوك طارق؟

- الحمد لله أستاذ . . يخليك الله أستاذ . . لعلمك ما أحد يدري آني جاي أخبرك!

ينتبه للشرطي يتلفت من حواليه و هو يحدثه كأنه خائف من شئ ما، فيقاطعه مستفسراً:

- شكو خير؟ . . گول! . . شكو؟ . . تخبرني! . . شكو؟ . . شصار؟

- تره گبل نص ساعة صدر أمر إلقاء قبض عليك بتوجيه من المحافظ

- أمر إلقاء قبض! . . من المحافظ! . . ليش و على شنو؟

- سمعتهم يگولون إنتَ البارحة الصبح ناشر بجريدة الشيوعيين مقالة تحچي بيهه على الحكومة . . و أكو فد إثنين نسوان بمركز الشباب مقدمات عليك شكوى.

- إثنين نسوان بمركز الشباب!

- إي . . و سمعتهم گالو راح يأجلون تنفيذ إلقاء القبض للصبح . . و آني شفت من واجبي تجاه أستاذي أجي أگولك حتى تدبر أمورك . . و الله يخليك تره آني جايك خِفيَة و ما أحد يدري بيَّ . . و لا تگول لأحد آني جيت گلتلك!

- إطمئن . . ما أگول لأحد! . . و آني أشكرك جدا.

يصافح شمران تلميذه النجيب و يشكره على مخاطرته بإخباره. و يمضي ذاك مسرعاً و هو يتلفت . . خرج شمران الى الشارع ليتطلع في الشارع خشية أن يكون رآهما أحدٌ فعلاً . . لم يكن ثمة أحدٌ في الشارع سوى بضعة كلابٍ سائبة تدور و يتبول بعضها على شجيرات الآس على طول الحديقة المحاذية للشاخة . . مقابل بيته.

يغلق شمران الباب و يستدير عائدا الى داخل الدار، فيتفاجأ بزوجته واقفة تنظر إليه مبهوتة، لتستفسر منه مرعوبة:

- هاي شنو شمران؟ . . شكو؟ . . هذا منو اللي چان يحچي وياك؟ . . شنو إلقاء قبض؟ . . شنو مقالة؟

يوضح شمران لها الموقف ملخصا الأمور ببضعة كلمات تساعدها على تفهُّمِ الوضع، و يذهب لإعداد حقيبة سفر صغيرة . . و يسمعها تدمدم:

- هذا اللي جانه من السياسة و الكتب و النشر بالجرايد! . . هالمرة توقيف و سجن و فرار!

لم يلتفت إليها. يجهز حقيبة و يهمَّ بمغادرة الدار، و صوت السيد عبد الكريم المدني يشق صمت فضاء المدينة، مؤذّناً لموعد صلاة الفجر، و مودعا زوجته خرج شمران يَغُذّ السير بمحاذاة الشاخة، متلفتاً أحياناً في كل الإتجاهات، خشية أن يكون متبوعا من أحدٍ، لكن الشارع كان يمتدُّ وراءه و أمامهُ خالياً تقريباً سوى نوبات سعالٍ آتية من رجلٍ تحجبه العتمة في الجانب الآخر من الشاخة، لغاية أن وصل الى محطة باصات بغداد، مقابل مقهى مناتي، و المحطة تشغلُ مكان بانزينخانة بعقوبة القديمة . . يصعد الى الباص، و يجده خالياً تقريباً عدا خمسة أنفارٍ إنتشروا في المقاعد القريبة من السائق، فجلس على مقعدٍ في وسط الباص تقريبا من جهة اليمين واضعاً حقيبته على يمينه عند النافذة.

و ينطلق الباص بعد دقائق . . في الطريق يراقب تشقق الليل بالتدريج

أمام إنبلاج صبحٍ يلوح في الآفاق البعيدة من حول الباص، سرح شمران في الإحتمالات التي يؤدي لها موقفه الجديد . . مذكرة إلقاء قبض بحقه! . . لِمَ إلقاء قبض و ليس إستدعاء؟ . . جرَّة حبل قوية للعائش على حافات الأحداث! . . أي المقالتين المنشورة له في اليوم الفائت هي السبب الأصلي فيما يجري له؟ . . أتلك التي في جريدة الشيوعيين أم تلك المنشورة في جريدة العراق جريدة الكورد البعثيين الموالين للحكومة؟ . . آه! . . و ها هو يتذكر ما قاله تلميذه الشرطي النجيب عن شكوى مقدمة من إمرأتين! . . سهيلة السودة؟ . . آه! . . نهلة العبيدي زوجة الكادر الشيوعي عبيد المنيري! . . ها هو الضبع مرة أخرى في الخيمة! . . سحب حقيبته الموضوعة على المقعد الى جانبه. و ضعها على ركبتيه و فتحها مخرجاً الجريدتين . . و راح يراجع عموده في طريق الشعب. و يقطع عليه سرحانه في القراءة توقَفُ الباص ليصعد مفتش التذاكر . .غارقٌ في ريبورتاج الجريدة عن مركز شباب بعقوبة، و المفتش يفحص تذاكر المسافرين الذين أمامه . . لم ينتبه لمن جلس في المقعدين اللذين على يساره . . مع أنه تاه عما موجود في الجريدة و فَضَّلَ رؤية الصبح تنبلج أماراته خارج الباص . . و يسمع المفتش يخاطبه:

- مبين أكو مشكلة! . . تمام؟

- تمام!

- . . بيش سرحان أستاذ شمران؟ . . مثلي سرحان بالموت؟

تربطه بهاشم عبد الحسين مفتش مصلحة نقل الركاب في بعقوبة معرفة قديمة . . هاشم معروف في بعقوبة بفوبيا الموت التي تستولي عليه كل دقيقة و يخاف من الموت أشدَّ الخوف، لدرجة أن شمران تذكر أنه قال له مرة معلّقا بمفارقة عن فوبياه:

- . . هاشم . . إنتَ عجيب! . . تخاف من الموت و رحت إشتغلت بمصلحة نقل الركاب . . و تظل صاعد بهالباص و نازل من ذاك

الباص . . و إنت رايح جاي معرّض للموت طيلة ساعات شغلك! . .

تذكر شمران ذلك، و خطر بباله أن يمازح هاشم فيعلق له . . الچلب يحب خناگه! . . لكنه أحجم بسبب مزاجه و همّه فإكتفى بإبتسامة، فقال:

- لا هاشم! . . آني لا أعبأ بالموت . . و لا أتطير منه . . آني على العكس منك . . آني من عبّاد الحياة!

- لعد شنو اللي سارح به أنتَ؟ . . و شطلـّعَك من الغبشة؟ . . أگدر أقراه لوجهك قراية! . . أشوفك مهموم!

لو لم يكن هاشم فطناً لما خاف من الموت . . هاشم في العقد الخامس و ظل عازبا، عنده فلسفة خاصة للموت! . . حكى شمران لهاشم بصوت خفيض قصة أمر إلقاء القبض الصادر بحقه من محافظ ديالى، و بسبب خوفه من الموت، كان هاشم معروفا بشخصيته الساخرة بالحياة و بالتعليقات الحريفة، فعلق قائلا:

- مو غريب هذا التصرف من هذا راعي الإبل . . هذا العُرْبِي الأعور الدجال مال محافظة ديالى! . . آني البارحة قريت كل الجرايد . . مال الموالين و مال الحلفاء . . آني شفت إسمك بمكانين . . هذي يا مقالة منهن ؟

- إحتمال إثنينهن . . مال طريق الشعب و مال جريدة العراق!

- و شراح تسوي؟ . . تروح للتيه في بغداد؟

- و الله ما أدري هاشم!

- بس گوللي أول . . شلون جبهتكم ويا البعثيين؟

و يغوص قلب شمران في قاع الحافلة و هو يسمع من هاشم سؤاله لما يحمله من سخرية بالجبهة المزعومة . . لم يجب، و ترك هاشم يسترسل

معلقا:

- و إنتَ تعتقد هذوله جماعتكم اللي بالجبهة الوطنية راح يگدرون يخلصوك من هالورطة؟

- بصراحة؟ . . ما أدري هاشم! . . لأن آني بعد ما جربناهم هوايه بمواقف من هالنوع . . فشلوا في إيجاد حلول . . خو إنت حتما سمعت باحكام الإعدام اللي تصدر بحق هذوله الشباب اللي ياخذوهم للخدمة الإلزامية بالجيش! . . آني يوم بعد يوم أزداد أقتناع إن الحل هو خلاص فردي مو ويه جماعة!

- و شنو يعني؟

- يعني . . عليّ أن أتحمل تبعات أعمالي! . . هذا اللي آني فايت به ما أحد جبرني عليه! . . و لازم آني أعثر على طريق للخلاص!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

في بغداد . . نزل شمران في فندق رخيص في منطقة الميدان. هذا ما كان يسمح به جيبه، و تحسباً ربما لإحتمال تمديد مدة فراره! . . الفندق مليئ بنزلاء من قاع المجتمع، و ها هو سيزعم لنفسه، في سبيل التبرير، توفر أسباب إضافية للبقاء في فندق رخيص إرضاءً لفضول التعرف على شرائح إجتماعية مسحوقة لا يراها عادة في محيطه، فضلا عن توفير المال اللازم لإحتمال بقائه في التيه لمدة طويلة. و بوصفه مراسلاً لجريدة طريق الشعب سيظل على إتصال دائم بالجريدة و من طريق التلفون بالناس ذوي العلاقة في بعقوبة . . أتفق مع عبد الرزاق الجليلي أن يتهاتفا على تلفون الفندق مساء لإستعراض التتطورات . . و ها هي رحلة التسويف تبدأ! . . اليوم فاتحوا لجنة الجبهة في ديالى! . . و بعد غد ستخاطب لجنة الجبهة في ديالى لجنة الجبهة المركز في بغداد! . . و اليوم كذا! . . و اليوم كيت! . . و اليوم التالي كذا و كيت. . و بمرور

أسبوع كيت وكيت! . . و هذا الأسبوع كذا و كيت! . . و الأسبوع الذي بعده كيت و كذا! . . وبمضي شهر على فرار شمران تتوالى الوعود بحل دون جدوى . . و النغمة ذاتها تتكرر مع كل مماطلة من حزب السلطة و يكررها الحزب الكومبارس . . و ها هو يواصل الإستماع لما يدور في ثنايا الثورية الشرق أوسطية! . . النغمة ذاتها . . لا تقلق هذا تصرف فردي و ليس سياسة عامة! . . أسلوب للمماطلة . . مماطلة ممن؟ . . و حنينه لبيته يكبر . . جلساته تحت شجرة التوت الضخمة فوق سطح المنزل مع إطلالة الغبش . . إستماعه للموسيقى مع إنبلاج نور الشمس . . إعتياده على القراءة هناك و النسمة ما تزال باردة و مريحة . . حنينه يكبر و يتضخم . . ما جعله آخر الأمر يلجأ لحلولٍ يُؤتى إليها من شوارع خلفية . . تذكَّرَ معرفته السابقة بوزير التربية[62] يوم كان الوزير محافظا في ديالى . . علاقة مهَّدَت لها في حينها علاقة بين زوجتيّ الوزير و شمران الزميلتين في مدرسة واحدة، فتوطدت تلك المعرفة أثناء لقاءات في مناسبات و أنشطة ثقافية و رياضية دارت في المحافظة.

و ها هو شمران أخيراً في إستعلامات مكتب الوزير علّه يضع حدا لمعاناته.

يستقبله الوزير . . فيشرح له شمران الموقف الذي هو فيه، و يدفع للوزير بنسخة من الجريدتين اللتين فيهما العمود و الريبورتاج، سائلاً الوزير أن يقرأ و يعطي رأيه إن كان ثمة ما يُسئ لسلطة البعث في ما كتبه . .

قراءة سريعة في المادتين المنشورتين، و يعلق الوزير قائلاً:

- ماكو شي بهذا المقال المنشور بطريق الشعب يتهجم على السلطة و يخيفها . . و لا بهذا الريبورتاج المنشور بجريدة العراق!

٦٢ الوزير هو «محمد محجوب الدوري»، الذي صار وزيرا للتربية منذ ١٩٧٦ و لغاية ١٩٧٩ و هو العام الذي أعدمه فيه صدام.

و يلقي الوزير نظرة خاطفة على إسمي الجريدتين، و يضيف:

- قد يكون ما أغاضهم هو نشر المادة بجريدة للشيوعيين و الأخرى بجريدة للأكراد!

- أستاذ أبو أحمد . . إسمحلي رجاءً . . أولاً الريبورتاج منشور في جريدة صحيح هي العاملين بها أكراد لكنهم حسب علمي بعثيين و واحد منهم ويايه بالمدرسة . . أما العمود بالجريدة الأخرى . . ها! . . إسمحلي استنتج! . . حضرتك تقصد لو چانت المادة منشورة بجريدة الثورة چان ما أحد إعترض!

و لمعرفته السابقة به . . الوزير نادرا ما يضحك، و يعلَّقَ الوزير ضاحكا:

- هاي إنتَ گلتهه بنفسك!

قد يكون في إشارة الوزير لجريدة الشيوعيين تلميحاً مبطناً له كونه شيوعياً، و كي لا يبدو إنكاره لشيوعيته مجانياً و لا قيمة له، عزف عن الإنكار، و الوزير يواصل:

- مو غريب اللي حصلك!

و يبغي شمران السؤال . . ليش مو غريب؟ . . لكنه يفضَّلَ الإصغاء للوزير يتم كلامه:

- . . هذا هو اللي يحصل عادة لما يتسلم بدوي من رعاة الغنم و الإبل سلطة في المدينة . . ما أخفي عليك . . حزبنا صاير يشبه البالـ . .!

لم يكمل الوزير المثل الدارج المعروف، و عد شمران ذلك من فلتات اللسان . . و شمران ما يزال يتذكر ما حصل لفليح حسن الجاسم من إقصاء و إبعاد . . فما الذي يدور داخل البعث هذه المرة؟ . . من يدري!

. . و حـاول الوزيـر أن يغطـي علـى زلـة اللسـان، مستفسـرا:

- . . اللـي صـدر بخصوصـك . . چـان مذكـرة إسـتدعاء لـو مذكـرة إلقـاء قبـض؟

- المصدر اللي جابلي المعلومة گـال إلقاء قبض!

و مـع ذلـك وجـد شـمران إن إستفسـار الوزيـر لـم يغطـي علـى حـدة تعليقـه و هـو يتحـدث عـن حزبـه، و قـرر فيمـا بعـد ألا يحـدِّث أحـداً بمـا وشـي مـن الوزيـر، خـوف ألا يصدقـه أحـد . . ثـم وعـده الوزيـر بإيجـاد حـلٍ مـن نـوع مـا، و طلـب إليـه أن يمـرَّ بـه فـي بدايـة الأسـبوع التالـي.

الأسـبوع التالـي . . هـا هـو الوزيـر يجـد الحـل و لكـن مشـروطا مـن قبـل سـلطات ديالـى بتعهـد خطـي يعطيـه شـمران فـي مركـز الشـرطة بـألا ينشـر مسـتقبلاً أي شـئ فـي الصحافـة العراقيـة أو غيرهـا . . لثـوان تمهـل شـمران بالـرد أو التعليـق و هـو يحتسـي القهـوة مـن الفنجـان الموضـوع أمامـه . . و سـيوافق و يشـكر الوزيـر . . و يغـادر.

و سيفضَّلَ العودة الى بعقوبة في اليوم نفسه . . و لكن مساء.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

فـي مركـز شـرطة بعقوبـة . . سـيدخل علـى ضابـط الشـرطة الخفـر برتبـة نقيـب يخاطبـه مرحبـا بنبـرة لا تخلـو مـن لطـف:

- تعال أستاذ شمران . . إستريح!

يجلـس . . يأمـر النقيـب شـرطياً بجلـب الشـاي . . المـودة التـي يقابلـهُ بهـا ضابـط الشـرطة غيـر مألوفـة . . يسـأله الضابـط:

- ما عرفتني!

اللطـف إذن سـببه معرفـة سـابقة! . . يتطلـع إليـه شـمران محـاولاً تذكـُّـرَهُ، فيعجـز، لكنـه يبـرر معقبـا:

- . . من لهجتك . . أگـدر أحـزر . . إنـتَ مـن شـهربان . . لكـن إنـت منـو؟ . . هـذي هـي اللـي تحتـاج وقـت!

- . . صحيـح . . بـس منـو؟ . . مثـل مـا گِـلت . . هـذي اللـي مـا راح تحزرهـه بسـهولة! . . بصراحـة . . آنـي عرفتـك مـن الإسـم الموجـود بمذكـرة إلقـاء القبـض . . إحنـه تفارگـنه مـن صـف ثالث إبتدائي . . إشـگـد صـار؟ . . چـم سنة؟ . . خمسـة و عشـرين سـنة؟ . . أكثـر؟ . . علـى أي حـال . . آنـي جليـل الجمـاد!

يبهـت شـمران صـارخـا و ينهـض معانقـاً الضـابـط . . و يأخذهمـا الحديـث يتذكـران سـوية أيـام طفولتهمـا فـي محلـة الرماديـة فـي شـهربان، و جيـرة و زمالـة فـي مدرسـة المقداديـة الإبتدائيـة . . قـال لـه النقيـب:

- تعـال أسـتاذ شـمران . . تعـال إكتـب هـذا التعهـد . . و آنـي أسـتغرب منكـم إنتـو شـلون مصدگـين كذبـة الجبهـة الوطنيـة هـذي . . شـنو إنتـو أغبيـاء!

- إحنه! . . إحنه منو؟

- الشيوعيين!

و غيـر المـرة التـي حصلـت لـه حينمـا كان عنـد الوزيـر، سبقتها مـرات . . هـا هـو شـمران يريـد أن ينفـي شـيوعيته لضابـط الشـرطة، فيحجـم مـرة أخـرى كـي لا يبـدو مـا يقولـه إنـكاراً مجانيـا و نوعـاً مـن تهـرب و تملـص . . و يـروح يستمع للضابـط يضيـف:

- . . لعلمـك . . النـاس كلهـه تعـرف البعثيين محضرين للشـيوعيين نـگـرة الله وحـده يعـرف شـگـد غميجة . . أنـگـس من نـگـرة السلمان . . بـس الوحيد اللـي مـا يريـد يصدگ هالحـچـي هم الشـيوعيين . . و هسـه تشـوفون!

لم يعلق شمران . . و يتذكر حديثه قبل سنوات مع وسيم الحسني عن الضباع . . فيوقِّعَ التعهد المطلوب و يشكر ضابط الشرطة رفيق طفولته، و يغادر الى البيت.

في الشارع . . الظلام يخيِّم على المدينة، تقارعه بضوئها الكابي من مصابيح أعمدة النور. و بهاجس أن يكون أحدٌ من معارفه في الشارع قد يلاحظ عودته الى بعقوبة، سيطلب من زوجته في البيت ألا ترد ذاك المساء على أي إتصال تلفوني يستفسر عن أخباره، هو بحاجة للراحة . . أخذ حماماً و لجأ الى غرفة النوم و معه الراديو- مسجل الصغير . . مستلقيا فوق سريره ليستمتع بالراحة التي يوفرها الفراش الوفير بعد التعب الذي عاناه من فراش الفندق . . فتح الراديو على موجة قصيرة و راح يبحث عن إذاعة تبث موسيقى كلاسيكية، فوجدها . . و مستمعا لصوت الموسيقى المشوش المبنعث من الراديو من إذاعة بعيدة، سرعان ما غاب في إغفاءة طويلة يخايله طيفُ خولة و إشعاعُ وجهها في ضوء القمر.

مرهون غايب مرهون

قبيل سن المراهقة . . سيمضي ردحٌ من زمان على الصبي مرهون غايب مرهون، يمسي فيه مسؤولاً عما كان في الأصل مسؤولية أبيه . . و في تلك الحقبة ظلت تلح على ذهنه الغض تساؤلاتٌ من قبيل . . لِمَ

كان أبوه يغيب عن البيت طويلاً؟ . . لِمَ كان أبوه و خاله لا يحدِّث أحدهما الآخر؟ . . و غيرها من الأسئلة. و لَمْ تسنح الفرصة له أبداً كي يسأل أباه، و حين شرعت هذه التساؤلات تراود ذهنه النامي بالفضول، كان أبوه قد ولّى الى غياب طويل في السجن، فإنضاف الى تلك التساؤلات تساؤل ثالث . . لِمَ كان عليه أن يتحمل و هو ما يزال طفلا مسؤولية إدارة عمل أبيه؟ . . سأل أمه أميرة مرة عن هذا الأمر، ردت عليه حائرة متظاهرة بعدم علمها!

لجأ أخيراً الى جدته صافية شُكُر الأسود قبل أن ترحل عن هذه الدنيا، فردت:

- إذا أبوك غايب بالسجن . . هذاك خالك شمران . . إنت مو تگول هو صديقك . . روح أسأله!

و يخطر بباله مرة أن يسأل خاله عن الأمر، و طول عشرته مع خاله بما صار يعرفه عن طبعه و خُلُقِهِ، راودته ظنونٌ عن إحتمال وجود أمر خفي قد لا يريد الخال أن يُفصح عنه، فيحجم و يبتلع ريقه في كل مرة يهمُّ بها للسؤال! . . و راوده في إحدى المرات فجأة تساؤلٌ عن إسمه و معناه . . من الذي سمّاه مرهون؟ . . و ما معنى مرهون؟ . . إستفسر من أمه فردت:

- أبوك . . سمّاك على إسم أبوه! . . عادة عند الناس! . . الأب يسمي أولاده على أسماء أبوه و أمه . . . سمّى أختك على إسم أمه نرجس . . و سمّاك إنت على إسم أبوه!

- سمّاني مرهون على إسم أبوه! . . و شنو يعني مرهون؟ . .

و تحاول أميرة أن توصل للولد معنى أسمه، فيلح بالسؤال:

- مرهون! . . مرهون لأيش و عليش؟ . . و منو هذا اللي رهني . . و منو اللي راح يفك رهني؟ . . يعني آني مكتوب عليّ . . راح أظل محبوس

بقوطية إسم ما أفهم ليش صار من نصيبي حتى يوم مماتي! . . ليش؟ . . ماكو طريقة أغيِّر بيهه إسمي؟

- إسأل خالك!

ها هو مرة أخرى يُحال الى مرجعٍ يتورع عن سؤاله . . و أيَ مرجع!

تساؤلاته عن أسمه تفصح عن فطنة مبكرة . . إلا أن فطنته هذه لن تسعفه كثيرا في غرفة الدرس، و سيظل نصيبه في المدرسة معلعلا بإخفاقات متتالية . . يتذكر أن خاله إصطحبه الى الكازينو ذات يوم عصرا، حصل هذا بيومٍ واحد بعد ذهاب أبيه الى سجنه الطويل . . و كان للتو قد نجح من الصف الثالث الإبتدائي، إنتزعه خاله من بعض مباهج عطلة الصيف . . فاجأه خاله و أخذه ليعتاد على الحلول محل أبيه مسؤولا . . رب أسرة بالنيابة، و رب عمل في إدارة الكازينو، تاركاً إياه يجلس في مدخل الكازينو وراء منضدة صغيرة فوقها صينية صغيرة يسكب فيها الرواد المغادرون ثمن ما شربوه، في حين يروح خاله ليجلس دائماً على إحدى القنفات الموضوعة عبر الشارع على الرصيف المقابل ليراقبه يتعثر في أدائه قبل أن يفهم و يهضم جيداً ما أراده خاله أن يتعود عليه . . في البداية ما كان خاله ليبقيه ساعات طويلة في الكازينو . . ساعتين أو نحوهما . . و يعود به الى البيت . . و يوم عاد الى البيت من ليليته الأولى ربَ عملٍ، وجد جدته صافية و أمه أميرة و أخته نرجس واقفات جميعهن وراء باب الحديقة بإنتظاره، و سمع جدته تبادر إبنها شمران بالتعليق:

- شمران إبني . . هذا شنو اللي سويته؟ . . يصير يودون طفل بعمر مرهون يشتغل لأنصاف الليالي؟

و يتذكر دائما أن رد خاله جاء حازما:

- يا أمي! . . يا أم أمير! . . أولاً بعد هوايه وقت قبل ما تجي أنصاف الليالي . . و ثانياً . أي يصير! . . فيصل الثاني مو چان بعمر مرهون

من نـَصُّبو ملـك؟ . . و خلـو عليـه خالـه وصـي . . و ظلـو يربـون بيـه من هـو زغيـر حتـى يصيـر ملـك؟ . . ليـش مـا يصيـر مرهـون يتـدرب علـى تحمـل المسـؤولية بـإدارة عمـل أبـوه المسـجون و يصيـر صـاحـب كازينـو؟

- و إنت الوصي؟

- نعم . . و آنـي الوصـي أراقبـه و أعلمـه؟ . . فيصـل چـان أبـوه مقتـول . . و مرهـون إبـن أختـي أبـوه مسـجون يعنـي شبـه مقتـول! . . ليـش يصيـر يدربـون واحـد و هـو زغيـر حتـى يصيـر ملـك و مـا يصيـر يدربـون واحـد آخـر و هـو زغيـر . . إذا ماكـو غيـره . . حتـى يصيـر صـاحـب كازينـو؟ . . شنو الفـرق؟

و يتذكـر مرهـون جيـدا أنـه تلـك الليلـة . . أحـس و كأن خالـه أفحـم جدتـه إفحامـاً كامـلا بالمثـل الـذي ضربـه عـن الملـك فيصـل الثانـي . . و سيسـأل خالـه عـن فيصـل الثانـي، فيحكـى لـه قصـة فيصـل الثانـي الملـك و مـا حصـل لـه فـي 14 تمـوز 1958 . . و راح و هـو صغيـر يتماهـى مـع فكـرة التـوازي بينـه ملكـاً علـى الكازينـو و فيصـل الثانـي يـوم كان ملـكاً علـى العـراق! . . و صحيـح أنـه لـم يفهـم تمامـاً فـي البدايـة مـا أُرِيدَ منـه و لـه بالضبـط، و لكنـه و هـو مـا يـزال طفـلاً بمـا تبقـى مـن تلـك العطلـة الصيفيـة العتيـدة و مـا تلاهـا مـن أشـهر خـلال دوامـه فـي المدرسـة و بمسـاعدة أبـي فـردوس چـايـچـي الكازينـو و إشـراف خالـه مـن بعيـد أدرك بالتدريـج معنـى أن يتحمـل المـرء مسـؤولية مـن نـوع مـا، و آمـن بـدوره الـذي يجـب أن يقـوم بـه ملـكاً لــ . . كازينـو أم كلثـوم . . و بطريقـة إفحـام خالـه لجدتـه تلـك الليلـة صـار خالـه بنظـره الشـخص الـذي يمتلـك كل الحقائـق!

و مـا فتِـئ يتذكـر مـا حصـل عنـد عودتـه الـى البيـت أول يـوم أخـذه خالـه الـى العمـل، و مـا دار عنـد بـاب الحديقـة، و أزاء وضعـه ذاك و عنـد دخولـه الـى غرفتـه فاجأتـه تـوأم عمـره أختُـهُ نرجـس، التـي لـم تهنـأ هـي الأخـرى برفقـة طويلـة مـع الوالـد إلا لمامـاً لتقـول لـه مستفسـرة:

- يعني إنت من هسه و رايح راح تصير بابا!

إحتار عقله الغض بِمَ يجيبها . . و كيف سيفسر لها أمرا معقدا من هذا القبيل و هو نفسه لا يعرف كيف يحل عقدته، مفارقة أن يكون أخو الأختِ أباها . . علاقة معقدة وجد نفسه فيها فجأة و دون سابق إنذار و دون علم . . فظل ساكتاً!

برعاية الخال، يملازمه في الكازينو طيلة مدة مدرسته الإبتدائية . . يذهب الى دوام المدرسة صباحاً، و عند عودته يتغدى و يجلس لساعتين مؤدياً فروضه لليوم المدرسي التالي، ثم يخرج و خاله معه حوالي وقت المساء الى الكازينو . . يبقى هناك لساعتين، أو أكثر في أيام العطل، قبل عودته الى البيت . . و لكنه ما يزال يتذكر ما حصل ظهرَ يومٍ من أيام 1970، و كان قد عاد للتو من مدرسته، و لم يكن قد ذهب بعدُ الى الكازينو، حين جاء مدير مدرسة خاله يُخبر جدته بأن ثلة من رجال الأمن أختطفوا خاله من المدرسة، فصرخت جدته بأعلى صوتها:

- يمه! . . راح وليدي!

و من أين لمرهون الطفل أن يدرك الموقف الذي كان خاله فيه . . و من اين له أن يعلم ما في صدر الغيب و ما سيأتي به المجهول بعد ثمان سنوات . . حين ستصرخ أمه أميرة وراءه يوما ما صرخة جدته ذاتها:

- يمه! . . راح وليدي!

أيامِ عمرهِ تلك حين أُختُطِفَ خاله، كان ما يزال فيها يجهل . . لِمَ تختطفُ السلطات الناس و أكثرهم لا يرجعون، إلا أنه شرع يدرك خطورة أن يكون الإنسان هدفاً لقوى غاشمة. و ما يزال يتذكر أيضاً أن جدته قضت الليلة التالية لذاك النهار مفترشة أرض الشارع أمام الباب تتلفت شاخصة ببصرها يميناً و يساراً لعلَّ أحداً يأتيها بخبرٍ عن خاله، و ظل ملازماً لجدته تلك الليلة بعد عودته من الكازينو لغاية أن أغفى على عشب

الحديقة . . و مرّ بمحنة كبرى أخرى ذاك العام كان خاله شمران أيضا سببها . . حين تزوج الخال و سكن في بيت مستقل خارج بيت جدته . . أحس بتهديدِ إنصراف الوصي عن مَلكِ . . كازينو أم كلثوم . . لكن ظنونه تبددت حين عاود خاله، بعد يومين فقط من زواجه، ليمارس وظيفة الوصي! . . و ما يزال يتذكر أيضاً لوم جدته الدائم لأمه أميرة بسبب مسايرتها لخاله شمران وسكوتها عن زواجه من إمرأة تكبره عددا من السنين، و لم لا يجوز أن يتزوج الرجل إمرأة أكبر منه سنا! . . و يسمع جدته تؤنب أمه لمسايرتها خاله شمران في زواجه، و هي تردد كل يوم:

- هو أحلى منها بميت مرة! . . شلون تزوجهه و هي أكبر منه خمس سنين؟ . . گلوب أبو الميَّة يتزوج لمپة مفسفسة! . . شراح تطلع الخلفة؟ . . گلوب منخنفس أبو الخمسة!

و سيسترجع في ذاكرته دائما تهاوي صحة جدته صافية بسبب زيجة خاله تلك و تموت كمداً! . . و غير ذلك، أن خاله لم تأته من زوجته خِلفَة . . لا لمپة مفسفسة و لا گلوب منخنفس أبو الخمسة! . . و حزن حزنا شديدا على جدته.

عبوره مرحلة التعليم الإبتدائي ليس باليسر الذي توقعه له خاله . . تأخر سنة في الخامس الإبتدائي و ها هو يتأخر سنة أخرى في السادس الإبتدائي . . يتذكر أنه حتى لو بات خاله مقتنعاً آنذاك تمام الإقتناع بتصلب عوده لدرجة أنه لم يعد بحاجة ملحة لوجود الخال يوميا معه في الكازينو، إلا أن خاله لم يخفِ قلقه على تأخره في التعليم و ظل يحثه على بذل جهد أكبر، و إعتاد على أن يقدم له العون في بعض الدروس، إلا أن إنشغال خالهِ في شؤون الثقافة و السياسية، ألهته عن متابعته في الدرس، فضلا عن أن همته هو بالدراسة كانت تتضاءل تدريجيا . . و تمرُّ في خاطره دائما تجربته مع خاله و هو يمرنه كيف يكون إنساناً بالغاً يتحمل المسؤولية بالتجربة لا بالمواعظ!

و يعبر العتبة الى التعليم المتوسط و هو في الخامسة عشرة، فيتلقفه صديقاه و إبنا محلته اللذان يسبقانه عمرا بسنتين و يسبقانه في الدراسة أعواماً . . أحمد عباس شحاذة و حسين الجنابي. و ها هما يقودان رجليه الى تجمعات الشباب اليساري . . و في المتوسطة يبدأ تعلقه شغفاً بنعمة الجنابي أختِ صديقه التي تكبره سنتين و ستتوظف بشهادة المتوسطة بائعةً في معرض مديرية الأسواق التجارية . . أوروز دي باك . . و هي من سيلاحظ جمهور المشيعين ظهورها القصير جداً بين حشد الرجال المجتمعين أمام دارهم يوم تشييعِ إبيه الى مثواه الأخير، و بسبب إنشغاله بالتشييع الموشك لجنازة أبيه، و مستغربا مجيئها، سيتوجه إليها حينئذ ليسألها عن سبب مجيئها و المشيعون ينظرون إليهما بفضول، ستخبره و هو في محنته تلك أنها جاءت لتفضي إليه بفراق أبدي بينهما و تختفي!

الشيمة غالبا ما تكون أحدى إنسحابات حقبة المراهقة عند الفتية . . سيشرع صديقاه بإعانته في شغل الكازينو أحيانا كثيرة و دون مقابل . . غير أنه لم يهنأ طويلاً برفقتهما في المرحلة المتوسطة. بعد سنة سينتقلان الى مرحلة تالية، أحمد شحاذة الى الدراسة الإعدادية و الثاني الى إعدادية الصناعة بسبب تدني معدل درجاته . . و سيخترع أسبابا يذهب بها الى بيت صديقه حسين الجنابي كي يحظى بفرصة رؤية أخته التي شُغف بها حباً بإنجذابه الى صدرها الناهد الذي تتجسم حلمتاه أمام ناظريه من تحت لباس النوم و ساقيها الممتلئين الذين يتيحان له تخيل ما في أعلاهما . . كم جِئت يا ليلى بأسبابٍ ملفقةٍ! . . و لكنه سيعاني ضيماً على يدِ التي تفتحت بمرآها ذكورته . . الحنين الى أول منزلِ!

و ها هما ذا صديقاه يضحيان مكشوفين للسلطة بوصفهما من شباب اليسار، و هو معهما . . و معروفين أيضا شاعرين ناشئين ينظمان أغاني الحب و الغزل و قصائد النضال الفوضوية. ينشران بعضها في زاويا الصحف للكتابات الشابة . . و لأنه لا يمتلك موهبة مثل موهبتيهما، و لكي يجاريهما، لم يكن مرهون ليتردد عن إنتحال قصائدهما، بعلمهما في غالب الأحيان طبعاً! . . يعيد نسخ قصائدهما بخطه الردئ و بتحويرات

بسيطة و يبعث بها الى فتاته نعمة الجنابي على أنها قصيدُ هيامٍ من سَطرِهِ هوَ، و تتلقاها من يده ببرود ظاهر! . . و يسخر منه صديقاه مازحين . . حرامي!

و يرسب مرهون في الصف الأول متوسط و يدخل السادسة عشرة من العمر. الأوقات السعيدة أمدها قصير! . . و ها هو أول خبر عن قرار إعدام بحق شاب يساري إلتحق بالجيش سيصير الشاغل المُرعب و يدوِّخ الأصدقاء الثلاثة في نيسان عام 1974 . . الجندي المكلف عدنان شرهان . . يُحاكم بشبهة تأسيس خلايا في الجيش تعود لحزب غير الحزب السلطة . . و يذيع الخبر تتداوله لقاءات الشباب من إقرانهم . . الموت إذن ينتظر هناك في المدى المنظور! . . و سيعلق شمران خاله أمامه على حدث قرار إعدام الجندي:

- هذي مو جرَّة حبل . . و لا جرَّة إذن!

و سيسمعه يضيف:

- هاذي الحيَّة . . تفغر فاها مكشرة عن نابين سامين! . . و الويل لمن يقف في طريقها!

قرار الإعدام . . كان جرسَ إنذارٍ لكل الشباب اليساري ممن ينهي دراسته و يجد نفسه مرغما على الإلتحاق بالجيش ما لم يفر أو يفلت بطريقة أو أخرى. و أكثر إرعاباً منه كان موقف الجهة راعية الشباب و حاضنتهم بعجزها عن حماية جمهورها من الموت بقرار أتخذته محمكة خاصة تابعة لحكومة لها مشاركة فيها بوزيرين . . و سيصابُ الأصدقاء الثلاثة بصدمة . . إحباط مروع! . . ما العمل؟ . . و لطالما سمعوا من شمران الأحمدي قوله:

- حين يغدو الموت جماعياً و لا مفر منه . . لا مناص من أن يصبح الخلاص فردياً! . . ما لم يتفق البشر على مشتركات و يكفوا عن قتل

بعضهم البعض بسبب الدين أو القومية أو الفكرة أية كانت . . سيظل الخلاص من درب الجحيم فرديا!

يجتمع الشباب الثلاثة صباح جمعة في بستان عباس شحاذة كي يناقشوا حالهم. و أزاء الموت المقروء محققاً بإنتظارهم إذا دخلوا الجيش، القرار سيكون إذن رفض أية ميتة مجانية على يد سلطة البعث . . و قرروا على ألا تفنى حياتهم بميتة قد لا تحظى سوى بإحتجاج يأتي حيِّياً من لدن حزبهم الشريك في الحكم . . تحت ذريعة التصرفات الفردية! . . و إحتجاج حزبهم لن يكون سوى إسقاط فرض لا يقدم و لا يؤخر في مصير جمهورهم! . . أول ما تبادر الى أذهانهم فورا هو الفرار . . فعل إستباقي! . . هروب الى الأمام! . . فتوة ما تزال عالقة بأهداب المراهقة، و لا تخلو من رومانسية! . . و لأن مرهون يعلم بقصة شغف أحمد شحاذة صديقه بأخته نرجس منذ كانا في طور الصبا في مرحلة الدراسة الإبتدائية، سيخبره أحمد أنه لن يفر إلا و نرجس معه بعد أن يطلبها من أبيها و من خالها شمران و يتزوجها، و أنه سيقنع أمه بفراره و هو يتوقع موافقتها مستعيناً بخاله حسين گطمة و بالذات حين يعلم هذا إن إبن أخته سيفر بنرجس إبنة غايب نديمه المسجون . . يا للرومانسية! . . فرار مع الحبيبة! . . و كم عمر الحبيبة؟ . . ما تزال كأخيها في السادسة عشرة . . و ما دام مرهون هو نفسه قد تعلق للتو بنعمة أخت حسين . . فما الذي سيقوله هو الآخر و هو ما يزال صبياً و تلميذا حارنا في الصف الأول المتوسط و عاشقاً لبنت تكبره بسنتين و ما تزال هي الأخرى متأخرة في المرحلة المتوسطة من الدراسة؟ . . أول شئ خطر بباله التستر على عمر محبوبته كيلا تسمع أمه و تتذكر كمد جدته صافية و موتها بسبب زيجة خاله شمران من إمرأة تكبره بسنين . . لكن خاله شمران سيعلم و سيظل حائراً بكيفية إقناع مرهون بألا يتزوج إمرأة أكبر منه سناً!

شمران هاديهم و مرشدهم . . هذا ما يظنونه. و يتفقون على طلب إستشارته بخصوص خطة إفلات و هروب . . و خاله على علم بإهتمامات

صديقيه بكتابة الشعر، فيجدونها ذريعةً يجلبون بها شمران الى البستان . . رغبة الشاعرين الشابين بإسماع شمران بعض إشعارهما الجديدة . . يقرآنها أثناء إستمتاعهم بتناول سمك نهر ديالى المسگوف . . و مع أنه لا يأكل السمك، سيوافق.

نهارٍ من نهارات مايس 1974 . . أحمد شحاذة يسبقهم منذ الصباح الى البستان المطلة على نهر ديالى على طريق الهويدر مقابل منطقة چبينات السامرلية. و خاله و حسين الجنابي يراقبانه بصبرٍ، يمد يده من فتحة في باب البستان العتيق المصنوع من جذع النخيل، ليصل الى مفتاحِ خشبيٍ ضخمٍ أخرجه من مكان ما يعرفه خلف الباب . . علّق خاله:

- مرهون . . هذي الذْوارة مال واحد يندل!

المفتاح بيده يطرطق به في مكان ما خلف الباب، و يرد على خاله:

- آني معتاد أجي هنا هواية . . ويه أحمد!

الطرطقة عبر الكوة بحجم اليد في باب البستان على ظهر الباب طالت نسبياً . . ها هو أخيراً . . يندفع الباب المائل و ينسرح أمامهم الى الوراء . . و منذ قبيل دخولهم الى البستان و حتى وقوفهم في باحة ممر البستان الداخلي، راحت بضعة زنابير حُمر و صُفر تهاجمهم، فيتقونها أحياناً بأيديهم و أحياناً بإمالة رؤوسهم.

الشمس توشك أن تتمكن من سمت السماء . . أفضيةُ البستان مكشوفة و يشتد بسببها وقع حرارة الشمس على النفس بالتدريج، فتكون الظلال ملاذات آمنة تخفف من وقعها على الأصداغ . . و مع ذلك، النهار جميلاً و ما يزال يحتفظ ببعضٍ من طلاوةِ جو ربيعي تنتشي به البستان في ظلال الشجر . . كوَّرَ مرهون كفيه واضعاً إياهما حول فمه يبوِّق بهما:

- . . أحـــمــــــد! . . أحــــمــــــــــد!

فيـرد عليـه صمـت البسـتان الـذي لا يبـدده سـوى هديـل الحمـام و زقزقـة الشـحارير . . فيعيـد الكـَرَّة . . و الكـَرَّة. . و لا جـواب . . و الكـرة لغايـة أن سـمع رداً:

- هاوووووووووو! . . هاوووووووووو! . . هنااااااااااااااااا!!!!!!

أخذ خالـه و حسين الـى الـدارة الصغيـرة فـي وسـط الممـر الرئيـس. يتركهمـا هنـاك فـي قلـب البسـتان، و ينـدفـع متقافـزاً بإتجـاه النهـر. و لمـا أشـرف علـى الجـرف لاحَ لـه مـن بيـن رؤوس شـجيرات الطرفـة و الصفصـاف المنتشـرة عنـد الجـرف زورق صـغيـر يصطلـي بأشـعة الشـمس، و صـاح:

- أحــمــد!

من بعيد يلتفت إليـه أحمـد و هـو فـي داخـل الـزورق و يشـير لـه أن ينتظـر ريثمـا يلـِمَّ الشبك المنشـور فـي ميـاه النهـر لصيـد السـمك تمهيـداً لسـحبه الـى الجـرف.

ملوحـاً لـه من فـوق الجـرف عارضـاً المسـاعدة . . يتلقـى مرهـون رد أحمـد أن لا حاجـة لنزولـه الـى النهـر. و إذ كان يعـرف أن أحمـد مـن طـراز البشـر الذين لا يهـدرون جهـداً و لا يطلبـون عونـاً مجانيـاً، قـدَّر أن صديقـه سـيحتاج الـى ربـع سـاعة علـى الأقـل كـي يكمـل لـَمَّ الشـبك، فإسـتدار لينسـحب الـى داخـل البسـتان حيـث تـرك خالـه و صديقـه حسـين . . كان عليـه أن يصعـد ربـوة صغيـرة. و مـا أن صـار فوقهـا، تهيـأ لـه أن يطـل علـى فسـحة قريبـة من الجـرف فـي البسـتان المجـاور إذ تناهـت إليـه أصـوات أنـاس كثـر، فأطـل اسرى مـن بيـن الأكمـة . . نسـاء . . رجـال . . فتيـات . . شـبان . . صبيـة صغـار يركضـون و يختفـون وراء الأشـجار و الأكمـة . . متنشـقا مـا تبقـى من عبيـر القـداح فـي فضـاء البسـتان، طابـت لـه إطالـة النظـر فـي مشـهد زوار يجسـرون علـى إنتهـاك حرمـة الأطيـار فـي عزلتهـا . . النسـاء بَدَيـنَ ا. يعـددن طعـام الغـداء. و متخفيـا وراء شـجيرة طـُرفة ينظـر مـن خـلال غصونهـا، تتضمَّـخُ خياشـيمه بالرائحـة المميـزة للنبتـة الرطبـة، فتشـيع عنـده

إرتياحا من نوع ما. و يجيل النظر فيما حول الفسحة . . إلمامٌ بالمشهد كله! . . فيلمح قريباً من الفسحة خلف الأكمة كائنين يتحركان بإتجاهه في ساقية من سواقي البستان، و تملّكه الفضول ساكناً في مكانه . . يراهما يشقان طريقهما تحت شجرة برتقال معمرة ما تزال مثقلة بثمرها القديم يتلألأ فضاق به ثمر الربيع الجديد. ظل يناوش برأسه للوصول الى مرأىً أفضل، فتمكن أخيراً من رؤيتهما من زاوية أوضح ينزلقان في الساقية، مع أن رأسيهما ظلا محتجَبَين عن نظره . . رجلٌ و إمرأةٌ . . و من ملبسهما خُيِّلَ لمرهون أنهما في سن الشباب. و إذ بانت فتوة جسديهما على الرغم من بعدهما النسبي عنه، رأى ذراعا الرجل تروحان لتلفا جسد المرأة إليه بقوة توحي بإحتمال أنهما غابا في قبلة طويلة، في حين راحت ساقا المرأة ترفسان الأرض بمهلٍ . . ثم تتَجسَّرُ يدُ الرجل فتمتد ببطئ متنسللة الى فخذ المرأة، الذي إنحسرت عنه تنورة قصيرة، و تتمادى اليدُ لتعبث بشئ تحت التنورة . . أحس مرهون بالحرارة تتفجر في داخله ثم تصعد نحو صدغيه اللذين ألهبتهما الشمس، فراحا ينبضان بقوة تعلن عن الشوط الذي إهتز به كيانه . . شعر برجليه ترتعشان، فتذكر من نعمة أخت صديقه صدرها الناهد و ربلتي ساقيها و جيدها الأسمر الطويل! . . أحس أن رجليه كانتا بالكاد تحملانه، بل ربما ما عادتا تطيقان حمله، فجثى على الربوة، ثم تدحرج زحفاً على عجيزته الى أسفل الربوة بإستسلام لإحساسٍ مجهول قاده ليستقر تحت شجرة تين . . لابثاً هناك ينظر في الفراغ، و شجرةَ سدرٍ ضخمة كانت قبالته تلف نظراته بلطفها و هسيس أوراقها . . و بمضي بضعة دقائق تغيبه ثوانيها بأحلامه، أحس براحة و خدر لذيذ جلبا لنفسه الهدوء، فتنبَّه الى أرتال نمل صاعدة نازلة فوق جذع شجرة السدر . . ظل مدة طويلة يراقب النمل، و يرفع بصره بحركة لا شعورية الى أعلى شجرة السدر ليرى مبلغ علوها، فتعذر عليه إدراك قمتها و الى أي شوط بلغت السماء . . أراح رأسه على جذع شجرة التين . . سدرة المنتهى . .الربيع . . النمل . . البشر يمارسون ما يمارسون تحت الشجر . . الأطيار . . أشجار البرتقال بثمر أخضر فجٌّ صغير مكوَّر . . و أشجار برتقال تنوء بحمل حائل . . و

أشجار تحمل هذا و ذاك . . خاله شمران . . نعمة . . أفعى فاغرة فاها . . الموت الذي ينتظر!

لم يدرِ كم مضى عليه من الوقت و هو مسبل العينين لغاية أحساسه بقشعريرة و وشوشة في أذنيه عندما أدركه صوت أحمد:

- مرهون . . مرهون . . مرهون . . تعال!

صوت أحمد يوحي و كأنه يعلم بمكانه القريب . . نفض عنه التراب و تقدم بإتجاه الجرف متجنباً الربوة الصغيرة، و ينحدر نحو النهر. كان أحمد قد ترجَّل من القارب لامَّاً شبك الصيد بين يديه، و إن كان جزءٌ منه ما تزال أطرافه في الماء . . فطلب أحمد منه:

- ما دامك جيت . . يلله ساعدني بسحب الشبك!

يسحباه سوية . . لم يكن الصيد العالق بالشبك وفيرا، و لكنه يكفي لوجبة غداء و يزيد . . و يروح مرهون يراقب السمك الذي ما يزال بعضه يلبط فوق رمال الشاطئ محاولاً الخلاص من الشبك نافخاً بخياشيمه في حين راحت أصدافه تلمع و تعكس نور الشمس.

يعلّق مرهون:

- صيد وفير!

- مو كُلِش! . . لما يكون الماي خابط يكون الصيد وفير عادة! . . ماي النهر يصفى شويه لما يكون الربيع في أواخره . . ناوشني هاي السلة على الجرف!

يأتي مرهون له بالسلة . . و يخلّصُ السمك الصغير من الشبكة ليعيده الى ماء النهر. أخرج أحمد من السلة سكيناً و راح يشق بطن بعض سمك الصيد و ينظفه و يغسله بماء النهر، و سأل مرهون:

- ثلاثة سمچات كافيات . . لو أسويهن أربعة؟

يرد مرهون:

- ما أعرف!

- يلله . . عدنا بالغرفة وياهن أكل إضافي!

متقدماً صديقه أحمد متسلقيِّن الجرف نحو البستان . . حمل مرهون السمك المعد للشوي و أحمد يحمل سلة ما تبقى من السمك و عدة الصيد . . سائرين بين عروش الشجر، إستفسر مرهون:

- شلون عرفت آني قريب من الجرف؟

- شفتك و إنت فوگ الربوة و شفتك تتدحرج من فوگهه زحفاً . . هذا الفرق بين واحد عايش بالبستان و احد ما عايش بالبستان! . . العايش بالبستان نظره دائما يستشف الموجود وراء الأغصان حتى لو كان خيال!

- أحمد . . تدري شنو اللي شفته من فوگ الربوة؟

- شنو؟

فيروي لأحمد ما رأى . . و يضحك أحمد حتى تبان نواجزه و العرق ما يزال ينز منه على الرغم من إغتساله بماء النهر، فيعلـّق:

- إحتمال حبيبين! . . أو زوج و زوجة!

- إنت تحچي و كأن اللي شفته آني هو مشاهد مالوفة بهذي الأماكن!

يتوقف أحمد و يلقى نظرة ذات مغزى على مرهون، و يعقب:

- برأيك . . لعد الله ليش خلقهه للمرأة؟ . . و ليش خلق الرجل؟

- خلقهم بس لهاللشغلة؟

- طبعاً لا! . . مصيبتك إنت يا مرهون بصديقك الثاني الموجود بالبستان . . ذاك الصديق أفسد عقلك . . هو عايش بين نثايه ثمانية . . لهذا تشوفه بإستمرار زهگان من الإناث و سيرة الإناث . . و لأن هو الوحيد بلبول بيناتهن إنصاب بالبطر و الملل . . يدلِلَنه أكثر من اللازم و يبالغن هوايه بتدليله بسبب كونه البلبول الوحيد بيناتهن!

- . . .!

- و إذا إنت في بالك هو متحمس للفرار فقط بسبب موضوع الإعدام اللي ينتظرنه بالخدمة العسكرية . . و هذا هو شاغله الوحيد . . فإنت متوهم!

- لعد!

- بالأول و التالي هو يريد يخلص من أمه و من كومة النثايا اللي وياه! . . الله يساعده! . . إنت شايفهه لأمه من تندگ الباب و تطلع و بيدهه الجگارة معنترتهه بين هذني الإصبعين؟

و يعنتر أحمد إصبعيه مثلما تفعل أم حسين، و يضيف:

- و تبدي تِتنـَتـَرْ . . شتريد؟ . . إنت ليش جاي؟ . . و شعندك جاي؟ . . مرة من المرات گِلتلهه . . هاي شنو خالة أم حسين ليش تِتنـَتـَرين! . . ليش آني جاي أجَدِّي منكم؟ . . أريد أشوف حسين! . . و ترد عليَّ . . زين أوگف هناك بعيد خطوتين عن الباب! . . هذا أسلوبهه! . . و للإمانة تراهن بناتهه تعلمن منهه هذا الأسلوب . . الله يساعد رجلهه! . . و إنت ما لگيت من كل بنات المحلة بنت تحبها غير وحدة من بناتهه! . . إنت أيضا الله يساعدك!

اخذاً كلام صديقه أحمد تهريجاً، يضحك مرهون و تبان أسنانه السفلية

بالطريقة نفسها التي تبان بها صف أسنان إبيه المذهبة . . ما الذي سيرد به على صديقه؟ . . أسيقول له أنا مأخوذ بنهديها؟ . . أم سيحدثه عن ساقيها الموحيتين الجميلتين؟ . . فخجل و فضل الإصغاء لصديقه يواصل:

- المرأة عندي تشبه شجرة البرتقال هذي . . تمتعني بأهابها الخلّاب . . و ثمرها المر اللاذع أحيانا و الحلو أحياناً . . تبهج قلبي لما تتكلل بالقداح الأبيض الفواح . . المرأة أشوفهه بنفس العين . . أشوفهه مثل واحة خالقهه الله للرجل . . يسكن إليها . . ينهل منها . . و يبرد قلبه! . . و خالقني آني إلهه تسكن إليّ! . . ها؟ . . حفظت هذا الحچي حتى تروح تكتبه لنعمة الجنابي؟

- على كيفك أحمد! . . يا معود مو لهالدرجة! . . مو كل اللي أكتبهن مالاتكم!

- شوف آني أعرف إنت تاخذ قصايد حسين و تحورها و تكتبها و تدزهه لأخته نعمة!

- . . . !

- بس أريد أعرف . . هو يعرف إنت على علاقة بأخته مثل ما تعرف إنت آني على علاقة بأختك و أريد أتزوجهه؟ . . هو يعرف إنتَ تزرگ لأخته رسائل من تمر عليه للبيت؟

- ما أدري . . يعرف ما يعرف؟ . . ما أدري!

- برأيي . . حتى لو هو لاگفك و يدري لأن آني أدري حسين لوتي و سكيتاوي . . و مع ذلك أفضل لو تخليه يعرف . . يسمعه من لسانك! . . مثل ما خليتك تعرف آني أحب أختك و هي تحبني! . . و إذا راح تكشفله السر . . راح يظل الفرق بين وضعي و وضعك چبير.

- ليش؟

- أختك تحبني . . و آني ما شايف أخت حسين تحبك!

و يحاول مرهون التهرب مما سمعه من أحمد، معقباً:

- صار . . راح أخلي حسين يعرف!

يسيران متأنيين في ممرات البستان الضيقة، و ستضيق أكثر بالعروش المتدلية و الأيك الذي إبتدأ ينوء بحمله الصيفي . . ينحنيان مرة لتفادي أيكاً متدلياً أو مزوَّراً . . و مرة أخرى لتجنب أن يدوسا على بعض شتلات خضراوات غضة زرعتها أم أحمد. عَرَقُ أحمد ما يزال يَسِحُّ و هما يتقافزان بين السواقي، فيتذكر مرهون ما قاله له حسين مرة عن أحمد من أنه . . يخلق قناعات و يسوق نفسه إليها سوقاً . . و جاءته مرة أخرى كلمات أحمد تتدفق من فمه أحمد و راح يستمع:

- . . كثير من الناس يتحدث عن المرأة و كأنها كائن ثانوي . . و هذوله تلتقي بأمثالهم حتى بين الشيوعيين! . . و حتى لما إمرأة تماشي رجل معين برغباته نشوفه أحيانا يسخر من قناعاته و إحتمال بعدين يعيِّرهه لأن إستجابت! . . ليش؟ . . طيب . . ليش الطبيعة خلقت الناس هيچي؟ . . أقصد ليش خلقتهم رجل و إمرأة؟ . . مو الغاية هي حتى يكتمل الواحد منهم بالآخر؟ . . و هنا ما يهم وين يسكن إليها و يكتمل بها الرجل . . في بيت! . . في بستان! . . تحت عريشة عنب! . . بظل طرفة! . . جوه صفصافة! . . في قارب! . . أو فوق فراش مصنوع من القطن أو القش! . . أذكر و آني طفل . . چان عمري لو عشرة لو تسعة . . چنه هنا بالبستان آني و والدي و والدتي و أختي فاطمة . . أشار أبي و هو يغمز لأمي بإتجاه موضع معين قرب الباب تظلله عريشة عنب و أرضه معشَّبة بعشب خفيف . . و هو إحتمال چان مطمئن على أساس آني و أختي إحتمال ما راح نفتهم اللي يگوله! . . گاللهه لأمي . . أم أحمد تذكرين هذا المكان؟ . . حتى هذي اللحظة ما

أزال أتذكر الطريقة اللي إحمَّرُ بيهه وجه أمي حياءً . . و جاوبته . . ليش إنت ناسي هذا المكان حتى آني أنساه! . . ضحك أبي في حينها ضحكةً هسه يلله أگدر أفسرهه كما يحلو لي و هسه يلله أگدر أفسر ليش وجه أمي إحمَّرُ! . . و مع هذا يظل تفسيري ناقص . .

- . . ليش ناقص؟

- . . لأن ماكو أحد يگدر يتخيل النشوة اللي تخلقهه اللحظة بين إثنين! . . ظلت كلماتهه بذهني . . ليش إنت ناسي هذا المكان حتى آني أنساه! . . و ظليت فيما بعد . . بالأخص بعد أن ربطتني علاقة حب بأختك نرجس . . كلما أمر بالمكان المقصود أستعيد كلمات أمي . . و كلما أكبر أطلع بكلماتها بتفسير جديد مضاف للتفسير السابق . . و أتخيل اللي حصل بين الوالد و الوالدة في ذاك المكان الفردوس! . . و هسه بإمكاني أن أتخيل سعادة أبي و هو في عليائه يشوف هسه أمي كلما تجي للبستان بعد موته تتوجه مباشرة للموضع الفردوس ذاك و تاخذ قبضة من عشبه و تشمه و تمكث فيه مدة مو قصيرة و هي تنظر ساهمة بعشب الأرض و يسيل دمعهه . . يا للذكرى! . . يا لرومانسية الذكرى!

و يعلق مرهون فجأة:

- أوگف! . . آني لحد هسه مِفتهم إنت صحيح صاحب بستان و إنت شاعر همين! . . بس گوللي هذا كله اللي حچيته هسَّه شنو؟ . . هو هذا اللي يسمونه فلسفة!

- مرهون . . يا مرهون غايب مرهون . . واضح حچي اللي حچيته آني چان فوگ طاقتك! . . بس يا لخسارتك! . . ولك لعد إنت شتعلمت من خالك؟ . . و چماله يگولون ثلثين الولد على الخال!

يغرقان بضحكة. بوصولهم الى الدارة الصغيرة، يغتسل أحمد بماء من

برميل صغير مغطى أمام الدارة، و يشرب من تنگة كبيرة موضوعة على برميل ثاني بجانب برميل الماء و يتبعه مرهون شارباً . . أطلَّ أحمد على الدارة من بابها، و يستدير سائلاً:

- لعد وين أستاذ شمران و حسين؟

- حتماً راحوا بجولة بالبستان!

- يلله ندوِّر عليهم!

يعودان للتقافز عبر السواقي من أجل اللّحاقِ بشمران و حسين . . يتوقف مرهون أمام شجرة برتقال و يتفرج على حملِ الشجرة . . ثمر حائل و ثمر مولود . . يعلق أحمد:

- أشوفك وگفت!

- أتفرج على هذي الشجرة . .

- هذا لا يصحّ! . . هذي رغبة الوالدة . . بس آني ما راح أخليهه تسوي هيچي مرة أخرى . . مثل إمرأة يتأخر حملها أكثر من تسعة أشهر . . و شوف شنو النتيجة!

- شنو النتيجة؟

- يكبر الجنين أكثر من الحد اللي تسمح به الطبيعة و إحتمال يقتل الأم . . الطبيعة لها قوانينه . . و لك يا غشيم آني إبتليت بك! . . شوكت راح تگوم تقرأ و تتنور؟

- إنت شنو قصتك اليوم؟ . . كل حچيك عن النسوان!

- المرأة شاغلة الدنيا و مالِئة الحياة! . . ترعاها و تصونها و هي بالمقابل تمتعك و تبهجك!

و يشقان طريقهما بين الأشجار و صديقه لا يتوقف حديثه، تاه مرهون بخاطره حول أمه التي شقت كثيرا مع أبيه المسجون، و يعاود الإستماع:

- إياك و التوهم فد يوم . . و تتصور إن المرأة تنسى اللي يبهجها طالما هو أمين وياها لأن أبهجته . . آني والدي و والدتي چانو أفضل مثال للحب . . و مع ذلك الواحد منّا بإمكانه يشوف مقدار الجور و الإساءة اللي تتلقى المرأة!

مطرقا يستمع لصديقه، جال خاطر مرهون مرة أخرى حول أمه و أبيه فتوقف . . و توقف أحمد فألفاه ينظر أليه سارحاً، و لكن أحمد مضى في طرح فلسفته عن المرأة:

- . . و أنطيك مثال عن الجور اللي تتلقاه المرأة!

- مثال؟

- بلي . . إنت سمعت حتما بقصة هذي البنت اللي إغتصبوها إثنين من الرجال البالغين؟

- طبعاً!

- و اللي نحكم على واحد منهم خمسطعش سنة و الآخر إثنعش سنة؟

- إي!

- أهلها صفّوها البارحة.

- يعني شنو صفّوها؟

- تاليها وياك؟ . . يعني قتلوها . . أبادوها من الوجود . . أخوها و إبن عمها!

يتوقف مرهون مرة أخرى، و من الغثيان يكاد عقله الغض البسيط ألا

يستوعب ما يسمعه، فيعلق:

- بالله عليك . . شلون يگدر واحد من الناس على إبادة ناس آخرين و بهالبساطة؟ . . زين . . و أهله ليش ما أبادوهه گبل ما ينحكم على اللي إغتصبوهه؟

- . . أهله تريثوا و إنتظروا . . حتى يشوفون الحكم على المجرمين راح يجي بمستوى الضرر!

- أي ضرر و أهله أبادوهه هي و الضرر؟

- أغلب الناس تكون عندهم ذريعة الذنب أكبر من الذنب نفسه! . . لو المحكمة مصدره على المغتصبين حكم بالإعدام چان مصير المغتصبة المغدورة إختلف عند أهلها . . لكن هذا اللي جرى و صار!

يجتاح راس مرهون دوارٌ يلِمُّ بكيانه كله . . و يرفع بصره نحو أحمد، فيجده لا يريم متمتعاً بالنظرة الثابتة نفسها التي لا يعرفه بغيرها، فقال:

- تدري أحمد؟

- شنو؟

- . . آني محتار بك . . شلون تگدر تحچي عن مثل هالمسائل و تظل متماسك بكل هذا الهدوء!

- - و شراح يصير لو إهتز كياني! . . لأن المهم أن يتوصل الناس الى طريقة يمنعون بيهه حصول ما حصل! . . أقصد قتل البريء و ترك القاتل يمضي في سبيله!

- مكتوبلي اليوم أسمع هذا الرأي مرتين!

- منين سمعته؟

- من خالي شمران. و گال أيضاً . . چنه نعتقد العالم سينقلب حاله من مجرد قراءة الكتب . . و گال لكن إكتشفنه إحنه چنه متوهمين و رايحين زايد بهالوهم!

- تدري ليش؟ . . لأن خالك شمران هو واحد من الناس اللي بعدهم يتمتعون بمنطق مقنع و سليم!

- و گال أيضاً . . حال هذي الدنيا يشبه ذيل الچلب الأعوج . . اللي واحد من الناس فد يوم حاول يعدّله و خلاه بگصبة أربعين يوم و لما جا يطلعه من الگصبة بعد أربعين يوم . . من طلّعه ظل الذيل عدل لمدة دقائق . . و فجأة سوه طننننننن و رجع إنعِوَج!

- عفيه عليك أستاذ شمران . . أجمل تشبيه! . . و برأيك شنو الحكمة اللي راد يسوقها خالك من سرد هذي الحكاية؟

- إنت گوللي!

- الحكمة هي . . الذيل يظل أعوج لأن الأصل أعوج . . و لأن الأصل أعوج يكون من العبث محاولة تعديل الذيل! . . و اللي يرضى يصير ذيل مال چلب لو مال واوي يظل أعوج طالما الچلب أو الواوي هو أعوج!

- عيني . . و هذا شنو معناه؟

- . . . عليك إذن أن تعلم الثعلب إلا يسرق الدجاج و يخنگه!

- و هذي شلون راح نگدر نسويهه!

- ما ممكن نسويهه إلا إذا تعلم الدجاج يطير قبل فوات الآوان!

يغرقان بضحكة طويلة. و من خلال الأغصان لمح أحمد شمران و حسين واقفين على جرف نهر ديالى بمحاذاة السياج الواطئ للبستان

المجاورة من جهة الشمال . .

يتبادلون التحية. و مع أن شمران كان قد تردد على بضعة بساتين في منطقة الهويدر أثناء عمله مع الشباب، إلا أنه لم يحصل له قط أن أتى الى هذه البستان . . فيسأل أحمد:

- هذي البستان اللي من هالجهة مالتمن؟

- بستان خالي حسين گطمة.

و يعلق شمران تلقائيا و بنبرة ذات دلالة:

- آه! . . حانة الأسرار!

الجميع يضحك . . شمران و أحمد عن دراية، و شمران عن جهل، و حسين الجنابي هو الوحيد الذي لم يضحك. لكن مرهون الذي لم يكن يعلم شيئاً عن بستان حسين گطمة سوى أنها بستان خال صديقه أحمد شحاذة، سيستفسر من خاله:

- شنو هالأسم! . . حانة؟ . . تقصد حانة مثل مال أبو ناظم؟

- نعم . . إذا سامع بيهه!

و يستفسر مرهون:

- و يا أسرار؟

مرهون لا يتلقى رداً، مع أن أحمد لم يكن الوحيد الذي يعرف ما كان يدور و ما زال يدور في بستان خاله. و يتبادل نظرات مبطنة مع شمران، لأنه الوحيد الذي فهم التلميح، في حين راح حسين الجنابي يطوي الأرض بنظرات العارف الصامت. و يسمعون شمران يغني:

- حانة الأقدار . . عربدت فيها لياليها . . و دار النور والهوى صاحي .

.هذه الأزهار من سيسقيها . . وساقيها بها مخمور . . كيف يا صاحي!

مرهون و أحمد معتادان على سماع شمران يغني إلا حسين الجنابي، فرفع بصره فاغراً فاه يتفرج على شمران و هو يغني. و شمران ما يزال يردد الأغنية، علق مرهون لخاله:

- هنا بين البستانين . . أكو فتحة على بعد خطوتين.

يتوقف الخال عن الغناء و يستفسر من إبن أختـه:

- و إنت رايح لداخل بستان الجيران هذي مال حسين؟

- حاولت بالنهار مرة لو مرتين . . بس أويلي! . . أكو بيهه فد چلب بلية . . صوته وحده إذا تسمعه عبالك دبابة!

يضحك الجميع . . و يعلق أحمد مقترحا:

- نروح نحضِّر أكل؟

يعود الجميع الى الدارة الصغيرة . . السمك يُشوى على النار، وتدور الأحاديث عن البساتين بين شمران و أحمد. مرهون يسحب حسين من ساعده يأخذه بعيداً لينفرد به بين الأيك المتدلي، و حسين يطيعا لغاية أن توقف مرهون فَي بطن ساقية تاركاً صديقه على جرفها، و ظل يتطلع إليه، فسأله حسين:

- جريتني كل هالمسافة . . شبيك؟ . . و شتريد؟

- حسين . . آني أحب أختك نعمة!

بعيشه مع شلة إناث عَوَّدَ حسين نفسه على الصمت، فظل صامتاً و كأنه لم يسمع جديداً، و بالذات حيال موضوع حساس يمسُ أختـه. و هو في عليائه على جرف الساقية تظل نظراته تراوح نازلة على مرهون

و هو في الساقية، و لم يُبدِ أيَ ردِ فعلٍ، مثل إمرئٍ ينتظر بقية حديث. كأنه ربما يريد أن يعلق . . يلله! . . وينك؟ . . خلصني على الأقل من وحدة من هذني النثاية البلاوي اللي ويايه بالبيت! . . و لكنه ظل لا يريم . . و لكي يكون أميناً مع حسين مثلما أوصاه أحمد، يضيف مرهون المضطرب قائلاً:

- و تره آني مرات من أجي عليك و أدگ الباب و تطلعلي نعمة . . أنطيهه رسائل!

حسين المعروف ليس بصمته فحسب بل بخبثه أيضاً، يواصل صمته و نظراته تنصب واقعة على مرهون الذي راح إضطرابه يتضاعف، و بفطاريَّة أضاف:

- رسائل غرام!

و يقرر حسين فجأة أن يكسر الرتابة التي ظل محافظاً عليها، ليعلق:

- و النتيجة؟

- زواج طبعاً! . . و إذا سويناهه مثل ما خططنه . . أتزوجهه و آخذهه ويايه!

مرة أخرى يرد الى ذهن حسين كأنه يريد أن يقول لمرهون . . ولك يلله! . . وينك؟ . . خلصني من وحدة منهن! . . لكنه و تجلياً لخبثه الشديد، عزم على أن يُظهر لمرهون أنه بالمقابل بإستطاعته أن يلقنه درساً بسبب وقاحته و صلافته و عدم خشيته في حديث أمامه عن حب و غرام مع أخته، فعلق قائلاً:

- يعني إنتَ فرحان . . لأن كشفتلي عن سر ما أعرفه عن أختي؟

- أي . . . يعني!

- زين . . آني هم راح أكشفلك سر يبدو إنتَ ما تعرفه عن أبوك!

يتسلق مرهون من بطن الساقية ليمسك بذراع حسين، سائلاً:

- سر! . . عن أبويه؟

- إي . . ليش إنت مستغرب؟ . . إنت مو بنفسك ويانه سمعت خالك گبل شوية يسمي بستان حسين گطمة حانة الأسرار . . و إنت مثل أي غبي علقت . . حانة يعني مثل مال أبو ناظم! . . و ما أحد جاوبك . . تمام؟

- إي تمام . . لكن شنو علاقة أبوية بالموضوع؟

- هنا مربط الفرس! . . هذي البستان مشهورة بحفلاتهه الليلية . . يسكرون و يجيبون كاولية و الدنبك يظل يلعلع بيهه طول الليل . . و يگولون . . صوت الدنابك يوصل لچبينات و للهويدر . . و ما أدري بعد شيسوون! . . أشكال إشاعات نسمع عنها!

- و لحد هسه ما دا أعرف شنو علاقة أبوية بالموضوع!

- عيني . . أبوك چان أحد الأبطال المدمنين على هذي الحفلات!

مرهون تأخذه صفنة طويلة و تروح نظراته تتيه في قعر الساقية الرطبة . . و سرعان ما تذكر شريط طويل يخص حسين گطمة . . فحين سِيقَ والده الى السجن ظل حسين گطمة عدا عن أي أحدٍ آخر يزور والده في سجنه، و ظل أيضا يرتاد الكازينو مرات في الأسبوع الواحد، عدا عن سؤاله المتواصل عن أمورهم عارضا عليه أي العون عند الحاجة، و تشجيعه المستمر له و الثناء عليه في إدارة الكازينو . . و صحيح أنه لم يُحَدِّث خاله بهذا الأمر، لكنه حين كان يستفسر من أبي فردوس عن حسين گطمة كان هذا يجيبه بعبارة واحدة . . صديق الوالد!

ما يزال ممسكاً بذراع حسين، هزَّه ليستفسر منه:

- و خالي يعرف؟

- ولك زمال! . . شنو هالسؤال الغبي؟ . . إذا مختار ثقافي مال بعگوبة مثل خالك ما يعرف لعد منو اللي يعرف! . . ولك مو خالك گبل شويه هو اللي سمّى البستان مال حسين گطمة . . حانة الأسرار!

- و أحمد حتماً يعرف!

و تمادياً في خبثه، علق حسين:

- يا هذا! . . و بالله عليك . . لا تگوللي أيضاً إنتَ هلگد غشيم لدرجة إنك حتى ما تعرف علموديش أبوك إنسجن!

يرخى مرهون يده و يحرر يدَ صديقِهِ من قبضته، و يسير عائداً، فيتبعه حسين و على وجهه ظل إبتسامة باهتة! . . بوصولهما الى الدارة، و بمجرد رؤية تعابير وجهيهما حزر أحمد ما دار بين الإثنين و لكن ليس كله، و حاول أن يعيدهما الى جو المكان، فصرخ بهما:

- هاي إنتو وين؟ . . يلله جيبو الخبز . . سوو زلاطة . . الأكل جاهز تقريباً!

بجهوز السفرة على بقعة أرض معشّبَةٍ . . سيتفاجأ أحمد و حسين بحقيقة أن شمران لا يأكل السمك، و سيلومان مرهون على تقصيره بعدم أخبارهم . . و يكتفي شمران بإعداد وجبة سلطة من الخيار و الطماطة و البصل يلفها بالخبز و يشاركهم الوليمة . . يخيم الصمت على المكان أثناء تناول الطعام. شمران من جانبه لم يعتد على الحديث أثناء تناوله الطعام، و فلسفته تقول أن الحديثَ عند تناول الطعام يُشغِلُ الآكلَ عن الإستمتاع المطلق بتناول الوجبة. أما الثلاثة الآخرون، فإثنان منهما إنشغلا بالتفكير بالكيفية التي سيطرحون بها مشكلتهم على شمران، و

مرهـون لوحـده سـرح فكـره بالمعلومـات التـي سـمعها عـن أبيـه السـجين!

يتناولـون الشـاي . . بعـد القـدح الثانـي مـن الشـاي، يتبـرع أحمـد بمفاتحـة شمران بخطتهـم للهـروب مـن إحتمـال مواجهـة الإعـدام الـذي ينتظرهـم فـي الجيـش بسـبب أفكارهـم اليسـارية و يسـوقون لـه الأسـباب. و طيلـة عـرض الخطـة، لـم يقاطـع شـمران أو يعلـق علـى مـا سـمِعه مـن الشـلة، و يظـل يراجـع فـي رأسـه مـا يسـمع منهـم، و أخيـراً قـال معلقـا:

- خطة هروب جماعية!

ينهـض شـمران . . مثـل قديس يستأذن حوارييـه الأنقيـاء السـريرة ويتركهـم حيـث هـم، و يسـير لوحـده. تركهـم وراءه، و راح يجتـاز السـواقي و يشـق طريقـه بيـن الشـجر المسـتأيكِ متجهـاً نحـو النهـر. لـم يلحـق أيٌّ منهـم بـه، و كأنهـم قـدَّروا حاجتـه لوقـت يهضـم بـه مـا سـمعه هضمـاً جيـداً! . . و هنـاك فـي صومعـة النهـر نـزل شـمران مـن علـى الجـرف الـى الشـاطئ الضيـق. النهـر مـا يـزال يزخـر بفيـض مـاء الربيـع الـذي بـدا يصفـو شـيئا فشـيئا بعـد فيـض أول الربيـع. و مـذ كان صغيـراً ثـم شـاباً حيـن كانـت شـلة السـباحة . . عبيـد الصبـاغ و غضبـان خلـف سختـچـي و يلقبونـه ليلـو و عدنـان رازقيـة و فاضـل الكـردي و أحمـد شـلغيم . . يأتـون للسـباحة فـي نهـر ديالـى ليـس بعيـدا عـن هـذا المـكان. كان يتـرك شـلته فـي النهـر و يصعـد الجـرف ليتـوارى بيـن شـجيرات الصفصـاف و الطرفـة ليدخـن سـيجارة و يتطلـع مـن بيـن أغصـان الشـجيرات الـى المـاء المنسـاب بهـدوء . . هـا هـو مـرة أخـرى يتفـرج علـى مـاء النهـر محافظـاً علـى بعضٍ مـن زخـم إندفـاع فيـض الربيـع. مـع إنسـياب المـاء، راحـت الأمـور تنسـابً فـي رأسـه مـع تموجـات التيـار الخفيفـة. نيـة هـروب يخطـط لهـا الفتيـة الثلاثـة تتيـه مـع المويجـات الهادئـة لمـاء النهـر، و قـد سـمعهم للتـو يكـررون مـا سـمعوه منـه يومـاً مـا . . حيـن يغـدو المـوت جماعيـاً و لا مفـر منـه . . لا منـاص مـن أن يصبـح الخـلاص فرديـاً! . . أهـذا مـا سـمعوه منـي حقـا؟ . . يـا لفلتـات اللسـان! . . لـم يكـن قـد مـرَّ مـن قبـل قـط بإمتحـان مـن هـذا النـوع . صحيـح أن قلقـا بـدأ يسـاوره علـى مصيـر إبـن

أختـه مرهـون عنـد سماعه بقرار إعدام الجندي اليساري بسبب إخفاق إبن أختـه فـي المدرسـة، لكنـه لـم يتوقـع أن إبـن أختـه و صديقيـه سيسألونه يومـا مـا إستشـارة مـن هـذا النـوع . . و يتذكـر ماركيـز و قصتـه مـوتٌ معلـنٌ . . أيريـد الشـباب الثلاثـة تحميلـه مسؤولية إتخـاذ قـرار خطيـر مـن هـذا النـوع . . لمـاذا لا يذهبـون و يستشيرون منظمتهـم؟ . . غيـر معقـول! . . لـو كانـوا يعلمـون أن المنظمـة تصلـح مـلاذاً و مستشـارا آمنـا لهـم فـي مثـل هـذه المحـن و المنعطفـات الخطيـرة لذهبـوا إليهـا! . . يربـون دود قـز و يطعمونـه مُثُـلا و مبـادئ . . و تبـدأ الـدودة بنسـج الحريـر حـول نفسـها . . تكتمـل شـرنقة الحريـر و حيـن يأتـي وقـت ممارسـة الكائـن الصغيـر فـي داخلهـا لخيـاره الوجـودي بمحاولـة شـق الشـرنقة كـي يخـرج الـى العالـم الرحـب فراشـة طيّـارةً بجناحيـن تنشـر الألـوان . . تـراهم و لكـي يحصلـوا علـى الحريـر يسـابقون الفراشـة المتصيَّرة فـي مصيرهـا و يسلخونها سلخا داخل الشـرنقة . . الحريـر أهـم! . . فتمـوت آلاف الفراشـات . . و مـا أكثـر مـا ماتـت مـن الفراشـات آلاف و حـُرِمت مـن خيارهـا بالإنطـلاق الـى الوجـود الرحـب . . يـا للحريـر! . . أيـن هـو الحريـر؟ . . سـحقا يـا طريـق الحريـر! . . و هـا هنـا فراشـات يريـدون لهـا أن تقضـي بمـوتٍ معلـنٍ . . فأيـن الحريـر بربكـم؟

قـارب الصيـد أمامـه مباشـرة، و نصفـه الخلفـي طافيـاً فـي المـاء و حيزومـه مسحوب علـى رمـل الشـاطئ. راودتـه رغبـة بفـك ربـاط القـارب و الصعـود فيـه، و يدعـه يسير بـه مـع التيـار الـى مـا لانهايـة، تأخـذه الميـاه الـى قلـب المحيـط حيـث ينقلـب القـارب بموجـة عاتيـة و يمـوت طعامـا للحيتـان! . . هيهـات! . . و تداعـى جالسـاً علـى فسحة رمـل ضيقـة تركهـا المـاء المنسـاب بينـه و بيـن الجـرف العالـي . . هِبْ أنـك عزمـت علـى ثنيِّهـم عـن عزمهـم فمـا الـذي ستختلقه لهـم مـن مقـولات فارغـة؟ . . أستقول لهـم علـى مهلكـم يـا شـباب تريثـوا! . . مـن سيبني الوطـن يـا شـباب إذا هربتـم؟ . . و إذا هربتـم مـن سيموت فـي سبيل الوطـن؟ . . و إن مـُتُم ستموتون شـهداء؟ . . تقـول لهـم هـذا كـي يموتـوا مثـل فَـراشِ الحريـر . . طـززززززززززززززز! . . لا! . . لا! . . و مـا سـينفع موتهـم فـي نسـج حريـر الوطـن؟ . . مجـرد مـوت! . .

لا غير! . . الحرير نصيب غيرهم! . . لن يقول لهم ذلك لأنه سئِم من ترداد شعارات طريق الحرير . . و مع ذلك، سيقولها عن نفسه لسفيان الأموي بعد شهرين أو ثلاثة كي يبرر تمسكه بالمكان! . . و أية مفارقة ستكون! . . ما الذي يظنه أولئك الشباب به؟ . . حزبياً مناضلا؟ . . ليس مناضلا! . . و هل سيقول لهم بأنه ليس حزبياً كي يُبرِئ نفسه من أية إستشارة سيقدمها لهم و هم الذين ربما ظنوه ذا وزن ثقيل؟ . . سيكون أعلانه و تنكره إستعراضاً للمجانية المجانية! . . و ها هو يتذكر الآن لِمَ لَمْ يستجب لمغريات عبيد الصباغ لإنخراطه في التنظيم . . العيش على الحافات و على التخوم أفضل مائة مرة. و تذكر أنه حين قرر ذلك كان قد قرأ عند لينين عما سماهم لينين بشيوعيي الفجل . . ظاهره أحمر و باطنه لا علاقة له بالوجه! . . و قرر ألا يعود حزبياً كي لا يصير يوماً ما من شيوعييّ الفجل يداهن و يداهن و ينافق و يدالس و يتسلق! . . و تذكر عبيد المنيري الذي لربما ما يزال يروج لصدام بوصفه كاسترو جديدا في الشرق الأوسط . . و من ذا الذي سيكون كاسترو؟ . . صدام! . . أنظروا كيف يخلّقون الطاغية تخليقاً! . . و تذكر الزنگناوي الذي أراد السياحة الى مهرجان برلين ليتمتع على حساب فراشات حرير من طراز مصطفى الديو و من طراز الموجودين في البستان مرتعبين من موتٍ معلنٍ بإنتظارهم، و ها هم يحاولون شق الشرنقة قبل فوات الأوان حتى لو تطلب الأمر قبل إكتمال أجنحة الفراش! . . و أنظروا كيف يخلّقون أصناماً ثقافية طاووسية! . . ذاك المنيري شيوعي فجل! . . و الزنگناوي هو الآخر لو كان حزبيا لكان من جماعة الفجل . . و ها هم السياسيون يصنعون منه مثقفَ فجل! . . من ذا الذي قال . . الفم مفتاح الجحيم . . يا ماء النهر الجاري دعني أتذكر! . . آه! . . يا لجلال الدين الرومي! . . فعلا . . الفم مفتاح الجحيم! . . و لن يكون فمه لأولئك الفتية مفتاح جحيم، فيمنعهم من التفكير بالخلاص! . . و يتذكر خولة تلك الفراشة التي لم تسعفها للفرار أجنحتها و لا نهودها الجميلة في ضوء القمر . . حرَّرهُ حرير حبها من سورة الحزبية حين خرج من المعتقل، فوجد الفراشة ضاعت، و حريرها أعانه على إختيار طريقه

الوجودي، ما ساعده فيما بعد على مقاومة إغراءات الصباغ لإرجاعة الى حضيرة القطيع . . و قرر الإنطلاق في رحاب اللاحزبية لكي يتقي الوقوع في فخ شيوعية الفجل، عازما على أن يبقى طليقاً كي لا تتحول عنده أفكار الحرية و المساواة و الإخاء الى شعائر عقيدية يرتلها قائدٌ صاعد، فيضطر للتصفيق له! . . يا للأنثى! . . يا لعبقرية الأنثى الفراشة و إشعاعاتها و عبقريتها! . . و تذكر فوزية القيسي التي بنظرة منها، و هو في أزرى حالٍ متعرِّيَ الصدر و مدميً . . كيف حررته من سورة الوهم منطلقاً نحو رحاب الحرية . . و يتذكّر . . و يتذكر . . و يتذكر . . قاوِم يا هذا! . . ثم عاد و مرَّت في خياله سيماء وجوه الفتية الثلاثة . . أيعاملهم على أنهم شلة مراهقين؟ . . و على أن ما يدور في رؤوسهم ليس أكثر من نزوات يتسلون بحكاياتها؟ . . . لالالا! . . تمهل يا هذا! . . ألم تكن أنت بعمر أحمد شحاذة تقريباً حين إقتادك البعثيون الى المعتقل و قضيت فيه تسعة شهور! . . يا لسن التجليات! . . ها هم أولئك الفتية شبابٌ . . و هم أفضل مني لأنهم شباب . . إذا كنت أنا أرى بأني أنا نفسي أستحق أن أحيا . . فلِمَ أستكثر عليهم أنهم يرون في أنفسهم إستحقاقا للحياة، و هم أفضل مني لأنهم شباب! . . ليسقط الحرير! . . ليسقط الحرير و درب الحرير!

ينهض و يسير على مهلٍ راجعاً الى الدارة الصغيرة . .

الصمتُ ما يزال مخيِّما على حواريه الثلاثة الشباب . . نهضوا لإستقباله، و جلس بينهم على الأرض المعشبة . . و شرع بالحديث:

- زين خلونه ناخذ الأمور نقطة نقطة و خطوة خطوة . . أحمد و حسين . . إللي أعرفه إنتو هالسنة بآخر سنة بالإعدادية مثل ما عرفت منكم . . و إنت مرهون هذي أول سنة إلك بالمتوسطة . . و اللي فهمته منكم إنتو تريدون تفرون . . تفرون الى أين؟

يرد أحمد:

- أوروپا.

- الشرقية؟

- لا! . . جتني معلومة من أقرباء خالي حسين بالهويدر . . البلدان الإشتراكية اللي عندها إتفاقيات صداقة مع العراق . . ما عادت ترحب باليساريين الفارين بإتجاهها، بينما أوروبا الغربية ترحب!

مهلة تفكير . . و سيسمع شمران الرأي نفسه بعد أشهر من سفيان الأموي . . فيسأل:

- شلون تفرون و بأي طريقة؟

- متفقين . . بسفر عادي . . حتى ما نجلب إنتباه أحد!

- لكن إنتو حالياً طلبة . . و الحصول على جواز سفر مو سهل . . بخاصة و إنتو ما خادمين عسكرية!

يرد أحمد:

- ندري . . آني و حسين ننتظر . . هالسنة نكمِّل إعدادية و راح نحاول الحصول على قبول دراسة بأي دولة! . . هذا هسه ممنوع؟

رد شمران:

- لا . . على الإطلاق!

و يواصل أحمد:

- . . و إذا حصلنا قبول بجامعة أوروبية غربية راح يظل جواز السفر ممنوع علينه؟

- لا طبعا! . . ممكن الحصول على جواز سفر.

إذن . . ليست نزوات مراهقة مثلما تخيل! . . أولى خطوات النجاح هو التخطيط! . . و يلتفت شمران نحو مرهون إبن أخته المراهق و يسأله:

- و إنت؟

- آني همين من أكمل إعدادية أطلب قبول دراسة!

يخاطبه خاله معلقا بعصبية:

- ولك إنت المتوسطة ما مكملهه! . . شوكت راح تكمل الإعدادية؟

- أحاول!

يعقب أحمد:

- و آني إحتمال أنتظر وياه لما يكمل متوسطة على الأقل!

و يعلن حسين:

- بس بالنسبة إلي . . آني ماكو شي يخليني أأجِّل! . . السنة الجاية آني على الأغلب مغادر!

و يسأل شمران:

- و إنتَ أحمد ليش تريد تنتظر؟

الإستشارة المفيدة و العملية قد يجدونها عند شمران الأحمدي تساعدهم على إنضاج كل التفصيلات التي تخصهم حتى أقلها أهمية، و ها هو أحمد يرى أن عليه أحاطة شمران بكل التفصيلات، فيرد قائلا:

- أكو سبب . . لأن آني مقرر ما أغادر وحدي . . مو بس علمود أنتظر مرهون! . . أكو شخص آخر لازم أنتظر لأجله!

- لعد؟ . . منو راح يروح وياك؟ . . أمك؟ . . أختك؟

- لا أمي و لا أختي! . . إثنينهن أتركهن برعاية خالي حسين!

- لعد منو؟

- إحمم . . أتزوج و آخذ زوجتي ويايه و أطلع!

- و ليش ما تتزوج و تاخذهه وياك و تطلع و يه حسين؟ . . و مرهون آني أرتبله أموره و يجي وراكم؟

- اللي بيني و بينها عهد ما أگدر أتزوجهه حاليا لأن بعدهه قاصر . . و حتى أخلص من العسكرية راح أشغِل نفسي هنا مؤقتاً بدراسة بأي معهد . . مجرد تمضية وقت الى أن تبلغ سن الزواج!

يظل شمران يتطلع إليه مليَّاً . . يا للأنثى! . . و من تلازم أحمد و مرهون طول الوقت سيخمن . . إذن لن ينتظر مرهون لخاطر عيون مرهون! . . و يستفسر منه:

- و لو هذا موضوع شخصي . . إسمحلي أسأل . . منو هذي سعيدة الحظ اللي راح تنتظر على حافة الخطر علمودهه؟

نظرات متبادلة بين أحمد و مرهون . . آه! . . هذا الشاعر واقع بحب إبنة أختي القاصر! . . و تذكر أنهم إستدرجوه الى البستان بحجة أكل السمك المشوي و قراءة قصائد الحب و أشعار النضال!

فيعلق شمران:

- تقريباً فهمت! . . بالمناسبة . . إنتو جبتوني للبستان بالأساس حتى أسمع شعر!

يعقب حسين المعروف بصمته:

- أستاذ . . بعد أن نسمع منك إستشارة!

فيسأل شمران إبن أخته:

- و إنت؟

يرد مرهون:

- وقت اللي راح يتزوج به أحمد راح أكون آني جاهز! . . بس آني همين مثل أحمد ما راح أسافر وحدي!

يا للمفاجآت! . . مراهق لم يكمل المتوسطة . . أهذا أيضا! . . و أمه؟ . . و أبوه المسجون؟ . . يظل شمران يتطلع الى إبن أخته، فيجده غير قادر على النظر في عينيه مباشرة و إنما ترك نظراته تتنقل بين صديقيه . . أمعقول! . . و هذا الصبي من سيأخذ هذا معه؟ . . فسأله:

- ولك . . و إنتَ منو راح تاخذ وياك؟ . . أمك؟ . . أبوك المسجون؟

و يرد بفطاريَّة تناسب مراهقته:

- . . لا هذي و لا ذاك؟

- لعد منو؟

- أتزوج مثل أحمد و آخذهه ويايه!

- قصة حب أخرى؟ . . يابه سعيدة الحظ اللي راح ينتظرهه أحمد گـِدَرِت أحزرهه! . . و إنتّ . . منو هذي سعيدة الحظ اللي راح تروح وياك؟

لم يجرؤ مرهون على رفع بصره نحو حسين، لكن هذا الأخير ظل يوجِّهُ نظرات خبيثة مستفزة نحو مرهون، فيقرأها شمران نظرات سخريةً و كأنه يتعمدها . . حاول أن يحزر شمران من تكون، فيلح

بالسـؤال:

- منو هذي سعيدة الحظ؟

و بالسذاجة و الفطاريَّةِ ذاتها أجاب:

- نعمة . . أخت حسين!

و يتبـادر الـى ذهـن شـمران . . مـا هـذا؟ . . كومونـة مناضلـي الشـاخة و عشـاق بعگـوبة! . . و تريـث شـمران بإطـلاق أي تعليـق خشـية أن يفسـد هـذا كلـه بإستشـارة قـد يطلقهـا بخصـوص خططهـم! . . فيفاجأهـم بطلبـه:

- بالمناسبة شـوكت راح تسـمّعوني الشـعر اللـي جبتونـي علمـوده للبسـتان؟ . . أحتـاج أسـمع شـي يسـاعدني علـى تكويـن رأي!

يومـئ أحمـد مسـتجيبا، ويشـير الـى حسـين ليبـدأ. و يقـف حسـين و يشـرع يقـرأ مـن ذاكرتـه:

- قصيدتـي عنوانهـا الوهـمُ . . أحمـم! . . أنـا و أنـتِ . . جرمـانِ . . فـي فلـكٍ نـدورْ . . كأننـا بـدورْ . . أأنـا و أنـتِ . . زُهـرةً و زُحـلْ . . أن لا أكـون زُحـلَ! . . سـأكون المريـخ . . و ذات ليـلٍ . . يرانـا الخلـق مـن هـا هنـا . . مـن البسـتانِ . . فـي لحظـة إقتـرانِ . . نجـمُ الصبـح . . ينـام ليلـه . . فـي سـرير نجمـة المسـاء . . أنحـن مقترنـانْ . . لآخـر الزمـانْ؟

يهدر تصفيق يرافقه تهريج من لدن مرهون . . و يعلق شمران:

- الفكرة جميلة . . سلاسة المفردة . . اللي تتطلبها قصيدة النثر!

و مرهون كان مايزال يهتف بصوت خافت:

- الله! . . الله! . . تخبـُّل! . . حلو!

فيعقب حسين معلقاً:

- إي . . إحتمال تمام حلو! . . بس مو تروح و تسوي مثل كل المراهقين و تكلُب خلقة القصيدة و تكتبهه برسالة غرامية و تدزهه لأختي! . . هذي قصيدة معقدة من ينلعب بيهه تخرب!

الضحك يتفجر . . و يضحك شمران حتى تدمع عيناه. في داخله ضحك كالبكا! . . و لم يستمتع شمران بجو القصيدة قدر إستمتاعه بالكشف الذي سمعه! . . محاولات متواضعة جدا لقول الشعر . . ينهض لكي يستمر ظاهرياً بضحكته الطويلة، و قلبه يتفتت . . كيف سيمحض أولئك الفتية نصيحة؟ . . و أية نصيحة! . . و يظل يردد من بين قهقهاته الداخلية . . هذا المراهق إبن أختي! . . هذا الصبي! . . و هذين الشابين! . . هذه الكومونة المصغَّرة! . . يا للجمال! . . و مرَّت في خاطره مرة أخرى خشيته من أن يفسد جمال هذه الكومونة!

بعد أن جلس، يقف أحمد مستعدا للقراءة، فيستوقفه شمران عارضاً:

- أحمد خلي قصايدك نسمعه بعدين . . خلونه شباب نسولف شوية بسالفتكم! . . عندكم مانع؟

يرد أحمد و هو واقف:

- لا . . أبداً!

قال شمران:

- إذا كانت خطتكم راح تسير بهذي الطريقة اللي عرضتوهه . . كلشي قانوني . . شنو حاجتكم للإستشارة؟ . . منيش خايفين؟

فيرد أحمد:

- الخوف جاينه من قدر حياتنا . . حياتنا المعلّقة بيد جهة مثل البعث الحاكم! . . هذي هي المشكلة! . . و لك أن تتصور أستاذ شمران! . . موت اللي ينتظرنه ما بيه أي بطولة! . . فخ منصوب وجاي نشوفه بعيونا و جاي نروحله برجلينه . . و آني بإمكاني أشوف الموت هناك

واگـف مبحلـق عيونـه و ينتظرنـه و إحنـه نتحـرك بإتجاهـه خطـوة خطـوة . . گـوللي استاذ شـمران شـنو المأثـرة بمـوت مـن هالنـوع؟ . . ويـن البطولـة! . . أسـتاذ شـمران . . قـرار إعـدام هـذا الجنـدي اللـي إسـمه عدنـان . . هـو جـرس إنـذار بالخطـر! . . إذا وصلنـا الجيش راح يلـگـون ميـت سـالوفة عوجـة يسـوقونه علمودهـه للإعـدام!

و يعقب حسين مضيفاً:

- أسـتاذ شـمران . . إحنـه فكـّرنا بـكل الظـروف الإحتمـالات و قلبناهـه تقليـب . . فكـّرنا مثـلاً بالبدايـة نقـوم بحركـة إلتفافيـة!

قاطعه شمران:

- حركة إلتفافية؟

- إي . . مثـلاً . . مـن نخلـص دراسـة و قبـل مـا يسـوقونا للعسـكرية نقـدم مـا يثبـت إسـتقالة ظاهريـة مـن الحـزب . . لكـن حتـى لـو إحنـه سـوينه حركـة إلتفافيـة مـن هالنـوع . . راح ينفـع هـذا؟ . . راح يتركونـا؟

يعقب شمران دون تردد:

- لا . . علـى الإطـلاق . . مـا ينفـع! . . و لا راح تفلتـون منهـم! . . اللـي إنتـو بيـه طمغـة حمرة!

و يتذكـر شـمران المهانـة التـي تعـرض لهـا حين توسـط لهـم حسـين الجيراوي مـن طريـق الرشـى فـي قضيتهـم فـي المجلـس العرفـي العسـكري بتهمـة الشـيوعية، و كان شـرط المحكمـة إبرازهـم لبـراءة مـن الحـزب الشـيوعي منشـورة فـي واحـدة مـن الصحـف و بالصـورة الشـخصية للمُـتبَرِّئ . . مهانـة و ذل و عـار و فضيحـة و إحتقـار للنفـس! . . و فـي حينهـا فعلوهـا لكـي ينجـون بأنفسـهم!

و يوضِّح أحمد معلقا:

- ما ينفع! . . و راح يظلون بإنتظارنا . . و حتى لو إقتنعوا بموضوع الإستقالة . . شوف نوع المهانة اللي راح نعيشه بالخدمة العسكرية . . هذا إذا ما إخترعوا طرق خفية للتخلص منا . . و اللي يخلينه نظنهم مجرمين الى هذا الحد هو اللي سمعناه منكم عن جرائمهم بإنقلاب شباط! . . و ما سمعناه منكم عن قطار الموت!

فيعقب شمران:

- عتبي على اللي حشر الناس بورطة و هو عاجز عن حلها! . . بس طالما خطتكم هذي راح تاخذ وقت طويل . . أريد أذكركم بمبدأ قضاء الحاجة بالكتمان . . و بالذات جماعتكم اللي وياكم بالمنظمة! . . آني ممكن أحزر أن اللي يدور داخل المنظمة دوائر الأمن تعرف بكل تفصيلاته!

و يستفسر مرهون:

- و هسه؟ . . شنو رأيك؟

يرد شمران:

- لحد هسه . . مشروعكم خيار معقول و منطقي . . و طالما عندكم وقت . . ممكن نخلي خطتكم تحت المراجعة . . و هسه نسمع أشعار أحمد!

ينهض أحمد ينحني لجمهوره . . و يقرأ:

- قصيدتي عنوانها . . كشفٌ بالأسماءِ . . أحمم! . . قدمت كشفاً بأسماء جنيّات المَسرَّةِ . . جنية النَغمِ . . جنية الحُسنِ . . جنيَّة الوجدِ . . جنية الشعرِ . . جنية الحبِ . . و أخفيت أسم جنية الحبِ . . ملاكي المكنون في أربِ . . خشيةً إهتزاز عرش الربِ . . وجلاً . . من أن

تـُسمَعَ ترنيمتـي . . يـا للعيـون البعـگـوبية! . .غـدران الوجـه . . تشـغُ مـن العمـق . . كنـوزُ الـروحِ . . تزاحـم زنابـقَ المـاءِ . . حـذراً . . مـن إعـلان محنتـي . . يـا للوجنـة البعـگـوبية! . . سـحنةٌ جذلـى . . بخمـرة الوجـد . . مصابيـحُ رمـانٍ . . تـاجٌ يتوشـى بطرائـز رؤيـا . . خصـلاتِ الشَـعرِ . . تطـارد غلالـة الذكـرى . . قلـبٌ منتـشٍ . . يطـرح علـى الريـح ظلالـه . . و تسـألني آلهـة العشـق . . و صيحتـك المكتومـة؟ . . يـا للقامـة البعـگـوبية! . . نجـمُ مُغـرَبٍ . . ريّانـة الشـطآنُ . . مويجـات نهـرٍ . . تسـبحُ فـي أثيـر . . و جـازت علـى الـربِّ . . توريـة الإسـمِ . . مجهـولاً يظـلُ بالرسـمِ . . سـراً مـن أسـرار النغـمِ . . تعزفـه القيثـارة البعـگـوبية!

تصفيق يفوق أي تصفيق . . و ينحنى أحمد للجمهور:

التصفيق متواصل . . ويصرخ مرهون:

- روعة!

يمـر بخاطـر شـمران . . ليـس لأنـه يجـب أن يقـال للشـاعر المبتـدئ أن شـعره جميـل، لأنـه فعـلاً جميـل لشـاعر فـي أول رحلـة الشـعر . . فيعلـّق مازحـاً:

- بـس إذا صـدگ عـُبرَت علـى الـرب و مـا گـدر يحـزر إسـمهه . . بـس ترانـي گـدرت أحـزر إسـمهه! . . و تسـتاهلهه إذا هـي تحبـك!

ينحنى أحمد تكريماً لشمران.

خولـة فـي خيالـه . . يظـل شـمران يتأمـل الشـاعر الفتـي. أكانـت خولـة بعمـر إبنـة أختـه التـي أغـرم بهـا الشـاعر؟ . . تقريبـاً! . . أكـان هـو نفسـه بعمـر هـذا الشـاعر الفتـي الولهـان؟ . . تقريبـاً! . . ثـم تذكـر كلمـات زوجتـه فـي أول حقبـة زواجـه و هـي تتلصـص لتقـرأ محاولاتـه الشـعرية الفاشـلة، فتقـول هازئـة و سـاخرة:

- . . يا عاشـگ يا ولـهان . . هاي إلمن تكتب كل هذي القصـايد الغرامية!

فإنسدت نفسه مذاك الوقت عن كتابة الشعر! . . ليس ثمة قدر من الحرية يحتاجه أي إنسان قدر الحرية التي يحتاجها الشاعر!

و يشرع أحمد يقرأ من جديد:

- قصيدتي التالية عنوانها . . إبنةُ الماء . . إحمم! . . تنبعين من فيض ماء النهرِ . . إبنةً للطوفان . . حلماً أبيض . . كالقطن أبيض . . و تنبعين . . و البدر ينشد نهداً . . أيكون النهد أبيضْ؟ . . كالشمس أبيضْ . . في فمِ طفلٍ أزلي . . يدرُّ عسلاً أبيضْ . . حاذري إذن . . يا أبنة الأوانِ . . فقد ترى النهدَ نحلةٌ . . أو طائرٌ . . غزالةٌ بريةٌ . . أو ضِفدعٌ . . و في ظل الأكمات . . قد يرى النهدَ ضبعٌ . . النحلةُ تلسعُ زهراً . . الطائر ينقرُ حباً . . الضفدع يطرب للغُنان . . و الحشائشُ تأكلها الغزلانْ . . أما الضبعُ . . يا للضبعِ! . . فأنت وحدك تلتهم الأوانْ!

أحمد يختم قصيدته . . و شمران يسرح . . ضبع يلتهم الآوان؟ . . ها هو حافر لب قصيدة الشاعر الفتي يقع على حافر فكرته التجريدية و فحواها هي أن الزمان هو الضبع الذي يشق بطوننا دائما! . . و يتذكر وسيم الحسني و حديثه عن الضبعين الدعوچيين المتسللين. و تذكر أيضاً رفيق سجنه أبا ذر . . و ما أكثر الضباع الملتهمة! . . أجاء هنا ليعطي شباب البستان إستشارة و هم على علم و إدراك بعدد الضباع المنتشرة بيننا و حولنا على طول الزمان! . . ما الذي سيقوله لهم؟ . . أعليه أن يخاطبهم مثلما يخاطبونهم هناك بإطلاق كلمات تصبيرٍ و عبارات تبريرٍ قد لا تفعل شيئاً سوى تأخير حصول المحتوم! . . المحتوم الذي أثبتت طيلة تاريخه ألا أحد بإمكانه ردعه . . ننقذ واحداً هنا! . . و لن يكون الإنقاذ أكثر من محاولة لتقليل الخسائر و ليس لقطع دابرها . . لكي بعد آوانات عدةٍ يبيت الضبعُ عندنا و يشق أبطن عشرةً! . . أو لربما مئة! . . إستشارة يعطيها هنا قد تنقذ الشاعرين الشابين و أبن أخته المراهق . . و بعد آوانات عدةٍ يأتي قطيع من الضباع ليلتهم بدلهم مئة! . . و تذكر إنقلاب شباط الذي نفذه حزب كان حليفاً يوماً ما لحزب الفتية الذين معه

فـي البسـتان، مثلمـا هـو حليفهـم الآن . . جـاء فـي حينهـا قطيـع ضبـاع ذاك الحـزب و إلتهـم ألفـاً . . لا! . . بـل آلافـاً . . قضيـة لا قـاضٍ فيهـا و لا مدعـي عـام و لا محـام و لا ضميـر! . . مـا هـذه اللعبـة السـمجة! . . ملهـاة تَنِـزُّ دمعاً و دمـاً! . . يأتـي بعـد كل حيـن قطيـع ضبـاع هائـجٍ و يمـزق أجسـاد الضحايـا لمجـرد أنهـم آمنـو بـأن هـذا العالـم لا بـد أن تكـون فيـه عدالـة مـن نـوع مـا و لا بـد أن يكـون فيـه خيـر مـن نـوع مـا! . . و مـا أسـهل أن يأتـي أسـد . . سـبع . . ذئـب . . ضبـعٌ . . لينقـض علـى فريسـة و يكـون بطـل المـكان و الزمـان!

و لا يسـتيقظ شـمران مـن سـرحانه إلا علـى التصفيـق الشـديد الـذي سـمعه مقرونـاً بقبـلات أنمطـر بهـا الشـاعر مـن مرهـون . . و يبـدأ شـمران التصفيـق معلقاً :

- أجمل ما في القصيدة هو قفلتها عن الضباع التي تلتهم الأوان!

و ينهض شمران معلناً:

- أظن . . إحنه إنتهينا من هذه المسألة . . حالياً على الأقل!

شـمرانُ موقـنٌ فـي قـرارة نفسـه أن المسـألة عنـده لـم تكـن لتنتهـي حاليـاً و لا مستقبلاً لغايـة أن يـرى الفتيـة الثلاثـة و قـد افلتـوا مـن المـوت . . و لـن تنتهـي عنـده فـي أي وقـت مـن أزمـان مجـرة درب التبانـة! . . مـا هـذا الضيـمُ الـذي ألقـوا بـه علـى كاهلـه أولئـك الفتيـة! . . هـا هـم يُقـبِضُّون عليـه الهـمَّ بإسـتثارة دُمَّلٍ مزمنـة فـي قلبـه . . السياسـة و المـوت و الحـب و الضيـاع و الإذلال . . نسـتمتع سـاعة و نضيِّـع سـنين مـن أجـل إسـترجاع مدركاتهـا الحسـية! . . هـروب الـى أمـام! . . هـروب الـى خلـف! . . و قـوف فـي المنتصـف! . . هـا هـم ثلـة الفتيـة يلقـون بأنفسـهم فـي رحـاب خيارهـم وجـودي . . فهـل عليـه أن يمنعهـم؟ . . لا أحـدَ مـن حقـه أن يردهـم عـن طريـق الحريـة! . . أكانـت أرجلـُهم قـد إنزلـقَـتْ فـي هـاذي الـگـاع الزلـگ فقادتهـم الـى طريق ظنـوه سـيفضي بهـم الـى دروب الحريـة و سـبل الحيـاة الملهمـة و يميلـون الـى تصحيـح مسـارهم؟ . . أمـن سـبيلٍ الـى الحريـة لا يـُفضي بالضـرورة

إلــى فنــاء! . . و هـو يتأمـل مظهرهـم و شـرارة الحيـاة تومـض فـي أعينهـم، سـيضيف مذكـرا إياهـم:

- و أعيـد التوصيــة . . بالكتمــان . . بخاصــة عـن جماعتكـم اللــي وياكـم بالحــزب!

و يعلق أحمد مقاطعاً:

- معقولة! . . أن يكون بينهم!

فيقاطعه شمران مؤكداً:

- إي . . معقولـة و نـص! . . ماكـو زور مابيـه واوي! . . و بالكتمـان أيضـاً عـن أهاليكـم . . و بالـذات عـن الصبايـا القاصـرات!

يتأمـل الشـباب المتسـاحنين، و مـا يشـغلُ ذهـنُ شـمران آخـر الأمـر هـو الخـلاص الفـردي. تخليـص النـاس لأنفسـهم يتوقـف أولاً علـى إنتـزاع أنفسـهم مـن زمـن البـراءة و المثاليـة! . . و هـا هـم يقطعـون أولـى الخطـوات فـي الشـوط! . . هيـا! . . إمضـوا علـى درب الحريـة الواسـع . . و حاولـوا أن تتغلبـوا علـى الشـرور التـي فـي الطريـق! . . و الغنـاء و الشـعر يخفـف عنكـم وعثـاء السـفر! . . و ينتبـه للفتيـة الثلاثـة منشـغلين يتطلعـون إليـه . . يناجـي نفسـه، و يظلـون صامتيـن، و هـو غـارقٌ فـي تفكيـر تفضحـه حـركات عينيـه و إيمـاءات رأسـه المـدور و تنهداتـه الصامتـة . . لـم يعلـق أي منهـم بشـئ . . و حيـن أطلـق آخـر الزفـرات حسـرةً . . توجـه نحـو بـاب البسـتان ليغـادر و هـو غـارق فـي التفكيـر . . و غـادروا البسـتان.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

عشـية لقـاء البسـتان . . سـيصرِّح الفتـى مرهـون لأمـه قبـل مغادرتـه مسـاءً الـى الكازينـو بأنـه بلقائـه بخالـه و صديقيـه فـي البسـتان أحـس و كأنـه كـَبُرَ عشـرَ سـنين . . و تسـأله مسـتغربةً:

- شلون يعني؟ . . هذا شي يفرّح! . . بس شلون كُبَرِت و إنت دا تسقط بالمدرسة؟ . . السنة بسنتين . . و آني خايفة لا تروح تصير السنة بتلث سنين . . و يفصلوك من المدرسة . . و معناه تروح للدراسة المسائية . . و إذا رحت للدراسة المسائية منو راح يشغّل الكازينو!

لم يجبها و ظل سارحاً، و إكتسى وجه الأم المبرقش بالنمش ببرقَةٍ . . و مع ذلك سُرَّت . . سُرَّت لأمارات نضج بالتفكير تفصح عنها كلمات أبنها . . و لم تكن لتدريَ أن إبنها الصبي قَويت ساقاه و قد نوى على تبريقٍ بعيد.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

بعد لقاء البستان . . ها هو ما يظنه مرهون مستوراً من قصة هيامه بنعمة الجنابي بات مكشوفا. و راح يخطط لمشروعه. و كيف سيثبت لنفسه و لمن يحيطون به أن لقاء البستان كان فعلا إنعطافة في حياته و نقطة تحول؟ . . إنعكس تطور وعيه هذا بدءً على إدارته للكازينو. فقد تعود مستعيناً بتوجيهات چايچي الكازينو على أن يقوم بأغلب ما كان يقوم به أبوه قبل سجنه. يستعين بخاله شمران في البيت بتسجيل حفلات أم كلثوم جميعها مباشرة من راديو القاهرة مثلما كان يفعل ابوه . . عشية لقاء البستان، و لم يكن المساء قد أرخى سُدُولَهُ بعدُ على المكان، دخل مرهون الكازينو، فجلبت إنتباهه صورة أم كلثوم و كأنه يراها لأول مرة في المكان الذي وضعها أبوه فيها. لام نفسه لإهماله الصورة و قد بهتت و كادت تزول ألوانها، بل إن بعض صف زهر النرجس الذي يحيط بالصورة قد تلاشت ألوانها بالكامل بتأثير التقلبات الجوية. و سيستفسر من خاله ذاك المساء عن رسام يحييَّ له ما رسمه خاله أمير القيرواني لأبيه بإستبدالها بلوحة و قطعة جديدة. و سيدله خاله على الفنان جعفر عبود فليجة، فيطلب منه مرهون ألا يغير شيئاً في قطعة الكازينو و صورة أم كلثوم و أن يعيد نسخها مثلما رسمها خاله أمير القيرواني . . ها هو الفتى بعد لقاء البستان يتملكه فجأة هاجس إحياء مجد كازينو أم كلثوم

. . و بمساعدة أبي فردوس حاول أن يجدد أشياء كثيرة . . و لكن هيهات!
. . و مثلما يقال فقد مرت مياه كثيرة تحت الجسور منذ أن دخل أبوه الى السجن و حتى اللحظة . . تغيير كامل في خارطة المدينة و المجتمع . . طلب من خاله عشرات المرات أن يفسر له ما يجري، و لكنه سيحس أن خاله شخصيا سيفسر له ما يجري . . صعود لقوة غاشمة تنمو حتى في الشارع . . بذخ و أموال تكاد تجري في الطرقات . . ما يجري تغيير في المزاج تديره قوة من عقول داهية . . و مع ذلك، لم يهضم عقله الصغير الهش ما حاول خاله أن يفسره له و يحاول أثناءه بث مخاوف لا يفقه أصلها.

قُبيل أزوف خريف ذاك العام . . أخو معشوقته و صديقه حسين الجنابي سيقنع أباه بالسفر للدراسة خارج العراق، و قد إجتاز إعدادية الصناعة بقدرة قادر. و بغضون شهر سيحصل حسين على قبول في معهد تقني في فرنسا. فيُجهِّز أوراقه و الموافقات الرسمية المطلوبة. و حسين لم يغادر بعد، ها هو رعب الشبان الثلاثة يتجدد عشية صدور حكم آخر بالإعدام في أيلول على جنديين مكلفين . . حسين علي الطريحي و مسلول كريم حازم.

و سيَفِرُّ حسين بطائرة مقلِعةٍ من مطار المثنى، مودعاً من قبل أبيه و شمران و صديقيه. معانقاً حسين مودعًا سيسمع من صديقه المسافر همسة توصية بأخته نعمة.

هذا واحدٌ من الشلة . . أفلت من الموت!

بإزوف الخريف . . يلتحق صديقه أحمد بكلية الزراعة إنتظاراً منه لسنة و نيف تبلغ فيها الحبيبة نرجس سن الزواج كي يتدبر أمور إفلاته من الموت المتربص بالمكان! . . و يسمع مرهون من صديقه كلاما يشي بخيبة أمل منه لرسوبه و عدم تحقيقه نجاحا في المدرسة.

عام ١٩٧٥ . . إنعطافات كبرى في حياة مرهون غايب مرهون.

في شباط . . توفيت أم كلثوم ملهمة أبيه في تأسيسه لكازينو ذاع صيتها في بعقوبة و شغلت الناس بأنوارها و أشغلت شريحة واسعة منهم عن إنقسامات السياسة بأغاني أم كلثوم . . يشاهد على التلفزيون خبر تشييع جنازتها التي ماجت بها ملايين الناس في شوارع القاهرة. و بإنتشار أخبار مجالس تأبينها، كَبُر في ذهن مرهون فجأة مُنجز أبيه، فيتذكر أنه شاهد الناس في الأفلام يضعون شريطاً على صورة الفقيد، و يذهب في اليوم التالي الى السوق ليشترى شريطاً أسودا عريضاً و بمساعدة أبي فردوس يحيط به صورة أم كلثوم في قطعة الكازينو. و لكي تكتمل بذهنه خطة تأبين الفنانة التي سُمِّيَت الكازينو بإسمها، و بسذاجة و جهل سيسأل أبا فردوس الچايچي عما إذا كان عليه أن يضع في المسجل شريطاً للقرآن، فينصحه الرجل أن يسأل خاله شمران . . و يسأل الخال، فيجيئ رده:

- . . قرآن! . . يا قرآن؟ . . يا بطيخ! . . أم كلثوم هي نفسها أغانيها قرآن . . قرآن مليان أغاني صوفية عن الحب و أشكاله الروحانية و الجسدية!

و يأتي مرهون ذاك المساء بأغنيتها . . الرضا و النور . . و خاله يراقبه يضع على المُسجل الشريط الذي لم يعتد رواد الكازينو على سماعه من قبل قط و يظل يعيده، و يروح صوت أم كلثوم يشيع ذاك المساء حبورا من نوع جديد لا يخلو من نشوة روحية. . الرضا والنور والصبايا الحور . . والهوى يدور . . آن للغريب أن يرى حماه . . يومه القريب شاطىء الحياه . . والمنى قطوف . . في السما تطوف . . أنقروا الدفوف . . شمران يسمع و قلبُهُ ينعصر، و خشيته تكبر من أن يدنو موعد نقر الدفوف على مصير إبن أخته، و هو يراه مصغيا الى الأغنية على نحو لم يألفه به من قبل . . و سيتملكه قلق على مصير مرهون لن يفارقه أبداً!

في آذار . . مفاجأة ستذهله حين يدخل البيت عند عودته من المدرسة .

. أبوه غايب في البيت، و يخرَّسُ من المفاجأة و يكاد ألا ينطق بحرف .
. و إذ لم يكن أبوه هو الآخر قد إعتاد على إحتضان أولاده عند رؤيته لهم . . إحتار الفتى بما يفعله و هو يرى عودة أبيه بعد غياب سنين! . . أطلقوا سراح أبيه قبل إنقضاء مدة سجنه لحسن السلوك . . صحيح أنه كان يذهب مع أمه لزيارة أبيه في سجنه بين حين و آخر، و لكنه و هو يرى أباه ستنتابه مشاعر متضاربة. دخل أبوه السجن و هو طفل صغير لا يعي من أمور الدنيا شيئاً. و ما ألهاه عن غياب أبيه المتواصل عن البيت هو عيشةُ سني طفولته الأولى مدلَلَ جدته صافية. و إذ لم يحصل له و أن رأى جدته نرجس العصملية و لم يسمع حتى بأخبارها، بل و لا حتى سماعاً عنها من أبيه، سوى نُزُرٍ مما عرفته جدته صافية عن جدته نرجس التي لم ترَها . . و قد رحلت صافية! . . و سوى معرفته بأن أباه مثلما سمَّاه مرهوناً على إسم الجد مرهون كان قد سمّى أخته نرجس على إسم الجدة نرجس . .

ها هو أبوه بالتالي خارج السجن، فما الذي سيحصل؟ . . أسيعود الوالد الى عيشة الفرار من البيت، أم أن إقامته في السجن لسنوات لربما عودته على الركون في مكان لا يفارقه و يكون بيتوتياً؟ . . سيسمع مرهون بعد حين من يقول له . . العادة اللي بالبِدَنْ ما يغيِّرها غير الچِفَنْ! . . و مع ذلك . . ففي يوم عودة أبيه لم يحظَ منه بوقت أطول مما تطلبته اللياقة من أب مسجون لمدة طويلة بأن يبقى على الأقل و يتناول الغداء مع أميرة زوجته و ولديه مرهون و نرجس . . أثناء تناولهم الغداء في وقت ما بعد الظهيرة يُدَقّ على الباب، فينهض مرهون من مكانه ليرى من بالباب، و يعود ليخبر أباه أن رجلاً ضخمَ الجثة في سيارة مارسيدس يطلبه في الباب . . قام أبوه ذاهباً ليقابل الرجل و ذهب معه. و يسمع الرجل و هو ما يزال في سيارته يهنئ أباه بخروجه من السجن و يطلب منه الذهاب إليه مساءً . . بمغادرة الرجل، يسأل مرهون أباه عن الرجل .
. رجل كان يسمع عنه من الناس و لا يعرف من يكون حتى لو كان يراه . . و يكون ذاك أول لقاء لمرهون بحسين الجيراوي . .

قبيل عصر ذاك اليوم، يذهب معه أبوه الى الكازينو. و سيرى مرهون بأم عينيه كيف يفيض دمع أبي فردوس لمرأى أبيه . . متابعا أبيه يتفقد الكازينو و يتوقف عند التجديدات التي أحدثها في الكازينو بخاصة قطعة الكازينو و صورة أم كلثوم . . و الوالد العائد الى العالم الذي إبتدعه و أنشغل به و إنشغلت معه به مدينة بعقوبة و تركه وراءه حين راح الى السجن، لم يسمع الإبن منه تعليقا مهما كان . . و مع أن أباه ظل في بيته صامتاً تقريباً لم ينطق سوى ببضعة جُملٍ . . في الكازينو أفضى له أبوه أن حسين گطمة و عبد كولونيا كانا ينقلان له أخبار الكازينو و أخبار التجديدات في الكازينو و خبر تأبينه لأم كلثوم بوضع شريط أسود حول صورتها . . آه! . . يا مرهون! . . ها هو حسين گطمة يظهر في الواجهة! . . و لكن ما دور عبد كولونيا في الأمر! . . أكان هو الآخر يزوره في السجن؟

ببقاء أبيه غايب ذاك المساء معه في الكازينو حتى بعد العشاء تقريباً . . الفتى مرهون ينتظر من الوالد العائد أن يعلق بشئ للولد المنتظر و المتلهف لسماع أبيه يقول شيئا عن أدائه في الكازينو منذ أن كان طفلا و صار يافعا و مراهقا، يزود الأسرة بما تحتاج من أسباب العيش و يمدُّ أباه السجين بما يخفف عنه ضيق غربته عن حياته . . لكن الوالد العائد لم يصارح إبنه بإكتشافه أن الكازينو لم يعد أكثر من مقهى عادي . . و سيختصر له وضع الكازينو كله بعبارة مجازية قالها:

- الگشوة مال هذا الكازينو خلصت . . راحت!

بسماعه هذا التصريح من والده، يرى والده يستقل تاكسي عبد كولونيا . . و يتذكر مرهون أثناءها حديث خاله عن حانة الأسرار. لا بد أن تكون وجهة والده حانة الأسرار، بستان حسين گطمة . . يا للبستان! . . يا لهذا البستان! . . و لطول رفقته لصديقيه الشاعرين، بتقليبهما للمعاني المجازية في أشعارهما أمامه، لم يكن عصياً على مرهون تفسير ما سمعته أذناه من تعليق أبيه عن . . گشوة الكازينو التي راحت! . . و بفهمه للأمر على

ذاك النحو، سيروح بعدها بدل أن يضع يومياً شريطاً لأغنية لأم كلثوم يميل أحيانا ليفتح التلفزيون . . من بين كل الأغاني التي كان يعرضها التلفزيون سيتعلق بكلمات أغنية محمد رشدي . . عدوية . . و يحفظ منها. . عدوية أهي . . أهي أهي أهي . . ضحكتها نهار . . عدوية أهي . . أهي أهي أهي . . شمس و أسرار . . و إوعو تفكو المراكب . . و الله يا ناس ما راكب . . إلا و معايا عدوية . . فيعنُّ لمرهون أحيانا الغناء مع محمد رشدي مستبدِّلا مفردة عدوية بمفردة . . نعومة! . . و سيسمعه صديقه أحمد مستبدلا مفردة عدوية . . بمفردة نعومة . . فيسأله ساخرا:

- أريد أسالك . . هذي نعمة اللي تغنيلهه أغنية محمد رشدي . . هي صدگ ضحكته نهار؟ . . و صدگ هي شمس و أسرار؟ . . آني و لا مرة شايفهه تضحك! . . إنت قشمر!

و لا يعبأ بسخرية صديقه . . و يتعلق أيضاً بكلمات أغنية حضيري أبو عزيز . . وياك أروحن حبيبي وياك أروح . . ما أگدر على فرگتك وياك أروح . . وياك عيني خذني . . لا تروح و تعذبني . . فتسمعه أمه يغنيها، و تريد أن تعرف إن كان إبنها واقعا في الغرام ما فتعلق:

- عيني . . مرهون . . هذي منو هيَّ اللي ما تگدر على فراگهه و تريد تروح وياها؟

لن يجيب على أمه . . لكن الأخت نرجس ستشي في يوم قريب لأمها باسم حبيبة إبنها، و ستعلق الأم مذهولة:

- تقصدين . . وحدة من هذني بنات الجنابي اللي بمحلتنة! . . ولچ بنتي أريد أعرف . . هنّ هذني بنات الجنابي بيهن وحدة الواحد ما يگدر على فراگهه!

و في آذار . . يصدر حكم آخر بالإعدام على جندي مكلّف كان يساريا . . ناطق عبد الواحد الحديثي . . يا للرعب! . . و حين تحدَّث الى خاله بقرار

الإعـدام الجديـد . . سـيقترح خالـه عليـه:

- شـوف مرهـون . . صحيـح هـو أبـوك . . برأيـي مـا كان الأب اللـي هـو أب . . بـس إنـتَ شـوف فرصـة و إحـچـيله عـن الخطـة مالتـك . . و أطلـب منـه يخلـي كل شـي بالكتمـان بينـك و بينـه! . . و أذكرلـه الأسـباب . . و بغـض النظـر عمـا إذا راح يظـل فـار مـن بيتـه أو لا . . بـس آنـي أتوقـع أن غايـب مرهـون بعـد السـجن راح يصيـر شـي غيـر غايـب مرهـون قبـل السـجن! . . و رُد لـي الخبـر.

- و تريد أحـچيله حتى عن أحمد و نرجس؟

- أفضِّل! . . حتى نشوف ردة الفعل!

و سـيلتقى مرهـون بأبيـه، و يحكـى لـه، فيظـل غايـب سـاكتاً لمـدة ليسـت قصيـرة، و مرهـون ينتظـر . . و أخيـراً يسـمع مـن أبيـه:

- طالـع علـى خالـك! . . يللـه علـى خالـك علـى خالـك! . . بـس آنـي اللـي عرفتـه منـك . . وارد الكازينـو يـا دوب يسـد مصاريـف البيـت!

- تمام!

- هذي الشغلة تخوُّف فعلا! . . يعني راح تفلت إنت و أختك؟

- بلي!

- هـذا معنـاه . . لازم ألململكـم إنـت و أختـك نرجـس شـوية فلـوس خـلال هالسـنة و السـنة الجايـة . . راح أحـاول!

و يسـري داخـل مرهـون شـعور بالرضـا مـن تفهـم أبيـه لمصيـره و أختـه و للفتـةِ أبيـه المسؤولة تجاههمـا . . و يوصـي أبيـه بالكتمـان.

و يرُدَّ مرهون لشمران بخبر ما دار بينه و أبيه، و يعلـَّق خاله قائلاً:

- هذا اللي توقعته . . لا بد أن يكون غايب بعد التحسين مختلف عن غايب قبل التحسين و لو قليلا!

أبان صيف . . ستكمل نعمة الجنابي دراستها المتوسطة و تتوظف بائعة في معرض شركة الأسواق التجارية العراقية . . أوروز دي باك . . و كانت الشركة قد إنتقلت من بناية علي الحسون الصغيرة المطلة على الشاخة بجوار جامع الشابندر الى بناية جديدة كبيرة مطلة على شارع العنافصة . . و بوجود نعمة في مكان قريب مجاور لظهر منزلهم، شرعت عذابات مرهون الغرامية و لوعته بالتجلي، بخاصة و هو ذاهب هناك إليها أول مرة ليتعرف على مكان عملها فيُهنئها على وظيفتها . . مرهون قليل خبرة في هذا الأمر، فإحتار بمَ سيأخذه معه هدية لها على وظيفتها. صحيح أنه في فتوته يصاحبَ شاعرين، لكن مخيلته بإختيار الهدية لم تسعفه لإختيار شئ فيه من الرومانسية قدراً مناسباً، فقفز ذهنه فوراً الى شراء مصوغة ذهب صغيرة. جلب من سوق الصاغة خاتماً صغيراً بفص لازوردي و توجه الى معرض الشركة التجارية العراقية . . المكان مزدحمٌ الى حد الإختناق . . أتربة تَعلقُ بأحذية الداخلين، فتتناثر في جو المعرض، و تجعل التنفس مؤذياً. أفواج من الناس لا تنفك تأتي بإتجاه إقسامه الداخلية، بل بإتجاه أقسام محددة. و هو يتفحص الأقسام بحثا عنها . . قسم ألبسة نسائية . . و رجالية . . و أطفال . . و ألعاب . . حين وصل الى آخرها، قسم أقمشة الستائر الذي كان خاليا تقريبا، يتوقف هناك و يحيّ البائعة بإنحناءة، فترد عليه:

- تفضل يا بيه!

آه . . بائعة مصرية! . . رد على مجاملتها:

- لا . . شكرا. . شنو هالإزدحام اليوم؟ . . بضاعة جديدة؟

- الموسم على الأبواب يا بيه!

يتماهى خيال مرهون مع نبرة متناغمة عُرِفَ بها المصريون، و تعوَّد هو التماهي مع تلك النبرة بفعل سماعه أغاني أم كلثوم لسنين. و لأنها لربما رأته متردداً، سمعها تضيف:

- يا بيه . . إنت عايز إيه بالزبط؟ . . طلباتك إيه؟

يتردد بإخبارها . . و عازما على إخبارها بما يريد، ظهرت نعمة فجأة من بابٍ خلف البائعة المصرية لتقف الى جانبها خلف الكاونتر. بش وجهه لملقاها، و ها هي نعمة تبدي تجهما إزاء بشاشته . . فتحلاظ البائعة ذلك، و تسأل نعمة:

- يا نعمة . . ده أخوكي؟

و بفطاريته سارع مرهون بالإجابة:

- لا . . خطيبها!

إمتعاض نعمة من جوابه كان واضحا على وجهها، فنترت به بحدة:

- ها! . . شعندك هنا؟

- جيت أهنيچ بالوظيفة . . و جبتلچ هدية!

و يُخرج الخاتم الذهبي الصغير بعفوية و يضعه على الكاونتر . . لم تعلق نعمة و ظلت ساكتة . . لكن البائعة المصرية علقت:

- يا سلام على الكرم . . إيه الـگمال و الشياكة دي!

فعلق نعمة:

- هاي شنو فايزة؟ . . و الله إنتِ بطرانة! . . إحنه بعدنه أصلا ما حاچين لا بموضوع خطبة و لا زواج!

و بفطاريته يعلق مرهون:

- نعمة . . لعد هاذي شنو الرسائل اللي چنتي تاخذيهه مني صار أكثر من سنة؟

فترد:

- إي تمام! . . بس بعدهه العلاقة من طرف واحد!

و تتدخل فايزة معلقة:

- . . يا نعمة . . يا أختي . . صحيح إحنه ما بقلناش أكتر من أسبوع نعرف بعض . . بس إسمحيلي أقوللك . . طالما إنتي كنتي تاخدي منو رسايل و مكاتيب . . كده يعني إنت كنت موافقة . . يلله يا نعمة . . إستهدي بالرحمن و خدي الهدية دِيَّت اللي جايبهالك . . و ما تكسريش بخاطرو!

يبش وجه مرهون من جديد حين مدت نعمة يدها لإلتقاط الخاتم الذهبي الصغير دون أي تعليق منها، و يجيئ التعليق من فايزة:

- يا بيه . . ما تاخدش كتير على خاطرك . . هي تشكرك كتير على الهدية!

ينسحب مرهون خارجاً . . و بنفسه إنكسار.

و ستظل نعمة تتلقى هدايا مرهون . . و تطول مماطلتها لتدوم حتى أواخر 1976، و يتعرض مرهون مرة أخرى لإنتكاسة كبيرة في الدراسة، فيرسب مرة أخرى في صفه، مدشناً سنة عمره الثامنة عشرة، و سيصرف من المدرسة و يغدو على حافة الخطر و لا يتبقّى له سوى أشهر قلائل على إستدعائه و أقرانه لخدمة العَلَم.

آذار 1977 . . تبلغ أخته نرجس سن الزواج و يعقد لها قرانها على

صديقه أحمد في حفلة صغيرة تضم الأهل و بعض الأصدقاء . . و في ذاك الإحتفال الصغير ثلاثة فقط . . هو و خاله شمران و صديقه أحمد سيتحسسون جو الحفلة المكهرب بالتوجس و الخوف بشأن مرهون الذي ما أن تستدعى وجبة مواليد آذار للخدمة الإجبارية في الجيش سيكون على حافة هاوية. و بنفاذ صبر، لامه صهره أحمد شحاذة على توانيه بالدراسة و على إنشغاله بحب من طرف واحد لفتاة لا تتسأهل أن يفوته لأجلها قطار الخلاص و الحرية، لكن مرهون بفطاريته فضَّل أن يظل مخلصاً لحب من غير أمل، محتجا بوصية حسين أخوها له بإخراجها معه. . و بإنفضاض مدعوي الحفلة الصغيرة يوم قران أخته، سيدخل مرهون الى أوروز دي باك قبيل الغروب بحثا عن نعمة و لا يجدها. فيسأل عنها من فايزة، فتخبره أنها ذهبت الى المخازن لإستلام بضاعة جديدة، و أضافت المصرية منوهةً:

- مرهون . . يا خويه . . معليش و ما تاخدش اللي هقولو بحساسية . . أنا شايفاك ود طيب بجد . . وما يصحش تظل كده نايم على أودانك!

- خير؟

- إسمعني كويس لو سمحت . . إنت لازم تَعرَف أنو الحمامة بتاعتك بيطاردها صياد!

- صياد! . . يا صياد؟

- أيوه! . . صياد . . و لازم تعرف كمان إن الحمام معتاد يحتمي بأعشاشو اللي يخبِّيهه بين أغصان الشجر . . و إذا سِقِط ورق الشجر في الخريف ما يبقاش فيه شئ يستره من عين الصياد . . و ساعتها ما يبقاش العش حصن منيع!

- هيچي؟

- أمّال!

- شنو السالفة؟ . .

- إيه؟

- بالبستان گبل ساعتين . . چان أكو شاعر يتفلسف براسي . . و جيت هنا و لگيت شاعرة تتفلسف براسي؟

و تعقب فايزة بدلع واضح:

- كده!

مقارنته بين أسلوب نعمة و فايزة في الكلام لم تكن لتنزل عليه من السماء فجأة. زميلة نعمة تركت في نفسه إنطباعاً مريحاً منذ أول لقاء بها. و كلما ذهب هناك كان يتملى تكوينها الجميل . . البشرة السمراء الملساء . . العينين السوداوين . . شفتيها الموردتين بحمرة خفيفة . . و تانك الغمازتين، و لكن أمانته تجاه الفتاة، التي أيقضت مشاعره بصدرها الناهد و هي صبية، هي التي كانت ما تزال مستولية عليه . . و زاده تمسكا بها وصية أخيها له بها. و يسمع فايزة تضيف:

- أيوه كده . . و ساعتها هتوقع الحمامة بيد الصياد بسهولة!

- لكن ست فايزة . . و آني طفل زغير قريت في المدرسة موضوع يگول إن الطير لما ينكشف عشه بالخريف . . يهاجر . . يهاجر حتى يبني عش بمكان آخر في بلد آخر!

مُزيدةً دلعها حبة، تعلق:

- شقي! . . شقي قوي!

- و لا تنسين أيضاً . . هسه إحنه بعدنه بالربيع . . الخريف ما جا لحد هسه! . . و هذا معناه أكو فسحة وقت أمام الطيور قبل ما يجي الخريف و ينكشف العش!

- شقي! . . مش قلتلك إنت شقي!

- و هذي شقي شنو معناها؟

- معناهـا . . ود شـاطر و خفيـف الظـل و مـلاوع! . . و ياريـت النصيـب يجيبلـي واحـد كـده زيـك!

- لعد تريدين الصدگ؟ . . إقتربي مني شوية حتى أگولـچ سر . .

و حيـن إقتربـت ملامسـة الكاونتـر و مقربـة أعلـى جسـدها منـه، كان فـي نيتـه أن يقـول لهـا شـيئا و لكنـه أحجم، فأعتـذر و غـادر.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

تنويـه فايـزة المصريـة بوجـود صيـاد يطـارد نعمـة يشـغله كثيـرا. يصـل الـى البيـت راكنـاً الـى غرفتـه، و يستسـلم الـى وشـيش الفـراغ الـذي يغلـف جـو الغرفـة، و يغمـض عينيـه و كأنـه فـوق سـطح لا حـدود لـه و فـي فضـاء لا يحـده أفـق. إمتـدادٌ لامتنـاهٍ. و راح فـي سـبات . . صـراخ . . و صـراخ . . و صـراخ . . صيـاد . . صيـاد رحـت أصطـاد صـادونـي . . عدويـة!

و يصحو . . كان صهره أحمد يهزه، متسائلا:

- إنتَ وين؟ . . خمسة أيام ماكو!

- أحمد . . آني دايخ!

- ها؟ . . شسويت؟

كان مرهون يعلم عماذا يسأله صهره، فيرد:

- لا . . و آني مفكر أصارحهه بموضوع السفر و الفرار.

- إيـاك! . . آنـي مـو گـلتلك . . حتـى لا يفوتـك القطـار عوفهـه و إنشـغل

بدراستك! . . آني مقدر إستيقاظ أحاسيسك العاطفية الأولى مرتبط بيهه و بديوسه و بفخاذهه و سيقانهه و خيالك يروح لما بينهما . . بس شراح تسوي إذا هي ما تستجيب؟ . . و شوف إحنه بيا وضع هسه! . . بخاصة إذا لحد هسه لا عمتي أميرة و لا زوجتي نرجس يعرفن أي مصيبة هي بالإنتظار إذا إستدعو مواليدك للعسكرية!

ينوي أن يحكي لصهره عن فايزة المصرية و عن تحول يراوده في موضوع تعلقه بنعمة، لكنه أحجم و رد على صهره مستنكرا:

- أحمد . . يعني إنت لو بمكاني چان تعوفهه لأختي نرجس؟

و مع أن سؤاله تبدّى له مفحماً، سيرد أحمد مبرراً:

- شنو هالمقارنة؟ . . شنو المقارنة الظالمة!

- و غير هذا . . إنتَ مو سمعت أخوها حسين يوصيني بيهه! . . مو بس هاي . . المصيبة . . عندي معلومة تگول أكو واحد محاودهه!

فيعلّق أحمد:

- آهو! . . أهو! . . راح يتحول الموضوع أيضاً الى غيرة و عناد!

البـستـــــــان

يطرطـق مرهـون كالعـادة بمفتـاح بـاب البسـتان الخشـبي، و يدخـل، و كمـا إعتـاد سـيصيح بأعلـى صوتـه:

- أحـــــــــمـــــــــــــد!

و إذ لـم يسـمع جوابـاً . . تذكـر فجـأة مـا عرفـه قبـل حيـن عـن سـهرات أبيـه فـي البسـتان المجـاور. و هـا هـو يتلبسـه فضـولٌ للتعـرف علـى بسـتان حسـين گطمـة، و هـو علـى معرفـة بوجـود فتحـة مـرور الـى البسـتان التـي سـماها خالـه شـمران . . حانـة الأسـرار! . . حـاول أن يدخـل البسـتان مرتيـن، و لكنه إرتعـب مـن صـوت نبـاح كلـب البسـتان، فولـى هاربـا، و لـم يخطـر ببالـه قـط أن يسـتعين بأحمـد للدخـول إليهـا. و يدفعـه الفضـول مـرة أخـرى بعـد مـا سـمع مـا سـمع عـن البسـتان و أبيـه، فيسـير لوحـده علـى مهـل متلمسـاً طريقـه نحـو تلـك الفتحـة . . مـا الـذي يجـري هنـاك فسـمّاها خالـه حانـة الأسـرار؟ . . و أخيـراً هـا هـي الفتحـة الموعـودة. بـدى لـه المـرور منهـا يسـيرا، فمـرَّ منهـا. بضعـة خطـوات، و يأتيـه النبـاحِ المـدوي للكلـب. خـُيِّلَ إليـه النبـاح ليس بعيـدا جـداً، فخـاف و رجـع القهقـرى نحـو فتحـة المـرور، صـارفـا النظـر عـن الموضـوع هـذه المـرة أيضـا. و مناديـا مـرة أخـرى علـى أحمـد بصـوت عـالٍ . . و كـرر المحاولـة . . و ثانيـة . . و ثالثـة كانـت الأقـوى لدرجـة أنـه أحـس

أن صوتـه كاد يخـرج مـن قعـر أمعائـه . . و جـاءه الجـواب:

- جـاي . . جـــــــــــــــــايَّـك!

لابــثٌ فــي مكانــه، راح يتقــي الزنابيــر الحمــر و الصفــر التــي ظلــت برواحهـا و مجيئهـا تعـدّه دخيـلا تجـب مقاومتـه. و مـا فتـئ عددهـا يتزايـد آتيـة مـن جحـور قريبـة إتخذتهـا فـي طوفـة البسـتان. كان قـد سـمع مـرة عـن رجـل أماتتـه الزنـابيـر بلدغاتهـا. و مـن أجـل التقيـة ظـل يـراوح رجوعـاً الـى بـاب البسـتان و العـودة الـى مكانـه . . شـئ مخيـف! . . و سـرعان مـا أتتـه ضحكـة أحمـد مـن ورائـه معلقـاً:

- مو أقل من مية مرة إنت جاي للبستان! . . ما تعودت على الزنابير؟

- آنــي أسـتغرب إنـت شـلون تخـش و تطلـع! . . أشـوف هـذي الزنابيـر لا تلدغـك و لا تهاجمـك!

- تعويـد! . . ثـم أن الطبيعـة هنـا تبتـدع طـرق لحمايـة المـكان . . البنــادق مـا تـگـدر وحدهـا تحمـي مـا موجـود وراء طوفـة البسـتان . . فضـلاً عـن الأفاعـي و العرابيـد اللـي تنسـل تحـت الدغـل ويـن مـا موجـود بالبسـتان . .

- و عرابيـد هميـن! . . هميـن راح تتفلسـف براسـي و تحـچـي حـچـي مـا أفتهمـه؟

- هـذي مـو فلسـفة . . هـذا أسـلوب حيـاة! . . و لعلمـك . . آنــي أحترامـي للعرابيـد أكبـر مـن إحترامـي للزنابيـر!

- ليش؟

- لأن الزنبـور أرعـن . . ورواري يظـل يطـن گـبل مـا يهاجـم بينمـا العربيـد . . شــي آخـر مختلـف . . كائـن كتـوم . . و عرابيـد هـذي البسـتان تـدري زيـن آنـي أحترمهـه . . إحتـرام متبـادل!

يضحك مرهون من كل قلبه، فيضيف صديقه:

- إضحك . . إي إضحك . . ماكو شي بالعالم يستحق الحزن لأجله لحظة واحدة! . . إقهر مشاكلك بالضحك يا ولد!

و لأن أحمد يدري جيداً بأن صديقه يلجأ إليه لأنه عاجز تقريباً عن إتخاذ قرار يخص حياته العاطفية و تتآكله الحيرة، فسمعه يقول:

- آني مريت لبيتكم و الوالدة گالتلي إنت بالبستان . . و لعلمك . . آني جيت من بعگوبة لهنا ماشي . . ما ركبت بسيارة!

- زين سويت . . وجودك يونسني!

- منين نمشي؟

- منين ما تحب! . . ميزة البستان هو أنه عندما تجتاز الباب أي طريق تمشي عليه ياخذك لداخل البستان . . و من تكون في قلب البستان ما يحيرك الخروج . . لأن أي طريق تاخذه يودِّيك لسور البستان و مناك تلزم السور و تمشي لغاية أن تصل الى الباب.

جو البستان ما يزال مشبَّعاً بعطر القداح على الرغم من أن أغلبه تساقط من قمم الأشجار الى الأرض و ذبل في قعر السواقي . . و المتبقي منه على الأشجار صار ثماراً فجة ما تزال صغيرة . . إستنشق مرهون عدة شهقات عميقة، و قال:

- رائحة القداح تؤذيني!

- تؤذي من لم يتعودوا عليها! . . أبناء المدن معتادين على دخان السيارات!

- إنتَ تحچي هيچي . . و چنك إنت مو من أبناء المدن!

- راح أحاول ألا أكون! . . گبل ما يطلعلنه رعب الإعدام اللي ينتظرنه چان عندي حلم أبني بيت زغير هنا بداخل البستان و أجيب أختك أميرة تسكن هنا . .

- . . حلو!

- و لعلمك . . آني آخذ نرجس و أسافر رايح لمجرد الحصول على أجوبة عن الحياة و الموت خارج دنيانا هذي!

- ترجع؟

- ليش لا! . . لأن من المحال دوام الحال! . . و حتى لو إضطريت أبقى بالغُربة . . هناك راح أحاول أسوي مزرعة زغيرة . .

- . . حلو!

معلقا بذلك، يتذكر مرهون ما قاله له حسين الجنابي مرة عن أحمد من أنه يخلق له قناعات و يقاتل من أجل إثبات صحتها. كانا قد وصلا الى قلب البستان حيث الدارة الصغيرة، فسأل أحمد:

- تظل هنا لو تجي ويايه؟

- إنت . . وين رايح؟

- هذا جيراني اللي من جهة الجنوب شخص مهمل . .

- تقصد هذا اللي چان عنده ضيوف گبل مدة؟ . . نسوان و بنات . . و . .

- إي هو! . . أشجار بستانه مريضة دائماً . . و هذا معناه راح أضطر آني أفحص ما يطل من أشجار البساتين . . مني و منه . . حتى لا تنعدي أشجاري!

يُخرج أحمد مضخة مكافحة أمراض شجر صغيرة . . و يقتفي مرهون

خطى صديقه نحو جهة الجنوب وصولاً الى طوفة البستان، و إستفسر:

- تريد أساعدك؟
- إذا حبيت . . فتش بإشجار البرتقال و الليمون و الرارنج.

و يصف له أحمد أعراض الإصابة، و يضيف:

- . . من تلاحظ أكو إصابة صيحلي.

و راحا يفتشان عن أعراض أمراض الشجر . . لائذا بالصمت، يراجع وضعه مع نعمة. لم يأتِ الى هنا إلا كي يكتشف صدى ما يفكر فيه. أمارات عدوى التفكير على هذا النحو جاءته بطيئةً من خاله و من صهره أحمد . . خلو الى النفس! . . المكان ينغمر في هدوء رهيف، و لا تشق السكون الذي يعترى البستان غير دفقة من هديل الحمام بين آونة و أخرى، أو ربما حفيف تحت الدغل الذي علا عند حافات أسفل الطوفة . . كل ما قاله حسين الجنابي عن أحمد ربما كان صحيحاً . . القناعات عند أحمد تبزغ من داخله و يتمسك بها و لا يدعها تهرب منه. و على عكس حسين الجنابي يتسم أحمد بجرأ لا تهاب الموت . . أهو من طول مكوثه في البستان و إعتياده على طنين كُوَرِ الزنابير و حفيف الأفاعي في الدغل؟ . . فزَّ فجأة حين خُيِّلَ إليه سماع حفيف بين الحلفاء القريبة و الدغل. توقف مصغياً يتلفت مسقطاً نظراته حول قدميه، فسمع ضحكة من ورائه، و أحمد يعلق:

- لا تخاف! . . هذي عرابيدي!
- شافتني؟
- العرابيد ما تشوف . . بل تسمع! . . لـگيت شي؟
- لحد هسه . . لا.

- تنزل ويايه بالنهر؟

- إي . .

بعودتهما الى الدارة الصغيرة، يُخرج أحمد عدة الصيد النهري . . و يشرعان يتافزان فوق السواقي منحدرين بإتجاه النهر الذي يحد البستان من جهة الغرب . . و في فضاء الجرف، ها هي شمس ما قبل الظهيرة تجاهد لبلوغ السمت، و إستكانة الماء الذي ما يزال فيه خيط من لون ماء الربيع البني يهميه التيار حول القارب و لا يلبث أن يبتعد بزخم رهيف، ما أوحى لمرهون بشعور غامر غير محدد، و لا محدودية شعوره هذا راحت تتماهى مع مجموعة متفرقة من النوارس، تغط في الماء، ثم تعود و تحلق مع إنحناءة النهر نحو الشمال الشرقي . . سأله أحمد:

- بعدك تخاف من الميّ؟

- لا!

- تعال لعد.

يجذّف أحمد مبتعداً عن الجرف، فيعلق مرهون:

- هذا شلون هدوء هنا!

- آني لعد شلون صرت شاعر! . . هسه إحچيلي . . شسويت ويه محبوبتك المعاندة المبرطمة طول عمرهه؟

- و لا أي شي . . و آني حاير . . ما بقى أمامي وقت . . شهر لو شهرين . . و لا بد نكون على مفترق طرق.

- مو نصتحك! . . أخي عوفهه گبل ما تاكل منك وقتك و تاكل حياتك و گلبك!

و تهربا من تعليقات و توصيفات صديقه، يستفسر مرهون:

- تبات هوايه هنا بالبستان؟

- طبعاً!

و هما ينشران الشبك، نظر مرهون في ساعته، و قال:

- أوه! . . لازم أروح!

- ليش ما تبقى؟ . . حتى نتغدى سوية هنا.

- لا! . . لأن فايزة المصرية گالتلي هذا الصياد اللي محاود نعمة عادة يجي بعد الظهر بساعتين . . أريد أروح أشوفه! . . لازم أحط حد و أسوي قرار!

- مو مشكلة هسه أرجع بيك للجرف . . هم راح تروح مشي؟

- لا . . أرجع بسيارة من سيارات الهويدر لو خرنابات!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

بعودته من البستان . . خبران كانا بإنتظاره. الأول جاءه من الراديو، إستدعاء مواليده لمراجعة دوائر التجنيد من أجل تأشير دفاتر تجنيدهم خلال أسبوع و من لا يراجع يعد متخلفا . . و الخبر الثاني جاءه من بيت خاله شمران، صدور مذكرة إلقاء قبض بحق خاله و إضطراره الى الفرار!

إنشغاله المشوش بهذين الخبرين لم ينسِهِ حكاية الصياد الذي يطارد المعشوقة ذات الصدر الناهد.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مقتربا من بناية أوروز دي باك، لم يفكر مرهون بالكيفية التي سيتعرف بها على الصياد . . ما ردة فعله لو رآه؟ . . إن كان من حقه أن يتدخل . . كيف سيتدخل و بأية صفة؟ . . ماذا لو وجد الأمر يجري بموافقتها بالكامل! . . يصل صالة البيع و لم يكن بعد قد توصل الى تصور عن الموقف. و يطل من باب الصالة و يتوقف. نعمة و فايزة موجودتان هناك مشغولتان مع زبونة و قد نشرتا أمام الزبونة طارف لفة قماش تتلمسه المرأة . . إرتد و إنسحب سائرا حيث بناية المخازن الموجودة في العمق بعيدا عن باب المدخل. و مفضّلا أن يتوارى هناك بين سيارات الحمل التابعة للشركة، راح يراقب الداخلين و الخارجين من السوق . . نساء و رجال . . مدينيون و قرويون . . يميزهم بملبسهم و مظهرهم . . أفادته فايزة أن الصياد يأتي وقت إقفال السوق مرتين في الأسبوع و تخرج نعمة معه أحيانا. و حتى إن لم يكن واضحا في ذهنه ما الذي يريده و ما الذي سيفعله بالضبط لو تعرَّف على الصياد . . ها هو يطيق صبرا كي يتعرف على ما يجري، و لا يدري كم من وقت مر عليه. ينظر في ساعته يتنقل من خلف سيارة الى أخرى و عيناه لا تغيبان عن الباب . . مضافا الى حيرته من تمنُّع نعمة التي قبلت أن تستقبل منه عشرات رسائل العشق، و ظلت لا ترد عليها . . و بقيت تتلقى منه العديد من الهدايا و لا تستجيب . . يا للعذاب! . . و ها هو عذابه ينضاف إليه شعورا بالغيرة! . . الغيرةُ توَلِّدُ عنادا! . . ينظر في الساعة، فيجد أن الوقت يقترب من الثانية . . و في غمرة تفكيره و إحمرار عينيه من لسعة شمس ظهاري أواسط آذار، لمحت عيناه نعمة تخرج و يسير معها رجل فارع الطول بجسم ممتلئ و طريقة لبسه للقميص و البنطلون تشي بقرويته. يصلان الباب الخارجي، فتخف قدماه مقتربا من الباب الخارجي ليتوارى خلفه، مادا عنقه من فتحته العلوية ليتابع النظر إليهما . . رآهما يقتربان من سيارة پيكآپ حديثة وزعتها الحكومة للفلاحين . . حاول الإلمام بهيئة الرجل . . رجل بدى له أول الأمر أربعينيا . . و من لون شعره الفاحم الغريب إستنتج إنه قد يكون خمسينيا يموِّه عمره بصبغة الشعر . . رجل عمره ضعف عمرها أو أكثر! . . سمعه من بعيد يأمرها، أو هكذا خُيِّلَ

إليـه، بالصعـود الـى السـيارة . . ويـن راحـت كل ذيـچ مكاتيـب الغـرام؟ . . مكاتيـب مـال أربـع سـنين! . . مـن يـگـول المـرأة تريـد واحـد يحبهـه؟ . . المـرأة تريد واحـد يسوگـهه! . . هـا هـي محبوبتـه تصعـد أمـام ناظريـه فـي سـيارة الصيـاد مبتسـمة! . . و هـو الـذي لـم يرهـا تبتسـم لـه قـط! . . فتذكـر تمثيـل صهـره أحمـد لأمهـا و هـي تنتـر و تعنتـر السيـگـارة بإصبعيهـا . . و كانـت هـي ايضـا تنتـر معـه مثلمـا تفعـل أمهـا، و تذكـر الصفـة التـي أطلقهـا عليـه صهـره حيـن قـال لـه . . إنـت قشـمر! . . صـدگ آنـي قشـمر لا عـاب حلـگك أحمـد! . . آنـي قشـمر مـال مـال كازينـو أم كلثـوم! . . آنـي قشـمر مـال بعـگـوبة! . . كل ذيـچ المكاتيـب و هدايـا الذهـب راحـت بالمـيِّ و بالتالـي راح تتزوجيـن هـذا العـُربي! . . تـهيـأ لمغـادرة مكانـه و القفـز عليهمـا قبـل مغـادرة السـيارة، لكنـه أحجـم.

برؤية السيارة تغادر . . أول ما تبادر لذهنه أن يذهب الى فايزة.

فـي صالـة البيـع . . فايـزة منشـغلة مـع زبونتيـن تقلبـان أقمشـة السـائر . . يظـل بعيـدا شـاغلا نفسـه بالتفـرج علـى الملابـس و تقليبهـا . . و لكنـه لا شـعوريا كان يتقـرب مـن قسـم الأقمشـة . . و حيـن لمحتـه فايـزة إبتسـمت لـه مـن بعيـد . . يقتـرب منهـا، و تنصـرف الزبونتـان . .

- أزيك يا مرهون؟

- مو زين!

- ليه؟

- هذا اللي طلعت نعمة وياه . . هو الصياد لو غيره؟

- و أخيرا! . . هو إنتَ شـُفـتـُهُم!

- إي شِفـتـُهُم!

- مُش قُلتِلَك؟ . .ما أنا قُلتِلَك كزا مرة إنو فيه صياد!

ليس عسيرا عليه بعد الآن التفرقة بين الرقة التي تخرج بها الكلمات من فم فايزة و النتر الذي تخرج به المفردات من فم نعمة . . ملعون أبو الحب! . . الفرق بين خفة ظل فايزة و ثقل دم نعمة واضح . . و لابد من وجود فتيات بعگوبيات من نوع فايزة المصرية! . . أعمى و قشمر! . . فلِمَ تأخر بإكتشاف هذه الحقيقة؟ . . عليه أن يقرر! . . و عليه أن يفكر كيف سيفسر لفايزة يوما ما تحول عاطفته من نعمة ثقيلة الظل الى المصرية خفيفة الظل في موعد قريب!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

يمضي أسبوع على تأشيره لدفتر الخدمة العسكرية . . تستدعى مواليده للإلتحق من أجل تسوقيهم لمراكز التدريب . . أيلتحق أم لا يلتحق؟ . . غياب خاله شمران يسبب له بلبلة . . يستشير أحمد شحاذة، و يجده أكبر حيرة مما يتوقع بخصوص وضعه، فينصحه بإستشارة والده . . بعد أن يصغي الوالد له ينصحه بالإلتحاق بالجيش و عدم التأخر، لأن ذلك قد يكون سببا بملاحقته و يكون وضعه أعقد!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

يلتحق بدائرة التجنيد . . و يُسَوَّق الى مركز تدريب في معسكر منصورية الجبل.

أواخر آذار . . أجواء خوف و شك و توتر و تَحسُّب . . الشيوعيون يحتفلون بذكرى تأسيس حزبهم في أجواء يسودها الشك و الخوف من المجهول . . و في اليوم نفسه صدور أحكام جديدة بالإعدام بحق يساريين آخرين ملتحقين بالخدمة العسكرية.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

أسبوعان يمضيان على وجوده في المعسكر . . يأتيه الجيراوي بنفسه الى معسكر المنصورية ليخبره برحيل والده عن هذه الدنيا بحادث سيارة و يصطحبه الى البيت لتشييع جنازة والده.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بضعة أيام تمضي على إنفضاض مجلس الفاتحة المنصوب لتأبين والده . . يعود خاله شمران من فراره . . و يذهب إليه و معه صهره أحمد.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بداية السبعينيات . . البيت الذي إستأجره شمران في صوب السراي ملاصقٌ لمدرسة بعقوبة الإبتدائية الأولى . . بناه يهودي من أهالي بعقوبة مطلاً على الشارع الرئيس المحاذي للشاخة، في جانبه المتجه من قنطرة خليل باشا شمالا الى محطة القطار جنوبا. و أبان محنة تهجير اليهود عنوة الى إسرائيل أواخر أربعينيات القرن العشرين باعه اليهودي الى مسلم من أهالي بعقوبة بثمن ما أبخسه قد لا يساوي حتى أجور البنّاء الذي بناه، بعد أن أغواه المسلم بالبيع:

- . . تبيع و تقبض فلوس أحسن ما تاخذ بيتك الحكومة و يصير دائرة من دوائرها في بعگوبة لو يگعد بيه واحد من ضباط شرطة بعگوبة!

في أواخر الستينات عند مجيئ سلطة البعث العروبية الثانية، كانت بلدية بعقوبة قد غيَّرت إسم الشاخة الرسمي من خريسان المظنون بإيحاءات فارسية الى سارية و هو إسمٍ لغازٍ من غزاة البدو الذين فتحوا بلاد فارس . . و غيرت البلدية أيضاً من مجرى الشاخة، و من إلتوآت مساره الطبيعية، عدلـّتها لكي تسبغ على المجرى و الشارعين على جانبيه في التكية و السراي إستقامات و إنعطافات زاويَّةٍ واضحة في مساره. فصار لمسار مجرى الشاخة إستقامة طويلة واحدة بدءً من قنطرة خليل باشا

الأمـارة التـي تؤشـر نهايـة منطقـة البكـرة و السـوامرة شـمالاً، و هـي أمـارة بـدءُ الجـزء المبلـط مـن شـارعي الشـاخة، و لغايـة القنطـرة المقابلـة لمصـرف الرافديـن فـي بعقوبـة جنوبـاً حيـث تتشـكل إنعطافـة خفيفـةً نحـو اليسـار . . و تليهـا إسـتقامة ثانيـة قصيـرة مـن قنطـرة مصـرف الرافديـن و لغايـة القنطـرة القريبـة مـن مقهـى مجيـد محسـن فـي رأس شـارع النصـر، الـذي شـاعت تسـميته بشـارع الأطبـاء . . و تليهـا إسـتقامة ثالثـة طويلـة مـن قنطـرة مقهـى مجيـد محسـن و لغايـة القنطـرة التـي تقـع علـى أحـد أركانهـا مديريـة مـرور بلـدة بعقوبـة، فـي بدايـة الطريـق المؤديـة الـى ناحيـة بهـرز.

البيـت الـذي سـكنه شـمران فيـه مـن الريـازة و فـن العمـارة المعـروف بالطـراز البغـدادي الشـئ الكثيـر، مـا يشـير الـى ذائقـة التاجـر اليهـودي الـذي بنـاه . . نوافـذ و أبـواب مـن الخشـب السـاج، و العراقيـون عمومـا معروفـون بميلهـم لإسـتعمال خشـب السـاج فـي بنـاء بيوتهـم و أثـاث منازلهـم لأنـه خشـب مرٌّ لا تستسـيغ طعمـه حشـرة النمـل الأبيـض المعروفـة بحشـرة الإرضـة المغرمـة بنخـر الخشـب . . هـذا عـدا الآجـر المسـتعمل فـي بنـاء الجـدران و الآجـر الفرشـي المسـتعمل فـي تبليـط أرضيـات الغـرف، و مـا زود بـه البيـت مـن مخـازن صغيـرة متخفيـة فـي زوايـا البنـاء و ثنايـاه و تنفـع للخـزن . . هندسـة بغداديـة بإمتيـاز!

صبـاح اليـوم التالـي لعودتـه مـن أرض الفـرار فـي بغـداد، صحـا شـمران مـن نومـه مبكـرا كعادتـه. مغـادرا السـرير، يدخـل الحمـام آخـذاً معـه مسـجله الصغيـر و يفتحـه بأعلـى صوتـه علـى ليليـات شـوبان، ليتـرك الأنغـام تجـول فـي رحابـات المنـزل . . يـا لهـذا الشـجن المفـرح الـذي تشـيعه ليليـات شـوبان صباحـا! . . يسـتمع و هـو يحلـق ذقنـه الـذي أطلقـه طيلـة مـدة فـراره فـي بغـداد . . و مكمـلا حلاقـة ذقنـه و حمامـه، أخـذ معـه المسجِّل متوجهـا الـى المطبـخ ليحضِّـرَ الشـاي و الفطـور. و الفطـور يجهـز لحقـت بـه زوجتـه، و جلسـا يتنـاولان فطورهمـا صامتيـن، عـدا حيـن سـألته سـعدية عـن المـكان الـذي قضّـى فيـه لياليـه فـي بغـداد. أخبرهـا أنـه قضّـاه فـي فنـدق، فلامتـه قائلـةً إن أمهـا الحجيـة ظلـت تنتظـره لكـي يبيـت لياليـه عندهـا، و يـرد عليهـا:

- آني اشكرهه للحجية . . أمچ إمرأة نبيلة . . بس إنتِ مو تعرفين آني ما أحب أتطفل على أحد . . ثم آني چنت فار من وجه العدالة . . و تريديني أروح أحمِّل الناس مسؤولية و اروحلهم آني و طرگاعتي!

منتهياً من تناول فطوره، يترك زوجته لوحدها في المطبخ و يخرج. و إذ لم يكن في البيت حديقة، و قد إعتاد في كل عام منذ مطلع الربيع أن يرتقي السلم الى سطح المنزل ليقضي الصباحات هناك متمتعا بنسمات الربيع تحت ظلال شجرة توت ضخمة من البستان المجاور و قد مدت غصونها فوق ركن السطح البعيد . . آخذا معه كتاباً و مرتقياً السلم الى سطح المنزل يرافقه المسجل الصغير. قبل أن يجلس، وضع فيه كاسيت فريد الأطرش . . أول همسة . . و على السطح جلس على أحد كراسي جريد النخل في الركن الظليل بشجرة التوت العملاقة التي مدت أغصانها من وراء المنزل . . لم يستطع التحرر من عادة قديمة لازمته منذ أن كان تلميذاً، يجلس إستعداداً لإمتحان البكالوريا في ظل شجرة ليوكالبتوس ضخمة تظلل جانباً كبيراً من سطح منزلهم القديم الشرقي الطراز في دربونة الگِنِث، و جو السطح يذكره أيضا بخولة . . يجلس هنا في ظل شجرة التوت، و قبل ان يقرأ تمر به ذكريات عبوره عتبة مراهقته فوق السطح مع بنت الجيران . . يجلس هنا أيضاً ليقرأ و يغيب في صفحات سفر من أسفار القراءة، و سفره اليوم في كتاب للفيلسوف باروخ سبينوزا . . رسالة في اللاهوت و السياسة . . الذي إنقطعت قراءته فيه منذ فجر تلك الليلة التي طُرِق أثناءها باب منزله في جنح الظلام و أضطر الى مغادرة البيت و المدينة فاراً. و قبل أن يبحر من جديد في الكتاب للإستزادة من الكتاب تُفَنِّدُ صفحاته ما جاء في التوراة من أساطير و ترهات و تكشف ما جاء به الأنبياء من مقولات ملتوية و تبريرات . . إبراهيم نخاس النساء . . موسى و أساطيره و العجل الذهبي . . ها هي رائحة هواء معفر بالتراب تداهم خياشيه مصحوبة بضجيج صادر من بناية مدرسة بعقوبة الأولى المجاورة للمنزل من ناحية الشمال. سينهض و يذهب ليستجلي الأمر مطلاً بناظريه على بناية المدرسة . . و

يـا لهـول مـا يـُرى! . . الباحـث عـن الخلـود يـرى الفنـاء بـأم عينـه! . . يهدّمُون المدرسـة العتيقـة! . . لِـمَ؟ . . ظـل يتفـرج مصدومـا برؤيـة المعـاول تهـدم لغاية أن نفـرت عينـاه مـن منظـر الإفنـاء المتواصـل . . و راجعـا الـى حيـث مقعـد جريـد النخـل لكـي يقـي عينيـه مـن رؤيـة المزيـد مـن الأذى، جلـس و فتـح المُسـجِّل الصغيـر ليشـغل نفسـه مسـتمعا لفريـد . . أول همسـة . . و مطرقـاً بنظـره نحـو الأرض، يحـاول التحـرر مـن منظـر الإفنـاء الـذي رآه بالإنغمـاس مـع فريـد هـو الآخـر منغمسـا فـي أدائـه لمقدمـة موسـيقية علـى العـود . . يتناهـى الـى سـمعه وقـعُ خطـوات علـى درجـات السلم القريـب، فيرفـع رأسـه، ليسـتطلع القـادم، و يـرى فـي مدخـل رأس بـاب السـلم إبـنَ أختـه مرهـون و معـه صديقـه و الصهـره الشـاعر أحمـد.

يراهمـا يدخـلان الـى السـطح، ولا تصـدر منـه ردة فعـل . . و إذ لا يعلم مرهون بنوبـة الحـزن التـي داهمـت خالـه مـن منظـر إفنـاء المدرسـة، و هـو يـرى خالـه مسـتغرقاً بإسـتماعه لعـود فريـد، سيمسـك بيـد أحمـد يسـتأنيه، متذكّـرا مـا سـمعه مـن خالـه مـرة مـن أنـه إذا كان عليـه الإعتـراف بوجـود قـوة مطلقـة فـي الكـون يسـميها البعـض . . إلهـاً . . فـإن الموسـيقى هـي التـي تحثُّـه علـى الإعتـراف بقـوة مطلقـة مـن هـذا النـوع و ليسـت ترهـات كتـب الأديـان . و حتـى لـو أنـه لـم يكـن فـي حينهـا قـد فهـم بالضبـط مـا تفلسـف بـه خالـه، غيـر أنـه عـرف أن خالـه لا يحـب أن يفسـد عليـه أحـد إسـتماعه للموسـيقى. و يتذكـر أن خالـه قـال لـه أيضـا بـأن إسـتماعه للموسـيقى هـو صلاتـه التـي تربطـه بقـوى الكـون المطلقـة، و هـذه أيضـا لـم يفهمهـا و يهضمهـا فـي حينهـا . . فأشـار لصديقـه أحمـد أن يجلسـا صامتيـن و أكتفيـا للسـلام بإيمـاءة ، فـرد شـمران علـى إيماءتهمـا . . و ظـلا صامتيـن واقفيـن يرقبـان شـمران مسـتغرقاً فيمـا ظنـه مرهـون صـلاةً . . و حيـن شـرع فريـد يترنـم بكلمـات الأغنيـة . . قـام شـمران هـو بنفسـه الـى الشـابين مرحبـا. إحتضنهمـا سـوية لمعرفتـه بنـوع الصداقـة و الرابطـة التـي بينهمـا و رابطـة الشـاعر الشـاب بإبنـة أختـه نرجـس التـي باتـت زوجتـه . . و إذ كانـت زوجـة شـمران قـد أخبرتـه بالأمـس عـن وفـاة صهـره غايـب بحـادث سـيارة، هـا هـو يواسـي إبـن أختـه علـى مـوت

أبيـه، و يعبِّـر عـن أسـفه لأنـه لـم يكـن حاضـرا فـي محنـة أختـه و أولادهـا، و لام سـعدية لأنهـا لـم تخبـره بحـادث الوفـاة إلا بالأمـس بعـد عودتـه، فيوضـح مرهـون لـه بأنـه هـو الـذي طلـب إليهـا ألا تزعجـه بخبـر الوفـاة و هـو فـي محنـة فـراره فـي بغـداد . . فـي هـذا الوقـت كان فريـد قـد وصـل الـى كلمـات الأغنيـة . . كان القـدر راضـي علينـا حنـون . . كان القمـر جمالـو يسـبي العيـون . . . كان الشـجر غصـون تعانـق غصـون . . و البـدر يبعـث أنفاسـو مـع النسـيم بعـد مـا باسـو . .

بمـرأى إبـن أختـه، يتجـدد داخـل شـمران قلقـه الكامـن منـذ أن سـمع بالتلفـون مـن زوجتـه سـعدية نبـأ إلتحـاق مرهـون بالخدمـة العسـكرية، مـا يقرِّبَـه مـن حافـة الظـلام . . و تضاعـف قلقـه فـي الأمـس بنبـأ وفـاة صهـره غايـب فـي حـادث سيارة . . و يكاد قلقـه أن يطفـح علـى وجهـه، فيمسك بزمامـه متظاهرا بتعليـق أطلقـه لضيفيـه:

- هـذا هـو الدعـاء اللـي ربمـا يعجـب الواحـد و هـو يـؤدي صلاتـه للمطلـق مـع هـذه الأغنيـة! . . الحـب الأول دائمـا يكـون مخيـب و محبـط للآمـال! . . و مـع ذلـك يخليـك تتذكـر القبلـة الأولـى! . . و تنطبـع بذاكرتـك أولـى الأحاسـيس عـن شـفاه الأنثـى بخاصـة لمـا تجرُّب القبلـة علـى شـفاه الأنثـى و القمـر شـاهد . . و النسـيم يلاعـب الشـجر . . و الشـجر شـاهد . . و الليـل شـاهد! . . و البـرد أيضـا شـاهد!

الشـابان مـا يـزالان صـامتيـن . . يصـغيـان لشـمران يتفلسـف و يفسـر لهمـا صَلاتـه مـع الموسـيقى مـن أجـل التوحـد مـع الطبيعـة، و فـي الواقـع أن صـدى كلمـات . . القـدر . . القمـر . . الشـجر . . البـدر . . فـي أعماقـه تداعـب ذكـراه التـي لا تكـف عـن التجـدد مـع خولـة التـي حسـب أنـه بزواجـه مـن سـعدية سينسـاها . . و لـم ينسـها!

و لظنـه أنـه عصـي علـى الشـابين الربـط بيـن فلسـفته عـن الموسـيقى و مـا قالـه عـن القبلـة الأولـى و ذكرياتهـا، و خصوصيـة الموضـوع الكاملـة عنـده،

أغلـق صـوت فريـد الأطـرش، و خاطبهمـا مغيـراً موضـوع الحديـث:

- تعالو أشوُّفـُـكم فد شي!

يتوجـه شـمران ناحيـة بنايـة المدرسـة المجـاورة، و يتبعانـه قاطعيـن سـطح المنـزل مشـيا مـن تحـت ظـل الشـجرة فـي آخـر الزاويـة البعيـدة مـن السـطح نحـو جـدار السـطح الملاصـق لمدرسـة بعقوبـة الإبتدائيـة . . و هنـاك طلـب إليهمـا أن يطـلا علــى بنايــة المدرســة القديمــة العتيـدة . . يفعـلان و يريـان بأعينهمـا المعـاول تهـدم بنيـان المدرسـة . . و يشـرع شـمران يعلـق:

- . . قبـل مـا أروح برحلـة الفـرار شـفتهم يفرِّغـون المدرسـة مـن أثاثهـا . . يا لحسـن النيـة من فـخ! . . و بوقتهـا خطـر ببالـي إحتمـال يريـدون يرممـون البنايـة التاريخيـة الجميلـة و يجـددون أثاثهـا و البعـث تـارك الثـروة تجـري بالدرابيـن ويـه هـذا اللـي يسـمّوها خطـط التنميـة الإنفجاريـة . . أقصـد ظنـي راح الـى إحتمـال أكـو إهتمـام بالمبانـي الأثريـة بخاصـة المبانـي اللـي رافقـت نشـوء الدولـة العراقيـة الحديثـة . . حُسنُ الظـنِ مـن خيبـة الفطـن . . و إحنـه مبتليـن بحسـن الظـن! . . أبـد مـا خطـر ببالـي يريـدون يفلشـوهه! . . شـوفو شـلون المعـاول تهدِّم نكهـة التاريـخ الحقيقيـة . . آنـي ظَلّيتْ طـول عمـري أعتقـد إن التاريـخ الحقيقـي مـا نـگـدر نلـگـاه غير إلا بالمبانـي لأن هـي الشـاهد الوحيـد اللـي يبقـى دائمـا حـي وشـاخص للعيـان . . القبـور و بخاصـة قبـور القديسـين لا تدلنـا علـى شـئ! . . المبانـي هـي اللـي تدلنـا . . آنـي أريـد أعـرف هذولـه العـُربان اللـي جاييـن مـن الريـف ومـن الصحـراء الجلهيمـة و جـاي يحكمـون البلـد هسـه شـنو عداوتهـم ويـا الأبنيـة اللـي بنوهـا نـاس اللـي گـبلهم! . . شـوفو و تفرجـو شـلون الحاكـم البـدوي . . عـُربي . . قـروي . . أو أيـة تسـمية غيرهـا . . يقـوض و يمحـو التاريـخ الغنـي و المليـان بالثقافـة الماديـة و الروحيـة! . . شـيريد هـذا الحاكـم؟ . . شـوفوا! . . هـذي اللـي يجـري تفلـيشهه هـي ثانـي مدرسـة إنبنـت للبنيـن فـي تاريـخ العـراق الحديـث فـي بعـگـوبة . . أول مدرسـة چـانت يسـموها مدرسـة الدَبـّـة . هنـاك بصـوب التكيـة بطـارف محلـة

الـكِّنِـث مـن جهـة السـوامرة . . يـم بيـت رازقيـة . . گــبال بيـت شـكري افنـدي الـچَـچَــاني . . إسـمها الرسـمي حسـب مـا أتذكـر چــان . . مدرسـة فيصـل الثانـي للبنــات . . بـس ليـش الناس چـانو يسموها مدرسـة الدبـّــة؟ . . مــا أدري! . . آنــي لحـگّـت عليهـه خرايـب و سـگـوفها مفلـّـشة . . و إحنه زغـار چـنه مـن نلعـب حويـدة بالليـل . . تلامـذة إبتدائيـة . . أروح و أختـل بيهـه و يروحـون الأولاد ركـض لجديتـك صـافيـة طيبـة الذكـر و تتخبـل! . . لأن النــاس بالمحلـة كلهـم چــانو يعتقـدون بخرايـب المدرسـة أكـو طنطـل يطلـع بالليـل! . . و بعديـن بالصدفـة ويـه لعبنـه الحويـدة إكتشـفنا منـو اللـي چــان مطلـّـع سـالفة الطنطـل و مخـوف النـاس مـن المدرسـة.

و يخطر في بال أحمد شحاذة ليسأل:

- منو؟

- عصابـة حراميـة مـن السـوامرة . . يجـوون بالليـل ختلـه و يفلشـون مـن طابـوگ المدرسـة و ينگــلونه و يبيعونــه للنــاس اللــي يريـدون يعمـّــرون و يصلحـون بيوتهـم.

فيعلق مرهون:

- عجيب! . . هاي هاي! . . يعمرون بيتوهم بطابوگ مبيوگ!

و يعقب شمران:

- فعــلا عجيـب . . و لازم تعرفـون و إنتـو بعدكـم شـباب . . وراء كل خـُـرافةِ طنطـل أكـو حرامـي يريـد يسـرق مـن النـاس شـي . . و شـما تكبـر الخرافـة يكبـر وياهـه حجـم السـرقة! . . و تـگــدرون تتخيلـون شـنو نـوع السـرقات الـچـبيرة اللـي تغطيهـا الخرافـات الـچـبيرة . . هذولـة حراميـة مدرسـة الدَبـّـة خرافتهـم زغيـرة . . مجـرد طنطـل مـال بـوگ طابـوگ! . . أمـا السـرقات الـچـبيرة فوراهـا سيت مـال طناطـل عملاقـة . . عزرائيل و جبرائيـل و إسـرافيل و ميكائيـل و ميكافيـل و عـدّو شـگـد مـا تريـدون مـن

حكايات الطناطل المحبوكة حبك جيد حتى يقتلون و يسرقون و يزنون من وراهه و ما أحد يجرؤ يحاسب . . لكن الغريب بحكاية طنطل المدرسة هو أن الناس اللي چانو يشترون الطابوگ چانو يعرفون هو من طابوگ المدرسة . . أقصد چانو يعرفون هو سرقة! . . و تصوروا! . . من أوائل أمارات التحضر بتاريخ بعگوبة الحديث مدرسة إنبنت للبنات . . الناس يفلشوهه و يسرقون طابوگهه حتى يعمِّرون بيوتهم . . و لعلمكم هذي أصلا هي مو ثقافة جديدة . . . أقصد ثقافة التفليش . . تفليش المدارس و الآثار المعرفية حتى يبنون بيهه بيوت و جوامع! . . للأمانة هذا مو إختراع جديد جاء بزمن البعث . . لا! . . هذي ثقافة تاريخ . . لأن إحتمال أن تكون مكونات العقلية لحكام العراق و شعب هذي المنطقة اللي يسموهه هسه العراق عبر التاريخ . . تجي حقبة تسيطر بيه ملّة معينة أو حاكم معين أو خليفة معين و تفلش اللي بنته الملة اللي گبلهه . . و حصل هذا من الأيام الأولى للغزو الجزيري للمنطقة اللي حواليه . . و إلا وين لعد راحت عشرات القصور اللي قرأنا عنها بكتب التاريخ المدرسية و يحدثونا بيهه عن آلاف الجواري اللي چان الخليفة العباسي يحتفظ بيهن بكل قصر . . ينيچهن كلهن لو ما ينيچهن كلهن الخليفة سند الله على الأرض . . هاذي مو سالفتنه هسه! . . ينيچ قسم منهن و يترك الباقيات ينيچوهن العبيد و الخدم نيابة عنه لو يصيرن باجيات . . فهذي أيضا قصة أخرى! . . . هذا شئ ما يخصنا هسه!

الشابان يضحكان، لإعتيادهما على الخال يطلق تعبيرات الجنس بحرية، فيتبسم هو لضحكهما و يضيف:

- تدرون؟ . . إنتو تضحكون . . بس آني أريد أبچي! . . شوفو الدنگ الجبارة اللي بيهه . . شوفوا! . . شوفوا ريازة سگوفهه الجميلة! . . كل هذا راح يتفلش! . . و تخيلوا! . . لعد شگد من بنايات ميزوبوتاميا القديمة الجميلة فلّشوهه هذوله العربان! . . أريد أبچي!

و يشرع يغني:

- . . أريد أبچي و عليّ الناس يِگلون . . شيگولون؟ . . تولع بالمباني و صار مجنون . . خل يگولون! . . بعد هيهات أفرح! . . گول و إحچي . . آني گلبي تجرَّح . . عيني دِحچي . . شحچي . . سبوني بدورة النهود . . يا النهود!

مسكون بالمباني و النهود، يكف عن الغناء و الشابان يبتسمان مبهورين و مأخوذين بدراماتيكية غنائه، و قد لا يتخيلان سبب تعريجه في غنائه على النهود، لكنهما إعتادا على تعريجات له مشابهة تفضح أسرار بعض مشاغله، و يسمعانه يضيف:

- مع كل طابوگة توگع . . توگع وياهه واحدة من ذكريات صباي بهذي المدرسة! . . بالمناسبة إنتو شايفين محطة القطار اللي بناها الإنگليز گبل نصف قرن؟

فيرد مرهون:

- يعني! . . آني شايف بقاياها!

- شنو إي يعني؟ . . أي حقك! . . لأن جيلكم ما لَحَّگ غير بس على البقايا!

و يروح شمران يغني من جديد:

- . . آني اللي أريد أحچي و العالم يسكتوني . . نوبة أضحك نوبة أبچي . . يا نار الگلب زيدي . . كل اللي جرى من إيدي! . .

يكف عن الغناء و يسأل:

- بس ليش هذا ديجري و يحصل؟ . . ليش هذا يصير؟

لربما ظن الشابان أن سؤال الخال موجه إليهما، و لم يكونا مستعدينً

للإجابة، فأصغيا إليه يواصل:

- .. أني أحسد المصريين لأن حافظوا على إرث بلادهم منذ فجر التاريخ .. فهل نحن شعب من المخربين؟

و للمرة الثانية يقع الشابان في حيرة الإجابة، و ينقذهما الخال مسترسلاً:

- شوفوا المصريين على مر عصورهم .. صحيح الفرعون المصري چان حاكم ظالم و جائر لأنه ساق آلاف البشر لبناء الإهرامات للسخرة و مات أغلبهم أثناء العمل .. و لكن ها هو ما بناه المسخَّرون شاخصا على الأقل دليل على جور الحاكم اللي ساقهم للبناء سخرةً! .. و أنظرو اللي سواه الحاكم الأعرابي عمرو بن العاص اللي طَلَع من واد ليس ذي زرع عند بيت الله المعظم و أحرق مكتبة الإسكندرية هي و أشجار المعرفة اللي بيهه و فلَّش أغلب بناياتها .. يلله! .. أريد أشوف إنتو هسه بهذا الزمان شراح تسمون حرق مكتبة! .. تسمونه جريمة؟ .. لو تقرُّبْ لإسمه تعالى؟ .. جهل؟ .. بداوة؟ .. إجتثاث للكفر المخالف الموجود في صفحات الكتب؟

و إذ لم يجبه أحدُ الشابين، يستطرد شمران قائلاً:

- .. و مع ذلك .. فهل نحن مِلّة من المخربين لأننا جيران وادي ليس ذي زرع من الجنوب و من جهة الشرق جيران واد ذي زرع يصدِّر لنا الجيران منه ثقافة لطم و ضرب زنجيل و تطبير؟

تماهياً مع سرحانِ نظرات شمران الحزينة تجاه الرجال يدكون المدرسة العتيقة بالمعاول لربما هو الذي ساعد الشابين على حدس ما يتحدث عنه، و هو يضيف:

- نفلّشْ! .. دائما نهدم! .. و نقتل الحكام و الحكام يعدمونا! .. وين الخلل؟

الشابان مصغيان بإهتمام لشمران، متأثران بالأسى الذي كانت تشيعها نظراته المعلقة بمعاول الهدم في المدرسة، و كأنها تهوي بروحه مِزَقَاً، لغاية أن إستدار إليهما ليفاجئ مرهون سائلا:

- تدري مرهون؟

- شنو خالي؟

- أكو مفارقة عجيبة إنت ما تعرفها عن زواج أمك و أبوك!

- شنو هي؟

- على ذكر قتلنا للحكام . . إنت تدري لو ما تدري . . عرس أبوك على أمك چان يوم مقتل الملك فيصل الثاني؟

و يفغر الشابان فاهاهما من المفاجأة، فيعلق مرهون:

- صحيح؟

- صحيح . . و متأكد منه!

- فعلا مفاجأة! . . ما چنت أدري!

- ما تدري لأن ما أحد گايلك . . و منو چان يگولك؟ . . أبوك غايب! . . اليوم اللي إنقتل بيه الملك و إنسحل خاله هو اليوم اللي نكح به غايب مرهون لأول مرة أختي أميرة الأحمدي! . . يوم أرباطَعَش تموز ألف و تسعميه و ثمانية و خمسين!

و بإعتياده على تلميحات خاله للجنس بتعبيرات عامية . . لم يسعفه عقله ليحزر كامل المغزى الوجودي الذي رمى إليه خاله من ذكر يوم و تاريخ زواج أمه و أبيه، فيحاول أن يفهم، و لكن صهره الشاعر لربما أدرك المغزى من المفارقة، و مرهون يردد:

- فعلا! . . هذي چانت مفارقة! . . بنفس اليوم اللي ينقتل بيه الملك يعرِّس أبويه على أمي!

و مرهون يحاول أن يأخذ وقتا لفهم المغزى كاملاً، يقاطعه شمران:

- على أي حال، هذا مو موضوعنا هسه!

و يعود الشابان ليصغيا للخال يعود مرة أخرى الى موضوع تهديم المدرسة:

- . . هذي المدرسة راح يكون مصيرها مثل مصير محطة القطار اللي بناها الانگليز بالثلاثينيات و صارت معلم حضاري في بعگوبة الحديثة . . شوفو الذريعة . . هدَّمتها بلدية بعقوبة حتى توسع الشارع اللي أمامها . . و بعدين فلشوهه و ظل الشارع على حاله! . . شوفو السخرية و الإستهانة بكل معلم حضاري . . الناس في بلدنا لو يحترمون إرثهم الحضاري . . و بغض النظر عن سوء سلوك الحاكم . . چان بإمكانهم يلگون ألف وسيلة يحافظون بيهه على محطة القطار و على مدرسة الدبَّة و على هذي المدرسة اللي بيهه ذكريات صباي . . مثلا كأن چان بإمكانهم يزَّحِّفون البناء في حالة محطة القطار! . . علما شارع المحطة عريض جدا و ما چانو بحاجة لتفليشهه علموده! . . و چان بإمكانهم يغيرون خارطة الهندسة المدنية لمدينة بعگبة بأكملها مثلاً في حالة مدرسة الدبَّة! . . يرممون البناية و يحولوها الى متحف مثلاً في حالة هذي المدرسة اللي دا يهدمونها هسه! . . و خاصةً و موقعها في قلب المدينة . . و لكن شوفو اللي يسوونه البدو بالأعمدة الآجرية لهذه المدرسة العتيقة . . أقصد البدو المتعودين على الرمل و خيم الشعر و الوديان اللي ليست ذي زرع! . . تدرون؟

و لأنهما صارا للتو يدركان أن سؤاله بالأساس ليس موجها إليهما، بل الى روحه الهلعة من التهديم و لحاجته لمحاور إفتراضي. لم يجب الشابان على سؤاله، و تركاه يسترسل:

- تفاجئت اليوم الصبح بعملية الهدم . . و ظليت أراقبهم يهدمون . . ساحاتها اللي و آني أركض أنچبحت فوگها عشرات المرات . . و آني أركض أوگع و ينگشط فخذي و يتچردح . . و يتچردح وياه وجهي . . أعمدتها الآجرية الضخمة اللي چنه نختل وراها من نلعب الختيلة و الحويدة . . وين مظفر النواب؟ . . هذا واحد من الأماكن اللي . . بزغرنا لعبنه بيه ختيلة! . . و ها هم يفلشونه . . بصراحة إحنه تركنا عهدنا السعيد ورانا!

و يتذكر شمران حديثه مع وسيم الحسني، فيضيف:

- هذا اللي بداخلنا بالتأكيد ضبع! . . ضبع يستمرئ تمزيق أحشاءنا و تتمزق وياهه أرواحنا!

و ها هو يتذكر فجأة فريد الأطرش، و يعلق متسائلا:

- هذا وين صار فريد الأطرش؟ . . أريد أصلي مرة أخرى ويه كلماته . . القدر . . القمر . . الشجر . . البدر!

معيدا تشغيل شريط كاسيت فريد . . يسمعون صوت سعدية زوجة شمران من فتحة باب السلم تعلق:

- تركت عهدك السعيد وراك! . . ليش شبيه عهدك هسه؟ . . إنت مو سعيد؟

يستدير شمران ليتطلع الى فتحة السلم من حيث يأتي صوت زوجته، ثم يتوجه الى الشابين بنظرة إستنكار لكلامها فيجد ملامحهما، على الرغم من مقاطعة زوجته لهم، ما زالت تشي بتعاطف دراماتيكي مع ما كان يتحدث به من قبل و لم يعيرا إنتباهاً لتعليقها . . و سمعوها تضيف:

- شمران . . أكو أحد بالباب يريدك!

- منو؟

- سيد حسين الجليلي و يمكن وياه جماعة!

- زين . . جينا نازلين هسه!

يتقدهم شمران نزولاً على السلم، يخاطبهما قائلا:

- أعذروني . . جيتو و ما سمعت شي من أخباركم!

فيرد مرهون:

- و لا إحنه سمعنه منك شي عن غيبتك ببغداد!

- نحچي بعدين . . بس شنو هالخبر الكارثة مال إلتحاقك بالعسكرية!

و ينتبه شمران لحركة أحمد يسند ظهره الى الحائط القريب عجزا و إنزعاجا . . و ينتبه للشابين يتبادلان نظرات غير مريحة . . و يسمع شمران من مرهون تهربا بالرد:

- خالي . . إنت مو إقترحت نحچي بعدين؟ . . راح نحچي بعدين . . آني محتاج لإستشارات تخص مخلفات أبويه . . و آني كلش محتاج مشورتك!

- صار . . اليوم العصر موعدنا بگهوة جبارة المعيدي بالعنافصة.

يسبقهما مرهون في المجاز الداخلي الى باب المنزل . . ويجد الباب منفرجا عن حسين الجليلي يقف خارجا و من ورائه إبن أخيه عبد الرزاق الجليلي و مصطفى الديو . . سلم الشابان على القادمين. يصل شمران و يتصافح الجميع . . يدعو شمران القادمين مشيرا إليهم نحو غرفة الضيوف القريبة الى يسار باب المنزل . . بدخولهم يودِّع شمران الشابين، و يغلق باب المنزل ملتحقاً بضيوفه.

سلام و مجاملات معتادة . . الحديث يتشعب تدريجياً. و ها هو شمران

يستشف من كلماتهم ما يشير الى إعتقادهم بأن جهودهم هي التي حلت مشكلته. و سيتأسف لحالهم لأنه يجدهم ما يزالون متعلقين بأوهامهم الجبهوية، فعزَّ عليه أن يَدَعَ أناسا مثل ضيوفه يبنون صروحا من أوهام، و قال شمران:

- يا جماعة . . أملي ألا يظن أي منكم بأن جهودكم ويه لجنة الجبهة هي اللي حلّت مشكلتي!

و يستفسر الجليلي مستغرباً:

- لعد؟

حتى بعد مرور ثلاث سنوات على الحادثة، ما يزال تسريب أسرار منظمة الشباب الى الزنگناوي يتفاعل في ذاكرة شمران. و هو محتار بالكيفية التي يوصل بها ما دار بينه و الوزير، على الأقل، دون أن يجرح شعور أي منهم. و مع ذلك، حاول أثناء الحديث أن يكون موضوعياً قدر ما يستطيع، فقال:

- أولا . . آني أشوف مو من اللياقة ألّا أشكركم على جهدكم في حل مشكلتي! . . لكن مو من الإخلاص و الأمانة أيضاً إذا آني تركتكم تبنون على أوهام!

و يعلق حسين الجليلي مستغربا:

- نبني على أوهام! . . شنو اللي راح نبنيه على أوهام؟

- أريد أگولِلكم شي اللي بنفسي من زمان!

- اللي هو؟

-. . هذا جبهتكم زنبور ما يخرا عسل! . . و أعذروني على التعبير اللي إستعملته . . و هذا الزنبور مو هالأيام صار ما يخرا عسل ويه قضيتي

بس . . لا! . . هو چان ما يخرا عسل من اللحظة اللي توقّع بيهه الإتفاق و طلع عزيز محمد ويه البكر بالتلفزيون . . و حتى يفرِّحكُم و يجر رجلكم زايد سمعنا البكر يطلق تصريحه المشهور . . لا نريدها جبهة تنعقد اليوم و تنفرط غداً! . . ملة چذابين . . چذاب طبعا هو و ذاك الرجل اللي بالظل و يسموه بالصحافة . . السيد النائب!

يسكت شمران للحظات متذكراً تعبير وسيم الحسني . . و إنتو كمش على الطوفة! . . و يخطر في باله أن يقوله لزواره، و لكنه يحجم تأدبا، لخشيته من تمادٍ في التوصيف السلبي بما لا يليق أن يقوله لضيوف يحترمهم و يحبهم، فأضاف:

- و بتعبير مختصر . . إنتو صورتو هذي الجبهة للناس مثل المظلة اللي الواحد يرفعها من تمطر الدنيا حتى لا تتبلل هدومه . . و ها هي أمامكم طلعت مظلة قماشها مشگگْ و ما بيهه غير بس سيامه . . الأنكى من هذا ما تزالون تسموهه . . مظلة وطنية!

و يعقب الجليلي مبررا:

- هذي هي السياسة . . تمر صيف و شتا على المناضلين!

و ها هو يسمع من الجليلي مرة أخرى تعبير . . صيف و شتا، فيعقب:

- سيدنا . . مع الأسف . . هالمظلة إنفتحت كذا مرة و ما نفعة الناس لا بصيف و لا بشتا! . . البعثيين رادوكم تصيرون كومبارس داخلي يستفيدون منه بالدعاية و تسويق نظامهم للعالم . . و للأسف وافقتو تصيرون كومبارس . . و بعدها الواحد من عندنا شچان يوگع بيده غير أن يگول . . شلون صادوك و إنتَ النچِر! . . . و هذي . . و أعذروني هذي المرة على وقاحتي . . تريدون أحسبلكم عدد البعابيص اللي وجهوهه البعثيين للجبهة العتيدة! . . و بعد كل بعبوصة چانو الناس . . أقصد ناسكم . . چانو يتمنون تتداركون الأمور و ما تداركتوهه! . . و صح عليكم المثل العراقي

السائر . . مثل بلّاع الموس إذا يبلعه يجّرحه و إذا يطلعه يفّضحه! . . و آني أشوفكم لحد هسه ما تفضلون تطلعون الموس من زردومكم و ما تريدون تتحملون جرح الإعتراف بأن الإتفاق ويه البعثيين . . چان غلطة چبيرة . . و النتيجة ظليتو . . و إحنا الداير مدايريكم وياكم . . أقصد الناس اللي على التخوم . . نبلع الموس . . و نحاول نصبُّر نفسنا على شي إسمه إتفاق . . أكو إحتمال لأن فكرة الجبهة و الحزب القائد هي بالأساس مستوردة من رفاق بلدان الديمقراطيات الشعبية!

ضيوفه صامتون . . و يتذكر شمران محنة إبن أخته مرهون الجندي المعرض لحكم بالإعدام لأنه يساري إلتحق بالجيش، فضيف:

- بلعنا موس التضحية بنخبة من الشباب البريء بالجيش راح ينساقون للإعدام بتهم باطلة . . و ما إنسحبتو! . . بالمناسبة هذا مرهون إبن أختي اللي شفتو بالباب أخذوه للجيش أثناء مدة فراري في بغداد . . و آني إيدي على گلبي أخاف يروحون يدبروله سالوفة و يسوقوا محكمة و يصدرون عليه قرار إعدام . . و يجي السؤال مرة أخرى . . ليش ما إنسحب الحزب من الجبهة بعد إصدار كل إحكام إعدام هذوله الشباب؟ . . بلعنا موس إلقاء أبو مروج بالسجن لسبب سخيف! . . و ما أدري . . إنتو سمعتو لو ما سمعتو بسالفة التقرير اللي إنكتب عني من زملاء إثنين ويايه بالمدرسة . . و المصيبة إثنيناتهم چانو شيوعيين گبل شباط ثلاثة و ستين و صاروا بعثيين بزمن البعث الحالي . . خراب للذمم! . . كاتبين بتقريرهم على أساس آني گايل عن البعث نظام فاشستي! . . و لو ما ذمة علي الطائي المشرف الأول بالتربية چان ما فلتت من المصير اللي ما فِلت منه أبو مروج! . . . عليش بلعنه كل هذي الأمواس؟ . . بلعناها حتى لا تخرب معاهدة الصداقة بين البعث و الأخ الأكبر السوفيتي! . . طززززززز! . . آني أريد أعرف . . هو أخوكم السوفيتي الچبير مصدِّگ سالفة البعث و العصابة اللي تقوده همَّ حزب معادي للإمبريالية؟ . . طززززززززز!

ضيوفه الثلاثة ما يزالون صامتين يصغون إليه و كأنهم يستمعون الى حكاية لم يسمعوا بها من قبل، فيسترسل:

- . . و هذا مجرد مثال عن اللي يجرى أمامنا . . و تخيلوا بعدين الوضع بأكمله!

يعمد الجليلي الى تكرارمبررات الحزب بمواصلة غيّه مسايراً البعث بوصفه حزب معاد للإمبريالية . . و يرثي لحال ضيوفه و هم يذكرون أمامه ما قدموه لحليفهم من طلبات الإستنكار و الجأر بالشكوى عن سلوك أمنهم و منظماتهم تجاه حلفائهم، فيقاطعه شمران معلقاً:

- سيد الجليلي . . كلامي هذا حچي بسياقات مُشاهد خارج حزبكم . . سياستكم إنتو أعرف و أدرى بها مني . . زين! . . هسه أترك كل هذا جانبا . . و فسّر لي رجاء شلون تصرفتوا بموضوع نهلة العبيدي زوجة عبيد المنيري كادر حزبكم . . هذي نهلة هي و سهيلة عزاوي الملقبة بالسودة زميلتهه مسؤولتين عن المذكرة اللي إنرفعت الى محافظ ديالى العُربي ينكرن بيهه اللي نشرته آني عن لسانهن بالجريدة وصدور أمر إلقاء القبض عليّ و اللي چان سبب فراري من المدينة؟

ما يقوله شمران مفحماً . . و يظل ضيوفه ساكتين، فيضيف:

- من الناحية المنطقية . . خلينه نگول سهيلة السودة زوجها بعثي موتور و حرضها تقدم شكوى . . مو غريب! . . بس من الناحية الإخلاقية . . هاذي نهلة العبيدي ليش؟ . . مو هي زوجها كادر بحزبكم! . . هذا إذا مو هي نفسها رفيقة بحزبكم! . . بالمناسبة . . هذا زوجها عبيد المنيري ما يزال لحد هسه يروج لظهور كاسترو جديد بالشرق الأوسط و يلمح بإحتمال أن يكون هذا الكاسترو هو الرجل الملقب بالنائب الأول؟ . . لو إحتمال أي واحد من شلة طالب إبن ماهية الإجرامية هو اللي راح يصير الكاسترو القادم بالشرق الأوسط! . . سيد الجليلي . . شوكت راح

تفهم الناس أنو بطولات من نوع البطولات اللي إجترحها فيدل كاسترو زمنها راح! . . زمنها ولّى! . . هنا بالعراق ذاك الزمان ولّى بمقتل عبد الكريم قاسم . . و بأميركا اللاتينية ولّى بمقتل تشي غيفارا . . بس على رأي القائل . . منين أجيب زرار للزيجة هدل! . . و بالتالي . . إنتو زين تعرفون آني مراسل بجريدتكم . . و ظليت شهر بحالة فرار بسبب عمود منشور بجريدة ناطقة بأسم حزب ممثل بالحكومة بوزيرين و المفروض عنده تمثيل بأعلى سلطة بالبلد و بسبب ريبورتاج منشور بجريدة العراق أيضا موضوعه ما يختلف عن موضوع العمود المنشور بجريدتكم . . و المحرض عليّ چانت زوجة رفيق قيادي عندكم! . . و چان المفروض أن يقوم حزبكم بحل هذي المشكلة عن طريق قنواته . . تمام لو مو تمام؟

- تمام!

- . . لكن للأسف . . لم يحصل الأمر على هذا النحو! . . ما إنحلت المشكلة بهذي الطريقة! . . إذن وين دور المظلة اللي تقينا من المطر و الحر؟ . . و صدق القائل لا رأي لمن لا يطاع و لا طاعة لمن لا رأي له! . . و بالتالي إنحلت مشكلتي بجهود و علاقات شخصية!

و يتساءل الجليلي مستغرباً:

- تگول نحلت المشكلة بجهود شخصية! . . يعني شلون إنحلت بجهود شخصية؟

فيقصّ شمران عليهم بمرارة حكايته مع الوزير و حكاية التعهد الذي كتبه على ألا ينشر في الجرائد العراقية، و أوضح لهم أنه سعيد بقراره!

و يظل ضيوفه الثلاثة صامتين فاغري الأفواه من المفاجأة، يتبادلون النظرات فيما بينهم . . قبل أن يستأذنوا بالمغادرة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الطريـق الـى مقهـى جبـارة المعيـدي و الوقـت قبيـل الغـروب . . يعبـر قنطـرة الشـاخة مقابـل مقهـى مجيـد محسـن. و لكـي يتحاشـى المـرور مـن شـارع النصـر حيـث بنايـة مقـر الحـزب، يمشـى علـى تَـؤدةٍ متخـذاً الرصيـف المحـاذي للشـاخة، متطلعـا الـى ميـاه الشـاخة، فيتذكَّـر صديقـه سـفيان الأمـوي، و يتوقـف متكئـاً علـى سـياج المسـناة الحديـدي حيـث وقـف مـرة مـع الأمـوي العائـد للتـو مـن باريـس. تحـدث لـه عـن ميـاه نهـر السـين و عـن شـوارع باريـس و الحيـاة فـي باريـس و عـن خطتـه لمغـادرة البلـد نهائيـاً الـى أوروبـا. قـراءة ضروريـة للوضـع! . . بالنسـبة لـه هيهـات! . . فـات الأوان! . . سـفيان بمظهـره الوجـودي الفوضـوي و شـعره المنسـدل علـى كتفيـه و لامبالاتـه بالتقاليـد كان تحديـاً لعقليـة البعـث. ليـس شـيوعياً، و إنمـا شـاعرا و رسـاما و معلمـا فـي مدرسـة معسـكر سـعد يعلّـمُ الصبيـة أبنـاء الضبـاط و الجنـود كيـف يرسـمون و ينظمـون الأشـعار! . . نَفَـسُ سـفيان هـذا لـم يرتـح لـه البعثيـون، فخشـوا علـى عقليـة صبيانهـم مـن درب الحريـة الـذي يقودهـم سـفيان إليـه عبـر قنـوات الفـن، فنقلـوه مـن مدرسـته الـى مدرسـة بعيـدة فـي منطقـة أبـي صيـدا. فإلـى مـن سيلجأ سـفيان للإحتجـاج و لا يوجـد جريـدة يجـأر علـى صفحاتهـا بشـكواه غيـر جريـدة الشيوعيين لإعتقـاده بـأن أصحـاب الجريـدة لهـم حظـوة و نصيـب فـي الدولـة! . . إنتظـر أشـهراً، و مـا مـن رد! . . و إنتظـر سـنةً و مـا مـن ردٍ! . . و فـي الصيـف الـذي يلـي سـافر الـى باريـس و عـاد بخطـة خلاصتهـا هجـران البلـد الـى الأبـد! . . و هـا هـو شـمران يتأمـل ميـاه الشـاخة المنسـابة ببطـئٍ شديد كأنـه الركـود، و مـا يـزال مـا قالـه لـه سـفيان يومـا يـرن فـي أذنيـه:

- شـمران . . و إنـتَ شـراح تسـوي بعـد كل هـذي المضايقـات اللـي تجـري؟ . . و أخطرهـا جميعـاً أحـكام الإعـدام اللـي نسـمع عنهـا تصـدر بحـق هذولـه الشـباب اللـي بالجيش دون ذنـب!

- وين أروح سفيان؟

- أخـي . . إطلـع! . . طالمـا إنـت قـادر هسـه علـى الوصـول الـى بـر الأمـان . . روح لأي مـكان . . أرض هـذا الكوكـب فيهـا أمكنـه!

- سفيان . . خلينه نحسبها حساب ناس عاقلين!

- شلون؟

و ها آنذاك نفسه تخذله، فيرد،

- سفيان . . إذا إنت تِفلِت . . و آني أفلت . . منو اللي راح يبني هالوطن؟

إعتادوا على سفيان يضحك دون جلجلة . . و ها هو الآن ما يزال يتذكر جيداً ضحكة سفيان الساخرة الصامتة و هو يعلق:

- ها! . . يعني تريد تگولهه على طريقة ناظم حكمت . . إذا لم أحترق أنا و تحترق أنت . . الى آخره!

و ما يزال يتذكَّر بأنه لم يرد على تعليق سفيان، فأضاف سفيان:

- زين عيني . . ظل هنا و إحترگ على راحتك . . إذا إنتَ هيچي مصمم و تريد تبني الوطن ويه البعثيين . . إنتَ حر! . . بس أريد أوصِّيك . . من تبني الوطن لا تنسى تحط بالخبطة شبنتو كافي حتى لا تتفطَّر الخرسانة مال الوطن!

حتى اللحظة ما يزال يتذكر صراحة سفيان المليئة مرارة و سخرية . . أن تمشي يدا بيد مع ثلة مجرمين يحكمون البلد و يقودها مجرم علني يسمونه النائب الأول شيٌ، و أن يلمِّحُ له سفيان بأولى أمارات القناعة بحل الخلاص الفردي شيٌ آخر تماما، حين سمع سفيان يخاطب روحه:

- شمران . . ملكٌ أنتَ . . فعِشْ وحيداً . . و إمضِ بحريةٍ . . على الدرب الرحب . . أينما يقودك عقلك الملكي!

- بوشكن؟

- نعم . . بوشكن! . . شمران لا تقشمر نفسك مثل الباقين و تتخيل

راح يجي خير من هذوله اللي عقدو جبهة ويه البعث . . إنت بالذات نسيت جرائمهم بشباط 63 . . و الجماعة چَنهُم نسوا قطار الموت اللي سيَّروه البعثيين بتموز بعد حركة حسن السريع بمعسكر الرشيد! . . و المجهول القادم هو وحده يعرف يا نوع من القطارات محضّرين للناس هالمرة! . . زين هذا الشاب اليساري اللي يلتحق بالخدمة العسكرية و هناك ينصبوله الفخ و يصدرون عليه حكم إعدام . . منو يگدر يخلصه؟ . . ما أحد! . . و لحد أي وقت راح يستمر هذا الموت المجاني؟

شمران ليس من النوع الذي يضحك أو يبكي بصمت، و ها هو يراقب ماء الشاخة شبه الراكد. أنـَّـةٌ روحه جاءت طويلة لدرجة أن المارين إلتفتوا إليه، و يدوم أنينه لثوانٍ من تعب نفسي، ثم يعاود مسيرته الوئيدة بإتجاه مقهى جبارة المعيدي . . عند رأس شارع العنافصة، عبر شارع الشاخة ليدخل شارع العنافصة، و يظلّ يتبادل التحايا و السلام مع عديدين بعد كل بضعة خطوات. و ما أن دخل فلكة العنافصة مقتربا من المقهى، لمحه فرمان الكابابچي من بعيد، فخرج إليه من وراء منقلته المشتعلة تنفث دخانا محملاً برائحة الشواء، فيخِفُّ شمران إليه مسلماً و حاضناً . . مصطفى الديو و مثنى حميد حامي هدف الفريق الأهلي جالسان على قنفة المقهى على الرصيف، ينهضان لتحية شمران، و يدعوانه الى الجلوس، فيجلس الثلاثة . . و يقول الديو:

- هذا اللي سمعته منك اليوم الصبح چان معقول جدا، و بالذات سؤالك . . ليش ما إنسحب الحزب رسمياً من الجبهة و أصدر بيان يحفظ بيه ماي وجهه أمام الجمهور؟ . . و برأيي . . في كل الأحوال ثمن الإنسحاب ما چان يصير أكبر من ثمن الإستمرار بنهج خاطئ . . لكن آني ما ردت أعلق أمام الجليلي و الجليلي . . بس آني أعتقد الجليلي عبد الرزاق يتفق معي بهذا الرأي و ما يتفق ويه عمه الجليلي!

- شوف ديو . . آني اللي عندي حچيته و دون مجاملة . . آني مو عضو بحزبكم حتى أخاف من أي إتهامات محتملة يسوقوها غلاة أغبياء

الحزبيين! . . و الشي اللي ما سمعته مني الصبح راح تسمعه هسه مني . .

و يقاطع شمران غناء بصوتٍ عالٍ صادر من مكبر للصوت موضوع على سيارة پيكاب آتية من جهة بلدية بعقوبة . . هلهولة للبعث الصامد هلهولة . . هلهل هلهل هلهل هلهل . . تعيش تعيش يا رائد يا حزب الأمة القائد . . هلهولة للبعث الصامد . . السيارة تقترب وتتوقف في قلب الساحة. يتوقف الغناء، لينطلق بث إعلان يقرأهُ صوت جهوري صارخ . . يا مواطني بعقوبة الكرام حرصاً من حكومة البعث الثورية و دفاعاً عن حق الشعب في العيش الكريم و نتيجة للتصرف المعادي لمصالح الشعب من أصحاب المحلات التالية أسماؤهم . . عبد القادر البدري قرب قنطرة خليل باشا . . و عبد الحسين التميمي في منطقة التحرير . . و غربي ليل الدليمي في منطقة المفرق . . بإحتكارهم لقوت الشعب و بيعه بأسعار أغلى من الأسعار الرسمية قررت السلطات الأمنية إتاحة الفرصة لأبناء الشعب العظيم بفرهدة المواد الموجودة في محلات الأشخاص المذكورةِ أسمائِهم و سيجري الفرهود يوم غد الجمعة في الساعة الحادية عشرة صباحاً و بإشراف من ممثلي السلطة الأمنية و ممثلي حزبنا العظيم حزب البعث العربي الإشتراكي و ندعو أبناء شعبنا للمساهمة في هذا العمل الوطني الشريف في محاربة الإحتكار . . أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة . . ثم ينطلق بعدها صوت المغني التعبوي داوود القيسي . . هلهولة للبعث الصامد هلهوله!

شمران و جليساه يتلفت أحدهم الى الآخرمشدوهين . . فرهود؟ . . فرهدة! . . فيعلق شمران:

- شنو هذا؟ . . شنو اللي يجري؟ . . أريد أسالك ديو . . هذا عبد القادر البدري اللي يم گنطرة خليل باشا مو هو اللي واحد من أولاده رئيس القلم السري مال المحافظة و سكرتير المحافظ؟

يرد الديو:

- بلي!

و يروح شمران منشدا:

- .. بلي يا بلبول .. بلي! .. ما شفت دعبول؟ .. بلي! .. ينگر بالطاسة؟ .. بلي! .. و مطلّع راسه؟ .. بلي! .. عيني تريدون وراهه مزيقة لو طبل؟

يرد الديو:

- طبل!

- طمبا طمبا .. طمبا طمبا ..

يضحك الثلاثة، ثم يعلق مثنى حميد:

- و لعلمك إستاذ شمران .. حتى هذا اللي بمنطقتنا بالتحرير .. أقصد عبد الحسين التميمي ... هو همين أولاده كلهم بعثيين .. و آني حتى حسب علمي واحد منهم ضابط أمن!

فيعلق شمران:

- يا سلام! .. و هيچي راح نگدر نقيس إحتمال حتى صاحب المحل اللي بالمفرگ همين أولاده بعثيين .. گولولي! .. شنو هاللعبة؟ .. و شنو اللي جاي يجري؟

و مرة أخرى .. يتذكّر وسيم الحسني النجفي، و يضاف:

- و شلون راح نمشي بهالگاع الزَلَگْ! .. و شلون راح نگدر نلعب؟

يظل جليساه ينظران إليه بِحَيرَةٍ كبيرة، ثم يعلق مثنى:

- منو اللي يخططلهم سياستهم؟

يجيبه مصطفى الديو:

- بالتأكيد . . نفس الجهة اللي خططتلهم سوالفهم اللي راحت!

و يعقب شمران:

- تقصد عصابة القطار الأمريكي اللي تسللت للقصر الجمهوري بسيارة بيكاب! . . بس أكو سؤال يفرض نفسه هو . .

يقاطعه الديو قائلا:

- آني اللي أريد أسأل . . وراء سالفة المحتكرين هذي . . شنو نوع اللعبة؟ . . و منو راح يكون الضحية؟ . . و شيريدون يغطون بيهه؟

و يعقب شمران موافقا:

- ديو العنافصة . . عزيزي . . أشكرك لأن حليت الحزورة! . . هذا اللي چِنت أريد أگوله.

و يلوح لشمران مرأى إبن أخته مرهون و أحمد شحاذة يقطعان الساحة بإتجاه المقهى، و يضيف:

- ديو . . سلملي على جماعتكم . . و هنيئا لكم مساهمتكم بحكومة فعالة جدا في محاربة الإحتكار على طريق بناء الإشتراكية!

ناهضا لإستقبال الشابين القادِمَينِ إليه، يداهم شمران إحساس مفاجئ أنه لربما بالغ بنبرة السخرية، و سيحاول معالجة الوضع، مضيفاً:

- فعلا مصطفى الديو . . حاول أن تسأل حزبكم منو راح يدفع الثمن الخفي لمسرحية الإحتكار هذي!

مستأذنا من الديو و مثنى، يتركهما متوجهاً لملاقاة أبن أخته و أحمد شحاذة . . عَبرَ الشارع و إلتقاهما على رصيف حديقة الفلكة. تبادلوا التحية، و

توقفوا عند سياج الحديقة يتحدثون، و تذكر شمران خطة الهروب من الموت، فيخاطب أبن أخته:

- آني أبد ما مطمئن عليك و إنت بالجيش! . . و لك آني ما عندي خِلفَة! . . إنت هسه مثل إبني! . . إنت لما رسبت و صرت على حافة الخطر . . آني شي الوحيد اللي شاغلني هو شلون راح أخلصك گبل ما تلتحق بالجيش! . . بس و طالما أثناء فراري إنت إلتحقت بالجيش و طاح الفاس بالراس علينا هسه التفكير بترتيبات هروبك بعد إلتحاقك بالجيش! . . نحتاج نفكر . . لازم نفتش عن طريقة حتى نهرُبك!

يظل مرهون ساكتا لا يجيب، فيعلق أحمد:

- خالي العزيز . . صوچه! . . هيچي سَيَّب دراسته على فاشوش . . علمود وحدة ما تسوى!

و يسأل شمران:

- هي مو أخت صاحبكم هذا اللي دبر أموره و فر . . أقصد حسين الجنابي؟

يرد مرهون:

- إي! . . بس آني أفكر أعوفهه! . . كافي رجاءً!

و تلاعب خياله بائعة الأوروزدي باك المصرية و يعزم أن يقول . . و إحتمال أفكر بوحدة غيرها . . لكن صهره أحمد يقاطعه:

- تعوفهه؟ . . بعديش؟ . . بعد خراب البصرة! . .

و دار بخلد أحمد أن يسترسل و يحكي لشمران عن المأثرة غير الجليلة التي إجترحتها نعمة الجنابي يوم تشييع حماه غايب مرهون حين جاءت

و بكل صلافة لتخر مرهون أنها ستتزوج و تطلب من مرهون ألا يتصل بها، و لكنه أحجم خشية أن يكون في ذلك إهانة لكرامة نسيبه و صديقه، و خوفا من اللوم و التقريع الذي قد يتلقاه مرهون من خاله . . و مع ذلك يمتعض مرهون من تعليق أحمد، و يتخلى عما أراد قوله بإحتمال تحوله الى فتاة أخرى . . و يغير شمران الموضوع مخاطبا مرهون:

- بالمناسبة . . آني أشوفك هنا على طول . . أشوفك ما تروح لمعسكر المنصورية؟

- بالعكس . . مداوم بالجيش . . بس خدمتي نقلها حسين الجيراوي لمعسكر سعد بعد ما إنتهت فاتحة الوالد بأسبوع!

- الجيراوي؟ . . نقل خدمتك لمعسكر سعد؟

- بلي!

شمران يعرف عزَّ المعرفة من هو الجيراوي. و شمران يعلم أيضا أية إستشارة غبية أعطاها غايب مرهون لإبنه بإقتراحه عليه الإلتحاق بالجيش، و هكذا قلَّصَ من هامش مناورة الخلاص . . و نقل مرهون الى معسكر سعد جاء ثالثة الأثافي و لكن ما باليد حيلة! . . و يلوم إبن أخته:

- و تگول . . بلي! . . حتى تصير هنا تحت نظر الأمن رايح جاي للمعسكر . . و تحت نظرهم . . رايح جاي و يه الشباب جماعتكم! . . و تگول . . بلي!

و يروح شمران لينشد مرة ثانية و بمرارة:

- بلي يا بلبول . . بلي! . . ما شفت دعبول؟ . . بلي! . . ينگر بالطاسة؟ . . بلي! . . و مطلِع راسه؟ . . بلي!

يظلَّ الشابان ينظران إليه مأخوذين بالترنيمة الساخرة و المرارة تقطر

من لحن الأغنية . . و يتوقف شمران عن الغناء ليقطع إنبهارهما مخاطبا مرهون:

- إحچيلي على السالوفة اللي جيت علمودهه الصبح!

- السالوفة يا خالي هي . . اللي يحصل فيما يخص متعلقات الوالد أشوفه ما معقول أبدا!

- مثلا؟

- إنت زين تعرف . . أبويه ما چان يتعامل بالمصارف!

- ما يعني؟

- أن فلوسه تظل وياه وين ما يروح . . فلوسه على طول لو بجيبه لو بالبيت لو وين ما ينام . . أقصد بمكان عمله!

- معقول!

- و مع ذلك . . حسب علمنا آني و أمي هو ما چان يخللي فلوس بالبيت إلا من ييات بالبيت بحالات نادرة و يشيلهه وياه من يطلع.

- إذا ما يخلي بالمصرف و بالبيت ما چان يحط فلوس . . لعد وين چان يخلي فلوسه؟

- عادة قديمة . . خالي إنت مو تعرف زين هو چان يخللي فلوسه بدولاب موجود بالكازينو . .

- يا لذاك الدولاب! . . ما يزال حيّا و صامدا؟

- أي . . و الوالد نقل هذا الدولاب الى معرض السيارات مال الجيراوي!

- هالجيراوي! . . هالجيراوي! . . هالجيراوي! . . يلله كمَّل . .

إحـچـي!

- . . و آني مو گِلِتلك مرة هو چـان مواعدني بمبلغ چـبير وقت السفر!

يطلق شمران أنـَّةً طويلة . . و إبن أخته يواصل:

- و عـدا هـذا . . هـل مـن المعقـول مـا يلـگـون بجيبـه سـاعة الحـادث مـو أكثر مـن چـم دينـار و المفاتيـح؟ . . و لا ورقـة و لا دفتـر و لا مسـتند!

- عجيب! . . و الدولاب؟

- مفاتيح الدولاب عندي . .

- منين حصلت عليهن؟

- يـوم اللـي رحنـه بيـه للفلوجـة . . المحامـي رتبهـه و سـحبلي المفاتيـح مـن الحاجيـات اللـي چـانن بجيـب الوالـد أثنـاء الحـادث.

- عجيب! . . سلتولك المفاتيح؟ . . هيـچـي؟ . . في سبيل الله! . . و هسه؟

- الحـچـي بيناتنه خالي . . آني أخاف أروح أفتح الدولاب؟

- ليش؟

- . . أخاف أتفاجأ باللي موجود بالدولاب!

- تقصد تخاف تتفاجأ باللي ما موجود بالدولاب!

- تمام!

- . . ليش؟

و يحكـى مرهـون لخالـه مـا حصـل مـع هانـي ميرخـان الـگـصـاب، فيسـتغرب شـمران معلقـاً:

- هو هذا هاني ميرخان مو هو اللي چان يسكر و يه أبوك في بستان حسين گطمة؟

و تفوت شمران حقيقة أن حسين گطمة هو خال أحمد صديق إبن أخته و زوج نرجس إبنة أخته . . يتبادل مرهون النظرات مع صهره المبتسم أصلا و يرد:

- إي!

- و نعم النديم!

و ها هو يحدّث خاله أيضا عن فرار شحاتة المصري و إختفائه، فيعلق شمران:

- هو شحاتة مو هذا اللي چان شريك أبوك بكل غداءات و عشاءات اللي ياكلها بالبيت من إيدين أمك؟

- بلي!

- . . بلي يا بلبول! . . و نِعمَ شريك سُفرةِ الطعام! . . و مع ذلك إنتَ ليش خايف تفتح دولاب أبوك اللي بمعرض الجيراوي؟

- خالي العزيز . . إنتَ حتما عندك فكرة عن مصالح أبويه . . حتماً أكو كمبيالات . . و حتما أكو وصولات لها علاقة ببيع و شراء السيارات . . أبويه دائما چان دائن مو مدين . . و حتى إحتمال أن يكون بالدولاب جزء من ثروته النقدية . . و أخاف أروح و أفتح الدولاب و ما ألگه غير إيدي و الدولاب! . . و غير هذا . . أضيف آني مو گلتلك گبل شوية الوالد چان واعدني بمبلغ چبير يغطي سفرنا آني و نرجس!

- بالواقع . . المقدمات اللي حچيتلي عنها كلها إحتمال تودينه للنتيجة المحتملة اللي ذكرتها! . . بالمناسبة . . مفاتيح الدولاب وياك؟

- أي ويايه . . آني و أحمد جبناهه من شرطة الفلوجة ويه الموجود بعِبّ الوالد أثناء الحادث.

يضحك شمران و يعلق:

- شنو سالفة أبوك؟ . . هو تعلّم يلبس قميص و بنطرون راح بيهن للقاهرة حتى يشوف أم كلثوم . . و ما تعلّم يحط فلوسه بجيوب بنطرون؟

يتحمل مرهون من خاله لمزَةُ لوالده على مضض . . و يسمع خاله يقول:

- خلاصة القول . . إنتَ تريدني أروح وياك حتى تفتح الدولاب . . تمام؟

- تمام! . . إذا ما عندك مانع!

- لا . . عليش هالمانع!

ينتقل شمران بخطابه نحو أحمد:

- و إنت أحمد . . أثناء فراري شصار من ترييات هروبك إنت و نرجس؟ . . ليش ما ترتب قبول بجامعة برا البلد و تاخذ زوجتك و تسافر . . على الأقل حتى أطمئن عليك أنت و نرجس! . . و تخلي موضوع مرهون بأكمله آني أتابعه؟

يتنهد أحمد قبل أن يجيب:

- آني مضطر للإنتظار . . لأن نرجس داگه رجلها بالگاع و مُصِرَّة على إنتظار مرهون و صاحبته حتى نسافر سوية!

- بالمناسبة . . إنت صارحتهه بموضوع مخاوفكم من الموت القابع بالطريق؟

- لا . . ما أجازف!

- و لا لحد هسه صارحت أختي أميرة بهالموضوع؟

- أستاذ شمران . . شلون يصير أصارحهه! . . أصارحهه حتى تنجن!

- و إنت مجازف بحياتك و تنتظر؟

- للحب و العشرة فروضه الصعبة! . . و عدا الحب و العشرة . . والدي چان بإستمرار يذكرني بدين برگبته تجاه غايب و أهل غايب مرهون.

- شاعر! . . يا للغرام! . . و يا للمغامرة! . . الشاعر الأمين نادر! . . الشعراء و الأنبياء يتبعهم الغاوون!

الضحك الذي إنطلق من الثلاثة ينضح قلقا إرتياحا . . و يسيرون منطلقين من فلكة العنافصة لاشعوريا بإتجاه معرض الجيراوي لبيع و شراء السيارات، سالكين الشارع المؤدي الى مبنى محافظة ديالى.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

عند بناية بلدية بعقوبة، عبروا الشارع الى الجهة المقابلة حيث معرض حسين الجيراوي للسيارات. يدخلون المعرض، فيراهم الجيراوي من خلف زجاج مكتبه و يخرج من غرفة مكتبه الصغيرة لإستقبالهم يجرّ جسمه الضخم و أنفاسه منقطعة مرحبا:

- يا هله بأستاذ شمران . . الحمد لله على السلامة . . آني سمعت بسالوفتك ويا هذا المحافظ الأچقلْ!

أچقل! . . يا للتعبير! . . و إذ لم يعلق شمران، دنا الجيراوي بفمه من أذنه هامسا:

- . . هذولة البعثية خو إنتَ تعرفهم أحسن مني . . مناويچ ما منهم أمان!

شمران يعلم أن الجيراوي كان، و ربما ما يزال، مع من يسمون أنفسهم بالقوميين الناصريين الذين إنقلب عليهم البعثيون أكثر من مرة. و لأنه ربما توقع بأن همس الجيراوي قد يكون مقدمة لشئ ما يزال هو شمران نفسه يجهله، فها هو شمران يفضّل مرة أخرى ألا يعلق بشئ يجاري به الجيراوي على ما همس به . . و يكتفي بالقول:

- هذا حال الدنيا! . . شلونك أبو علي؟

- زين الحمد لله . . بس إنتَ تعرف . . شنسويله للقدر يمر بينا و ياخذ من عندنا ناس اللي نحبهم! . . آني چنت أكبر الخاسرين بموتة غايب الله يرحمه!

- و إنتَ الصادگ!

ينوي شمران أن يضيف لكلماته عبارة . . و الله يضرِّط الچاذب! . . و لكنه يحجم بعد أن يتمعَّن في جسم الجيراوي الضخم المنفوخ، فتخيله مليئاً بالضراط . . و تذكر وصف المتنبي . . زِقٌّ ريح إذا مشى هذى أو فسى! . . و سيكتفي بإبتسامة يجيب بها على الجيراوي الذي أضاف:

- . . أستاذ شمران . . تفضلوا إستريحوا!

و يتذكر شمران يوم رتب الجيراوي بألاعيبه قبل أكثر من عشر سنين أمر ضمان عدم سجنهم في قضية تهمة الإنتماء الشيوعي بعد إعتقاله في إنقلاب شباط 1963، في قضية كانت معروضة على رئيس المجلس العرفي العسكري، و كيف دبر بها رشوة رئيس المجلس بأن دفع كل منهم خمسين دينارا . . كم كانت حصة الجيراوي في الصفقة؟ . . لا أحد يدري! . . أم أنه فعل ذلك دون عمولة لأن أخا زوجته كان بين من أحيلوا في رقم القضية؟ . . لا أحد يدري!

يتجاهل شمران مجاملة الجيراوي قائلاً:

- لا . . ممنون أبو علي! . . أكو شغلة زغيرونة هنا بغرفة المرحوم غايب نسويهه و نغادر.

- تقصد بغرفة الخان؟

- أي . . إذا سمحت!

- طبعا أسمح! . . تفضلوا!

يسير الثلاثة في ممر بين صفين من السيارات، يتقدمهم الجيراوي . . و يهمس مرهون لخاله:

- أنت ما شايف هذا الخان؟

فيعلق شمران بفضول:

- لا! . . و شيجيبني؟ . . و ليش أجي هنا!

- تعال أشوفك هذا الخان شنو . . لأن آني شايفه!

تعبير . . خان . . يوحي بسعة في المكان، فيسرح شمران بخياله متصورا إياه مثل خانات أيام زمان . . خان الخيالة أو خان الگرطاني أو خان الشاهبندر الذي كان في ظهر بيتهم في محلة الگِنِث، لكنه ما أن دخل و من معه الى الخان، تفاجأ بصورة خان الجيراوي الذي كان غايب مرهون ينام فيه معظم لياليه بعيدا عن بيته . . قطعة أرض صغيرة ملحقة بمعرض السيارات من جهته الخلفية، و قد بُنيتْ على أطرافها بكلف رخيصة غُرفٌ صغيرة أشبه بالجحور، لإيواء بضاعة لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى الجيراوي و عامر كبسوني و ربما غايب مرهون أيضا، و يتوسط الخان من جهته الخلفية جحر، أكبر من باقي الجحور، ذو نافذة الى جانب الباب. و ما تبقى من الخان في وسطه صار فناءً لتصنيف البضاعة . . كان من السهولة للداخل الى الخان أن يخمِّن بأن الجحر

ذا النافذة، و بالستارة الموضوعة عليها، قد يكون غرفة إدارة الخان . . أكداس البضاعة متناثرة هنا و هناك . . و ثمة عاملان ملامحهما تشير الى أنهما ليسا عراقيين. و عندما رأى أحدهما الجيراوي مقبلاً يتبعه شمران و مرهون و أحمد، صاح بإعلى صوته:

- يا أسطى! . .عندك ضيوف.

من يكون هذا الأسطة؟ . . أثمة أسطى هنا غير الجيراوي؟ . . و سرعان ما تحركت ستارة الغرفة من وراء النافذة. و بلحظات خرج من الجحر الكبير شاب حلو القسمات ممتلئ الجسم نسبياً، يخف نحو سيد المكان مرحباً، و مخاطباً شمران:

- أهلا أستاذ شمران . . حتى تشوف! . . آني أعرفك بس إنت ما تعرفني!

و يعقب شمران:

- لم يحصل لي الشرف!

يعقب مرهون لخاله:

- هذا عامر كبسوني الجيراوي.

و يعلق شمران بنبرة ذات معنى:

- الآن حصل الشرف!

يدعوهما عامر كبسوني الى الدخول . . و يخاطب الجيراوي شمران مسأذنا:

- أستاذ شمران . . هذا الخان و هذا عامر وياكم . . آني تسمحولي أرجع؟

- تفضل!

يتركهم الجيراوي عائداً الى المعرض.

يدخلون الجحر ذا النافذة و يجلسون . . و يتخلف كبسوني عنهما قليلاً ليوشوش بشيءٍ في آذان العاملين في الفناء . . باغتت أنوف الداخلين عفونة متمكنة من جو الغرفة، فيسرع أحمد شحاذة الى فتح أحدى درفتي النافذة و يبدأ هواء الغرفة يتغير شيئاً فشيئاً . . و مثلما ألمَّ شمران بصورة عن الخان، ها هو يلمّ و بالسرعة ذاتها بتصور عن الجحر ذي النافذة . . غرفة صغيرة ملبوخة من الداخل بإسمنتٍ تُرِكَ دون دهان . . يحتل ضلعها البعيد المقابل للباب من الزاوية الى الزاوية تقريباً سرير حديدي يسع شخصاً واحداً و تُرِكَ حيزٌ عند إحدى الزاويتين وُضِعَت به ثلاجة صغيرة الحجم جداً، و على الضلع الذي على يسار الباب ثمة سرير حديدي آخر لشخص واحد و بينه و باب الغرفة في الزاوية وُضِعَت طاولة صغيرة عالية و أمامها كرسيان، و الكنبة التي يجلسان عليها تحتل الضلع الذي على يمين الباب و بجانبها دولاب حديدي يتدلى من حلقة مزلاجه قفل متوسط الحجم، و دولاب حديدي آخر موضوع بجانب النافذة عند زاوية ضلع الباب، و أمام النافذة وضعت طاولة صغيرة و فوقها جهاز تلفزيون صغير . . و على الرغم من الجو الكابي للغرفة، كان ثمة ما يشيع الراحة عند الداخل إليها لأول مرة، عبارة مكتوبة داخل إطار أنيق . . من راقب الناس مات هماً و يفوز باللذات الجسور . . مرَّ في خاطر شمران . . فلسفة من هذه؟ . . أفلسفة غايب مرهون أم فلسفة الجيراوي؟ . . أم فلسفة غيرهما؟ . . إستبعد شمران عن صهره الميت أن يكون صاحب هذه الفلسفة لضعة في تفكيره! . . و مع ذلك أومأ برأسه مؤيداً . . صحيح من يراقب الناس يموت هماً، لأن المراقبة تعني بداية التفكير و التفكير ليس بالضرورة أن يؤدي دائماً الى مخارج صائبة، فالتفكير في أغلب الحالات يعني التهدم . . متأملا الغرفة التي يجلسون فيها . . مرت في رأسه خاطرة أخرى في مقارنة بين الألق الذي خلقه غايب مرهون في شارع الشاخة عند دار سينما ديالى في ليالي سنين طويلة بما أشاعته . . كازينو أم كلثوم . . من بهجة تستمر ليلاً لساعات بعد إنتهاء عمل

دار العرض السينمائي و هذا الجحر الذي كان غايب مرهون يقضي فيه أغلب لياليه في عاميه الأخيرين! . . ويلتفت شمران نحو الشابين معه، فيجدهما هما الآخرين لائذين بالصمت، بخاصة مرهون الذي ربما غرق في تفكير و خواطر عن أبيه و عن المكان متنقلا بنظره حول أشياء الغرفة . .

و يداهمهم كبسوني متوجها مباشرة نحو الثلاجة قائلاً:

- أعذروني يا جماعة . . هذوله المصريين اللي هنا مصيبة! . . تحچي وياه جريدة يلله يفتهم شتريد منه!

واضح جداً . . كذاب و دعي! . . واضح لشمران أن ما تفوه به كبسوني جاء ربما للتمويه عما رتبه بخصوص مجيئهما المفاجئ الى الخان . . و تقدم منهم جالباً قناني بيبسي كولا، و مُدنيا طبلية قريبة، و ضع عليها القناني، و هو يضيف:

- تفضلو . . المرحوم غايب چانت عنده طريقة عجيبة بالتعامل وياهم!

و يروح شمران متأملا وجه محدثهم . . حركاته البطيئة تضفي نعومة لا حدود لها على قسماته الأنثوية، و هو يضيف:

- يا أستاذ شمران . . المرحوم چان بالعمل أسطة مال الكل!

كذاب و دعيّ . . مصغيا لصوت كبسوني الجيراوي، ينشغل بال شمران به مرة أخرى . . ثم ماذا عن هذا البنيان الجسدي الذي لا تعوزه سوى بعض تعديلات كي يغدو جسدا أنثويا متدفقا بإمتياز . . اللعنة! . . أين سيفضي بي هذا التفكير؟

و يصغون لكبسوني يضيف:

- و إذا ردت الصدگ أستاذ شمران . . موت غايب چان خسارة چبيرة!

و يظل بال شمران منشغلاً مرة أخرى . . واضح وضوح الشمس في رابعة النهار! . . و نعومة بالصوت توحي بعمر أصغر بكثير من عمره هذا! . . و مع ذلك حاول أن يتحرر من التصورات المسبقة التي تكونت لديه عن كبسوني، و كانت أساساً متأثرة بما كان يشيعه بعض الناس أمامه عن أنوثة كبسوني، و كأنهم يريدون ضمناً لمزَ زوج أخته الميت، فيوحون له بوجود علاقة حميمة خفية بين كبسوني و غايب. و فجأة ها هو شمران يحسّ بخلوٍ من شحنات غيض كان يحمله نحو كبسوني قبل أن يراه. و دون أن يبرر لزوج أخته الميت أية علاقة تربطه بكبسوني، لأنه أدرك إدراكاً شبه نهائي بأن الخصال الأنثوية التي يتمتع بها كبسوني تضعه تحت طائلة الشبهات!

و ينشغل الثلاثة، بخاصة شمران، بالتطلع لما موجود في الغرفة . . السريرين و أفرشتهما . . الطاولة الحديدية فوقها أقداح فارغة و قناني عرق فارغة و بقايا أكل متعفن و متيبس و حولها توزعت أربعة كراسي ألمنيوم . . الدولابين، أحدهما مفتوحا بصفقتين سائبتين دون قفل، و الثاني يتدلى من حلقة مزلاجه قفل كبير بحجم قفل باب الغرفة . . و يطلق شمران سؤالاً:

- أسرة من هذني الإثنين . . واحد چان ينام عليه غايب . . تمام؟

و يسرع كبسوني مجيبا:

- تمام أستاذ شمران.

- زين و الآخر؟ . . منو چان ينام عليه؟

يجيب كبسوني:

- شحاتة المصري.

و يشير شمران الى الدولاب المفتوح سائلاً:

- و هذا لا بد أن يكون دولاب شحاتة . . و ذاك المقفول دولاب غايب؟

و يرد كبسوني:

- يظهر مثل ما تـگول!

و يخاطب شمران إبن أخته:

- هذا مو هو نفسه الدولاب العتيد اللي چان بكازينو أم كلثوم . . و من طلع أبوك من السجن نقله لهنا؟

- بلي!

- بلي يا بلبول! . . و مفتاح الدولاب عندك هسه؟

- بلي.

يتقدم شمران من الدولاب. يتفحص القفل و المزلاج بيديه . . و يطلب من مرهون:

- إفتح!

ينفتح الدولاب فتنكشف طبقاته الثلاث . . السفلى عن ملابس وسخة تبدو مستعملة مكومة عشوائيا . . والوسطى عن ملابس نظيفة و مرتبة . . و الثالثة العليا عن صندوق من الصفيح السميك طوله حوالي شبرين و عرضه شبر و إرتفاعه شبر بغطاء فوقاني يتدلى منه لسان دخلت فتحته الطولانية بحلقة مثبتة ببدن الصندوق يتدلى منها قفل بحجم قفل باب الدولاب . . و بجانبه صندوق صغير مصنوع من خشب الساج الداكن المزخرف بألوان مذهبة . . يطلب شمران من إبن أخته إخراج الصندوق، فيتبرع أحمد شحاذة بإخراجه من الدولاب و يضعه على أحد السريرين. يتقدم شمران من الصندوق و يتفحص قفله و حلقة القفل و لسان الغطاء، و يسأل مرهون:

- و هذا هو نفس الصندوگ اللي چـان بنفس الدولاب بالكازينو؟

يرد مرهون:

- نفسه.

- و هذا صندوگ الخشب همين نفسه اللي چـان بالدولاب بالكازينو؟

- نفسه مو غيره! . . أفتح صندوگ الحديد؟

يرد شمران فورا:

- لا . . مـو هسـه! . . أجّـل شـغلة فتـح الصنـدوگ . . شـيلو الصنـدوگ للبيـت. . و جيـب ويـاك قفـل الـدولاب.

يغـادر شـمران الغرفـة و الخـان مرهـون و أحمـد شـحاذة و كبسـوني . . وجـدوا الجيـراوي واقفـا فـي بـاب مكتبـه و كأنـه ينتظرهـم. يتوقـف شـمران و يدنـو مـن عـروة قفـل بـاب غرفـة مكتـب الجيـراوي ليتفحـص القفـل بيديـه و يسـأل الجيـراوي:

- أبو علي . . شـگد صارله غايب ساكن بهالغرفة؟

- من طلع من السجن الى أن الله أخذ أجله . . يعني حوالي سنتين!

- هسـه هـذا قفـل غرفتـك مبيـن عليـه عتيـگ و مـال مـدة طويلـة لأن مليـان وسـخ مـن الجـو و مـن الإيديـن! . . تمـام؟

- ـ تمام أستاذ شمران!

- زيـن هـذا قفـل دولاب غايـب ليـش جديـد ميـة بالميـة و ماكـو عليـه أثـر إسـتعمال؟

قبـل أن يجيـب الجيـراوي، يتفاجـأ الجميـع بصـوت عامـر كبسـوني مـن ورائهم

مجيبا :

- هذي بسيطة أستاذ شمران . . لأن غايب چان يغيّر القفل كل شهر!

- كل شهر! . . ليش كل شهر؟ . . چان ما مأمِّنْ؟ . . أقصد هو چان عايش ويه حرامية؟

يرد كبسوني بإنزعاج ظاهر:

- لا طبعا! . . ما چان عايش ويه حرامية!

- و المعرض به حارس بالليل لو ما به؟

- بلي! . . به حارس.

- و منو الحارس؟

يرد كبسوني:

- ها؟ . . الحارس؟ . . و الله الحارس هسه ما موجود!

و يعقب الجيراوي مفسراً:

- الحارس هو نفسه شحاتة اللي چان ينام ويا غايب بالغرفة!

و يتذكر شمران ما أخبره به مرهون عن شحاتة الذي إختفى، و سيستفسرعن شحاتة سائلا الجيراوي:

- أبو علي . . أگدر أشوف شحاتة؟

يرد الجيراوي:

- شحاتة إختفى من المستشفى بالفلوجة! . . أستاذ شمران . . فرّ . . إنهزم . . إختفى . . ليش؟ . . ما ندري!

و اضح جدا أن أية زيادة في الحديث ستكون دون طائل . . و يتذكر أيضا وصف المحامي كمال العلمدار قبل تسع سنوات للقضية التي فبركت ضد غايب حين قال له . . قضية مهندِسة و مدسترة! . . و الذي دَستَر تلك القضية كان بإمكانه أن يدستر غيرها! . . و تستولي الظنون على شمران لثانية لم لا يكون الذي دَستَرَ هذه الإستيلاء على موجودات غايب هنا هو نفسه الذي دستر له أيام زمان الإنقلاب الذي قاده تركي الفتلاوي ضد كازينو أم كلثوم؟ . . و لكن كيف يا ترى سيتنسى له إثبات ذلك! . . و يستأذن شمران من الجيراوي مغادرا يتبعه مرهون و أحمد الذي تبرع بحمل الصندوق الصفيحي و حمل مرهون الصندوق الآخر . . في الشارع ركبوا سيارة أجرة حملتهم مع الصندوقين الى بيت غايب . . و لم يتحدثوا قط و هم في سيارة الأجرة.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

في البيت . . أميرة الأحمدي الحزن بادٍ عليها لإتشاحها بالسواد . . و إذ هي تعلم بنفور أخيها شمران من زوجها الراحل، إستقبلت أميرة أخاها شمران بالقُبل و هنَّأته على عودته سالما محتضنة إياه بقوة، و لم تكن أيضا قد زارته في بيته لا بسبب نفورها من زوجته فحسب، بل أيضا لأنها تمر بمدة عدتها الشرعية بعد موت الزوج . . و ها هو أخوها يواسيها على موت الزوج و يعتذر منها عن عدم قيامه بواجبه تجاهها في محنتها. . و الإبنة نرجس هي الأخرى إحتضنت خالها و قبلَّته. و يدخلون غرفة الضيوف متوزعين جلوسا على مقاعد الغرفة.

وُضِعَ الصندوقان على الطاولة الواطئة الكبيرة في وسط الغرفة . . و ينهض شمران من مكانه لتفحص الصندوق الصفيحي و قفله، و علق مخاطبا الشابين:

- بالإمكان تشوفون . . تلاحظون هذي الضربات على لسان القفل؟ . . آثار ضربات مثلها چانت موجودة على مزلاج قفل الدولاب أيضا.

فيستفسر مرهون:

- خالي . . . و هذا شنو معناه؟

- . . .معناه يا إبن أختي . . الأقفال الأصلية مال الدولاب و الصندوگ . . كلهن أكو شخص كسرهن و أخذ اللي يريده و غيَّر الأقفال!

- و شراح نسوي؟ . . إنروح نخبر الشرطة . . و نرفع قضية حتى يسوون تحقيق؟

- . . يا إبن أختي . . يا تحقيق! . . يا بطيخ! . . إنت مو تگول چان أكو لعبة خبيثة إنلعبت بمقتنيات أبوك الموجودة وياه أثناء الحادث . . بشرطة الفلوجة و بمستشفى الفلوجة؟

- بلي!

و تعلق أميرة قائلة:

- أخويه شمران . . آني متأكدة جيوب غايب ما چانت خالية . . هو بإستمرار لازم يكون شايل وياه إذا مو ميّات . . . خلينه نگول عشرات الدنانير . . . و بإختصار هو القاصة مالته چان چيس الخام اللي بعبَّه أو جيبه!

و يعقب شمران مضيفا:

- إذن . . نگدر نگول و ببساطة . . اللي لعب ذيچ اللعبة بالفلوجة . . چان قادر يلعب لعبة الأقفال الإثنين دون خوف أو خشية . . الجيراوي . . هذا مو بس ذيب!

- لعد؟

- ذيب و واوي و عنكبوت و ضبع . . الجيراوي هو كل هذي الكائنات

المؤذيـة!

- شتقصد خالي؟

- أقصـد . . .التعامل ويـه كائنـات مـن هـذا النـوع يتطلـب التغاضـي عـن كل مـا هـو معقـول و منطقـي مـن اللـي علمونيـاه مـن أفـكار مثاليـة عـن العدالة . . . تريـد تـروح للشـرطة! . . . هَيْهَـيْ! . . و آنـي حتـى أختصـر الطريـق عليكـم . . أگـول اللـي گـدر يـزور و يرشـي الشـرطة و المحكمـة بالفلوجـة و هـي مـو مدينتـه يگـدر يسـوي الهوايـل هنـا بمدينتـه! . . و بالمناسـبة . . أريـد أسـألك هـو المحامـي اللـي لعـب لعبـة الجيـراوي بالفلوجـة مـو رجـل قانـون و المفـروض أن يكـون حامـي القانـون؟

- إي تمـام خالـي . . آنـي مـا أبـرئ المحامـي عبـد الصمـد الجورانـي مـن هـذا الملعـوب مـن أولـه الـى آخـره!

- و لعلمك . . و أگـولهه مقدما . . إذا قررت تروح للشـرطة و المحكمة راح يقوم عبـد الصمـد الجورانـي بنفس الـدور . . و تطلـع إنـت اللـي خسـران و إحتمـال يتهمـوك بإسـاءة سـمعة الجيـراوي! . . و آنـي هسـه أتذكـر كلـش زيـن اللـي گـاله المحامـي العلمـدار عـن قضيـة غايـب بالكازينـو . . مسبوچـة سَبـچ و مـا چـان بيهـه أي ثغرة!

و يعقب مرهون:

- خالـي علـى بختـك! . . شـراح نسـوي لعـد؟ . . هـذي الفلـوس چـان أبويـه واعدنـي بيهـه آنـي و أختـي نرجـس!

أميـرة تسـمع إبنهـا مرهـون يتحـدث عـن وعـد مـن زوجهـا المتوفـي لإبنـه تزويـده بمـال . . أثمـة أسـرار بيـن إبنهـا و زوجهـا ممـا لا تعلمـه! . . و كأن مرهـون بفطاريتـه أ فشـى السـر دون أن يحتسـب، فإستفسـرت الأم مـن إبنهـا مسـتغربة:

- أبـوك مواعـدك بفلـوس و آنـي مـا أدري! . . شتسـوي بالفلـوس و لأي غـرض و إنـت فلـوس الكازينـو كلهـا عنـدك؟

يريـن الصمـت علـى الجميـع . . و يظـل شـمران يتأمـل الوجـوه و النظـرات التـي تتنقـل مـن وجـه الـى آخـر، فيستشـف مـن قسـمات الوجـوه. و برؤيتـه للإنطبـاع الـذي تـراءى لـه علـى وجـه إبنـة أختـه، إكتشـف أن أحمـد كـذب عليـه بإنـكاره إفشـاء سـر خطـة الهـروب. حـزره مـن نظـرات نرجـس لزوجهـا أحمـد. فـرأى أنـه مـن الظلـم أن تظـل أختـه جاهلـة بمـا يُعـدّون لـه، بخاصـة و الخطـر يهـدد مصيـر إبنهـا الوحيـد و مصيـر زوج إبنتهـا . . و سيشـرع فـورا بتوضيـح الموقـف بنبـرة هادئـة و كلمـات منتقـاة موضحـا الخطـر الـذي ينتظـر إبنهـا و صهرهـا . . و هـا هـي أميـرة الأحمـدي تتلقـى خبـرا ليـس سـعيدا بالمـرة، إن لـم يكـن الخبـر مروعـا . . الـكل مهـددون بالمـوت! . . الـكل مسـافرون! . . تسـمَّر وجههـا علـى أخيهـا، فذكـَّرَه وجههـا بوجـه أمـه صافيـة و هـي تقـول لفليـح حسـن الجاسـم:

- . . ها تـگـولون هالمرة ثورتكم بيضه!

يـا أخيتـي أميـرة! . . يـا إبنـة أبـي و أمـي! . . تـراه الـواوي جـاء هـذه المـرة ويـوي! . . و مـن ذا اللبيـب الـذي كان ليفهـم هـذه الحقيقـة علـى بسـاطتها و وضـوحهـا؟ . . و يحـاول شـمران أن يطمئِنهـا بأنـه سـيرى مخرجـا لمحنـة إبنهـا فـي غضـون أيـام، و يسترسـل:

- أختـي العزيـزة . . لا تقلقيـن . . أحمـد و نرجـس بإمكانهـم يغـادرون بمجـرد حصـول أحمـد علـى بعثـة بـأي دولـة و بأقـرب وقـت . . و مرهـون . . آنـي راح أحـاول أرتبلـه مخـرج مـن هالمصيبـة! . . چـنـت نـاوي أرتبلـه مخـرج مـن هالنـوع گـبل فـراري الـى بغداد!

و يضيف شمران مخاطبا الجميع:

- هسـه . . خلونـه نرجـع نفكـر شـراح نسـوي بخصـوص موضـوع

الصنــدوگ!

يطلـب شـمران مـن مرهـون فتـح الصنـدوق . . و ينفتـح الصنـدوق و يتطلـع مرهـون فـي داخلـه، و هـا هـي الظنـون و الشـكوك تتحقـق عـن يـدٍ عبثـت و سـطت علـى محتويـات الصنـدوق. يظـل مرهـون ينظـر بذهـول فـي باطـن الصنـدوق معبـرا عـن ذهولـه بحـركات جعلـت نرجـس و أحمـد يلتحقـان بـه ليريـا مـا بداخـل الصنـدوق، و يجعـل نرجـس تمتـم:

- ويـن الصكـوك؟ . . و يـن الكمبيـالات؟ . . ويـن شـغل الفايـز اللـي يحـچـون عنـه النـاس؟ . . و يـن الفلـوس؟ . . شـنو القصـة؟ . . رجـّال چـان يشـتري سيارات و يبيعهـه للنـاس بأقسـاط و يسـلف النـاس و ياخـذ منهـم فائـدة . . و يـن فلوسـه؟

شمران لا يتفاجأ و يسأل إبن أخته:

- الصندوگ خالي تماما؟

- فارغ تماماً!

و يطلـب منـه خالـه فتـح الصنـدوق الخشـبي الإنتيكـة المزخـرف . . و سـيفتحه و يمـد يـده لأخـراج ورقـة تصويـر بحجـم يسـميه المصـورون فولسـايز، و يتسـاءل مسـتغربا:

- هذ صورة من؟

و تتساءل نرجس أيضا معلقةً:

- بس هذي الصورة؟

و يمد مرهون يده ليخرج شيئا آخر مضيفا:

- و هذي!

فتسأل نرجس مستغربة:

- هذي فوطة! . . هذه فوطة من؟

و تأخذ نرجس الصورة من يد أخيها . . تتأملها، و تذهب بها الى أمها سائلة:

- ماما . . هذا منو هالمعَـگَّلْ؟ . . تعرفينه؟ . . و هذي فوطة من؟

الأم ما تزال مسمِّرةً نظراتها على أخيها . . مصعوقة بالخبر الذي سمعته بذهول عما حولها . . ذهول مطلق و كامل! . . صورة من؟ . . فوطة من؟ . . هذا شئ لم يعد يهمها بعد أن سمعت عن المصير الذي ينتظر إبنها و صهرها أحمد . . و أزاء صمت أمها و ذهولها، و كي ترضي البنت فضولها عن الصورة و الفوطة تترك أمها في ذهولها متوجهة الى خالها شمران لتسأله:

- خالي شمران . . هذا منو؟ . . هذا صورة جدي مرهون؟ . . و هذي فوطة بيبيتي نرجس؟

يترك شمران الفوطة بيد نرجس التي راحت تتشممها، و يتناول الصورة ليتفحص قسمات رجل الصورة و تعود الذكرى بشمران الى الماضي . . مقهى محمود جوير . . و أخته ما تزال في ذهولها راح يحكى لهم حكاية الصورة . . يوم ساعد أخاه أمير القيرواني في إكساء جدران المقهى برسومات أخذ أمير مواضيعها من الحياة العامة في بعقوبة . . و ما يزال يتذكر بالتحديد يوم جاءهم غايب و سأل أخاه أمير عن صاحب الصورة الذي كان يبدو لغايب ذا هيبة . . و تذكر أيضا كيف إستفسر غايب عن الرجل في الصورة . . عيني أمير هذا منو الرجال الكشخة اللي بالصورة؟ . . فأجابه أمير . . واحد شفته مرة هنا بالگهوة يقرقر بنرگيلة و عجبني و رسمته! . . و سأله غايب مرة أخرى . . عيني قيرواني تعرف هو منين؟ . . و رد أمير نافيا!

و ها هو الحفيد مرهون يتساءل ليرضي فضولا تملكه عن الصورة:

- هذا منو ؟ . . و شيصير من أبويه؟

فيجيب شمران:

- آني شخصيا ما أدري . . و إحتمال ما أحد يدري! . . هذي صورة لوحة رسمهه خالكم القيرواني على حايط بگهوة محمود جوير . . شوكت غايب أخذ صورة اللوحة اللي رسمها أمير؟ . . ما أحد يدري! . . گهوة محمود جوير اللي بيهه الصورة تفلشت و نبنى بمكانها سوگ مال رشيد العاني . . و منين عرف غايب الگهوة راح تتفلش و راح جاب مصور يصورله اللوحة گبل ما تتفلش الگهوة . . و ليش صوَّرْها؟ . . ما أحد يدري! . . شنو علاقة رجل الصورة بغايب؟ . . ما أحد يدري! . . هذا إلا إذا چان غايب منطي معلومات على الأقل لأقرب الناس عنه . . أقصد لأمكم مثلا!

و تسأل نرجس أمها مرة أخرى:

- ماما! . . يخليچ الله . . هذا منو اللي بالصورة؟ . . و هذي فوطة من؟

ما تزال أميرة متلبسة في ذهولها و لا تجيب.

و يعلق مرهون:

- شنو هالمفاجآت؟ . . شوف خالي هذا الختم اللي على الصورة مال ستوديو الأمل . . و التاريخ 10/ 11/ 1962 . . و المصور علي مطر . . شنو رأيك خالي . . يعني أكو إحتمال يكون أبويه گال فد شي لعلي مطر من أخذله صورة اللوحة؟

يرد شمران:

- مو بعيد . . لكن علي مطر مات و هسه ماكو بمكانه غير إبنه إحسان

و وياه عمه عامر . . و أستبعد أن هذولة الزغار يعرفون شي عن الصورة!

يقف مرهون مخاطبا أمه و خاله:

- يا أمي! . . يا خالي! . . يعني هذا معقول! . . وقت ما أريد أروح حتى أعرف أبويه شخلـّف بالصندوگ ما ألگه غير هاذي الصورة لواحد مجهول ما نعرفه و وياهه فوطة! . . و الأغرب منها . . اليوم الصبح عرفت من خالي إنت يا أمي زواجچ من أبويه چان يوم مقتل الملك فيصل الثاني و الدنيا چانت مگلوبه رأسا على عقب! . . صحيح چان زواجكم يوم مقتل الملك؟

الأم ما تزال منذهلة، و كأن صعقة خبر مصير إبنها المعلق بالجيش أصابتها بالصمم . . و لا تجيب.

و يتذكر مرهون كيف أفحم خاله جدته صافية حين قال لها . . ليش يصير يدربون فيصل الثاني اللي عمره چم سنة حتى يصير ملك و ما يصير مرهون اللي عمره چم سنة حتى يصير صاحب كازينو! . . و يلتفت مرهون نحو خاله سائلا:

- أستاذ شمران . . بالمناسبة . . ليش قتلو الملك؟ . . و منو قتله؟ . . و على شنو إنقتل؟

فيرد شمران:

- ليش؟ . . و منو؟ . . هذي هي الأسئلة اللي ما أحد يگدر يجيب عليها! . . هو صحيح إحتمال أكو ناس غوغاء . . عسكريين أو مدنيين . . هم اللي چانو يقتلون و يسحلون أيام أرباطعش تموز . . لكن هم ما چانو أكثر من أدوات تشتغل بالإيحاء مو بالأوامر . . و القاتل و المحرض الحقيقي چان دائما خلف الستار . . أكبر من كل الموجودين . . آني چنت مثلك . . أقصد غشيم . . چنت كلشي أفسره تفسير ساذج . . و أظل أضرب أخماس

بأسداس بخصوص مواضيع من هالنوع . . و لكن بعدين گِمِتْ أحاول أحزر بعض فصول اللعبة و صرت أكتشف قسم من قواعدها بالتدريج . . و مع ذلك ظليت ما أعرف منو يدير اللعبة و منو الحَكَمْ؟ . . لحد هسه ما أحد يعرف! . . و ما أحد برئ . . الأمور و القضايا و الأهداف و الغايات متداخلة و متشابكة و متناقضة . . أحيانا تشوف الكل على حق . . و أحيانا تشوفهم الكل على باطل! . . إنتَ حچَيت گبل شويه عن مفاجآت! . . زين . . إسمع مني هذي المفاجأة!

- شنو؟

- إنت شتعرف عن الجيراوي؟ . . هذا اللي هسه تدور حوله كل الشكوك بموضوع إختفاء ثروة أبوك . . الجيراوي هو نفسه اللي خلصني من سجن ثلاث أو أربع سنوات بعد الإنقلاب مال البعث بشباط؟

- هاي شنو خالي؟ . . معقولة!

- معقولة جدا! . . و هسه إذا تسمحون تعوفوني آني و أميرة!

أثناء خروجهم . . يهمس شمران لمرهون و أحمد:

- إنت أحمد . . دبّر أمورك إنت و نرجس على السفر و أتركولي قضية مرهون . . لأن هو مستحيل راح يگدر يسافر بالطريقة اللي راح تسافرون إنتو بيهه! . . إفلتو! . . و إنت مرهون أريدك تجيني لـگهوة جبارة المعيدي بعد المغرب!

و يستدير شمران نحو أخته الذاهلة عما حولها . . يقترب منها و يجلس الى جانبها ليسمعها عبارات تطمئنها على مصير إبنها . . يسحبها نحوه لإحتضانها، فتنهار على كتفه جاهشة بالبكاء . . و ظلت تبكي ساعة على كتف أخيها لغاية ان تبلل قميصه بدمعها!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

في البيت بُعيد الغروب، و كعادته دائما بتهيئة الأرضية لإرساء قرار من نوع ما، سيقول شمران لزوجته:

- سعدية . . إسمعيني!

- شكو؟ . . يا ساتر!

- فعلا يا ساتر! . . إسمعيني . . إنت زين تعرفين . . إحنه ما شفنه توفيق بالحصول على خلفة . . و ظلينا ثلاث سنين من زواجنا عايشين على أمل خادع . . و بعدها تتذكرين زين . . إحنه سوينه إتفاق من نوع هذا اللي يسمونه إتفاق جنتلمان على أن ما نروح نفحص حتى لا تحدد الجهة اللي هي سبب الحرمان من الخلفة حتى لا يكون به إحراج لأحد الطرفين . . تمام؟

- تمام!

و يمضي شمران ليختار الكلمات المناسبة لتسويق ما يريده:

- و آني هسه . . بعد رحيل زوج أختي بحادث سيارة . . أكو إحتمال كبير مرهون راح يسافر و نرجس راح تسافر ويه خطيبهه.

- شنو القصة! . . سفر جماعي؟

- شلون تريدين تسميه سمِّيه! . . على الأغلب سفر للدراسة.

- زين!

- . . أختي رجلهه مات بحادث سيارة و إبنهه و بنتهه راح يسافرون . . معقولة أعوف أختي للوحدة . . ساكنة وحدهه!

- طبعا ما يصير! . . بس آني شعليه؟

- شنو شعليچ؟ . . لا . . عليچ! . . هذا يعني راح أضطر أجيب أختي

تسكن ويانـه! . . شتـگـولين؟

- شـگول؟ . . طبعاً ما أرضى!

فـي مخيلتـه، كأنـه توقـع تقريبـا مـا سـيحصل فإسـتعد لـكل الإحتمـالات، و سـيعلق قائـلا:

- إذا مـا ترضيـن . . هـذا يعنـي . . راح يخلينـي إقتـرح نـروح نفحـص حتـى نحـدد منـو السـبب بعـدم الإنجـاب . . آنـي لـو إنـتِ!

- و هذا شنو معناه يابه؟

- معنـاه . . حتـى يكـون مـن حـق الطـرف المتمتـع بقـدرة الإنجـاب أن يـروح و يشـوف مسـتقبله قبـل فـوات الآوان!

و يتركها هي و أفكارها تضرب أخماسا بأسداس قبل أن ترد عليه!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

بإنتظـار مرهـون فـي مقهـى جبـارة المعيـدي . . ينشـغل شـمران مـع مصـطفى الديـو بالحديـث عـن أحـكام الإعـدام التـي لـم تتوقـف بحـق اليسـاريين مـن الشـباب الملتحقيـن بالخدمـة العسـكرية و أثرهـا علـى الحريـة الشـخصية . . يصـل مرهـون و يسـتأذن شـمران مـن الديـو، لكنـه قبـل أن يغـادر يسـأل فرمـان الكبابـچـي:

- أبو وصفي . . حسب معرفتك . . و ين أعثر على عبد كولونيا؟

- بالنهـار صايـر يرابـط يـم العيـادة الشـعبية . . و بالليـل تـلـگـاه بـراس العـگـد . . يـم البريـد القديـم . . مرابط يـم أبـو جـورج . . يجـرّ عـرگ ويـه أبـو جـورج!

و يـدور فـي خاطـر شـمران . . يـا لبعقوبـة! . . مـا فـي أقصـى غربهـا تجـده يعلـم أخبـار مـن فـي أقصـى شـرقها، و مـن فـي شـمالها تجـد خبـره عنـد مـن فـي جنوبهـا! . . يطلـق شـمران ضحكـة و يسـير مصـطحبـا مرهـون. يتجاوزان

فلكة العنافصة. و أثناء سيرهما يفتح شمران الحديث قائلا:

- إسمع مرهون . . نسوي مراجعة سريعة لكل الوقائع؟
- أفضل!
- . . جيوب أبوك لگيتهه فارغة! . . الدولاب لگينا فارغ! . . شحاتة المصري مهزوم! . . و المحامي عبد الصمد الجوراني واوي من شاكلته من باب المستحيل راح ينطينه لزمة! . . ما بقى أمامنا غير مفتاح واحد . .
- اللي هو؟
- هاني ميرخان . .و إذا هاني ميرخان من شلة البستان . . أعتقد عبد كولونيا هو الوحيد اللي إحتمال يدلينه على مكان ميرخان!
- * * * * *   * * * * *   * * * * *

عند وصولهم دائرة البريد القديم . . و ثمة لم تكن سيارة عبد كولونيا أمام محل أبو جورج. يدخلان الدكان الكبير نسبيا الذي أجره أبو جورج، غرفة مقتطعة من البيت المجاور لدائرة البريد . . المحل مشبع بروائح الطبخ و تغلب عليها رائحة الكبة الموصلية، و أبو جورج مشهور بها هي و الچلفراي. يسمعان أبو جورج يرحب بهما بصوت ثَخُنَ بتأثير الإسراف في شرب العرق و التدخين و بلكنةٍ ما تزال تأثيرات لغته الآرامية واضحة عليها:

- هله بشمران! . . شجابك؟ . . هاي وين چنت؟ . . شنو هالغيبة الطويلة؟ . . لو إحتمال كبة حنا اللي بالعربانة صارت أقربلك!

طالما تمنى شمران أن يجد أبا جورج و لو مرة واحدة صاحيا و لا تخرج الكلمات من فمه و كأنها جمر يتناثر من بين عينيه الجاحظتين المحمرتين أبداً . . و شمران كأنه يعلم علم اليقين بأن خبر فراره من المدينة لا بد و أن يكون وصل الى أبي جورج، فضحك و رد:

- مسافر؟ . . خارج بعگوبة!

و يطلق أبو جورج ضحكة مجلجلة تودي به الى نوبة سعال طويلة، فيضيف شمران:

- أبو جورج . . هذا حال الدنيا! . . من تخلص من الغصة مالتك و يرتاح صدرك گوللي . . عبد كولونيا يمّك؟

و من بين سعلاته المتقطعة يجيب أبو جورج:

- وين يروح! . . هذا البيك ماله هنا . . راح أجرة للهويدر و يرجع . . تاكلون شي؟

- إي . . آني أريد كبّاية چبيرة قلي . . و إنت مرهون؟

و يطلب مرهون مثلما طلب خاله، و جلسا بإنتظار كبة أبي جورج و عبد كولونيا.

يجهز طعامهما و يشرعان يأكلان . . صوت محرك سيارة تتوقف في الشارع. بعد دقيقة يدخل عبد كولونيا، و يراهما و يرحب:

- هله بأستاذ شمران! . . الحمد لله على سلامتك! . . ملعون أبو السياسة! . . مرهون عمو شلونك؟ . . ألف رحمة تنزل على روح غايب حبيبي و صديقي!

يرد مرهون:

- شكرا عمي عبد.

و بسؤال من شمران:

- خويه عبد . . عندك خبر وين إحتمال نعثر على هاني ميرخان؟

ذكاءٌ فطري . . كأن عبد أدرك بأن فحوى سؤال شمران هو . . أهو في البستان أم في مكان آخر؟ . . متناولا رشفة من كأسه الموضوع على

طاولة صغيرة جانبية، يجيب عبد:

- بالحقيقة . . همَّ صارو يجتمعون بالبستان بس ليلة الجمعة . . يعني باچر . . و اللي يوديهم هو آني . . و باقي أيام الأسبوع يروح هاني يتيه بواحد من أماكن بعگوبة اللي بيهه عرگ . . نادي النقابة . . نادي الموظفين . . نادي المهندسين . . بمحل أبو ناظم إحتمال!

- إذن تخلص پيكَك . . و تودينه أول شي لأقرب مكان من هذني اللي ذكرتهن!

- تقصد نادي نقابة المعلمين؟

- نعم! . . تودينه جولة . . و ما نتوقف غير بالمكان اللي راح نعثر بيه على هاني ميرخان!

- صار . . و الپيك مو شرط يخلص . . من أرجع أكمل!

و كعادة شاربي العرق التقليديين في شربهم للخمرة برشفات صغيرة جدا، يرتشف عبد من كأسه القليل، و يسبقهما خارجا، و هما منشغلان بغسل آثار الطعام .

*****   *****   *****

جولة عبد كولونيا بهما لم تسفر عن شئ. بار أبي ناظم آخر محطة تتوقف عندها سيارة عبد كولونيا في شارع المحطة مقابل مدرسة التطبيقات النموذجية . . ينقد عبد أجرته و يتمنَّع كثيرا عن أخذها، فيلزمه شمران بأخذها و يشكره و يخبره:

- عبد . . بكل الأحوال . . إحنه راح نبقى هنا!

- إذا ما لگيتو هاني هنا . . تريدون أخبره أنتو سألتو عنه أو آجي آخذكم للبستان باچر؟

آه! . . ها هو عبد كولونيا يكشف عما غاب عن بال شمران، فيرد

شـمران فـوراً:

- لا . . لا . . لا! . . عبـد إذا تشـوفه . . أرجـوك لا تنطيـه خبـر إحنـه سـألنا عنـه و نريـد نشـوفه! . . و لا أيضـا تـگـوله إحنـه جايين للبسـتان حتـى نشـوفه! . . صـار؟

- صار!

- كلام شرف؟

- كلام شرف.

- و إحنه باچـر نـگدر ندبر أمورنه بموضوع واسطة النقل للبستان!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

الضوضـاء و دخـان السـگـائر يمـلأ فضـاء المـكان . . ثمـة مـن بيـن السـكارى مـن يترنـم . . طـاف السـقاة بهـا مـا كان أزكاهـا . . أيـا ندامـى أراح أم حمياهـا . . و بالضـوء الكابـي الممـزوج مـن نـور مصابيـح متعـددة الألـوان، يراهمـا أبـو ناظـم و يُـهرع إليهمـا مـن وراء كاونتـر الخدمـة، فيحضنـا بعضهمـا و يعانقـه صاحـب المحـل مهنئـا علـى سـلامة الخـروج مـن محنـة الجريـدة . . يـا لبعقوبـة! . . و يعاتبـه أبـو ناظـم علـى غيابـه الطويـل عنــه، فيتـذرع شـمران بإنشـغالاته الكثيـرة. يأخذهمـا أبـو نـاظـم الـى كاونتـر الخدمـة ليجلسـا قريبـا منـه علـى المقاعـد العاليـة الموضوعـة أمـام الكاونتـر، و يسـأل:

- . . منو هالأسمر الحليو اللي وياك؟

- مرهون إبن أختي . . إبن غايب مرهون.

- آه . . كازينو أم كلثوم!

- إيام زمان.

- شتشربون.

- آني شخصيا . . أريد واين . . شراب . . و ما أعرف مرهون يشرب لو ما يشرب!

يرد مرهون:

- شربنا أربع لو خمس مرات بيرة . . آني و أحمد و حسين . . و هسه ما أدري!

فيعقب خاله:

- إشرب . . أيها الفتى . . اليوم خمر و غدٌ أمر!

و يعلق أبو ناظم:

- مو أمر واحد . . باچر عشرات المصائب تنتظر بالطريق! . . عندي شراب أبيض نمساوي . . طعمه مثل الشمبانيا!

و يرتقي أبو ناظم سلما قصيرا بثلاث دكات و يجلب قنينة الشراب ليضعها أمامهما ماسحا عنها الغبار بوصلة قماش، و يعلق شمران:

- حيل . . هذي القناني شبعانة تراب!

- هنا منو يعرف شنو واين! . . شنو شراب! . . شنو شمبانيا! . . قسم منهم حتى الويسكي ما يعرفونه . . تخيل . . أول ما تعلمو يدخلون بارات چانو يسمون الويسكي عرگ أصفر! . . و فد واحد مرة سألني . . همَّ ليش صابغينه للعرگ أصفر؟ . . شوفهم كلهم سواق پيكاپات . . راح زمان العرباين الربل و جانا زمن الپيكاپات! . . آني جبت كل هذي الأنواع من المشروبات و في بالي راح يلفي عندي جمهور عنده ذائقة بالشراب . . بس هاك شوف بعينك . . ما چان في بالي راح يجيني جمهور بس يريد يسكر!

و يتوقف أبو ناظم عن الحديث، حين عاود زبون أحد الموائد الغناء . . حديثها السحر إلا أنه نغم . . جرى على فم داود فغناها . . نامت الناس و عيني ما خذت نوم . . أريد آخذك و إنهزم لبلاد الروم . . و تصرخ

الصالة كلها . . اللـــــــــــــــــــــه! . . اللـــــــــــــــــــــه! . . ال لـــــــــــــــه !

ضحكٌ عند الكاونتر . . و يعلق شمران بمرارة:

- يا لبلاد الروم تلك! . . قِبلة الفارين من الضيم! . . كل أهل بعگوبة يريدون يروحون لبلاد الروم!

و يعقب أبو ناظم:

- أستاذ شمران . . هذي الصالة نص الميوزة اللي بيهه قرويين و نص الآخر من أهل المدينة . . ذاك الميز اللي چان يغني يوسف عمر هو الوحيد اللي عليه سكارى من شباب بعگوبة المضنوكين و المتورطين . . بس الباقين كلهم تقريبا عربان پيكاپ و زناگين هالأيام من المدينة!

ثقافة أبي ناظم مردها لإعتياد الرجل على القراءة، عادة اليساريين القدامى . . و أيام إعتقالهما في شباط 1963، تأخر إطلاق سراح أبي ناظم لسنة على الأقل بعد إطلاق سراح شمران، فنمت بين أسريتهما علاقة إنسانية، العون أثناء المحنة . . و يروح شمران ليصغي لصديقه أبي ناظم يكرر:

- شباب مضنوك . .

و يقاطعه شمران معلقاً:

- . . عمي أبو ناظم . . و هذا مرهون واحد من الشباب المضنوك!

- شلون؟

متأملا مرهون و قد رفع للتو كأسه ليرتشف بعضا من شراب حلو المذاق، يعلق أبو ناظم بفضول واضح:

- هذا شعرك مگصوص گصة مال جندية!

- بلي!

يغمض أبو ناظم عينيه أسفا و رثاءً و حزناً . . و يقول شمران:

- لهذا السبب . . ما أدري الى أي حدّ أگدر أطلب منك عون!

- اللي أگدر عليه!

و تأتي صرخة من الصالة:

- أبو ناظم . . الحساب!

و يعلق أبو ناظم:

- هاك . . شوف . . هذا جمهور الصالة! . . عربان يجون من وقت العصر يسكرون و يرجعون للقرية ورا المغرب بساعة!

يناول أبو نظم الفاتورة للعامل المنشغل وراءه ليذهب بها الى الميز . . و يسأل أبو ناظم:

- ما گلتلي نوع العون اللي تريده!

و تأتي صرخة من الصالة:

- و داحي باب خيبر إنت ما تدفع الحساب . . إلا آني أدفعه!

و يرد آخر عليه:

- أگلك . . و الله و كرامة كل شيوخنه . . إلا آني أدفع! . . و إذا تسويهه أزعل عليك و آخذ حَشَم!

و لكي يفضَّ نزاع القسم بين السكارى، و قد إعتاد أبو ناظم على هذا، يرفع ذراعيه نحو الصالة، معلقا:

- هاك شوف! . . سكارى مال هالأيام!

يلتفت شمران، فيرى رجلين كليهما ممسك بعامل الصالة من إحدى يديه مواصلين إطلاق القسم المقدس، و يسمع أبو ناظم يضيف:

- هاك شوف! . . هاذي حكاية كل يوم! . . هذوله شيسوون بالشيوعية؟ . . و بيش يحتاجون الشيوعية؟ . . الفگر الزايد خراب! . . و الرفاهية الزايدة خراب! . . و ين راح نِلگه التوازن؟ . . ويه الفُگُر تطلع الحاجة للشيوعية . . و يه الرفاه الزايد الشيوعية ما يبقالهه دور! . . الشيوعيين مُناهُم چان على طول يريدون يصيرون للناس . . بس ما وگع بإيدهم! . . و لا راح يوگع بإيديهم! . . الشيوعية صارت حاجة ثقافية مو معاشية . . و المثال إبني ناظم . . ياكل و يشرب و و يسكر و جبتله نثية يتونس بيهه . . و خابص نفسه بمقالات عن الشيوعية! . . شيسوي بالشيوعية و هو عايش برفاهية؟ . . و إنت تشوف بعينك صدام لازم النفط بيده و يوزع فلوس يمنة و يسرة . . قروض . . سيارت للفلاحين . . و لأهل الصنايع . . يزيدون الرواتب . . يوزعون قطع أراضي . . ينطون قروض بناء . . و يوفرون وظائف حتى للمعوقين! . . مخلين الثروة تجري بالشارع . . و الناس شيريدون غير الفلوس! . . شيسوون بالشيوعية إذا توفرت فلوس؟ . . و هذوله اللي مثل هالحليو الأسمر اللي جدامي يروح دمه هدر! . . ها شمران؟ . . لو همين راح تگوللي . . ما بالخبز وحده يحيى الإنسان!

يضحك شمران بمرارة . . و السكارى المختلفون على من سيسدد فاتورة الحساب ما يزالون يحلفون بأغلظ الأيمان، فأضطر أبو ناظم مخاطبتهم بأعلى صوته:

- يا جماعة! . . يا جماعة! . . لا تخلوني بالتالي أحلف بالمسيح . . و آني أدفع الحساب! . . يا جماعة ميزكم گاعدين على ست نفرات . . تقاسموا! . . و هيچي كل واحد منكم راح يطلع خواردة صايح وير على إثنين من جماعتكم . . يصير لو ما يصير؟

إقتراح أبي ناظم يخفف من الضجة في الصالة، يخاطب أبو ناظم شمران سائلا:

- أي! . . و هسه؟

- عمـي أبـو ناظـم . . هـذي مقولـة لا بالخبـز وحـده يحيـا الإنسـان أُسـتهلِكت! . . بـس هـذا . . أقصـد موضـوع الثـروة اللـي تتدفـق بالشـارع . . يـا صديقـي أبـو ناظـم إحتمـال يكـون فـخ! . . تذكـّرنا بصعـود هتلـر! . . هتلـر گبـل مـا يـودي الألمـان الـى حـرب بشـعة طوّلـت ست سنين ظـل يـوزع مكاسـب علـى الجمهـور لدرجـة إن البطالـة فـي ألمانيـا صـارت صفـر . . اللـي يجـري هنـا شـئ شـبيه بـذاك . . و مثـل مـا تـگـول . . سـيارات پـيكاپ يوزعونهـا للفلاحيـن و لأصحـاب الصنايـع . . قـروض طويلـة الأجـل لـذوي المهـن و الصناعـات . . إغـداق حتـى علـى الطلبـة . . شـراء لذمـم المثقفيـن . . غيـاب يـكاد يكـون شبه كامـل للبطالـة . . و بعـد هـذا . . مثـل مـا گـلِـت إنـت . . شـنو حاجـة النـاس للشيوعية . . و لكـن شـنو اللـي مـا يخلـي كل هذولـه المـُغدَقين بالثـروة مـا يتحولـون الـى أدوات بيـد هتلـر القـادم! . . منـو المسـؤول عـن إطـلاق الثـروة تجـري بالطرقـات؟ . . و إذا الثـروة تجـري بالطرقـات شـنو حاجـة النـاس للثـورة بعدئـذ؟ . . و منـو اللـي يـدرك هـذي الحقيقـة و عنـده الجـرأة يصـارح بيهـه؟ . . لا بـد مـن تحقيـق زعزعـة بالمفاهيـم! . . لا بـد!

و هـا هـو مـا يقولـه يختلـط عنـده بمـا رآه عصـرا و هـو فـي مقهـى جبـارة المعيـدي . . سيارة الپـيكاپ و مكبـر الصـوت يدعـو فيهـا النـاس الـى حملـة فرهـود لثلاثـة دكاكيـن فـي بعقوبـة . . و يستفسـر شـمران:

- بالمناسـبة . . سـمعت عـن هالدعـوة لحملـة فرهـود فـي المدينـة علـى ثـلاث محـلات مـال مـواد غذائيـة لـو مـا سـمعت؟

- مـو سـمعت! . . شـفت بعينـي! . . وقـت المغـرب السيارة وگـفت هنـا أمـام المحل.

- و الغريـب . . حسـب مـا سـمعت . . أصحـاب الدكاكيـن اللـي راح تتفرهـد كلهـم مواليـن للبعـث!

- شـنو قصـدك؟ . . الشـغلة مسـرحية؟ . . أو مثـل مـا يـگـولون النـاس . . مرندجـة؟ . . سـيناريو! . . مثـل سـيناريو تصفيـة اليهـود . . أو سـيناريو المصـارع عدنـان القيسـي . . أو سـيناريو أبـو طبـر!

- بس شنو الحكمة منها أبو ناظم؟

- بسيطة! . . نـگـدر نحللهـه . . هـمّ تجاوزو مرحلـة تعويـد هـذا الشـعب علـى كتابـة التقاريـر عـن خصومهـم . . الحكمـة مـن هـذي شـغلة الفرهـود يريـدون يشـوفون الـى أي حـد وصّلـوه لهـذا الشـعب بعـد مرحلـة تعليمـه الـدس و النميمـة و الغدر بكتابـة التقاريـر! . . وصّلوه الى درجة يـگـولوله روح أسـرق؟ . . و يـروح يسـرق و يحلـل السـرقة! . . روح أقتـل؟ . . و يسـويهه و يـروح يقتـل و يبـرر القتـل! . . و لعلمـك هـذي كلهـا مؤشـرات التهيئـة و الإعـداد لحـرب مـن نـوع مـا؟

- حرب!

- أي حرب . . لو بالداخل . . أو حرب برّانية!

- و علـى رأيـك منـو يـدري! . . يحضـرون لحـرب بالداخـل أو لحـرب بالخـارج . . منـو يـدري؟ . . و يجـوز يحضّـرون للحربيـن . . لأن آنـي و إنـتَ و النـاس اللـي مثلنـا دئمـا يحاولـون يسـوون منطـق للوضـع اللـي مـا لـه منطـق! . . و هسـه نرجـع الـى موضوعنـا اللـي قطعـوا هذولـه العربـان علمـود دفـع الحسـاب!

إيمـاءة مـن شـمران نحـو العامـل العائـد بالحسـاب . . و يفهـم أبـو ناظـم و يطمئنـه بإشـارة مـن رأسـه، فيقـول شـمران بصـوت يشـبه الهمـس:

- أريـد أعـرف إذا كان ممكـن . . نعثـر علـى طريقـة نهرُّب بيهـه مرهـون الـى الخـارج . . أقصـد عـن طريـق مناطقكـم . . القـوش . . عينـكاوة . . و مـا الـى ذلـك!

أبـو ناظـم لا يجيـب و يكتفـي بإفـراغ مـا تبقـى مـن الشـراب النمسـاوي فـي قدحـي ضيفيـه . . و يعلـق شـمران:

- شـكرا . . فعـلا طعمـه لذيـذ مثـل مـذاق الشـمبانيا! . . بالمناسـبة . . بيـش القنينـة؟

- بدينار بس!

و لهول ما سمعه من خاله، و لكي يهضم ما سمعه، تناول مرهون كأسه و كرعه دفعة واحدة. يراه أبو ناظم و يصعد ليجلب قنينة أخرى من الشراب ذاته، مسحها من الغبار و فتحها ليسكب منها لمرهون و يضعها أمامهما. و يخرج أبو ناظم من وراء الكاونتر ليأخذ جولة في الصالة. بدى أبو ناظم بحاجة لوقت كافٍ يقلّبُ فيه ما طلبه شمران منه . . و بعودته يسأل مرهون:

- مرهون . . أريد أعرف . . يعني إنت هسه فار من الجيش بسبب هالوضع؟

يرد مرهون:

- لا . . أبدا . . آني مو فرار! . . أروح للمعسكر . . عادي!

و يعقب شمران:

- لا . . عمي أبو ناظم . . مستحيل . . مستحيل يسويهه و يفر من الجندية و يبقى هنا رايح جاي . . و يصير مصيدة بنقاط التفتيش و مفارز إنضباط الجيش . . آني أفضل يبقى يداوم بالمعسكر . . و إذا ترتبت شغلة فراره خارج الوطن . . بوقتها نتوسط حتى ناخذ له إجازة إسبوع . . و هيچي راح يگدر يتحرك و يعبر نقاط التفتيش بنموذج الإجازة . . الى أن يكون في بر أمان!

و يعقب ابو ناظم:

- أستاذ شمران . . كلش صعب . . راح أحاول . . بس أحتاج وقت!
- أخذ وقتك . . بس كلما تترتب الأمور بوقت أبكر راح يكون أفضل!
- أحاول!
- بالمناسبة . . آني حتى نسيت الشغلة الثانية اللي جابتنه حتى نشوفك!

- اللي هي؟

- هذا هاني ميرخان يجي هنا؟ . . يتردد على المكان؟

- هذا الفارسي القومي العربي؟

يضحك شمران للمفارقة، و يضيف أبو ناظم:

- يجي . . مرة لو مرتين بالشهر!

يخرج شمران حافظة نقوده . . يراه أبو ناظم و يعلق:

- رجِّع محفظتك لجيبك . . حسابكم على الأوجاغ! . . بالمناسبة . . إذا هذا الشراب عجبك . . أكو منه عندي هذي على الرف أربعين قنينة . . هذوله العربان ما يعرفون هيچي رفاهية! . . جيب سيارة و أخذهن هدية أحسن ما يشبعن تراب!

- صديقي أبو ناظم . . عندي حل أفضل . . حطلي خمس قناني منهن بكيس و هذي خمس دنانير . . و إلا أفضِّل أمشي بدونهن! . . حتى أخلي في بالي كلما أجي يمك آخذ منهن خمس قناني و أخلصك منهن!

- * * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

ما يزال ما قرأه شمران عن فرهود بغداد عام 1942 عالقا بذاكرته غائما و مشوشا، فخياله لا يسعفه كفاية ليتصور ما حدث على الرغم من رؤيته لبعض صور قديمة في صحف تلك الآونة عن الغزوة التي قام بها العوام من البغداديين على ممتلكات اليهود و تهديد حياتهم في حملة جيشتها عليهم المراكز الدينية و القومية المتطرفة إحيانا لإستعادة مجد الغزوات في سبيل الله و القتل في سبيله و السبي في سبيله و السرقة في سبيله. و لم يكن شمران ليتصور بسهولة معنى مفهوم الفرهدة على أرض الواقع . . فأي المواقع سيختار من المواقع الثلاثة التي أعلنت بالأمس أهدافا للغزاة في سبيل الله، كي يتسنى له رؤية مشهد فرهدة حي؟ .

. قنطرة خليل باشا . . أم التحرير . . أم المفرق؟ . . و لأنه توقع بأن السيناريو سيكون واحدا في المناطق الثلاثة، سيختار الأقرب . . غزوة محل عبد القادر البدري عند قنطرة خليل باشا . . الشروع بالغزو سيبدأ الساعة الحادية عشرة فمتى يذهب؟ . . قرر أن يكون قريبا من موقع فعالية الفرهدة بساعة قبل الموعد كي لا يفوته شئ من المشهد و يلِّم إلماما كافيا بالمجريات، فيقرر الخروج من البيت في الساعة العاشرة و النصف.

عَبَرَ الشارع من أمام البيت، مُتخذا رصيف الشاخة في صوب السراي مسارا بإتجاه الشمال الى منطقة السوامرة. متهاديا في مشيته، إجتاز منطقة السوق. مجتازا المنطقة المقابلة لجامع الشاهبندر، و ها هو يتباطأ عند المنطقة المقابلة لشارع محلة القيصرية، و يتوقف ليتطلع من بعيد الى موقع الدكان هدف الفرهود. لاحت له من بعيد لافتة عريضة جدا معلقة على المحل تعسَّرَت عليه قراءة ما مكتوب عليها . . و جلبت إنتباهه جمهرة صغيرة من الناس واقفة على الرصيف المقابل للمحل. فضَّل الإقتراب من المكان كي يكون المشهد أوضح، فمشى بخطوات وئيدة، يتفرج في هذه الأثناء على التوافد المتواصل للجمهور من كل الإتجاهات. البعض منهم يمرون من قربه و يتوجهون حيث مكان التجمهر. عند وصوله الجهة المقابلة لشارع محلة الفايزية، من هناك صار المشهد أوضح، فإنتبه الى وجود سيارة صغيرة عند رأس قنطرة خليل باشا من صوب التكية يتكئ عليها شابان يوجه أحدهما الجمهور الوافد للتوجه الى مكان التجمهر الذي تجاوز عدد الناس فيه العشرات. و إنتبه أيضا الى وجود سيارة أخرى شبيهة بالأولى، هي الأخرى يتكئ عليه شابان يشيران كلاهما الى الجمهور الوافد من جهة صوب التكية و منطقتي أم النوة و جرف الملح . . عدد الجمهور ينمو و بعد قليل سيبلغ عدد الحشد مئاتٍ، فيحجب رؤية الدكان . . و ها هو شمران يتقدم أكثر بإتجاه القنطرة و يضطر الى الصعود على دكة مسناة الشاخة المجاورة للقنطرة ليحصل على إطلالة أكبر، فيرى أحد شابي السيارة القريبة يتوقف في منتصف القنطرة ليقطع الطريق على السيارات القادمة من جهة الغرب من ناحية مدرسة الوثبة، و لا بد أن يكون شخص آخر فعل الشئ ذاته ليقطع الطريق على السيارات القادمة من جهة الشرق من ناحية مدرسة

الأمين . . و من هنا بان له بوضوح ما مكتوب على اللافتة المعلقة على المحل و قرأ: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة . . لا يحتكر إلا خاطئ.

الجميع بإنتظار ساعة الصفر. . الغزاة على الباب و المضارب تنتظر بخزينها من كل شئ إلا السبايا! . . ساعة الغزو المعلنة بالأمس تدنو و لم يسمع الجمهور ساعة الصفر . . و تمضي نصف ساعة و لم تطلق صافرة السباق! . . الجمهور المحتشد يتململ . . و التململ و فقدان الصبر يزداد شيئا فشيئا . . و ها هو صوت قارئ القرآن من مكبرات جامع الشاهبندر يصل ضعيفا تهيئة لصلاة الجمعة . . و قبيل الثانية عشرة بدقائق ها هم يأتون بصاحب المحل مجلوبا من سيارة الأمن الصغيرة البعيدة ليفتح محله و يوقفونه على بعد أمتار عن محله أمام البيت المجاور للمحل كي يتفرج بنفسه على وقائع الغزوة ضد مضارب رزقه . . و ها هي الإشارة لبدء حملة الغزو و الفرهود يسمعها الجمهور الذي نفذ صبره . . تصل الإشارة الى الحشد برجاله و نسائه و أطفاله لبدءِ الغزوة . . صرخة الحرب يهدر بها حشد العوام . . هلهولة للبعث الصامد! . . هلهولة للبعث الصامد! . . و من مكانه على دكة الشاخة، مضارب الغزوة تتجلى لشمران بمحلٍ مليءٍ بأنواع البضاعة . . و تعجز مهارات شمران الوصفية بالكامل عن إستحضار الكلمات و إنتقائها لتوصيف ما يجري أمامه لنفسه لا لغيره . . حشد الغوغاء لا تعوزه الهمة و الغاية و الهدف! . . و ينتبه شمران لسيارة لاندگروزر مخصصة لمقرات حزب البعث تأتي من جهة مدرسة الوثبة و تتوقف في منتصف قنطرة خليل باشا و ينزل منها رجل ثلاثيني يحمل كاميرا فيديو ليصور الحدث. و يجلب إنتباهه أيضا شابيّ السيارة الصغيرة الواقفة في رأس القنطرة يُهرعان نحو شاب يصور بكاميرا صغيرة، ينهالان عليه صفعا و ركلا و يسحباه و الكاميرا لحشره في سيارتهما . . و ها هو المشهد يضطرب . . الكتلة البشرية تدوس على بعضها البعض . . تمر دقائق و يخرج هذا دائسا على العشرات يحتضن كيس سكر . . و دقائق أخرى تلك تخرج هادرة كأنها دبابة لتدوس على من أمامها محتضنة كارتونة علب معجون صغيرة . . و ذاك غَنِمَ عُلبتي مربى . . و تلك غنمت صابون . . ذاك مسحوق غسيل . . تلك معها كيس رز . . و ذاك عدس يسفي بين قدميه . . و ذاك طفل ببسكويت . . و تلك طفلة بتكة سگائِر . . شخاط . . و غيرها . . و عند

نفـاذ مـا موجـود و مـا يـزال العشـرات متكومـين فـوق بعـض ممـن تخلفـوا بخفـي حنيـن، يشـتمون بعضهـم بعضـا و يـودون لـو ينكحـوا المحتكـر لأن دكانـه لـم يوفـر غنائمـا للجميع و يلعنـون الغـزاة الطمّاعيـن الذيـن فـازوا بـكل شـئ و لـم يتركـوا لغيرهـم مـن المؤمنيـن بالغـزو شـيئا . . الغنائـم الموجـودة لا توفـر عدالـة فـي التوزيـع لجمـع الغـزاة! . . الـدكان بـات خاليـا مـن الغنائـم و مـن تخلـف عـن الوصـول الـى مغنـم ينـدب حظـه بحثـا عـن فـردة حـذاء ضاعـت منـه فـي خضـم الغـزوة أو فـردة نعـال أو يشـماغ أو عقـال أو عبـاءة نسـائية . . و يـرى شـمران رجلـي الأمـن فـي السـيارة البعيـدة فـي صـوب التكيـة يقتـادان صاحـب المحـل مـن جديـد ليحشـراه فـي سـيارتهما و ينطلقـا بهـا عابريـن قنطـرة خليـل باشـا وراء السـيارة الصغيـرة الأخـرى التـي سـبقتهم و أمامهـا سـيارة اللاندگـروزر الحزبيـة . . لأي غـرض يجـري إعـداد هـذا الجمهـور مـن أولئـك العـوام؟ . . أيـة حكمـة يبغيهـا الماكـر بحشـد العـوام؟ . . و نسـمع النـاس يشـتمون ميكافيللـي لظنهـم بأنـه يوفـر للحكام آليـات التحكـم بالجمهـور! . . مـع أن ميكافيللـي لا ذنـب لـه سـوى أنـه قبـل طلـوع علـم النفس الـى الوجـود بقـرون حـاول وصـف نفسـية الحاكـم و هـو يربـي جمهـورا مـن هـذا النـوع . . و لـم يبخـل ميكافيللـي بوصـف محكوميـن مـن هـذا النـوع! . . و الحشـد الغـازي ينفـرط عقـده بإتجاهـات مختلفـة، كان صـوت إمـام جامـع الشـاهبندر . . الصـلاة جامعـة . . الله أكبـر!

و ليـلا ستنبـثّ إشـاعة عـن أن السـلطات الأمنيـة لـم تكـن لتقتـاد أصحـاب المحـلات عنـد إنفضـاض حشـد المـُفرهِدين إلا لكـي تُكتـب لهـم فـي اليـوم نفسـه مسـاء شـيكات بمبالـغ تقديريـة للبضاعـة التـي فُـرهِدَت مـن محلاتهـم . . و يتذكـر شـمران حديثـه مـع أبـي ناظـم فـي ليلـة فائتـة . . و ختـام السـيناريو توقعـات عمـن سيكون الخـروف القـادم؟ . . و أي نـوع مـن الحـروب ستشـن ليكـون حشـد الفرهـود بيادقهـا!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

مضـت سـاعتان أو أكثـر منـذ أن أرخـى ليـل الخميـس سـدوله علـى مدينـة بعقوبـة و البسـاتين المحيطـة بهـا. أتيـا ليتنـاولا عشـائهما عنـد أبـي جـورج علـّهما يجـدان تاكسـي يذهـب بهـم الـى بسـتان حسـين گـطمة . . و هـا هـي

سيارة جمولي الشوفروليه الخمسينية متوقفة أمام المحل. يدخلان فيجدان جمولي يرتشف خمرته مع أبي جورج، و و إعتاد جمولي أن يأتي هنا في الليالي التي يغيب فيها عبد كولونيا عن المكان . . أبو جورج لا يعدم النديم! . . بعد ربع ساعة كان شمران و مرهون عند باب بستان عباس شحاذة، و أمامهما أحمد شحاذة مشغولٌ بطرطقة مفتاح باب البستان بهدي نور آتٍ من مصباح يدوي يحمله مرهون . . و ينفتح الباب و ينسرح أمامهم . . نباحُ الكلاب و ضباحُ بنات آوى يتناوبان الدور لتبديد صمت فضاء ليل البساتين. النسمةُ نشطةٌ، البعوض يمرق على الوجوه و اليدين و يشغل الرجال الثلاثة عن موسيقى جوقة الضفادع . . و يتذكر شمران ثلة الصبيان الذين طلب منهم في درس اللغة الإنكليزية تمثيل أصوات جو الغابة فخلقوا جو غابة في حينها و أمتعوه بأدائهم . . و يضحك و لا تبدد ضحكته الظلمة و لا القلق الذي يساوره و لا الكدر المتمكن من روحه.

في الدارة الصغيرة . . يُخرِجُ أحمد فانوس اللوكس و ينيره واضعا إياه على طبلية أمام باب الدارة كي يبعد به الحشرات عن مكان جلوسهم، و يستفسر:

- خالي شمران . . تشربون چاي؟

يرد شمران:

- أكون ممنون . . الچاي ضروري بعد وجبة الچلفراي يم أبو جورج!

بإنتظار إعداد الشاي، يستفسر شمران:

- مرهون . . إنطيت لأحمد معلومات عن اللي رتبناه يم أبو ناظم؟

- إي.

- و إنت مستعد؟

يبادر أحمد بالإجابة:

- خالي شمران . . شلون يخطر في بالك هو ما مستعد؟ . . هو لازم يكون مستعد . . لأن هو شكو أمامه غير أن يكون مستعد! . . و آني سعيد لإن إنت عثرت على حل من هالنوع!

- زين . . خلونه نراجع الموقف بأكمله قبل ما نروح نعبر للبستان المجاور . . و بالتحديد شراح نسوي ويه هاني ميرخان!

يجهز الشاي، و هم يحتسونه يراجعون الموقف . . و ينهضون متحركين على هدي نور المصباح اليدوي بإتجاه الفتحة بين بستاني عباس شحاذة و حسين گطمة . . يدنون أكثر فيصير نباح الكلب في بستان گطمة بالتدريج أقرب و أعلى . . و هو يسير حذرا يسمع مرهون هسيسا صادرا من بين العشب الطويل و الدغل القصير المتحرك أمامهم، و يتذكر حديث أحمد عن عرابيد البستان، فيوجه نور المصباح نحو قدميه، و يستفسر من صهره أحمد:

- أحمد . . إذا وصلنا للفتحة شراح نسوي ويه هذا . . چلب خالك حسين الأمعط؟

- مرهون . . لا تستعجل . . خلينه هسه نوصل للفتحة!

يقتربون من الفتحة، و ينادي أحمد بأعلى صوته:

- خـــــــالي حسيـــــــــــــن!

و يكرر نداءه ثانيةً . . و ثالثة . . و أثناء مناداة أحمد يتذكر شمران عبيد الصباغ، و برابخ البساتين التي تعبر منها الكلاب و الواوية و الخنازير و غيرها من الكائنات . . و البساتين ما بيهه ضباع؟ . . و يتأمل في جنح الظلام الفتحة الضيقة بين البستانين، و يحدث نفسه . . هذا بُربُخ مال أوادم!

و يسمعون الرد من قلب البستان المجاور:

- جـــــــــاي! . . جـــــــــاي!

و ها هم عند الفتحة، فيتوقفون، و صوت نباح كلب البستان المجاور يعلو و يعلو بإقتراب حسين أكثر و أكثر داخل بستانه من الفتحة . . بعض زهر فاكهة الصيف متخلفٌ على أغصان الأشجار يبدو بألوان فاقعة بسبب قلة النور . . زهر الرمان . . الخوخ . . المشمش . . التفاح . . العرموط . . حباة التين الصغيرة . . و سرعان ما رأو من خلال أغصان الشجر ضوء يترجرج بين الأشجار و يزداد سطوعا بإقتراب حامل المصباح نحوهم . . و تمر دقيقان و على هدي نور المصباح الذي وجهه مرهون نحو القادم، سيظهر حسين گطمة يحمل مصباحا بيد و باليد الأخرى يحاول كبح الكلب . . توقف قريبا منهم، مهدئا الكلب . . نوع مخيف . . وولفدوغ! . . و متطلعا للوجوه واحدا واحدا . . أثرُ الخمرة واضحٌ في نبرة حسين گطمة حين تحدث:

- أستاذ شمران! . . شنو هالشرف الچبير اللي نزل على البستان الليلة! . . و ياك أحمد إبن أختي؟ . . و هذا مرهون إبن المرحوم همين وياكم؟ . . يا هلة و مرحبة! . . تفضلو!

و يبادر أحمد معلنا:

- خالي حسين . . أستاذ شمران . . يريد يشوفك . . يحتاج إستشارة منك!

- على عيني . . حاضر!

و يعقب شمران:

- مو إستشارة واحدة . . شوية إستفسارات!

- هلة و مية هلة . . حاضر . . إمشوا ورايه رجاء . . الى أن نوصل للغرفة.

- * * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

شمران يتقدم الجميع بالدخول الى غرفة تركت عنده منذ اللحظة الأولى

إنطباعا مريحا عن صاحب المكان . . كان هاني ميرخان و عبد كولونيا هناك. بإلقائهم السلام، و على النور القادم من فانوسي لوكس موضوعين في الخارج كلا وراء نافذة من نافذتي الغرفة العريضتين في جانبيها، سيلاحظ شمران بوضوح إنكماش هاني ميرخان و تبدل سحنته بإغماض عينيه و سحبه نفسا عميقا حين رآه يدخل يتبعه صاحب المكان و الشابان، لدرجة أنه تكأكأ أثناء رد السلام. و يرحب عبد كولونيا بالقادمين ترحيبا دافئا. بعد جلوسهم، تروح عينا شمران تستطلعان المكان . . غرفة تشبه الصالة الصغيرة و قد إنتشرت فيها مقاعد صغيرة مصنوعة من جريد النخل تتخللها مناضد من الجريد . . و في الزاوية حيث كان الثلاثة يحتسون خمرتهم، ثمة طاولة كبيرة من جريد النخل. لا بد أن يكون أثاث الجريد هذا مجلوبا من قرية الهويدر! . . و ثمة دولاب خشبي صغير نوع أبو السيم بانت فيه من وراء شبكة السيم بعضُ قنانٍ. و على جدار قريبا من باب الغرفة عُلقت بندقية صيد تحيط بها من جهاتها الأربع قطعُ بُسُطٍ صوفية صغيرة محلية الصنع و خِراجٌ صغيرة بكراكش ملونة محاكة جميعا من الصوف . . و على الجدران الأخرى علقت بعض الزنابيل المصنوعة من خوص سعف النخيل الملون لغرض الزينة. و يشرع حسين بالحديث:

- . . يا هلة و مية هله . . يلله أستاذ شمران . . كلشي جاهز! . . موجود عرگ . . و إذا ما يعجبك عرگ . . عندي بُطـُل ويسكي مخلي للخطار! . . و المنقلة جاهزة ورا الغرفة . .

و قبل أن يجيب شمران، ينهض هاني ميرخان ينوي التوجه الى باب الغرفة مستأذنا:

- أبو علي . . تراني اليوم وضعي مو تمام . . تسمحولي أغادر!

فيعقب شمران فورا:

- لا . . أستاذ ميرخان . . إذا مو زحمة عليك أگعد . . تنتظر شوية لأن آني محتاج إستشارتك!

و يتلكأ هاني بالعودة الى مقعده، و يجلس و بأصابع يده راح ينفش شعره اللمّاع بضوء اللوكس القادم من خارج الغرفة . . و يلح حسين بالسؤال:

- ها؟ . . أستاذ شمران ما گِلِت شيعجبك تشرب! . . و ما عندي فكرة عن الشباب . . يشربون؟ . . ما يشربون؟

يعقب أحمد:

- لا خالي! . . شكرا . . آني ما أريد . . و ما أدري برغبة مرهون!

و بحركة من رأسه يعبر مرهون عن عدم رغبته، و يرد شمران على حسين:

- وياكم . . حاطين عرگ . . أشرب عرگ! . . هذا مستكي صرمهر لو قچغ؟

فيرد حسين:

- هذا قچغ . . و موجود بُطُل مستكي يم الويسكي!

- أفضل مستكي.

و ينهض عبد كولونيا لينشغل بإعداد كأس لشمران . . و يسأل حسين إبن أخته أحمد:

- شسويت على سفركم؟

- بمرحلة الإستعداد.

و يخاطب حسين مرهون مستفسرا:

- و إنت بعدك بمعسكر المنصورية؟

بسؤال حسين لمرهون . . خشي شمران أن يكون أحمد قد سرَّبَ لخاله بحسن نية أخبارا عن مرهون و ترتيبات فراره، فيتوجه الى أحمد

بنظرات يفهمها أحمد فورا، فيومئ برأسه نافيا . . و بلمحة خاطفة ينتبه شمران لحركة لافتة تثبان على وجه هاني عاضا على شفته السفلى حين يسمع مرهون يرد على حسين:

- لا و الله عمي حسين . . إنتقلت لمعسكر سعد . . حسين الجيراوي رتب النقل !

تمنى شمران إلا يردَّ إبن أخته بالتفصيلات التي باح بها، فقلِقَ من هذا التسريب و هو يسمع هاني يخاطب مرهون بنبرة خالها تشي بالكثير:

- لعد إنت هسه بالعسكرية؟

- بلي.

قاطعا الطريق على إستزادة بالحديث، بمحاولة لتغيير الموضوع، يخاطب شمران حسين:

- إي أبو علي! . . شلون أخباركم إنتو؟

و كأن حسين فهم سؤال شمران على وجهة لم تخطر ببال شمران . . ظنون حسين فسرت مجئ شمران الى البستان فضولا لمعرفة ما يدور، و حسن يعلم أن شائعات كثيرة راجت عند الناس عن سهرات البستان، فأجاب:

- أستاذ شمران . . ليالي العز مال هالبستان راحت . . ولّت! . . ولت حتى قبل ما يطلع المرحوم غايب من السجن . . چنه نجيب كاولية على الأقل بالشهر مرة . . و بظهور التكارتة و أهل العوجة بالساحة . . و ياهم العربان الباقين . . إستولو على كل الكاولية . . ثروة البلد صارت بيدهم . . يدفعون للكاولية عشرة أضعاف اللي چنه إحنه ندفعه . . هذا إذا مو عشرين ضعف أو خمسين ضعف . . چنه نجيب المطرب الريفي و يرضى بخمس دنانير . . زين إحنه هسه منين نجيب هلگد فلوس إذا ولد العوجة دا يدفعون للمطرب خمسين ضعف لليلة الوحدة؟ . . إنتَ حتما مثل باقي الناس . چنت تسمع

عـن ليالـي حمـراء بهالبسـتان . . النـاس چـانت حاطتنـه و شـايلتنه لأن چـنه نجيب گـرجية الكاولية . . و هسه أهل العوجة اللي حاكمين البلد رايحين جايين للكاولية أشو الناس ما تحطهم و تشيلهم! . . الناس چانت حاطتنه و شايلتنه . . و هو ما چان يجري أكثر من اللي داتشوفه هسه بعينك و وياه شوية غناء بالشهر مرة! . . هذ هي ليالينا الحمراء اللي چان راغب مسميهه للأصدقاء . . ليالي اللهيب و مخبلهم! . . و لعلمك . . بعد ما إنطاكم غايب عمره . . راغب تغيَّر مزاجه و قرر ما يجي للبستان . . گاللنا هو ما يگدر يشوف مكان غايب فارغ! . . و بقينه مداومين هنا آني و عبد كولونيا و هالعجمي إبن العجمي هاني ميرخان!

يبتسم الجميع للمزة حسين و هو يشير بيده نحو هاني ميرخان . . يلتفت شمران نحو هاني، فيجده ينكمش في مقعده و يزداد إنكماشا كلما طالت نظرة شمران إليه . . و سرعان ما أطلق ميرخان ضحكة موتورة كي يوهم الآخرين بأنه أخذ مغامزة حسين له كأنها مزحة . . و يتجرأ مرهون مخاطبا حسين:

- عمي حسين . . آني محتاجك بشغلة.

- أؤمرني . . إنت إبن العزيز غايب!

الفضول ينتاب شمران و هو يرى إبن أخته يفتح أزار قميصه و يخرج ظرفا، يُخرج منه صورة و يريها لحسين مستفسرا:

- عمي حسين . . ألف رحمة لأهلك . . هاذي الصورة لگيناهه بدولاب الوالد . . هذا المعگَّل اللي بالصورة منو؟ . . شيصير من الوالد؟ . . عندك معلومات عنه؟

يتطلع حسين في الصورة و يهز رأسه، ثم ينهض ليقترب من النافذة حيث نور فانوس اللوكس أقوى . . يتبحر بها لثوان و من مكانه عند النافذة، يرد:

- لا! . . ما أعرفه! . . بس آني أدري هاذي الصورة الفوتوغرافية

بالأصل رسمها خالك أمير القيرواني على حايط گهوة محمود جوير .. و بوقتهه أبوك أخذ علي مطر حتى يطگلهه هاي الصورة اللي بايدي .. و سألت غايب عن المعگَل اللي بيهه و ما جاوبني و تركت الموضوع .. ما أعرف أكثر من هذا!

حسين يعود الى مكانه ليرجع الصورة لمرهون .. و يسأل شمران:

- إي إستاذ شمران .. لا تگول إنتو شرفتوني بهالزيارة نص الليل بس حتى يسألني مرهون عن الصورة!

يتنحنح شمران، و يلتفت ناحية هاني ميرخان فرآه ينكمش أكثر، و يجيب:

- لا! .. طبعاً لا! .. مو بس علمود الصورة .. جيَّتنه بالأساس تتعلق بعض أمور غايب المالية .. مرهون يحتاج أجابات على بعض الإستفسارات.

- مثليش؟

و يشرع مرهون بالسؤال مخاطبا هاني ميرخان:

- أستاذ هاني .. إنت تتذكر لو ما تتذكر من جيتني بالمقبرة أثناء دفن الوالد .. لحگتني لجرف النهر .. و بوقتها گِلتلي على أساس أكو دين بذمتك للوالد .. و گِلتلي بوقتهه چان الوالد مسلّفَك مبلغ چبير؟

يتبلعم الكلام في حلق هاني .. يتنحنح و يرد:

- إي تمام .. و تتذكر لما فد يوم من أيام فاتحة المرحوم إنطيتك اللي بذمتي؟

- إي تمام .. و شگد إنطيتني؟

- ها؟ .. يمكن عشر دنانير!

- صحيح .. لكن أريد أسال .. و هي العشرة دنانير مبلغ چبير؟

- هذا هو اللي چان باقي بذمتي!

النظرات تدور متنقلة بين شمران و حسين گطمة و مرهون و هاني ميرخان . . واضحٌ لدى شمران بإن نظراته كلما راحت نحو ميرخان يزداد هذا إنكماشا و كأن بابا من جحيم تنفتح عليه . . و ها هو الموقف يهيئُ لحسين گطمة للأمساك ببعض خيوط أمر خفي . . فيقرر أن يتدخل سائلاً ميرخان:

- إسمع هاني . . آني حسب علمي إنت إشتريت سيارة رينو من معرض الجيراوي و چِنت محتاج مبلغ حتى يكمل ثمن السيارة . . و لأن غايب المرحوم هو صاحبنه هنا على الميز و چان أيضا يلتقي هناك بحكم عمله . . سلّفك مبلغ بفوائد قليلة . . و حسب ما سمعت منكم إنت كتبتله أربعين كمپيالة بالمعرض على أساس تدفع كل شهر كمبيالة بخمسة و عشرين دينار . . تمام؟

رد هاني بصوت راجف و جاف:

- تمام!

- و هذ الحچي چان گبل أربع أشهر . . تمام؟

- تمام!

- معنى ذلك . . إنت المفروض لحد هسه ما مسدد غير ثلاث كمبيالات . . يعني إنت لحد هسه مسدد بس خمسة و سبعين دينار من مجموع المبلغ . . تمام؟

- تمام!

- هسه . . أريد أعرف شوكت سدّدِت المبلغ الباقي . . اللي هو تسعمية و خمس و عشرين دينار؟ . . و إذا هي الكمبيالات كلهه مكتوبة بخمسة وعشرين دينار للكمبيالة . . هذي العشر دنانير شلون بقت و على يا أساس؟ . . و شنو دورها بالحساب؟

عينا شمران على هاني ميرخان و يراه ينكمش أكثر مع تغيير في سحنته و ملامحه ترافق كل إجابة منه على أسئلة حسين . . وجهه المتورد من الخمرة راح يفقع مع كل إنكماشة . . عينان واسعتان سوداوان يكاد البياض أن يختفي منهما و فوقهما حاجبان مقوسان رفيعان، و العين و الحاجب كلاهما مسحوبان عند الطرف الى أعلى . . الطبعة الفارسية للوجه الذي إعتاد الرسامون الإيرانيون تصوير قديسيهم الشيعة على تلاوينها. و يرد هاني متخبطاً:

- أبو علي . . هذا هو الحساب اللي چان باقي للمرحوم بذمتي!

حسين يبذل جهدا كي يصحو من سكره، فيستعدِلُ في قامته و هو جالس و ما يزال بعض السكر يخايله، فيخاطب ميرخان:

- إسمع هاني . . آني أعرف هذي چانت واحدة من عيوب غايب . . بس آني چِنت أگول عيب أتدخل بشغل صاحبي لأن هو دا يفض شغلات الناس . . و للأسف هذا اللي صار و جرى . . غايب چان يسلف إللي يسوى و إللي ما يسوى! . . و أنت واحد منهم . . فد واحد ما تسوى! . . و آني أدري إنت فد واحد وضيع!

و يظل شمران يراقب تحولات هاني ميرخان، مصغيا لحسين الذي يتنشق شهقات عميقة كي يزداد صحوا من سكره و يضيف:

- و لعلمك . . إحتمال هسه أستاذ شمران يستغرب و يسأل إذا حسين گطمة يعرف بهاني ميرخان وضيع . . ليش يقبل يستقبله و يسمحله يجي هنا للبستان؟ . آني أستقبل واحد وضيع مثلك هنا بالبستان حتى حضوره يذكرني بإستمرار خارج هاذي البستان هناك في بعگوبة أكو وضاعة . . و أكو دناءة . . و أكو جشع! . . و أكو خزاعل أشكال و أرناگ!

و بذكر حسين للخزاعل، يتذكر شمران بلحظة عابرة أبا ذر رفيق سجنه و وسيم الحسني الذي إلتقاه في ملعب الشعب بلحظة . . مصغيا الى حسين و تأثير الخمرة يتضاءل على نطقه للكلمات:

- و لعلمك . . و لأن آني مو غيري هو الشخص اللي إخترع لغايب هذي الشغلة . . أقصد شغلة تسليف الناس بفوائد رمزية . . إخترعتهه لغايب لما عباس رجل أختي إحتاج حتى يشتريِ هذي البستان اللي بصف بستاني و طلبت منه يسلف عباس . . آني هسه صار عندي تصور و أگدر أحزر اللي صار و اللي سويته إنت بغايب و بأهل غايب . . و آني أعرف إنت مو بس وضيع . . لأن الوضيع دائما رعديد . . إنت جبان و رعديد همين! . . و الدليل هو أنت لما تريد تجي هنا للبستان بالليل ما تجي بسيارتك اللي ساعدك المرحوم غايب حتى تشتريهه . . تتركهه هناك يم بيتكم و تجي و يه عبد!

الصمت مخيم على المكان لدرجة أن وشيش الفانوس اللوكس يصل الغرفة من خارجها و يقاطع الوشيش أحيانا بصوت بعيدٍ لنِباح كلاب و ضُباح واوية . . و ينهض حسين من مكانه و يخطو بإتجاه باب الغرفة . . يرا الجميع ينهض فيظنونه مغادرا الغرفة ربما لقضاء حاجة أو ليعبَّ بعضاً من هواء الليل، لكن ظنونهم تبددت بسماعهم حسين يضيف و هو يقطع خطواته نحو جدار باب الغرفة:

- . . و راح أثبت للجماعة هنا . . شلون إنت جبان و رعديد!

الكل يلتفت نحو حسين يراقبونه، و بهم فضول ليعرفوا كيف سيثبت حسين گطمة جبن هاني ميرخان . . و هاني لوحده لم يلتفت، و شمران يتفرج عليه فيراه يزداد إنكماشا، و قد طغت على وجهه إبتسامة إحتار شمران بتفسيرها، إذ قد تكون إبتسامته أي شئ إلا إبتسامة بلاهة . . و أمامهم جميعا يقترب حسين من جدار باب الغرفة، منتزعا بندقية الصيد من مكانها و راجعا بها بيده اليمنى . . و ها هو يقف قبالة هاني ميرخان، و يرفع البندقية واضعا فوهتها على صدغ هاني ميرخان، و مخاطبا إياه:

- . . هسه راح تجاوب على كل أسئلتي . . الأجوبة الحقيقية اللي أريدها مو الأجوبة الدغش . . مثل هذا الجواب مال العشر دنانير!

هول و خوف يرافق ظهور البندقية الموجهة الى صدغ ميرخان . . مرهون و أحمد و عبد كولونيا ينهضون متوجسين . . شمران لوحده يظل

جالسا محافظا على هدوئه و مشيرا في الوقت ذاته لمرهون و أحمد للجلوس . . و عبد كولونيا الواقف المتوفز خشية يتنقل بنظره بين هاني و صاحب البستان حامل البندقية . . و يستفسر حسين:

- هاني . . گوللي أول شي . . الكمبيالات اللي بذمتك لغايب وين راحت؟

و يعقب عبد كولونيا فورا متوسلا:

- عيني أستاذ هاني . . تعوذ من الشيطان و جاوب . . آني صار لي عشر سنين أجي لهذي البستان . . و بندقية الصيد هذي محطوطة على الحايط من ذاك الوقت . . و لا مرة شفت أحد يشلهه و يصوبهه على شي لأي سبب . . لا على بنيآدم و لا على طير و لا على حيوان! . . هذي أول مرة يشيلهه أبو علي من على الحايط و يصوبهه على شي . . و هذا معناه هو مو قصده يخوِّف بس . . قصده يضرب إذا ما راح تجاوب!

شمران يراقب هادئا . . يا للحكمة! . . تفسير صائب أتت به قريحة عبد كولونيا! . . و أنظر للناس يظنون بعبد كولونيا مجرد سائق تاكسي! . . و شمران هو أيضا من جانبه لم يحسب ما يقوم به حسين مجرد تهاويل سُكْرٍ . . بدى له الرجل بكامل صحوه و هو يوجه البندقية و يستجوب ميرخان و إن كانت رائحة الخمرة قد فاحت في المكان كله . . و أمرُ تصويب البندقية نحو صدغ ميرخان بتصور شمران لربما كان مردَّه يأسٌ من نوع ما يدفع حسين لإجتراح مأثرة من نوع ما، فواصل التفرُّجَ على هاني ميرخان يبلع ريقه بوجه إرتسمت عليه إبتسامة هي خليط من خوف و ذهول قبل أن يجيب:

- الجيراوي . . هو اللي إتصل بيّ . .

يسكت ميرخان، و يحثه حسين:

- كمِّل! . . چم كمبيالة؟ . . و شگد المبلغ؟

- سبعة و تلاثين كمبيالة . . تسعمية و خمسة عشرين دينار . .

- كمِّل!

- . . عرض عليّ الجيراوي إتفاق . . أكتب لأمره عشرين كمبيالة على خمسة و عشرين دينار . . يعني أسدد خمسمية دينار . . و بالمقابل كل الكمبيالات المكتوبة عليَّ لأمر غايب تِتشَگگ!

- و إنت قِبلتْ! . . قبلت تاكل حق أهل غايب اللي أكلت إنت من زاده مئات المرات و شربت بلاش آلاف من پيكات العرگ اللي چان يجيبه غايب! . . صادق اللي گال . . لو مو چلبنه منيوك ما چان يگدر الواوي يجي يخرا بالتبن! . . الجيراوي هو الواوي . . و إنت الچلب المنيوك!

-

- تف!

و يصل ما حملته البصقة القوية من تفال و بلغم الى وجه هاني فيتبعثر و يتَطرطَش على جبهته و خديه و حنكه، و لا يمسحه هاني. و دون أن تُرخي اليد الممسكة بالبندقية من عزمها، يواصل حسين:

- و هذي سالفة العشر دنانير اللي إنطيتهه لمرهون . . فكرتك لو فكرة الواوي؟

- الجيراوي . .

- الجيراوي! . . لأن آني أعرف و أسمع عن الجيراوي . . الجيراوي مو بس واوي! . . واوي و خزعل من النوع اللي ما يترك وراه أي شي . . ما يترك أي دليل! . . يگرط حتى العظام! . . إنت بالمقبرة چنت گايله مبلغ چبير . . هذي هي العشر دنانير مبلغ چبير؟ . .

- ......

- و بأي وقت صار إتفاقك و يه الواوي قبل دفن غايب لو بعده؟
- قبل الدفن.
- آنـي أدري الجيراوي مِتعوِّد يرَنـدِج الشـغل حـار بحـار! . . شـوكت صـار عنـده وقـت حتـى يرتـب الأمـور هـچـي و بهالطريقة؟

و يعقب مرهون موضحا:

- عمـي حسـين . . حسـب مـا عرفـت مـن الجيـراوي . . الحـادث چـان يـوم خميـس . . و جثـة الوالـد باتـت بالمشـرحة مـال الفلوجـة ليلتيـن و مـا جابوهـه غيـر يـوم السـبت . . إلـى أن جانـي الجيـراوي لمعسـكر المنصوريـة!

و يعقب حسين مستغربا:

- جاك بنفسه؟
- بلـي . . و هسـه ممكـن أسـتنتج ليش اصـر الجيـراوي علـى روحـة عمـي عصمـان ويانـه للفلوجـة؟

و يستفسر شمران:

- ليش؟
- حتى يصير شاهد زور لأن عمي عصمان فد واحد ملوَّگ!

البندقيـة مـا تـزال بيـد حسـين موجهـة لصـدغ ميرخـان، و يضيـف مخاطبـا مرهـون:

- واضـح . . شـغل مرَنـدَج . . و يشهّـد شـاهد مـن أهلهـه! . . شهّـد عمك هذا عصمـان الخايس؟
- هذا اللي صار!

- بس تظل شغلة العشر دنانير .. هذي هي اللي محيرتني! .. ليش گـَلله لهذا العجمي ينطيك عشر دنانير مو خمسة و عشرين مثلا!

و يستطرد مخاطبا هاني:

- نذل! .. باچر تجي هنا العصر .. عبد يجيبك .. و أمامي راح تكتب سبعة و تلاثين كمپيالة لأمر مرهون غايب مرهون .. و إلا! .. گوم إطلع! .. ولـّي!

و يطلب حسين من عبد كولونيا:

- گوم عبد .. طلـّع هذا الـچلب المنيوك من هالمكان!

و شمران لا تفارق نظراته هاني ينهض و نظراته التي لا تفارق مرهون تشي بإبتسامة صفراء مريبة .. فينلسع قلب شمران.

و ها هي تتكشف لشمران و مرهون و أحمد الطريقة التي سطى بها الجيراوي على موجودات غايب في دولاب الخان كاملة مثلما سطى على الموجودات في جيب غايب اثناء الحادث .. و سيحكون لحسين گـطمة مع الدولاب، فيعلق:

- شغلة العشر دنانير هي اللي كشفت دين هذا العجمي الوسخ هاني ميرخان ..

فيعقب شمران:

- بس هذي سالفة العشر دنانير شلون راح نـگدر نفسرهه؟

و يعلق أحمد:

- غلطة شاطر؟

و يعقب شمران:

- إحتمال! .. بس أبو علي بحسب وصفك للجيراوي و حسب معرفتي

عنـه . . هـو معتـاد يرنـدج شـغله حـار بحـار . . و مثـل مـا وصفتـه إنـت خزعـل مـن النـوع اللـي مـا يتـرك أثـر مـن الفريسـة حتـى العظـام يـگـرطهه! معقولـة يتـرك هيچـي أثـر مثـل شـغلة العشـر دنانيـر حتـى يدلّـي عليـه؟

يعقب مرهون:

- حزورة . . و منو اللي راح يحزرهه!

و يقول حسين محتارا:

- و شـنو و منـو اللـي راح يكشـفلكم ديـون غايـب عنـد النـاس . . و حسـب مـا سـمعت منكـم . . كلشـي ضـاع . . بـس آنـي اللـي محيرنـي موضـوع واحـد بس و مـا گـدرت أحـچـي ويـه غايـب عنـه!

يسأل مرهون:

- عمي حسين . . شنو هذا الموضوع؟

- شـنو اللـي خلـه غايـب يـروح و يشـتغل ويـه الجيـراوي؟ . . هـذا اللـي محيرنـي!

- * * * * *   * * * * *   * * * * *

يعـود عبـد كولونيـا بعـد سـاعة ليأخـذ شـمران و مرهـون و أحمـد الـى البيـت، و قبـل مغادرتـه ليأخـذ ضيـوف حسـين الـى بعقوبـة، تنـاول عبـد كولونيـا بندقيـة الصيـد الملقـاة علـى واحـد مـن كراسـي الجريـد ليأخذهـا معـه، فيستفسـر حسـين منـه:

- عبد . . هاي وين رايح بالتفـگـة؟

- آخذهه ويايه للبيت تبقي عندي چـم يوم!

مهلة تفكير . . و يعلق حسين مستغربا:

- تتوقع أن يطلع هذي العجمي هاني لهالدرجة خايس و وضيع!

يرد عبد:

- مو يگولون أبو گروة ينكشف بمعبر الشط . . باچر معبر الشط . . آخذ التفگة ويايه للبيت . . و ننتظر و نشوف!

- * * * * * * * * * * * * * * *

شمران لن ينام ليلته تلك . . لا يفارقه وجه هاني ميرخان بإبتسامته الصفراء مطرطشا بتفال حسين گطمة!

* * * * * * * * * * * * * * *

صباح اليوم التالي يذهب مرهون لدوامه جنديا في معسكر سعد . . يتأخر في رجوعه الى البيت . . في وقت متأخر مساءً يذهب صهره أحمد الى المعسكر للإستفسار، فيخبرونه بمجيئ سيارة للإستخبارات العسكرية من بغداد، إقتادت مرهون قبيل الظهر الى جهة مجهولة . . يعود أحمد بالخبر الى شمران الأحمدي . . شمران ينتحب لوحده لمدة ساعة و قلبه يعتصره موتا . . و يحمل نفسه الكسيرة متوجها الى شقيقته أميرة الأحمدي ليسرب لها خبر إبنها، فتصرخ:

- يمــــــــــه! . . راح وليدي!

في هذه الإثناء مساء . . كانت ثلة من رجال الشرطة يقودها ضابط الشرطة ناجي الشهربنلي تقتحم بستان حسين گطمة لتتحرى عن سلاح غير مرخص.

* * * * * * * * * * * * * * *

و غاب مرهون غايب مرهون العربنچي في المجهول دون وداع . . دون قبلات . . دون وليف . . و بعد ثلاثة شهور سيحصل أحمد عباس شحاذة على قبول في بريطانيا و يسافر مصطحبا معه زوجته نرجس غايب مرهون . . بعد شهر من سفرهما سيصدر حكما بالإعدام على الجندي

المكلف مرهون غايب مرهون بتهمة تشكيل خلايا شيوعية في الجيش . . و بمضي سنة سترد الى أميرة الأحمدي أول رسالة من إبنتها نرجس تحمل طابعاً يونانيا . . و في حينها يكون قد مضى أسبوعان على إعدام إبنها مرهون . .

الحياة لا تَهِبُ فرصة أخرى . . و لا توفر فرصةً إعادةِ البدءِ من الصفر . . من لاشئ!

راح الولد! . . إنتَقَلَ ملك كازينو أم كلثوم!

*****　　*****　　*****

إنتهى الكتاب الأول من **ثلاثية بعقوبة** . . و يليه الكتاب الثاني

(٢) الحبُ لهُ قرابين

العرفان بالجميل من آداب الكتابة . .

شكري و تقديري للباحثة الأكاديمية و المترجمة المرموقة الست غيداء علي الفيصل و لصديقي الشاعر و المترجم ماجد الحيدر لما تجشماه من عناء المراجعة اللغوية للكتاب.

المؤلف

عن المؤلف

١- حاصل على شهادة الماجستير في التربية/ طرائق تدريس الإنگليزية/جامعة ديالى
٢- حاصل على الدبلوم العالي (المعادل للماجستير) في الترجمة/ جامعة بغداد
٣- حاصل على بكالوريوس في اللغة الإنگليزية و آدابها/ جامعة بغداد

• صدر له في الترجمة:
١- "علم الجمال عند الفيلسوف إيمانويل كانت" (في فلسفة علم الجمال/مترجم الى العربية)/ دار الشؤون الثقافية- بغداد
٢- "شعراء و قصائد من الشعر الإنكليزي" (مترجم الى العربية)/ دار الشؤون الثقافية- بغداد

٣- محاكاة جديدة: شكسبير و تمثله للواقع" (في النقد الأدبي/ مترجم الى العربية)/ بيت الحكمة- بغداد
٤- رواية (Gulstan And Night) (رواية كوردية قصيرة/ مترجمة الى الإنكليزية بالإشتراك مع المترجمة و الأكاديمية غيداء الفيصل)/ إتحاد الأدباء الكورد- المركز العام- أربيل

- في الإعداد و التحرير
- صدر له:

An Approach to English Literature Appreciation (كتاب مدرسي لطلبة الجامعة)/جامعة نوروز- مطبعة هوار- دهوك

High Romantic & Victorian Poetry Appreciation (كتاب مدرسي لطلبة الجامعة) /جامعة نوروز- مطبعة هوار- دهوك

- و سيصدر له

An Introduction to Commercial Correspondence (كتاب مدرسي لطلبة الجامعة)

- عدا روايته "ثلاثية بعقوبة . . بعقوبيّون»، في فن السرد سيصدر للكاتب:

١- "ثلاثية بعقوبة . . الحب له قرابين" (رواية- معدة للنشر)
٢- "ثلاثية بعقوبة . . لوعة الصبايا" (رواية- قيد المراجعة)
٣- "بلاد قَرَضُمَينيستان" (رواية- معدة للنشر)
٤- "خماسية السُخط . . قبلة الحصان الخشبي" (رواية معدة للنشر)
٥- "خماسية السُخط . . و صدقت جدتي"(رواية معدة للنشر)
٦- "خماسية السُخط . . و يصحُّ ما تقوله الجدات" (رواية معدة للنشر)
٧- "خماسية السُخط . . الحزن لا يغسله الموج" (رواية قيد المراجعة)
٨- "خماسية السُخط . . خلاف الوعد" (رواية قيد المراجعة)

- من الكتب المترجمة معد للنشر:

١- "الجنس الأدبي" (كتاب قيد النشر في بيت الحكمة)
٢- "البنية التحتية لوزارات الزراعة في خمسة بلدان" (كتاب

في علم الإدارة- معد للنشر)

٣- "المياه العابرة للحدود و تركيا" (كتاب يتناول مشكلة المياه في الشرق الأوسط- معد للنشر)

الموقع الشخصي على الإنترنيت: http://ahmedkhalishalan.blogspot.com

البريد الأكتروني: a_kh_shalan@yahoo.com



Outlook
Part 1 of
The Ba'qubah Trilogy ..
Ba'qubians
A novel by Ahmed Khalis Al-Sha'lan

الجزء الأول من

ثلاثية بعقوبة .. بعقوبيّون

رواية أحمد خالص الشعلان

لا أحد يحتفظ بذاكرة مثالية! ..

يقول فردريك هيغلٍ ... «التاريخُ أغلبُهُ ظنّ و ما تبَقّى هو مِنْ إملاء الهوى» هذه الرواية تَسجيل لحِقبة أربعة عقود من تاريخ مدينةِ بعقوبة.. الأحداث أغلبَهَا ظَنّ و لا بد إذن أن يغدوَ ما تبَقّى هَوَىً تُمليه ضروراتِ الفنِ .. شخوصُ الرواية كُلُهمُ تقريباً حَقيقيّونِ بتركيبةٍ سيمائيةِ سردية .. بَعضُهُم ظَهَرَ بإِسْمه الحَقيقيّ الصريح، وآخرونَ حُرِفَتْ أسماؤُهُم تأدّباً! .. و إذا وقع حافر على حافرٍ في تسميات بعضِ شخوص الرواية و ألقابهم بمثيل لها في الواقع، فهو من نسج الخيال!

لربما سيرتأي بعض المعنيين بالسرد لو أن حجم السرد و مفارقات الثيمة في هذا الكتاب جعلَت روايتين في كتابين مستقلين! .. و بأمانة أقول إني مهما حاولت أخفقتَ في مسعاي لفصل بنية الكتاب الى روايتين بسبب التلازم و التداخل في الثيمات و الشخوص .. فجاء الكتاب تحديا للقارئ الفطِن الصبور! ..

و لمُتعَةِ القراءة، خُذو ما يَجرِيَ في هذه الرواية الطويلة على أنه ظَنٌ وَ هَوَى!

المؤلف

لوحة الغلاف الأول للفنان علاء ميري

دار العودة - بيروت





التصميم : كفاح عبد الجبار